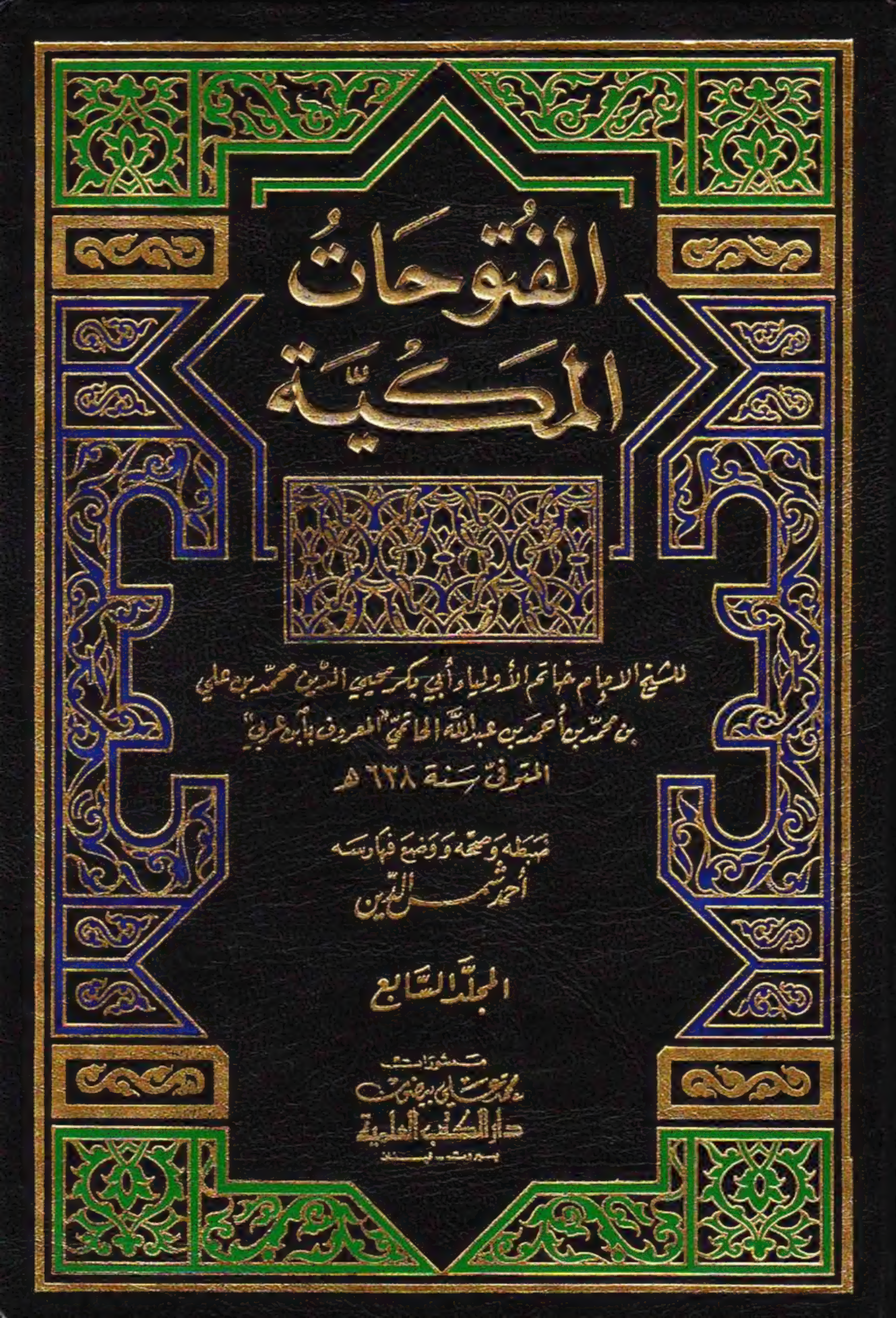

الفتوحات المكية
للشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين محمد بن علي
بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي المعروف بابن عربي
المتوفى سنة ٦٣٨ هـ
ضبطه وصححه ووضع فهارسه
أحمد شمس الدين
المجلد السابع
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الفتوحات المكية

تأليف

الشيخ الإمام خاتم الأولياء أبي بكر محيي الدين

محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي

المعروف بابن عربي

المتوفى سنة ٦٣٨هـ

ضبطه وصححه ووضع فهارسه

أحمد شمس الدين

الجزء السابع

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الحادي وأربعمائة

في معرفة منازلة الميت والحي ليس له إلى رؤيتي من سبيل

[السريع]

قَدِ اسْتَوَى المَيْتُ والحَيُّ — في كونهم ما عندَهم شَيُّ
مني فلا نُورٌ ولا ظُلْمة — فيهم ولا ظِلٌّ ولا فَيُّ
رؤيتهم إليّ معدومة — فنَشْرُهُمْ في كَوْنِهَا طَيُّ
وفهمهم إن كان معناهم — عنه إذا حَقَّقْتَه عَيُّ

قال الله عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقال عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] وكل مرئيّ لا يرى الرائي إذا رآه منه إلاّ قدر منزلته ورتبته فما رآه وما رأى إلاّ نفسه. ولولا ذلك ما تفاضلت الرؤية في الرائين، إذ لو كان هو المرئي ما اختلفوا، لكن لما كان هو مجلى رؤيتهم أنفسهم لذلك وصفوه بأنه يتجلى وأنه يرى، ولكن شغل الرائي برؤيته نفسه في مجلى الحق حجبه عن رؤية الحق، فلذلك لو لم تبد للرائي صورته أو صورة كون من الأكوان ربما كان يراه، فما حجبنا عنه إلا أنفسنا فلو زلنا عنا ما رأيناه لأنه ما كان يبقى، ثم بزوالنا من يراه وإن نحن لم نزل فما نرى إلا أنفسنا فيه وصورنا وقدرنا ومنزلتنا فعلى كل حال ما رأيناه، وقد نتوسع فنقول: قد رأيناه ونصدق، كما أنه لو قلنا رأينا الإنسان صدقنا في أن نقول رأينا من مضى من الناس ومن بقي ومن في زماننا من كونهم إنساناً لا من حيث شخصية كل إنسان. ولما كان العالم أجمعه وآحاده على صورة حق ورأينا الحق فقد رأينا وصدقنا وإن نظرنا إلى عين التمييز في عين عين لم نصدق، وأما قوله ﷺ في حديث الدجّال ودعواه أنه إلّه فعهد إلينا رسول الله ﷺ أن أحدنا لا يرى ربّه حتى يموت لأن الغطاء لا ينكشف عن البصر إلا بالموت، والبصر من العبد هوية الحق، فعينك غطاء على بصر الحق، فبصر الحق أدرك الحق ورآه لا أنت فإن الله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولا ألطف من هوية تكون عين بصر العبد وبصر العبد لا يدرك الله، وليس في القوّة أن يفصل بين البصرين، والخبير علم الذوق فهو العليم خبرة أنه بصر العبد في بصر العبد، وكذا هو الأمر في نفسه وإن كان حياً فقد استوى الميت والحيّ في كون الحق تعالى بصرهما وما عندهما شيء، فإن الله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] [مجزوء الرجز]:

فكلّ سَمْع وبَصَر هويّةُ الحَقّ وقَدْ
فانظرْ إذا أبْصَرْتَ مَنْ تُبْصِرُهُ وتر العَدَدْ
وكُنْ به معترفاً في كل غيّ ورَشَدْ

الباب الثاني وأربعمائة

في معرفة منازلة «من غالبني غلبته ومن غالبته غلبني»، فالجنوح إلى السلم أولى

[البسيط]

من غَالَبَ الحَقَّ ما يَنْفَكُّ ذا نَصَبِ ولا يزال مع الأنفاسِ في تَعَبِ
فاجْنَحْ إلى السَّلْم لا تَجْنَحْ إلى الحَرْبِ وإنْ تُحَارِبْ فخَيْلُ الله في الطّلَبِ
إنّي نصحتُكَ فاسمعْ ما أفُوهُ به إنّ الهلاكَيْنِ مقرونان بالحَربِ
فاحْذَرْ فَدَيْتُكَ أفلاكاً تدور بما لا ترتضيه وخَفْ مَصارعَ النُّوَبِ
لو جاءك الملأُ العُلْوِيُّ مبتلياً بالحَرْب سَلِّمْ له وجِدَّ في الهَرَبِ
وانزعْ إليه وقل يا منتهى أملي ألستَ تعلم أن العِزَّ في الحجبِ

قال الله عز وجل: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]. اعلم أنه قد تقرر عند أصحاب الأفكار أن لله صفات وأسماء لها مراتب وللعبد التخلق والتحلي بها على حد مخصوص ونعت منصوص عليه وحال معين، إذا تعدى ذلك العبد كان للحق منازعاً واستحق الإقصاء والطرد عن القرب السعادي كما ورد في قوله تعالى: «**الكِبْرِياءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إزارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ**»، وللعبد صفات وأسماء تليق به، وقد داخله الحق في الاتصاف بها مما تحيله العقول، ولكن وردت به الشرائع ووجب الإيمان بها، فلا يقال كيف مع إطلاقها عليه قربة وإيماناً من لم يقل بها وأنكرها فقد كفر ومرق من الإسلام، ومن تأوّلها كان على قدم الغرور، فلا نعلم نسبتها إلى الله إلا بإعلام الله، وكذلك كل اسم تحلينا به من أسمائه أيضاً مجهول النسبة إليه عندنا إلا أن يعلمنا الله فنعلم ذلك بإعلامه، فالكل على السواء ما لنا وما له، فلما عين ما عين له وتحلينا به سمى ذلك مغالبة منا للحق، ولما عين ما عين لنا واتصف به سمى ذلك مغالبة من الحق، وموضع الجنوح إلى السلم من هذا الأمر هو أن ترد الكل إليه فما أعطانا من ذلك ولو أعطانا الكل قبلناه على جهة الإنعام.

واعلم أن سبب المنازعة والمغالبة أمران: الاستخلاف الذي هو الإمامة والخلق على الصورة، فلا بد للخليفة أن يظهر بكل صورة يظهر بها من استخلفه، فلا بد من إحاطة الخليفة بجميع الأسماء والصفات الإلهية التي يطلبها العالم الذي ولاه عليه الحق سبحانه، ولما اقتضى الأمر ذلك أنزل أمراً منه إليه سماه شرعاً بيّن فيه مصارف هذه الأسماء والصفات الإلهية التي لا بدّ للخليفة من الظهور بها وعهد إليه بها، فكل نائب في العالم فله الظهور بجميع الأسماء، ومن النوّاب من أخذ المرتبة بنفسه من غير عهد إلهي إليه بها وقام

بالعدل في الرعايا واستند إلى الحق في ذلك، كملوك زماننا اليوم مع الخليفة فمنهم السمع والطاعة فيما يوافق أغراضهم وما لا يوافق فهم فيه كما هو في أصل توليتهم ابتداء، ومنهم من لا يعمل بمكارم الأخلاق ولا يمشي بالعدل في رعيته، فذلك هو المنازع لحدود مكارم الأخلاق والمغالب لجناب الحق في مغالبته رسل الله كفرعون صاحب موسى عليه السلام وأمثاله، والحق له الاقتدار التام، لكن من نعوته الإمهال والحلم والتراخي بالمؤاخذة لا الإهمال، فإذا أخذ لم يفلت وزمان عمر الحياة الدنيا زمان الصلح واستدراك الفائت والجبر بمن قام بمصالح الأمور المرضية عند الله تعالى المسماة خيراً الموافقة لما نزلت بها الشرائع، غير أن هذا الإمام لم يتصف بها من حيث ما شرعت ولا من حيث ما أوصى الحق بها، ولكن اتصف بها لكونها مكارم أخلاق عرفية عرف الحق قدرها وأثنى على من اتصف بها، كما قال ﷺ في تاريخ ميلاده عن كسرى وهو من جملة النوّاب الملوك قال: **«وَلدتُ في زمانِ المَلكِ العَادِلِ»** فسماه ملكاً ووصفه بالعدل وإن كان فيه على غير شرع منزل فهو صفة مرعية عند الله وسماهم ملوكاً، وإن كان الحق ما استخلفهم بالخطاب الإلهي على الكشف لكنهم نوّابه من وراء الحجاب، فإذا ظهروا بصفات ما ينبغي للملك أن يظهر بها ولم يوافق بها المصارف الإلهية التي شرعها الحق بألسنة الرسل نعت ذلك بالمنازع والمغالب، فمهما ظهر كانت الغلبة له، ومهما ظهر عليه كانت الغلبة للحق، فكان الحرب سجالاً له وعليه، وصورة السلم موافقة الحق في المصارف من غير اتباع، وهذا كله فيمن قام في الملك بنفسه. وأما ولاة الحق من الرسل فليس إلا العدل المحض ولا نتصوّر منازعة من أولئك صلوات الله عليهم. وأما الأئمة الذي استنابهم الله واستخلفهم بتقديم الرسل إياهم على القيام بما شرع في عباده من الأحكام فهم على قسمين: قسم يعدلون بصورة حق ولا يتعدون ما شرع لهم، والقسم الآخر قائلون بما شرع لهم غير أنهم لم يرجعوا ما دعوا إليه في المصارف التي دعاهم الحق إليها وجاروا عن الحق في ذلك وعلموا أنهم جائرون قاسطون، فهم من حيث الصورة الظاهرة مغالبون ومنازعون فيمهلهم الله لعلهم يرجعون، ففي زمان ذلك الإمهال تظهر الغلبة لهم على الحق المشروع الذي يرضي من استخلفهم، وفي وقت تكون الغلبة للحق عليهم بإقامة منازع في مقابلته يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وإذا ظهر هذا فقد أوجب الحق على عباده القتال معه والقيام في حقه ونصرته والأخذ على يد الجائر، ولا يزال الأمر على ما قلناه حتى يأتي أمر الله وتنفذ الكلمة الحق ويتوحد الأمر وتعم الرحمة ويرجع الأمر كله إليه كما كان أوّل مرة، ويرتفع بعض النسب ويبقى بعضها بحسب المحل والدار والنشأة التي تصير فيها وإليها، فإن للزمان حكماً، وللمكان حكماً، وللحال حكماً ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] فتزول المغالبة والمنازعة، ويبقى الصلح والسلم في دار السلام إلى أبد لا ينقضي أمده بأزل لا يعينه أبده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. [البسيط]:

إنّ الخَلِيفَةَ من كانت إمامَتُهُ ... من صُورة الحَقّ والأسما تُعضِدُهُ
ليس الخليفةُ من قامت أدِلَّتُهُ ... من الهَوَى وهَوَى الأهواء يَقْصِدُهُ
له التَّقَدُّمُ بالمعنى وليس له ... توقيعُ حَقّ ولا شَرْعٌ يؤيِّدُهُ
فيدّعي الحَقَّ والأسيافُ تَعْضُدُهُ ... وَهوَ الكَذُوبُ ونجمُ الحَقّ يَرْصُدُهُ

الباب الثالث وأربعمائة

في معرفة منازلة لا حجة لي على عبيدي ما قلت لأحد منهم لم عملت إلا قال لي: أنت عملت

وقال الحق ولكن السابقة أسبق بلا شك فلا تبديل: [الطويل]

إذا كُنتُ حَقّاً فالمقالُ مقالتي ... وإن لم أكُنْ فالقولُ قولُ المُنازِعِ
ليَ الحُجّةُ البيضاء في كل موطن ... به فهي تبدو في قريب وشاسعِ
ولمّا دعاني للحديث مُسَامِراً ... تَجَافَتْ جُنُوبي رغبةً عن مَضَاجعي
فقال لنا أهلاً بأكْرَم سامرٍ ... بَعيدٍ عن الأكْفَاءِ للكلّ جامع
فقلت له لولاك ما كنتُ جامعاً ... لحقّ وخلق ثم فاضت مدامعي
فقال أتبكي قلت دَمْعُ مَسَرَّةٍ ... لما مُلِئَتْ مما تقول مسامعي

قال الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] اعلم أن الكريم هو الذي يترك ماله ويؤدّي ما أوجبه على نفسه من الحقوق كرماً منه قبل أن يسألها، ثم أنه يمنع وقتاً ويطالب وقتاً لتظهر بذلك منزلة الشافع عنده في مثل هذا وكرمه بالسائل فيما سأله فيه بإجابته، وعبيد الله عبدان: عبد ليس للشيطان عليه سلطان وهو عبد الاختصاص وهو الذي لا ينطق إلا بالله ولا يسمع إلا بالله فالحجة لله لا له ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فإنها حجة الله. ومِن عبيد الاختصاص من ينطق عن الله ويسمع من الله فهذا أيضاً من أهل الحجة البالغة لأنه ﴿ما يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] فهو تعالى السائل والمجيب وأما عبد العموم فهو الذي قال عنهم لرسول الله ﷺ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فما خص عبيداً من عبيد وأضافهم إليه، وقوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ [الزمر: ٥٣] فأضافهم إليه مع كونهم مسرفين على الإطلاق في الإسراف ونهاهم أن يقنطوا من رحمة الله، وهذا وأمثاله أطمع إبليس في رحمة الله من عين المنة، ولو قنط من رحمة الله لزاد إلى عصيانه عصياناً، وأخبر الله عنه في إسرافه أنه يعدنا الفقر ويأمرنا بالفحشاء ليجعل فضله تعالى في مقابلة ما وعد به الشيطان من الفقر الذي هو به مأمور في قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤] فهو مصدق لله فيما أخبر به عنه ممتثل أمر الله بشبهة في أمره في قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ وجعل مغفرته في مقابلة الفحشاء والأمر بالفحشاء من الفحشاء، فدخل تحت وعد الحق بالمغفرة فزاده طمعاً وإن كانت دار النار مسكنه لأنه من أهلها، وإن حارت عليه أوزار من اتبعه ممن هو من أهل النار فما حمل إلا ما هو منقطع بالغ إلى أجل،

وفضل الله لا انقطاع له لأنه خارج عن الجزاء الوفاق، ورحمة الله لا تخص محلاً من محل ولا داراً من دار بل وسعت كل شيء، فدار الرحمة هي دار الوجود، وهؤلاء العبيد المذكورون ذكرهم الله بالإضافة إليه، والإضافة إليه تشريف، فجمع في الإضافة بين العبيد الذين أسرفوا على أنفسهم الذين نهاهم سبحانه أن يقنطوا من رحمة الله وبشرهم أنه يغفر الذنوب جميعاً ولم يعين وقتاً، فقد تكون المغفرة سابقة لبعض العبيد لاحقة لبعض العبيد، وبين العبيد الذين ليس للشيطان عليهم سلطان [الطويل]:

فما ثَمَّ إلا عَبْدُهُ وهو رَبُّهُ ... وما ثَمَّ إلا راحمٌ ورحيمُ

أراد بالرحيم هنا المرحوم اسم مفعول مثل قتيل وجريح وطريد و﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ٦٤] وهي أعيان العالم وإنما التبديل لله لا لهم ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦] وفي قراءة ﴿أو ننساها﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: ٧٠] ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١١] وهي ما بشرنا به من عموم مغفرته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ [البقرة: ٢١١] فمن هنا وإن كانت شرطاً ففيها رائحة الاستفهام، وقال في الجواب: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١] ولم يقل فإن الله يعاقب من بدل نعمة الله فهو كما قال: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في حال العقوبة فما ثم من يقدر ﴿يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ فيبدل نعمة الله بما هو خير منها بحسب حاجة الوقت فإن الحكم له أو مثلها والنسخ تبديل لا بدا، ثم إنه القائل: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي خَيْراً**» فمن لم يظنّ بالله خيراً فقد عصى أمره وجهل ربه وأشقى من إبليس فلا يكون، وقد أخبر الله تعالى عنه أنه يتبرأ من الكافر ووصفه بالخوف لله رب العالمين، وقد ذكر تعال أنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨] وأتم هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي يمتنع أن يؤثر فيه أمر يحول بينه وبين عموم مغفرته على عباده ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] ببنية مبالغة في الغفران بعمومها فهي رجاء مطلق للعصاة على طبقاتهم، وقوله فيمن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته أنه شديد العقاب أي يسرع تعالى إلى من هذه صفته بالعقاب وهو أن يعقبه فيما بدله أن التبديل لله عز وجل ليس له فيعرّفه أنه ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣] فإن الله ما قرن بهذا العقاب ألماً ومتى لم يقرن الألم بعذاب أو عقاب فله محمل في عين الأمر المؤلم فإنه لا يخاف إلا من الألم، ولا يرغب إلا في الالتذاذ خاصة، هذا يقتضيه الطبع الذي وجد عليه من يقبل الألم واللذة، وقد أعطى الله لعبيده في القرآن من الاحتجاج ما لا يحصى كثرة كل ذلك تعليم من الله، فلو كان الشقاء يستأصل الشقيّ ما بسط الله لعباده من الرحمة ما بسط ولا ذكر من الحجج ما ذكره وهو قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] ولا يعظم الفضل الإلهي إلا في المسرفين والمجرمين، وأما في المحسنين ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة: ٩١] فإن الفضل الإلهي جاءهم ابتداءً وبه كانوا محسنين وما بقي الفضل الإلهي إلا في غير المحسنين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب الرابع وأربعمائة

في معرفة منازلة من شق على رعيته سعى في هلاك ملكه ومن رفق بهم بقي ملكاً. كل سيد قتل عبداً من عبيده فإنما قتل سيادة من سياداته إلا أنا فانظره

[البسيط]

حُكْمُ الإضافة يُبْقِيهِ ويُبْقِينا ... وتلك حكمتُه سبحانَه فينَا

لولا العبيدُ لما كانت سيادةُ مَنْ ... سَادَ العِبَادَ ولا كانوا مواليِنَا

قد قال في خَلَدِي ما كان مُعْتَقَدي ... عند النداء كما كُنّا يكونونا

ما يعدم الحقّ موجوداً لزلّتِهِ ... وكيف يعدم من فيه يُوالينا

بكونه كان خلاّقاً وليس له ... في نفسه أثرٌ ولا يُبَارينا

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] لم يقل رب نفسه لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه، فهذه وصية إلّهية لعباده لما خلقهم على صورته وأعطى من أعطى منهم الإمامة الكبرى والدنيا وما بينهما وذلك قوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**». فأعلى الرعاء الإمامة الكبرى وأدناها إمامة الإنسان على جوارحه، وما بينهما ممن له الإمامة على أهله وولده وتلامذته ومماليكه فما من إنسان إلا وهو مخلوق على الصورة، ولهذا عمّت الإمامة جميع الأناسي، والحكم في الكل واحد من حيث ما هو إمام، والملك يتسع ويضيق كما قررنا، فالإمام مراقب أحوال مماليكه مع الأنفاس، وهذا هو الإمام الذي عرف قدر ما ولاه الله عليه وقدّمه، كل ذلك ليعلم أن الله رقيب عليه وهو الذي استخلفه، ثم نبهه على أمر لو عقل عن الله وذلك أن السيد إذا نقصه عين أو حال ممن ساد عليه فإنه قد نقص من سيادته بقدر ذلك وعزل بقدر ذلك، كمن أعتق شقصاً له في عبد فقد عتق من العبد ما عتق ولم يسر العتق في العبد كله إلا أن يعتق كله، كذلك الإمام إن غفل بلهوه وشأنه وشارك رعيته فيما هم عليه من فنون اللذات ونيل الشهوات ولم ينظر من أحوال ما هو مأمور بالنظر في أحواله من رعاياه فقد عزل نفسه بفعله ورمت به المرتبة، وبقي عليه السؤال من الله والوبال والخيبة وفقد الرياسة والسيادة، وحرمه الله خيرها وندم حيث لم ينفعه الندم، فإنه لو لم يُسأل عن ذلك وترك وشأنه لكان بعض شيء إلا الحق فإنه لا ينقص عنه من ملكه شيء، فإن عبده إذا مات من الحياة الدنيا انتقل إليه في البرزخ فبقي حكم السيادة لله عليه، بخلاف الإنسان إذا مات عبده ماتت سيادته التي كان بها سيداً عليه، فهذا الفرق بيننا وبين الحق في الربوبية، قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»، فالعالم من علم الرفق والرفيق والمرفوق، فما من إنسان إلا وهو رفيق مرفوق به، فهو مملوك من وجه مالك من وجه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ليتخذ بعضكم بعضاً سخرياً والله ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥] فنحن له كما هو لنا، وكما نحن لنا فنحن لنا وله وهو لنا لا له.

وليس في هذا الباب أشكل من إضافة العلم الإلهي إلى المعلومات، ولا القدرة إلى

المقدورات، ولا الإرادة إلى المرادات لحدوث التعلق، أعني تعلق كل صفة بمتعلقها من حيث العالم والقادر والمريد، فإن المعلومات والمقدورات والمرادات لا نهاية لها فهو يحيط علماً بأنها لا تتناهى.

ولما كان الأمر على ما أشرنا إليه وعثر على ذلك من عثر عليه من المتكلمين قال بالاسترسال وعبر آخر بحدوث التعلق، وقال الله في هذا المقام: «حتى نعلم»، وأنكر بعض العلماء من القدماء تعلق العلم الإلهي بالتفصيل لعدم التناهي في ذلك وكونه غير داخل في الوجود، فيعلم التفصيل من حيث ما هو تفصيل في أمر ما لا في كذا على التعيين، واضطربت العقول فيه لاضطراب أفكارها، ورفع الإشكال في هذه المسألة عندنا أهل الكشف والوجود والإلقاء الإلهي أن العلم نسبة بين العالم والمعلومات، وما ثمّ إلا ذات الحق وهي عين وجوده وليس لوجوده مفتتح ولا منتهى فيكون له طرف والمعلومات متعلق وجوده، فتعلق ما لا يتناهى وجوداً بما لا يتناهى معلوماً ومقدوراً ومراداً فتفطن فإنه أمر دقيق، فإن الحق عين وجوده لا يتصف بالدخول في الوجود فيتناهى فإنه كل ما دخل في الوجود فهو متناه، والبارىء هو عين الوجود ما هو داخل في الوجود لأنّ وجوده عين ماهيته، وما سوى الحق فمنه ما دخل في الوجود فتناهى بدخوله في الوجود، ومنه ما لم يدخل في الوجود فلا يتصف بالتناهي فتحقق ما نبهتك عليه فإنك ما تجده في غير هذا الموضع، وعلى هذا تأخذ المقدورات والمرادات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس وأربعمائة

في معرفة منازلة من جعل قلبه بيتي وأخلاه من غيري ما يدري أحد ما أعطيه فلا تشبهوه بالبيت المعمور فإنه بيت ملائكتي لا بيتي ولهذا لم أسكن فيه خليلي إبراهيم عليه السلام

[البسيط]:

الـقَـلْـبُ بـيـتُـك لا بـيـتـي فـأعْـمُـرُهُ ... فـلـسـت أَذْكُـرُ شـيـئـاً أنـت تَـذْكُـرُهُ

ذكـري لـنـفـسـي حـجـابٌ إنّ ذكـرك لـي ... هـو الـسُّـرُورُ الـذي بـالـحُـسْـنِ تَـغْـمُـرُهُ

إذا ذَكَـرْتُـك كـان الـذكـرُ مـنـك لـنـا ... فـلـسـتَ تـذكـرُ أمـراً نـحـن نـذكـرُهُ

إنّ الـخـلـيـلَ بـظَـهْـرِ الـبـيـت مَـسْـكَـنُـهُ ... مـن أجـل قـلـبٍ لـه مـا زلـتَ تَـعْـمُـرُهُ

فـلـو يَـحـلُّ بـه لَـكُـنْـت تـابـعَـهُ ... ولـيـس يـسـكـنـه فـلـسـتَ تَـعْـمُـرُهُ

فـالـحـمـد لله حـمـداً لا يَـفُـوهُ بـه ... إلا الـذي هـو فـي قـلـبـي يُـصَـوِّرُهُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن رحمة الله وسعت كل شيء، ومن رحمته أن خلق الله بها قلب عبده وجعله أوسع من رحمته، فإن قلب المؤمن وسع الحق كما ورد أن الله يقول: «**مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**» فرحمته مع اتساعها يستحيل أن تتعلق به أو تسعه، فإنها وإن كانت منه فلا تعود عليه، وما أحال تعالى عليه أن

يسعه قلب عبده وذلك أنه الذي يفقه عن الله ويعقل عنه وقد أمره بالعلم به وما أمره إلا بما يمكن أن يقوم به، فيكون الحق معلوماً معقولاً للعبد في قلبه ولا يتصف بأنه تعالى مرحوم، فهذا يدلك على أن الرحمة لا تناله من خلقه كما يناله التقوى أعني تقوى القلوب كما قال: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وقال: ﴿فَإِنَّهَا﴾ يعني شعائر الله وهي ضرب من العلم به ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وقال تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦] وما جعلها عقلاً إلا ليعقل عنه العبد بها ما يخاطبه به، ومما خاطبه به أن رحمته وسعت كل شيء وأن قلبه وسعه جلّ جلاله، إلا أن ثم سرّاً أشير إليه ولا أبسطه وهو أن الله أخبر أنه أحب أن يعرف ومقتضى الحب معروف، فخلق الخلق وتعرّف إليهم فعرفوه، فما عرفوه بنظرهم وإنما عرفوه بتعريفه إياهم، فهذي إشارة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

والمحبة علم ذوق وما فينا إلاّ محب ومن أحب عرف مقتضى الحب، فمن هنا تعرف عموم الرحمة. والحديث الآخر غضب الله الكائن من إغضاب العبد، ثم قال عنه التراجمة عليهم السلام في باب الشفاعة إذا سألوهم الخلق فيها يوم القيامة فيقولون: **«إن الله قد غَضِبَ اليوم غَضَباً لم يغضبْ قبله مثله»** ولن يغضب بعده مثله فزال الغضب بالانتقام، وأخبر ﷺ: **«أنَّ الصَّدَقَةَ تُطفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ»** وهو الموفق عبده لما تصدق به فهو المطفىء غضبه بما وفق إليه عبده وهذا كثير لكن هذا القدر عند عباد الله منه، فإنا لا نزيد عليه لأنا ما عرفناه إلا بتعريفه، وهذا من جملة تعريفه لا من نظر المخلوق، فلما اتخذ قلب عبده بيتاً لأنه جعله محل العلم به العرفانيّ لا النظريّ حماه وغار عليه أن يكون محلاً لغيره، والعبد جامع فلا بدّ أن يظهر الحق تعالى لهذا العبد في صور شتى أي في صورة كل شيء لأنه محل للعلم بكل شيء وليس محل العلم بالأشياء إلا القلب، والحق يغار على قلب عبده أن يكون فيه غير ربّه فأطلعه أنه صورة كل شيء وعين كل شيء فوسع كل شيء قلب العبد لأن كل شيء حق فما وسعه إلا الحق، فمن علم الحق من حقيته فقد علم كل شيء، وليس من علم شيئاً علم الحق، وعلى الحقيقة فما علم العبد ذلك الشيء الذي يزعم أنه علمه لأنه لو علمه علم أنه الحق فلما لم يعلم أنه الحق قلنا فيه إنه لم يعلمه، وإنما قال: **«قلب المؤمن»** لا غير المؤمن لكون المعرفة بالله لا تكون إلا بتعريفه لا بحكم النظر الفكريّ ولا يقبل تعريفه به تعالى إلا المؤمن، فإن غير المؤمن لا يقبل ذلك جملة واحدة فإنه الناظر على أحد ثلاثة أمور: إما أن يحيل ذلك الذي ورد به التعريف على الحق فينقسم هنا المحيلون على أقسام: فمنهم من يطعن في الرسل ويجعلهم تحت سلطان الخيال وهذه الطائفة من الأخسرين الذين أضلهم الله وأعماهم عن طريق الهدى بل في طريق الهدى لو علموا فهؤلاء قد جمعوا بين الجهل وبين المروق من الدين فلا حظ لهم في السعادة. وقسم آخر منهم قالوا إن الرسل هم أعلم الناس بالله فتنزلوا في الخطاب على قدر أفهام الناس لا على ما هو الأمر عليه فإنه محال، فهؤلاء كذبوا الله ورسوله فيما نسب الله إلى نفسه وإلى رسله بحسن عبارة، كما يقول الإنسان إذا أراد

أن يتأدب مع شخص آخر إذا حدثه بحديث يرى السامع في نظره أنه ليس كما قال المخبر فلا يقول له كذبت وإنما يقول له يصدق سيدي، ولكن ما هو الأمر على هذا وإنما الأمر الذي ذكره سيدي على صورة كذا وكذا فهو يكذبه ويجهله بحسن عبارة، هكذا فعل هؤلاء المتأوّلين. وقسم آخر لا يقول بأنه نزل في العبارة إلى أفهام الناس وإنما يقول: ليس المراد بهذا الخطاب إلا كذا وكذا ما المراد منه ما تفهمه العامة، وهذا موجود في اللسان الذي جاء به هذا الرسول فهؤلاء أشبه حالاً ممن تقدم، إلا أنهم متحكمون في ذلك على الله بقولهم، هذا هو المفهوم من اللسان، وكذلك الذي يعتقده عامة ذلك اللسان هو أيضاً المفهوم من ذلك فما يمنع أن يكون المجموع، فأخطؤوا في الحكم على الله بما لم يحكم به على نفسه، فهؤلاء ما عبدوا إلا الإلّه الذي ربطت عليه عقولهم وقيدته وحصرته. وقسم آخر قال: نؤمن بهذا اللفظ كما جاء من غير أن نعقل له معنى حتى نكون في هذا الإيمان به في حكم من لم يسمع به ونبقى على ما أعطانا دليل العقل من إحالة مفهوم هذا الظاهر من هذا القول، فهذا القسم متحكم أيضاً بحسن عبارة وأنه رد على الله بحسن عبارة فإنهم جعلوا نفوسهم حكم نفوس لم تسمع ذلك الخطاب. وقسم آخر قالوا: نؤمن بهذا اللفظ على حد علم الله فيه وعلم رسوله ﷺ فهؤلاء قد قالوا إن الله خاطبنا عبثاً لأنه خاطبنا بما لا نفهم والله يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤] وقد جاء بهذا فقد أبان كما قال الله لكن أبى هؤلاء أن يكون ذلك بياناً وهؤلاء كلهم مسلمون.

وأما الأمر الثالث فهم الذين كشف الله عن أعين بصائرهم غطاء الجهل فأشهدهم آيات أنفسهم وآيات الآفاق فتبين لهم أنه الحق لا غيره فآمنوا به بل علموه بكل وجه وفي كل صورة وأنه بكل شيء محيط، فلا يرى العارف شيئاً إلا فيه فهو ظرف إحاطة لكل شيء، وكيف لا يكون وقد نبه على ذلك باسمه الدهر فدخل فيه كل ما سوى الله، فمن رأى شيئاً فما رآه إلا فيه ولذلك قال الصديق: ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله لأنه ما رآه حتى دخل فيه فبالضرورة يرى الحق قبل الشيء بعينه لأنه يرى صدور ذلك الشيء منه، فالحق بيت الموجودات كلها لأنه الوجود، وقلب العبد بيت الحق لأنه وسعه، ولكن قلب المؤمن لا غير: [الطويل]

فـمـن كـان بَـيْـتَ الـحَـقّ فـالـحَـقُّ بيـتـه ... فـعَـيْـنُ وُجُـودِ الـحَـقّ عَـيْـنُ الـكَـوائِـنِ

وما حاز المؤمن هذه السعة إلا بكونه على صورة العالم وعلى صورة الحق، وكل جزء من العالم ما هو على صورة الحق، فمن هنا وصفه الحق بالسعة، قال أبو يزيد البسطامي في سعة قلب العارف: لو أن العرش يعني ملك الله وما حواه من جزئيات العالم وأعيانه مائة ألف ألف مرّة لا يريد الحصر وإنما يريد ما لا يتناهى ولا يبلغه المدى فعبر عنه بما دخل في الوجود، ويدخل أبداً في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسّ به وذلك لأن قلباً وسع القديم كيف يحس بالمحدث موجوداً وهذا من أبي يزيد توسع على قدر مجلسه لإفهام الحاضرين.

وأما التحقيق في ذلك أن يقول إن العارف لما وسع الحق قلبه وسع قلبه كل شيء إذ لا يكون شيء إلا عن الحق فلا تتكوّن صورة شيء إلا في قلبه يعني في قلب ذلك العبد الذي وسع الحق [مخلع البسيط]:

فَهُوَ الهُيُولَى لِكُلِّ صورةْ ... مِن صُورَة صُورَة وسُورَهْ
وأنت ما بين ذا وهذا ... أقامك الحَقُّ فيه سُورَهْ

وينظر إلى قول أبي يزيد ما قال الجنيد: إنّ المحدث إذا قرن بالقديم لم يبق له أثر، إلا أن قول الجنيد هنا أتمّ من قول أبي يزيد، فإن المحدث إذا قرنته بالقديم كان الأثر للقديم لا للمحدث، فتبين لك بهذه المقارنة ما هو الأمر عليه وهو ما قلناه فإنه لا يمكن أن يجهل الأثر، وإنما كان قبل هذه المقارنة ينسب إلى المحدث، فلما قرنه بالقديم رأى الأثر من القديم ورأى المحدث عين الأثر فقال ما قال، ولا نشك بعد أن تقرّر هذا أن الخليل إبراهيم عليه السلام بهذه المثابة هو والرسول صلوات الله عليهم قد وسع قلبه الحق فجعله تعالى مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وما دخله لأنه لو دخله لوسع البيت المعمور الحق لأنه قد وسع من وسعه وهي إشارة لا حقيقة، فإن جسم إبراهيم عليه السلام محصور بجيرون بلا شك، فما نريد إلا الصورة التي هو عليها في البرزخ الذي انتقل إليه بالموت. وأما قوله: «وأخلاه من غيري» هو قوله عليه السلام فيمن يقرأ القرآن «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي**» يعني القرآن يقرأه العبد «**عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وهو القرآن وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] يعني أهل القرآن لأنه قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] فهو الجامع لكل شيء، فمن اعتقد غير أوجب عليه أن يخلي قلبه للحق والناس يتفاضلون في الدرجات، فإن الله قد فضل العالم بعضه على بعض، وأفضل المفاضلة فضل العلم بالله، ألا تراه قد أعطاه تعالى أعني للإنسان بمنزلة الاسم الآخر الذي لله وأعطى نفسه تعالى الاسم الأول في رتبة العلم به وجعل الملك محاطاً به بين الأول والآخر، فمن كان له علم بالمراتب علم ما للملك من الله وما له من الإنسان، ولهذا كان الملك وهو الروح الأمين يأتي بالوحي من الاسم الأول الذي لله إلى العبد الكامل الرسول النازل في منزل الاسم الإلهي الآخر وهو قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] فبدأ بنفسه في الشهادة بتوحيده، ثم ذكر الملائكة ثم ذكر بعد الملائكة أولي العلم وهم الأناسي فلله الأمر من قبل ومن بعد والملك ما بينهما وهكذا كان أمر الوجود فالأولية للحق ثم أوجد الملك ثم أوجد الإنسان وأعطاه الخلافة ولم يعطها الملك لأن الوسط له كل وسط فهو محاط به فافهم، فصورة فضل الملك على الإنسان بما أتاه به من عند الله وليس ذلك بدليل قاطع على الفضيلية في العقل وفي اللسان، كما أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس لأن الناس في رتبة الانفعال عن حركة الأفلاك وقبول التكوين الذي في العناصر، فما ثم إلا وجوه خاصة وما ثم وجه محيط، فمن وجه يفضل ومن وجه يكون مفضولاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس وأربعمائة

في معرفة منازلة ما ظهر مني شيء لشيء ولا ينبغي أن يظهر

[الخفيف]:

لو ظَهَرْنا للشيء كان سوانا وسوانا ما ثَمَّ أيْنَ الظُّهُورُ
أنت عينُ الوجود ما ثَمَّ غَيْرٌ ولهذا أنا الإلٰهُ الغَيُورُ
لا تَقُلْ يا عُبَيْدُ إنّكَ إنّي أنا باقٍ وأنت فَانٍ تَبُورُ
كل وقت فأنت خلقٌ جديد ولهذا لك الفناءُ والنُّشُورُ

يقول الحق: ما ثم شيء أظهر إليه لأني عين كل شيء، فما أظهر إلا لمن ليست له شيئية الوجود، فلا تراني إلا الممكنات في شيئية ثبوتها، فما ظهرت إليها لأنها لم تزل معدومة وأنا لم أزل موجوداً فوجودي عين ظهوري، ولا ينبغي أن يكون الأمر إلا هكذا. ولما كانت الأحكام فيما ظهر لأسمائي وفي نفس الأمر لأعيان الممكنات والوجود عيني لا غيري، وفصلت الأحكام الإمكانية الصور في العين الواحدة كما يقول أهل النظر في تفصيل الأنواع في الجنس وتفصيل الأشخاص في النوع كذلك تفصيل الصور الإمكانية في العين، وترى الأسماء أنا مسماها أعني الأسماء الحسنى فيجعل الأثر لها، وفي الحقيقة ما الأثر إلا لأعيان الممكنات ولهذا ينطلق على صور أسماء الممكنات، ومن أسماء الممكنات أسماء الله فلها نسبتان: نسبة إلى الله تعالى ونسبة إلى صور الممكنات، فالحق ليس بظاهر لأعيان صور الممكنات من حيث ما هي صور لها لا من حيث أنها ظهرت في عين الوجود الحق، والشيء إذا كان في الشيء بمثل هذه الكينونة من القرب لا يمكن أن يراه، فلا يمكن أن يظهر له كما نراه في الهواء ما منعنا من رؤيته إلا القرب المفرط، فلا يمكن أن نراه ولا يمكن أن يظهر لنا عادة، فلو تباعد عنا لرأيناه، ومن المحال بعد الصور عن العين التي توجد فيها لأنها لو فارقتها انعدمت كما هو الأمر في نفسه، فإن الصور في هذه العين تنعدم وهي ﴿فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قَ: ١٥] فالممكنات من حيث أن لها الأسماء الإلهية وهابة هذه الصور الظاهرة بعضها لبعض في عين الوجود، فما أظهرت هذه الأعيان الممكنات صورة إلا بالأسماء الإلٰهية من قائل وقادر وخالق ورازق ومحيي ومميت ومعز ومذلّ. وأما الغنى والعزة فهي للذات وهو الغني العزيز فغناها لها بكونها تعطي هذه الصور ولا تقبل العطاء لما تعطيه حقيقة ذاتها. وأما العزة لها فإن هذه الصور لا تعطيها ولا تؤثر فيها علماً بما تستفيده في حال وجودها بعضها من بعض، فإن الأعيان هي المعطية لهذه الصور تلك العلوم التي استفادتها بالأسماء الإلٰهية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وهو العالم بلا شك، فالحق عالم والأعيان عالمة ومستفيدة، والعلم إنما هو عين الصور واستفادتها من الأسماء الإلٰهية التي أعطتها أعيان الممكنات العلوم. ومن هنا تعلم حكم الكثرة والوحدة والمؤثر والمؤثر فيه والأثر ونسبة العالم من الله ونسبة تنوع الصور الظاهرة وما ظهر ومن ظهر وما بطن ومن بطن، وحقيقة

الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنها نعوت لمن له الأسماء الحسنى، فتحقق ما ذكرناه في هذا الباب فإنه نافع جداً يحوي على أمر عظيم لا يقدر قدره إلا الله، فمن عرف هذا الباب عرف نفسه هل هو الصورة أو هو عين واهب الصورة؟ أو هو عين العين الثابتة الممكنة التي لها العدم من ذاتها؟ ومن عرف نفسه عرف ربّه ضرورة، فما يعرف الحق إلا الحق، فلا تقدم ولا تأخر لأن الممكن في حال عدمه ليس بمتأخر عن الأزل المنسوب إلى وجود الحق لأن الأزل كما هو واجب لوجود الحق هو واجب لعدم الممكن وثبوته وتعيينه عند الحق، ولولا ما هو متعين عند الحق مميز عن ممكن آخر لما خصصه بالخطاب في قول ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] ومن عرف هذا الباب عرف من يقول: ﴿كُن﴾ ولمن يقال: ﴿كُن﴾ ومن يتكون عن قول ﴿كُن﴾ ومن يقبل حكم الكاف والنون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع وأربعمائة

في معرفة منازلة في أسرع من الطرفة تختلس مني إن نظرت إلى غيري لا لضعفي ولكن لضعفك

[الخفيف]:

التفاتُ المُصَلّي عَيْنُ اختِلاسِهْ ... يَلْعَبُ الدَّهرُ كيف شاء بِنَاسِهْ

وهو الدهرُ والمشيئة منه ... وأُناسُ الزمان عَيْنُ أُناسِهْ

كل شيء له لباسٌ مُسمَّى ... وقلوبُ الرجال عَيْنُ لِبَاسِهْ

وأنا صُورةٌ له ثُمَّ يَخْفَى ... بوجودي كالظَّبْي عند كِنَاسِهْ

لحدودٍ قامت بصورة كوني ... يتعالى عنها بأصل أساسهْ

دخلت على شيخنا أبي محمد عبد الله الشكاز بأغرناطة من بلاد الأندلس وكان من أهل باغه وهو من أكبر من لقيته في طريق الله فقال لي: يا أخي الرجال أربعة وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] و﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] يريد على أرجلهم لا يركبون ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] فأراد بالرجال الأربعة حصر المراتب لأنه ما ثم إلا رسول ونبي وولي ومؤمن، وما عدا هؤلاء الأربعة فلا اعتبار لهم من حيث أعيانهم لأن الشيء لا يعتبر إلا من حيث منزلته لا من حيث عينه الإنسانية، فالإنسانية واحدة العين في كل إنسان، وإنما يتفاضل الناس بالمنازل لا بالعين حتى في الصورة من جميل وأجمل وغير جميل، ولهذا ما جاء رضي الله عنه في ذكر الرجال بأكثر من أربعة، فما أراد بالأربعة إلا ما ذكرناه. وما أراد بالرجال في هذه الآيات الذكران خاصة وإنما أراد هذا الصنف الإنساني ذكراً كان أو أنثى، ولما قلت له في قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] المراد به من أتى ماشياً على رجله؟ قال رضي الله عنه: الرجل لا يكون محمولاً والراكب محمول فعلمت ما أراد فإنه قد علم أن رسول الله ﷺ ما أسري به إلا محمولاً على البراق

فسلمت إليه ما قال، وما أعلمته رضي الله عنه أن البقاء على الأصل هو المطلوب لله من الخلق ولهذا ذكره تعالى بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] يعني موجوداً يقول له: ينبغي لك أن تكون وأنت في وجودك من الحال معي كما كنت وأنت في حال عدمك من قبولك لأوامري وعدم اعتراضك يأمره بالوقوف عند حدوده ومراسمه، فيتكلم حيث رسم له أن يتكلم، ويتكلم بما أمره به أن يتكلم، فيكون سبحانه هو المتكلم بذلك على لسان عبده، وكذلك في جميع حركاته وسكناته وأحواله الظاهرة والباطنة لا يقول في وجوده أنه موجود بل يرى نفسه على صورته في حال عدمه، هذا مراد الحق منه بالخطاب فهو محمول بالأصالة غير مستقل فإن المحدث لا يستقل بالوجود من غير المرجح فلا بد أن يكون محمولاً، ولهذا ما أسري برسول قط إلا على براق، إذا كان إسراء جسمياً محسوساً، وإذا كان بالإسراء الخيالي الذي يعبر عنه بالرؤيا فقد يرى نفسه محمولاً على مركب وقد لا يرى نفسه محمولاً على مركب لكن يعلم أنه محمول في الصورة التي يرى نفسه فيها، إذ قد علمنا أن جسمه في فراشه وفي بيته نائم فاعلم ذلك. وأما ما ذهب إليه الشيخ من الاستقلال وعدم الركوب فذلك هو الذي يحذر منه فإنه الاختلاس الذي ذكرنا، فإن العبد هنا اختلسته نفسه بالاستقلال وهو في نفسه غير مستقل فأخذه ذلك الاختلاس من يد الحق فتخيّل أنه غير محمول فلم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه جهل ربه، فكان الغير هنا الذي نظر إليه عين نفسه وذلك لضعفه في العلم بالأصل الذي هو عليه، ولا شك أن مرتبة الرسل عليهم السلام قد جمعت جميع مراتب الرجال من نبوّة وولاية وإيمان وهم المحمولون، فمن ورثهم وكان محمولاً يعلم ذلك من نفسه، وإنما قلنا يعلم ذلك من نفسه لأن الأمر في نفسه أنه محمول ولا بد، ولكن من لا علم له بذلك يتخيل أنه غير محمول فلهذا قيدنا. وفي قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] فالذي دعاهم قال لهم قولوا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقال لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١٢٨] وكل معنى محمول بلا شك فإنه غير مستقل بالأمر إذ لو استقل به لما طلب العون والمعين. وقوله رضي الله عنه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] فهم في تجارتهم في ذكر الله لأن التجارة على الحد المرسوم الإلهي من ذكر الله كما قالت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه كان يذكر اللهعلى كل أحيانه مع كونه يمازح العجوز والصغير، وكل ذلك عند العالم ذكر الله لأنه ما من شيء إلا وهو يذكر بالله، فمن رأى شيئاً لا يذكر الله عند رؤيته فما رآه فإن الله ما وضعه في الوجود إلا مذكراً فلم تلههم التجارة ولا البيع عن ذكر الله. وكذلك: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] في أخذ الميثاق الذي أخذ الله عليهم فوفوا به وقيل فيهم صدقوا لأنهم غالبوا فيه وفي الوفاء به الدعاوى المركوزة في النفوس التي أخرجت بعض من أخذ عليه الميثاق أو أكثره عن الوفاء بما عاهد عليه الله، فليس الرجل إلا من صدق مع الله في الوفاء بما أخذ عليه كما صدق النبيّ فيما أخذ الله عليه في ميثاق النبيين والمرسلين. وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] وهم

أعظم الرجال في المنزلة فإن لهم الاستشراف على المنازل، فما أشار بالأعراف هنا هذا الشيخ إلى من تساوت حسناته وسيئاته وإنما أخذه من حيث منزلة الاستشراف، فإن الأعراف هنا هو السور الذي بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وهو الذي يلي الجنة، وظاهره من قبله العذاب وهو الذي يلي النار فجعل النار من قبله أي يقابله والمقابل ضد فلم يجعل السور محلاً للعذاب وجعله محلاً للرحمة بقوله ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ [الحديد: ١٣] فانظر ما أعجب تنبيه الله عباده بحقائق الأمور على ما هي عليه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] فأهل الأعراف في محل رحمة الله وذلك هو الذي أطعمهم في الجنة وإن كانوا بعد ما دخلوها، ثم ذكر أن لهم المعرفة بمقام الخلق فقال: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] أي بما جعلنا فيهم من العلامة. وقوله: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ [الأعراف: ٤٦] فإنهم في مقام الكشف للأشياء، فلو دخلوا الجنة استتر عنهم بدخولهم فيها وسترتهم لأنها جنة عن كشف ما هم له كاشفون. وقولهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] تحية إقبال عليهم لمعرفتهم بهم وتحية لانصرافهم عنهم إلى جناتهم يقول الله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١٢٨] ويقول: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ» ومعلوم أن الاستعانة شرك في العمل فإن كان العمل له فأين العبد؟ وإن كان للعبد فقد أشرك نفسه فاختلسه هذا القدر من توحيد الأفعال، فمن علم أن العبد محل لظهور العمل فلا بدّ منه ولا بد من القبول إن قيل إنه تعالى أوجد العبد والعمل، فلو لم يكن العبد قابلاً لإيجاد القادر إياه لما وجد دليلنا فلا بدّ من قبول الممكن، فلا بدّ من الاشتراك في الإيجاد إن كان في إيجاد العبد فلا بد منه، وإن كان في إيجاد العمل التكليفي فلا بد من العبد، فعلى كل حال لا بد منك ومنه إلا أنك منعوت بالضعف فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ لكون الممكن لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الترجيح على كل حال ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤] للتكليف إلا أنه لا يستقل فأمر بطلب المعونة، فلولا أن للمكلف نسبة وأثراً، في العمل ما صح التكليف ولا صح طلب المعونة من ذي القوّة المتين، فإن شئت سميت أنت ذلك القدر من الاشتراك كسباً، وإن شئت سميته خلقاً بعد أن عرفت المعنى.

وأما أهل الله أرباب الكشف فكما قلنا إن ذلك كله أحكام أعيان الممكنات في العين الوجودية الظاهرة في الصور عن آثار الأسماء الإلٓهية الحسنى من حيث أن الممكن متصف بها فهي للحق أسماء وهي للممكن نعوت وصفات في حال عدم الممكن، لأن وجود عينه من حيث الحقيقة قد بيّنا أنه لا يتصوّر، فما استفاد الممكن إلا ظهور أحكامه بوجود الصور التي تتبعها أسماء الممكنات، فكما أن أسماء الله الحسنى للممكن على طريق النعتية كذلك الأسماء الكونية التي تنطلق على الصور الكائنة في عين الوجود هي أسماء للعين الوجودية قال تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] في معرض الدلالة فإذا سموهم قالوا: هذا حجر، هذا شجر، هذا كوكب، والكل اسم عبد، ثم أبان الحق تعالى ذلك كله ليعقل عنه فقال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] فقلتم عن العين من

أجل الصورة إنها حجر أو شجر أو كوكب أو أي اسم كان من المعبودين الذين ما لهم اسم الله، فما قال أحد من خلق الله أنا الله إلا الله المرقوم في القراطيس إذا نطق يقول: أنا الله فتعلم عند ذلك ما معنى قوله: أنا الله وأنه حق أعني هذا القول في ذلك اللسان المصطلح عليه، ويقوله أيضاً العبد الكامل الذي الحق لسانه وسمعه وبصره وقواه وجوارحه كأبي يزيد وأمثاله، وما عدا هذين فلا يقول أنا الله وإنما يقول الاسم الخاص الذي له في ذلك اللسان له فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن وأربعمائة

في معرفة منازلة يوم السبت حلّ عنك مئزر الجد الذي شددته فقد فرغ العالم مني وفرغت منه

[الطويل]:

فرغْنا من الأجْناس فالخَلْقُ خَلْقُنا ... وقد بَقِيَتْ أشخاصُها تَتَكوَّنُ

مدى الجُودِ والأنفاس فالأمرُ دائمٌ ... إلى غير غاياتٍ له تَتَعَيَّنُ

هو الغايةُ القُصْوَى فليست نهايةٌ ... سواهُ فهذا حَقُّهُ المُتَيَقَّنُ

أنا البَدْءُ لا عَوْدٌ تراه لأنه ... هو الواسعُ المختارُ بي فتَبَيَّنوا

أنا أوّلٌ بالقَصْد فالكونُ كَوْنُنا ... وآخَرُ موجودٌ أنا يتيقّنُ

كُلُوا طيِّبات الرزق من كل جانب ... فمن أجلنا بانوا ولله كُوِّنُوا

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فنقول من باب الإشارة لا من باب التفسير: يتجاوزون بالراحة حدها، وبها يسمى السبت سبتاً فإن الله خلق العالم في ستة أيام بدأ به يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة وما مسه من لغوب، ولم يعي بخلقه الخلق، فلما كان يوم السابع من الأسبوع وفرغ من العالم كان يشبه المستريح الذي مسه اللغوب فاستلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال: أنا الملك، كذا ورد في الأخبار النبوية، فسمي يوم السبت يريد يوم الراحة وهو يوم الأبد، ففيه تتكوّن أشخاص كل نوع دنيا وآخرة فما هي إلا سبعة أيام لكل يوم وال ولاه الله فانتهى الأمر إلى يوم السبت فولى الله أمره والياً له الإمساك والثبوت، فله إمساك الصور في الهبا، فنهار هذا اليوم الذي هو يوم الأبد لأهل الجنان وليله لأهل النار فلا مساء لنهاره ولا صبح لليله، وما رأينا أحداً اعتبر هذا اليوم إلا السبتيّ محمد بن هارون الرشيد أمير المؤمنين، وذلك أني كنت يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة بمكة قد دخلت الطواف فرأيت رجلاً حسن الهيئة له هيبة ووقار وهو يطوف بالبيت أمامي فصرفت نظري إليه عسى أعرفه فما عرفته في المجاورين ولم أرَ عليه علامة قادم من سفر لما كان عليه من الغضاضة والنضارة، فرأيته يمرّ بين الرجلين المتلاصقين في الطواف ويعبر بينهما ولا يفصل بينهما ولا يشعران به، فجعلت أتتبع بأقدامي مواضع وطآت أقدامه ما يرفع قدماً إلا وضعت قدمي في موضع قدمه وذهني إليه وبصري معه لئلا يفوتني، فكنت أمر بالرجلين

المتلاصقين اللذين يمرّ هو بينهما فأجوزهما في أثره كما يجوزهما ولا أفصل بينهما، فتعجبت من ذلك، فلما أكمل أسبوعه وأراد الخروج مسكته وسلمت عليه فردّ عليّ السلام وتبسّم لي وأنا لا أصرف نظري عنه مخافة أن يفوتني فإني ما شككت فيه أنه روح تجسد وعلمت أن البصر يقيده فقلت له: إني أعلم أنك روح متجسد فقال لي: صدقت، فقلت له: فمن أنت يرحمك الله؟ فقال: أنا السبتيّ ابن هارون الرشيد، فقلت له: أريد أن أسألك عن حال كنت عليه في أيام حياتك في الدنيا، قال: قل، قلت: بلغني أنك ما سميت السبتي إلا لكونك كنت تحترف كل سبت بقدر ما تأكله في بقية الأسبوع، فقال: الذي بلغك صحيح كذلك كان الأمر، فقلت له: فلم خصصت يوم السبت دون غيره من الأيام أيام الأسبوع؟ فقال: نِعْمَ ما سألت ثم قال لي: بلغني أن الله ابتدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة فلما كان يوم السبت استلقى ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال: أنا الملك، هذا بلغني في الأخبار وأنا في الحياة الدنيا، فقلت: والله لأعملن على هذا فتفرّغت لعبادة الله من يوم الأحد إلى آخر الستة الأيام لا أشتغل بشيء إلا بعبادته تعالى وأقول: إنه تعالى كما اعتنى بنا في هذه الأيام الستة فأني أتفرّغ إلى عبادته فيها ولا أمزجها بشغل نفسي فإذا كان يوم السبت أتفرّغ لنفسي وأتحصل لها ما يقوتها في باقي الأسبوع كما روينا من إلقاء إحدى رجليه على الأخرى، وقوله: أنا الملك الحديث، وفتح الله لي في ذلك فقلت له: من كان قطب الزمان في وقتك؟ فقال: أنا ولا فخر، قلت له: كذلك وقع لي التعريف، قال: صدقك من عرّفك؟ ثم قال لي: عن أمرك يريد المفارقة قلت له: ذلك إليك فسلم عليّ سلام محب وانصرف. وكان بعض أصحابي والجماعة في انتظاري لكونهم كانوا يشتغلون علي بإحياء علوم الدين للغزالي رحمه الله، فلما فرغت من ركعتي الطواف وجئت إليهم قال لي بعضهم وهو نبيل بن خزر بن خزرون السبتي: رأيناك تكلم رجلاً غريباً حسن الوجه وسيماً لا نعرفه في المجاورين من كان ومتى جاء؟ فسكت ولم أخبرهم بشيء من شأنه إلا بعض إخواني فإني أخبرتهم بقصته فتعجبوا لذلك.

واعلم أيدنا الله وإياك أن الفراغ الإلهي إنما كان من الأجناس في الستة الأيام، وأما أشخاص الأنواع فلا فبقي الفراغ بالأزمان لا عن الأشخاص وهو قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ [الرحمن: ٣١] من الشؤون الذي قال فيها: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] في هذه الدنيا فيفرغ لنا منا وتنتقل الشؤون إلى البرزخ والدار الآخرة، فلا يزال الأمر من فراغ إلى فراغ إلى أن يصل أوان عموم الرحمة التي وسعت كل شيء، فلا يقع بعد ذلك فراغ يحده حال ولا يميزه بل وجود مستمرّ ووجود ثابت مستقرّ إلى غير نهاية في الدارين: دار الجنة ودار النار، هكذا هو الأمر في نفسه، ففراغه من العالم هذا القدْر الذي ذكرته آنفاً، وفراغ العالم منه من حيث الدلالة عليه لا غير، وأما الوهب من العلم به فلا يزال دائماً لكن من غير طلب في الآخرة مقاليّ لكن التجلي دائم والقبول دائم، فالعلم متجدد الظهور لي على الدوام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع وأربعمائة

في معرفة منازلة أسمائي حجاب عليك فإن رفعتها وصلت إليّ

[الطويل]

حِجَابُكَ أسماءٌ لنا ونُعُوتٌ ... وأعْيَانُنا أكْوانُنا فنَقُولُ

لنا الدَّوْلَةُ الغَرَّاءُ ليست لغيرنا ... ولا غير إلا رَبُّنا فنَصُولُ

على من فحَقِّقْ ما تقولُ وإنما ... يقول بهذا ظالمٌ وجَهُولُ

فكلٌّ مقالٍ فيه غير مُقَيَّدٍ ... فكلّ مقالاتي إليه تَؤُولُ

فلا تَرْفَعِ الأستارَ بَيْني وبينه ... فذاك وُجُودٌ ما إليه سَبِيلُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الإنسان وإن كان في نفس الأمر عبداً ويجد في نفسه ما هو عليه من العجز والضعف والافتقار إلى أدنى الأشياء والتألم من قرصة البرغوث ويعرف هذا كله من نفسه ذوقاً ومع هذا فإنه يظهر بالرياسة والتقدم، وكلما تمكن من التأثير في غيره فإنه يؤثر ويجد في نفسه طلب ذلك كله وحبه، وذلك لأنه خلقه الله على صورته وله تعالى العزة والكبرياء والعظمة، فسرت هذه الأحكام في العبد فإنها أحكام تتبع الصورة التي خلق عليها الإنسان وتستلزمها، فرجال الله هم الذين لم يصرفهم خلقهم على الصورة عن الفقر والذلة والعبودية، وإذا وجدوا هذا الأمر الذي اقتضاه خلقهم على الصورة ولابدّ ظهروا به في المواطن التي عين الحق لهم أن يظهروا بذلك فيها، كما فعل الحق الذي له هذه الصفة ذاتية نفسية فلا يظهر بها إلا في مواطن مخصوصة ويظهر بالنزول والتحبب إلى عباده حتى كأنه فقير إليهم في ذلك ويقيم نفسه مقامهم، وإذا كان الحق بهذه الصفة أن ينزل إليكم في صوركم فأنتم أحق بهذا النعت أن لا تبرحوا فيه ولا تنظروا إلى ما تجدونه فيكم من قوّة الصورة فذلك له لا لكم، كما أن لكم ما نزل إليكم فيه لا له، ولولا أن أسماءه الحسنى قامت بكم واتصفتم بها ما تمكن لكم ذلك، فردّوا أسماءه على صورته لا عليكم وخذوا منه ما نزل لكم فيه فإن ذلك نعتكم وأسماؤكم، فإنكم إذا فعلتم ذلك وصلتم إليه أي كنتم من أهل القربة، فإن المقرّب لا يبقى له القرب والجلوس مع الحق والتحدّث معه تعالى اسماً إلهياً من الأسماء المؤثرة في العالم ولا من أسماء التنزيه، وإنما يدخل عليه بالذلة لشهود عزه وبالفقر لشهود غناه وبالتهيؤ لنفوذ قدرته فينخلع من كل الأسماء التي تعطيه أحكام الصورة التي خلق عليها، هذا مذهب سادات أهل الطريق حتى قالوا في ذلك إن صادقين لا يصطحبان إنما يصطحب صادق وصديق ولهذا ما بعث رسول الله ﷺ بعثاً قط ولو كان اثنين إلا قدم أحدهما وجعل الآخر تبعاً. وإن لم يكن كذلك فسد الأمر والنظام وهو متبع في ذلك حكم الأصل، فإنه لو كان مع الله إله آخر لفسد الأمر والنظام كما قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فمن أراد صحبة الحق فليصحبه بحقيقته وجبلته من ذله وافتقاره، ومن أراد صحبة الخلق فليصحبه بما شرع له ربه لا بنفسه ولا بصورة ربّه، بل كما قلنا بما شرع له فيعطي كل ذي حق حقه فيكون عبداً في صورة حق أو حقاً في صورة عبد كيفما كان لا حرج عليه.

ولما كان هذا كله مذهب أهل الله كشف الله لنا من زيادة العلم التي امتنّ الله بها علينا مع مشاركتنا إياهم فيما ذهبوا إليه أن الله أطلعنا على أن جميع ما يتسمى به العبد ويحق له النعت به وإطلاق الاسم عليه لا فرق بينه وبين ما ينعت به من الأسماء الإلهية، فالكل أسماء إلهية فهو في كل ما يظهر به مما ذكروه مما تقتضيه العبودية عندهم والصورة ليس له وإنما ذلك لله وما له من نفسه سوى عينه وعينه ما استفادت صفة الوجود إلا منه تعالى فما سماه باسم إلا وهو له تعالى، فإذا خرج العبد من جميع أسمائه كلها التي تقتضيها جبلته والصورة التي خلق عليها حتى لا يبقى منه سوى عينه بلا صفة ولا اسم سوى عينه حينئذٍ يكون عند الله من المقرّبين، ووافقنا على هذا القول شيخنا أبو يزيد البسطامي حيث قال: وأنا الآن لا صفة لي يعني لما أقامه الله في هذا المقام، فصفات العبد كلها معارة من عند الله فهي لله حقيقة ونعتنا بها فقبلناها أدباً على علم أنها له لا لنا إذ من حقيقتنا عدم الاعتراض، إنما هو التسليم الذاتي المحض لا التسليم الذي هو صفة له فإن ذلك له، فإذا كان العبد ما عنده من ذاته سوى عينه بالضرورة يكون الحق جميع صفاته ويقول له: أنتَ عبدي حقاً، فما سمع سامع في نفس الأمر إلا بالحق ولا أبصر إلا به ولا علم إلا به ولا حيي ولا قدر ولا تحرّك ولا سكن ولا أراد ولا قهر ولا أعطى ولا منع ولا ظهر عليه وعنه أمر ما هو عينه إلا وهو الحق لا العبد، فما للعبد سوى عينه سواء علم ذلك أو جهله، وما فاز العلماء إلا بعلمهم بهذا القدر في حق كل ما سوى الله لا أنهم صاروا كذا بعد أن لم يكونوا، فلمثل هذا فليعمل العاملون وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب العاشر وأربعمائة

في معرفة منازلة ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ فاعتزوا بي تسعدوا

[السريع]

لَيْسَ وَرَاءَ الله مَرْمًى لِرَامْ … هذا هو الحقّ الذي لا يُرَامْ
هذا مَقَامُ الحقّ لا تَعْتَدُوا … يحرم في هذا المقام المَقَامْ
إذا وصلتُم إخوتي فارجِعُوا … هذا وجودُ ما لديه انْصِرَامْ
رجوعُكم منه إليكم فما … ثَمَّ سوى عَيْنِ الوَرَى والأمامْ
كُونُوا أعِزَّاءَ به تَسْعَدُوا … فليس عِزٌّ غيرُ عِزِّ الإمامْ
لما رَأوْا أعراضَهم لم تَقُمْ … ولم يَرَوْا أحوالَهُم في دَوَامْ
قالوا أنَامَ الحَقُّ عن كَوْننا … لذاك سُمُّوا في اللسان الأنَامْ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: ٤٢] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وقال ﷺ: «لَيْسَ وَرَاءَ الله مَرْمَى» وقال ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج: ٢٠] وما ثم إلا الله ونحن وهو من ورائنا محيط، فليس وراء الله مرمى إلا العدم المحض الذي مافيه حق ولا خلق فهو تعالى المحيط بنا، فالوراء منا له من كل وجهة فلا نراه أبداً من هذه الآية لأن وجوهنا إنما هي مقبلة مصروفة إلى نقطة المحيط لأنا منها خرجنا، فلم

يتمكن لنا أن نستقبل بوجوهنا إلا هي فهي قبلتنا وهي إمامنا، ومن كان هذا نعته والأمر كُريّ فبالضرورة يكون الوراء منا للمحيط بنا، فإذا نظرنا إلى قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] فإنما يريد بظهورنا لا بوجوهنا فإن مشينا إلى المحيط القهقرى فهو من ورائنا محيط لأنه الوجود، فلو لم يكن من ورائنا لكان انتهاؤنا إلى العدم، ولو وقعنا في العدم ما ظهر لنا عين، فمن المحال وقوعنا في العدم لأن الله وهو الوجود المحض من ورائنا محيط بنا إليه ننتهي فيحول وجوده وإحاطته بيننا وبين العدم، فليس بين قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ وبين قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ تقابل لا يمكن معه الجمع بينهما بل الجمع بينهما معلوم، فالعالم بين النقطة والمحيط فالنقطة الأوّل والمحيط الآخر، فالحفظ الإلهي يصحبنا حيثما كنا فيصرفنا منه إليه، والأمر دائرة ما لها طرف يشهد فيوقف عنده، فلهذا قيل للمحمدي الذي له مثل هذا الكشف لا مقام لكم لكون الأمر دورياً فارجعوا فلا يزال العالم سابحاً في فلك الوجود دائماً إلى غير نهاية إذ لا نهاية هناك، ولا يزال وجه العالم أبداً إلى الاسم الأوّل الذي أوجده ناظراً، ولا يزال ظهر العالم إلى الاسم الآخر المحيط الذي ينتهي إليه بورائه ناظراً، فإن العالم يرى من خلفه كما يرى من أمامه، ولكن يختلف إدراكه باختلاف الحال عليه، ولولا الاختلاف ما تميز عين ولا كان فرقان [الكامل]:

إنّ الـوُجُـودَ رَحًـى عَـلَـيَّ تَـدُورُ	وأنـا لـهـا قُـطْـبٌ فـلـسـتُ أَبُـورُ
لـو زِلْـتُ مـا دارت ولا كـانـت رَحًـى	فـالـفَـقْـرُ نَـعْـتُ الـكَـوْنِ فـهـو فَـقِـيـرُ
يـا جـاهـلاً بـالأمـر وهـو مُـشَـاهَـدٌ	إِعْـلَـمْ بـأنـك بـالأمـور خَـبِـيـرُ
الـجَـمْـعُ يـحـجـبُ فـرقـه عـن عـيـنـه	وهـو الـدلـيـل عـلـيـه فـهـو بَـصِـيـرُ

قيل لطائفة: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فقيل لهم: حق لأن الله من ورائهم محيط وهو النور، فلو لم يضرب بالسور بينه وبينهم لوجدوا النور الذي التمسوه حين قيل لهم التمسوا نوراً فإن الحياة الدنيا محل اكتساب الأنوار بالتكاليف وأنها دار عمل مشروع فهي دار ارتقاء واكتساب، فلما أقبلوا على الآخرة صارت الدنيا وراءهم فقيل لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً أي لا يكون لأحد نور إلا من حياته الدنيا، فحال سور المنع بينهم وبين الحياة الدنيا، فالسور دائرة بين النقطة والمحيط فأهل الجنان بين السور والمحيط، فالنور من ورائهم وباطن السور إليهم الذي فيه الرحمة، ووجه السور الذي هو ظاهره ينظر إلى نقطة المحيط، وأهل النار بين النقطة وظاهر السور، وظاهره من قبله العذاب إلى الأجل المسمى فهو حائل بين الدارين لا بين الصفتين، فإن السور في نفسه رحمة وعينه عين الفصل بين الدارين لأن العذاب من قبله ما هو فيه والرحمة فيه، فلو كان فيه العذاب لتسرمد العذاب على أهل النار كما تتسرمد الرحمة على أهل الجنة، فالسور لا يرتفع وكونه رحمة لا يرتفع ولا بدّ أن يظهر ما في الباطن على الظاهر فلا بدّ من شمول الرحمة لمن هو قبل ظاهر السور ولهذا قيل لهم: التمسوا نوراً فلو قيل لهم: التمسوا رحمة لوجدوها من حينهم بوجود السور، فإذا أراد أهل الجنة أن يتنعموا برؤية أهل النار يصعدون على ذلك السور فينغمسون في الرحمة فيطلعون على أهل النار فيجدون من

لذة النجاة منها ما لا يجدونه من نعيم الجنة لأن الأمن الوارد على الخائف أعظم لذة عنده من الأمن المستصحب له، وينظرن أهل النار إليهم بعد شمول الرحمة فيجدون من اللذة بما هم في النار ويحمدون الله تعالى حيث لم يكونوا في الجنة وذلك لما يقتضيه مزاجهم في تلك الحالة، فلو دخلوا الجنة بذلك المزاج لأدركهم الألم ولتضرروا، فإذا عقلت فليس النعيم إلا الملايم وليس العذاب إلا غير الملايم كان ما كان فكن حيث كنت، إذا لم يصبك إلا ما يلايمك فأنت في نعيم، وإذا لم يصبك إلا ما لا يلايم مزاجك فأنت في عذاب حببت المواطن إلى أهلها وأهل النار الذين هم أهلها هي موطنهم ومنها خلقوا وإليها رجعوا، وأهل الجنة الذين هم أهلها منها خلقوا وإليها رجعوا، فلذة الموطن ذاتية لأهل الموطن غير أنهم محجوبون بأمر عارض عرض لهم من أعمالهم من إفراط وتفريط فتغير عليهم الحال فحجبهم عن لذة الموطن ما قام بهم من الأمراض التي أدخلوها على أنفسهم حتى أنهم لو لم يعملوا ما يوجب لهم وجود الآلام والأسقام وحشروا من قبورهم على مزاج وطنهم وخيروا بين الجنة والنار لاختاروا النار كما يختار السمك الماء، ويفر من الهواء الذي به حياة أهل البرّ فيموت أهل البرّ بما يحيا به أهل الماء، ويموت أهل الماء بما يحيا به أهل البرّ، فاعلم ذلك وأنت فلا يصح لك البقاء مع الحق على الدوام فإنه لا بدّ أن يقال: ردوهم إلى قصورهم ولم يقل ردّوهم إلى بيوتهم ولا إلى أزواجهم، فما جاء بلفظ القصور، إلا للمعنى المعقول منه، فإذا ردّوهم إلى قصورهم وأشرفوا على ملكهم فمن المحال أن يظهروا فيه عبيداً وإنما يظهرون فيه ملوكاً فيعظمهم أهلهم وتقوم العزة عليهم في نفوسهم فتقول لهم الحقيقة: ليكن عزكم الذي اقتضاه لكم الموطن بالله لا بنفوسكم فيعتزون في ملكهم بعز الله فتكون العزة لله بالأصالة ولرسوله وللمؤمنين خلعة الهية لا بالأصالة، فيسعدون بهذا العلم عند الله ويجدونه في التجلي المستأنف، مع أن العلماء بالله لا يزالون في تجل دائم لما علموا أن الحق عين كل صورة، ومع هذا فلهم التجلي العام في الكثيب فإن ذلك يعطي ذوقاً آخر خلاف هذا الذوق الذي يجدونه دائماً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الثامن والعشرون بانتهاء الباب العاشر وأربعمائة.

بسم الله الرحمن الرحيم

[السفر التاسع والعشرون]

الباب الأحد عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة فيسبق عليه الكتاب فيدخل النار من حضرة كاد لا يدخل النار فخافوا الكتاب ولا تخافوني، فإني وإياكم على السواء في مثل هذا

قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] لحكم الكتاب على الجميع وعليهم ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩] فما أصعب الأمر عند العاقل الخبير [الخفيف]:

إنّ خَوْفَ الكتاب شَرُّ ذُنُوبي إذ له الحُكْمُ في الوجود وفينا

وقـرأنـاه فـي الـكـتـاب صـريـحـاً ورأيـنـاه فـيـه حـقـاً يـقـيـنـا
لا يـخـاف الإلـه إلا لـكـون حـادث مـنـه حـلّ بـالـعـالـمـيـنـا

قال رسول الله ﷺ في الصحيح عنه: **«إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ حَتَّى مَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إلاَّ شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ»** وكذلك قال في أهل الجنة ثم قال: **«وَإِنَّمَا الأعْمَالُ بِالخَوَاتِيم»** وهي على حكم السوابق، فلا يقضي الله قضاء إلا بما سبق الكتاب به أن يقضى فعلمه في الأشياء عين قوله في تكوينه فما يبدل القول لديه، فلا حكم لخالق ولا مخلوق إلا بما سبق به الكتاب الإلهيّ ولذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [قٓ: ٢٩] فما نجري عليهم إلا ما سبق به العلم، ولا أحكم فيهم إلا بما سبق به، فهذا موقف السواء الذي يوقف فيه العبد [الطويل]:

إذا كان عِلْمُ الحَقّ في الحَقِّ يَحْكُمُ ففي خَلْقه أخرَى فمن يَتَحَكَّمُ
وليس بِمُختار إذا كان هكذا فَكُلٌّ إلى سَبْقِ الكتاب مُسَلِّمُ
فما الخوفُ إلا من كتاب تقدَّمَتْ له سُوَرٌ فينا وآيٌ وأنجُمُ
فلو كان مختاراً أمِنَّاهُ إنه رؤوفٌ رحيمٌ بالعباد وأرْحَمُ
وأخْبَرُ في البُشْرَى برحمته التي يكون لها السبق الكريمُ المُقَدَّمُ
على غضبٍ أبداه فعل عبيده يزول بحمد الله عنه وعَنْهُمُ
وليس كتابي غير ذاتي فافهموا فما مثله إيَّايَ فافْشوا واكْتُمُوا

﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: ١٤] فانظر أيها الوليّ الحميم إلى ما يحوك في صدرك لا تنظر إلى العوارض فإنك بحسب ما يحوك، فإن حاك الإيمان فأنت مؤمن، وإن حاك صرف ما وجب به الإيمان إلى ما لا يقتضيه ظاهر الحكم فأنت بحسب ذلك وبه يختم لك، ولا تنظر إلى ما يبدو للناس منك، ولا تعوّل إلا على ما يحوك في صدرك، فإنه لا يحوك في صدرك إلا ما سبق في الكتاب أن يختم به لك، إلا أن الناس في غفلة عما نبهتهم عليه ولا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه، وذلك الذي يحوك في صدرك هو عين تجلي الأمر الذي لك وقسمك من الوجود الحق، قال بعضهم في باب الورع: ما رأيت شيئاً أسهل عليّ من الورع كل ما حاك له شيء في نفسي تركته، يؤيده قول النبيّ ﷺ: **«دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يُرِيبُكَ»** وقال: **«اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ المُفْتُونَ»**.

واعلم أن الله تعالى ما كتب إلا ما علم ولا علم إلا ما شهد من صور المعلومات على ما هي عليه في أنفسها ما يتغير منها وما لا يتغير فيشهدها كلها في حال عدمها على تنوّعات تغييراتها إلى ما لا يتناهى، فلا يوجدها إلا كما هي عليه في نفسها، فمن هنا تعلم علم الله بالأشياء معدومها وموجودها وواجبها وممكنها ومحالها، فما ثمّ على ما قرّرناه كتاب يسبق إلاّ بإضافة الكتاب إلى ما يظهر به ذلك الشيء، في الوجود على ما شهده الحق في حال عدمه، فهو سبق الكتاب على الحقيقة، والكتاب سبق وجود ذلك الشيء، ويعلم ذوق ذلك سن علم الكوائن قبل تكوينها، فهي له مشهودة في حال عدمها ولا وجود لها، فمن كان له

ذلك علم معنى سبق الكتاب فلا يخف سبق الكتاب عليه وإنما يخاف نفسه، فإنه ما سبق الكتاب عليه ولا العلم إلا بحسب ما كان هو عليه من الصورة التي ظهر في وجوده عليها، فلم نفسك لا تعترض على الكتاب، ومن هنا إن عقلت وصف الحق نفسه بأن له الحجة البالغة لو نوزع فإنه من المحال أن يتعلق العلم إلا بما هو المعلوم عليه في نفسه، فلو احتج أحد على الله بأن يقول له: علمك سبق فيّ بأن أكون على كذا فلم تؤاخذني يقول له الحق: هل علمتك إلا بما أنت عليه؟ فلو كنت على غير ذلك لعلمتك على ما تكون عليه ولذلك قال: حتى نعلم، فارجع إلى نفسك وانصف في كلامك، فإذا رجع العبد على نفسه ونظر في الأمر كما ذكرناه علم أن محجوج وأن الحجة لله تعالى عليه، أما سمعته تعالى يقول: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٣٣] ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ [النحل: ١١٨] وقال: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١٦٨] كما قال: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] يعني أنفسهم فإنهم ما ظهروا لنا حتى علمناهم وهم معدومون إلا بما ظهروا به في الوجود من الأحوال والعلم تابع للمعلوم ما هو المعلوم تابع للعلم فافهمه، وهذه مسألة عظيمة دقيقة ما في علمي أن أحداً نبه عليها إلا إن كان وما وصل إلينا، وما من أحد إذا تحققها يمكن له إنكارها، وفرّق يا أخي بين كون الشيء موجوداً فيتقدم العلم وجوده وبين كونه على هذه الصور في حال عدمه الأزلي له فهو مساوق للعلم الإلّهي به ومتقدم عليه بالرتبة لأنه لذاته أعطاه العلم به، فاعلم ما ذكرناه فإنه ينفعك ويقويك في باب التسليم والتفويض للقضاء والقدر الذي قضاه حالك، ولو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذه المسألة لكانت كافية لكل صاحب نظر سديد وعقل سليم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة من كان لي لم يذل ولا يخزى أبداً

[الطويل]:

إذا كَانَت أَعْمَالي إلى خالقي تُعْزَى فيوم التنادي لا نُذَلُّ ولا نُخزَى

وآتي سليماً وهو كَوْني محقّقاً فنُعْطَى على قدر الإلٰه إذا نُجْزَى

ونَحْظَى بعلم واحدٍ فيه كَثْرَةٌ وذلك علمٌ يُورِثُ العَالِمَ العِزَّا

ففي جنّة الفِرْدَوْسِ سُوقٌ مُعَيَّنٌ به نَشَر الرَّحْمٰنُ مِنْ صُورِهِ بَزَّا

فمن شاء يُجَلّي الحَقَّ في أيّ صورة يشاء ولا كَوْنٌ يَؤُزُّهُمْ أَزَّا

فطُوبَى لعبد قام لله وحده ولم يعرف اللاَّت المُسَمَّاةَ والعُزَّى

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فابتدأ بلام العلة وختم بياء الإضافة، وقال فيما أوحى به إلى موسى عليه السلام: **«يا ابن آدم خَلَقْتُ الأشياء من أجلك وخَلَقْتُكَ من أجلي»**، وقال لنا على لسان رسوله ﷺ: **«الصَّوْمُ لِي»** وقال: **«الصَّوْمُ لا مِثْلَ لَهُ فَإِنَّهُ لَهُ»** وليس كمثله شيء، وأذل الأذلاء من كان له عز وجل لأن ذل الذليل على

قدر من ذلّ تحت عزه ولا عز أعظم من عز الحق، فلا ذل أذل ممن هو لله، ومن ذلّ لله فإنه لا يذلّ لغير الله أصلاً إلا أن يذل لعين الصفة حيث يراها في مخلوق أو غير مخلوق، فيتخيل من لا علم له بما شهده هذا الذليل أنه ذل تحت سلطان هذا العزيز، وإنما ذل تحت سلطان العزة وهي لله، فما ذل إلا للحق المنعوت بهذا النعت، وينبغي له أن يذلّ، فلها يذل كل ذليل في العالم، فمنهم العالم بذلك في حال ذله ومنهم من لا يعلم، وأما الخزي فلا يخزى إذا كان لله، فإن الخزي لا يكون من الله لمن هو له وإنما يكون لمن هو لغير الله في شهوده، ولذلك قالت خديجة وورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: كلا والله لا يخزيك الله أبداً لما ذكر له ابتداء نزول الناموس عليه، فالخزي الذي يقوم بالعبد إنما هو ما جناه على نفسه بجهله وتعديه رسوم سيده وحدوده، فالذل صفة شريفة إذا كانت الذلة لله، والخزي صفة ذميمة بكل وجه إذا قامت بالنفس، فجميع مذام الأخلاق وسفسافها صفات مخزية عند الله وفي العرف وجميع مكارم الأخلاق صفات شريفة في حق وخلق، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**» فإنه نقص منها المسمى سفسافاً فعين لها مصارف فعادت مكارم أخلاق، فهي إذا اتصف بها العبد في المواطن المعينة لها لم يلحقه خزي ولا كان ذا صفة مخزية، فما ثم إلا خلق كريم مهما زال حكم الغرض النفسيّ المخالف للأمر الإلٰهي والحد الزماني النبويّ وأما الكائنون لله فهم على مراتب: منهم من هو لله بالله ومنهم من هو لله بنفسه، ومنهم من هو لله لا بالله ولا بنفسه لكن بغيره من حيث ما هو مجبور لذلك الغير، فمن هو لله بالله فلا يذل ولا يخزى فإن الله لا يوصف بالذلة كما قال الله لأبي يزيد في بعض منازلاته تقرّب إليّ بما ليس لي الذلة والافتقار. ومن هو لله بنفسه فيذل ذل شرف لكنه لا يخزى. ومن كان لله لا بالله ولا بنفسه فهو بحيث يقبل الجبر فإن أجبر في الله فمنزلته منزلة من هو لله بالله في حق شخص وبنفسه في حق شخص، وإن أجبر في أمر نفسي وهو بنفسه في تلك الحالة لا لله فهو في الخزي الدائم والذل اللازم، وانحصرت أقسام هذه المنازلة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة من سالني فما خرج من قضائي ومن لم يسالني فما خرج من قضائي

[الرمل]:

كــلُّ شَـــيْءٍ بـــقَــضـــا وقَـــدَرْ ... والــذي لــيــس بــشــيء بــقَــضَــا

فـــالـــذي يـــفـــهـــمُ مـــا أسْـــرُدُهُ ... حَـازَ عِـلْـمَ الـسّـرِّ فـيـه ومَـضَـى

واحـــداً فـــي عـــصـــره مُـــنْـــفَـــرداً ... قـد أنَـارَ الـقَـلْـب مـنـه فَـأَضَـا

فـــإذا عـــايَـــنْـــتَ مـــن نُـــوره ... إنــمــا عــايَــنْــتَ بَـرْقـاً وَمَـضَـا

مـــا رأيـــنـــا لـــمـــقـــام نـــالـــهُ ... فـي وجـود الـكـون مـنـه عِـوَضَـا

قُلْتُ لما قيل لي إنّ لَهُ ... في الذي يَهْوَاهُ منه غَرَضَا
فالذي أخَّرَ عن تحصيله ... لم يكن إلا لأمْرٍ عَرَضَا

اعلم أن الله تعالى عرف أن نسبة القضاء إلى القاضي لا تصح حتى يقضي صلاحية ووجوداً، ولا يصح له هذا الاسم حتى يقضي، ولا يعين القضاء إلا حال المقضي عليه، فالقضاء أمر معقول لا وجود له إلا بالمقضي به، والمقضي به يعينه حال المقضي عليه، وبهذه الجملة يثبت اسم القاضي، فلو ارتفعت هذه الجملة من الذهن ارتفع اسم القاضي، ولو ارتفعت من الوجود ارتفع أيضاً حقيقة، فإن أطلق أطلق مجازاً، وحقيقة المجاز أو التجوّز أن ينسب الوقوع إلى ما ليس بواقع، المثال في ذلك: ادّعى شخص على شخص ديناً وأنكر المدعى عليه فعينت الدعوى إقامة البينة وهو المقضي به على صاحب الدعوى وعين الإنكار المقضي به على المنكر وهو اليمين إذا لم تقم البينة وحدث اسم القاضي حقيقة للحاكم باليمين على المدعى عليه إذا أنكر وطلب إقامة البينة من المدعي فالقضاء مجمل والمقضي به تفصيل ذلك المجمل وهو القدر لأن القدر توقيت، فمن سأل فحاله أوجب عليه السؤال، والسؤال طلب وقوع الإجابة فإنه قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] والإجابة أثر في المجيب اقتضاه السؤال، فمن سأل أثر ومن أجاب تأثر، فالحق آمر اقتضى له ذلك حال المأمور، والخلق داع اقتضاه حال المدعوّ لأن الداعي يرجو الإجابة لما تقرّر عنده من حال المدعو، والأمر يرجو الامتثال من المأمور لما علمه من حال المأمور، فحال المأمور جعل للآمر أن يكون منه الأمر، وحال المدعو جعل للداعي أن يكون منه الدعاء، وكل واحد فحاله اقتضى أن يكون آمراً وداعياً، فالدعاء والأمر نتيجة بين مقدمتين هما حال الداعي والمدعو والآمر والمأمور فزالت الوحدة وبان الاشتراك.

فالتوحيد الحق إنما هو لمن أعطى العلم للعالم، والحكم للحاكم والقضاء للقاضي وليس إلا عين الممكن وهو الخلق في حال عدمه ووجوده كما قرّرناه في الباب قبل هذا، والأحوال نسب عدمية وهي الموجبة لوجود الأحكام من الحكام في المحكوم به وعليه، فالممكن مرجح في حال عدمه ووجوده، فالترجيح أثر المرجح فيه، وحال الترجيح أوجب للممكن أن يسأل وأن لا يسأل بحسب ما تقتضيه حاله لأنا ما عينا حالاً من حال فبالحال يسأل فيؤثر الإجابة في المرجح، والمرجح أعطى الحال في ترجيحه الذي أوجب السؤال المؤثر في المرجح الإجابة، فلا يجيب المرجح إلا عن سؤال، ولا سؤال إلا عن حال، ولا حال إلا عن ترجيح، ولا ترجيح إلا من مرجح، ولا مرجح إلا من قابل للترجيح وهو الممكن، والممكن أصل ظهور هذه الأحكام كلها فهو المعطي جميع الأسماء والأحكام وقبول المحكوم عليه بذلك والمسمى فما ظهر أمر إلا نتيجة عن مقدمتين، فللحق التوحيد في وجود العين وله الإيجاد بالاشتراك منه، ومن القابل فله من عينه وجوب الوجود لنفسه فهو واحد وله الإيجاد من حيث نفسه وقبول الممكن فليس بواحد في الإيجاد، ولو صحّ توحيد الإيجاد لوجد المحال كما وجد الممكن وإيجاد المحال محال، فإذا قلت: على

ما قد تقرّر من وجود حق وخلق؟ فقل بوجود مؤثر ومؤثر فيه مؤثر فيمن أثر فيه ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] أي إلى هذا الحكم لا إلى العين.

تنبيه: ثم لتعلم أن الله تعالى قد أمرنا بالرضا قبل القضاء مطلقاً فعلمنا أنه يريد الإجمال فإنه إذا فصله حال المقضي عليه بالمقضي به انقسم إلى ما يجوز الرضا به وإلى ما لا يجوز، فلما أطلق الرضا به علمنا أنه أراد الإجمال والقدر توقيت الحكم، فكل شيء بقضاء وقدر أي بحكم مؤقت، فمن حيث التوقيت المطلق يجب الإيمان بالقدر خيره وشرّه حلوه ومرّه، ومن حيث التعيين يجب الإيمان به لا الرضا ببعضه، وإنما قلنا يجب الإيمان به أنه شرّ كما يجب الإيمان بالخير أنه خير فنقول: إنه يجب عليّ الإيمان بالشرّ أنه شرّ وأنه ليس إلى الله من كونه شرّ إلا من كونه عين وجود إن كان الشرّ أمراً وجودياً، فمن حيث وجوده أي وجود عينه هو إلى الله، ومن كونه شرّاً ليس إلى الله، قال ﷺ في دعائه ربه: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ**» فالمؤمن ينفي عن الحق ما نفاه عنه. فإن قلت: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] قلنا: ألهمها فعلمت أن الفجور فجور، وأن التقوى تقوى، لكي تسلك طريق التقوى وتجانب طريق الفجور. فإن قلت: فقوله: ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨] قلنا: ليس ذلك في السيئة المحكوم بها في الشرع وذلك هو الشرّ وإنما هو فيما يسوءك والذي يسوءك إنما هو مخالفة غرضك وهو قولهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ [يس: ١٨] فقال لهم الله: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨] ما يسوءكم وما يحسن عندكم، وقد تقرّر قبل هذا أن القابل له الأثر في التعيين ما هو للمعطي فهو تعالى معطي الخير والقابل يفصله إلى ما يحكم به عليه من خير وشر، فخيريته إبقاؤه على الأصل فله حكم الأصل ولهذا قال: «**وَالخَيرُ كُلُّهُ بِيَدَيكَ**» وما حكم به من الشرّ فمن القابل وهو قوله: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيكَ**». فإن قلت: فهذا المخلوق على قبول الشرّ هو ممكن فلأي شيء لم يخلقه على قبول الخير فالكل منه؟ قلنا: قد قدمنا وبينا أن العلم تابع للمعلوم وما وجد الممكن إلا على الحال الذي كان عليه في حال عدمه من ثبوت وتغيير كان ما كان والحق ما علم إلا ما هو المعلوم عليه في حال عدمه الذي إذا ظهر في الوجود كان بتلك الحال، فما طرأ على المعلوم شيء لم يتصف به في حال عدمه فما للعلم فيه أثر، وما قلنا بالقدر أنه توقيت إلا لأنه من المقدار ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ٢١] ﴿كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩] فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع عشر وأربعمائة
في معرفة منازلة ما ترى إلا بحجاب

[الرمل]:

مـن رَأى الـحَـقَّ جِـهَـاراً عَـلَـنـاً	إنَّـمـا أبْـصَـرَهُ خَـلْـفَ حِـجَـابْ
وهـو لا يـعـرِفُـه وهـو بـه	إنَّ هـذا لـهـو الأمـر الـعُـجَـابْ
كـلُّ راءٍ لا يـرى غَـيْـرَ الـذي	هـو فـيـه مـن نـعـيـم وعَـذَابْ

صـورةُ الـرَّائـي تَـجَـلَّـتْ عـنـده وهي عَيْنُ الرائي بل عينُ الحِجَابْ

ورد في الصحيح تجلي الحق في الصور وتحوّله فيها وهو مرادنا بالحجاب ثبت عقلاً وشرعاً وكشفاً، والكشف يعطي ما يعطي الشرع سواء، وأن الحق لا يقبل التغيير، فأما بالعقل فالأدلة في ذلك معروفة ليس هذا الكتاب موضعها فإنه مبني على الشرع وعلى ما يعطيه الكشف والشهود، فإن العقول تقصر عن إدراك الأمر على ما يشهد به الشرع في حقه. وأما الشرع فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فلو تغير في ذاته لم يصدق هذا الحكم وهو صدق فاستحال أن يتغير في ذاته والحق يقول: إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، وقال: «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ» فالصور التي تقع عليها الأبصار والصور التي تدركها العقول والصور التي تمثلها القوّة المتخيلة كلها حجب يرى الحق من ورائها وينسب ما يكون من هذه الصور من الأعمال إلى الله تعالى كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فلم يزل الحق غيباً فيما ظهر من الصور في الوجود، وأعيان الممكنات في شيئية ثبوتها على تنوّعات أحوالها مشهودة للجن غيباً أيضاً، وأعيان هذه الصور الظاهرة في الوجود الذي هو عين الحق أحكام أعيان الممكنات من حيث ما هي عليه في ثبوتها من الأحوال والتنوّع والتغيير والتبديل تظهر في هذه الصور المشهودة في عين الوجود الحق، وما تغير الحق عما هو عليه في نفسه، كما أن الهباء ما تغير عن كونه هباء مع قبوله لجميع الصور فهي معان في جوهره، والمعاني المنسوبة إلى تلك الصور والأعراض والصفات من باب قيام المعنى فلا تزال الحجب مسدلة وهي أعيان هذه الصور فلا يرى إلا من وراء حجاب كما لا يكلم إلا من وراء حجاب، فإذا رآه الرائي كفاحاً فما يراه إلا حتى يكون الحق بصره فيكون هو الرائي نفسه ببصره في صورة عبده فأعطته الصورة المكافحة إذ كانت الحاملة للبصر ولجميع القوى فتشهده في الصورة عيناً من الاسم الظاهر إذ هو بصرك وكفاحاً وتشهده من الاسم الباطن علماً إذ هو بصر آلتك التي أدركت بها ما أدركت، وإنما قلنا كفاحاً لما ورد في الخبر النبوي الذي خرجه الترمذي وغيره في سياق هذه اللفظة عينها. ثم إن صاحب الرؤيا إذا رأى ربه تعالى كفاحاً في منامه في أي صورة يراه فيقول: رأيت ربي في صورة كذا وكذا ويصدق مع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فنفى عنه المماثلة في قبوله التجلي في الصور كلها التي لا نهاية لها لنفسه، فإن كل من سواه تعالى ممن له التجلي في الصور التي يتجلى فيها من هذه صفته: كن فتكون الصورة فيظهر بها من له هذا القبول من المخلوقين كالأرواح والمتروحنين من الأناسي كقضيب البان وشبهه، يقول الله تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٨] فسواه وعدله على مزاج يقبل كل صورة إذا شاء الحق، وجعل التركيب لله لا له، وفي نسبة الصور لله يقال في أي صورة شاء ظهر من غير جعل جاعل فلا يلتبس عليك الأمر في ذلك.

ولما لم يكن له تعالى ظهور إلى خلقه إلا في صورة وصوره مختلفة في كل تجل لا تتكرر صورة فإنه سبحانه لا يتجلى في صورة مرتين ولا في صورة واحدة لشخصين، ولما

كان الأمر كذلك لم ينضبط للعقل ولا للعين ما هو الأمر عليه، ولا يمكن للعقل تقييده بصورة ما من تلك الصور فإنه ينتقض له ذلك التقييد في التجلي الآخر بالصورة الأخرى وهو الله في ذلك كله لا يشك ولا يرتاب إلا إذا تجلى له في غير معتقده فإنه يتعوذ منه كما ورد في صحيح الأخبار، فيعلم أنّ ثم في نفس الأمر عيناً تقبل الظهور في هذه الصور المختلفة لا يعرف لها ماهية أصلاً ولا كيفية، وإذا حكم ولا بد بكيفية فيقول الكيفية ظهورها فيما شاء من الصور فتكون الصور مشاءة وكل مشاء معدوم بلا شك، فما ظهر لك إلا حادث في عين قديم، فما رأيت إلا حادثاً مثلك لأنك ما رأيت إلا صورة يقيدها نظرك ببصر هو الحق في عين هو الحق أعني في العين التي ظهرت في تلك الصورة، فهو مدرك عيناً في الآخرة والنوم وعلماً وشرعاً وغير مدرك علماً، ولا نشك إيماناً وكشفاً لا عقلاً إن بهويته أدرك المدرك جميع ما يدرك سواء أدرك جميع ما يدرك أو بعضه على أي حالة يكون استعداد المدرك اسم مفعول، فالبصر من المدرك اسم فاعل هوية الحق لا بدّ من ذلك، وهكذا جميع ما ينسب إلى هذه الآلات من القوى ما هي سوى هوية الحق إذ يستحق خلاف ذلك، فالآلات ومحلها أحكام أعيان الممكنات في عين الوجود الحق وهو لها كالروح للصورة التي لا يمسك بها ذلك النظام إلا هو، ولا تدرك تلك الصورة شيئاً إلا به حساً وخيالاً، والكل بحمد الله خيال في نفس الأمر لأنه لا ثبات لها دائماً على حال واحدة والناس نيام، وكل ما يراه النائم قد عرف ما يرى وفي أي حضرة يرى، فإذا ماتوا انتبهوا من هذا النوم في النوم، فما برحوا نائمين، فما برحوا في رؤيا، فما برحوا في أنفسهم من هذا التنوّع، وما برح ما يدركونه في أعينهم من التنوّع، فلم يزل الأمر كذلك، ولا يزال الأمر في الحياة الدنيا وفي الآخرة، هكذا كما أوردناه وذكرناه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة من دعاني فقد أدّى حق عبوديته ومن أنصف نفسه فقد أنصفني

[الطويل]:

إذا مــا دَعَـوْتَ الله مــن غــيْــر أمْــرِهِ ... فـلَـسْـتَ لـه عـبـداً ومـا أنْـصَـفَ الـعَـبْـدُ

وأصْبَحْتَ عبداً لـلـحُـظـوظ ومـا لـنـا ... وفـاءٌ ولا عَـهْـدٌ وقـد ثَـبَـتَ الـعَـهْـدُ

ولـولا قـيـامُ الـعـبـد فـي عـهـد رَبّـه ... لـمـا صَـحَّ «أوْفُـوا بـالـعُـقُـودِ» ولا وَعْـدُ

وليس سوى التّكْليفِ قُرْباً مخصّصاً ... يـعـيـنـه أمـر ويـثـبـتـه عَـقْـدُ

وقامت حُقُوقُ الحَقِّ من كل جانب ... علينا ولـولا القُرْبُ ما عُرِفَ البُعْدُ

فـمـن أنْـصَـفَ الأكـوانَ أنْـصَـفَ رَبَّـهُ ... وكـان لـه فـي ذات خـالـقـه الـخُـلْـدُ

وصَـحَّ لـه مَـجْـدٌ تَـلِـيـدٌ وطـارِفٌ ... وكـان لـه بـيـن الـمـلائـكـة الـحَـمْـدُ

ألا إنّـمـا الـعَـبْـدُ الـذي لـم يَـزَلْ بـه ... يـمـوت ويـحـيـا والـوقـوفُ لـه حَـدُّ

وما كَلَّفَ الرَّحْمٰنُ نفساً سوى الذي تقوم به فاجْهَدْ فقد ينفعُ الجُهْدُ
فمن قام بالرّحْمٰن كان له الجِدُّ ومن قام للرّحْمٰن كان له الجَدُّ
وخُصِّصَ بالآيات في عين نفسه وآفاقه فاحْمَدْ بما حُمِدَ الحَمْدُ

قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فوصفهم بأنهم لا يخرجون عن العبودية وأن الذلة حقيقتهم وهو قوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ فمن لم يرد أن يكون عبداً لي كما هو في نفس الأمر فإنه سيكون عبداً لطبيعته التي هي جهنم ويذل تحت سلطانها كما هو ليس هو في نفس الأمر فترك العلم واتصف بالجهل، فلو علم لكان عبداً لي وما دعا غيري كما هو في نفس الأمر عبد لي أحب أم كره وجهل أو علم، وإذا كان عبداً لي بدعائه إياي ولم يتكبر في نفسه أن يكون عبداً لي عند نفسه أعطيته التصريف في الطبيعة فكان سيداً لها وعليها، ومصرّفاً لها ومتصرّفاً فيها وكانت أمته، فانظر ما فاته من العز والسلطان من استكبر عن عبادتي ولم يدعني في السراء وكشف الضر تعبدته الأسباب فكان من الجاهلين.

ومما يؤيد أن الحق عين قوى العبد فالتصريف له لأن العبد لا تصرفه إلا قواه ولا يصرفه إلا الحق فقواه عين الحق دليلنا ما قالته الرسل سلام الله عليهم في ذلك، فأخبر محمد ﷺ عن الله أنه قال: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ**» يعني العبد إذا تقرّب إليه بالنوافل حتى يحبه وذكر قواه التي تصرفه، ونزل في القرآن تصديق هذا القول وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] والعمل ليس لجسم الإنسان بما هو جسم وإنما العمل فيه لقواه، وقد أخبر أن العمل الذي يظهر من الإنسان المضاف إليه أنه لله خلق فالحق قواه. وأما موسى فأخذ العالم في ماهية الحق لما دعا فرعون إلى الله ربّ العالمين فقال له فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] يسأله عن الماهية فقال له موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] يقول: إن استقر في قلوبكم ما يعطيه الدليل والنظر الصحيح من الدال، فأخذ موسى عليه السلام العالم في التعريف بماهية الحق والرسل عندنا أعلم الخلق بالله، فقال فرعون وقد علم أن الحق مع موسى فيما أجابه به إلا أنه أوهم الحاضرين واستخفهم لأن السؤال منه إنما وقع بما طابقه الحق وهو قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فما سأله إلا بذكر العالمين فطابق الجواب السؤال، فقال فرعون لقومه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥] أسأله عن الماهية فيجيبني بالأمور الإضافية فغالطهم وهو ما سأل إلا عن الربّ المضاف فقال له موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] فخصص الإضافة لدعوى فرعون في قومه أنه ربهم الأعلى فقال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] أي قد ستر عنه عقله لأن العاقل لا يسأل عن ماهية شيء فيجيب بمثل هذا الجواب، فقال له موسى لقرينة حال اقتضاها المجلس ما قال إبراهيم عليه السلام لنمروذ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] ولو لم يقل هنا

وما بينهما لجاز لأنه ليس بينهما شيء، وذلك لأن عين حال الشروق في ذلك الحيز هو عين استوائها هو عين غروبها، فكل حركة واحدة منها في حيز واحد شروق واستواء وغروب، فما ثم ما ينبغي أن يقال ما بينهما لكنه قال: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ لغموضه على الحاضرين فإنهم لا يعرفون ما فصلناه في إجمال وما بينهما فجاء بالمشرق المغرب والمعروف في العرف ثم قال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأحالهم على النظر العقلي، فما عرف الحق إلا بنا ولا وجد الخلق إلا به [المتقارب]:

فــمِــنْــهُ إلــيــنــا ومِــنَّــا إلَــيْــهْ فــيُــثْــنــي عــلــيــنــا ونُــثْــنِــي عَــلَــيْــهْ

وكذا ذكر إبراهيم عليه السلام الذي ذكر الله عنه أنه آتاه الحجة على قومه: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] فما ذكره إلا بالعالم، فالعالم ظاهره خلق وباطنه حق، ومن حكم باطنه يتصرّف، وما يؤثر في باطنه التصرف إلا تصرف في ظاهر من باطن، فما تصرف في باطنه الذي هو الحق إلا الحق لا غير، فتصريفه حكم عليه بالتصريف، فالصورة الظاهرة مماثلة للصورة الباطنة حتى أنّ بعض المتكلمين ذهب في كتابة القرآن وفي تلاوته المحدثة أن لكل حرف يكتبه الكاتب من القرآن أو يتلوه التالي من القرآن في ذلك الحرف المنطوق به الحادث أو المكتوب حرف مثله هو قديم، واضطره إلى ذلك كون الحادث لا يستقل في وجوده فلا بد من استصحاب القديم له، وهذا مذهب رئيس من رؤساء المعتزلة، ثم إن هذا القديم إن لم يكن على صورة ما خرج عنه وظهر وهو الحادث وإلا فليس هو له ولذلك كان العالم على صورة الحق، وكان الإنسان الكامل على صورة العالم وصورة الحق وهو قوله: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» فليس في الإمكان أبدع ولا أكمل من هذا العالم إذ لو كان لكان في الإمكان ما هو أكمل من الله، فإنّ آدم وهو من العالم قد خلقه الله على صورته وأكمل من صورة الحق فلا يكون، وذلك أن ظهورالعالم عن الحق ظهور ذاتي، فالحق مرآة للعالم ظهر فيها صور العالم فرأت الممكنات نفسها في مرآة الحق الوجود فتوقفت في الوجود عليه وتوقف في العلم به على العلم بها [مجزوء الرجز]:

فــلــم يَــكُــنْ إلاّ بــهــا ولــم تَــكُــنْ إلا بِــهِ
فــمــا لــهــا مــن مُــشْــبِــهٍ ومــا لــه مــن مُــشْــبِــهِ
يــا غــافــلاً عــن قــولــنَــا فــكُــنْ بــهــا تَــكُــنْ بِــهِ

فإذا كان الأمر كما ذكرناه فمن أنصف نفسه وأعطاها حقها فإنما أنصف الحق وأعطاه حقه لأنه أفرد نفسه بما يستحقه وأفرد ربه بما يستحقه، ومن تميز عن شيء فما هو عينه ولا مثله فيما تتميز به عنه لكنه مثله في كونه تميز فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.
واجعل بالك في كل منظوم في أول كل باب من أبواب هذا الكتاب فإنه يتضمن من علوم ذلك الباب على قدر ما أردت أن أنبه فيه عليها تجد في النظم ما ليس في الكلام في ذلك الباب، فتزيد علماً بما هو عليه ما ذكرته في النظم وعلى الله قصد السبيل.

الباب السادس عشر وأربعمائة
في معرفة منازلة عين القلب

[الكامل]:

عَيْنُ القُلُوب من الوُجُود النَّاظِرُ ... وعليه ساداتُ الطريق تُناظِرُ
فانْظُرْهُ في تقليبها متقلّباً ... ومُقَلّباً فهو الوجود الحاضرُ
ما ثَمَّ إلا ما يعاينُ وَقْتَهُ ... والماضي والآتي حديثٌ سائرُ
الظرفُ في الأكوان ليس بكائن ... ما ثَمَّ ثُمَّ وثَمَّ حُكْمٌ قَاصِرُ
هذا هو الحقُّ الذي ظهرتْ به ... أعيانُنا وأنا العليم الخَابِرُ
لو قُلْتُ ما هُوْ لم تَسَعْهُ عقولُكم ... أين العقولُ وليس ثَمَّ مُغَايِرُ

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ الذي ذكرها به ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ الذي ذكرها به إذا كانت مؤمنة ﴿تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] في تقلبها فتسكن إلى التقليب مع الأنفاس وتعلم أن الثبات على حال واحدة لا يصح، فإن صورة الحق لا تعطي الضيق، ولا اتساع لها ولا مجال إلا في التقليب، ولا تقليب للحق إلا في أعيان الممكنات، وأعيان الممكنات لا نهاية لها، فالتقليب الإلهي فيها لا يتناهى فهو كل يوم في شأن حيث كان، فما زال الأمر مذ كان، ولا يزال من حال إلى حال، فالعين آلة وبالبصر يقع الإدراك للمبصر وهو الحق فبه تبصر، ومن أبصر أمراً فقد علمه، وإذا علمه فقد سكن إليه فأبصر التقليب دائماً فعلمه دائماً فاطمأن به وسكن إليه، فهو في كل نفس ينظر إلى آثار ربه في قلبه فيما يقيمه وفيما خرج عنه ما يعطيه فيه وينبهه به عليه، فلا يزال صاحب هذا المقام في كل نفس في علم جديد فهو في خلق جديد وغيره في لبس من هذا الخلق الجديد، أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] أي ارفع عني اللبس الذي يحول بيني وبين العلم بالخلق الجديد فيفوتني خير كثير حصل في الوجود لا أعلمه، والحجاب ليس إلا التشابه والتماثل، ولولا ذلك لما التبس على أحد الخلق الجديد الذي لله في العالم في كل نفس بكل شأن، وما تنبه لهذا من الطوائف إلا القائلون بتجديد العالم في كل زمان فردوهم طائفة يقال لهم الحسبانية ولم يبلغوا فيه مبلغ الأمر على ما هو عليه لكنهم قاربوا كما قارب القائلون بأن العرض لا يبقى زمانين والعرض كل ما لا قيام له بنفسه، فهؤلاء أيضاً قاربوا الأمر وما بلغوا فيه ما هو الأمر عليه إلا القاضي أبو بكر بن الطيب فإنه قارب في بعض الأمر في موضعين: الموضع الواحد قوله في الأكوان إنها نسب لا عين لها، وقوله فيما نسب إلى الحق من صفة إن ذلك الحكم لمعنى ما هو عين المعنى الآخر الذي أعطى حكماً آخر فقارب أيضاً ولم يبلغ فيه ما هو الأمر عليه، وإنما تميز عمن يقول: إن سمع الحق وبصره عين علمه، والباقلاني لا يقول بهذا، ورأيت بفاس أبا عبد الله الكناني إمام أهل الكلام في زمانه بالمغرب وقد سألني يوماً في الصفات الإلهية فقلت له: ما هو الأمر عليه عندنا، ثم قلت له:

فما قولك أنت فيها هل أنت مع المتكلمين أو تخالفهم في شيء مما ذهبوا إليه فيها؟ فقال لي: أنا أقول لك ما عندي، أما إثبات الزائد على الذات المسمى صفة فلا بد منه عندي وعند الجماعة، وأما كون ذلك الزائد عيناً واحدة لها أحكام مختلفة كثيرة أو لكل حكم معنى زائد أوجبه ما عندنا دليل على أحديته ولا على تكثره، هذا هو الإنصاف عندي في هذه المسألة، وكل من تكلف في غير هذا دليلاً فهو مدخول والزائد لا بدّ منه، غير أنا نقول: ما هو هو ولا هو غيره لما قد علمت يا سيدنا من مذهب أهل هذا الشأن في الغيرين فقلت له: يا أبا عبد الله أقول لك ما قال رسول الله ﷺ لأبي بكر في تعبيره الرؤيا: «**أَصَبْتَ بَعْضاً وَأَخْطَأْتَ بَعْضاً**» فقال لي: لا أتهمك والله فيما تعلمه ولا أقدر أرجع عن الحكم بالزائد إلا إن فتح الله لي بما فتح الله به عليك مع اختلاف أهل النظر فيما ذهبت إليه، هذا قوله فتعجبت من إنصافه ومن تصميمه مع شهادته على نفسه أنه ما يتهمني وهو يخالفني فأشبه من أضله الله على علم ولكن لا يقدح ذلك عندي في إيمانه وإنما يقدح في عقله.

ثم نرجع ونقول: إن عين القلب ليس إلا ما هو الحق عليه في أحوال العالم ظاهراً وباطناً وأولاً وآخراً وإن تعددت الأسماء فالمسمى واحد والمفهوم ليس بواحد، فيحار الداعي إذا دعا ما يدري ما يدعو هل يدعو المسمى أو يدعو المفهوم، فإن الأسماء الإلّهية ما تعددت جزافاً، فلا بد من نسب تعقل لتعددها، فالمفهوم من العالم ما هو عين المفهوم من الحي والحي هو العالم، فالحي عين العالم، والمفهوم من الحي ما هو المفهوم من العالم ولا القادر ولا العزيز ولا العالي ولا المتعالي ولا الكبير ولا المتكبر، ولم نقل هذا عنه ولا سميته بهذا بل هو سمى لي نفسه بهذا فهل هو اسم له أو لما هو المفهوم منه؟ وهل المفهوم منه أمر وجودي أو نسبة؟ ثم مشاركتنا إياه في هذه الأسماء الواردة الإلهية كلها من أعجب ما في الأمر، ثم رفع المماثلة بيني وبينه فتعلم قطعاً أن هذه الأسماء من حيث المفهوم لا ترفع المماثلة [الهزج]:

فَقَدْ جِزْنَا وقد حارا ... فَمَنْ حَارَ فَمَا جَارَا
فَقَدْ أبْعَدَنِي عَيْناً ... وقد قَرَّبَنِي جَارَا
وقد عَيَّنَ لِي داراً ... وقد عَيَّنَنِي دَارَا
لَهُ يَسْكُنُهَا خُلْداً ... فَدُرْنَا حَيْثُ مَا دَارَا
فَمَنْ أصْغَى ومَنْ قَال ... ومَنْ كِسْرَى ومَنْ دَارَا
مَلِيكٌ مَا لَهُ مُلْكٌ ... مُحَالٌ حَار مَنْ حَارا
ونَادى مَنْ أتَى يَبْغِي ... فَكَانَت دارُه النَّارا

فما عينني داراً إلا له فبه أسمع وبه أبصر وقد وسعه قلبي وما عين لي داراً إلا هو فيه أقيم وبه أنزل، وهو يسترني بهويته عن خلقه، فهو الظاهر وأنا مخبوء في كنفه، فإذا سمع بالآلة أو بالنسب فبي يسمع وبي يبصر على ذلك كما أسمع به وأبصر به، فهو فيّ بالنوافل فإنه الأصل وأنا الزائد فإن ظاهر الصورة عيني وأنا فيه بالفرائض فبي يسمع وبي يبصر [الطويل]:

فمن كان سَمْعَ الحَقِّ فالحَقُّ سامعٌ ... ومن كان عَيْنَ الحَقِّ فالحَقُّ ناظرُ

فيختلفُ التقليب والعينُ واحدٌ على مثل هذا كل عُبْدٍ يُثابِرُ

الباب السابع عشر وأربعمائة
في معرفة منازلة من أجره على الله

[الكامل]:

إنّ الرسالة أجرُهَا مُتَحَقّقٌ لكن على الله الذي يَسْتَخْدِمُهْ
هذا هو العدلُ الذي قامت به أعيانُ كَوْنٍ لم يزل يَسْتَلْزِمُهْ
العَفْوُ والصَّفْحُ الجميلُ يُزيلُ ما قد كان من حقّ على مَنْ يَحْكُمُهْ
العَفْوُ إن خَصَّصْتَهُ نَزْرٌ وعفـ ـو الله كنزٌ عند من يَسْتَفْهِمُهْ

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وأخبر الله في كتابه عن كل رسول من رسله عليهم السلام أنه قال لأمته: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٠٩] فيما بلغه عن الله إليهم ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] فإنه تعالى هو الذي استخدمه في التبليغ فاعلم أن الله تعالى له المنة على عباده بأن هداهم للإيمان برسله فوجب عليهم شكر الله وحلاوة الرسول، فيضمنها الله عنهم بأن جعل أجر رسوله ﷺ عليه وضم في ذلك الأجر ما يجب على المؤمنين من الحلاوة له لما هداهم الله به فأنزله ﷺ منزلة من تضاعف الأجر أجر التبليغ وأجر ما قام فيه الحق خليفة عن المؤمنين إذ هو الوكيل تعالى عن أمره إيانا بقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] من غير أن ينقص مما هو للمؤمنين شيئاً من نعيمهم. فاعلم أن أجر التبليغ على قدر ما ناله في البلاغ من المشقة من المخالفين له من أمته التي بعث إليها ولما قاساه ولا يعلم قدر ذلك من كل رسول إلا الله ولا يتعين، وأما الذي يعطيه مما كان ينبغي أن يقابله به المؤمنون فهو على نوعين: النوع الواحد: على قدر معرفتهم بمنزلته ممن أرسله إليهم وهو الله فإن الله تعالى فضل بعضهم على بعض. والنوع الثاني: على قدر ما جاء به في رسالته مما هو بشرى لصاحب تلك الصفة التي من قامت به كان سعيداً عند الله، فما كان ينبغي أن يقابله به ذلك الرجل هو الذي يعطيه الحق، فإن ساوى حال المؤمن قدر الرسالة كان وإن قصر حاله عما تقتضيه تلك الرسالة من التعظيم، فإن الله بكرمه لا ينظر إلى جهل الجاهل بعظيم قدرها فيوفيه الحق تعالى على قدر علمه فيها، ولا نشك أن الله قد جعل المفاضلة في كل شيء والعالي والأعلى، وإن كان الإيمان بالله وبرسوله وبما جاء به عالياً فإنه يتفاضل بتفاضل شعبه وأبوابه، فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول لا إله إلا الله وما بينهما، فمن جمع شعب الإيمان كلها فجزاء الرسول من الله عن هذا الشخص الجامع على قدر منازلها عند الله العالم بالعالي منها وبالأعلى، فانظر ما للرسول عليه السلام من الأجور فأجر التبليغ أجر استحقاق، فإن رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْراً كِتَابُ اللهِ**». وأما من سأل من الصحابة عن

أمر ما من الأمور مما لم ينزل فيه قرآن فنزل فيه قرآن من أجل سؤاله فإن للرسول على ذلك السائل أجر استحقاق ينوب الله عنه فيه زائداً على الأجر الذي له من الله. وأما من ردّ رسالته من أمته التي بعث إليها فإن له عند الله أيضاً أجر المصيبة وللمصاب فيما يحب أجر، فأجره على الله أيضاً على عدد من رد ذلك من أمته بلغوا ما بلغوا، وله من أجر المصاب أجر مصائب العصاة فإنه نوع من أنواع الرزايا في حقه فإنه ما جاء بأمر يطلب العمل به إلا والذي يترك العمل به قد عصى فللرسول أجر المصيبة والرزية، وهذا كله على الله الوفاء به لكل رسول.

النوع الثاني ممن أجره على الله: وهو المهاجر يموت قبل وصوله إلى المنزل الذي هاجر إليه فإن أجره على الله على قدر الباعث الذي بعثه على الهجرة والناس في ذلك متفاضلون، ثم إن الله ينوب عن رسوله فيما يعطيه من الأجر فإنه خرج مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم إن له أجر الفوت بالموت الذي أدركه وذلك من الله فإنه الذي رزأه وحال بينه وبين الوصول إلى مهاجره فالدية عليه، فإن كان هذا الذي يموت عالماً عاقلاً فأعظم من لقاء الله ورؤيته فما يكون وقد حصل له ذلك بالموت فهو أفضل في حقه من أنه يعيش حتى يصل فإنه لا يدري ما دام في الحياة الدنيا ما يتقلب عليه من الأحوال فإنه في محل خطر سريع التبديل، وصح عن رسول الله ﷺ في هذا الباب ما خرّجه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لامْرِىءٍ ما نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» ثم يضاف إلى هذه الأجور قدر كرم المعطي وغناه، وهذا يدخل تحت قوله ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**» يعني من المجزيين وتحت قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ من قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وهذه الزيادة ما عينها الحق لأحد وأكد هذا الأجر على غيره ممن له أجر على الله بالوقوع وهو الوجوب، فإن الأجر قد يقتضيه الكرم من غير وجوب وقد يقتضيه الوجوب، والذي يقتضيه الوجوب أعلى، كما أن الفرائض أعلى وأحب إلى الله من النوافل، صح في الخبر أن الله تعالى يقول: «**مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ أَحَدٌ بِأَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**» فجعله أحب إليه، ثم قال: «**وَلاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**». فهذا نتيجة النوافل فما ظنك بنتيجة الفرائض وهي أن يكون العبد سمع الحق وبصره، وقد بينا صورة ذلك فيما تقدم فيريد الحق بإرادة العبد، وهذا المقام ذكرته العرب في حق محمد ﷺ وفي النوافل يريد العبد بإرادة الحق ويظهر معنى ما ذهبنا إليه في اتصاف الحق بنعوت المخلوق، وفي الوجه الآخر اتصاف العبد بصفات الحق وهذا في الشرع موجود.

النوع الثالث ممن أجره على الله: وهو من عفا عمن أساء إليه وأصلح يعني حال من أساء إليه بالإحسان فأصلح منه ما كان أوجب الإساءة إليه منه فما أراد هنا بأصلح إلا هذا، ولا يحصل في هذا المقام إلا من له همة عالية، فإن الله قد أباح له أن يجازي المسيء بإساءته على وزنها فأنف على نفسه أن يكون محلاً للاتصاف بما سماه الحق سيئة [الكامل]:

نَفْسُ الكريم كريمةٌ في كُلِّ ما ... تَجْري به الأهواءُ والأقْدارُ
والله يحكُمُ في النفوس بقَدْرها ... وهو الذي من حكمه يختارُ
فيجيء ذو اللُبِّ المجوّز عقله ... غير الذي حكمت به فَيَحَارُ

يقول الله تعالى في هذا المقام: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] يعني قوله وأصلح السيئة ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [فصلت: ٣٤و ٣٥] يعني هذه الصفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصلت: ٣٥] حبسوا أنفسهم عن أن يجازوا المسيء بإساءته إساءة ولو علم الناس قدر ما نبهنا عليه في هذه المسألة ما جازى أحد من أساء إليه بإساءة، فما كنت ترى في العالم إلا عفوّاً مصلحاً لكن الحجب على أعين البصائر كثيفة وليست سوى الأغراض واستعجال التشفي والمؤاخذة، ولو نظر هذا الناظر لما أساء هو على الله في ردّ ما كلفه به وركوبه الخطر في ذلك وإمهال الحق له وتجاوزه عنه في هذه الدار حتى يكون هو الذي يكشف نفسه حتى تقام عليه الحدود ويرمي نفسه في المهالك كما قال الصاحب: لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه في المعترف بالزنى وأن الملائكة الكتاب لا يكتبون على العبد من أفعاله السيئة إلا ما تكلم بها وهو قوله: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [قٓ: ١٨] وهو الكاتب وإن كانوا يعلمون ما تفعلون ما قال يكتبون، ثم أنه من كرم الله أن الكشف أعطى وقد ورد به خبر أن العبد إذا عمل السيئة قال الملك لصاحبه الذي أمره الحق أن يستأذنه في كتاب السيئة: أأكتب؟ فيقول له: لا تكتب وأنظره إلى ست ساعات من وقت عمله السيئة فإن تاب أو استغفر فلا تكتبها، وإن مرّت عليه ست ساعات ولم يستغفر فاكتبها سيئة واحدة ولا تكتبها إلا إذا تلفظ بها بأن يقول: فعلت كذا، أو تكون السيئة في القول فتكتب بعد مضي هذا القدر من الزمان، وأيّ مؤمن تمضي عليه ست ساعات لا يستغفر الله فيها فلهذا النوع أجر على الله من وجهين: أجر العفو وأجر العفو من الله كثير فإنه من الأضداد، وأجر الإصلاح وهو الإحسان إليه المزيل لما قام به من الموجب للإساءة إليه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ولو لم يكن في إحسانه المعبر عنه بالإصلاح إلا حصول حب الله إياه الذي لا يعدله شيء لكان عظيماً، فيكون أجر من هذا صفته على الله أجر محب لمحبوب وكفى بما تعطيه منزلة الحب، فما يقدر أحد أن يقدر أجر ما يعطيه المحب لمحبوبه، فهذا قد أومأنا إلى من له أجر على الله بأوجز عبارة طلباً للاختصار، فإن المقام عظيم والمنازلة كبيرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة من لم يفهم لا يوصل إليه شيء

[السريع]:

مَنْ يَفْهَم الأمْرَ فذاك الذي ... خاطبه الرحمنُ من كلّ عَيْنْ
وهو الذي دَارَ عليه الوَرَى ... وهو الذي في حُكْمِه كلّ أَيْنْ

إن إيـاسـاً خُـصَّ مـن بـاقـل لـمـا حَـوَتْـهُ حـكـمـة الـقَـبْـضَـتَـيْـنْ
قـد أوضـح الله لـنـا حُـكْـمَـهُ في كل ما في الكون من فِرْقَتَيْنْ
والـضِّـدُّ لا يـعـرفـه ضِـدُّهُ والـحـقُّ مـعـلـومٌ لـنـا دون مَـيْـنْ
قـد ثـبـت الـمـثـلُ لـه وانـتـفـى عَـنِّـيَ ذاك الـمـثـلُ مـن بـعـد بَـيْـنْ

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥] اعلم أن الكلام على قسمين: كلام في موادّ تسمى حروفاً وهو على قسمين: إما مرقومة أعني الحروف وتسمى كتاباً، أو متلفظاً بها وتسمى قولاً وكلاماً. والنوع الثاني كلام ليس في مواد، فذاك الكلام الذي لا يكون في مواد يعلم ولا يقال فيه يفهم فيتعلق به العلم من السامع الذي لا يسمع بآلة بل يسمع بحق مجرد عن الآلة، كما إذا كان الكلام في غير مادة فلا يسمع إلا بما يناسبه، والذي في المادّة يتعلق به الفهم وهو تعلق خاص في العلم، فإذا علم السامع اللفظة من اللافظ بها أو يرى الكتابة فإن علم مراد المتكلم في تلك الكلمة مع تضمنها في الاصطلاح معاني كثيرة خلاف مراد المتكلم بها فذلك الفهم وإن لم يعلم مراد المتكلم من تلك الكلمة على التفصيل واحتمل عنده فيها وجوه كثيرة مما تدل عليه تلك الكلمة ولا يعلم على التعيين مراد المتكلم من تلك الوجوه ولا هل أرادها كلها أو أراد وجهاً واحداً أو ما كان، فمع هذا العلم بمدلول تلك الكلمة لا يقال فيه أنه أعطي الفهم فيها وإنما أعطي العلم بمدلولاتها كلها لعلمه بالاصطلاح، لأن المتكلم بها عند السامع الغالب عليه أمران: الواحد القصور عن معرفة مدلولات تلك الكلمة في اللسان، والأمر الآخر أنه وإن عرف جميع مدلولاتها فإنه لا يتكلم بها إلا لمعنى تقتضيه قرينة الحال، فالذي يفهم مراده بها فذلك الذي أوتي الفهم فيها ومن لم يعلم ذلك فما فهم، فكأن المتكلم ما أوصل إليه شيئاً في كلامه ذلك. وأما كلام الله إذا نزل بلسان قوم فاختلف أهل ذلك اللسان في الفهم عن الله ما أراده بتلك الكلمة أو الكلمات مع اختلاف مدلولاتها فكل واحد منهم وإن اختلفوا فقد فهم عن الله ما أراده فإنه عالم بجميع الوجوه تعالى، وما من وجه إلا وهو مقصود لله تعالى بالنسبة إلى هذا الشخص المعين ما لم يخرج من اللسان فإن خرج من اللسان فلا فهم ولا علم، وكذلك أصحاب الأخذ بالإشارات فإن إدراكهم لذلك في باب الإشارات في كلام الله تعالى خاصة فهم فيه لأنه مقصود لله تعالى في حق هذا المشار إليه بذلك الكلام وكلام المخلوق ما له هذه المنزلة، فمن أوتي الفهم عن الله من كل وجه فقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب وهو تفصيل الوجوه والمرادات في تلك الكلمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فكثره لما فيها من الوجوه، فمن كان قلبه في كنّ أو كان عليه قفل أو كان أعمى البصيرة أو كان صادياً أو كان على قلبه ران فإن الله قد حال بينه وبين الفهم عن الله تعالى وإن تأوّله، ولهذا يتخذ آيات الله هزؤاً ودينه لهواً ولعباً لعدم فهمه عن الله ما خاطب به عباده فلهذا قال: من لم يفهم لم يوصل إليه شيء، فأما الران فهو صدأ وطخا، وليس إلا ما تجلى في مرآة القلب من صور ما لم يدعو الله إلى رؤيتها وجلاؤها من ذلك بالذكر والتلاوة. وأما الكنّ فهو كالمقصورات في

الخيام فهو في بيت الطبيعة مشغول بأمه ما عنده خبر بأبيه الذي هو روح الله فلا يزال في ظلمة الكن وهي حجاب الطبيعة فهو في حجابين كنّ وظلمة فهو يسمع ولا يفهم كما قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] أي لا يفهمون، وأما أن يكون في أذنيه وقر أو صمم فإن كان وقر فهو ثقل الأسباب الدنياوية التي تصرفه عن الآخرة، وإن كان طخأ فهو قساوته قلبه أن يؤثر فيه قبول ما يخطر له حديث النفس من النظر والإصغاء إلى هذا الداعي الذي هو الشارع وهو قوله تعالى: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] حتى لا يسمعوا دعاء فلا يرجعون ولا يعقلون لأنه بلسانهم خاطبهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فأصمهم الله وأعمى أبصارهم وختم على ألسنتهم فما تلفظوا بما دعاهم إليه أن يتلفظوا به. وأما القفل فهو لأهل الاعتذار يوم القيامة يقولون: نحن ما قفلنا على قلوبنا وإنما وجدناها مقفلاً عليها، وهذا من الجدال الذي قال الله عنهم فيه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] ولم نعرف من أقفلها فرمنا الخروج فخفنا من فك الختم والطبع فبقينا ننتظر الذي أقفل عليها عسى يكون هو الذي يتولى فتحها فلم يكن بأيدينا في ذلك شيء وكان منهم عمر بن الخطاب أعني من أهل الأقفال يقول الله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] فلما تولى الله فتحه أسلم فشد الله به الإسلام وعضده رضي الله عنه وأرضاه، فهذا قد ذكرنا سبب عدم الفهم عن الله تعالى موجزاً على قدر الوقت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع عشر وأربعمائة

في معرفة منازلة الصكوك وهي المناشير والتوقيعات الإلهية

[البسيط]:

إنّ التَّواقيعَ برهانٌ يدلُّ على ... ثُبُوتِ مُلْكِ الذي في الحُكْم يُعْطِيهَا

بها قد استخلف الرحمنُ والِدَنَا ... فهي الدليلُ على إثبات مُعْطِيهَا

والحكمُ يكشفُها في كل نازلةٍ ... وعندنا حالةٌ فيها تُغَطِّيها

إنّ النُّفُوسَ لَتَدْرِي ما نَطَقَتْ به ... وليس يمنعُها إلا تَعَاطِيهَا

اعلم أن الله تعالى لما شاء أن يجعل في أرضه خلفاء على من يعمرها من الإنس والجان وجميع الحيوانات وقدمهم ورشحهم للإمامة دون غيرهم من جنسهم جعل بينه وبينهم سفيراً وهو الروح الأمين، وسخر لهم ما في السموات من ملك وكوكب سابح في فلك وما في الأرض وما بينهما من الخلق جميعاً منه، وأباح لهم جميع ما في الأرض أن يتصرّفوا فيه وأيد هؤلاء الخلفاء بالآيات البينات ليعلم المرسلون إليهم أن هؤلاء خلفاء الله عليهم، ومكنهم من الحكم في رعيتهم بالأسماء الإلهية على وجه يسمى التعلق، وشرع لهم في نفوسهم شرائع، وحدّ لهم حدوداً، ورسم لهم مراسم يقفون عندها يختصون بها، لا يجوز لأحد من رعاياهم أن يتخذوها لأنفسهم شرائع ولا يقتدون بهم فيها، ثم نصب لهم شرائع يعملون بها هم

ورعيتهم، وكتب لهم كتباً بذلك نزلت بها السفراء عليهم ليسمعوها رعيتهم فيعلموا حدود ما أنزل الله الذي استخلف عليهم فيقفوا عندها ويعملوا بها سرّاً وجهراً، فمنها ما كتبه بيده تعالى وهو التوراة، ومنها ما نزل به الروح الأمين عليهم من الكتاب المكنون الذي نزل من الله من عرشه المنقول من الدفتر الأعظم وهو الإمام المبين فهو معه على عرشه، ونقل منه في اللوح المحفوظ قدر ما يقع به التصريف في الدنيا إلى يوم القيامة يتضمن ما في العالم من حركة وسكون واجتماع وافتراق ورزق وأجل وعمل، ثم أنزل ذلك كله في كتاب مكنون إلى السماء الدنيا وجعله بأيدي سفرة كرام بررة مطهرين أرواح قدس صحفاً مكرّمة مرفوعة مطهرة فيها توقيعات إلهية بما وعد الله المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاءت به رسله من اليوم الآخر والبعث الآخر، وما يكون في ذلك اليوم من حكم الله في خلقه، وتولى الله ذلك كله بنفسه على صورة الحق الذي بعث به رسله ليصدقهم عند عبيده فعلاً بحكمه ذلك فيهم كما صدقهم في حال احتجابه بما أيدهم به من الآيات، فآمن من آمن وكفر من كفر، فتوقف الأمر على ظهوره لعباده فيتولى الفصل بينهم بحكمه بنفسه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨] فإذا فصل وحكم وعدل وأفضل جعلهم في الفصل فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وهو سجن الرحمن ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨] يريد سجناً يحصرهم فيه، وينزل الفريق السعيد في دار كرامته وقيم ذلك الدار رضوان فإنها دار الرضوان ومتولي الدار الأخرى التي هي السجن مالك ومعناه الشديد يقال: ملكت العجين إذا شددت عجنه، قال قيس بن الخطيم يصف طعنة [الطويل]:

ملكتُ بها كفّي فأنهرْتُ فَتْقَهَا   يَرَى قائمٌ من دونها ما وَرَاءَهَا

يقول: شددت بها كفي فنزلت التوقيعات بما للمؤمنين من الخير عند الله العاملين الحافظين حدود الله من المسلمين والمسلمات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات والتائبين والتائبات والعابدين والعابدات والحامدين والحامدات والسائحين والسائحات والراكعين والراكعات والساجدين والساجدات والآمرين بالمعروف والآمرات والناهين عن المنكر والناهيات والمعرضين عن اللغو والمعرضات ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] وما هم عنها بساهين، إلى مثل هذا مما أوقع الله في توقيعاته من الصفات المرضية التي يحمدها. ثم بشرهم تعالى بأنهم الوارثون الذين يرثون الفردوس وهو أوسط الجنات فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١] يبشرهم بالبقاء والدوام في النعيم، وأخبرهم في التوقيع أنه عنهم راض تعالى وتقدس جلاله، ثم أنه ناب عنهم في الخطاب بأنهم عنه راضون فقال تعالى ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] وهنا نكتة لمن فهم ما تدل عليه ألفاظ القرآن من الرضى فقطع عليهم بذلك لعلمه بأنه واقع منهم، ثم إنه أنزل في الكتب والصحف وعلى ألسنة الخلفاء صلوات الله عليهم وسلامه من الوعيد والتهديد وأخذ من كفر بالله ونافق أو آمن ببعض

وكفر ببعض مما أنزله الله وجحد وأشرك وكذب وظلم واعتدى وأساء وخالف وعصى وأعرض وفسق وتولى وأدبر، وأخبر في التوقيع أنه من كان بهذه المثابة وقامت به هذه الصفات في الحياة الدنيا أو بعضها ثم تاب إلى الله منها في الدنيا ومات على توبة من ذلك كله فإنه يلقى ربه وهو راض عنه. فإن فسح له وأنسأ الله في أجله بعد توبته فعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات أي ما كان يتصرّف به من السوء عاد يتصرّف فيه حسناً، فبدل الله فعله بما وفقه إليه من طاعته ورحمه وغفر له جميع ما كان وقع منه قبل لك ولم يؤاخذه بشيء منه.
وما زالت التوقيعات الإلهية تنزل من الله على خلفائه بما يعدهم الله به من آمن بالله ورسله من الخير وما توعد به لمن كفر به من الشر مدة إقامة ذلك الخليفة المنزل عليه وهو الرسول إلى حين موته، فمن زمان خلافته إلى انتهاء مدة عمره لا تزال التوقيعات الإلهية تنزل عليه، فإذا مات واستخلف من شاء بوحي من الله له في ذلك أو ترك الأمر شورى بين أصحابه فيولون من يجمعون عليه إلى أن يبعث الله من عنده رسولاً فيقيم فيهم خليفة آخر إلا إذا كان خاتم الخلفاء فإن الله يقيم نواباً عنه فيكونون خلفاء الخليفة من عند الله لا أنهم في منزلة الرسل خلفاء من عند الله وهم الأقطاب وأمراء المؤمنين إلى يوم القيامة، فمن هؤلاء النواب من يكشف الله عنه الغطاء فيكون من أهل العين والشهود فيدعوا إلى الله على بصيرة كما دعا الرسول عليه السلام، ولولا أن الزمان قد اقتضى أن لا يكون مشرع بعد رسول الله ﷺ لكان هؤلاء مشرعين، وإن لم يأتوا إلا بشرع رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يكونون فيه كما كان رسول الله ﷺ في شرع من قبله إذا حكم به في أمته فهو فيه بمنزلة الأول الذي كان قبله لا أنه خليفة عنه في ذلك وإن قرره، فلما منع الله ذلك في هذه الأمة علمنا أنهم خلفاء رسول الله ﷺ وإن دعوا إلى الله على بصيرة كما دعا رسول الله ﷺ كما ورد في القرآن العزيز عنه في قوله: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] وسمّانا ورثة وأخبر ﷺ أنه ما ورثنا إلا العلم. ثم إن دعاءه ﷺ في أن يمتعه الله بسمعه ليسمع كلام الله وبصره ليرى آيات الله في الآفاق وفي نفسه ثم قال: واجعل ذلك الوارث منا يعني السمع والبصر فإن الله هو خير الوارثين، وقد قال تعالى في الخبر الصحيح عنه: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» فهوية الحق إذا كانت سمع العبد وبصره كان الحق الوارث منه الذي هو عين سمعه وبصره، فدعا بهذه الصفة أن تكون له حتى يقبض عليها فكأنه يقول: اللهم متعنا بك فأنت سمعنا وبصرنا وأنت ترثنا إذا متنا فإنك أخبرت أنك خير الوارثين وأنك ترث الأرض ومن عليها، أي أنت الخير الذي يرثه الوارثون من خلفائهم وهم متبعوا الرسل صلوات الله عليهم، فهو تعالى الخير الذي يناله الوارثون كما أنه خير الوارثين من حيث إنه وارث، وهكذا الإشارة في كل خير منسوب مضاف مثل خير الصابرين والشاكرين، ومثل هذا مما ورد عن الله في أي شرع ورد.

ومن التوقيعات الإلهية أيضاً المبشرات وهي جزء من أجزاء النبوّة، فإما أن تكون من الله إليه أو من الله على يدي بعض عباده إليه وهي الرؤيا يراها الرجل المسلم أو ترى له، فإن

جاءته من الله في رؤياه على يدي رسوله ﷺ فإن كان حكماً تعبد نفسه به ولا بد بشرط أن يرى الرسول ﷺ على الصورة الجسدية التي كان عليها في الدنيا كما نقل إليه من الوجه الذي صح عنده، حتى أنه إن رأى رسول الله ﷺ يراه مكسور الثنية العليا فإن لم يره بهذا الأثر فما هو ذاك، وإن تحقق أنه رسول الله ﷺ ورآه شيخاً أو شاباً مغايراً للصورة التي كان عليها في الدنيا ومات عليها ورآه في حسن أزيد مما وصف له أو قبح صورة أو يرى الرائي إساءة أدب من نفسه معه فذلك كله الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ما هو رسول الله فيكون ما رآه هذا الرائي عين الشرع إما في البقعة التي يراه فيها وإما أن يرجع ما يراه إلى حال الرائي أو إلى المجموع غير ذلك لا يكون، فإن جاءه بحكم في هذه الصورة فلا يأخذ به إن اقتضى ذلك نسخ حكم ثابت بالخبر المنقول الصحيح المعمول به بخلاف حكمه لو رآه على صورته فيلزمه الأخذ به ولا يلزم غيره ذلك فإن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، هذا هو الفرقان عند أهل الله بين الأمرين، فإنهم قد يرونه ﷺ في كشفهم فيصحح لهم من الأخبار ما ضعف عندهم بالنقل، وقد ينفون من الأخبار ما ثبت عندنا بالنقل، كما ذكر مسلم في صدر كتابه عن شخص أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فعرض عليه ألف حديث كان في حفظه فأثبت له ﷺ من الألف ستة أحاديث وأنكر ﷺ ما بقي، فمن رآه ﷺ في المنام فقد رآه في اليقظة ما لم تتغير عليه الصورة فإن الشيطان لا يتمثل على صورته أصلاً فهو معصوم الصورة حياً وميتاً، فمن رآه فقد رآه في أي صورة رآه، فالمبشرات من التوقيعات الإلهية وثم توقيعات أخر إلهية من الأسماء الإلهية تعرف إذا وردت على قلوب العارفين بالله في كشفهم وهو أن يكون التوقيع الذي يجيء إلى هذا الولي من اسم خاص إلهي من الأسماء الحسنى مما دون الاسم الله فإنه ما يخرج منه في توقيع أصلاً من حيث دلالته، وإنما يخرج منه إذا ذكر مقيداً بحال يستدعي اسماً خاصاً بذلك الحال كنى عن ذلك الاسم بالاسم الله لتضمنه خاصة، وأكثر ما تخرج التوقيعات لأولياء الله من الله والرحمن والرب والملك لا غير، هذا هو الغالب المستمر، فإن خرج باسم غير ما ذكرنا فهو شاذ يحكم به على حد ما تعطيه حقيقة ذلك الاسم وهو دليل على مضمون ذلك التوقيع لهذا الولي فيتصرف فيه به بحسب ما يقتضيه ويحتاج هذا الولي إلى علم عظيم بالمواطن وصور الأحوال ومراتب العالم وعلم المحو والإثبات والشؤون الإلهية، كل ذلك لا بد أن يعرفه العلماء بالله وإن لم يعرفوا ذلك وأمثاله فلا يتعدى قدره وليدخل في عمار الناس ويلزم الجماعة فإن يد الله معهم، ومن شذ من الجماعة على غير بصيرة فقد شذ إلى النار، بل صاحب البصيرة من المحال أن يشذ عن الجماعة فإنه لا يشذ عن يد الله ولكن يعلم وهو في الجماعة ومعها ما لا يعلمه واحد واحد من الجماعة إلا من كان مثله، فهو مع من هو مثله جماعة ما هو ممن صلى وحده، فالسعيد من وقف عند حدود الله ولم يتجاوزها، وإنا والله ما تجاوزنا منها حداً ولكن أعطانا الله من الفهم عنه تعالى فيها ما لم يعطه كثيراً من خلقه، فدعونا إلى الله على بصيرة من أمره إذ كنا على بينة من ربنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي عشرين وأربعمائة
في معرفة منازلة التخلص من المقامات

[البسيط]:

ما في الوُجود سِوَاهُ فانْظُرُوهُ كما — نَظَرْتُهُ تجدوا في هُوْ الذي ما هُوْ
ومن يَدُلُّ عليه فهو ذو جَدَلٍ — في قلبه منه أمثال وأشْبَاهُ
لولاه ما نَظَرتْ عَيْنٌ بناظرها — لولاه ما نَطَقَتْ بالذِّكْرِ أفْوَاهُ
فاحْكُمْ عليه به وأنت في عَدَمٍ — واثْبُتْ عليه فما في الكون إلا هُوْ
والله لولا وُجُودُ الحقّ ما قبلتْ — أقواله في وجود الكون لولاهُ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾ [الأحزاب: ١٣] والجامع للمقامات ما له مقام يقتضيه من عرف نفسه عرف ربه، وقوله: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ يعني الدالة عليها في الآفاق ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣] وهي مقيدة فلا بد أن يقيد مدلولها، وإن دلت على إطلاقه فكونه مطلقاً تقييد لأن التقييد تمييز، فمعرفة العارفين به تعالى ليس من رؤية الآيات الخارجة والداخلة فإنها تدل على مقيد في إطلاق أو إطلاق في مقيد، والعارفون يرونه عين كل شيء، المخلوق قال لمن أساء في حقه فقطع رحمه: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢] فالحق أولى بهذه الصفة لمن أساء في حقه بقطع رحمه، فإنا لا نشك أن قاطع الرحم ما قطعها إلا بجهله وما انقطعت الرحم، فالرحم موصولة في نفس الأمر فهي موصولة عند العالم، فمن جانبه موصولة ومن جانب الجاهل بها مقطوعة، ولما رجع الأمر كله لله مما وقعت فيه الدعاوى الكاذبة لم يدل رجوعها إلى الله تعالى على أمر لم يكن عليه الله بل هويته هي هي في حال الدعاوى في المشاركة وفي حال رجوع الأمر إليه والمقام ليس إلا للتمييز وما ثم إلا واحد فعمن يتميز فلا مقام، بل هوية أحدية فيها صور مختلفة فزيد إحدى العين لو لم يكن في الوجود إلا هو، لم يتميز عن شيء لأنه ما ثم إلا هو، ولم يتميز عنه شيء لأنك ما فرضت موجوداً إلا هو خاصة، ولا مقام له يتميز به عن غيره إذ لا غير هناك فإن يده متميزة عن رجله ورأسه متميز عن صدره وأذنه عن عينه، وكل جارحة منه متميزة عن غيرها من الجوارح، وكل قوّة منه في باطنه لها حكم ليس للأخرى، ومحل ليس للآخر، فتميزت الصور في عين واحدة لا تميز فيها ولا مقام لها، فنحن له كالأعضاء للواحد منا والقوى فما ثم عمن نتميز ولا يتميز عنا ولكن تميزنا بعضنا عن بعض كما قرّرنا، ولا تنسب الأحكام والمقامات لأعضائنا وإنما ينسب ذلك كله إلينا فيقال: بطش فلان بفلان، ومشى فلان إلى فلان، وسمع فلان كلام فلان، ورأى فلان فلاناً، ما ينسب شيء من هذا كله إلى آلة ولا إلى قوة ولا إلى عضو ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فله الحكم ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

فاعلم أنه لا يخلص من المقامات إلا وارث محمد ﷺ الذي آتاه الله جوامع الكلم

وعلم الأسماء كلها وعلم الأوّلين والآخرين، فـ«كلّ الصيد في جوف الفرا» فما ثم عمن نتميز فإن العالم كله في وارث محمد ﷺ كما هو في محمد ﷺ فقد خلص من حكم المقامات عليه فهو يحكم بها بحسب ما تعطيه الأحوال فإنه العليم الحكيم، فالأسماء الإلهية كلها هي تظهر المقامات وبها يحكم الحاكم ولا حاكم إلا الله وما يبدل القول لديه فالقول له الحكم فبالقول يحكم الحق، فتنبه لمن هو المحكوم عليه والمحكوم به والمحكوم فيه والحاكم تعرف من هو المخلص من المقامات والذي لا مقام له. وأما المقام المحمود وهو المقام المثنى عليه الذي أثنى عليه الله الذي يقيم الحق فيه سبحانه محمداً ﷺ فهو مقام شفاعة رسول الله ﷺ في الشافعين أن يشفعوا يوم القيامة من ملك ورسول ونبيّ ووليّ ومؤمن، وأن يخرج الحق من النار أو يدخل الجنة من لم يعمل خيراً قط حتى لا يبقى في النار إلا أهلها الذين هم أهلها فيبقيهم الله فيها على صفة ومزاج، لو أخرجهم الله بذلك المزاج إلى الجنة لتعذبوا وأضرّ بهم دخولها كما تضرّ رياح الورد بالجعل فيجيبه الله لما سأل فيه، وإذا زاد سبب ظهور أمر على واحد فهو شفاعة سواء كان شفعاً أو وتراً لا بدّ أن يكون زائداً على واحد، وأما الأحوال فلا سبيل إلى التخلص منها وهي فينا موهوبة وهي للحق ذاتية [البسيط]:

فالحُكْمُ للحال والأحوالُ حاكمةٌ ... وليس في الكون إلا الله والبَشَرُ
ونحن في عبرة لو كنت تَعْقِلُها ... فكل شيء سوى الرحمن يُعْتَبَرُ
نحن النجومُ التي في الغرب موقعها ... وليس يظهر إلا الشمسُ والقمرُ
الطَّمْسُ فينا وذاك الطمسُ ينفعُنا ... وليس يَدْرِيه إلا من له نَظَرُ
فلا تَخَفْ فسوى الرحمن ليس له ... عينٌ وليس له التحكيمُ والأثَرُ
إليه يرجعُ أمْرُ الخَلْقِ كُلِّهِمُ ... حتى القضاءُ وحتى الحكمُ والقَدَرُ
وهو الوجود الذي ما عنده ضَرَرٌ ... والشَّرُّ ليس له في خلقه أثَرُ
فالشرُّ ليس إليه جلّ خالقُنا ... عنه بذا جاء عن أرساله الخَبَرُ

من عرف الضلالة والهدى لم يطل عليه المدى، وعلم أن الله لا يترك خلقه سدى كما لم يتركه ابتدا، وإن لم ينزله منازل السعداء، فإن الله برحمته التي وسعت كل شيء لا يسرمد عليه الردا، وكيف يسرمده وهو عين الردا؟ فهو في مقام الفدا، وإشارة سهام العدا، فله الرحمة آخراً خالداً مخلداً فيها أبداً، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من طلب الوصول إليّ بالدليل والبرهان لم يصل إليّ أبداً فإنه لا يشبهني شيء

[البسيط]

تَوْحِيدُ رَبِّكَ لا عن كَشْفِ بُرْهَانِ ... فَكُنْ فوَحْدَتُه لا تقبلُ الثاني
وكل من يقبل الثاني فمُتَّصِفٌ ... في حُكْمه بزيادات ونقصانِ

وذاك واحدُ أعدادٍ فيقبله ... وواحدُ العَيْنِ لا يُدْرَى ببُرْهانِ
من يقبل المثل قد حارت خواطرنا ... فيه وهل رِيءَ سرّ عين إعلان
إنّ الدليلَ على التركيب نَشأتُه ... فكيف يعطي وحيد العين في الشَّانِ
يا بانياً عقده على الدليل لقد ... جَهِلْتَ أين أساس القصد يا باني
من كان ذا صِفَةٍ فأين وحدتُه ... المنزل القاصي ليس المنزل الدّاني
من الذي هو قَاصٍ في دلالتنا ... وقد أتَيْتُ على هذا بسُلْطانِ
الشَّرْعُ توحيدُه توحيدُ مرتبةٍ ... والحقُّ يَعْضُدُهُ من جانبٍ ثاني

قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يعني من كل عين من أعين الوجوه وأعين القلوب، فإن القلوب ما ترى إلا بالبصر، وأعين الوجوه لا ترى إلا بالبصر، فالبصر حيث كان به يقع الإدراك، فيسمى البصر في العقل عين البصيرة، ويسمى في الظاهر بصر العين، والعين في الظاهر محل للبصر والبصيرة في الباطن محل للعين الذي هو بصر في عين الوجه، فاختلف الاسم عليه وما اختلف هو في نفسه، فكما لا تدركه العيون بأبصارها كذلك لا تدركه البصائر بأعينها، ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله احْتَجَبَ عَنِ العُقُولِ كَمَا احْتَجَبَ عَنِ الأبْصَارِ وَإنَّ المَلأ الأعْلَى يَطْلُبُونَهُ كَمَا تَطْلُبُونَهُ أَنْتُمْ»** فاشتركنا في الطلب مع الملأ الأعلى واختلفنا في الكيفية، فمنا من يطلبه بفكره والملأ الأعلى له العقل وماله الفكر، ومنا من يطلبه به وليس في الملأ الأعلى من يطلبه به لأن الكامل منا هو على الصورة الإلهية التي خلقه الله عليها وليس الملك عليها، فلهذا صح ممن هذه صفته أن يطلب الله به ومن طلبه به وصل إليه فإنه لم يصل إليه غيره، وأن الكامل منا له نافلة تزيد على فرائضه إذا تقرب العبد بها إلى ربه أحبه، فإذا أحبه كان سمعه وبصره، فإذا كان الحق بصر مثل هذا العبد رآه وأدركه ببصره لأن بصره الحق فما أدركه إلا به لا بنفسه، وما ثَمّ ملك يتقرب إلى الله بنافلة بل هم في الفرائض، ففرائضهم قد استغرقت أنفاسهم فلا نفل عندهم، فليس لهم مقام ينتج لهم أن يكونوا الحق بصرهم حتى يدركوه به، فهم عبيد اضطرار، ونحن عبيد اضطرار من فرائضنا، وعبيد اختيار من نوافلنا، كما هو رب ذاتي من وجودنا ورب مشيئة من حكمه فينا، فالربوبية الذاتية ضرورية لا يمكن رفعها، وربوبية المشيئة عينها الإمكان في الممكنات فيرجح بها ما شاء، فمن لا مشيئة له لا ترجيح له، كمن لا نافلة لا يكون الحق بصره وإن أمكن خلاف هذا عقلاً، ولكن كلامنا في الواقع الذي أعطاه الكشف ما كلامنا في الجواز العقلي لأنه يستحيل عندنا أن ينسب الجوار إلى الله حتى يقال: يجوز أن يغفر الله لك، ويجوز أن لا يغفر الله لك، ويجوز أن يخلق ويجوز أن لا يخلق، هذا على الله محال لأنه عين الافتقار إلى المرجح لوقوع أحد الجائزين وما ثم إلا الله، وأصحاب هذا المذهب قد افتقروا إلى ما التزموه من هذا الحكم إلى إثبات الإرادة حتى يكون الحق يرجح بها ولا خفاء بما في هذا المذهب من الغلط، فإنه يرجع الحق محكوماً عليه بما هو زائد على ذاته وهو عين ذات أخرى، وإن لم يقل فيها صاحب هذا المذهب أن تلك الذات الزائدة عين الحق ولا غير عينه،

فالذي نقول به إن هذه العين المخلوقة من كونها ممكنة تقبل الوجود وتقبل العدم، فجائز أن تخلق فتوجد، وجائز أن لا تخلق فلا توجد فإذا وجدت فبالمرجح وهو الله، وإذا لم توجد فبالمرجح وهو الله يستقيم الكلام ويكون الأدب مع الله أتم بل هو الواجب أن يكون الأمر كما قلنا، وأما احتجاجهم بقوله: لو شاء الله ولو أراد الله، فهو عليهم هذا الاحتجاج لا لهم لزومية أن «لو» حرف امتناع لامتناع و«لا» حرف امتناع لوجود [الرمل]:

فانظُروا وُجُوبَهُ واعتَبِرُوا ... وهو نفْيٌ إن ذا سِرٌّ عَجِيبْ
مثل من يَدْعُو وما ثَمَّ لمن ... فهو يَدْعُو نَفْسَه ثم يُجِيبْ
وبهذا ورد النَّصُّ إلى ... كل ذي عقل سليم ونَجِيبْ
ولقد كان على مثل الذي ... جاءه يطوف دَهْراً ويَجُوبْ
مثل ذا زُرْتُ فَتًى من هاشم ... أصْلُه ما بين لَخْم وتَجِيبْ
واستَجِيبُوا للذي أسمعكم ... إنَّهُ المحرومُ من لا يَسْتَجِيبْ

فاعلم أن الإمكان للممكن هو حكم الذي أظهر الاختيار في المرجح، والذي عند المرجح أمر واحد وهو أحد الأمرين لا غير، فما ثم بالنظر إلى الحق إلا أحدية محضة خالصة لا يشوبها اختيار، ألا تراه يقول تعالى: لو شاء كذا لكان كذا فما شاء فما كان ذلك، فنفى عن نفسه تعلق هذه المشيئة، فنفى الكون عن ذلك المذكور، غير أن لله تعالى نسبتين في الحكم الواقع في العالم بالامتناع أو بالوقوع، فالنسبة الواحدة ما ظهر من العالم في العالم من الأحكام الواقعة والممتنعة بمشيئتهم أعني بمشيئة العالم التي أوجدها الله في العالم، والنسبة الأخرى ما يظهر من الأحكام في العالم لا من العالم، وذلك من الله بالوجه الخاص الذي لله في كل كائن الذي لا يعلمه إلا أهل الله خاصة، والمشيئة التي يشاء بها العالم من العالم مشاءة لله تعالى من الوجه الخاص ثم هي لله كالآلة للصانع ظاهرة التعلق منفية الحكم، فالعلماء بالله ينسبون الواقع بالآلة إلى الله، والذين لا علم لهم ينسبونها إلى الآلة، وطائفة متوسطة ينسبون إلى الآلة ما ينسب الحق إليها على حد علمه في ذلك، وينسبون الكل إلى الله أدباً مع الله وحقيقة، فهم الأدباء مع الله المحققين، وهم الذين جمعوا بين الشرع والعقل، والوجه الصحيح في العلم الإلهي لا يتمكن للعقل أن يصل إليه من حيث نظره لا بل ولا من جهة شهوده ولا من تجليه، وإنما يعلم بإعلامه على الوجه الذي يكون إعلامه لمن اختصه من صور عباده الظاهرة في وجوده، فإن العلم بالله من حيث النظر والشهود على السواء ما يضبط الناظر ولا المشاهد إلا الحيرة المحضة، فإذا وقع الإعلام الإلهي لمن وقع حيث وقع من دنيا وآخره حصل المقصود: [الوافر]

دلالاتُ الوُجُودِ على وُجُودي ... تُعارِضُها دلالاتُ الشُّهُودِ
فإنّ العين ما شهدتْ سواه ... بعين شهودها عند الوُجُودِ
وأين الغير لم يثبت فيبدو ... مع التكثير من عين المَزِيدِ
عجبتُ لمن يعزُّ وقد تعالى ... ويظهر في المُراد وفي المُرِيدِ

لـقـد نـزلـتْ مـعـالـيـه وجـاءت بـأحـكـام الـدلائـل بـالـسُّـعـودِ
أمـن بـعـد الـنّـزولِ يـكـون مَـرْقَـى وعَـيْـنُ نـزولـه عَـيْـنُ الـصُّـعُـودِ
إضـافـات الأمـور لـهـا احـتـكـامٌ فـكَـوْنُ الـرّبِّ فـي كـون الـعَـبـيـدِ
فـلـولا الأصـلُ مـا ظَـهَـرَتْ فُـرُوعٌ تـدلُّ عـلـى الأصـول مـن الـشّـهـيـد
لـقـد أظْـهَـرْتُ سِـرَّ الأمـر فـيـه لـكـل مُـشَـاقِـفٍ نَـدْبٍ جَـلِـيـدِ
صَـبُـورٍ لا يـقـاومـه صَـبُـورٌ عَـزيـزٍ فـي تـصـرُّفـه شَـدِيـدِ

فإن الدليل يعطي وجودي إذ ليس الدليل سوى عيني ولا عيني سوى إمكاني ومدلولي وجود الحق الذي إليه استنادي ونفي ما هو حق لي عمن إليه استنادي، والشهود ينفي وجودي لا ينفي حكمي فيمن ظهر فيه ما ينسب إليه أنه عيني وهو حكمي والوجود لله، فاستفدت من الحق ظهور حكمي بالصور الظاهرة لا حكم ظهور عيني، فيقال وما ثم قائل غيري إن هذه الصور الظاهرة في الوجود الحق التي هي عين حكمي أنها عيني هذا يعطيه الشهود، فالشهود يعارض الأدلة النظرية والخلق لله يعلمه وعلمه ليس سوى ما أعطاه ما أنا عليه في عيني، وليس في البراهين أصح من برهان إن وهو عند القائلين بالبراهين البرهان الوجودي، وليس يدل شيء منه على معرفة هوية الحق وغايته وعلمه بنسبة الوجود إليه وأن عينه عين وجودي ونفى ما يستحقه الحادث عنه غير هذا لا يعرف منه بالبرهان وساعده الشرع وهو ما أوحى به إلى الرسول المترجم عنه الذي أخبر عنه أنه لا ينطق عن الهوى، وأنزله في الكون منزلته فما نطقه به مما يساعد النظر الفكري: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهو من الكلام الظاهر الذي يمكن أن يكون له وجه غير الوجه الذي يضبطه العقل منه، ويكون له الوجه الذي يضبطه العقل منه، وما ورد السمع بأقوى من هذه الدلالة مع هذا الاحتمال الذي فيها [المتقارب]:

أصَحُّ الـبـراهـيـن بـرهـان أن ولـيـس يُـريـكَ مـن الـحـقّ عَـيْـنَـا
فـفـي الـحـق يـعـطـيـك نـفـيـاً وسَـلْـبـاً وفـيـمـا عـدا الـحـقّ يـعـطـيـك كَـوْنَـا
ويَـنْـفـي نُـعُـوتـاً أتـاك الـقـرآن بـهـا مـثـلُ قَـوْل الـمـشـرِّع أيْـنَـا
ويـأتـي بـه عـلـمـاً ظـاهـر يُـريـد بـذلـك حـفـظـاً وصَـوْنَـا
وعِـلْـمُ الإلـه بـمـا قـالـه أصـحُّ دلـيـل وأقـواه بَـيْـنـا
تُـحِـيـلُ الـعـقـولُ بـبـرهـانـهـا وُجُـودَ الـذي سـاقـه الـشـرعُ عَـوْنـا
ويـقـبـلُـه كـلُّ عَـقْـل سـلـ يـم ويـكـسـوه حـمـداً فـيـكـسـوه زَيْـنَـا

ولما كان الدليل النظري مثلنا في المعنى مربعاً في الظاهر والتثليث فرد والتربيع شفع لذلك لم يعلم من الحق إلا فردية المرتبة ولم تعلم إلا بالخلق، فارتبط الحق بالخلق والخلق بالحق ارتباط التربيع بالتثليث والتثليث بالتربيع في المقدمتين اللتين أعطت العلم بتوحيد الله في ألوهيته، فانظر إلى حكم الحقائق كيف اقتضت في الأدلة أن تكون على هذه الصورة، فضم الوجود حقاً وخلقاً وواجباً لنفسه وواجباً لغيره [الكامل]:

إنّ الــدلــيــلَ مُــثَــلَّــثُ الأرْكَــانِ ... كــالــبَـيْـت وهــو مُـرَبّـعٌ مَـخْـسُـوسُ
وكــذلــك الـحَـقُّ الـذي دَلَّـتْ عـلـيــ ... ـه الـكـائـنـات يُـبِـيـنُـهُ الـتّـقْـديـسُ
حَـظُّ الــدلــيــل مــن الإلٰــه وجــودُه ... مـا حَـظُّـهُ الـتـرجـيـلُ والـتـعـريـسُ
إنْ قُـلْـتَ إنّ الـحَـقَّ عـنـك مُـنَـزَّهٌ ... فــدلــيــلُ شَــرْعِ أنــه مــلــمــوسُ
ومُـنَـزَّهٌ أيـضـاً بـشَـرْعِـكَ فـاعْـتَـبِـرْ ... في الحالتين فعَقْلُكَ المبخوسُ
إن جـاء كَـرْبُ الـفِـكْـرِ مـن تـنـزيـهـه ... يـتـلـوه مــن رحـمـاتــه الـتـنـفـيـسُ
لله عــيــنٌ فــي الــمــراتــب كــلّــهــا ... تَـثْـلِـيـثٌ أوْ تَـرْبـيـعٌ أوْ تـسـديـسُ
فـــإذا أراد الله حِـــفْـــظَ وجـــوده ... فـي قـلـبـكـم يـأتـي بـه الـتـخـمـيسُ
الــحــقُّ يــحــفــظ نــفــسَــه وعــبــادَه ... كـالـخـمـس والـعـشـريـن يـا مـرؤوسُ
فـإذا أتَـيْـتَ بـخـمـسـةٍ مـضـروبـةٍ ... فـي خـمـسـة قـد زال عـنـك الـبُـوسُ
ولَـحِـقْـتَ بـالـمـلأ الـمـقـدَّس كـونـه ... وتَـعَـيَّـنَ الـتـأصـيـلُ والـتـأسـيـسُ
ودُعِـيتَ فـي الـمَـلأَيْـنِ إن حَـقَّـقْـتَ مـن ... يــدعــوك يــا مــن غَــرَّهُ إبــلــيــسُ
أنـت الـمُـقَـدَّمُ فـي الـوجـود كـآدم ... فـي كـونـه سَـبْـقـاً فـأنـت رئـيـسُ

أراد بالبيت في هذا النظم المشبه به الكعبة فإنها ذات ثلاثة أركان مثلثة الشكل ولهذا جعل الحجر، فلما اقتطع من البيت مقدار سبعة أذرع حجروا عليها بالحجر حتى يصح الطواف بالبيت، فإنه صح عن رسول الله ﷺ أن الكعبة لما بنيت قصرت بهم النفقة فتركوا من البيت سبعة أذرع في الحجر، ولهذا ردها عبد الله بن الزبير على قواعد إبراهيم عليه السلام، فأمر عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف أن يردها على ما كانت عليه أولاً ثم ندم وقال: يا ليتني تركت ابن الزبير وما تحمل، ثم ترك الأمر وأدار الحجر كما كان احتراماً للبيت لئلا يتعرض إليه بالهدم في كل وقت من الخلفاء على ما يعطيهم في ذلك فأبقاه سداً لهذه الذريعة فاعلم ذلك. أما تثليثه ليكون على اثنتي عشرة قاعدة كل ثلث من العلم بالله فالثلث الواحد من العلم بالله هو ما يعلم من الله بالدليل، والثلث الآخر ما يعلم منه سبحانه بالشهود عند التجلي، والثلث الثالث هو ما يعلم منه بإعلامه سبحانه وهو أصح الأقسام في العلم بالله وتفصيل قواعده يطول، وقد أحلناك في العلم بها عليه سبحانه لتدرك ذلك ذوقاً إن شاء الله تعالى، وعن هذه القواعد ظهرت بروج الفلك وهي الحمل، والثور، والتومان، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدالي، والحوت، ثلاثة منها نارية وهي: الحمل، والأسد، والقوس، وثلاثة ترابية وهي: الثور والسنبلة، والجدي، وثلاثة هوائية وهي: الجوزاء وتسمى التومان، ثم الميزان والدالي، وثلاثة مائية هي: السرطان، والعقرب، والحوت، فهي أربع مراتب مضروبة في ثلاثة المجموع اثنا عشر وهو انتهاء أسماء العدد من جهة بسائطه، ثم يقع التركيب إلى ما لا يتناهى، فمن واحد إلى تسعة والعقد ثلاثة عشرات ومئون وآلاف فالمجموع اثنا عشر، وأما التسديس من ذلك فالتثليث نصفه فهما طرفان التسديس وهو الأكثر، والتثليث وهو الأقل، والمتوسط بين التثليث

والتسديس التربيع كل ربع تسعة وهي منتهى بسائط مفردات العدد في الآحاد، فللتسعة نظر إلى الاثني عشر ونظر إلى الستة والكل ست وثلاثون قاعدة أمهات، وتنتهي إلى ثلاثمائة وستين قاعدة منها ظهر درج الفلك التي الكواكب تقطعه بسيرها، وقد ربط الله ما يحدثه في عالم الأركان بقطع هذه الكواكب في هذه القواعد على كثرة الكواكب، وأما ما يحدثه في عالم الجنان دون النار والدنيا فبما تعطيه القواعد بحركتها إلا بما يعطيه قطع الكواكب في هذه القواعد، ولذلك اختلف الحكم فيما يتكون في الجنة وما يتكوّن في الدنيا والنار، فما في الجنة مانع يمنع ما تعطيه حركة القواعد وفي الدنيا والنار موانع تمنع ما في قوّة القواعد من التكوين، وهذه الموانع عين قطع الكواكب في تلك القواعد [الكامل]:

ما أن أَقُولَ ولا سَمِعْتُ بمثله ... من ناظرٍ في الله بالبُرْهانِ
أنّ الإلٰهَ يراه وهو مُنَزَّهٌ ... بدليله في صورة الإنسانِ
إلا الذي قال الدليلُ بفَضْلِه ... وبعِلْمِه من عالَم الأرْكانِ
ذاك الرَّسُولُ وكُلُّ وارثِ حِكْمةٍ ... من كل معصوم من الشيطانِ
الفكرُ يعجزُ عن تَحَقُّق عِلْمِهِ ... بالله حين يَجُوّلُ في الأكْوانِ
ما للجَهالة في الذي جاءت به ... أقوالُه في الله من سُلْطانِ
فَهْوَ الوجودُ وما سواه باطلٌ ... في كل ما يبدو من الأعيانِ

فقد بان لك إن كنت من أهل الأذواق بالعلم بالله أنه لا يعلم إلا بإعلامه سبحانه وتعالى، وكل من قال إنه عز وجل يعلم بالدليل أو بالشهود فإنه يضرب في حديد بارد من جميع العلماء الناظرين في العلم بالأشياء بالدليل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من ردّ إليّ فعلي فقد أعطاني حقي وأنصفني مما لي عليه

[البسيط]:

إني رأيتُ وجوداً لستُ أدريهِ ... وهو الوجودُ الذي أعيانُنا فِيهِ
الفعلُ بيني وبين الحق مشتركٌ ... فيما يُظَنُّ وفيه بعضُ ما فيهِ
إني سمعتُ كلاماً غير منقطع ... فينا وفي عالم الأكوان مِنْ فِيهِ
بسَمْعه لا بسَمْعي أنّني عَدَمٌ ... وقد تَوَجَّهَ حَقٌّ ما نُوَفّيهِ
له وكيلٌ على من لا وجود له ... يُبْلِيهِ وقتاً وفي وقت يُعافيهِ
ولا يزال به ما دام مُتَّصِفاً ... بالكون في عينه حتى يُوافِيهِ
على نَقيضِ مقامٍ ليس يعرفُه ... وليس في نفسه أمرٌ يُنافيهِ
أنا وإيَّاه موجودان في قَرَنٍ ... ولا يزال عَدُوّي أو نُصافيهِ
فالأمرُ مفترقٌ والأمرُ مجتمعٌ ... والجودُ لا يبدو إلا من مُكَافِيهِ
إني رمزتُ أموراً ليس يعرفُها ... إلا الذي قيل فيه إنّه فيهِ

وليس يعلم ما أُبديهِ من عجب ... إلا الوجودُ الذي حار الورَى فيه
فالحمد لله لا أبغي به بدلاً ... وليس يَذريه إلا من يُكافيه

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] وقال لنبيه ﷺ في رميه التراب في أعين المشركين: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وقال: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] فعهد تعالى إليّ أن الفعل الذي يشهد به الحس أنه للعبد هو لله تعالى لا للعبد، فإن أضفته لنفسي فإنما أضيفه إلى نفسي بإضافة الله لا بإضافتي، فأنا أحكي وأترجم عن الله به وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فردّ الفعل الذي أضافه إليّ إلى نفسه وهو حقه الذي له قبلي بهذه الإضافة ولكن لا بدّ من ميزان إلهي نردّه به إليه فإن الله تعالى لما رفع السماء وضع الميزان في سباحة الكواكب في أفلاكها التي هي طرق في السموات لتجري بالمقادير الكائنة في العالم على قدر معلوم لا تتعداه فهي تعطي وتمنع بذلك الميزان الذي وضع الحق لها لأنها تشاهد الميزان الذي بيد الحق حين يخفض به ويرفع، فإذا نظرت إلى من رفعه الحق بميزانه أعطته ما يستحقه مقام الرفع، وإذا رأت الحق يضع بميزانه من شاء أعطته ما يستحقه مقام الوضع وذلك هو التسخير الذي ورد في القرآن في النجوم أنها مسخرات بأمره، فتعلم أن المكلفين هم المقصودون بالخطاب والتكليف فإنهم محل العقاب والثواب بخلاف سائر المخلوقين، وذلك للحجاب الذي ضرب الله بينهم وبين مشاهدة الأمور منهم ومن سائر المخلوقات أنها لله لا لهم فلما ادعوها أضافها الحق إليهم بحسب دعواهم وكلفهم ابتلاء منه لدعواهم، فمن كشف الله عن بصيرته ورأى الأفعال كلها الله لم ير إلا حسناً منه ومن سائر المخلوقات وأن الله هو الصادق فقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] فطلبنا على الإحسان ما هو فورد في الخبر الصحيح: أن الإحسان هو أن نعبد الله كأنا نراه فنشرع في العمل على الحجاب فإذا رأينا المعمول له رأينا العمل صادراً منه فينا ما نحن العاملين، فلما رأينا هذا خفنا من مزلة القدم فيما سماه من أفعاله حسناً وسيئاً، وعلمنا أنه ما أضاف العمل إلينا إلا لدعوانا في الأفعال أنها لنا، فإذا حصلنا في هذا المقام من الشهود فما كان من حسن أضفناه إليه تعالى خلقاً فينا، وأضفناه إلينا من كوننا محلاً لظهوره، وإن كان سيئاً ذلك العمل أضفناه إلينا بإضافة الله فنكون حاكين قول الله فيرينا الله حسن ما في ذلك المسمى سوءاً فبدل الله سيئاتنا حسنات وما هو إلا تبديل الحكم لا تبديل العين. ثم إنّ جميع ما طرأ منا في هذا كله من نظر ورد واحد فهو بهذه المثابة فإن ذلك كله فعل ظهر فينا ونحن أهل شهود، فليس لنا إلا الاستعداد الذي نحن عليه لقبول ما يخلق فيه من الأفعال المنسوبة في الشهود كما هي في سائر المخلوقات عند المخلوقات الذين يقولون مطرنا بفضل الله ورحمته بالوزن الذي جعله في سباحة كوكب من الكواكب وما قدره الله له من المنازل التي ينزل فيها، والمحجوب عن هذا المقام يقول: مطرنا بنوء كذا وكذا فيذكر الكوكب المجبور في ذلك ويضيف ما ظهر من المطر الصائب إليه كما يضيف أفعاله خلقاً إلى نفسه فسمي عند ذلك بأنه كافر بالله مؤمن

بمن رأى الفعل منه، ويسمى الأوّل مؤمناً بالله كافراً بمن رأى الحس الفعل صادراً منه من حيث ما هو محل، ومن المكلفين من ليس له هذا الشهود ولا تركه الإيمان يقف مع الحجاب الذي على عينه فيقول مثل ما يقول صاحب الشهود: مطرنا بفضل الله ورحمته تقليداً لا علماً حتى يتميز المؤمن من العالم، فإن المؤمن يقول ذلك لورود الخبر الصادق به، ويقوله صاحب النظر لما يعطيه دليل عقله مثل المؤمن سواء إلا أن له درجة زائدة، وهذان الصنفان لا يبلغان مبلغ صاحب الشهود في الدرجة فإنه يزيد عليهما بالعين، وكذل يشاهد أفعال الحق في نفسه كما يعلمها صاحب النظر كما يؤمن بها المقلد للخبر وكل له مقام معلوم، ولكن لا يستوي الذي يعلمون والذي لا يعلمون، فإن الحق لو رجع في التعريف عن إضافة هذه الأفعال إليه تعالى وكفر من أضافها إليه تعالى لرجع المؤمن لرجوع الحق عقداً وقولاً، ورجع العالم صاحب الشهود قولاً لا عقداً فإنه لا يتمكن لصاحب الدليل إذا استحكم الرجوع عنه ولا لصاحب الشهود. وإذا كان هذا هكذا فلا بدّ من التمييز بين المؤمن العالم والمؤمن، فقد بينا لك صورة الميزان والوزن وأن الوزن نعت إلهي لا ينبغي لعبد من عباد الله أن يغفل عنه في كل فعل ظاهر في الكون من موجود ما من الموجودات فلا يزال مراقباً له في غيره فيحكم عليه بالميزان الموضوع عنده وليس إلا الشرع، وأما مراقبته في نفسه فبخلاف ما يرقبه في غيره فإنه لا يشهده من غيره إلا بعد ظهوره ووقوعه في الوجود من هذا الشخص، وأما في نفسه فيرقب خاطره فإنه أوّل ما يوجده الله في خاطره وقلبه وقد عفا عنه تعالى فيما يجده من ذلك إلا بمكة. فإذا راقبه ورأى أن الله قد جعل فيه قصد إظهار أمر ما فإن كان من الأفعال المقرّبة إلى سعادته الأخروية المحبوبة إلى الله المثني عليه هيأ محله لقبول ما يفعل الله به من ذلك فيظهر الفعل وله الأجر من حيث ما هيأ نفسه واستعد والكل من عند الله، وإن كان مما ذمه الله شرعاً فلا يهيىء نفسه لظهور ذلك الفعل جهد الطاقة، فإذا كان ذلك الفعل من المقدر عند الله وقوعه في هذا المحل سلب الله عن هذا العبد عقله ولم يعطه الاختيار وأعماه حتى يظهر ذلك الفعل في محله، فإذا ظهر بحكم هذا الجبر الباطن ردّ الله إليه عقله فاعتبر واستغفر ربه وخر راكعاً وأناب، وهذا معنى قوله عليه السلام: «**إنَّ الله إذا أَرَادَ إنْفَاذَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ سَلَبَ ذَوِي العُقُولِ عُقُولَهُمْ حَتَّى إذا أَمْضَى قَدَرَهُ فِيهِمْ رَدَّهَا عَلَيْهِمْ لِيَعْتَبِرُوا**» وأما الغافل الجاهل فحكمه ما هو المقرر في العموم وأما قولنا لا بمكة فإن الشرع قد ورد أن الله يؤاخذ بالإرادة للظلم فيها، وهذا كان سبب سكنى عبد الله بن العباس بالطائف احتياطاً لنفسه، فإن الإنسان ما في قوته أن يمنع عن قلبه الخواطر، فمن لم يخطر الحق له خاطر سوء فذلك هو المعصوم ومن له بذلك، ولقد رأيت من هذه صفته وهو سليمان الدنبلي رحمه الله كان على قدم أبي يزيد البسطامي أخبرني عن نفسه على جهة إظهار نعمة الله عليه شكراً وامتثالاً لأمر الله حيث قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] فقال لي: إن له خمسين سنة ما أخطر الله له في قلبه خاطر سوء، فهذا من أكبر العنايات الإلهية بالعبد قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] فنكر الظلم فخاف مثل ابن عباس وغيره، والإلحاد

الميل عن الحق هنا. وأما الميزان الموضوع الذي يظهر لكل عين يوم القيامة يظهر على صورة ما كان في الدنيا بين العامة من الاعتدال وترجيح إحدى الكفتين فيعامل الحق صاحب ذلك الميزان بحسب ما يحكم به من الخفة والثقل فجعل السعادة في الثقل، والإنس والجن ما سميا بالثقلين إلا لما في نشأتهما من حكم الطبيعة فهي التي تعطي الثقل، ولما كان الحشر يوم القيامة والنشور في الأجسام الطبيعية ظهر الميزان بصورة نشأتهم من العقل، فإذا ثقلت موازينهم وهم الذين أسعدهم الله فأرادوا حسناً وفعلوا في ظاهر أبدانهم حسناً فثقلت موازينهم فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى مائة ألف مما دون ذلك وما فوقه. وأما القبيح السيئ فواحدة بواحدة فيخف ميزانه أعني ميزان الشقي بالنسبة إلى ثقل السعيد.

واعلم أن الحق تعالى ما اعتبر في الوزن إلا كفة الخير لا كفة الشر فهي الثقيلة في حق السعيد الخفيفة في حق الشقي مع كون السيئة غير مضاعفة ومع هذا فقد خفت كفة خيره فانظر ما أشقاه، فالكفة الثقيلة للسعيد هي بعينها الخفيفة للشقي لقلة ما فيها من الخير أو لعدمه بالجملة مثل الذي يخرجه سبحانه من النار وما عمل خيراً قط، فميزان مثل هذا ما في كفة اليمين منه شيء أصلاً، وليس عنده إلا ما في قلبه من العلم الضروري بتوحيد الله، وليس له في ذلك تعمل مثل سائر الضروريات، فلو اعتبر الحق بالثقل والخفة الكفتين كفة الخير والشر لكان يزيد بياناً في ذلك، فإن إحدى الكفتين إذا ثقلت خفت الأخرى بلا شك خيراً كان أو شراً، وأما إذا وقع الوزن به فيكون هو في إحدى الكفتين وعمله في الأخرى فذلك وزن آخر، فمن ثقل ميزانه نزل عمله إلى أسفل فإن الأعمال في الدنيا من مشاق النفوس والمشاق محلها النار فتنزل كفة عمله تطلب النار وترتفع الكفة التي هو فيها لخفتها فيدخل الجنة لأن لها العلو، والشقي تثقل كفة الميزان التي هو فيها وتخف كفة عمله فيهوي في النار وهو قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] فكفة ميزان العمل هي المعتبرة في هذا النوع من الوزن الموصوفة بالثقل في السعيد لرفعة صاحبها والموصوفة بالخفة في حق الشقي لثقل صاحبها وهو قوله تعالى: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ [الأنعام: ٣١] وليس إلا ما يعطيهم من الثقل الذي يهوون به في نار جهنم فهما وزنان: وزن الأعمال بعضها ببعض يعتبر في ذلك كفة الحسنات، ووزن الأعمال بعاملها يعتبر فيها كفة العمل، فمن أراد أن يفوز بلذة الوجود فليعطِ الحق من نفسه لمستحقه، والله عز وجل يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من غار علي لم يذكرني

[البسيط]:

قَـلْـبـي عـلـى كـل حـالٍ فـي تَـقَـلُّـبِـهِ مـن واحـدِ الـعَـيْـنِ لا كُـثْـرٌ ولا عَـدَدُ
إذا تَـنَـزَّلَـتِ الأسـمـاءُ مـنـه عـلـى مـنـازل الـقـلـب لـم يـشـعـر بـهـا أَحَـدُ
مـجـهـولـةُ الـعَـيْـنِ ما يَـنْـفَـكُّ صـاحـبُـهـا فـي حَـيْـرةٍ مـا لـهـا نَـقْـصٌ ولا أَمَـدُ

إن قلتُ إني وحيدٌ قال لي جسدي ... أليس مَرْكَبَكَ التركيبُ والجَسَدُ
فلا تَقُولَنَّ ما بالدار من أحدٍ ... فالدار معمورة والساكن الصَّمَدُ
وليس تَخْرُبُ دارٌ كان ساكنُها ... من لا يقوم به غِلٌّ ولا حَسَدُ

قال الله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] عن الوفاء بالعهد، فإنا عهدنا إليهم أن يذكروني فأنفوا أن يذكروني إلا على طهارة كما قال ﷺ: «**إنِّي كَرِهتُ أَنْ أَذْكُرَ الله إلاّ عَلَى طُهرٍ**»، أو قال: «**عَلَى طَهَارَةٍ**» ورأوا هؤلاء نفوسهم غير طاهرة لما فيها من الدعاوى في الخير الذي قام بهم من عند الله فينسبونه لأنفسهم وما أعطوا الله حقه من رد ذلك إليه كما فعل القليل من عباده إلى غير الدعاوى من الأمور التي لا تتصف النفوس بوجودها بالطهارة، فهؤلاء غاروا أن يذكروا الله وهم الذين يذكرون الله سراً في نفوسهم، وأما الذين يذكرونه علانية فإنهم شاهدوا قلوب العامة في غاية من الغفلة عن الله فقالوا: إذا ذكرنا الله فيهم ذكروه فإنهم إذا سمعوا ذكر الله لم يتمكن لهم إلا أن يذكروه فيذكرونه بقلوب غافلة عما يجب لله من التعظيم، فإذا كان مشهدهم هذا غاروا على الله فلم يذكروا وكان منهم الشبلي في أول حاله وغيره فما وفى هؤلاء بعهد الله ولا كانوا على معرفة من الله، وهذا حال أكثر أهل الطريق ولا سيما أهل الورع منهم، فخرجوا بهذا عن العهد الذي عهد إليهم الله من ذكره في قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] وما قيد حالاً من حال وهو قوله عليه السلام: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**» فإن القلب وإن غفل عن الذكر الذي هو حضوره مع المذكور فإن الإنسان من كونه سميعاً قد سمع ذكر الله من لسان هذا الذاكر فخطر بالقلب ووعى ما جاء به هذا الذاكر ولم يجيء إلا بذكر اللسان الذي وقع بالسمع فجرد له هذا القلب ما يناسبه من الذاكرين منه وهو اللسان فذكر الله بلسانه موافقة لذكر ذلك الذاكر المذكر له، والقلب مشغول في شأنه الذي كان فيه مع أنه لم يشتغل عن تحريك اللسان بالذكر فلم يشغله شأن عن شأن، فما ذكر أحد الله عن غفلة قط وما بقي إلا حضور باستفراغ له أو حضور بغير استفراغ بل بمشاركة، ولكن زمان أمره اللسان بالذكر ما هو زمان اشتغاله بغيره، فما ذكره غافل قط أي عن غفلة في حال أمر القلب اللسان بالذكر إلا في حال ذكر اللسان، ثم إن اللسان قد وفى حقه في العلانية من الذكر فإنه من الأشياء المسبحة لله، فمن غار على الله لم يعرفه وإنما يغار له لا عليه. وأما أهل هذه المنازلة فإنهم غاروا على الله أن يذكره غيره وهم أهل الدعاوى في الذكر وهم يشهدون أن الله هو الذاكر نفسه بلسان عبده فذكروه وهم يعلمون أنهم ما ذكروه مثل قوله: إن الله قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده وهو من جملة الذكر، فرأوا أن الحق لسانهم في الذكر فلم يذكروه بهذا الشهود فصحت المنازلة بقوله: من غار عليّ لم يذكرني لأنه عرف من الذاكر ومن المذكور فصار بمعزل عن الذكر في نفس الذكر ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ثم إن الأسماء الإلهية ما كثرها الله إلا لاختلاف الآثار الظاهرة في الكون، فإذا ذكره العارفون بالأسماء جعلوا الذكر لاسم ما من الأسماء، وجعلوا المذكور اسماً ما من الأسماء فكانت

الأسماء يذكر بعضها بعضاً فذلك الذكر ألسنة الأسماء ونحن وسائط فما ذكرناه إلا به ومن ذكرته به فلم تذكره، ألا ترى ذكر من أنعم الله عليه إذا ذكره بنعمته فذلك لسان نعمته وأنت من نعمته فما ذكره إلا إحسانه لا أنت، فمن غار على الله لم يذكره مع أنه أكثر عباد الله ذكراً بالصورة ولا ذكر له بالحقيقة فهو عبد حق لأنه الذاكر الصامت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة أحبك للبقاء معي وتحب الرجوع إلى أهلك فقف حتى أتشفى منك وحينئذٍ تمر عني قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] فهو المحب المحبوب

[الخفيف]:

مَنْ أحبَّ الفَنَا أحَبَّ لقائي ... من أحَبَّ البَقَا أحَبَّ الرجوعَا
ليس يبقى مع الشهود وجودٌ ... فترى الكَوْنَ في الشهود صَرِيعَا
كل حُبٍّ يكون فيه اشتياقٌ ... أوْدَعَ الحَقُّ فيه مَعْنًى بَدِيعَا
فإذا الله قال إني مُحِبٌّ ... فتَراني أصغي إليه سميعا
ويقول الفؤادُ في السّرّ مني ... إنْ يكن ما يقول كان مُطيعا
إن لله في الوجود عُلُوماً ... ليس تُعْطَى لمن يكون مُذِيعَا

اعلم أيدنا الله وإياك أن للحق حكمين: الحكم الواحد ما له من حيث هويته وليس إلا رفع المناسبة بينه وبين عباده. والحكم الآخر هو الذي به صحت الربوبية الموجبة للمناسبة بينه وبين خلقه وبها أثر في العالم الوجود وبها تأثر مما يحدث في العالم من الأحوال، فيتصف الحق عند ذلك بالرضا والسخط وغير ذلك، وللعالم حكمان: حكم به صحت المناسبة بينه وبين الحق وبها كان العالم خلقاً لله ومنسوباً إليه أنه وجد عنه فارتبط به ارتباط منفعل عن فاعل، ولهذا الحكم لم يزل العالم مرجحاً في حال عدمه بالعدم وفي حال وجوده بالوجود، فما اتصف بالعدم إلا من حيث مرجحه، ولا بالوجود إلا من حيث مرجحه، والحكم الآخر هو من حيث هويته وحقيقته لا نعت له من ذاته كما قلنا في الحق في حكم رفع المناسبة ليصح قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] في جناب الحق من حيث هويته، ومن جناب العالم من حيث هويته، والمناسبات أحدثت النعوت من حيث النسب لا من حيث إنها أعيان وجودية [الطويل]:

فما ثَمَّ إلا الحَقُّ والحَقُّ فاعلٌ ... وما ثَمَّ إلا الخَلْقُ والخَلْقُ مُنْفَعِلْ

فلما وقعت المناسبة بين الله وبين العالم صح أن يقول: يحبهم ويحبونه، فالحق محب محبوب، فمن حيث هو محب ينفعل لتأثير الكون، ومن حيث هو محبوب يبتلي، والعالم أيضاً محب لله محبوب لله، فمن حيث هو محب لله يبتلى لأجل الدعوى فيفتضح صاحب الدعوى الكاذبة ويظهر صاحب الدعوة الصادقة، ومن حيث إنه محبوب يتحكم على محبه

فيدعوه فيستجيب له ويرضيه فيرضى ويسخطه فيعفو ويصفح مع نفوذ قدرته وقوّة سلطانه إلا أن سلطان الحب قويّ كما قال الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد [الكامل]:

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنساتُ عناني ... وحَلَلْنَ من قلبي بكلّ مكانِ
ما لي تطاوعني البَرِيَّةُ كلُّها ... وأطيعهنَّ وهُنَّ في عِصْياني
ما ذاك إلاّ أن سلطانَ الهَوَى ... وبه قَوِينَ أعَزُّ من سُلْطاني

ومع وجود المناسبة بين الإنسان وبين العالم وأهله من العالم فلم يحب الرجوع إلى أهله من أحبه منهم مع كونهم محبوبين لله إلا لكون الله قد عين لأهله حقاً على هذا الشخص فيحب الرجوع إلى أهله ليؤدي إليهم حقوقهم التي أوجبها الله لهم عليه لا لغرض نفسي ولا لمناسبة كونية. ولما علم الله أن مثل هؤلاء ما رجعوا إلا امتثالاً لأوامره تعالى ووقوفاً عند حدوده لئلا يتجاوزوها ويتعدوها قال لمن هذه صفته، قف حتى أتشفى، وهو قوله ﷺ: «**لِي وَقْتٌ لا يَسَعُنِي فِيهِ غَيْرُ رَبِّي**» فهو لله في ذلك الموطن ليس لنفسه ولا لشيء من خلقه، وسامحه الحق في رجوعه إلى أهله من هذا المقام لكونه ما يرجعه إلا حق الله الذي افترضه عليه لمن رجع إليه من أهله بأنه يخاف فوت الوقت فيشهد له هذا الطلب للرجوع بأنه صادق الدعوى في محبته ربه تعالى لهذا قال: وحينئذٍ تمرّ عني وهو لا يمر عنه إلا من حيث هذا المقام فإنه بعينه حيث كان، قال تعالى في مثل هذا المقام الذي يقتضي الصبر عن الله من حيث هذا المشهد الخاص: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] برجوعك لأداء هذه الحقوق ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨] لعلمه بأنه محب والمحب يتألم للفراق والاشتغال بشهود الغير ولما سمعت في هذه المنازلة قوله حتى أتشفى منك ثقل عليّ لقلة معرفتي بالحق في حال هذه المنازلة، فلما علم أنه قد شق مثل هذا عليّ آنسني بغيري في هذا الحكم فوقفني على قوله ﷺ عن الله إنه أشد شوقاً إلى لقاء أحبابه منهم إليه فإنه تعالى أعلم بهم منهم به، وعلى قدر العلم يكون الشوق مع علمي أن مثل هذه الأمور إنما هي ألسنة المقامات والأحوال وأحكامها وأحكام الأسماء وهذا معنى قوله: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥] ولا يحشر إليه إلا من ليس عنده من حيث هذا الاسم الخاص وهو عنده من حيث حكم اسم آخر غير هذا الاسم، فمن عرف الحق بمثل هذه المعرفة لم يكبر عليه ما يسمعه عن الله من كل ما هو نعت المخلوق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من طلب العلم صرفت بصره عني

[الخفيف]:

طالبُ العِلْمِ ليس يدركُ ذاتي ... بدليلٍ لكَوْنِ ذاك مُحَالاَ
فتَراه يَراني في كل عينٍ ... وتراني أُبْدِيهِ حالاً فحَالا
فيرى نفسَه وليس سِوَائي ... والهُدى لا يكون قَطُّ ضَلالا

قد رفعنا أبصارَنا لشموسٍ أحرقتْ أوْجُهاً فكانت ظِلالا
فإذا ما يقولُ ربُّك - فاعلمْ - إنَّني واحدٌ عليك أحَالا

قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] التقدير فإذا ما يقول ربك إنني واحد فاعلم أنه عليك أحال اعلم أن العلم الدليليّ البرهاني يقضي برفع المناسبة بين العالم وبين هوية الحق وأن لا رؤية من وراء إلا بمناسبة بينه وبين المرئي فالحق لا يراه غير نفسه من حيث هويته، فصاحب هذا العلم في حال شهوده ورؤيته ربه يحكم أنه ما رآه وحكمه صحيح ورؤيته صحيحة فلهذا قال: صرفت بصره عني، فإذا صرف بصره عنه كان الحق بهويته بصراً لهذا العبد فإذا رآه بهذه الحال يكون ممن رأى الحق بالحق والرائي عبد والمرئي حق والمرئيّ به حق، وهذه أكمل رؤية تكون حيث كانت. وقد ورد في الصحيح أن العبد يحصل له هذا المقام في الحياة الدنيا وفي هذه النشأة التي تفارقها النفس المطمئنة الناطقة بالموت فقال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فكثر وجمع فإنها أبصار الكون ولم يقل: لا يدركه البصر وإن كان جمع قلة ولكن على كل حال هو أكثر من بصر، قال الشاعر في جمع القلة [البسيط]:

بأفْعُلٍ وبأفعالٍ وأفْعِلَةٍ وفِعْلَةٍ يُجْمَعُ الأدنى من العَدَدِ

فأفعل مثل أكلب، وأفعال مثل أبصار، وأفعلة مثل أكسية، وفعلة مثل فتية، ولما كانت هويته أحدية الوصف لم يكن فيها كثرة وهي بصره في كل مبصر، فهو وإن تعددت ذوات المبصرين فالبصر واحد من الجميع إذ كان البصر هوية الحق فيصح أن البصر عند ذلك يدركه لأنه ليس غيره فهو الرائي والمرئيّ به والمرئيّ، فإن الحقيقة المنفية في هذه الآية في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أن الأبصار هنا معان يدرك بها المبصرات ما هي تدرك المبصرات بخلاف ما هنا فإنه إذا كان عين الحق عين بصرك فيصح أن يقال في مثل هذا يدركه البصر فينسب الإدراك إليه مع صحة كونه بصراً للعبد، فتفطن لهذه المسألة فإنها نافعة جداً وتعلم من ذلك أن لله عباداً عجل لهم رؤيته في الدنيا قبل الآخرة، ولله عباداً أخر لهم ذلك، ولله عباداً لا يرونه إلا بأبصارهم في الآخرة وينزلون عن رتبة هؤلاء في الرؤية، ولله عباداً يرونه في الدنيا بأبصار إيمانهم وفي الآخرة البرزخية بأعين خيالهم يقظة ونوماً وموتاً، ومن هنا قال من قال من أهل الله إن العلم حجاب يريدون علم النظر الفكريّ أي العلم الذي استفاده العاقل من نظره في الله فهذا معنى قوله: صرفت بصره عني فما رآني من رآني إلا بي، ومن رآني ببصره فما رأى إلا نفسه فإنني بصورته تجليت له، فرجال الله علموا الله بإعلام الله تعالى فكان هو علمهم كما كان بصرهم، فمثل هؤلاء لو تصوّر منهم نظر فكريّ لكان الحق عين فكرهم كما كان عين علمهم وعين بصرهم وسمعهم، لكن لا يتصور من يكون مشهده هذا وذوقه أن يكون له فكر البتة في شيء إنما هو مع ما يوحى إليه على اختلاف ضروب الوحي وأنه من ضروب الوحي الفهم عن الله ابتداء من غير تفكر، فإن أعطى الفهم عن تفكر فما هو ذلك الرجل، فإنّ الفهم عن الفكر يصيب وقتاً ويخطىء وقتاً، والفهم لا عن فكر وحي

صحيح صريح من الله لعبده وذوق الأنبياء عليهم السلام في هذا الوحي يزيد على ذوق الأولياء، فإن قابل الأخص في الأعمّ محصل للأعم وليس قابل الأعم الذي لا يتعين فيه الأخص يحصل له فيه ذوق الأخص، وإن كان مندرجاً فيه فلا حكم له في الذوق، وإن كان له حكم في الكل إلا أنه لا يقدر على الفصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة السرّ الذي قال منه رسول الله ﷺ حين استفهم عن رؤية ربه فقيل له: رأيت ربك في ليلة الإسراء فقال: «نور أنَّى أراه»

[البسيط]:

النُّورُ كيف يراه الظّلُّ وهْوَ به ... قد قام في الكون عيناً في تَجَلِّيهِ

فإن تَحَلَّى بنَعْتِ النور كان له ... حُكْمُ التَّجَلِّي ولكن في تَحَلِّيهِ

الروحُ ظلٌّ وعينُ الجسم يبديه ... من نُورِ ذاتٍ يراه في تَدَلِّيهِ

وليس يدري الذي قلناه غَيْرُ فَتًى ... ذي خلوة فيراه في تَخَلِّيهِ

وقد يراه الذي وَلَّى بصورته ... عنه فبان له لدى تَوَلِّيهِ

قال الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فمن النور من يدرك به ولا يدرك في نفسه فهو حجاب عليك عن نفسه وأنت والعالم حجاب عليك، وقوله ﷺ: «**إِنَّ للهِ سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ**» أَوْ «**سَبْعِينَ حِجَاباً**» الشَّكُّ مِنِّي «**مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ**» الحديث، فحجاب النور من هذه الحجب واحد، والظلم الحجابية ما بقي من هذا العدد فهو عين الحجاب عليك وهو المحتجب فيه فبنفسه احتجب فالنور لا يرى أبداً، والظلمة وإن حجبت فإنها مرئية للمناسبة التي بينها وبين الرائي، فإنه ما ثم ظلمة وجودية إلا ظلمة الأكوان، وكان ﷺ يسأل الله في دعائه أن يجعله نوراً لما علم أن الله هو النور، وعلم أن النور الأدنى يندرج في النور الأعلى، وعلم أن الحق هو جميع ما يكون به العبد عبداً من جميع الوجوه، وأنه من حيث هويته لا نعت له ولا صفة فعلم أن نسبة النعتية إليه، والصفة ما هو غير الحق لا من حيث صفة الحق بل من هويته ولا يذكر العبد بهويته وإنما يذكر بما يقوم به من الصفات وليست إلا هوية الحق فقوله: «**وَاجْعَلْنِي نُوراً**» عين قوله: «واجعلني أنت» وأنت لا يكون بالجعل فقال له: أقمني في علم شهود أني أنت حتى أتميز عن غيري من هويات العالم فأعلمهم وأعلم من أنا وهم لا يعلمون، وإذا كان الأمر على هذا فما اندرج نور في نور وإنما هو نور واحد في عين صورة خلق، فانظر ما أعجب هذا الاسم فالخلق ظلمة ولا يقف للنور فإنه ينفرها، والظلمة لا ترى النور وما ثم نور إلا النور الحق، فلهذا قال ﷺ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**» فإنه ما رآه مني إلا هويته وظلمتي لا تدركه، وهذا سر خفيّ عن إدراك الأدلة النظرية وعن إدراك الشهود في الصور وهو من أسنى العلوم الإلهية الواضحة فلم يدركها من العبد إلا هو، فهو العلم والعالم والمعلوم في هذه المسألة.

ولما فصل الإضافة إلى السموات وهو ما غاب من القوى وعلا وإلى الأرض وهو ما ظهر من القوى الحسية ودنا قال الله تعالى: إنه عين نفورها عن ذاتها فلم يشهد إلا هو فهو عين السموات والأرض، ولم نقل كما قال فيه المفسر معناه منوّر أو هاد فذلك له اسم خاص وهو الهادي الذي هداهم لإباية حمل الأمانة وإلى الإتيان بالطاعة لأمره، فهو من باب إجابة الأسماء للأسماء إذا دعا بعضها بعضاً فذلك علم آخر إلهي، وأما هنا فما قال إلا أنه ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] والنور النفور، ويؤيد ذلك التشبيه بالمصباح على الوصف الخاص فإن مثل هذا النور المصباحيّ ينفر ظلمة الليل بل هو عين نفور ظلمة الليل مع بقاء الليل ليلاً، فإنه ليس من شرط وجود الليل وجود الظلمة وإنما عين الليل غروب الشمس إلى حين طلوعها سواء أعقب المحل نور آخر سوى الشمس أو ظلمة، فوقع الغلط في ماهية الليل ما هي ولهذا قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢] فلو كان عين الليل عين الظلمة ما نعته بأنه أظلم فقد يكون الليل ولا ظلمة، كما أنه قد يكون النهار ولا ضوء، فإن النهار ليس إلا زمان طلوع الشمس إلى غروبها وإن طلعت مكسوفة فلا يزول الحكم عن كون النهار موجوداً، فإن قيل: ما سمي النهار نهاراً إلا لاتساع الضوء فيه. قلنا: وإن كان فلا يقدح فيما ذهبنا إليه من ماهية النهار فإنّ ذلك الكسوف أمر عارض لا يقدح في طلوع الشمس ولو أظلمت في نفسها فكيف وعلة الكسوف لها معلوم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة قاب قوسين

[البسيط]:

مـا قَـابُ قَـوْسَـيْـنِ إلا قُـطْـرُ دائـرةٍ ... تُـعْـطي الـتَّـمَـيُّزَ بـيـن الـكَـوْنِ والـلّـهِ
فـمـن يـعـايـن عَـيْـنـاً لا تـغـايُـرهـا ... عَـيْـنٌ فـذاك دُنُـوُّ الـعـالِـم الـسَّـاهـي
وهـو الـذي فـيـه أو أدْنَـى وفـيـه لـه ... أسرارُ علم ولا تدري الـنُّـهَى ما هي
الـشـكُّ يـظـهـر فـي سـلـطـان أو فَـلَـهـا ... حُكْمُ المقرَّب ذي السلطان والجاهِ
فـهـذه آيـةٌ فـي الـنـجـم قـد نـزلـت ... دلّـتْ عـلـى كـون أمـثـالٍ وأشْـبَـاهِ
وكـل مـن جـئـتـه يـدريـه مـخـتـبـراً ... عـقـداً وفـعـلاً لـدى الـتـعـيـق والـبَـاهِ
وذاك حـيـن تـجـلّـى صـورة دائـرة ... يـقـول بـالـلّـفـظ أنـت الآمـرُ الـنـاهـي

قال الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] إشارة إلى التقريب الصوري ورد في الخبر النبوي أن رسول الله ﷺ يقول: **«لَوْ دَلَّيتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَى الله»** وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقال ﷺ: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيلَةٍ فِي الثُّلُثِ البَاقِي مِنَ اللَّيلِ»** الحديث، فحير العقول الضعيفة ونبه العقول المعتكفة على باب حضرته فعلمت ما أراد ولو استزدته لزاد كما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ [النجم: ٨] في إسرائه إلى السموات ليريه من آياته ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] فقوى ذلك منبهاً ومشيراً على أنه عين

الحبل الوارد المذكور في الخبر، فدل أن نسبة الصعود والهبوط على السواء في حقه، فجمع بين خبر صاحب الحوت وصاحب الإسراء أنه لم يكن واحد منهما بأقرب إلى الحق من الآخر، فهي إشارة إلى عدم التحيز وأن الذات مجهولة غير مقيدة بقيد معين، فكان من آياته التي أراه ليلة إسرائه كونه تدلى في حال عروجه، وهذا عين ما أشار إليه أبو سعيد الخراز في قوله عن نفسه: ما عرفت الله إلا بجمعه بين الضدين ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فكان بهويته في الجميع في حال واحدة بل هو عين الضدين، فلولا أنت ما كان دنو ولا تدل [مخلع البسيط]:

فلا دُنُوٌّ ولا تَدَلٍّ ولا عُرُوجٌ ولا هُبُوطُ
فهذه إنْ نَظَرْتَ فيها مُحَقَّقاً كلها خُطُوطُ

فأنت من حيث هويتك لا نعت لك ولا صفة، قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي فإني بكيت زماناً وضحكت زماناً وأنا اليوم لا أضحك ولا أبكي، والصعود والهبوط نعت، فلا صعود للعبد ولا هبوط من حيث عينه وهويته، فالصاعد عين الهابط فما دنا إلا عين من تدلى، فإليه تدلى ومنه دنا فكان ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩] وما أظهر القوسين من الدائرة إلا الخط المتوهم، وكفى بأنك قلت فيه المتوهم والمتوهم ما لا وجود له في عينه، وقد قسم الدائرة إلى قوسين فالهوية عين الدائرة وليست سوى عين القوسين، فالقوس الواحد عين القوس الآخر من حيث الهوية وأنت الخط القاسم المتوهم، فالعالم في جنب الحق متوهم الوجود لا موجود، فالموجود والوجود ليس إلا عين الحق وهو قوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] فالأدنى رفع هذا المتوهم، وإذا رفع من الوهم لم يبق سوى دائرة فلم تتعين القوسان، فمن كان من ربه في القرب بهذه المثابة أعني بمثابة الخط القاسم للدائرة ثم رفع نفسه منها ما يدري أحد ما يحصل له من العلم بالله وهو قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وما عين لنا في الذكر الحكيم ما أوحى ولا ذكر رسول الله ﷺ ما أوحي في ذلك القرب به إليه، فكان التلقي في هذا الموطن تلقياً ذاتياً لا يعلمه إلا من ذاقه، وليست في المنازلة منازلة تقتضي التقاء النقطة بالمحيط إلا هذه المنازلة، فإنه إذا التقى المحيط بالنقطة ذهب ما بينهما فذلك ذهاب العالم في وجود الحق، ولم تتميز نقطة من محيط بل ذهب عين النقطة من كونها نقطة وعين المحيط من كونه محيطاً فلم يبق إلا عين وجودية مذهبة حكمها وحكم ما ينسب من العالم إليها ذهاباً كلياً عاماً عيناً وحكماً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة الاستفهام عن الأنيتين

[الوافر]:

إذ ما كُنْتَ عيني في وجودي وكل أين قواي أنا وأنتا

فإما أن يكون الشأنُ عيني وإما أن يكون الشأن أنتا
وإما أن أكون أنا بوَجْهٍ ومن وَجْهٍ سواهُ تكون أنتا
فأنت الحرفُ لا يُقْرَا فيُدْرَى وأنت مُحَيِّرُ الحَيْرانِ أنتا
أرى عَجْزاً وذاك العجزُ عيني وجهلاً بالأمور فأين أنتا
فما أقْوَى على تحصيل علم ولا تَقْوَى على التوصيل أنتا
فحِزْنَا في وجود الحقّ عَجْزاً وجِزْتَ وعِزّةِ الرحمٰن أنتا
فزال أنا وهو والأنت فانظر إلى قولي إذا ما قلت أنتا
فمن أعني بأنت ولست عيني ولا غيري فحرت بلفظ أنتا
لأني لا أرى مدلولَ لَفْظي ولا أنا عالمٌ من قال أنتا
أرى أمراً تَضَمَّنَهُ وجودي وأنت تغارُ منه وليس أنتا
فإن زِلْنَا تقول فَعَلْتَ عبدي فتُثْبِتُنا بأمر ليس أنتا
فقل لي من أنا حتى أراه فأعرف هل أنا أو أنت أنتا
فلولا الله ما كنا عبيداً ولولا العبد لم تَكُ أنت أنتا
فأثْبِتْني لِتُثْبِتَكُمْ إلهاً ولا تَنْفي الأنا فيزول أنتا

قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فهذا إثبات الأنيتين وإثبات حكمهما، ثم نفى الحكم عن إحداهما بعد إثباته وهو الصادق القول. فاعلم أن أنية الشيء حقيقته في اصطلاح القوم فهي في جانب الحق ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] وفي جانب الخلق الكامل ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٦] فهاتان أنيتان ضبطتهما العبارة وهما طرفان، فلكل واحدة من الأنيتين حكم ليس للأخرى [الطويل]:

وذاك الذي قالوا وذاك الذي عَنُوا وما ثَمَّ إلا الله ليس سواهُ
وكَلَّفَ والتكليفُ يطلب حادثاً ويطلب من يدري وما ثَمَّ إلا هُوْ

فالأنية الإلهية قائلة، والأنية القابلة سامعة، وما لها قول إلا بالتكوين، فلا يقال لأنية الخلق في حال وجودها، وما القول إلا لمن هو في حال العدم فلا تكليف إلا في المعدوم لعدم نسبة الإيجاد للحادث، فلا يقال للمنفعل انفعل فقد انفعل بقبوله الوجود، ولا إيجاد يكون عنه فلا قول له، وما ثم عبث فإذا كلف قال لما كلف به ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] في حال عدمه ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] في محل هذا الحادث فينسب إليه وليس إليه، فلهذا كانت الأنيتان طرفين فتميزتا إلا أن لأنية الحادث منزلة الفداء والإيثار لجناب الحق بكونها وقاية، وبهذه الصفة من الوقاية تندرج أنية العبد في الحق اندراجاً في ظهور وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤] فلولا نون العبد التي أثر فيها حرف الياء الذي هو ضمير الحق فخفض النون فظهر أثر القديم في المحدث، ولولاه لخفضت النون من أن وهي أنية الحق كما أثرت في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] فإنه لا بد لها من أثر فلما لم تجد أنية العبد

التي هي نون الوقاية أثرت في أنية الحق فخفضتها ومقامها الرحمة التي هي الفتح، فما أزاله عن مقامه إلا هو ولا أثر فيه سواه، فأقرب ما يكون العبد من الحق إذا كان وقاية بين أنية الحق وبين ضميره فيكون محصوراً قد أحاط به الحق من كل جانب وكان به رحيماً لبقاء صفة الرحمة فبابها مفتوح وبها حفظ على المحدث وجوده فبقي عين نون الوقاية الحادثة في مقام العبودية الذي هو الخفض المتولد عن ياء ضمير الحق فظهر في العبد أثر الحق وهو عين مقام العبد الذلة والافتقار، فما للعبد مقام في الوصلة بالحق تعالى أعظم من هذا حيث له وجود العين بظهور مقامه فيه وهو في حال اندراج في الحق محاط به من كل جانب فعرف نفسه بربه حين أثر فيه الخفض فعرف ربه حين أبقاه على ما هو عليه من الرحمة فإنه الرحمن الرحيم، فما زال عنه الفتح بوجود عين العبد فلا يشهده أبداً إلا رحماناً ولا يعلمه أبداً إلا مؤثراً فيه، فلا يزال في عبوديته قائماً وهذا غاية القرب، ولما حار أبو يزيد في القرب من الله قبل أن يشهد هذا المقام قال لربه: يا رب بماذا أتقرب إليك؟ فقال: بما ليس لي، فقال: يا رب وما ليس لك وكل شيء لك؟ فقال: الذلة والافتقار، فعلم عند ذلك ما لأنية الحق وما لأنية العبد، فدخل في هذا المقام فكان له القرب الأتم فجمع بين الشهود والوجود إذ كان كل شيء هالك، فإن الشهود عند القوم فناء حكم لا فناء عين، وفي هذا المقام شهود بلا فناء عين، وهو محل الجمع بيننا وبين الطائفة وبلا فناء حكم فإنه أبقى للحق ما يستحقه من الفتح الرحموتيّ إذ لولاه أعني لولا هذا القرب المعين لعاد الأثر على أنية الحق، ولهذا أظهر في ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] ليعلم أن الأثر إذا صدر من الحق لا بدّ له من ظهور حكم وما وجد إلا الحق فعاد عليه فجاء العبد فدخل بين الأنية الإلهية والمؤثر فعمل فيه [المتقارب]:

فـأَنِّـيَّـةُ الـخَـلْـقِ مـضـبـوطـةٌ ... وأَنِّـيَّـةُ الـحَـقِّ مـا تَـنْـضَـبِـطْ
فـيـأخـذُ مـن ذا ويُـعْـطـيـه ذا ... وكُـلٌّ بـأحـوالـه مُـغْـتَـبِـطْ
فـرَبْـطُ الـوجـود بـعـيـن الـشُّـهُـو ... د مـقـامٌ جـلـيـلٌ لـمـن يَـرْتَـبِـطْ
ولـيـس يـنـالُ مـقـامَ الـدنـوّ ... عُـبَـيْـدٌ إذا سـرُّه قـد شَـحَـطْ

وما فرحت بشيء قط مما وهبنيه الحق من المنح التي تقبلها الأكوان فرحي بهذا المقام إذْ حلاني به ربي وهو أعلى المقامات وأسناها، وهو مقام كل ما سوى الله ولا يشعر به، وليست العناية من الله ببعض عباده إلا أن يشهده هذا المقام من نفسه، فما يزيد على العالم كله إلا بالعلم به حالاً وذوقاً، ولا يجني أحد ثمرة الإيثار مثل ما يجنيها صاحب هذا المقام، فإن ثمرة الإيثار على قدر من تؤثره على نفسك، والذي تؤثره على نفسك هنا إنما هو الحق فينسب إليك الفرح بما تجنيه من ثمرة هذا الإيثار على صورة نسبة الفرح إلى الحق، فانظر ما أعظمها من لذة وابتهاج، وهذا أخصر ما يمكن من الإبانة عن هذا المقام، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون وأربعمائة

في معرفة منازلة من تصاغر لجلالي نزلت إليه ومن تعاظم عليّ تعاظمت عليه

[الرجز]:

يعامل الحق بما يعامل	فاحذر فما أنت له مقابل
وكن له عيناً ولا تكن به	فإنه ليس له مماثل
من حارب الله يرى صرعته	بعينه فالبطل المنازل
هو الذي يرمي السلاح والذي	له من الله به المنازل
قد قال طيفورٌ بأن بطشه	أشد والقول بذاك نازل
فكونه فينا وجودٌ ثابتٌ	وكوننا فيه وجودٌ حاصل

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] لأنه قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وما خص مؤمناً من غير مؤمن، فإذا كان العبد على مقامه الذي هو عينه مسلوب الأوصاف ولم يظهر منه تلبس بصفة محمودة ولا مذمومة فهو على أصله وأصله الصغار، ويريد الحق ظهور الصفات فيه، فلا بد أن ينزل إليه من هويته التي تقتضي له الغنى عن العالم فإن الله غنيّ عن العالمين، والنبيّ ﷺ يقول يوم بدر لربّه تعالى: **«إِنْ تُهلِكْ هٰذِهِ العِصَابَةَ فَلَنْ تُعْبَدَ بَعْدَ اليَوْمِ»** فلو قال مثل هذه المقالة غير رسول الله ﷺ لقال المنكر ما شاء مما يليق به من حيث إنكاره لجهله، ومثل هذه النفحات تهب على قلوب العارفين من أهل الله فإن نطقوا بها كفرهم المؤمن وجهلهم صاحب الدليل [السريع]:

فالحمد لله الذي قد وهب	والحمد لله الذي قد عصم
فلم يقل ما شانه قوله	وهو الذي قال به من عصم
فيحجب الله به من حرم	ويشهد الله به من رحم

ورد في الخبر: **«أَنَّهُ مَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ الله»** وهو عين نزول الحق إليه **«وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللهِ وَضَعَهُ الله»** وما وضعه إلا بشهود عظمته فإنه تعالى العليّ العظيم. ولما قال ﷺ: **«إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ»** علمنا أنا ما نرى من الحق إلا ما نحن عليه، فمن شاء فليعمل ومن شاء لا يعمل، وهذه كلمة نبوية حق كلها فإن العمل ما يعود إلا على عامله وقد أضاف الأعمال إلينا، فمن علم منا من هو العامل منا علم من يعود إليه العمل في الرد، وهذا القدر من الإشارة في هذا الحديث كاف. ولما كان الله هو الكبير المتكبر علمنا نسبة الكبر إليه وتحير في نسبة التكبر إليه، فلو علم نزول الحق لعباده إذ ليس في قوة الممكن نيل ما يستحقه الحق من الغنى عن العالم وفي قوة الحق مع غناه من باب الفضل والكرم للنزول لعباده لعلمنا تلك النسبة، فإن جهل أحد من العباد قدر هذا النزول الإلهي وتعاظم العبد في نفسه لنزول الحق له ولم يعلم أن نزول الحق لعباده ما هو لعين عباده وإنما ذلك لظهور أحكام أسمائه الحسنى في أعيان الممكنات فما علم أنه لنفسه نزل لا لخلقه كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فما خلقهما إلا من أجله، والخلق نزول من مقام ما يستحقه من الغنا عن العالمين، فالمتخيل من العباد خلاف هذا وأنه تعالى ما نزل إلا لما هو المخلوق عليه من علو القدر والمنزلة فهذا أجهل الجاهلين، فأعطى الحق هذا النزول أو ما توهمه الجاهل أن يتسمى الحق بالمتكبر عن هذا النزول ولكن بعد هذا النزول لا قبله وجوداً وتقديراً لابد من ذلك فالكبير ليس كذلك، وسيرد تحقيق هذا الفصل في آخر الكتاب في الباب الثامن والخمسين وخمسمائة إن شاء الله تعالى، فهذه المنازلة تعطيك أن الحق مرآة العالم فلا يرون فيها غير ما هي صورهم عليه وهم في صورهم على درجات، فهذا حصر لباب هذه المنازلة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة إن حيرتك أوصلتك إليّ

[مجزوء الرمل]:

كُلُّ مَنْ حَارَ وَصَلْ ... والذي اهْتَدَى انْفَصَلْ[1]

وهْوَ نَعْتٌ ثابِتٌ ... للذي عَزَّ وجَلْ

وهْوَ نَعْتٌ حاصِلٌ ... لِعُبَيْدٍ قد عَقَلْ

فإذا قال فَتًى ... إنه اهْتَدَى غَفَلْ

وتَراه زاهِياً ... في حُلِيٍّ وحُلَلْ

كاشِفاً عَوْرَتَهُ ... مثل ما جاء المَثَلْ

المثل قوله عليه الصلاة والسلام: «رُبَّ كَاسِيَةٍ عَارِيَةٍ» قال الله تعالى في الحيرة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] ومن باب الحيرة ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] وكذلك ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] والقتل ما شوهد إلا من المخلوق، فنفى ما وقع به العلم الضروري في الحس، قال رسول الله ﷺ في هذه المنازلة: «**لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**» وهذا مقام عزة الحيرة «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» وهذا حال الوصول. وقال الصديق في هذه المنازلة: «العجز عن درك الإدراك إدراك»، فتحير فوصل فالوصول إلى الحيرة في الحق هو عين الوصول إلى الله، والحيرة أعظم ما تكون لأهل التجلي لاختلاف الصور عليهم في العين الواحدة، والحدود تختلف باختلاف الصور، والعين لا يأخذها حد ولا تشهد كما أنها لا تعلم، فمن وقف مع الحدود التابعة للصور حار، ومن علم أن ثم عيناً هي التي تتقلب في الصور في أعين الناظرين لا في نفسها علم أن ثم ذاتاً مجهولة لا تعلم ولا تشهد، فتحصل من هذا أن العلماء بالله أربعة أصناف: صنف ما له علم بالله إلا من طريق

---

(١) الشطر الثاني مختلّ الوزن.

النظر الفكري وهم القائلون بالسلوب. وصنف ما له علم بالله إلا من طريق التجلي وهم القائلون بالثبوت والحدود. وصنف ثالث يحدث لهم علم بالله بين الشهود والنظر فلا يبقون مع الصور في التجلي ولا يصلون إلى معرفة الذات الظاهرة بهذه الصور في أعين الناظرين. والصنف الرابع ليس واحداً من هؤلاء الثلاثة ولا يخرج عن جميعهم وهو الذي يعلم أن الله قابل لكل معتقد كان ما كان ذلك المعتقد، وهذا الصنف ينقسم إلى صنفين: صنف يقول عين الحق هو المتجلي في صور الممكنات، وصنف آخر يقول أحكام الممكنات وهي الصور الظاهرة في عين الوجود الحق، وكل قال ما هو الأمر عليه، ومن هنا نشأت الحيرة في المتحيرين وهي عين الهدى في كل حائر، فمن وقف مع الحيرة حار ومن وقف مع كون الحيرة هدى وصل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة من حجبته حجبته

[الوافر]:

حِجابُ العَبْدِ منه وليس يَدْري ... بأنّ وُجُودَهُ عَيْنُ الحِجَابْ
فيا قَوْمِ اسْمَعُوا قولي تَفُوزوا ... بما قد قال في أُمِّ الكِتابْ
فلفظةَ نستعين قد أظهَرَتْنا ... وأفعالي وعيني في تَبَابْ
فنحن التائهون بكل قَفْرٍ ... ونحن الواقفون بكل بابْ

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] فإذا خاطبهم ما يخاطبهم إلا بما تواطؤوا عليه، وإذا ظهر لهم في فعل من الأفعال فلا يظهر لهم إلا بما ألفوه في عاداتهم، ومن عاداتهم مع الكبير عندهم إذا مشى أن يحجبوه، ومعناه أن يكونوا له حجبة بين يديه كما قال: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [التحريم: ٨] وسبب ذلك أن الكبير لو تقدم الجماعة لم يعرف ولم تتوفر الدواعي إلى تعظيمه، فإذا تقدم الحجاب بين يديه طرقوا له وتأهّبت العامة لرؤيته وحصل في قلوبها من تعظيمه على قدر ما يعرفونه من عظمة الحجبة في نفوسهم فيعظم شأنه، فإذا أراد الله تعظيم عبد عند عباده عدل به عن منزلته وكساه خلعته وأعطاه أسماءه وجعله خليفة في خلقه وملكه أزمة الأمور وحمل الغاشية بين يديه كما يحمل الملك الغاشية بين يدي ولي عهده، وإن كان في المنزلة أعظم منه ولا بد لمن هذه حالته أن يعطي المرتبة حقها فلا بد أن ينحجب عن رتبة عبوديته، وعلى قدر ما ينحجب عنها ينحجب عن ربه ولا يمكن إلا هذا فإن الحضرة في الوقت له والوقت وقته والحكم للوقت في كل حاكم، ألا ترى الحق يقول عن نفسه أنه ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فهو بحسب الوقت لأنه لا يعطي إلا بحسب القابل فالقبول وقته حتى يجري الأمور على الحكمة، ولما كان الوقت لصاحبه حكم عليه بما يظهر به. وقال ﷺ: **«لا يُؤَمَّنَّ الرَّجُلُ فِي سُلْطَانِهِ وَلا يُقْعَدْ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إلاَّ بإِذْنِهِ»** ولو كان الخليفة بنفسه إذا دخل دار أحد من رعيته فالأدب الإلهي المعتاد

يحكم عليه بأن يحكم عليه رب البيت فحيثما أقعده قعد ما دام في سلطانه، وإن كان الخليفة أكبر منه وأعظم ولكن حكم المنزل حكم عليه فرده مرؤوساً، ألا ترى أن وجود العبد وأعني به العالم ما ظهر إلا بوجود الحق وإيجاده لأن الحكم له ثم تأخر المتقدم وتقدم المتأخر فلم يظهر للعلم بالله عين حتى أظهره العلم بالعالم فكان ذلك جزاء الإيجاد وعاد ذلك الجزاء على العالم بذلك الناظر فيه إذ لم يكن الحق محلاً للجزاء، فعاد عمل العبد عليه كما عاد عمل الحق على الحق بما وقع به الثناء عليه من المحدثات، وقد اتفق العارفين من أهل زماننا فقال لي أبو البدر: دخلت على الواحد منهما بميافارقين فذكرت له شأن العارف الذي ببغداد فقال لي: إنه من جملة من يمضي أمري فيه، قال: فجئت إلى العارف الآخر ببغداد فقلت له: إني أدخلت بميافارقين على الوكاف فذكرت له شأنك فقال لي: إني رأيته في جملة من يمضي أمري فيه من حولي، فقال: كذا يزعم والله لقد رأيته يحمل الغاشية بين يدي، قال أبو البدر: فحرت بينهما وكلاهما صادقان عندي فأزل عني هذه الغمة فقلت له رحمه الله: كل واحد منهما صدق وإن كل واحد منهما رأى صاحبه في سلطانه وفي محله والحكم لصاحب المحل فذلك كان حكم المحل لا حكم مراتبهما، وأما مقامهما فلا يعرف من هذا وإنما يعرف من أمر آخر، فسر بذلك وعرف أنه الحق، فينبغي للمنصف أن يعرف المواطن وأحكامها أين موطن الغضب الإلهي من موطن الرضا يفعل العبد فعلاً فيسخط ربه به عليه فهو جنى على نفسه، والحق بحكم ذلك الواقع بين عفو ومؤاخذة ويفعل ذلك العبد فعلاً يرضي به ربه فهو الذي أرضاه كما أسخطه، فالحق مع عباده بحسب أحوالهم غير هذا ما يكون، انظر في أحوال الخلق في الكثيب إذا نزلوا على الحق هنالك يتفرج العارفون فيما ذكرناه، فإذا عادوا إلى جناتهم وأهليهم وتجلى الحق لهم يتغير الحال منهم لكون المنازل لهم ومنزل الكثيب له إذا كان الحق سمعك وبصرك فقد نزل بك، فإن تأدّبت معه في النظر والاستماع بقي عندك، وإن أسأت الأدب رحل عنك، وصورة الأدب معه موجودة فيما شرع لك أن تعامله به، فإذا دخلت عليه في بيته وهو المسجد كان له الحكم فيك بسبب إضافة الدار إليه والحكم له، فأوجب عليك أن تحييه بركعتين وأن لا تعمل فيه ما لم يأذن لك في عمله فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة ما ارتديت بشيء إلا بك فاعرف قدرك وذا عجب شيء لا يعرف نفسه

[البسيط]:

إن الـرّداءَ الـذي لـم يَـذرِ لابِسُـهُ ... هـو الـرّداءُ الـذي الـرحـمـنُ لابِسُـهُ

بـه تَـزَيَّـنَ عـنـد الـعـالـمـيـن مـن الأ ... رواح والـمـلأ الـقـلـبـيّ حـارِسُـهُ

فـإن بَـدَتْ مـنـه أخـلاق تَـحِـيـدُ بـه ... عـن الـهُـدَى فـرَسُـولُ الله سـائـسُـهُ

قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى في الخبر عنه: «**وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ**» فالأمر حق ظاهره صورة خلق فهو من وراء ما بدا، كما أن المرتدي من وراء ردائه فالعبد هو كبرياء الحق وعظمته فإنه قال: «**الكبرياء ردائي**» ولهذا كان المخلوق محل عظمة الله لأن العظمة صفة في المعظم لا في المعظم، ولو كانت في المعظم لما تعوّذ منه من لا يعرفه. قال الله لأبي يزيد لما خلع عليه أسماءه: اخرج إلى عبادي بصورتي فمن رآك رآني فلما خطا خطوة غشي عليه فقال: ردّوا عليّ حبيبي فإنه لا صبر له عني، فمن عرف نفسه عرف الله ومن عرف الله لم يعرف نفسه، والعلم بالله تعالى جهلك بك، والعلم بك علمك بالله فإنك منه، كما قال جميعاً منه ما هو منك وليس إلا معرفة المنزلة والقدر ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] فأنت ليلةُ القدر لأنك من طبيعة وحق فشهد لك بعظم القدر قبل نزول القرآن عليك وأنت ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر: ٣] أي خير من الكل لأنه منتهى العدد البسيط الذي يقع فيه التركيب إلى ما لا يتناهى، كذلك ما يخلق الله لا يتناهى دائماً فإنه خالق على الدوام، وجاء بالشهر لشهرة ذلك في كل شهر من الألف ليلة القدر لا بد من ذلك، فإن خير الشهور ما كان فيه ليلة القدر فهي ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر: ٣] فيه ليلة القدر فهي جامعة لكل أمر فهي العامة في جميع الموجودات، فالعبد في هذه المنازلة حافظ محفوظ حافظ من حيث إنه يحفظ المرتدي به غيرة وصوناً، ومحفوظ من حيث إن المرتدي يحتاط عليه لئلا يضيع فإنه معرّض للضياع فإنه مخلوق، فلا بد له من حافظ هذا جزاء دوري فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة انظر أي تجل يعدمك فلا تسألنيه فنعطيك فلا أجد من يأخذه

[مجزوء الكامل]:

لا تَطْلُبَنَّ تَجَلِّياً ... يُفْنِيكَ عنك فإنَّني

أُعْطِي ولستُ بآخذٍ ... لفناء عينك فانْثَنِ

عن مِثْلِ هذا واطْلُبَنْ ... أمْراً عليه يَنْبَنِي

عَيْنُ البقاءِ ولا تكن ... بما تُسَمَّى تَكْتَني

قال الله تعالى: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة: ١٠١] اعلم أن البقاء والفناء لا يعقلان في هذا الطريق إلا مضافين: الفناء عن كذا والبقاء مع كذا، ولا يصح الفناء عن الله أصلاً فإنه ما ثم إلا هو فإن الاضطرار يردّك إليه، ولهذا تسمى تعالى لنا بالصمد لأن الكون يلجأ إليه في جميع أموره ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فلم يبق أن يكون فناؤك إلا عنك، ولا تفنى عنك حتى تفنى عن جميع الأكوان والأعيان أعني فناء أهل الله، فإن أتحفك الحق بتحفة منه تعالى فتحفه من جملة أكوانه فهي محدثة فتطلبك التحفة لتقبلها

فتجدك فانياً عنها فعادت إلى معطيها فكان ذلك سوء أدب منك في الأصل حيث سألت ما قادك إلى مثل هذا فإن الله يعطي دائماً، فينبغي للعبد أن يكون قابلاً دائماً، فلا تسأل إن كنت من أهل الله إلا عن أمر إلهي أعني على التعيين وإلا فاسأل الله من فضله من غير تعيين.

واعلم أن تجليات الحق على نوعين: تجل يفنيك عنك وعن أحكامك، وتجل يبقيك معك ومع أحكامك، ومن أحكامك ملازمة الأدب في الأخذ والعطاء، فمثل هذا التجلي فاسأل ما دمت في دار التكليف، فإذا انتقلت إلى غير هذا الموطن فكن بحسب ذلك الموطن، ولولا التكليف ما وقعت من الله وصية لأحد من عباد الله، فما أوصى العليم بالأمور إلا وقد علم أن للوصية أثراً في الأمور، وسيرد الكلام في تحقيق الوصايا في آخر باب من أبواب هذا الكتاب إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة لا يحجبنك لو شئت فإني لا أشاء بعد فاثبت

[البسيط]:

إنّ المشيئةَ عَرْشُ الذّات ليس لها ... في غيرها نسبةٌ تَبْدُو ولا أَثَرُ

وهي الوجودُ فلا عَيْنٌ تُغايرها ... تَفْنَى وتُعْدَمُ لا تُبْقي ولا تَذَرُ

عزّتْ فليس يرى سلطانَها ملكٌ ... وليس يدركها في الصورة البَشَرُ

بكَوْنِ آدَمَ مخصوصاً بصُورته ... لأن فيه جَمِيعَ الكَوْنِ مُخْتَصَرُ

له المقاليدُ في الأكوان أجْمَعِهَا ... له التنزُّلُ والآياتُ والسُّوَرُ

فَمِنْ تَنَزُّله أنْ قال نُدركه ... في صورة هي شمسُ الحقّ أو قَمَرُ

مع التَّنَزُّهِ عن تشبيه خالقنا ... وقد حَوَتْهُ بما قد قاله الصُّوَرُ

قال الله عز وجل: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [قَ: ٢٩] وإن عارضته المشيئة، وما في النسب أعجب منها لاستصحاب «لو» لها، و«لو» لها أثر ما لها أثر فهو حرف عجيب.

اعلم أنه ما اختص آدم بالخلافة إلا بالمشيئة ولو شاء جعلها فيمن جعلها من خلقه، قلنا: لا يصح أن تكون إلا في مسمى الإنسان الكامل، ولو جمعها في غير الإنسان من المخلوقات لكان ذلك الجامع عين الإنسان الكامل، فهو الخليفة بالصورة التي خلق عليها. فإن قلت: فالعالم كله إنسان كبير فكان يكفي. قلنا: لا سبيل فإنه لو كان هو عين الخليفة لم يكن ثم على من، فلا بد من واحد جامع صور العالم، وصورة الحق يكون لهذه الجمعية خليفة في العالم من أجل الاسم الظاهر يعبر عن ذلك الإمام بالإنسان الكبير القدر الجامع الصورتين، فبعض العالم أكبر من بعض الإنسان لا بالمجموع فإنه في الإنسان الكامل ما ليس في الواحد الواحد من العالم، فما هو بالمشيئة إلا في النوع الإنساني لكون هذا النوع فيه خلفاء ثم عم تأثيره في الجميع فيطلب من الحق أن يمده فيمده، وهذا أثر في الصورة الحقية، ويطلب أيضاً الأمر في العالم فيمضي، ثم إنه مؤثر فيه من العالم ومن الحق، فاختلط الأمر

والتبس على أهل الله فطلب بعض العارفين الخروج من هذا الالتباس فأطلعه الله على صورة الأمر فرأى ما لا يمكن التلفظ به إلا لرسول قد عصم، فكن أنت ذلك الطالب حتى ترى ما رأيت فتقول كما قلنا [البسيط]:

مَلَّكْتَني مُلْكَ كسرى إذ تَمَلَّكَ كُنْ ... كَوْني فَكنت بكُنْ مَلِكاً ولم أكُنِ
لكنني كنت كُنْ والكونُ مملكةٌ ... وكل كَوْنٍ لكُمُ فالكون لم يَكُنِ

وهو قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ [القمر: ٥٠] ثم شبه الإمضاء بلمح البصر أو هو أقرب وكذلك هو أقرب، فانظر حكمة الله تعالى في هذا التشبيه وما حوته تلك اللمحة من الكثرة في الوحدة فعندها تعرف ما هو الأمر فأثبت ولا تفشه تكن من الأمناء الأخفياء الأبرياء، واعلم أن قوله تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ١٦] ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٣] يقتضي نفي العلم بكذا ونفي المشيئة عن الحق، كما يقتضي قوله: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ [النور: ٦٣] وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ﴾ [البقرة: ١٨٥] فأثبت العلم والمشيئة معاً لله، وعلم الله لا يخلو من أحد أمرين، وكذلك إرادته إما أن تكون صفة له قائمة به زائدة على ذاته وإن كان مثبتو الصفات يقولون لا هي هو ولا هي غيره، ولكن لا بد أن يقولوا بأنها زائدة كما يعتقده الأشعري، أو تكون عين ذاته إلا أن لها نسبة خاصة لأمر ما تسمى بتلك النسبة علماً، وهكذا سائر ما تسمى به مما يطلبه تعالى فما أثبت ولانفى إلا تعلق العلم والإرادة، ولكن ما ورد الكلام إلا بنفي العلم بأمر ما والإرادة فتعلم قطعاً أن نفي العلم علم، وأن العلم تابع للمعلوم يصير معه حيث صار، ويتعلق به على ما هو عليه في نفسه وذاته لا ينتفي عنها الوجود، ولا كل ما ثبت له القدم من صفة وغيرها، فما بقي أن ينتفي إلا التعلق الخاص وهو أمر يحدث أو نسبة كيف شئت فقل، ولا يتوجه النفي والإثبات إلا على حادث أي على ممكن، سواء كان ذلك الحكم موصوفاً بالوجود أو بالعدم، فناب العلم هنا مناب التعلق حين نفيته بأداة لو في قوله: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ﴾ [الأنفال: ٢٣] ﴿وَلَوۡ شَآءَ﴾ [يونس: ١٦] فما علم وما شاء، هذا هو الأمر الحادث المعين فقد علم أنه لو علم، ولا يقال أنه قد شاء أن يقول لو شاء فإن المشيئة متعلقها العدم، ولا يصح أن يحدث القول في ذات الله فإنه ليس بمحل للحوادث فلا يقال قد شاء أن يقول والتحقيق أنه ما أراد من المراد إلا ما هو المراد عليه من الاستعداد في حال العدم أن يكون به في حال الوجود أو يتصف به عند انتفائه عن الوجود أو انتفاء حكم الوجود عنه كيف شئت فقل. ولما بان الفرقان بين المشيئة والعلم علمنا أنهما نسبتان لذات العالم والمريد، أو صفتان في مذهب من يقول بالصفات من المتكلمين، ولولا علمنا بالأصل الذي هوّن علينا سماع مثل هذا لكانت الحيرة في الله أشد، والأصل ما هو إلا أن الله تعالى ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه لأنه يريد إفهامهم، فمن المحال أن يخرج في خطابه إياهم عما تواطؤوا عليه في لسانهم فوجد العاقل في ذلك راحة، وأما أهل الشهود فلا راحة عندهم في ذلك لما رأوه من اختلاف الصور على المشهود فما هم مثل أهل اللسان، وجاءت الطبقة العليا فقالت علمنا أن الشهود تابع للاعتقاد كما أن الخطاب تابع لما تواطأ عليه أهل ذلك

اللسان فهان عليهم الأمر فرأوه في كل معتقد كما فهموه في كل لسان فما حاروا واهتدوا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة أخذت العهد على نفسي فوقتاً وفيت ووقتاً على يد عبدي لم أف وينسب عدم الوفاء إلى عبدي فلا تعترض فإني هناك

[الطويل]:

وَعَدْنا وأوْعَدْنَا فأما وَعِيدُنا ... فأتركه إن شئتُ والوَعْدُ نَاجِزُ
فإني كريمٌ والكريمُ نُعُوتُهُ ... كما قد ذَكَرْنا والقضاءُ يُناجِزُ
فإنْ هَمَّ إنفاذَ الوعيد لصِدْقِهِ ... تلقَّاه قَرْمٌ للسماح مُبَارِزُ
فيَرْدَعُهُ عن هَمِّهِ بنُفُوذه ... لأن له الرُّحْمَى فمنها يُبَارزُ
وليس يرى إلا نفاذاً لا مُقَصِّرٌ ... جهولٌ بما قلنا عن الحق عاجزُ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] هذا في الوعد، وقال في الوعيد: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ١٤] فاعلم أن هذه المنازلة هي قوله: «**إنّ رحمتي تغلبُ غضبي**» وهي قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فإذا وعد العبد وعداً وشاء الله أن يخلف ذلك العبد وعده وما عاهد عليه شاء من العبد أن يشاء نقض العهد، ولولا ذلك ما تمكن للمخلوق أن يشاء، فشاء العبد عند ذلك نقض العهد وإخلاف الوعد بمشيئة الله في خلق مشيئة العبد فهو قوله: وقتاً لم أف، فلا تعترض على العبد فإنه مجبور في اختياره بمشيئتي، ولكن ينبغي لصاحب هذه المنازلة إذا رأى من وقع منه مثل هذا أن ينظر إلى خطاب الشرع فيه، فإن رأى أن ذلك المحل الظاهر منه مثل هذا من نقض العهد وإخلاف الوعد قد أطلق الحق عليه لسان الذم فيذمه بذم الحق فيكون حاكياً ولا يذمه بنفسه هذا هو الأدب وليس ذلك إلا في الخير، كما يقيم الحدود على المتعدي بأمر الحق لا بنفسه، ولهذا ليس للعبد أن يؤقت حداً ولا يشرعه. وأما في الوعيد إذا لم يكن حداً مشروعاً وكان لك الخيار فيه وعلمت أن تركه خير من فعله عند الله فلك أن لا تفي به وأن تتصف بالخلف فيه مثل قوله: «**من حَلَفَ على يمين فرأى خيراً منها فليكفِّرْ عن يمينه ولْيَأْتِ الذي هو خير**»، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ [النور: ٢٢] قال الشاعر: [الطويل]

وإني إذا أوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ ... لمُخْلِف إيعادي ومُنْجز مَوْعدي

وإنما عوقب بالكفارة لأنه أمر بمكارم الأخلاق واليمين على ترك فعل الخير من مذام الأخلاق فعوقب بالكفارة، وهو عندنا على غير الوجه الذي هو عند العامة من الفقهاء فإن الله قد جعل لنا عيناً ننظره به، وهو أن المسيء في حقنا الذي خيرنا الله بين جزائه بما أساء وبين العفو عنه أنه لما أساء إلينا أعطانا من خير الآخرة ما نحن محتاجون إليه حتى لو كشف الله الغطاء بيننا وبين ما لنا من الخير في الآخرة في تلك المساءة حتى نراه عياناً لقلنا أنه ما أحسن

أحد في حقنا ما أحسن هذا الذي قلنا عنه إنه أساء في حقنا، فلا يكون جزاؤه عندنا الحرمان فنعفو عنه فلا نجازيه ونحسن إليه مما عندنا من الفضل على قدر ما تسمح به نفوسنا فإنه ليس في وسعنا، لا يملك مخلوق في الدنيا ما يجازي به من الخير من أساء إليه ولا يجد ذلك الخير ممن أحسن إليه في الدنيا، ومن كان هذا عقده ونظره كيف يجازى المسيء بالسيئة إذا كان مخيراً فيها؟ فلما آلى وحلف من أسيء إليه فما وفى المسيء حقه وإن لم يقصد المسيء إيصال ذلك الخير إليه ولكن الإيمان قصده فينبغي له أن يدعو له إن كان مشركاً بالإسلام، وإن كان مؤمناً بالتوبة والصلاح ولو لم يكن ثم إخبار من الله بالخير الأخرويّ لمن أسيء إليه إذا صبر ولم يجاز لكان المقرر في العرف بين الناس كافياً فيما في التجاوز والعفو والصفح عن المسيء فإن ذلك من مكارم الأخلاق، ولولا إساءة هذا المسيء إلي ما اتصفت أنا ولا ظهرت مني هذه المكارم من الأخلاق كما أني لو عاقبته انتفت عني هذه الصفات في حقه وكنت إلى الذم أقرب مني إلى أن أحمد على العقاب، فكيف والشرع قد جاء في ذلك بأن أجر من يعفو ويتجاوز ولا يجازي أنه على الله، فقد علمت أن قوله: **«وقتاً وفيت ووقتاً لم أف»** أن ذلك راجع للوعد والوعيد بوجه، وراجع لما في خلق الله من الوفاء وعدم الوفاء من كونهم ما فعلوا الذي فعلوه إلا بمشيئة الله فهو بالأصالة إليه ولهذا قال: فلا تعترض إلا أن يكون الحق هو المعترض بأمره إياك أن تعترض فاعترض فإنه لا فرق عند ذلك بين أن تعترض أو تقيم الحد إذا كنت من أولي الأمر فيمن عين لك أن تقيمه حتى لو تركته لكنت عاصياً مخالفاً أمر الله، فالمؤمن العالم المستبرىء لنفسه لا يفوته أمثال هذه المشاهد والمواقف فإنه لا يزال باحثاً عن مكارم الأخلاق حتى يتصف بها ويقوم فيها قيام الأدباء الأمناء ويراعون الشريعة في ذلك، فربّ مكرمة عرفاً لا تكون مكرمة شرعاً، فلا تجعل أستاذك إلا الحق المشروع، فإذا أمرك فامتثل أمره وإذا نهاك فانته عما نهاك، وإذا خيرك فاعمل الأحب إليه والأرجح، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة لو كنت عند الناس كما أنت عندي ما عبدوني

[البسيط]:

لـو أنّ جِـنْـسَـكَ والأكْـوَانَ أجْـمَـعـهـا ... يَـدْرُونَ مـنـك الـذي أَدْريـه مـا عَـبَـدُوا

سـواكَ إذ كُـنْـتَ مـشـهـوداً لـهـم وأنـا ... غَيْبٌ ولولا وجودُ الغيب ما جَحَدُوا

إنـي حَـجَـبْـتُكَ عن قوم بصُورتك الدُّنْـ ... ـيَا ولـو عـلـمـوا الـقُـصْـوَى لـمـا عَـبَـدُوا

لـو أنـهـم عَـلِـمُـوا الأسـمـاءَ مـا وقـفـوا ... مع الـمـثـال ولـم يَـصْـرِفْـهُـمُ الـجَـسَـدُ

ولا تَـغَـيُّـرُ أحـوالٍ تـقـوم بـهـم ... ولا تَـرَاكُـبُ أضـدادٍ ولا عَـدَدُ

وكـل ذلـك مـخـصـوصٌ بـصـورتـنـا ... ولـيـس يـنـكـرُه فـي ذاتـنـا أحَـدُ

لـكـنـهـم غـلـطـوا فـيـنـا وقـام بـهـم ... لـمثـلهـم حـين لـم أغـصِمْـهُـمُو حَـسَـدُ

قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وقال لبعض خلفائه ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦] ومن هنا تعرف مراتب الناس من الخلفاء وأن الخلفاء يفضل بعضهم بعضاً. وقال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ وَمَا خَلَقَهُ حَتَّى اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وَمَا اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ إلاَّ الرَّحْمٰنُ»** ولما عمت رحمة الله أبا يزيد البسطامي ولم ير للكون فيها أثراً يزيل عنها حكم العموم قال للحق: لو علم الناس منك ما أعلم ما عبدوك، وقال له الحق تعالى: يا أبا يزيد لو علم الناس منك ما أعلم لرجموك. فاعلم أن الذي يريد أن يستنيب في عباده من يقوم فيهم مقامه لا بد أن يكسوه صفته ونعته فيكون الخليفة هو الظاهر والذي استخلفه الباطن، فيكون كسور الأعراف باطنه فيه الرحمة لأنه الحق الذي غلبت رحمته غضبه وظاهره من قبله العذاب، فما العذاب في ظاهره وإنما العذاب قبله فيراه قبلاً ممن استخلف عليهم، وقد حد الحق حدوداً له يعاملهم بها ليكون إذا قام بها عند المؤمن بها وبه محموداً لا يتطرق إليه ذم كما لا يتطرق لمن استخلفه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فلا يذمه إلا من لا يعرفه ولا يعرف الله، فالراحم منا من له رحمتان: رحمة طبيعية وهي ذاتية له اقتضاها مزاجه، ورحمة موضوعة فيه من الله بخلقه على الصورة، وهذه الرحمة تتضمن مائة رحمة التي لله فإن لله مائة رحمة بعدد أسمائه، فإن له تعالى تسعة وتسعين اسماً ظاهرة وأخفى المائة للوترية فإنه يحب الوتر لأنه وتر، فلكل اسم رحمة، وإن كان من أسمائه المنتقم ففي انتقامه رحمة سأذكرها في باب الأسماء الإلهية من هذا الكتاب إن شاء الله، فللرحيم من العباد مائة رحمة ورحمة من أجل الوترية فإنه يحب الوتر لأنه يحب الله، ودرجات الجنة مائة درجة لكل درجة رحمة، وللنار مائة درك في كل درك رحمة مبطونة تظهر لمن هو في ذلك الدرك بعد حين فإن الغضب مغلوب وبالرحمة مسبوق، فما يظهر في محل إلا والرحمة قد سبقته إلى ذلك المحل فيغالبها فتغلبه لأن الدفع أهون من الرفع، فلا حكم للغضب في المغضوب عليه إلا زمان المغالبة خاصة فإن هذا المحل هو ميدانهما فينال هذا المحل من المشقة فيما يطرأ بين الرحمة والغضب بقدر ما تدوم المحاربة بينهما إلى وقت غلبة الرحمة، وبالرحمة الطبيعية تقع الشفاعة من الشافعين لا بالرحمة الموضوعة، فإن الرحمة الإلهية الموضوعة يصحبها في العبد العزة والسلطان فهي لا عن شفقة، والرحمة الطبيعية عنها تكون الشفقة، ولو لم تصحب الرحمة الإلهية العزة وتتنزه عن الشفقة ما عذب الله أحداً من خلقه أصلاً، فهذه الرحمة التي يجدها العبد على خلق الله هي حكم الرحمة الطبيعية لا الرحمة الموضوعة فإن الرحمة الموضوعة لا تقوم إلا بالخلفاء، ألا ترى الإنسان إذا رأى الخليفة يعاقب ويظلم ويجور على الناس كيف يجد الشفقة على المظلومين المعاقبين ويقول ما عنده رحمة ولو قمت أنا مقامه لرحمتهم ولرفعت هذا الظلم عنهم، فإذا ولي هذا القائل ذلك المنصب حجبه الله عن الرحمة الطبيعية التي تورث الشفقة وجعل فيه الرحمة التي تصحبها العزة والسلطان فيرحم بالمشيئة لا بالشفقة ولا للحاجة لأنه العزيز الغنيّ في نفسه فيظلم ويعاقب ربما أكثر من الآخر الذي

كان يذمه على ذلك قبل حصوله في مقام الخلافة، فإذا قيل له في ذلك يقول: والله ما أدري إذا لم يكن عالماً فإني لا أجد في نفسي إلا ما ترون، والآن قام لي عذر الذي تقدمني فيما كان يفعله وكنت أجد عليه في ذلك وأخبرني صادق أن مثل هذا وقع من الإمام الناصر لدين الله رحمه الله أحمد بن الحسن مع أبيه المستضيء بحضور الوزير وأنه عتب مع الوزير في حق أبيه فلما أفضت إليه الخلافة ظهر منه ما ظهر من أبيه مما أخذه عليه فنبهه الوزير على قوله فقال: الحال الذي كنت أجده في ذلك الوقت ذهب عني وما أجد الساعة إلا ما ترى أثره والآن قام عندي عذر أبي رحمه الله. فمضمون هذه المنازلة أن الله أنشأ المحمدي على ما أنشأ عليه محمداً ﷺ فأنشأه بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، وأرسله رحمة للعالمين، حتى أن دعاءه على رعل وذكوان من الرحمة بهم لئلا يزيدوا طغياناً فيزدادوا من الله بعداً ومن رحمته قال: لأزيدنّ على السبعين، أو قال: لو علمت أن الله يغفر لهم لزدت على السبعين إذ قيل له: إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، فلو عرف الناس من محمد ﷺ ما علم الله منه بما جبله الله عليه ما عبد الله أحد بما كلفه بل كان الناس يتبعون أهواءهم بعلم لأنّ الله ما أخذ من اتبع هواه إلا لكونه اتبع هواه بغير علم، فحرمان الجهل أوقع بهم، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [الروم: ٢٩] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] وقوله تعالى لداود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] ولم يقل عن الله، وسبيل الله ما شرعه لدار القرار التي هي محل سعادتك، وأما تمام الآية فهو من أعجب الإشارة الإلهية لأهل الفهم عن الله وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة من عرف حظه من شريعتي عرف حظه مني فإنك عندي كما أنا عندك مرتبة واحدة

[مجزوء الرجز]:

مَن كان لي كنتُ له ... كمثلِ ما هُوْ لا أَزِيدْ
فالشرعُ غَيْبٌ ظاهرٌ ... له مقاماتُ العَبِيدْ
يستخدمُ الكَوْنَ كما ... يخدمه بلا مَزِيدْ
فمن يفي بعَهْده ... فَهْوَ وَفِيٌّ بالعُهُودْ
له النزولُ نحونا ... كما لنا عينُ الصعودْ
إليه في أعمالنا ... وهو الحفيظ والشَّهِيدْ
فخَصَّنا بلَذّة الكـ ... ـشف ولذّاتِ الشُّهُودْ

قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] رأيت سائلاً يسأل شخصاً بوجه الله أو بحرمة الله عندك أعطني شيئاً ومعي عبد صالح يقال له مدوّر من أهل أسبجة ففتح الرجل صرة

فيها قطع فضة صغار وكبار فأخذ يطلب على أصغر ما فيها من القطع فقال لي العبد الصالح: أتدري على ما يطلب؟ قلت له: قل، قال: على قيمته عند الله وقدره، فكلما أخرج قطعة كبيرة يقول بلسان الحال: ما نساوي مثل هذه عند الله فأخرج أصغر ما وجد فأعطاه إياها، إلا أن الله وصف نفسه بالغيرة وعلم من أكثر عباده أنهم يهبون جزيل المال وأنفسه في هوى نفوسهم وأغراضهم فإذا أعطى أكثرهم لله أعطى كسرة باردة وفلساً وثوباً خلقاً وأمثال هذا هذا هو الكثير والأغلب، فإذا كان يوم القيامة وأحضر الله ما أعطى العبد من أجله بينه وبين عبده حيث لا يراه أحد فأحضر ما أعطى لغير الله فيقول له: يا عبدي أليست هذه نعمتي التي أنعمت بها عليك؟ أين ما أعطيت لمن سألك بوجهي، فيعين ذلك الشيء التافه الحقير ويقول له: فأين ما أعطيت لهوى نفسك فيعين جزيل المال من ماله فيقول: أما استحييت مني أن تقابلني بمثل هذا وأنت تعلم أنك ستقف بين يدي وسأقررك على ما كان منك؟ فما أعظمها من خجلة، ثم يقول له: قد غفرت لك بدعوة ذلك السائل لفرحه بما أعطيته لكني قد ربيتها لك وقد محقت ما أعطيته لهوى نفسك فإن صدقتك أخذتها وربيتها لك فيحضرها أمام الأشهاد وقد رجع الفلس أعظم من جبل أحد، وما أعطى لغير الله قد عاد هباء منثوراً، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]. فالعارفون بالله صغيرهم كبير وكبيرهم لا أعظم منه فإنهم لا يعطون لله إلا أنفس ما عندهم وأحقر ما عندهم فكلهم لله وكل ما عندهم لله العبد وما يملكه لسيده فيعطون بيد الله ويشاهدون يد الله هي الآخذة وهم مبرؤون في العطاء، والأخذ مع غاية الاستقامة والمشي على سنن الهدى والأدب المشروع، فيكونون عند الحق بمنزلة ما هو الحق في قلوبهم، يعظمون شعائر الله وحرمات الله فيعظمهم الله يوم يقوم الأشهاد بمرأى منهم ويقيم الآخرين على مراتبهم فذلك يوم التغابن فيقول فاعل الشر: يا ليتني فعلت خيراً، ويقول فاعل الخير: ليتني زدت، والعارف لا يقول شيئاً فإنه ما تغير عليه حال كما كان في الدنيا كذلك هو في الآخرة أعني من شهوده ربه وتبريه من الملك والتصرّف فيه، فلم يقم له عمل مضاف إليه يتحسر على ترك الزيادة منه وبذل الوسع فيه، وما كان منهم من زلل مقدر وقع منهم بحكم التقدير، فإن الله يتوب عليهم فيه بتبديله على قدر الزلة سواء لا يزيد ولا ينقص، فإن العارف في كل نفس تائب إلى الله في جميع أفعاله الصادرة منه توبة شرعية وتوبة حقيقية، فالتوبة المشروعة هي التوبة من المخالفات، والتوبة الحقيقية هي التبري من الحول والقوة بحول الله وقوته، فلم يزل العارف واقفاً بين التوبتين في الحياة الدنيا في دار التكليف، فإن كان له اطلاع إلهي على أنه قد قيل له افعل ما شئت فقد غفرت لك فإن ذلك لا يخرجه عن تبريه ولم تبق له بعد هذا التعريف توبة مشروعة لأنه بين مباح وندب وفرض لا حظ له في مكروه ولا محظور، لأن الشرع قد أزال عنه هذا الحكم في الدار الدنيا، ورد ذلك في الخبر الصحيح عن الله في العموم وفي أهل بدر في الخصوص لكنه في أهل بدر على الترجي وفي وقوعه في العموم واقع بلا شك، فمن أطلعه الله عليه من نفسه بأنه من تلك الطائفة فذلك بشرى من الله في الحياة الدنيا قال الله

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٣و ٦٤] هذا حال المؤمن المتقي فكيف بحال العارف النقي الذي ما لبس ثوب زور وما زال نوراً في نور، فمن حافظ على آداب الشريعة وأعطى الطبيعة ما أوجب الله عليه من حقها وما تعدى بها منزلتها كان من العارفين الأدباء وأصحاب السرّ الأمناء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة من قرأ كلامي رأى غمامتي

فيها سرج ملائكتي تنزل عليه وفيه فإذا سكت رفعت عنه ونزلت أنا

[الوافر]:

كلامي ليس غيري وهو غيري ... وإنَّ المِثْلَ للأمْثَالِ ضِدُّ
فقُلْ للعارفين إذا قرأتم ... كلامَ الله فالوجدان فَقْدُ
دليلي في شهادته حروفٌ ... وفي الغيب المعاني وهي حَدُّ
وأسبلت الستور فما رآه ... فعين القرب في التحقيق بُعْدُ
فمن قرأ القُران فلا يُفَكِّرْ ... ولا ينظرْ فإن السّمَّ شَهْدُ

قال الله تعالىٰ في آية طالوت: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٤٨] وأنزلها الله في قلوب المؤمنين من أمة محمد ﷺ، وبهذا وأمثاله كانت هذه الأمة المحمدية ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال الله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] فما كان شهادة في غير هذه الأمة نزل غيباً في هذه الأمة فوجده أهل الأذواق في قلوبهم فكانت صفة من صفاتهم، وكانت فيمن تقدم هذه الأمة من الأمم أجنبية عنها، فعلامة هذه الأمة في قلوبهم استفت قلبك وإن أفتاك المفتون ومع كونها منزلة في قلوبهم ثم أشهدها الله تعالىٰ بعض أصحاب محمد ﷺ في تلاوته القرآن وكانت له فرس فجعلت تخبط فرفع رأسه فرأى غمامة فيها سرج كلما قرأ نزلت ودنت منه وإذا سكت ارتفعت، فلما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ: **«تلك السَّكينةُ نزلتْ للقرآن»**، فرأى هذا الصاحب ممثلاً خارجاً عنه ببصره ما كان فيه، فكان الحق له مرآة رأى صورة ما في قلبه فيها، فإن القرآن ذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] كذا ذكر الله لنا في كتابه العزيز، والطمأنينة سكينة أنزلها القرآن في قلوب المؤمنين، فكانت آيات بني إسرائيل ظاهرة وآياتنا في قلوبنا، وهذا الفرق بين الورثة المحمديين وسائر الأنبياء، فورثة الأنبياء يعرفون في العموم بما يظهر عليهم من خرق العوائد، ووارث محمد ﷺ مجهول في العموم معلوم في الخصوص لأنّ خرق عادته إنما هو حال وعلم في قلبه، فهو في كل نفس يزداد علماً بربه علم حال وذوق لا يزال كذلك. وقد نبّه الجنيد على ذلك باختلاف أجوبته عن المسألة الواحدة من التوحيد في المجلس الواحد

لاختلاف دقائق الزمان، ذكر ذلك القشيريّ في صدر رسالته المنسوبة إليه، وكلما ازداد المحمديّ علماً بربه ازداد قرباً فهم المقرّبون، وأحوالهم الظاهرة تجري بحكم العوائد فيعرفون ولا يعرفون، ويأتون بما أعطاهم الله من العلم به في طريق النصح لهذه الأمة، فلا تعرف العامة قدر ذلك لأنها اعتادت من علماء الرسوم مثل هذا إذا تكلموا في العلم بالله عزّ وجلّ من طريق الدليل ولم تفرق بين علم الدليل وبين علم الذوق، وأما علماء الرسوم فيكفرونهم غالباً مع كونهم يسلمونه لرسول الله ﷺ بعينه إذا نقل عنه في قرآن أو خبر إلهي وغير إلهي، فانظر ما أشدّ هذا العمى، ولولا أنّ رسول الله ﷺ بعثه رسولاً ما ظهرت عليه آية ظاهرة في العموم كما ظهرت على من تقدم، فما ظهر عنه ﷺ من الآيات المنقولة في العموم إنما كان ذلك من كونه رسولاً رفقاً من الله تعالىٰ بهذه الأمة وإقامة حجة على من كذبه وكذب ما جاء به، ألا ترى إلى رسول الله ﷺ كيف أسري به إلى المقام الذي قد عرف وجاء به القرآن والخبر الصحيح، فلما خرج إلى الناس بكرة تلك الليلة وذكر للأصحاب ما ذكر ممّا جرى له في إسرائه بينه وبين ربه تعالىٰ أنكر عليه بعض أصحابه لكونهم ما رأوا لذلك أثراً في الظاهر بل زادهم حكماً في التكليف، وموسىٰ عليه السلام لما جاء من عند ربه كساه الله نوراً على وجهه يعرف به صدق ما ادّعاه فما رآه أحد إلاّ عمي من شدّة نوره، فكان يتبرقع حتى لا يتأذى الناظر إلى وجهه عند رؤيته. وكان شيخنا أبو يعزى بالمغرب موسويّ الورث فأعطاه الله هذه الكرامة فكان ما يرى أحد وجهه إلاّ عمي فيمسح الرائي إليه وجهه بثوب ممّا هو عليه فيرد الله عليه بصره، وممّن رآه فعمي شيخنا أبو مدين رحمة الله تعالىٰ عليهما حين رحل إليه فمسح عينيه بالثوب الذي على أبي يعزى فردّ الله عليه بصره وخرق عوائده بالمغرب مشهورة وكان في زماني وما رأيته لما كنت عليه من الشغل، وكان غيره من الأولياء المحمديين ممّن هو أكبر منه في العلم والحال والقرب الإلهي لا يعرفهم أبو يعزى ولا غيره، فمن جعل الله آيته في قلبه وكان على بينة من ربه في قربه فقد ملأ يديه من الخير كله واختصه واصطنعه لنفسه وكساه الصفة الحجابية غيرة منه عليه، فلم تشهد حاله الأبصار في الدنيا وهم الأخفياء والأبرياء، فمن تحققهم بالحق وليسوا برسل مشرعين حجبهم الحق لاحتجابه إلى يوم القيامة، فيظهرهم الله في الموطن الذي يتجلى الله فيه لأبصار عباده ويظهر بنفسه وعينه للخاص والعام، فهناك يعرف قدر المحمديّ في القرب الإلهيّ بمقامه في تلاوته كلام ربّه عزّ وجلّ وهو سكونه لما يتلوه من كشفه واطلاعه على معانيه، فهو في حال تلاوته يستذكر ما عنده فيطلع على نفسه ويسمعه الله نثر كلامه ونظمه بتأييد الروح القدسي لما جاء في النظم المسمّى شعراً من نفخ الشيطان إلاّ مثل هذا النظم، وقد صحّ في الخبر أن حسان بن ثابت لما أراد أن يهجو قريشاً ينافح بذلك عن رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ: **«قُلْ يَا حَسَّانُ فَإِنَّ رُوحَ القُدُسِ يُؤَيِّدُكَ مَا دُمْتَ تُنَافِحُ عَنْ عِرْضِ رَسُولِ الله»** فلم يجعل للشيطان عليه سبيلاً، وإذا كان هذا لمن ينافح فما ظنك بحال من ينطق عن الله بالله، فيكون القائل منه عند قوله ربّه عزّ وجلّ كما ورد في الصحيح أن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده في الصلاة،

والحاضرون ما سمعوا إلاّ صوت المصلي وكلامه بهذا المتكلم به ما ينسبه الحق تعالىٰ جلاله إلاّ إلى نفسه لا إلى المصلي، فاعلم أيها الوليّ الحميم ذلك تسعد إن شاء الله [الوافر]:

كلامي ليس غَيْري وهو غَيْري كما قلنا رَمَيْتَ وما رَمَيْتَا
فيا نَفْسي إذا طَلَبَتْ نفوسٌ بمشهدك التحاماً قُولي هَيْتَا
ولا تَبْخَلْ فإن البُخْلَ شُؤمٌ وتعلو بالعطاء إذا عَلَوْتَا
وكُنْ حَقّاً ولا تظهر بزُورٍ وكن عين القُران إذا تَلَوْتَا
لأن الله لم يسمعْ لعبدٍ يناديه بما يَتْلُوه صَوْتَا
فإنْ يتلُو بحقّ قال عبدي وكان خَالَهُ المشهودُ مَيْتَا
لأن الحَقَّ ليس يراه حَيٌّ لذا كتبوا على الأحياء مَوْتَا

فكل من تلا وسكن لما تلا بصدق بصورة ظاهر وحكمة باطن فذلك تال وصاحب سكينة، فإن هو تلا وسكن ظاهراً ولم يسكن باطناً والسكون الباطن فهم المعنى الساري في الوجود من تلك الآية المتلوة لا يقتصر بها على ما تدل عليه في الظاهر خاصة، فمن تلا هكذا فليس بصاحب سكينة أصلاً ولا هو وارث محمديّ وإن كان من أمة محمد ﷺ، فإن تلا وسكن باطناً ولم يسكن ظاهراً وتعدّى الظاهر المشروع فذلك ليس بوارث ولا محمديّ ولا بمؤمن وهو أبعد الناس من الله، فإن الروح القدسيّ أوّل من يرميه ويرمى به والنبيّ محمد ﷺ يقول لربّه فيه يوم القيامة سحقاً سحقاً والله عند ذلك لا يسعده ولا يساعده، وأعظم حسرة تقوم به إذا عاين يوم القيامة من سكن إليه إذا تلاه ظاهراً وباطناً فيرى ما سكن إليه باطناً قد سعد به هذا الآخر وشقي هو به، وما شقي إلاّ بعدم سكون الظاهر فيفوته خير كثير حين فاته الإيمان به فإنه أتى البيت من ظهره لم يأته من بابه، جعلنا الله وإياكم ممّن تلا فسكن. وفي التلوين في تلاوته بحسب الآيات ثبت وتمكن، إنه الملي بذلك والقادر عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثلاثون وأربعمائة

في معرفة منازلة قاب قوسين الثاني الحاصل بالوراثة النبوية للخواص منا

[الرمل]:

قَابَ قَوْسَيْنِ لنا من قَبْلِنَا قَابَ قوسين لمن أُسْرِيَ بِهْ
غير أنّي وارثٌ مستخدمٌ ولذا نِلْنَاه منه فانْتَبِهْ
فحلالٌ وحرامٌ بَيِّنٌ ما هنا بينهما من مُشْتَبِهْ
إنما الشُّبْهَةُ من قال أنا عَيْنُ من أَسْرَى به ما أنا بِهْ
وهو يَدْري أنه وارثه ليس يدري ذاك غيرُ المُنْتَبِهْ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقال ﷺ: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ» وذكر أن الأنبياء ورثوا العلم ما

ورثوا ديناراً ولا درهماً، فالوارث مستخدم بالمعنى من ورث منه ما جمعه غير أنّ الموروث في مثل هذا الورث ما نقصه شيء من علمه بوراثة الوارث منه ففارق ميراث الدينار والدرهم بهذه الحقيقة، والله يرث الأرض ومن عليها ممّا تعلق به علمه من العلم الابتلائيّ، فهذا هو قدر ميراث الحق من عباده وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ فاستخدمهم بما ابتلاهم حتى يعلم ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ من عباده ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ويبلو أخبارهم، وما عدى هذا النوع في حق الحق فهو علم لا علم وراثة، فكأن الورثة من طريق المعنى استخدموا من ورثوا منه العلم الذي حصله من الله بحكم الكسب ابتداء وبحكم التكليف، كل ذلك ورثوا منه الورثة من علماء الأمم، وممّا ورثوا منه قرب قاب قوسين وهو قولنا الثاني أعني الذي ينبغي للأولياء من هذا التقريب المحمدي ممّن قرب منه هذا القرب، فالأوّل من ذلك له ﷺ، والثاني للوارث وهو عينه، وإنما جعلناه ثانياً لكونه ما حصل له حتى تقدم به هذا الرسول المعين ﷺ فناله منه فهو في غاية البيان لا يقبل الشبه هذا العلم الموروث مثل ما يقبلها العلم النظري، ولهذا نبّه أبو المعالي لما ذكر النظر قال بحصول العلم عقيب النظر ضرورة، فلو كان ذلك العلم الحاصل عقيب النظر نتيجة النظر ضرورة لما قبل الدخل بعد ذلك ولا الشبهة مثل ما لا يقبل ذلك العلم الضروري، فتأوّلوا على إمام الحرمين ما لم يقصده بكلامه، وإنما أراد رضي الله عنه ما أردناه أنّ النظر جعله الله سبباً من الأسباب يفعل الأشياء عنده لا به، فإذا وفى النظر في الدليل حقّه خلق الله له العلم الضروري في نفسه ليس غير هذا، فاعتماده على العلم الضروري الذي لا يقبل الشبه، فإن لم يخلق له العلم الضروري فهو العالم الذي يقبل الدخل فيما علمه فيعلم عند ذلك أنه ما علمه علماً ضرورياً، ولهذا ما يقبل الدخل إلاّ دليله لا ما يقول أنه علمه عقيب النظر فرجوعه أو توقفه عمّا كان أنتج له ذلك الدليل أخرجه أن يكون ذلك عنده علماً ضرورياً، فليفرق الوارث في علمه بربه بين ما يأخذه ورثاً وبين ما يأخذه ابتداء من غير ورث، فأي عامل من العاملين عمل بأمر مشروع له من نص لا من تأويل وحصل له عن ذلك العمل علم بالله فهو من العلم الموروث.

ثم إنه لا يخلو ذلك النص المعمول به هل كان شرعاً لمن قبل محمد ﷺ أو لم يكن إلاّ من الشرع المختص به لا من الشرع المقرّر الذي قرّره لأمّته ممّا كان الله قد تعبد به نبياً قبله، فوارث مثل هذا وارث من كان ذلك العمل شرعه من الأنبياء بلغوا ما بلغوا، ووارث أيضاً محمداً ﷺ فيه فهو وارث من وارث، فإن كان ممّا اختصّ به رسل الله ﷺ فالوارث وارث محمد ﷺ فيه خاصة لا ينتسب إلى غيره من الأنبياء عليهم السلام، ويتميز بذلك عن سائر ورثة علماء الأنبياء عليهم السلام قبله، ويحشر بذلك العلم في صفوف الأنبياء عليهم السلام وخلف محمد ﷺ، فإن نشأة الآخرة تشبه في بعض الأحكام النشأة البرزخية فترى نفسها وهي واحدة في صور كثيرة وأماكن مختلفة في الآن الواحد، فيرى نفسه إن كان ورث عن وارث خلف محمد ﷺ وخلف كل نبيّ كان ذلك العمل شرعاً له، ولو كانوا مائة ألف لرأى نفسه في أماكن على عددهم وفي صور، ويعلم أنه هو وليس غيره في كل

صورة، وهو مع كونه واحداً عين كل صورة وهكذا يكون يوم القيامة، فإن النبي ﷺ يطلبه الناس في مواطن القيامة فيجدونه من حيث طلبهم في كل موطن يقتضيه ذلك الطلب في الوقت الذي يجده الطالب الآخر في الموطن الآخر بعينه، فمن لم يجده في طلبه في موطن ما فإنما ذلك لكونه طلبه في غير الموطن الذي يقتضيه طلبه، فإن طلبه في موطن اقتضى حاله الجهل لوجده، فذلك الجهل إذا وقع إن وقع فسببه ما ذكرناه وهو غير واقع والله أعلم.

ثم نرجع ونقول: وإن كان ذلك العمل الذي أقيم فيه العبد لا عن نص مشروع بل كان قلّد فيه مجتهداً من علماء الأمّة صاحب نظر وتأويل فيما حكم به لا عن نص من ذلك المجتهد اتبعه فإنه يكون يوم القيامة وارث ذلك المجتهد ومتبعاً إياه ومتبعاً أيضاً، والنبيّ ﷺ وإن كان ذلك في نفس الأمر شرعاً له كما تقدم، وإن كان العامل لا عن نص ولا عن تقليد بل كان عن نظر واجتهاد وتفقه فهذا لا يكون وارثاً في مثل هذه المسألة إلاَّ إن أصاب الحكم فيها، فإن أصاب الحكم كان وارثاً وإن أخطأ الحكم لم يكن وارثاً ويحشر في صف من هذه صفته ولهم صف مخصوص، ثم هم في المواطن بحسب ما يكون عليه ذلك الحكم من مصادفة من تقدمه أنه شرع له، فتكون له صور متبعة خلف ذلك الموروث منه كان من كان والكل خلف محمد ﷺ، وتختلف مراتبه خلف رسول الله ﷺ وخلف الرسل عليهم السلام لاختلاف ما ظهر له في الذي عمل به، فإن انفرد به جملة عن كل رسول ونبيّ ومجتهد فإنه يكون أمة وحده كقس بن ساعدة قال فيه رسول الله ﷺ أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده مع كونه خلف محمد ﷺ لا بدّ من ذلك من حيث إنه ﷺ أعطاه المادّة التي نظر فيها حتى انقدح له ما لم يخطر له إلاَّ في تلك المسألة النازلة وأخطأ فيها حكم رسول الله ﷺ لا بدّ من ذلك بخلاف حكم المصيب، فتحقق هذه المنازلة فإنها غريبة في المنازلات قليل من أهل الله من تكون له فإنها تنبيء عن تحقيق عظيم وذوق غريب ورفع إشكال، وليس يكون في القيامة أدل ولا أعرف بمواطن القيامة ولا بصور ما فيها أعظم من صاحب هذه المنازلة ولا تحصل إلاَّ بالوهب الإلهيّ لمن حصلت له، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة اشتد ركن من قوي قلبه بمشاهدتي

[البسيط]:

إنّ الـقَـويَّ الـذي مـا زال يَـشْـهَـدُنـي ... عـنـد الـشـؤون ومـا فـي الـحَـقّ مـن حَـرَجِ

فـمـن يُـعـانِـدُنـي فـيـمـا أَفُـوهُ بـه ... مـن الـحـقـائـق فَـلْـيَـرْقَ عـلـى دَرَجـي

ولـو يـراه لـفَـدَّاهُ بـنـاظـره ... وبـالـنـفـوس وبـالأرواح والـمُـهَـجِ

لـكِـنْ لـه حُـجُـبٌ عـلـى الـعـيـون فَـهُـمُ ... فـي الـضـيـق فـي الـمـلأ الـعـلـويّ فـي فَـرَجِ

إني مريضٌ عليلُ القلبِ مبتئسٌ ... في الذّلّ والمقلةِ النجلاءِ والدَّعَجِ
إني لفي ظُلُماتٍ من تراكُمِها ... غَرِقْتُ من بحرها اللُّجِّيِّ في اللُّجَجِ
الناسُ في سِيفِ هذا البحر في نِعَمٍ ... أينَ السواحلِ يا هذا من الثَّبَجِ

قال الله عزّ وجلّ جلاله حكاية عن نبيه لوط عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فقال رسول الله ﷺ في الصحيح عنه: «**يَرْحَمُ الله أَخِي لُوطاً لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**» يعني من القبيلة، فاعلم أن أقوى الأقوياء من كان الحق قواه ومع هذه القوّة بهذه الصفة، فما يكون إلاّ ما سبق به الكتاب، ولا كتب إلاّ ما علم، وما علم إلاّ ما هو عليه المعلوم ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤] ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] فقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠] أي همّة فعالة، ومن كان الحق قواه فلا همة تفعل فعل من هذه صفته لكن الأمر على ما قرّرناه من سبق الكتاب فلا يقع إلاّ ما هو الأمر عليه فأداة أو أنما أعطته عطاها الإمكان لا غير، فلو أراد بالقوّة إظهار الأثر الذي جاء به فيهم وأراد بالركن الشديد إذ لم يتمكن الأثر فيهم أن يحمي نفسه عنهم حتى لا يؤثروا فيه فلهذا ﷺ ذكر الأمرين: القوّة والإيواء، ولا شك أن الرسل عليهم السلام هم أعلم الناس بالله فلا يأوون إلاّ إلى الله وهو قوله ﷺ: «**يَرْحَمُ الله أَخِي لُوطاً لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**» يعني بذلك إيواءه إلى الله فأوى إلى من يفعل ما يريد ولا اختيار في إرادته ولا رجوع عن علمه، فآوى إلى من لا تبديل لديه [الطويل]:

فما الجَبْرُ إلاّ ظاهرٌ مُتَحَقِّقٌ ... فما ثَمَّ تخييرٌ وما ثَمَّ مُنْقَلَبُ
فلا تَهْرُبَنْ فالأمر ما قد سَمِعْتَهُ ... فإن لم تُوافِقْهُ فما ينفعُ الهَرَبُ
فعِلْمُ إلٰهي عَيْنُ حالي فما أنا ... عليه فأمْلِيهِ عليه إذا كتبْ
فأنت سَبَقْتَ القولَ والعلمَ والذي ... يؤدّي إلى الفوز العظيم أو العَطَبْ

فلا ركن أشد من ركنك وما نفعك، وإنما قلنا إنك أشدّ الأركان من كون القضاء ما جرى عليك إلاّ بما كسبت يداك وهو ما أعطته قدرتك، فأضاف الفعل إليك وليس إلاّ ما قررناه من أنه ما علم منك إلاّ ما أنت عليه، فإذا وها ركنك بالنظر إلى غرضك فلم نفسك فإن الحق المحكوم به تابع أبداً لحال المحكوم به عليه، فالمحكوم عليه هو الذي جنى على نفسه لا الحاكم بالمحكوم به، وإنما تعددت الأركان من أجل الحجب التي أرسلها الحق بينك وبين الأصل، وكون الأمر جعله مثل البيت على أربعة أركان: ركن العلم، وركن القول وهو قوله عزّ جلّ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] وركن المشيئة، وركن الأصل وهو أنت، وهو الركن الأول من البيت والثلاثة الأركان توابع، فمن الناس من استند في حاله إلى علم الله فيه، ومنهم من استند إلى مشيئته، ومنهم من استند إلى ما كتب الله عليه، وصاحب الذوق من يرى جميع ما ذكرناه ووقف مع نفسه وقال: أنا الركن الذي مرجع الكل إليه، فهو الأول الذي انبنى من هذا البيت ولكن صاحبه عزيز فإن الصحيح عزيز، فالكل معلول عندهم وعندي أن

العالم هو عين العلة والمعلول ما أقول أن الحق علة له كما يقوله بعض النظار فإن ذلك غاية الجهل بالأمر، فإن القائل بذلك ما عرف الوجود ولا من هو الموجود، فأنت يا هذا معلول بعلتك والله خالقك، فافهم واعلم أنه من أوجدك له لا لك ففي حق نفسه عمل لا في حقك فما أنت المقصود لعينك، قال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فذكر ما ظهر وهو مسمّى الإنس، وما استتر وهو مسمّى الجن، فإذا نظرت إلى هذا الخبر وسعدت أنت بهذه الوجوه فإنما سعدت بحكم التبعية، فاعلم ما يقول له إذا قرر عليك النعم فإنما يقررها عليك لسان الإمكان، فإن شئت فاسمع واسكت وإن شئت فتكلم كلاماً يسمع منك، وليس إلاَّ أن تقول له ما قاله، فبكلامه تحتج إن أردت أن تكون ذا حجة، وإن تأدبت وسكت فإنه يعلم منك على ما سكت وانطويت عليه، فما كل حق ينبغي أن يقال ولا يذاع، ولا سيما في موطن الإشهاد والخصم قويّ والحاكم الله ولا يحكم إلاَّ بالحق الذي سأل منه رسول الله ﷺ أن يحكم به في قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢] ولولا ما هو الرحمن ما اجترأ العبد أن يقول: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ فإنه تعالىٰ ما يحكم إلاَّ بالحق فإنه ما يتعدّى علمه فيه الذي أخذه منه أزلاً وظهر حكمه أبداً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة عيون أفئدة العارفين ناظرة إلى ما عندي لا إليّ

[البسيط]:

لو كان عِندَك ما عندي لما نَظَرَتْ	عُيُونُ أفئدةِ للعارفين سِوَاكْ
فإن نَظَرْتَ بعين الجمع تَحْظَ بنا	وإن نَظَرتَ بأخرى كان ذاك هَوَاكْ
ما في الوجود وجودٌ غير خالقِه	وما هنا عينُ شيء لا يكون هُنَاكْ
بل كلّه عينُه جَمْعاً وتفرقةً	إن لم يَكُنْ هكذا كَوْني فليس بذَاكْ

قال الله عزّ وجلّ في العارفين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] ولم يقل علموا ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] ولم يقولوا علمنا ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: ٨٤] ولم يقل نعلم ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ﴾ [المائدة: ٨٤] وما قالوا نتحقق ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤] وهي الدرجة الرابعة ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٨٥] ولم يقل بما علموا ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥] والجنات عند الله، فلهذا قال ناظرة إلى ما عندي فإنه قال في حق طائفة آخرين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] على أن تكون إلى حرف أداة غاية لا تكون اسم جمع النعمة فإن ذلك في اللفظ يحتمل ولهذا ما هي هذه الآية نص في الرؤية يوم القيامة، وإذا كان الأمر هكذا فاعلم أن الله قد فرّق بين العارفين والعلماء بما وصفهم به وميّز بعضهم عن بعض، فالعلم صفته

والمعرفة ليست صفته، فالعالم إلهي والعارف رباني من حيث الاصطلاح، وإن كان العلم والمعرفة والفقه كله بمعنى واحد لكن يعقل بينهما تميز في الدلالة كما تميزوا في اللفظ، فيقال في الحق إنه عالم ولا يقال فيه عارف ولا فقيه، وتقال هذه الثلاثة الألقاب في الإنسان، وأكمل الثناء ثناؤه تعالىٰ بالعلم على من اختصّه من عباده أكثر ممّا أثنى به على العارفين، فعلمنا أن اختصاصه بمن شاركه في الصفة أعظم عنده لأنه يرى نفسه فيه فالعالم مرآة الحق ولا يكون العارف ولا الفقيه مرآة له تعالىٰ، وكل عالم عندنا لم تظهر عليه ثمرة علمه ولا حكم عليه علمه فليس بعالم وإنما هو ناقل والعلم يستصحب الرحمة بلا شك، فإذا رأيت من يدعي العلم ولا يقول بشمول الرحمة فما هو صاحب علم، فإن الرحمة تتقدم بين يدي العلم تطلب العبد ثم يتبعها العلم، هذا هو علم الطريق الذي درج عليه أهل الله وخاصته وهو قوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وهذا هو علم الذوق لا علم النظر.

واعلم أن العارفين هم الموحدون، والعلماء وإن كانوا موحدين فمن حيث هم عارفون إلاَّ أن لهم علم النسب فهم يعلمون علم أحدية الكثرة وأحدية التمييز وليس هذا لغيرهم، وبتوحيد العلماء وحّد الله نفسه إذ عرف خلقه بذلك، ولما أراد الله سبحانه أن يصف نفسه لنا بما وصف به العارفين من حيث هم عارفون جاء بالعلم والمراد به المعرفة حتى لا يكون لإطلاق المعرفة عليه تعالىٰ حكم في الظاهر فقال: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فالعلم هنا بمعنى المعرفة لا غير، فالعارف لا يرى إلاَّ حقاً وخلقاً، والعالم يرى حقاً وخلقاً في خلق فيرى ثلاثة لأن الله وتر يحب الوتر، فهو مع الله على ما يحبه الله مع الكثرة كما ورد: «**إِنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إِلاَّ وَاحِد**» فإن الله وتر يحب الوتر، فما تسمى إلاَّ بالواحد الكثير لا بالواحد الأحد، وإنما قلنا في العارف إنه رباني فإن الله لما ذكر من وصفه بأنه عرف قال عنه إنه يقول في دعائه ربنا لم يقل غير ذلك من الأسماء، وقال رسول الله ﷺ فيه مثل ذلك: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وما قال علم ولا قال إلهه، فلزمنا الأدب مع الله تعالىٰ ومع رسوله ﷺ فأنزلنا كل أحد منزلته من الأسماء والصفات، ومن أراد تحقيق الفرق بين المعرفة والعلم فعليه بمطالعة ما ذكرناه في مواقع النجوم لنا فإني شفيت في ذلك الغليل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة من رآني وعرف أنه رآني فما رآني

[الخفيف]:

مَــن رَآنـي وقـال يَـوْمـاً رآنـي ... مـا يـراني غـيـر الـذي مـا يـراني

إن لله نَـظْــرَةً فــي وجــودي ... وبـهـا ربُّـنـا الـعَـلِـيُّ هـداني

يـذهـب الـعـلـم إن نـظـرت إلـيـه ... بـجـنـان بـفـكـره أو عَـيَـانِ

فـدليـلـي يَـنْـفـي الـثُّبُـوتَ ويَـمْـضي ... فـي سُـلُوبٍ يُـعْـطِـيكَـهَـا فـي بَـيَـانِ

وعـيـون تَـعَـلَّـقَـتْ بـمـثـال في كـشـوف يـكـون أو فـي جـنـان
هـو لا مُـدْرَكٌ بـعـيـن وعَـقْـلٍ والـذي تـدركُ الـجُـفُـونُ كـيـانـي

قال الله تعالىٰ إن موسىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] له ربه ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] لأنه قال: ﴿أَنظُرۡ﴾ بالهمزة فلو قال بالنون أو بالياء والتاء ربما لم يكن الجواب: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ والله أعلم والسؤال مجمل في قوله: ﴿أَنظُرۡ﴾ والجواب مجمل في قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾.

اعلم أن رؤية المرئي تعطي العلم به ويعلم الرائي أنه راء أمراً ما وقد أحاط علماً بما رآه، ورأينا الذي يرى الحق لا تنضبط له رؤيته إياه، وما لا ينضبط لا يقال فيه أن الذي رآه عرف أنه رآه، إذ لو رآه لعلمه وقد علم بتنوّع الصور عليه في ترداد رؤيته مع أحدية العين في نفس الأمر فما رآه حقيقة، فلا يعلم الحق إلاَّ من يعلم أنه ما رآه ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ بعيني فإن الرؤية بأداة إلى رؤية العين قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ بعينك لأن المقصود من الرؤية حصول العلم بالمرئي، ولا تزال ترى في كل رؤية خلاف ما تراه في الرؤية التي تقدمت فلا يحصل لك علم برؤية أصلاً في المرئي فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ فإني لا أقبل من حيث أنا التنوّع وأنت ما ترى إلاَّ متنوّعاً وأنت ما تنوّعت فما رأيتني ولا رأيت نفسك وقد رأيت فلا بدّ أن تقول: رأيت الحق وأنت ما رأيتني فلم تصدق أو تقول: رأيت نفسي وما رأيت نفسك فلم تصدق وما ثم إلاَّ أنت والحق ولا واحد من هذين رأيت وأنت تعلم أنك رأيت فما هذا الذي رأيت فلن تراني بعينك، فهل إذا كان الحق بصرك هل يمكن أن تصدق في أنك رأيته إذا رأيت؟ أو الحال واحدة في بصره إذا كان في مادة عينك أو بصرك؟ وهذا مشهد من مشاهد الحيرة في الله تعالىٰ، ولا تتعجب من طلب موسىٰ عليه السلام رؤية ربه فإنه ثم مقام يقتضي طلب الرؤية والإنسان بحكم الوقت فإن الوقت حكمه مطلق حقاً وخلقاً. وهذا القدر كاف في هذه المنازلة، فإن مجالها لا يتسع لأكثر من هذه العبارة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والأربعون وأربعمائة
في معرفة منازلة واجب الكشوف العرفاني

[البسيط]:

إنّ الـمـعـارفَ تُـعْـطـي واحـداً أبـداً فـواجـبُ الـكَـشْـفِ عِـرْفَـانٌ بـآحـادِ
فـإن تَـعَـدَّى إلـى ثـانٍ فـإن لـه من نـفـسـه ولـه الإسـعـادُ في الـنّـادي
تـسـاعـدُ الـعِـلْـمَ وقـتـاً إذ يـسـاعـدُهـا الـعـلـمُ وقـتـاً فـإسـعـادٌ بـإسـعـادِ
لا تَـعْـلَـمُـونَـهُـمُ الله يـعـلـمـهـم عـلـمٌ كـمـعـرفـةٍ والـحـكـمُ لـلـبـادي

اعلم أيّدنا الله وإياك أن الذي أوجب الكشوف العرفاني الطمع الطبيعي في الربوبية ليشهد ما هو عليه الرب من الصفات المؤثرة في الأكوان فيظهر بها في ربوبيته عن كشف

وتحقيق فلا نتعدى بالصفة أثرها فإن الأسماء الإلهية تتقارب، وربما يتخيل من لا كشف له عليها ولا ذوق له فيها أنها متداخلة أو مترادفة وإنما هي في أنفسها مشتبهة، ولا يصل إلى تحقيق ذلك أحد إلاّ بالكشف إلاّ أن هنا دقيقة وهي أن نسبة ذلك الاسم الإلهي إلى الرب تعالىٰ ما يكون على مثل نسبته إلى المخلوق، فإن الأمور إذا نسبت إلى شيء تختلف نسبتها باختلاف من تنسب إليه، وإن كان معنى ذلك الاسم المنسوب على حقيقة واحدة، فإذا اطلع أهل الكشف من نفوسهم على تهييء المحال التي تتأثر لها يشوّقها ذلك إلى تحصيل الوجوه التي تبقي عليها الأدب مع الله إذا أثرت بها لأنها قد علمت بالخبر الإلهي أنها مخلوقة على الصورة الإلهية وأن الخلافة ما صحّت لها إلاّ بالصورة وأن كل إنسان ما هو على الصورة، فإنه ثم إنسان حيوان وإنسان خليفة، ولم يعلم هذا الإنسان الطالب أي إنسان هو هل هو الحيوان أو الإمام؟ فأوجب له هذا الاطلاع أن يطلب من الحق تجلياً خاصاً في ربوبيته ويرى انفعال الأكوان عنه كما قال الصديق: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، فيرى صدور الأكوان عنه في الأكوان ويرى صورة التعلّق، وهل يكون الحق في ذلك التجلّي على صورة ما يتكوّن عنه أو على صورة النسبة التي يكوّن بها التي يقول للشيء كن فيكون ذلك الشيء، ويرى من أين يقبل المأمور بالتكوين التكوّن هل يقبله من أمر وجودي أم لا؟ فإذا ظهر هل يظهر بصورة الاسم الذي قال به الحق له كن أو يكون هو عين الصورة التي قال بها كن، فكانت في حق الحق أسماء، وفي جوهر المكوّن فيه خلقاً وصورة، وإذا كانت بهذه المثابة فهل تبقى تلك الصورة الاسمية على ما شهدها في الحق أو تظهر بذلك الاسم في صورة أخرى لتكوين عين أخرى لاختلاف الأمثال لما بينهم من التميز الذي به يقال: هذا ليس هذا أو هذا مثل هذا، كل هذا يطلبه العارف حتى يقف عليه من نفسه، وهذا هو الشخص الذي يدعو إلى الله على بصيرة ويكون من نفسه على بصيرة ويرى تأثير الخلق في الخلق هل هو أمر صحيح أو هو تأثير حق في خلق أو خلق في حق أو حق في حق أو هو المجموع أو لا أثر في نفس الأمر؟ وإن ظهر أنه أثر كما تقدم في الرؤية هل المرئي الحق أو نفس الرائي؟ وليس هذا مع ثبوت مرئي لا يعرف ما هو، كذلك ربما يكون ثبوت أثر في الكشف وفي الوقوع، فإن جعلنا محله حقاً أو خلقاً لم يصدق هذا الجعل وما ثم إلاّ حق وخلق فأين محل الأثر؟ وهذا من أشكل ما تروم النفس تحصيله، فإذا اطلع العارف على الوجه الصحيح انتقل من درجة المعرفة إلى درجة العلم فكان عالماً إلهياً بعدما كان عارفاً ربانياً، ولا يقال إلهيّ إلاّ فيمن هذه صفته فإن له الأمر العام الجامع، فإذا نظرت إليه قلت: إنه حق، ثم تنظر إليه فتقول: إنه خلق، ثم تنظر إليه فتقول: لا حق ولا خلق، ثم تنظر إليه فتقول: حق خلق، فتحار فيه حيرتك في الله، فحينئذٍ تعرف أنه قد حصل الصورة وأنه فارق الإنسان الحيوان، ومتى لم يعرف الإنسان هذا من نفسه ذوقاً وحالاً وكشفاً وشهوداً فليس بالإنسان المخلوق على الصورة الذي له الإمامة في الكون صاحب العهد، فإن الله لا ينال عهده الظالمون، وليس عهده سوى صورته فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة من كتب له كتاب العهد الخالص لا يشقى

[الرمل]:

ليس يَمْحُو الله خيراً قد كَتَبْ	هكذا دَلَّ دليلي فوَجَبْ
وكذا حُكْمُ تَجَلِّيهِ فما	يَتَجَلَّى ثم من بَعْدُ احْتَجَبْ
كلّ ما أعطاك علماً لا ترى	بعد هذا العلم جهلاً يَنْقَلِبْ
ولهذا عَمِلُوا واجتَهَدُوا	فلهذا الربّ فاسْجُدْ واقْتَرِبْ
يحكمُ الجودُ به من نفسه	ما له من ذاته حُكْمٌ غصبْ
فيكون الكلُّ في رحمته	بامتنانٍ ووجوبٍ قد كتبْ
يطمعُ الشيطانُ في رحمته	وكذا حكم عُبَيْدٍ يَكْتَسِبْ

قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣] ألا إنه العهد الذي خلص لنفسه في وفاء العبد به ما استخلصه العبد من الشيطان ولا من الباعث عليه من خوف ولا رغبة ولا جنة ولا نار، فإنه قد يكون الباعث للمكلف مثل هذه الأمور في الوفاء بعهد الله، فيكون العبد من المخلصين ويكون الدين بهذا الحكم مستخلصاً من حد من يعطي المشاركة فيه فيميل العبد به عن الشريك ولهذا قال فيه حنفاء لله أي مائلين به إلى جانب الحق الذي شرعه وأخذه على المكلفين من جانب الباطل، إذ قد سماهم الحق مؤمنين في كتابه فقال في طائفة إنهم آمنوا بالباطل وكفروا بالله فكساهم حلة الإيمان، فما الإيمان خصوص بالسعداء ولا الكفر خصوص بالأشقياء فوقع الاشتراك وتميزه قرائن الأحوال، فلم يبق يعرف الإيمان من الكفر ولا الإيمان من الإيمان ولا الكفر من الكفر إلاّ بلابسه، فالعهد الخالص هو الذي لما أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ثم ولد كل بني آدم على الفطرة وهو قوله ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ**» وهو الميثاق الخالص لنفسه الذي ما ملكه أحد غصباً فاستخلص منه بل لم يزل خالصاً لنفسه في نفس الأمر طاهراً مطهراً، ولكن هنا نكتة لا يمكن إظهارها كما كان الحق منزّهاً لنفسه ما هو منزّه لتنزيه عباده ولهذا قال من قال من العارفين سبحاني، فإذا ولد المولود ونشأ محفوظاً قبل التكليف كسهل بن عبد الله وأبي يزيد البسطامي ومن اعتنى الله به من أمثالهما ممّن كان من الناس قبلهما وبعدهما وفي زمانهما ممّن لم يصل إلينا خبره كما وصل إلينا خبر هذين السيدين ولم يرزأه في عهده هذا بشيء ممّا ذكرناه آنفاً فبقي عهده على أصله خالصاً وهو الدين الخالص لا المخلص فقام بالعبد من غير استخلاص فما هو من العباد الذين أمروا أن يعبدوا الله مخلصين إذ لا فعل لهم في الاستخلاص بل لم يعرفوا إلاّ هذا الدين الخالص من غير شوب خالطه حتى يستخلصوه منه فيكونون مخلصين، هذا لم يذوقوا له طعماً مثل ما ذاقه الغير، ومن كان هذا حاله من الدين فهو صاحب العهد الخالص فلا يشقى، فإنه لا يشقى إلاّ أهل المكابدة والمجاهدة في استخلاص الدين ممّن أمرهم الله أن يستخلصوه منه وليس على الحقيقة

إلاّ هوى أنفسهم، وهؤلاء في المرتبة الثانية من السعادة، والطبقة الأولى هم الذين يغبطهم الأنبياء والشهداء أصحاب المنابر يوم القيامة المجهولون في الدنيا فهم لا يشفعون ولا يستشفعون ولا يرون للشفاعة قدراً في جنب ما هم فيه من الحال الطاهر القدوس لا المقدس.

ومن هذا المقام قال أبو يزيد: لو شفعني الله في جميع الخلائق يوم القيامة لم يكن ذلك عندي بعظيم لأنه ما شفعني إلاّ في لقمة طين يعني خلق آدم من طين ونحن منه كما قال من نفس واحدة خلقت تلك النفس من طين، فانظر ما أعجب إشارة أبي يزيد وإياك أن يخطر لك في هذا الرجل احتقار منه للمقام المحمود الذي لمحمد ﷺ يوم القيامة وأنه يفتح فيه أمر الشفاعة وهو مقام جليل، واعلم أنه ما سمّي مقاماً محموداً لمجرد الشفاعة بل لما فيه من عواقب الثناء الإلهي الذي يثني رسول الله ﷺ بها على ربّه عزّ وجلّ ممّا لا يعلم بذلك الثناء الخاص اليوم، فما حمد إلاّ من أجل الله لا من أجل الشفاعة، ثم جاءت الشفاعة تبعاً في هذا المقام، فيقال له عند فراغه من الثناء: سل تعطه واشفع تشفع، فيشفع في الشافعين أن يشفعوا فيبيح الله الشفاعة للشافعين عند ذلك فيشفعون، فلا يبقى ملك ولا رسول ولا مؤمن إلاّ ويشفع ممّن هو من أهل الشفاعة وأهل العهد الخالص على منابرهم ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] على نفوسهم ولا على أحد لأنهم لم يكن لهم تبع في الدنيا، وكل من كان له تبع في الدنيا فإنه وإن أمن على نفسه فإنه لا يأمن على من بقي وعلى تابعه لكونه لا يعلم هل قصر وفرّط فيما أمره به أم لا، فيحزنه الفزع الأكبر عليه، تقول بعض النساء من العارفين لجماعة من رجال الله: أرأيتم لو لم يخلق جنة ولا ناراً أليس هو بأهل أن يعبد؟ تشير هذه المرأة إلى الدين الخالص وهو هذا المقام وهي رابعة العدوية ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤] ويقول فيه أبو يزيد الأكبر لا صفة لي فلو استخلص عهده لكان مخلصاً، وإذا كان مخلصاً كان ذا صفة فلم يصدق في قوله وهو عندنا صادق، وهذه الطائفة هم الذين عمّهم قوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وهذا العهد الخالص فأمسكه الله عليهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي من وفى بعهده فإن النحب العهد ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ لأن العبد ما دام في الحياة الدنيا لا يأمن التبديل فإن الله يفعل ما يريد، وما يدري العبد على الحقيقة ممّا كان عليه من الحال في حال عدمه إذ كان مشهوداً لله لا لنفسه إلاّ ما مضى، وما يقع فهو في علم الله، فلا يأمن مكر الله لعلمه بالله ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] فللّهِ رجال بهذه المثابة جعلنا الله منهم، فما أعظم بشارتها من آية ولا بلغ إلينا تعيين أحد من أهل هذه الصفة إلاّ طلحة بن عبيد الله من العشرة صحّ فيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«هٰذا مِمَّنْ قَضَى نَحْبَهُ»** وهو في الحياة الدنيا فأمن من التبديل وهذا عظيم ويدخل في هذا المقام وإن لم يبلغ فيه مبلغ من له العهد الخالص بالأصالة من عهد الله على القيام بدينه عند توبته فوفى بما عاهد عليه الله. قال لي السيد سليمان الدنبليّ إنّ له خمسين سنة ما خطر له خاطر سوء، فمثل هذا يلحق بهؤلاء إذا مات عليه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وكل من جدّد عهداً مع الله فهو من المخلصين ما هو ممّن له الدين الخالص، فصاحب الدين الخالص مهما

تجدّد له من الله حكم بشرع لم يكن يعرفه قبل ذلك، وقد كلفه الحق به في كتابه أو على لسان رسوله، فإن هذا العبد يتلقاه بالدين الخالص والعهد الأوّل ولا يضرّه جهله بالمسألة المعينة الخاصة، هذا لا يقدح في صاحب هذا المقام كأبي بكر الصديق الذي ما رأى شيئاً إلاّ رأى الله قبله بالدين الخالص والعهد الإلهيّ الذي كان عليه وفي شهوده، ولهذا لما واجهه رسول الله ﷺ بالإيمان برسالته بادر وما تلكأ ولا طلب دليلاً على ذلك منه بل صدقه بذلك العهد الخالص فإنه رأى رسالته هناك كما رأى رسول الله ﷺ نبوّته قبل وجود آدم كما روي عنه: «**كُنْتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ**» أي لم يكن موجوداً وإنما عرف بذلك لقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧] وكان هذا الميثاق قبل وجود جسد آدم، فلما وجد آدم وقبض الحق على ظهره واستخرج منه كأمثال الذر يعني بنيه أشهدهم على أنفسهم كما جاء في القرآن فشهدوا فهذا هو الميثاق الثاني، والميثاق الأول هو ما أخذه على الأنبياء فلما ولدوا ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ومنهم من خذله الله فأشرك، جعلنا الله ممّن قضى نحبه ولم يبدّل آمين بعزّته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والأربعون وأربعمائة
في معرفة منازلة هل عرفت أوليائي الذين أدّبتهم بآدابي

[الرمل]:

أنـبـيـاءُ الله مـا أدَّبَـهُـم غَـيْـرُهُ فـاعْـتَـصَـمُـوا بـالأدَبِ
فَـهُـمُ الـسـادةُ لا يَـخْـذُلُـهُـمْ هـكـذا عـيـنـهـم فـي الـكُـتُـب
فـالـذي يَـمْـشـي عـلـى آثـارهـم هـو مَـعْـدودٌ بـذا فـي الـنُّـجُـب
فـإذا كـان كـذا ثـم كـذا لـم يـزل لـذاك خَـلْـفَ الـحُـجُـب
أسْـعَـدُ الـنـاس بـهـم تـابِـعُـهُـمْ فـتـراه مِـثْـلَـهـم فـي الـنَّـصَـب
لَـزِمُـوا الـمـحـرابَ حـتـى وَرِمَـتْ مـنْـهُـمُ أقـدامُـهـم فـي قُـرب

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ومن أحبّ الله ذلّ، ومن أحبه الله دلّ، فالمحب ذليل والمحبوب ذو دلال ودلال. وقال ﷺ: «**إنَّ الله أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أَدَبِي**» واعلم أنه لتعريف الله بمنازل الخلق عنده من وليّ وغيره طريقين: الطريق الواحدة الكشف فيرى منازل الخلق عند الله فيعامل كل طائفة بمنزلها من الله. والطريق الأخرى ملازمة الأدب الإلهي، والأدب الإلهي هو ما شرعه لعباده في رسله وعلى ألسنتهم، فالشرائع آداب الله التي نصبها لعباده، فمن وفى بحق شرعه فقد تأدّب بأدب الحق وعرف أولياء الحق، فإذا رأيت من جمع الخير بيديه وملأهما به فتعلم أنه قد أخذ بأدب الله فإن رسول الله ﷺ يقول لربه وهو الصادق العالم بربه: «**وَالخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ**» فالخير إذا أردت أن تعرفه فاعلم أنه جماع مكارم الأخلاق وهي معروفة عرفاً وشرعاً، وكل ما تراه من إقامة الحدود على من لو لم يأمرك الحق بذلك لكنت تعفو عنه فذلك لا يقدح في مكارم الأخلاق

مع هذا الشخص فإنك ما فعلت به ما فعلت لنفسك وإنما الله فعل بعبده ما شاء على يدك، وكلاكما عبد لسيد واحد، وإنما كلامنا فيما يرجع إليك لا لأمر سيدك، فإنه من مكارم الأخلاق في العبيد امتثال أوامر سيدهم في عباده والوقوف عند حدوده ومراسمه فيهم ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] فكونهم حادّوا الله ورسوله هو الذي عاد عليهم، فهم جنوا على أنفسهم ما جنى عليهم صاحب مكارم الأخلاق، فمن تعرّض لأمر فقد أحب أن يتعرض إليه فيه فما فعلت معه في عدم ودّك فيه إلاَّ ما أحب، ولا تكون مكارم الأخلاق إلاَّ أن تفعل مع الشخص ما يحبه منك فإنه قد بغضك أوّلاً لإيمانك بالله واليوم الآخر واتخذك عدوّاً، فمن مكارم خلقك معه أن تتلطف به في إيمانه، فإن لم ينفع فلتقابله بالقهر، فإن لم يفعل ولجَّ فقدرت على قتله فاقتله بمكارم خلق منك حتى لا يبقى في الحياة الدنيا فيزيد كفراً وطغياناً فيزيده الله عذاباً كما فعل من شهد الله له بأنه رحيم وهو خضر اقتلع رأس الغلام وقال: إنه طبع كافراً فلو عاش أرهق أبويه طغياناً وكفراً، وانتظم الغلام في سلك الكفار فقتله الخضر رحمة به وبأبويه، أما الصبي حيث أخرجه من الدنيا على الفطرة فسعد الغلام والله أعلم وسعد أبواه، وهذا من أعظم مكارم الأخلاق.

كان بعض الصالحين يسأل الله الغزاة فلا يسهل الله له أسبابها ويحول بينه وبين الجهاد في سبيل الله وكان من الأولياء الأكابر عند الله ممّن له حديث مع الله فبقي حائراً في تأخّره وتعذّر الأسباب عليه مع ما قد حصل في نفسه من حب الجهاد لما فيه من مرضاة الله ولما للشهداء عند الله، فلما علم الله أنه قد ضاق صدره لذلك أعلمه الله بالطريقة التي كان يأخذ العلم عن الله بها فقال له: لا يضيق صدرك من أجل تعذر أسباب الجهاد عليك فإني قضيت عليك لوْ غزوت لأسرت ولو أسرت لتنصرت ومت نصرانياً، وإن لم تغز بقيت سالماً في بيتك ومت عبداً صالحاً على الإسلام، فشكر الله على ذلك وعلم أن الله تعالىٰ قد اختار له ما هو الأسعد في حقه، فسكن خاطره وعلم أن الله قد اختار له ما له فيه الخيرة عنده أيضاً من آداب الله الذي ينبغي للعبد أن يتأدب بها مع الله، فإذا رأيت من سلم واستسلم وقامت به آداب الحق وقام بها في نفسه وفي عباده وتأدّب مع الصفة لا مع الأشخاص ويتخيل صاحب الصفة أنه تأدّب معه وما عنده خبر بحال هذا الأديب فإنه ينظر العالم بعين الحق وعين الحق تنظر إليهم بما أعطاها علم الله بهم، وعلم الله بهم ما هم عليه من الأحوال، فإن الذوات التي تقوم بها الأحوال لا يحكم عليهم من حيث ذواتهم سعادة ولا شقاء، وإنما ذلك بما يقوم بالذوات من الصفات، فالصفات لا تتصف بالشقاء لذاتها ولا بالسعادة، والذوات الحاملة للصفات لا تتصف أيضاً لنفسها وعينها بسعادة ولا شقاء، فإذا قامت الصفات بالذوات وظهرت أحكامها فيها اتصفت الذوات بحسب ما حصل من الامتزاج الذي لم يكن ولا لواحد منهما على الانفراد فقيل عند ذلك في الشخص سعيد أو شقيّ. فانظر ما أعجب حديث السعادة والشقاء حيث لم يظهر واحد منهما إلاَّ بحسب الامتزاج، كما لم يظهر سواد المداد إلاَّ بامتزاج العفص

والزاج، كما لم يظهر بياض الشقة إلاَّ بين الشقة والقصارة، فالخوف كله من التركيب، والآفات كلها إنما تطرأ على الشخص من كونه مركباً والخروج عن التركيب يعقل وليس بواقع في العالم أصلاً المركب ولهذا قال أبو يزيد: إنه لا صفة له فإنه أقيم في معقولية بساطته فلم ير تركيباً فقال: لا صفة لي فصدق، ولكنه غير واقع في الوجود الحسّيّ العيني، فما ثم إلاَّ مركب يقبل السعادة أو الشقاء بحسب ما تقتضيه مزجته فقد فرغ ربك وما كان فراغه عن مانع شغل وإنما أراد بذلك التنزيه أي أن الأمور لا تقع إلاَّ على ما هي عليه في نفسها، ومن عصمه الله من الزلل الذي يقتضيه هذا المشهد فقد اعتنى الله به الاعتناء الأعظم، ومن هنا زلّت الأقدام كما جاء في الشريعة نظيره لما ذكر النبي ﷺ من سبق الكتاب على العبد بالسعادة أو بالشقاء فقالت الصحابة: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: **«اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا يُسِّرَ لَهُ»** وقد بيّن الحق بإرساله عليهم أسباب الخير وطرقه وأسباب الشقاء والشر وطرقه، وجعل السلوك في طرق الخير بشرى فانظرها في نفسك، فإن وجدت الأمر عندك إذا كنت في الخير مثلاً واجداً باطنك وظاهرك فيه على السواء غير مرتاب فتلك البشرى فافرح بها في السعادة فإن الله ما يبدلك، وإن رأيت الخير في ظاهرك وتجد في باطنك نكتة من شك أو اضطراب فيما أنت فيه من عبادة ويقع لك خاطر يقدح في أصلها بما يخالف ظاهر الفعل فاعلم أن الله لم يعطك إيماناً ولا نوّر قلبك بنوره، فابك على نفسك أو اضحك فما لك في الآخرة من خلاق، هذا ميزانك في نفسك وأنت أعرف بنفسك وما يخطر لك فيها، ولهذا قال رسول الله ﷺ في الصحيح: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ»** فإنه يبدو لله منه هذا الخاطر الذي يقدح في الإيمان من الشك القائم به أن الأمر الذي هو فيه من الشرع ما هو على ما يعطيه الظاهر هذا هو البلاء المبين **«وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ»** يعني من المخالفات والذي يبدو لله من باطنه خلاف هذا من نور الإيمان والصدق مع الله في أن هذا الحال التي هو عليها مخالف لأمر الله فيبكي باطناً ويخالف ظاهراً فيبدو لله منه ما لا يبدو للناس فقد أبان ﷺ في هذا الخبر ما الناس عليه في أنفسهم.

ثم لتعلم أن في ترجمة هذه المنازلة من الحق إشارة لطيفة المعنى في استفهامه عزّ وجلّ عمّا هو به عالم مثل قوله لملائكته: كيف تركتم عبادي؟ والملائكة تعلم أنه تعالىٰ أعلم بعباده منهم، ألا يعلم من خلق وجميع ما هم فيه خلقه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ بسؤاله ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] بما سأل عنه لأنه واقع، فكل علم عنده عن وقوع فهو به خبير وتعلّقه به قبل وقوعه هو به عليم، فمن أدب الملائكة لعلمهم بما قصد الحق منهم أجابوه تعالىٰ فقالوا: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون لأن عروج الملائكة عنهم ونزولهم عليهم كان عند صلاة العصر وصلاة الصبح كذا ورد الخبر، فأقول مجيباً للحق: عرفتهم لما عرفت آدابك فنسبتهم إليك فقلت: هؤلاء أولياء الله وعلامتهم إذا رأوا ذكر الله لتحققهم بالله وليس إلاَّ العبودة المحضة الخالصة التي لا تشوبها ربوبية بوجه من الوجوه فهذه آدابك، وكل نعت يرى فيهم فيه رائحة ربوبية فهو أدب الخلافة لا أدب الولاية، فالوليّ ينصر ولا ينتصر، والخليفة

ينتصر وينصر، والزمان لا يخلو من منازع، والوليّ لا يسامح فإن سامح فليس بوليّ ولا يؤثر على جناب الحق شيئاً فهو كله لله، والخليفة هو لله في وقت وللعالم في وقت، فوقتاً يرجح جناب الحق غيرة، ووقتاً يرجح جناب العالم فيستغفر لهم مع ما وقع منهم ممّا يغار له الوليّ، وهؤلاء هم المفردون الذين تولّى الله آدابهم بنفسه يقول الخليفة: لأزيدن على السبعين في وقت ويدعو على رعل وذكوان وعصية في وقت، وأين الحال من الحال فالخليفة تختلف عليه الأحوال والوليّ لا تختلف عليه الحال، فالوليّ لا يتهم أصلاً، والخليفة قد يتهم لاختلاف الحال عليه، فما يدّعي دعوى إلاّ وعجزه يكذبه مع صدقه حال آخر يبدو منه، فآداب الأولياء آداب الأرواح الملكية، ألا ترى إلى جبريل عليه السلام يأخذ حال البحر فيلقمه في فم فرعون حتى لا يتلفظ بالتوحيد ويسابقه مسابقة غيرة على جناب الحق مع علمه بأنه قد علم أنه لا إله إلاّ الله، وغلبه فرعون فإنه قال كلمة التوحيد بلسانه كما أخبر الله تعالىٰ عنه في الكتاب العزيز، والخليفة يقول لعمّه: «**قُلها في أذني أَشهَد لك بها عند الله**» وهو يأبى، وأين هذا الحال من حال قول الخليفة الآخر: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ولعلهم لو طال عليهم الأمد لرجعوا وفي أصلابهم من يؤمن بالله فتقرّ به أعين المؤمنين، فآداب الأولياء غضب في المغضوب عليهم لا رجوع فيه، ورضا في المرضي عنهم لا رجوع فيه، فإن ذلك أدب الحق والحق الواقع الواجب وقوعه، وآداب الخلفاء الرضا في المرضيّ عنهم، والعفو وقتاً والغضب وقتاً في المغضوب عليهم، ولهذا خصّ الأولياء دون غيرهم في قوله: هل عرفت أوليائي والكل أولياء ولكن هؤلاء أولياء الأسماء الإلهية وهؤلاء أولياء الإضافة فهم أولياء أنّية لا أولياء أسماء، وسأعرّفك بالفرق بين أسماء الكنايات والأسماء الظاهرة إن شاء الله في باب الأسماء من آخر هذا الكتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة في تعمير نواشىء الليل فوائد الخيرات

[البسيط]:

نَوَاشىءُ اللَّيلِ فيها الخَيْرُ أجْمَعُهُ	فيها النزولُ من الرحمن بالكَرَمِ
يَدْنُو إلينا بنا حتى يساعدنا	بما يُدْلِيهِ من طرائف الحِكَمِ
فالكل يَعْبُدُهُ والكل يشكُرُهُ	إلاّ الذي خُصَّ بالخُسْران والنِّقَمِ
إن الوليَّ تراه وقت غَفْلَته	يبكي ويدعوه في داجٍ من الظُّلَمِ
يا رَبِّ يا رَبِّ لا يَبْغِي به بدلاً	خلقاً عظيماً كما قد جاء في القَلَمِ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] ولما سئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»، وإنما قالت ذلك لأنه أفرد الخلق، ولا بدّ أن يكون ذلك الخلق المفرد جامعاً لمكارم الأخلاق كلها، ووصف الله ذلك الخلق بالعظمة كما وصف القرآن في قوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾

[الحجر: ٨٧] فكان القرآن خلقه، فمن أراد أن يرى رسول الله ﷺ ممّن لم يدركه من أمته فلينظر إلى القرآن فإذا نظر فيه فلا فرق بين النظر إليه وبين النظر إلى رسول الله ﷺ، فكأن القرآن انتشأ صورة جسدية يقال لها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب والقرآن كلام الله وهو صفته، فكان محمد صفة الحق تعالىٰ بجملته، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله لأنه لا ينطق عن الهوى فهو لسان حق، فكان ﷺ ينشىء في ليل هيكله وظلمة طبيعته بما وفقه الله إليه من العمل الصالح الذي شرعه له صوراً عملية ليلية لكون الليل محل التجلي الإلهي الزماني من اسمه الدهر تعالىٰ يستعين بالحق لتجليه في إنشائها على الشهود وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] ولم تكن هذه الصور إلاّ الصلاة بالليل دون سائر الأعمال، وإنما قلنا بالاستعانة لقوله تعالىٰ: «قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي» وقوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ولا يطلب العون إلاّ من له نوع تعمل في العمل وهو قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فكن أنت يا وارثه هو المراد بهذا الخطاب في هذا العمل، فيكون محمد ﷺ ما فقد من الدار الدنيا لأنه صورة القرآن العظيم، فمن كان خلقه القرآن من ورثته وأنشأ صورة الأعمال في ليل طبيعته فقد بعث محمداً ﷺ من قبره، فحياة رسول الله ﷺ بعد موته حياة سنته: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: ٣٢] فإنه المجموع الأتم والبرنامج الأكمل، ولهذا قال في: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ إنها أقوم قيلاً ولا أقوم قيلاً من القرآن، وكذلك ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي أعظم تمهيداً لأنه قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وليس إلاّ القرآن الجامع وأشد ثباتاً فإنه لا ينسخ كما نسخت سائر الكتب قبله به وإن ثبت ما ثبت منها ممّا ورد في القرآن، ولهذا جاء بلفظ المفاضلة في الثبوت فهو أشد ثبوتاً منها لاتصاله بالقيامة وفيه ما في الكتب وما ليس في الكتب، كما كان في محمد ﷺ ما كان في كل نبيّ وكان فيه ما لم يكن في نبي لأن القرآن كان خلقه فأعطي هو وأمته ما لم يعط نبيّ قبله، فإذا أنشأ من أنشأ صورة هذه الأعمال الليلية ونفخ الحق لشهوده من كونه معيناً له أرواحها فيها قامت حية ناطقة عن أصل كريم الطرفين بين عبد متحقق بعبوديته موف حق سيده لم يلتفت إلى نفسه ولا إلى صورة ما خلقه الله عليها التي توجب له الكبرياء بل كان عبداً محضاً مع هذه المنزلة ولهذا قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنه ما قبل الصورة إلاّ في حال ثانٍ فقال بذاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وقال بالصورة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثم رجع فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦و ٧] فجمع بين الأمرين وبين رب عظيم وفاه حقه على قدر ما شرعه له لا يطالب بغير ذلك، فإنه تعالىٰ هو الذي أدّبه أي جمع له وفيه جميع فوائد الخيرات، فلما نشأت هذه الصورة العملية الليلية بين هذين الطرفين الكريمين كانت وسطاً جامعة للطرفين، فكانت عبداً سيداً حقاً خلقاً، وبهذه الصفة أنشأ الله العالم ابتداء، فإن له في أسمائه ونعوته الطرفين، فإنه وصف نفسه بما يتعالىٰ به عن الخلق، ووصف نفسه بما هو عليه الخلق، ولم يزل بهذين النعتين موصوفاً لنفسه وهما طرفا نقيض فجمع بين الضدين، ولولا ما هو الأمر على هذا ما

خلق الضدين في العالم والمثلان ضدان فهما ضدا المماثلة حتى تعلم أن العالم على صورته في قبول الضدين بل هو العالم الذي هو عين الضدين صورة من أنشأه فظهر العالم بالأصالة بين الطرفين، ومشى الأمر في خلق ما خلق الله بأيدي العالم، فللعالم إنشاء الصور، وللحق أرواحها وحياتها، كما قال في حق عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] في الصورة الخلقية ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] فجعل الصورة للخلق وكونه طائراً للحق وفي إنشائك قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ [الحجر: ٢٩] هو مثل ﴿تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ ثم قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] وهو قوله: ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] فمن كان مع الحق في مقام الشهود والجمع عند إنشاء العبد صور الأعمال قامت حية ناطقة، وإن أنشأها على غير هذا النعت من الجمع والشهود كانت صوراً بلا أرواح، كصور المصوّرين الذين يقول الله لهم يوم القيامة: أحيوا ما خلقتم فلا يستطيعون لأن الإحياء ليس لهم وإنما هو لله، وأعني بالإحياء الإحياء الذي تقع به الفائدة من الحيّ، فإن الطبيعة تعطي حياة في الصورة ولكن حياة لا فائدة معها وهي الحياة التي توجد في المعفنات، فليس في قوّة الطبيعة أكثر من وجود الإحساس لا غير، وأما القوىٰ الروحانية التي عنها تكون الصنائع العملية بالتفكّر فمن الروح الإلهيّ، فمن علم مراتب الأرواح يعلم ما أومأنا إليه في هذه العجالة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة من دخل حضرة التطهير نطق عني

[المتقارب]:

إذا طهر العَبْدُ من كَوْنِهِ ... يكون الإلهُ هو النَّاطقُ

كمثل المُصلِّي إذا قام من ... ركوع الصلاة هو الصَّادقُ

يَنُوبُ عَن الحَقِّ في نُطْقِهِ ... فليس يَقُومُ به عَائِقُ

فكُلُّ كلام له صادقٌ ... وكلّ شراب له رائقُ

قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] يعني بها، ولا تشهد إلاّ بالأجنبية إذ لا بدّ من شهود عليه، وإن لم يكن على ما قلناه وكان عين الشاهد عين المشهود عليه فهو إقرار لإشهاده، وما ذكر الله تعالىٰ أنه إقرار فدل على أن الجوارح ارتبطت بالنفس الناطقة ارتباط الملك بمالكه كما هو الأصل عليه والأصل هو الحق ولم يزل في أزله مدبراً، فلا بدّ أن يكون تدبيره في مدبر معين له أزلاً وليس إلاّ أعيان الممكنات فهي مشهودة له في حال عدمها فإنها ثابتة فيدبر فيها ما يكون من تقدم بعضها على بعض وتأخرها في تكوين أعيانها وصور ما توجد فيها، وهنالك هو سرّ القدر الذي أخفى الله تعالىٰ علمه عن خلقه حتى يظهر الحكم به في الصور الموجودة في رأي العين، فكذلك لما أراد الله إنشاء الأرواح المدبرة فهي لا تكون إلاّ مدبرة، فإن لم يكن لها أعيان وصور يظهر

تدبيرها فيها بطلت حقيقتها إذ هي لذاتها مدبرة، هكذا هو الأمر عند أهل الكشف، وهنا سرّ عجيب غريب أوميء إليه إن شاء الله في هذا التفصيل فنقول: إن الله أنشأ هذه الصور الجسدية من نور ونار وتراب وماء مهين على اختلاف أصول هذه النشأة المتعددة، فعندما كملت التسوية في الصورة التي هي محل تدبير الأرواح المدبرة أنشأ الله منها أي من قبولها ما ينفخ فيها من أوجدها وهو الفيض الدائم أرواحاً مدبرة لها قائمة بها على صورة قبولها، فتفاضلت الأرواح لتفاضل النشآت، فلم يكونوا على مرتبة واحدة إلاّ في كونهم مدبرين، فالأرواح المدبرة إنما ظهرت بصور مزاج القوابل، فلا تتعدى الأرواح في التدبير ما تقتضيه الهياكل المدبرة، فانظر إلى أعيان الممكنات قبل ظهورها في عينها لا يمكن أن يظهر الحق فيها إلاّ بصورة ما تقبله فما هي على صورة الحق في الحقيقة وإنما المدبر على صورة المدبر إذ لا يظهر فيه منه إلاّ على قدر قبوله لا غير، فليس الحق إلاّ ما هو عليه الخلق لا يرى من الحق ولا يعلم غير هذا وهو في نفسه على ما علم وله في نفسه ما لا يصحّ أن يعلم أصلاً، وذلك الأمر الذي لا يعلم أصلاً هو الذي له بنفسه المشار إليه بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وهذا الذي نبهناك عليه من العلم بالله تعالىٰ ما أظهرناه باختبارنا، ولكن حكم الجبر به علينا فتحفظ به ولا تغفل عنه فإنه يعلمك الأدب مع الله تعالىٰ، ومن هذا المقام نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] أي ما أعطيتك إلاّ على قدر قبولك، فالفيض الإلهيّ واسع لأنه واسع العطاء فما عنده تقصير ومالك منه إلاّ ما تقبله ذاتك، فذاتك حجرت عليك هذا الواسع وأدخلتك في الضيق، فذلك القدر الذي حصل تدبيره فيك هو ربك الذي تعبده ولا تعرف إلاّ هو، وهذه هي العلامة التي يتحوّل لك فيها يوم القيامة على الكشف وهي في الدنيا في العموم على الغيب يعلمها كل إنسان من نفسه ولا يعلم أنها المعلومة له، ولهذا تقول العامة: إن الله ما عوّدني إلاّ كذا وكذا، فإذا فهمت هذا علمت أن الحق معك على ما أنت عليه ما أنت معه، وقد نبهك على هذا في القرآن بقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ما أنتم معه ولا يصحّ أن يكون أحد مع الله، فالله مع كل أحد بما هو عليه ذلك الواحد من الحال، فانظر إلى أفراد العالم فما تراه فيه فذلك عين الحق لا غيره [الوافر]:

فليس وَرَاءَ هذا الكَشْفِ كَشْفُ ... ولا من بَعْد هذا الوَصْفِ وَصْفُ

فسبحان الذي يبدو ويَخْفَى ... وشَاهِدُهُ بذا شَرْعٌ وعُرْفُ

فلا يصحّ التجريد عن التدبير لأنه لو صحّ بطلت الربوبية وهي لا تبطل فالتجريد محال فلا مستند للتجريد لأنك لا تعقل إلهك إلاّ مدبراً فيك فلا تعرفه إلاّ من نفسك، فلا بدّ أن تكون على تدبير، فلا بدّ من جسم وروح دنيا وآخرة كل دار بما يليق بها من النشآت، وتتنوع أرواحها لتنوعها صورة الخلق والحق كما تقدم ذكره في هذا الكتاب في هذا المعنى في الترجمة عن الحق [المجتث]:

كن كيف شِئْتَ فإنّي ... كما تكونُ أكُون

هكذا هو الأمر في عينه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة من كشفت له شيئاً مما عندي بهت فكيف يطلب أن يراني هيهات

[المتقارب]:

إذا كـان مـا عـنـده حـاكـمٌ　　　عـلـيّ فـكـيـف بـنـا إذْ نَـرَاهْ

فـلـيـس يَـرَاهُ سـوى عَـيْـنِـهِ　　　وهـل ثَـمَّ عَـيْـنٌ تـراه سِـوَاهْ

يـغـالـطـنـا بـوجـود الـسِّـوَى　　　وعـيـن الـسِّـوَى هـو عـيـنُ الإلٰـهْ

فـإمـكـانـنـا لـم يَـزَلْ قـائـمـاً　　　وُجُـوداً وفَـقْـداً بـنـا فـي حِـمَـاهْ

فـلـسـنـا سـواه ولا نـحـن هـو　　　فـعـيـن ضـلالـتـنـا مـن هُـدَاهْ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ولهذا كفر وما كان إلاَّ الشروق والغروب وهو الوجدان والفقد، هذه شمس حق شرقت من المشرق ولولا شروقها ما كان مشرقاً ذلك الجناب ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهذا في الحقيقة لو أتى بها أي لو شرقت من المغرب لكان مشرقاً فما شرقت إلاَّ من المشرق فبهت الكافر وهو موضع البهت لأنه علم أنه حيث كان الشروق لها أتبعه اسم المشرق فليس للمغرب سبيل في نفس الأمر، فما بهت الكافر إلاَّ من عجزه كيف يوصل إلى إفهام الحاضرين مع قصورهم موضع العلم فيما جاء به إبراهيم الخليل عليه السلام، فأظلم عليه الأمر وتخبط في نفسه فظهرت حجة إبراهيم الخليل عليه السلام عليه أمام الحاضرين، وإنما نسب الكفر إليه بالمسألة الأولى فإنه علم ما أراده الخليل بقوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فستره فسمّي كافراً فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ويقال فيمن أبقى حياة الشخص عليه إذا استحق قتله أن يقال أحياه ولم يكن مراد الخليل إلاَّ ما فهمه نمروذ فعدل إبراهيم إلى ما هو أخفى في نفس الأمر وأبعد وهو أوضح عند الحاضرين فجاء بالمسألة الثانية فبهت الذي كفر في أمر إبراهيم كيف عدل إلى ما هو أخفى في نفس الأمر وأبعد لإقامة الحجة وقامت له الحجة عليه عند قومه فكان بهته في هذا الأمر المعجز الذي أعمى بصائر الحاضرين عن معرفة عدوله من الأوضح إلى الأخفى فحصل من تعجبه وبهته في نفوس الحاضرين عجزه وهو كان المراد، ولم يقدر نمروذ على إزالة ما حصل في قلوب العارفين الحاضرين من ذلك فعلم صدقه ولكن الله ما هداه أي ما وفقه للإيمان لقوله ﷺ: فإنه عالم بأنه على الحق ولا يصحّ بهت إلاَّ في تجلي ما عند الحق وما عند الحق إلاَّ ما أنت عليه، فإنه ما يظهر إليك إلاَّ بك فتقرّ به فيك وتنكر ما أنت به مقر فيه وذلك لجهلك بك وبربك لأنك لو عرفت نفسك عرفت ربك فما ثم إلاَّ خلق وهو ما تراه وتشهده، ولو فتشت على دقائق تغيراتك في كل نفس لعلمت أن الحق عين حالك وأنه من حيث هو وراء ذلك كله كما هو عين ذلك كله، فالحق خلق وما الخلق حق وإن اختلفت عليه الأسماء أليس ممّا عند الله دكّ جبل موسىٰ فصعق وهو أعظم من البهت وما أصعقه إلاَّ ما عنده وهو ممّن طلب أن يرى ربه فلما علم موسىٰ عليه السلام عند ذلك ما لم يكن يعلم من صورة

الحق مع العالم قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي لا أطلب رؤيتك على الوجه الذي كنت طلبتها به أولاً فإني قد عرفت ما لم أكن أعلمه منك ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] بقولك: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإنك ما قلت ذلك إلاَّ لي وهو خبر، فلذلك ألحقه بالإيمان لا بالعلم، ولولا ما أراد الإيمان بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ما صحت الأولية، فإن المؤمنين كانوا قبله ولكن بهذه الكلمة لم يكن، فكل من آمن بعد البهت أو الصعق فقد آمن على بصيرة فهو صاحب علم في إيمان، وهذا عزيز الوجود في عباد الله، وقليل في أهل الله من يبقى معه الإيمان مع العلم، فإنه لما انتقل إلى الأوضح وهو العلم فقد انتقل عن إيمانه، والكامل هو المؤمن في حال علمه بما هو به مؤمن لا بما كان به مؤمناً، فيقال فيه مؤمن عالم بعين واحدة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والأربعون وأربعمائة

في معرفة منازلة قول من قال عن الله ليس عبدي من تعبد عبدي

[مجزوء الرجز]:

العَبْدُ مَنْ لا عَبْدَ لَهْ ... سُبْحانَهُ ما أكْمَلَهْ

قد جَمَعَ اللَّهُ لَه ... كُلَّ وجودٍ أَمَّلَهْ

مُشْتَبِهاً ومُحْكِماً ... مُجْمَلَةً مُفَصَّلَهْ

سَوَّاه إذ عَدَّلَهْ ... وبعد هذا فَصَّلَهْ

بكل عين أشْهَدَه ... بكل علم فَضَّلَهْ

فإنما أنابَه ... في كل أحوالي ولَهْ

حُزْنَا الكمالَ كُلَّهُ ... أنا وهو والكُلُّ لَهْ

قال عزّ وجلّ لمحمد: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فقلنا: الأمر كله لله ألا له الخلق والأمر فهو الخلق والأمر. اعلم أنه لا يملك المملوك إلاَّ سيده، ولهذا يسمّي الترمذي الحكيم الحق سبحانه ملك الملك غير سيده ما يملك عبد فإن العبد في كل حال يقصد سيده، فلا يزال يصرف سيده بأحواله في جميع أموره، ولا معنى للملك إلاَّ التصريف بالقهر والشدة، ومهما لم يقم السيد بما يطلبه به العبد فقد زالت سيادته من ذلك الوجه، وأحوال العبد على قسمين: ذاتية وعرضية، وهو بكل حال منها يتصرف في سيده والكل عبيد الله، فمن كان دنيء الهمة قليل العلم كثيف الحجاب غليظ القفا ترك الحق وتعبد عبيد الحق فنازع الحق في ربوبيته فخرج من عبوديته، فهو وإن كان عبداً في نفس الأمر فليس هو بعبد مصطنع ولا مختص، فإذا لم يتعبد أحداً من عباد الله كان عبداً خالصاً لله فتصرف في سيده بجميع أحواله فلا يزال الحق في شأن هذا العبد خلاقاً على الدوام بحسب انتقالاته في الأحوال، قال ﷺ: «خَادِمُ القَوْمِ سَيِّدُهُمْ» لأنه القائم بأمورهم لأنهم عاجزون عن القيام بما تقتضيه أحوالهم، فمن عرف صورة التصريف عرف مرتبة السيد من مرتبة العبد، فيتصف العبد

بامتثال أمر سيده والسيد بالقيام بضرورات عبده، فلا يتفرغ العبد مع ما قررناه من حاله مع حال سيده أن يقتني عبداً يتصرف فيه لأنه يشهد عياناً أن ذلك العبد الآخر يتصرف في سيده تصرفه فيعلم أنه مثله عبد لله، وإذا كان عبداً لله لم يصحّ أن يتعبده هذا العبد فما ملك عبد إلاّ بحجاب، لقيت سليمان الدنبليّ فأخبرني في مباسطة كانت بيني وبينه في العلم الإلهيّ فقلت له: أريد أن أسمع منك بعض ما كان بينك وبين الحق من المباسطة، فقال: نعم باسطني يوماً في سري في الملك فقال لي: إن ملكي عظيم، فقلت له: ملكي أعظم من ملكك، فقال لي: كيف تقول؟ فقلت له: مثلك في ملكي وليس مثلك في ملكك فمن أعظم ملكاً؟ فقال: صدقت. أشار إلى التصريف بالحال والأمر وهو ما قررناه، فإذا علمت هذا علمت قدرك ومرتبتك ومعنى ربوبيتك وعلى من تكون رباً في عين عبد، وهو بالعلم قريب، وبالحال أقرب وألذ في الشهود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة من ثبت لظهوري كان بي لأنه سبحانه كان به لا بي وهو الحقيقة والأول مجاز

[المتقارب]:

إذا ثَـبـت الـعَـبْـدُ فـي مَـوْطِـنٍ ... فـإن الإلٰـهَ هـو الـثَّـابِـتُ
إذا قُـلْـتَ يـا ربِّ هَـبْ لـي كـذا ... وأعـطَـاكَـهُ فـهـو الـقَـانِـتُ
إذا لـم يَـكُـنْ غَـيْـرُهُ عَـيْـنَـنَـا ... فـبـالله قـل لـي مـن الـمـائـتُ
تَـرْجَـمَ عـنـه لـسـانٌ بـدا ... فـهـو بـه الـنـاطـقُ الـسـاكـتُ
ولـم يـبـق لـلـعـبـد مـن عـيـنـه ... لـوَحْـدَتِـه نَـفَـسٌ خَـافِـتُ
ولـيـس لـه فـي الـوَرَى حـاسـدٌ ... إذا كـان هـذا ولا شـامـتُ
إذا جـئـتُ لـيـلاً إلـى مـنـزلـي ... وبِـتُّ بـه فـمـن الـبَـائـتُ
هـو الـحَـقُّ يـنـطـقُ فـي كـونـه ... بـمـا شـاءه وأنـا الـصـامـتُ
فـلـولا الـلُّـجَـيْـنُ وأمـثـالُـه ... لـمـا فَـضَـلَ الـعَـسْـجَـدَ الـصَّـامـتُ
تـعـجَّـبـتُ مـنـه ومـن عِـزّه ... إذا نَـكَـتَ الـعـالـمَ الـنـاكـتُ
ولـيـس يـغـارُ عـلـى عِـرْضِـهِ ... فـعَـبْـدُ الإلٰـهِ هـنـا الـبـاهـتُ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] اعلم أن عباد الله الذين أهلهم الله له واختصهم من العباد على قسمين: عباد يكونون له به، وعباد يكونون له بأنفسهم، وما عدا هؤلاء فهم لأنفسهم بأنفسهم ليس لله منهم شيء، فلا كلام لنا مع هؤلاء فإنهم جاهلون ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين. فأما العباد الذين هم له تعالىٰ بأنفسهم فهم الذين تحققوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فهم العبيد الصمّ الشداد الأشداء الرحماء بينهم، وعلامتهم الاتصاف بجميع الأحوال من فناء وبقاء ومحو

وإثبات وغيبة وحضور وجمع وفرق إلى ما يقبله الكون من الأحوال، وكذلك من نعوتهم التي تنسب إلى المقامات المذكورة من توكل وزهد وورع ومعرفة ومحبة وصبر وشكر ورضا وتسليم إلى سائر المقامات المذكورة في الطريق، فإن نفوسهم تقبل التغيير والتحويل من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، ولكن ذلك كله لله لما سمعوا دعاءه إياهم من هذه الأمور كلها فدخلوا عليه بها ذوقاً وحالاً لا علماً ولا اعتقاداً، فإن سائر المؤمنين والعلماء علماء الرسوم يعلمون هذه الأمور كلها ولكن لا قدم لهم فيها، فهؤلاء إذا تجلى لهم الحق لم يثبتوا لظهوره لأن المحدث إذا ظهر له القديم يمحو أثره إذ لا طاقة للمحدث على رؤية القديم، ولهذا جاء الخبر الصحيح الإلهيّ بأن الحق قد يكون بصر العبد وسمعه حتى يثبت لظهور الحق في التجلي أو في الكلام، ألا ترى إلى موسىٰ عليه السلام لما كان الحق سمعه ثبت لكلام الله فكلمه فلما وقع التجلي ولم يكن الحق عند ذلك بصر موسىٰ كما كان سمعه صعق ولم يثبت فلو كان بصره لثبت، وأما العبيد الآخرون فهم له به فيثبتون في كل موطن مهول من حادث وقديم للقوّة الإلهية السارية في ذواتهم، فلا يبقى حال ولا مقام إلاّ ويظهرون به وفيه بطريق التحكّم به والتصرف فيه، فهم يملكون الأحوال والمقامات ولا يملكهم شيء إلاّ ما قررناه من ذلك الأمر الذي يملك الحق إذا كان الحق ملك الملك، فبذلك القدر يكونون في ذواتهم، فبه تعالىٰ يسمعون ويبصرون ويأكلون ويشربون وينامون ويقومون، وله يسمعون ويبصرون ويأكلون ويشربون وينامون ويقومون وهو قول رسول الله ﷺ في بعض خطبه في الثناء على الله: «**فإنّما نحنُ به وله**»، فإذا اجتمع عبدان الواحد له بنفسه والآخر له به أنكر من هو له بنفسه على من هو له به ولم ينكر من هو له به على من هو له بنفسه لأنه عبد محض خالص والآخر حق محض خالص، والصورة الظاهرة منهما صورة خلق، والباطنة ممّن هو لله بنفسه صورة خلق، والصورة الباطنة من الآخر صورة حق، فهذا يتصرف بحق في حق لحق، والآخر يتصرّف بخلق في خلق لحق، ومنهم من يتصرّف في حق لحق بخلق أعني من الذين هم بأنفسهم فخرق العوائد لمن كان لله بنفسه والمنزلة لمن كان لله بالله، فهؤلاء أصحاب كرامات وهؤلاء أهل منازل، وأصحاب الكرامات معلومون عند الله معلومون عند الخلق، وأهل المنازل معلومون عند الله وعند أبناء الجنس مجهولون عند الخلق، إلاّ أن أهل خرق العوائد يبطن في حالهم المكر الإلهيّ والاستدراج، وأهل المنازل مخلصون من المكر لأنهم على بصيرة وبينة من ربهم، فهم أهل وصول إلى عين الحقيقة، جعلنا الله وإياكم من عبيد الاختصاص آمين بعزّته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الحادي والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة في المخارج معرفة المعارج

[الرجز]:

لـولا وُجُـودُ الـكَـوْنِ فـي الـمَـعَـارِجِ ... مـا لاح عَـيْـنُ الـحَـرْفِ بـالـمَـخَـارِجِ

أخرجه ضَرْبُ مثالٍ للذي قد ارْتَقَى في رُتَبِ المَعَارج
فالنَّفَسُ الدارجُ في طريقه يبينُ عن منازل المَدَارج

قال الله تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وقال تعالىٰ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]. اعلم أن الممكنات هي كلمات الله التي لا تنفد وبها يظهر سلطانها الذي لا يبعد وهي مركبات لأنها أتت للإفادة، فصدرت عن تركيب يعبر عنه في اللسان العربيّ بلفظة ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] فلا يتكوّن عنه إلاّ مركب من روح وصورة ثم تلتحم الصور بعضها ببعض لما بينهما من المناسبات فتحدث المعاني فينا بحدوث تأليفها الوضعيّ، وما وقع فيها الوضع في الصور المخصوصة إلاّ لذاتها لا بحكم الإنفاق ولا بحكم الاختيار لأنها بأعيانها أعطت العلم الذي لا يتحوّل والقول الذي لا يتبدّل، والمشيئة الماضية فهي في الشهادة بحسب ما هي عليه في الغيب، فهي في الغيب بصورة كل ما تتقلب إليه في الظاهر ممّا لا نهاية له في الغيب من التقليب وهو في الظاهر يبدو مع الآيات إذ لا يصحّ دخول ما لا يتناهى في الوجود لأن ما لا يتناهى لا ينقضي فلا يقف عند حدّ، والمادة التي ظهرت فيها كلمات الله التي هي العالم هي نفس الرحمن ولهذا عبّر عنه بالكلمات، وقيل في عيسىٰ عليه السلام إنه كلّمه الله.

ثم اعلم أن الله تعالىٰ لما أظهر من كلماته ما أظهر قدر لهم من المراتب ما قدر، فمنهم الأرواح النورية والنارية والترابية وهم على مراتب مختلفة، وكلهم أوقفهم مع نفوسهم وأشهدهم إياها واحتجب لهم فيها، ثم طلب منهم أن يطلبوه ونصب لهم معارج يعرجون عليها في طلبها إياه فدخل لهم بهذه المعارج في حكم الحدّ وجعل لهم قلوباً يعقلون بها ولبعضهم فكراً يتفكرون به، ثم جعل من معارجهم نفي المثلية عنه من جميع الوجوه، ثم تشبه لهم بهم فأثبت عين ما نفى ثم نصب لهم الدلالة على صدق خبره إذا أخبرهم فتفاضلت أفهامهم لتفاضل حقائقهم في نشآتهم، فكل طائفة سلكت فيه مسالك ما خرجت فيها عمّا هي عليه، فلم يجدوا في انتهاء طلبهم إياه غير نفوسهم، فمنهم من قال بأنه هو، ومنهم من قال بالعجز عن ذلك وقال: لم يكن المطلوب منا إلاّ أن نعلم أنه لا يعلم فهذا معنى العجز، ومنهم من قال: يعلم من وجه ويعجز عن العلم به من وجه، ومنهم من قال كل طائفة مصيبة فيما ذهبت إليه وأنه الحق سواء سعد أو شقي فإن السعادة والشقاء من جملة النسب المضافة إلى الخلق، كما نعلم أن الحق والصدق نسبتان محمودتان، ومع هذا فلها مواطن تذمُّ فيه شرعاً وعقلاً، فما ثم شيء لنفسه وما ثم شيء إلاّ لنفسه، وبالجملة فالخلق كله مرتبط بالله ارتباط ممكن بواجب سواء عدم أو وجد وسعد أو شقي والحق من حيث أسماءه مرتبط بالخلق، فإن الأسماء الإلهيّة تطلب العالم طلباً ذاتياً، فما في الوجود خروج عن التقييد من الطرفين، فكما نحن به وله فهو بنا ولنا وإلاّ فليس لنا برب ولا خالق وهو ربنا وخالقنا، فبنا لكونه به ولنا لكونه له، إلاّ أن له الإمداد فينا الوجوديّ ولنا فيه الإمداد العلمي، فتكليفه إيانا تكليف له فبنا تكلف للتكليف فما كلفنا سوانا ولكن به لا بنا فتداخلت المراتب فهو الرفيع

الدرجات مع النزول الذاتيّ والخلق في النزول مع العروج والصعود الذاتيّ فما خرج موجود عن تأثير وجودي وعدمي ولا مؤثر في الحقيقة إلاَّ النسب وهي أمور عدمية عليها روائح وجودية، فالعدم لا يؤثر من غير أن تشمّ منه روائح الوجود، والوجود لا أثر له إلاَّ بنسبة عدمية، فإذا ارتبط النقيضان وهما الوجود والعدم فارتباط الموجدين أقرب فما ثم إلاَّ ارتباط والتفاف كما نبّه تعالىٰ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩] أي التفّ أمرنا بأمره وانعقد فلا ننحل عن عقده أبداً ولما تمّم وهو الصادق بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أثبت وجود رتبته بك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم يكشف عن الساق ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠] رجوع الكل إليه من سعد، أو من شقي، أو من تعب، أو من استراح. قال ﷺ في الدجال: «**إِنَّ جَنَّتَهُ نَارٌ وَنَارَهُ جَنَّةٌ**» فأثبت الأمرين ولم يزلهما، فالجنة جنة ثابتة والنار نار ثابتة، والصور الظاهرة لرأي العين قد تكون مطابقة لما هو الأمر عليه في نفسه وقد لا تكون، وعلى كل حال فهما أمران لا بدّ منهما خيالاً كان أو غير خيال، وإذا ارتبط الأمران كما قلنا هذا الارتباط فلا بدّ من جامع بينهما وهو الرابط وليس إلاَّ ما تقتضيه ذات كل واحد منهما لا يحتاج إلى أمر وجوديّ زائد فارتبطا لأنفسهما لأنه ما ثم إلاَّ خلق وحق، فلا بدّ أن يكون الرابط أحدهما أو كلاهما، ومن المحال أن ينفرد واحد منهما بهذا الحكم دون الآخر لأنه لا بدّ أن يكونا عليه من قبول هذا الارتباط فبهما يظهر لا بواحد منهما، ومع هذا الارتباط فما هما مثلان بل كل واحد منهما ليس مثله شيء، فلا بدّ أن يتميزا بأمر آخر ليس في واحد منهما أمر الآخر به يشار إلى كل واحد منهما، فالافتقار موجب للميل وقبول الحركة والغنا ليس حكمه ذلك في الغنى فإنا نعلم أن بين المغناطيس والحديد مناسبة وارتباطاً لا بدّ منه كارتباط الخلق والخالق، ولكن إذا مسكنا المغناطيس جذب الحديد إليه فعلمنا أن في المغناطيس الجذب وفي الحديد القبول ولهذا انفعل بالحركة إليه، وإذا مسكنا الحديد لم ينجذب إليه المغناطيس فهما وإن ارتبطا فقد افترقا وتميزا، فالناس بل العالم فقراء إلى الله والله غنيّ عن العالمين [مجزوء الخفيف]:

هــكــذا صُــورةُ الــوُجُــودِ	فــلا تَــلْــتَــفِــتْ إلــى سِــوَاهْ
فــبــه كــان شَــفْــعُــنــا	وهــو الــواحــدُ الإلٰــهْ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة كلامي كله موعظة لعبيدي لو اتعظوا

[الكامل]:

مـهـمـا وَعَـظْـتَ فَـعِـظْ بـعَـيْـن كـلامـي	فـهـو الـمُـوفـي حَـقَّ كُـلِّ مَـقَـامِ
جَـمَـعَ الـعُـلُـومَ قَـديـمَـهـا وحـديـثَـهـا	مـعـنـاه إلاَّ أنـه بـفِـدَامِ
وفـدامُـه ألـفـاظُـنـا وحـروفُـنـا	الـجـامـعـاتُ لـعـيـن كـل كـلامِ
فـنـقـول قـال الله بـالـحَـرْف الـذي	قـال الأنـامُ بـه بـغـيـر مَـلامِ

فتردُّه أحلامُنا بدليلها ... والكَشفُ يأبَى ما ترى أحلامي
والحُكْمُ للأمرين عند من ارْتَقَى ... بمعارج الأرواح والأجسام
فانظر إليه مُنَزَّهاً ومُشَبَّهاً ... والحُكْمُ للأقدام في الإقدام
علم الوجود ضياؤه وظلامه ... نور يمازجه كيانُ ظلام
ما أنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... شَمْسٌ تُشَاهَدُ في حِجَابِ غَمَامِ
إني حَكَمْتُ على الزمان بمثل ما ... حَكَمَتْ عليه مشارقُ الأيامَ
فالدهرُ محكومٌ عليه وحاكمٌ ... مع كونه يسمو على الأحكام
حَكَمَتْ عليه شرائعٌ ودلائلٌ ... مع كونها من جملة الخُدَّام
واعلم بأنك إنْ نَظَرتَ بعينه ... يبدو لك الإحكامُ في الأحكام

قال الله تعالىٰ لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] فقال بعض السامعين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] فاعتنى الله بأهل الإيمان فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فالتفت إلى القابل وما التفت إلى المعرض فلم يرتبط الوجود إلاَّ بالمؤمن، وهو سبحانه المؤمن المهيمن على المؤمنين، فجزاء الله عندنا على هذا الاعتناء العمل بما شرع والمبادرة لما به نهى وأمر اعتناء باعتناء وهو أحق بنا، فإن اعتناءنا بالقبول يعود علينا نفعه لافتقارنا إلى ذلك النفع، واعتناؤه بنا امتنان منه لأنه غني حميد بغناه، فوعظنا بالحوادث الواقعة على خلاف الأغراض ممّا تنفر عنه طباعنا وذكرنا بأنا معرضون لحلولها بنا إلاَّ أن يعصم الله في بعضها لا في كلها فإن منتهى الدوائر وأعظمها الموت ولا بدّ منه بأيّ وجه كان، ولست أعني بالموت إلاَّ الانتقال عن هذه الدار فإن الشهيد منتقل وإن لم يتصف بالموت، هكذا أمرنا المؤدّب أن نقول، فإن لنا نصيباً من الأدب الإلهيّ الذي أدّب به الله رسوله الله ﷺ، فليس أدّب الله خاصاً بأحد دون أحد، فمن قبله سعد وكان ممّن أدّبه الله وانتمى إلى الله في الأدب وهو أحسن الأدب، وقد نهانا أن نقول لمن يقتل في سبيل الله أنه ميت ولا نحسب أنه ميت بل هو حي عند ربه وفي إيماني يرزق، وذكرنا تعالىٰ بموعظته ذكرى حال إذ أصاب من قبلنا بوقوع تلك الدوائر عليهم [الوافر]:

ألذُّ الفعلِ فِعْلُ القَهْرِ فانْظُرْ ... بعقلك إذا رأتك سَنَى الوُجُودِ
فكُنْ لي إن تَكُنْ لي أنت كُلِّي ... وإن لمْ فاعْتَبِرْ فالجودُ جُودي
لقد تُبْنَا وما خِفْنَا عقاباً ... وقد أغْنَى المَجِيدُ عن المَجِيدِ
فقُلْ للمنكرين صَحِيحَ قولي ... لقد غِبْتُمْ عَنِ احسان المَجِيدِ

وذكر بأمور أخبر عنها في المستقبل عند الانتقال إلى الدار الآخرة تقع بالعباد ممّا يسرّ وقوعها وممّا لا يسرّ وممّا يوافق الغرض ويلايم الطبع وممّا لا يلايم الطبع ولا يوافق الغرض، وممّا يدل على الكمال والنقص، فذكر بالرغبة في ذلك والرهبة من ذلك، وذكر بنفسه لما علم تعالىٰ أن إفراط القرب حجاب عظيم عن القرب. وقد قال إنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وحبل الوريد نعلم قربه ولا تراه أبصارنا، كذلك قرب الحق منا نؤمن بقربه ولا تدركه

أبصارنا، فلذلك ذكر بنفسه لا لبعده لأنه حفيظ والحفظ يطلب القرب بلا شك فنحن بعينه وهو معنا حيثما كنّا لا بل أينما كنا، ونستغفر الله من عثرات اللسان وإن كان من عند الله فالأدب أولى ولا سيما فيما ينسب إلى الجناب الإلهيّ، لا ينبغي للأديب أن يتكل على المعنى بل الأدب في مراعاة الألفاظ فإنه تعالىٰ لم يعدل إلى لفظ دون غيره سدى فلا نعدل عنه فإن العدول عنه إلى مثله في المعنى تحريف بغير فائدة ويقنع العدوّ من الكبراء بهذا القدر، فهي مزلة قدم ومكر خفيّ ورعونة نفس وإظهار مرتبة دنية يتخيل مظهرها أنها زلفى وأنها رتبة أسنى وأعلى، فلما ذكر بنفسه ذكر أنه إليه يرجع الأمر كله لنعلم أن المرجع إليه فلا نقوم في شيء نحتاج فيه إلى الاعتذار عنه أو نستحي منه عند المرجع إليه، والعبد الصحيح العبودية مع الموافقة لا يكون له إدلال فكيف مع المخالفة؟ ولما ذكر بنفسه أحال عباده على أنفسهم وقال لهم: إن عرفتم نفوسكم عرفتموني، فمن الأدب أن نرجع بالنظر إلى نفسي فإن نظرت فيه وتركت نفسي فما تأدّبت، وإذا لم أكن أديباً لم نكن من أهل البساط فحرمت المشاهدة فحرمت العلم الذي يعطيه الشهود، فإني إن نظرت فيه حتى أعرفه فربما أعرفه المعرفة التي تليق بهذا النظر وليست المطلوبة، فإن الذي طلب سبحانه أن نعرفه معرفة الارتباط به وتلك المعرفة التي عدل إليها من عدل لا تعطي الارتباط، فلم تحصل الفائدة التي قصد الله بها عبده، فالأديب يرجع بالنظر إلى نفسه عن أمر ربه، فإذا عرف نفسه فكراً أو شهوداً عرف ارتباطه بربه فعرف ربه تنزيهاً وتشبيهاً معرفة عقلية شرعية إلهية تامّة كاملة غير ناقصة كما شاء الحق، فإنه تعالىٰ أبان لنا في هذه الإحالة عن أحسن الطرق والعلم به، فتبين لنا أنه الحق وأنه على كل شيء شهيد، وقال في حق من عدل عن هذا النظر بالنظر فيه ابتداء: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ [فصلت: ٥٤] فلو رجعوا إلى ما دعاهم إليه من النظر في نفوسهم لم يكونوا في مرية من لقاء ربهم فإنهم يجدونه في عين نفوسهم، ثم تمّم وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ [فصلت: ٥٤] وأراد هنا شيئية الوجود لا شيئية الثبوت، فإن الأمر هناك لا يتصف بالإحاطة، فمن وقف مع ما ذكرناه كان ممّن اتعظ، فإن شاء أخذ بنصيبه من الورث فوعظ، وإن شاء بقي في النظر على حاله بنفسه دائماً، فإن النفس بحر لا ساحل له لا يتناهى النظر فيها دنيا وآخرة وهي الدليل الأقرب، فكلما ازداد نظراً ازداد علماً بها، وكلما ازداد علماً بها ازداد علماً بربه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة كرمي ما وهبتك من الأموال وكرم كرمي ما وهبتك من عفوك عن الجاني عليك

[الكامل]:

حُـكْـمُ الـكـريـم بـأنـه لا يَـمْـنَـعُ ... ذاك الـمُـسَـمَّـى عـنـدنـا كَـرَمَ الـكَـرَمْ

فـهـو الـذي يَـهـبُ الـنَّـعِـيـمَ لـذاتـه ... ولـديـه بـالـبـرهـان مـفـتـاحُ الـنِّـعَـمْ

انْظُرْ لِحمد الحمد إنْ حَقَّقْتَهُ ... ما عنده مَنْعٌ ولا في ذاك ذَمْ

قال الله تعالىٰ معلماً ومنبهاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] فنبّهه حتى يقول كرمك فهذا من باب كرم الكرم، فما أمرك بالعفو عمّن جنى عليك إلاّ ليعفو عنك إذا جنيت عليه في ظنك وما جنيت إلاّ على نفسك وظنك أرداك حيث ظننت أنك جنيت عليه كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢و ٢٣] ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

اعلم أن أعظم الجنايات من يبهتك وهو أن ينسب إليك ما لم يكن منك وإن ظهر منك فيكون من كرم خلقك أن تصدقه فيما نسب إليك إيثاراً لجنابه على نفسك وهو على خلق كريم في ذلك، وقد علم منك أنك تأدّبت معه فما يكون جزاؤك عنده؟ فمثل هذا لا يبلغ كنه ما يستحقه من الإفضال عليه والإنعام لأنّ الإعراض عند ذوي الهيئات والمروءات أعظم في الحرمة من الدماء والأموال، وما فعل مثل هذا في حقك إلاّ ليرى صبرك وتحملك مثل هذا الأذى والجفاء فإنه يعلم أنك تعلم براءة ساحتك ممّا نسب إليك من المذام التي كانت منه لا منك إيجاداً وحكماً وأنت بريء منها إيجاداً وحكماً، فلم تفش له سرّاً ولم تنازعه، ففزت زائداً على ما تستحقه بدرجات الصابرين والراضين والمؤثرين، واستعذبت كل ذلك في جنبه، ونبهنا تبارك وتعالىٰ على عظيم المنزلة لمن هذه صفته بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠] وأعظم العفو على الجناية العظيمة من العظيم الشأن، ثم رميه بها من لم تصدر منه تنزيهاً له وإيثاراً لنفسه قال: ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] فيا ليت شعري لم كان أجره على الله ولم يقل فأجره على صبره وإيثاره كذا وكذا؟ فتنبه إلى هذا الأمر العجاب ولا تكن من الغافلين، وألزم الحضور والأدب مع الله قلبك إن أردت أن تكون من أهل الله وخاصته الذين جعلوا نفوسهم وقاية لله جعلنا الله ممّن اتقاه بنفسه لا به فيحشر في زمرة الأدباء. وفي هذه الإشارة في كرم الكرم غنية وكفاية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والخمسون وأربعمائة
في معرفة منازلة لا يقوى معنا في حضرتنا غريب وإنما المعروف لأولي القربى

[الوافر]:

أولُو القُرْبَى هُمُ الحُكّامُ فينا ... وفي أموالنا ولنا القِيَادُ
فإن جاء الغريبُ يُقِيمُ يَوْماً ... ويَرْحَلُ مُسْرِعاً وهو المرادُ
قريبُ قرابةٍ وقريبُ قُرْبى ... جمعناها فيحسدُنا العبادُ
فما أحَدٌ يدومُ به شقاءٌ ... ولا كونٌ يزولُ ولا فسادُ

قال الله تعالىٰ آمراً لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]

وورد في الخبر في إثبات النسب بيننا وبين الله: «إِنَّ الله يَقُولُ يَوْمَ القِيامَةِ: اليَوْمَ أَضَعُ نَسَبَكُمْ وَأَرْفَعُ نَسَبِي أَيْنَ المُتَّقُونَ؟» وهم الذين جعلوا نفوسهم وقاية يحمون بها جانب الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] أي أشدّكم وقاية لأنه جاء في باب أفعل، فالمدار على صحة النسب الإلهيّ، فإذا صحّ النسب لم تبق غربة في حق من صحّ نسبه، ولا يصحّ النسب حتى يقع التناسب في الصفة، فإذا كان العبد أحديّ الذات في شأنه معروفاً عند الله مجهولاً في العالم لا يعرف نسبه ولا ينال منصبه يسأل الله به ويلجأ إليه عند الاضطرار من غير تعيين ولا تمييز وهو الذي يدعى به إذا جاءت الشدائد فيقول صاحبها: اللهمّ بحرمة الصالحين عندك افعل لي كذا وكذا فهو المجهول المعين، ولم يتولد عنه أمر يوجب تمييزه عند الأجانب من الأجانب ولم يدل عليه لأنه لا يدل عليه حتى يكون مطلوباً والذي لا يؤبه له لا يطلب، ثم إنه يكون على حالة لا يزنه فيها أحد من خلق الله إلاَّ من له هذا المقام، فإذا كان بمثل هذه الصفات صحّ النسب. ورد في الخبر أن اليهود قالت لمحمد ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] [الخفيف]:

نَسَبُ اللَّهِ قُلْ هو اللَّهُ ... فانظُرُوا فيه تعرفوا ما هُوْ
أَحَدِيٌّ لذاته صَمَدٌ ... ليس يَدْري ما هُوَ إلاَّ هُوْ
لم تَلِدْهُ العقولُ إذْ نَظَرَتْ ... وهو الناظرُ الذي ما هُوْ
واحدٌ ما يكون عنه زكي ... لا ولا واحدٌ فقُلْ ما هُوْ
هو عَيْنُ الوجود فهو حَسْبي ... وكَثِيرٌ فليس إلاَّ هُوْ
فانظُرُوا الحَقَّ في تَنَاقُضِ ما ... قُلْتُهُ لا إِلٰهَ إلاَّ هُوْ

فحضرته لا تحمل الغرباء لأنه وصل للرحم فهو أرحم الرحماء، فقرابته مجهولة، والجاهلون بها منهم أنزلهم جهلهم منزلة الغرباء الذين لا نسب بينهم وبينه وهو سبحانه ما يعامل عبده إلاَّ بما جاءه به لا يزيده عليه. وهو قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ﴾ [فصلت: ٢٣] فهو لهم في اعتقادهم جار جنب فهم قطعوا رحمهم فقطعهم الله فما أشرف العلم بالأنساب، ولهذا كانت العرب تثابر على علم الأنساب حتى قال الله ما قلناه من إثبات النسب بالطريقين: طريق أرفع نسبي وطريق الرحم شجنة من الرحمن وهو قوله: الولد سرّ أبيه، فكم بين رجل يأتي يوم القيامة عارفاً بنسبه مدلاً بقرابته متوسلاً إلى الرحمن برحمه، وبين من يأتي جاهلاً بهذا كله يعتقد الأجنبية وبعد المناسبة، وإن علم بالخبر فيكون عنده بمنزلة كون أبيه آدم منه وهو ابن آدم فيجعل هذا مثل ذلك، فإن هذا النسب لا يعطي سعادة عنده وهو غالط بل يعطي ويعطى، ولقد رأيت ذلك ذوقاً بمكة في عمرة اعتمرتها عن أبينا آدم عليه السلام فظهر لي ذلك في مبشرة رآها بعض الناس لنا وللجماعة التي أمرتهم في تلك الليلة بالاعتمار معي عن أبينا آدم رأى فيها من التقريب الإلهيّ وفتح أبواب السماء وعروج تلك الجماعة وتلقاهم الملأ الأعلى بالتأهيل والسهل والترحيب إلى أن بهت وذهل ممّا رأى، فإن رحم آدم منا رحم مقطوعة عند أكثر الناس من أهل الله فكيف حال العامة في ذلك؟ ولقد وصلتها بحمد الله ووصلت بسببي

وجرى فيها على سنني، وكان عن توفيق إلهيّ لم أر لأحد في ذلك قدماً أمشي على أثره فيها، فحمدت الله على الإنعام وما اهتديت إلى ذلك إلاّ بالنسب الإلهيّ فإنه أبعد مناسبة وقد نفع وذكر وما تفطن الناس لقول الله تعالىٰ في غير موضع: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦] يذكر ولا أحد ينتبه لهذه الأبوّة والبنوّة ولا يتذكر إلاّ أولو الألباب جعلنا الله وإياكم ممّن برّ أباه، وما أشبه هذا الذكرى من الله في بني آدم بقوله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وأين زمان هارون منها؟ فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة من أقبلت عليه بظاهري لا يسعد أبداً ومن أقبلت عليه بباطني لا يشقى أبداً وبالعكس

[البسيط]:

الحُكْمُ للقَدَرِ المعلوم والنَّسَبِ ... أمْرٌ تَحَقَّقْتُهُ ما الحكمُ للسَّبَبِ

هذا بلالٌ وخَبَّابٌ وأين هما ... من العمومة فالأحكامُ للنَّسَبِ

فالله يَجْعَلُنا من ذا على حَذَرٍ ... في غير جَهْدٍ ولا كَدّ ولا نَصَبِ

لولا الشريعةُ عند العارفين بها ... ما كنت من يتقي مَصارعَ النُّوَبِ

يا رَحْمَةً سَبَقَتْ يا رحمةً شَمَلَتْ ... وما هما بمحلِّ الخُسْر والعَطَبِ

قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] تنبيهاً أنه الوجود كله فإن هذا تقسيمه فليس إلاّ هو، والنعيم نعيمان: نفسيّ وهو الباطن وحسيّ وهو الظاهر في النفس الحساسة، والعذاب عذابان: نفسيّ وهو الباطن وحسيّ وهو الظاهر، والحال حالان: حال سابق وهو الأوّل وحال لا حق وهو الآخر، وما ثم إلاّ رحمة سابقة وغضب لا حق ثم رحمة شاملة سارية في الكل فهي لاحقة سابقة فيغضب ويرضى فيعذب رحمة لغضبه ليزول الغضب، فانظر ما أحكم تعذيبه كيف أدرج الرحمة فيه لإزالة الغضب حتى يزول حكمه فتشمل الرحمة بنفسها من حقّت عليه كلمة العذاب، فبرحمته عذب من عذب لأنه لولا العذاب لتسرمد يكون الغضب وهو أشد على المغضوب من العذاب الواقع به لمن عقل ما أقول، وإذا كان الأمر كما قرّرناه وهو كما ذكرناه فقد في الإقبال الظاهر سعادة ليسعد به المقبول عليه، وقد يكون في الإقبال الظاهر شقاوة ليشقى به المقبول عليه، وقد يكون في الإقبال الباطن مثل ما ذكرناه في الإقبال الظاهر، والمقبول عليه غيب وشهادة وروح وصورة وحيوان وناطق، فلا بدّ من النفس والحسّ أن ينفعلا لهذه الإقبالات وأحكام النسب بها يظهر حكم الحاكم في المحكوم عليه، وقد ذكر الله أنّ الهوية العائدة عليه هي عين هذا الذي ذكرناه فلم يقع تصرّف منه إلاّ فيه، نبّه على ذلك بقاتل نفسه وأن الجنة محرّمة عليه فلا حجاب عليه فإنه ظاهر له لا يتمكن أن يستتر عنه هو، وجعل ذلك مبادرة له لأنه ذكر أمرين من أوّل وآخر فقد يبادر الآخر فيكون له حكم الأولية ويكون للأول بالنسبة إلى هذا المبادر حكم الآخرية،

ولهذا جاءت العبارة التي ذكرها الترجمان عن الله: بادرني عبدي بنفسه حرّمت عليه الجنة فلا يستره شيء بعد هذا الكشف لأنه يعلم من سبق ومن لحق كما يعلم من خلق ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فلا يظهر لتحصيله العلم ذوقاً الذي كسبه المعلوم فإن المعلوم متقدم بالرتبة على العلم وإن تساوقا في الذهن من كون المعلوم معلوماً لا من كونه وجوداً أو عدماً فإنه المعطي العالم العلم فلا بدّ في الكون من سعادة وشقاء ولو ببرد الهواء وحرّه فما زاد فما يلايم المزاج كان سعادة وما لا يلايمه كان شقاء، ثم تمشي بهذا الحكم على الغرض والكمال والشريعة وتحكم في ذلك كله حكمك بالملايمة وعدمها، فافهم فإني أريد الاختصار والتنبيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والخمسون وأربعمائة
في معرفة منازلة من تحرّك عند سماع كلامي فقد
سمع يريد الوجد الذي يعطي الوجود

[البسيط]:

لولا سَمَاعُ كلامِ الله ما بَرَزَتْ ... أعْيَانُنا وسَعَتْ منه على قَدَمِ
إلى الوجود ولولا السَّمْعُ ما رَجِعَتْ ... على مَدَارجها لحالة العَدَمِ
فنحن في بَرْزَخ والحَقُّ يَشْهَدُنا ... بين الحُدوث وبين الحُكْمِ بِالقِدَمِ
ليس التكَوّنُ ممّن لا كلامَ له ... إنّ التكَوُّنَ عن قَصْدٍ وعن كَلِمِ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] يعني حكم ممّا توجه عليه أمر ﴿كُن﴾ كان ما كان، فيعدم به ويوجد فليس متعلقه إلاّ الأثر، ولهذا سمّاه في اللسان العربيّ كلاماً مشتقاً من الكلم وهو الجرح وهو أثر في المجروح، فلما وجد الأثر سمّى ما وجد عنه كلاماً كان ما كان فافهم، والحركة انتقال من حال إلى حال أي من حال يكون عليه السامع إلى حال يعطيه سماعه عند كلام المتكلم وهو فيه بحسب فهمه فهو مجبور على الحركة، ولهذا لا تسلم الصوفية حركة الوجد الذي يبقى معه الإحساس بمن في المجلس حتى تسلم له حركته بالله، فمهما أحسّ تعين عليه أن يجلس إلاّ أن يعرّف الحاضرين بأنه متواجد لا صاحب وجد فيسلم له ذلك، ولكن لا تحمد هذه الحالة عندهم على كل حال لأنهم يكرهون الحركة في الأصل بنفس المتحرّك ويحمدونها بالمحرّك، فأصل السماع الذي يقول به أهل الطريق شريف وهو يسري في كل شيء فلا يختص به حال إيقاع وغناء على طريق خاص طبيعيّ، فإن الوزن الطبيعيّ إنما يؤثر فيما تركب من الطبيعة على مزاج خاص لا يشترط في حركة الطبع الفهم بخلاف حركة النفوس العقلية وإن كان للطبيعة فيها أثر في أصل وجودها ولكن ليست لها في النفوس العاقلة تلك القوّة إلاّ بالفهم فلا يحرّكه إلاّ الفهم، ألا ترى الكائنات ما ظهرت ولا تكوّنت إلاّ بالفهم لا بعدم الفهم لأنها فهمت معنى ﴿كُن﴾ فتكوّنت ولهذا قال: ﴿فَيَكُونُ﴾ يعني ذلك الشيء لأنه فهم عند السماع ما أراد بقوله: ﴿كُن﴾

فبادر لفهمه دون غير التكوين من الحالات، فما سميت هذه الحركة بالوجد إلاّ لحصول الوجود عندها أعني وجود الحكم سواء كان بعين أو بلا عين فإنه عين في نفسه هذا الكائن.

ثم إن الحق أعطى هذه الصفة لعباده وجعل نفسه سامعاً وأقام نفسه محلاً لتكوين ما يطلبه منه العبد في سؤاله سمّاه إجابة وجعل ذلك بلفظ الأمر كما جعل ﴿كُن﴾ ليريه أن الحقائق لا نفسها تكون أحكامها ما هي بجعل جاعل لمن عقل وعلم الأمور على ما هي عليه، فإن العلم بهذا النوع من العلوم المختزنة عن أكثر الناس بل يحرم كشفها لهم من العارف بها لما يؤدّي إلى إنكار الحق مع علمهم بأن المعاني توجب أحكامها لمن قامت به عقلاً يريدون أن ذلك لذاتها، ولهذا تمكن المتكلم بالردّ على من يقول بالإرادة الحادثة لا في محل. وأما كلام الله من الشجرة لموسىٰ فهو عند بعضهم دليل على أن الكلام ينسب لمن خلقه كما تقول الطائفة الأخرى أن السمع تعلّق بالمناسب وهو الخطاب من الشجرة وليس إلاّ كلام الله كما قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ومعلوم بماذا تعلق السمع منه، وهؤلاء القائلون بأن المتكلم من قامت به صفة الكلام وأهل الكشف الذين يرون أن الوجود لله بكل صورة جعلوا الشجرة هي صورة المتكلم كما كان الحق لسان العبد وسمعه وبصره بهويته لا بصفته كما يظهر في صورة تنكر وتتحوّل إلى صورة تعرف وهو هو لا غيره إذ لا غير، فما تكلم من الشجرة إلاّ الحق فالحق صورة شجرة، وما سمع من موسىٰ إلاّ الحق فالحق صورة موسىٰ من حيث هو سامع، كما هو الشجرة من حيث هو متكلم، والشجرة شجرة وموسىٰ موسىٰ لا حلول لأن الشيء لا يحل في ذاته فإن الحلول يعطي ذاتين وهنا إنما هو حكمان: [البسيط]

فالحسُّ يَشْهَدُ ما الأفكارُ تُنكِرُهُ ... والعَقْلُ يعلم ما الإحساسُ يَرْمِي بِهْ
فانْظُرْ إليه ترى في صُورِهِ عَجَباً ... وانظر إلى حكمه في حُسْنِ تَرْتِيبِهْ
تراه عَيْنُ الذي يراه من كَثَبٍ ... وليس يُدْرِيهِ مَنْ يَدْرِيهِ إلاّ بِهْ

فانظر إلى هذه النكت الإلهيّة في هذه المنازلات ما أخصرها وما أعطاها للأمور على ما هي عليه في إيجاز، والله يقول الحق هو يهدي السبيل.

الباب السابع والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة التكليف المطلق

[البسيط]:

حُكْمُ التكاليف بين الله والناسِ ... من عَهْدِ والدنا المنعوتِ بالنَّاسِي
فالأمر منّي له كالأمر منه لنا ... فإن دَعَانا أتَيْنَاهُ على الرَّاسِ

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ [البقرة: ١٨٦] يقول للرسول أن يقول: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦] يعني إذا دعوتهم إلى القيام بما شرعته لهم وكل ذلك شرع، فقد أدخل نفسه فيما كلف به عباده وجعل الأمر بأيديهم في ذلك

فهو إعلام على الحقيقة بما هو الأمر عليه ما هو بالجعل فإنه يتعالىٰ عن الجعل فيما ينسبه لهويته إلاَّ إذا ظهر بصورة خلق فيقضي ما يعطيه البصران أحكام ما وقعت عليه العين مجعولة، وتعطي الحقيقة أن الأمر ما هو كما تدركه العين، فلا تزال المنازعة بين القلب والعين في المعارف الإلهية في الخصوص كما تعرفه العامة في العموم في المحبة، ولنا في ذلك في التشبيب على ما وقع في العموم [البسيط]:

يَسُوقُ رُوحي بلا شَكٍّ إلى التَّلَفِ ... هذا الذي بفؤادي من هَوَى شَرَفِ
أقول للقلب قد أوْرَثْتَنِي سَقَماً ... فقال عَيْنُكَ قادَتْني إلى التَّلَفِ
لو لم تَرَ العَيْن ما أمسيت حلف ... فإن أمُتْ فيه ما للحُبِّ من خَلَفِ
لذاك قَسَمْتُ ما عندي على بَدَني ... من الضَّنا والجَوَى والدَّمْعِ والأسَفِ

فالتكليف المطلق يطلق ويراد به أمران: الأمر الواحد أن يعمّ الإنسان أجمعه مثل قوله: يصبح على كل سلامي منكم صدقة وهو قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] بنون الجمع لعموم التكليف وإطلاقه في ذات المكلف، ومن هذا الباب أعني إطلاق التكليف ما اجتمعت فيه جميع الشرائع ولم تنفرد به شريعة دون أخرى وهو قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فعمّ وأطلق، والأمر الآخر من الإطلاق إدخاله نفسه معنا تعريفاً أنه مأمور وآمر وناه ومنهي ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] والأمر ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فانصرنا هذا منا عن أمر مشروع، والجواب منه في الصحيح: قد فعلت قد فعلت، والأمر منه ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المزمل: ٢٠] الجواب منا على قسمين بخلاف ما كان منه، فجواب موافق لجوابه وهو قولنا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] وجواب غير موافق من جميع الجهات لإجابته وهو قوله: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وهذا كلام من أبعده الله عن سعادته وقرب إليه بهذه الإجابة شقاوته، فقد أبنت لك عن إطلاق التكليف، وهذا من إنصاف الحق عباده ليطلب منهم النصف، ثم إنه في موطن آخر جعل لقوم آخرين ممّن كتب عليهم شقاء مستنداً إلٰهياً لم يقم فيه مقام الإنصاف فأعمى عليهم فعموا فنسب إليهم ما هو إليه وأشقاهم به ثم قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] لأن النزاع وقع بينه وبينه لأنه في نفس الأمر ما ثم إلاَّ حكمان ما ثم ذاتان فافهم، وعندنا ما كانت الحجة البالغة لله على عباده إلاَّ من كون العلم تابعاً للمعلوم ما هو حاكم على المعلوم، فإن قال المعلوم شيئاً كان لله الحجة البالغة عليه بأن يقول له: ما علمت هذا منك إلاَّ بكونك عليه في حال عدمك وما أبرزتك في الوجود إلاَّ على قدر ما أعطيتني من ذاتك بقبولك فيعرف العبد أنه الحق فتندحض حجة الخلق في موقف العرفان الإلهيّ الخاص. وأما في العموم فالأمر فيه قريب والحكم يختلف بحسب فهم الرجال فيه، فما كل أحد تقام عليه حجة تقام على الآخر، فلكل صنف حجة عند الله بها يظهر على عباده ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ بالحجة ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] حيث يظهر على كل صنف بما تقوم به الحجة لله عليه، فلولا إطلاق التكليف ما

كان خصماً ولا عمل لنا معه مجلس حكم ولا ناظرناه فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة إدراك السبحات الوجهية

[المديد]:

سُبُحَاتُ الوَجْهِ تُدْرِكُنا ... وهي بالإدراك تُعْدِمُنا

غيرةً منها عليه فهل ... أحَدٌ منكم يُفَهِّمُنا

كيف كان الأمر فيه فلم ... نَلْقَ موجوداً يُعَرِّفُنا

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وقال ﷺ في الحجب الإلهية المرسلة بينه وبين خلقه: **«إنه تعالىٰ لَوْ رَفَعَها لَأَحْرَقَتْ سبحاتُ الوَجْهِ ما أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»** وقيل له ﷺ: أَرَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فقال: **«نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»** فهذه الحجب إن كانت مخلوقة فكيف تبقى للسبحات فإنها غير محجوبة عنها، لكن اعلم أنه سرّ أخفاه الله عن عباده سمّي ذلك الإخفاء حجباً نورية وظلامية، فالنور منها ما حجب به من المعارف الفكرية به، والظلمة منها ما حجب به من الأمور الطبيعية المعتادة، فلو رفع هذه الحجب عن بصائر عباده لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، وهذا الإحراق إنما هو اندراج نور أدنى هم فيه بل هم هو في نور أعلى، كاندراج أنوار الكواكب في نور الشمس، كما يقال في الكوكب إذا كان تحت الشعاع مع وجود النور في ذات الكوكب إنه محترق فلا يراد به العدم بل تبدّل الحال على العين الواجدة في نظر الناظر، فانتقل الاسم عليه وعنه بانتقال الحكم كان الحطب حطباً فلما احترق سمّي فحماً والجوهر واحد، ومعلوم أن الكواكب على ضوئها في نفسها ولكن لا نراها لضعف الإدراك، فلو رفعها في حق العلماء لرأوا نفوسهم عينه وكان الأمر واحداً لكنه رفعها عنهم فرأوا ذواتهم ذاتاً واحدة فقالوا ما حكى عنهم من أنا الله وسبحاني، لكن العامة لم ترفع عنهم فلم يشهدوا الأمر على ما هو عليه فتنازعوا أمرهم بينهم وأسر العارفون النجوى أدباً مع الله فإنهم الأدباء، قال ﷺ: **«لا تُعْطُوا الحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا وَلا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ»** فما قال الشارع للعارفين شيئاً أشدّ تكليفاً من هذا الحكم لأنه أمرهم بالمراقبة لكل شخص شخص، فهم يراقبون العالم من أجل هذا الحديث لأنهم أهل حكمة، فمن رأوا فيه الأهلية أعطوه لئلا يتصفوا بالظلم في حقه، وإن لم يروا فيه أهلية لم يعطوه لئلا يتصفوا بالظلم في حقها، فلا يزالون مراقبين للعالم دائماً أبداً وهذا حظّهم من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] فمن راقب بعين الله لم يشغله شأن عن شأن، فهو يتصرف في كل شيء بذاته لأنه إلهي المشهد والقبول من المتصرف فيه، فالمتصرف مستريح من هذا الوجه، ومن راقب بعين نفسه من خلف حجاب ذاته فهو في غاية من الجهد والتعب فلا يزال في نصب ما دامت هذه صفته [المتقارب]:

فبالنُّورِ تُدرَكُ أنوارُهُ … وبالنُّورِ يُدرَكُ ما يُدرَكُ
فمن يَكُنْ بنَعتِ حَقّ له … يَملِكُ بالذات ولا يُملَكُ

وهذا القدر من الإشارة في هذه المنازلة كاف لمن عقل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والخمسون وأربعمائة

في معرفة منازلة وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار

[السريع]:

ثلاثةٌ كُلُّهُمُ مُصطَفى … ذو الظُّلم والسَّابقُ والمُقتَصِدْ
وَرَّثَهُمْ كتابَهُ فاعتَلَوْا … بالعِلْم في ذاك عن المُعتَقَدْ
واختارَهم لنفسه فاعتَلَتْ … هِمَّتُهُمْ عن كل أمر شُهِدْ

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] أي كل ذلك بأمر الله، فالظالم لنفسه لعلمه بقدرها عند الله فهو يظلم لها لا يظلمها فيعطي كل ذي حق حقّه إلاّ الحق فإنه لا يعطيه كل حقّه بل يعطيه من حقّه تعالىٰ ما يسمّى به أديباً وما لا يسمّى به أديباً يظلمه فيه من أجل نفسه حتى يلحق برتبة الأنبياء، فمثل هذا الظلم من الفضل الإلهيّ على عبده، فمن كان مشهده هذا سمّي ظالماً لنفسه مع أنه مصطفى وما أوقفه على ذلك إلاّ علمه بالكتاب فهو يحكم به كما قال الذي عنده علم من الكتاب لسليمان عليه السلام: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] فلولا الكتاب ما علم آصف بن برخيا ذلك، وأما المقتصد فهو الذي اقتصد في كل موطن على ما يقتضيه حكم الموطن فهو بحكم الموطن لا بحكم نفسه، وهم أهل الله الأخفياء الأبرياء، فمشهد الظالم ما يجب للحق فلا ينسبه إليه، ومشهد المقتصد المواطن وما تستحق، فالظالم يدخل في حكم المقتصد ولهذا كان المقتصد وسطاً لأنه على حقيقة ليست للطرفين، وفيه من حكم الطرفين ما يحتاج إليه أو يندرج فيه، وأما السابق بالخيرات فهو الذي يتهيأ لحكم المواطن قبل قدومها عليه، وتجتمع هذه الأحوال في الشخص الواحد فيكون ظالماً مقتصداً سابقاً بالخيرات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الستون وأربعمائة

في معرفة منازلة الإسلام والإيمان والإحسان الأول والثاني

[مجزوء الوافر]:

عَلِمْتُ أني هَمِمْتُ … ولكنْ ما فَهِمْتُ
مُرَادَ الله فيه … لكوني ما شَهِدْتُ
فإسلامٌ تَبَدَّى … بقَوْلي قد سَمِعْتُ

به من كُلّ سُوءٍ ... به أيضاً نَعِمْتُ
وإيمانٌ خَفِيٌّ ... ولكن ما كَتَمْتُ
وإحسانٌ أراه ... بتَشْبيه فقُلْتُ
تَعالَى عن شهودي ... لأني قد جَهِلْتُ
بأن الحَقَّ فيه ... وحَقّاً ما قَضَذْتُ
وعِلْمِي شاهدٌ لي ... بأني قد شَهِذْتُ

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] وقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وورد في الخبر الصحيح الفَرْقُ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ وَالإِحْسَانِ: **«فَالإِسْلَامُ عَمَلٌ، وَالإِيمَانُ تَصْدِيقٌ، وَالإِحْسَانُ رُؤْيَةٌ أَوْ كَالرُّؤْيَةِ»** فالإسلام انقياد، والإيمان اعتقاد، والإحسان إشهاد، فمن جمع هذه النعوت وظهرت عليه أحكامها عمّ تجلى الحق له في كل صورة فلا ينكره حيث تجلى، ولا يظهره في الموطن الذي يحب أن يخفى فيه فيساعد الحق لعلمه بإرادته لعلمه بالمواطن وما يستحقه، فما أشرف هذه المنزلة لمن تدلّى عليها من شرف، فهو المؤمن للمؤمن، والمحسن للمحسن، وهو المسلم للإسلام، فإن الحق إذا فعل ما يريده منه العبد فقد انقاد له فيقول العبد: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ [نوح: ٢٨] فيغفر له لأنه صادق في قوله هل من المستغفر فاغفر له فلقد فات الناس خير كثير لجهلهم وما توغلوا فيه من تنزيه الحق حتى أكذبوه ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] وليس الحق إلاّ ما قاله عن نفسه، فلولا ما علم أن العالم يعلمه ما قال لهم: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فحاجة الحق في نفسه إلى ظهوره أعظم من حاجة المظهر له إلى إظهاره، فإن الحق قد حجر علينا إظهار الحق في مواطن كالغيبة والنميمة وكتم الأسرار، وكلها حق ممنوع الظهور في الكون القوليّ لا في عينه من حيث هو صفة لمن قام به فهو الظاهر الخفي، فالإحسان من الحق رؤية ومن العبد كأنه والإيمان من الحق والخلق على حقيقته، وكذلك الإسلام عند العارفين به، غير أنه لا يقال في الحق أنه مسلم، فما كل ما يدرى يقال، ولا كل ما يشهد يذاع، صدور الأحرار قبور الأسرار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والستون وأربعمائة
في معرفة منازلة من أسدلت عليه حجاب كنفي
فهو من ضنائني لا يعرف ولا يعرف

[البسيط]:

إنّ الضَّنائنَ عند الله في سِتْرِ ... مُخَدَّرون فلا تُدْرَى ولا تَدْري
يغارُ منهم عليهم مثل ما حُجِبَتْ ... بين اللّيالي صَوْناً ليلةُ القَدْرِ
فلا يراها سوى من لا يُقَيِّدُهُ ... نَعْتٌ يجرّده من عالم الأمْرِ

تبدو لناظره من خلف زافره ... من أول الليل حتى مطلع الفجر

قال الله تعالىٰ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] وهم العارفون إشارة لا تفسيراً، المجهولون في العالم، فلا يظهر منهم ولا عليهم ما يعرفون به، وهم لا يشهدون في الكون إلاَّ الله، لا يعرفون ما العالم لأنهم لا يشهدونه عالماً [البسيط]:

فالحقُّ سارٍ ولكن ليس يدريهِ ... إلاَّ الذي قال فيه إنَّهُ فيهِ

لكل مليك حرم وحرم، وهؤلاء العارفون العلماء به حرمه وحرمه الذي هم فيه العوائد العامة فما سترهم إلاَّ بما هو مشهود للعام والخاص، فالعالم يشهد الحق اعتقاداً وعيناً ويشهد العالم حسّاً، وهؤلاء يشهدون الحق عيناً ويشهدون العالم إيماناً لكون الحق أخبرهم أن ثم عالماً فيؤمنون به ولا يرونه، كما أن العالم يؤمنون بالله ولا يرونه، فهم شهداء حق بحق وهم في مقعد صدق فيما تحققوا به، فإن قيل لهم: فقولكم بالشاهد والمشهود فرق، فيقولون عند ذلك: أليس تشهد ذاتك بذاتك فأنت غيرك، وكلامهم في هذا كله مع الحق شهوداً ومع الإيمان بأن ثم عالماً أدباً وإيماناً فهم المؤمنون حقاً والعلماء صدقاً، وهذا بعض ما وقفنا عليه من منازلات الحق فإنها أكثر من أن يحصرها عد أو يضبطها حد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وها نحن بحمد الله ومعونته وإلهامه نشرع في الأقطاب والهجيرات التي كانوا عليها ابتغي بذلك الإعلام بأنه من عمل على ذلك وجد ما وجدوا وشهد ما شهدوا، إذ بنيت كتابي هذا بل بناه الله لا أنا على إفادة الخلق، فكله فتح من الله تعالىٰ، وسلكت فيه طريق الاختصار أيضاً عن سؤال من العبد ربه في ذلك لأنه لا يقتضي حالنا إلاَّ إبلاغ ما أمر الحق بإبلاغه، ويفعل الله ما يشاء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر التاسع والعشرون بانتهاء الباب الأحد والستين وأربعمائة من هذا الكتاب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[السفر الثلاثون]

الفصل السادس
في هجيرات الأقطاب ومقاماتهم المحمدية

الباب الثاني والستون وأربعمائة
في الأقطاب المحمديين ومنازلهم

[نظم: البسيط]

اليَثْرِبِيُّ الذي لا نَعْتَ يَضْبِطُهُ ... ولا مقامٌ ولا حالٌ يُعَيِّنُهُ
مُرْخَى العنان على الإطلاق نشأته ... قامتْ فلا أحدٌ منّا يُبَيِّنُهُ
من قال إن له نعتاً فليس له ... علم به عندما يبدو مُكَوِّنُهُ
فعِلْمُنَا إنّ عَلِمْناهُ يشير به ... وجَهْلُنا هو في عِلْمي يُزَيِّنُه

قال الله تعالىٰ عن الملائكة والملأ الأعلى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣] فأشبه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي تشبه هذه الآية الآية الأخرى، وأصل باب الأقطاب قوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ**» حتى الإنسان على جوارحه وجميع قواه من بادية وهي الظاهرة وحاضرة وهي الباطنة. فاعلم أن الأمور كثيرة مختلفة في العالم، فكل شيء يدور عليه أمر ما من الأمور فذلك الشيء قطب ذلك الأمر، وما من شيء إلاّ وهو مركب من روح وصورة، فلا بدّ أن يكون لكل قطب روح وصورة، فروحه تدور عليه أرواح ذلك الأمر الذي هذا قطبه، وصورة ذلك القطب تدور عليه صورة ذلك الأمر الذي هذا قطبه يسمّى الوجه الواحد من القطب جنوبياً وهو الروح والآخر شمالياً وهو الصورة، فمن جملة أصناف العالم الأناسي وهم المقصودون من وجود العالم بالقصد الثاني لا بالقصد الأوّل، وأما القصد الأوّل فالقصد بوجود العالم عبادة الله أعني عبادة العرفان الحادث لكمال الوجود غير أنه في كل صنف من أصناف العالم تام غير كامل، وما كمل إلاّ بهذه النشأة الإنسانية الكاملة، وما عدا الكاملة فهو الإنسان الحيوان المسمّى بالحدّ حيواناً ناطقاً والأقطاب من الكمل.

ثم إن الله جعل العالم الجسمي والجسماني في منزلين: منزل يسمّى الدنيا ومنزل يسمّى الآخرة، وجعل سكانهما الإنس والجان والمعتبر فيهما الإنس والمعتبر من الإنس الكمل لا غير، وهم الذين ذكرهم الله لا يزيدون عليه في نفوسهم هذا ذكرهم في نفوسهم وفي خلواتهم

باللسان. وأما في العموم فلا إله إلاّ الله ثم بعدها أنواع الذكر من سبحان الله المقيد والمطلق والحمد لله وكذلك والله أكبر كذلك ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله كذلك، فعمر بهذا الصنف المقصود من العالم أوّلاً الدار الدنيا من الدارين وجعل سكناهم فيها بآجال مسماة ينتهون إليها ثم ينتقلون عند فراغ مدتهم إلى الدار الآخرة، ونقلتهم على ضربين: منهم من ينتقل بموت وهو مفارقة الحياة الدنيا فيحيى بحياة الآخرة، ومنهم من ينتقل بالحياة الدنيا من غير موت وهو الشهيد في سبيل الله خاصة وما يقال فيه بأنه أفضل من الميت إلاّ أنه أفضل من بعض الموتى، ثم إن الله جعل هذا الصنف الإنساني في الدنيا أمماً كثيرين، ثم بعث في كل أمة رسولاً ليعلمها ما هو الأمر عليه الذي خلقوا له، ويعلمهم بما للحق عليهم أن يفعلوه وما لهم إذا فعلوا ذلك من الخير عند الله في الدار الآخرة، وماذا عليهم إذا لم يفعلوا من العقوبة عند الله في الدار الدنيا إذا علم ولاة أمرهم ذلك وفي الآخرة، ثم جعل الفضل فيهم فمنهم الفاضل والأفضل من الأمم ومن الرسل. وختم الأمم بأمة محمد ﷺ وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وختم بمحمد ﷺ جميع الرسل عليهم السلام وختم بشرعه جميع الشرائع فلا رسول بعده يشرع ولا شريعة بعد شريعته تنزل من عند الله إلاّ ما قرّره شرعه من اجتهاد علماء أمته في استنباط الأحكام من كتابه وسنّة نبيه وأعني بالسنّة الحديث لا من قياس، وأعني بالقياس هنا قياس فرع على فرع لا قياس فرع على أصل، فإن قياس الفرع على الأصل هو المستنبط الذي ثبت بالاجتهاد وجعله الفقهاء أصلاً رابعاً كما جعلوا الإجماع أصلاً ثالثاً وهو إجماع الصدر الأوّل وقالوا إنهم ما أجمعوا على أمر إلاّ ولا بدّ أن يعرفوا فيه نصاً يرجعون فيه إليه إلاّ أنه ما وصل إلينا مع قطعنا به فإنه من المحال أن يجتمعوا على حكم لا يكون لهم فيه نص لأن نظرهم وفطرهم مختلفة فلا بدّ من الاختلاف وقد أجمعوا على أمر فذلك الحكم مقطوع به عندنا أنهم فيه على نص من الرسول ﷺ، ولا حكم بإجماع بعد إجماع الصدر الأوّل، فلما كان الأمر على ما قرّرناه في هذ الباب فاشتغلنا بذكر الأقطاب المحمديين لكون محمد ﷺ سيد الناس يوم القيامة وهو وأمته الآخرون الأولون فاعتبرنا من الرسل محمداً ﷺ ومن الأمم أمته ﷺ.

واعلم أن الأقطاب المحمديين على نوعين: أقطاب بعد بعثته، وأقطاب قبل بعثته. فالأقطاب الذين كانوا قبل بعثته هم الرسل وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً. وأما الأقطاب من أمته الذين كانوا بعد بعثته إلى يوم القيامة فهم اثنا عشر قطباً والختمان خارجان عن هؤلاء الأقطاب فهم من المفردين، وسيأتي في آخر الكتاب ذكر الختم، ويأتي بعد هذا الباب ذكر الاثني عشر قطباً مستوفى إن شاء الله تعالى، فأما منازل الأقطاب المحمديين الذين هم الرسل صلوات الله عليهم أجمعين. فلا سبيل لنا إلى الكلام على منازلهم، فإن كلامنا عن ذوق ولا ذوق لنا في مقامات الرسل عليهم السلام وإنما أذواقنا في الوراثة خاصة، فلا يتكلم في الرسل إلاّ رسول، ولا في الأنبياء إلاّ نبي أو رسول، ولا في الوارثين إلاّ رسول أو نبي أو ولي أو من هو منهم، هذا هو الأدب الإلهيّ، فلا تعرف مراتب الرسل إلاّ من الختم العام الذي يختم الله

به الولاية العامة في آخر الزمان وهو عيسىٰ ابن مريم روح الله، فإن سُئِل عن ذلك فهو يترجم عنهم وعن تفاضلهم فإنه رسول منهم، وأما نحن فلا سبيل إلى ذلك، فكلامنا في أقطاب الأمم الذين هم ورثة أنبيائهم وأرسالهم وفي أقطاب هذه الأمة المحمدية المتأخرة المنعوتة بالخيرية على جميع الأمم السالفة مؤمنيهم وكافريهم، فكافرهم شرّ من كافري الأمم، ومؤمنهم خير من مؤمني الأمم فلهم التقدم كما ورد في الخبر في قريش أنهم المقدمون على جميع القبائل في الخير والشرّ. وجعل الإمامة فيهم سواء عدلوا أم جاروا، فإن عدلوا فلرعيتهم ولهم، وإن جاروا فلرعيتهم وعليهم، يعني ما فرطوا فيه من حقوق الله وحقوق من استرعاهم الله عليهم، فأقطاب هذه الأمة المختارة مقدمون على الأقطاب المتقدمين في الأمم السالفة أعني الأقطاب الوارثين المتبعين آثار رسلهم.

ثم نرجع ونقول: إن أقطاب هذه الأمة المحمدية على أقسام مختلفة، وما أعني بالأقطاب الذين لا يكون في كل عصر منهم إلاّ واحد إنما نذكر ذلك في الاثني عشر قطباً في الباب الذي يلي هذا الباب، وإنما أذكر في الأقطاب المحمديين كل من دار عليه أمر جماعة من الناس في إقليم أو جهة كالأبدال في الأقاليم السبعة لكل إقليم بدل هو قطب ذلك الإقليم، وكالأوتاد الأربعة لهم أربع جهات يحفظها الله بهم من شرق وغرب وجنوب وشمال لكل جهة وتد، وكأقطاب القرى فلا بدّ في كل قرية من وليّ لله تعالىٰ به يحفظ الله تلك القرية سواء كانت تلك القرية كافرة أو مؤمنة فذلك الوليّ قطبها. وكذلك أصحاب المقامات فلا بدّ للزهاد من قطب يكون المدار عليه في الزهد في أهل زمانه، وكذلك في التوكل والمحبة وسائر المقامات والأحوال لا بدّ في كل صنف صنف من أربابها من قطب يدور عليه ذلك المقام، ولقد أطلعني الله تعالىٰ على قطب المتوكلين فرأيت التوكل يدور عليه كأنه الرحى حين تدور على قطبها وهو عبد الله بن الأستاذ الموروري من مدينة مورور ببلاد الأندلس كان قطب التوكل في زمانه عاينته وصحبته بفضل الله وكشفه لي، ولما اجتمعت به عرفته بذلك فتبسم وشكر الله تعالىٰ. وكذلك اجتمعت بقطب الزمان سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس أطلعني الله عليه في واقعة وعرفني به فاجتمعنا يوماً ببستان بن حيون بمدينة فاس وهو في الجماعة لا يؤبه له فحضر في الجماعة وكان غريباً من أهل بجاية أشل اليد، وكان في المجلس معنا شيوخ من أهل الله معتبرون في طريق الله منهم أبو العباس الحصار وأمثاله، وكانت تلك الجماعة بأسرها إذا حضروا يتأدّبون معنا فلا يكون المجلس إلاّ لنا ولا يتكلم أحد في علم الطريق فيهم غيري، وإن تكلموا فيما بينهم رجعوا فيها إليّ فوضع ذكر الأقطاب وهو في الجماعة فقلت لهم: يا إخواني إني أذكر لكم في قطب زمانكم عجباً، فالتفت إلي ذلك الرجل الذي أراني الله في منامي أنه قطب الوقت وكان يختلف إلينا كثيراً ويحبنا فقال لي: قل ما أطلعك الله عليه ولا تسم الشخص الذي عين لك في الواقعة وتبسم وقال: الحمد لله، فأخذت أذكر للجماعة ما أطلعني الله عليه من أمر ذلك الرجل فتعجب السامعون وما سميته ولا عينته وبقينا في أطيب مجلس مع أكرم إخوان إلى العصر ولا ذكرت للرجل أنه هو، فلما

انفضت الجماعة جاء ذلك القطب وقال: جزاك الله خيراً ما أحسن ما فعلت حيث لم تسم الشخص الذي أطلعك الله عليه والسلام عليك ورحمة الله، فكان سلام وداع ولا علم لي بذلك، فما رأيته بعد ذلك في المدينة إلى الآن. فالأقطاب المحمديون هم الذين ورثوا محمداً ﷺ فيما اختصّ به من الشرائع والأحوال ممّا لم يكن في شرع تقدمه ولا في رسول تقدمه، فإن كان في شرع تقدم شرعه وهو من شرعه أو في رسول قبله وهو فيه ﷺ فذلك الرجل وارث ذلك الرسول المخصوص ولكن من محمد ﷺ، فلا ينسب إلاّ إلى ذلك الرسول، وإن كان في هذه الأمة فيقال فيه موسوي إن كان من موسىٰ أو عيسوي أو إبراهيمي أو ما كان من رسول أو نبي، ولا ينسب إلى محمد ﷺ إلاّ من كان بمثابة ما قلناه ممّا اختصّ به محمد ﷺ، وليس أعمّ في الاختصاص من عدم التقييد بمقام يتميز به، فما يتميز المحمدي إلاّ بأنه لا مقام له بتعين فمقامه أن لا مقام، ومعنى ذلك ما نبينه وهو أن الإنسان قد تغلب عليه حالته فلا يعرف إلاّ بها فينسب إليها ويتعين بها، والمحمدي نسبة المقامات إليه نسبة الأسماء إلى الله فلا يتعين في مقام ينسب إليه بل هو في كل نفس وفي كل زمان وفي كل حال بصورة ما يقتضيه ذلك النفس أو الزمان أو الحال فلا يستمر تقيده، فإن الأحكام الإلهية تختلف في كل زمان فيختلف باختلافها فإنه عزّ وجلّ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فكذلك المحمدي وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: ٣٧] ولم يقل عقل فيقيده والقلب ما سمي إلاّ بتقلبه في الأحوال والأمور دائماً مع الأنفاس. فمن عباد الله من يعلم ما يتقلب فيه في كل نفس، ومنهم من يغفل عن ذلك، فالقطب المحمدي أو المفرد هو الذي يتقلب مع الأنفاس علماً كما يتقلب معها حالاً كل واحد من خلق الله، فما زاد هذا الرجل إلاّ بالعلم بما يتقلب فيه وعليه لا بالتقليب فإن التقلب أمر يسري في العالم كله وفيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك على التفصيل والتعيين، وإن علموه على الإجمال فمنازلهم على قدر علمهم فيما يتقلبون فيه وعليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وشرح هذا الباب وبسطه يطول فرأينا الاقتصار على ما ذكرناه وأومأنا إليه وتوخيناه، وفي ذكرنا هجيرهم يتبين مقامهم والله يتولى التوفيق.

الباب الثالث والستون وأربعمائة

في معرفة الاثني عشر قطباً الذين يدور عليهم عالم زمانهم

[نظم: المديد]

مُنْتَهَى الأسماء في العَدَدِ ... لاثْنَتَيْ عشر مع العقدِ

فبهم حِفْظُ الوُجُودِ وما ... في وجود الحَقِّ من عَدَدِ

وهو المَنْعُوتُ بالعدد ... وهو المنعوتُ بالأحَدِ

ظَهَرَتْ أحكامُ نشأتهم ... في التي قامت بلا عَمَدِ

تمّ في الأركان حُكْمُهُمُو ... في أبٍ منها وفي وَلَدِ

قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وعرفه فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ

ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] يقول: يميلون عن أسمائه لا بل يقول: يميلون في أسمائه إلى غير الوجه الذي قصد بها ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] من ذلك فكل يجزى بما مال إليه فيما أوحينا يقول: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ولا تمل بميلهم فإني خلقتك متبعاً لا متبعاً اسم مفعول لا اسم فاعل، ولذلك قال له عند ذكر الأنبياء: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] لا بهم وهداهم ليس سوى شرع الله فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] وذكر من ذكر فكان الشارع لنا الله الذي شرع لهم فلو أخذ عنهم لكان تابعاً فافهم.

فأقطاب هذه الأمة اثنا عشر قطباً عليهم مدار هذه الأمة، كما أن مدار العالم الجسميّ والجسمانيّ في الدنيا والآخرة على اثني عشر برجاً قد وكلهم الله بظهور ما يكون في الدارين من الكون والفساد المعتاد وغير المعتاد، أما المفردون فكثيرون والختمان منهم أي من المفردين فما هما قطبان، وليس في الأقطاب من هو على قلب محمد ﷺ. وأما المفردون فمنهم من هو على قلب محمد ﷺ والختم منهم أعني خاتم الأولياء الخاص. فأما الأقطاب الاثنا عشر فهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام فالواحد منهم على قلب وإن شئت قلت على قدم وهو أولى فإني هكذا رأيته في الكشف بإشبيلية وهو أعظم في الأدب مع الرسل والأدب مقامنا، وهو الذي أرتضيه لنفسي ولعباد الله، فنقول: إن الأوّل أعني واحداً منهم على قدم نوح عليه السلام. والثاني: على قدم إبراهيم الخليل عليه السلام. والثالث: على قدم موسىٰ عليه السلام. والرابع: على قدم عيسىٰ عليه السلام. والخامس: على قدم داود عليه السلام. والسادس: على قدم سليمان عليه السلام. والسابع: على قدم أيوب عليه السلام. والثامن: على قدم إلياس عليه السلام. والتاسع: على قدم لوط عليه السلام. والعاشر: على قدم هود عليه السلام. والحادي عشر: على قدم صالح عليه السلام. والثاني عشر: على قدم شعيب عليه السلام. ورأيت جميع الرسل والأنبياء كلهم مشاهدة عين، وكلمت منهم هوداً أخا عاد دون الجماعة، ورأيت المؤمنين كلهم مشاهدة عين أيضاً من كان منهم ومن يكون إلى يوم القيامة أظهرهم الحق لي في صعيد واحد في زمانين مختلفين، وصاحبت من الرسل وانتفعت به سوى محمد ﷺ جماعة منهم إبراهيم الخليل قرأت عليه القرآن، وعيسىٰ تبت على يديه، وموسىٰ أعطاني علم الكشف والإيضاح وعلم تقليب الليل والنهار، فلما حصل عندي زال الليل وبقي النهار في اليوم كله فلم تغرب لي شمس ولا طلعت، فكان لي هذا الكشف إعلاماً من الله أنه لا حظ لي في الشقاء في الآخرة، وهود عليه السلام سألته عن مسألة فعرفني بها فوقعت في الوجود كما عرفني بها هذا إلى زماني هؤلاء، وعاشرت من الرسل محمداً ﷺ وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وهوداً وداود وما بقي فرؤية لا صحبة.

واعلم أن كل قطب من هؤلاء الأقطاب له لبث في العالم أعني دعوتهم فيمن بعث إليهم آجال مخصوصة مسماة تنتهي إليها، ثم تنسخ بدعوة أخرى كما تنسخ الشرائع بالشرائع وأعني بدعوتهم ما لهم من الحكم والتأثير في العالم، فلنذكر مدد أعمارهم في حياتهم الدنيا. فمنهم

من كان عمره في ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وأربعة أشهر. ومنهم من كانت مدته ثلاثين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً. ومنهم من دامت مدته ثمانياً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيام. ومنهم من دامت مدته خمساً وعشرين سنة. ومنهم من دامت مدته اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وعشرين يوماً. ومنهم من دامت مدته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام. ومنهم من دامت مدته ستة عشر سنة وثمانية أشهر. ومنهم من دامت مدته ثلاث عشرة سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً. ومنهم من دامت مدته إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيام. ومنهم من دامت مدته سنتين وتسعة أشهر وعشرة أيام. ومنهم من دامت مدته ثمان سنين وأربعة أشهر. ومنهم من دامت مدته خمس سنين وستة أشهر وعشرين يوماً وهجيرهم واحد وهو الله، الله بسكون الهاء وتحقيق الهمزة ما لهم هجير سواه، وما عدا هؤلاء الأقطاب من أقطاب القرى والجهات والأقاليم وشيوخ الجماعات فأنواع كثيرة وهي التي أذكر منها في هذا الفصل ما تيسّر، وما أذكر ذلك إلاّ لأجل نتيجة ذلك الذكر لمن دام عليه على الحال المعروفة في الذكر في ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] ولو لم نقصد ذلك لم يكن في ذكري وتعييني له في هذا الكتاب منفعة، فلنذكر أوّلاً من أحوال هؤلاء الأقطاب ما تيسّر مع أحدية هجيرهم، وإنما توحد لتوحد مقام القطبية فذلك هو هجير القطبية لا هجير الشخص، ولكل واحد منهم هجير في أوقات خلاف هذا، وقال عليه السلام: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مَنْ يَقُولُ: الله الله**» يريد لا يبقى قطب يكون عليه مدار العالم ولا مفرد يحفظ الله بهمته العالم وإن لم يكن قطباً فلا تقوم الساعة إلاّ على أشرار الناس. فأما أحد الأقطاب فهو على قدم نوح عليه السلام فله من سور القرآن سورة يس فإنه لكل قطب سورة من القرآن من هؤلاء الاثني عشر، وقد يكون لمن سواهم من الأقطاب الذين ذكرناهم السورة من القرآن والآية الواحدة من القرآن، وقد يكون للواحد منهم ما يزيد على السورة، وقد يكون منهم من له القرآن كله كأبي يزيد البسطاميّ ما مات حتى استظهر القرآن. فلنذكر ما يختص به هؤلاء الاثنا عشر من سور القرآن، فهذا القطب الواحد له سورة ﴿يسٓ﴾ وهو أكمل الأقطاب حكماً جمع الله له بين الصورتين الظاهرة والباطنة، فكان خليفة في الظاهر بالسيف وفي الباطن بالهمة ولا أسميه ولا أعينه فإني نهيت عن ذلك وعرفت لأي أمر منعت من تعيينه باسمه، وليس في جماعة هؤلاء الأقطاب من أوتي جوامع ما تقتضيه القطبية غير هذا، كما أوتي آدم عليه السلام جميع الأسماء، كما أوتي محمد ﷺ جوامع الكلم، ولو كان ثم قطب على قدم محمد ﷺ لكان هذا القطب إلاّ أنه ما ثم أحد على قدم محمد ﷺ إلاّ بعض الأفراد الأكابر ولا يعرف لهم عدد وهم أخفيا في الخلق أبرياء علماً بالله لا يرزؤون ولا يعرفون فيرزؤون مقامهم الحفظ فيما يعلمون، لا يدخل عليهم في علمهم شبهة تحيرهم فيما علموه بل هم على بينة من ربهم هذا حال الأفراد.

فلنرجع إلى ذكر هذا القطب فنقول: إن منازله عند الله على عدد آيات هذه السورة، وكذلك كل قطب منازله على عدد آيات سورته وسورهم معلومة أذكرها جملة ثم أذكرها إن

شاء الله تعالىٰ، فالواحد له كما قلنا سورة ﴿يسٓ﴾. والثاني: سورة الإخلاص. والثالث: سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ والرابع: سورة ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. والخامس: سورة ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾. والسادس: سورة البقرة. والسابع: سورة المجادلة. والثامن: سورة آل عمران. والتاسع: سورة الكهف وهو الذي يقتله الدجال ويدرك عيسىٰ عليه السلام. والعاشر: سورة الأنعام. والحادي عشر: سورة طه. وهذا القطب هو نائب الحق تعالىٰ كما كان علي بن أبي طالب نائب محمد ﷺ في تلاوة سورة براءة على أهل مكة، وقد كان بعث بها أبا بكر ثم رجع عن ذلك فقال: «**لا يُبَلِّغ عنّي القرآن إلاَّ رجلٌ من أهل بيتي**» فدعا بعلي فأمره فلحق أبا بكر فلما وصل إلى مكة حج أبو بكر بالناس وبلغ عليّ إلى الناس سورة براءة وتلاها عليهم نيابة عن رسول الله ﷺ، وهذا ممّا يدلك على صحة خلافة أبي بكر الصديق ومنزلة عليّ رضي الله عنهما. والثاني عشر: سورة تبارك الملك. فهذه سور الأقطاب من القرآن، إلاَّ أن صاحب سورة المجادلة التي هي: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] إنما هو سورته الواقعة وله تولع بهذه السورة. وكذلك الذي له سورة الإخلاص لا غير ومنازلهم كما قد ذكرنا، غير أن المنازل بحسب الآيات ومن ذكر وما ذكر فيها، فإن التفاضل في الآيات مشهور على الوجه الذي جاء، وفضلها يرجع إلى التالي من حيث ما هي عليه الآية في التلاوة متكلم بها لا من حيث أنها كلام الله، فإن ذلك لا تفاضل فيه، وإنما التفاضل يكون فيما تكلم به لا في كلامه فاعلم ذلك.

فأما حال هذا القطب فله التأثير في العالم ظاهراً وباطناً يشيد الله به هذا الدين أظهره بالسيف وعصمه من الجور فحكم بالعدل الذي هو حكم الحق في النوازل، وربما يقع فيه من خالف حكمه من أهل المذاهب مثل الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ومن انتمى إلى قول إمام لا يوافقها في الحكم هذا القطب وهو خليفة في الظاهر، فإذا حكم بخلاف ما يقتضيه أدلة هؤلاء الأئمة قال أتباعهم بتخطئته في حكمه ذلك وأثموا عند الله بلا شك وهم لا يشعرون، فإنه ليس لهم أن يخطئوا مجتهداً لأن المصيب عندهم واحد لا بعينه، ومن هذه حاله فلا يقدم على تخطئة عالم من علماء المسلمين، كما تكلم من تكلم في إمارة أسامة وأبيه زيد بن حارثة حتى قال في ذلك رسول الله ﷺ ما قال، فإذا طعن فيمن قدمه رسول الله ﷺ وأمره ورجحوا نظرهم على نظر رسول الله ﷺ فما ظنك بأحوالهم مع القطب وأين الشهرة من الشهرة؟ هيهات فزنا وخسر المبطلون، فوالله لا يكون داعياً إلى الله إلاَّ من دعا على بصيرة لا من دعا على ظنّ وحكم به، لا جرم أن من هذه حاله حجر على أمّة محمد ﷺ ما وسع الله به عليهم، فضيق الله عليهم أمرهم في الآخرة وشدّد الله عليهم يوم القيامة المطالبة والمحاسبة لكونهم شدّدوا على عباد الله أن لا ينتقلوا من مذهب إلى مذهب في نازلة طلباً لرفع الحرج، واعتقدوا أن ذلك تلاعب بالدين وما عرفوا أنهم بهذا القول قد مرقوا من الدين، بل شرع الله أوسع وحكمه أجمع وأنفع ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤ـ ٢٦] هذا حال هؤلاء يوم القيامة فلا يؤذن لهم فيعتذرون. ولهذا القطب مقام

الكمال فلا يقيده نعت هو حكيم الوقت لا يظهر إلاً بحكم الوقت، وبما يقتضيه حال الزمان الإرادة بحكمه ما هو بحكم الإرادة فله السيادة وفيه عشر خصال: أوّلها الحلم مع القدرة لأن له الفعل بالهمة فلا يغضب لنفسه أبداً، وإذا انتهكت محارم الله فلا يقوم شيء لغضبه فهو يغضب لله. والثانية: الأناة في الأمور التي يحمد الله الأناة فيها مع المسارعة إلى الخيرات فهو يسارع إلى الأناة ويعرف مواطنها. والثالثة: الاقتصاد في الأشياء فلا يزيد على ما يطلبه الوقت شيئاً فإن الميزان بيده يزن به الزمان والحال فيأخذ من حاله لزمانه ومن زمانه لحاله فيخفض ويرفع. والرابعة: التدبير وهو معرفة الحكمة فيعلم المواطن فيلقاها بالأمور التي تطلبها المواطن كما فعل أبو دجانة حين أعطاه النبيّ ﷺ السيف بحقه في بعض غزواته فمشى به الخيلا بين الصفين فقال رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى زهوه: «**هٰذِهِ مِشْيَةٌ يَبْغُضُهَا الله وَرَسُولُهُ إلاَّ فِي هٰذا المَوْطِنِ**» ولهذا كان مشي رسول الله ﷺ فيه سرعة كأنما ينحط في صبب، فصاحب التدبير ينظر في الأمور قبل أن يبرزها في عالم الشهادة فله التصرّف في عالم الغيب فلا يأخذ من المعاني إلاً ما تقتضيه الحكمة فهو الحكيم الخبير، فما ينبغي أن يبديه مجملاً أبداه مجملاً، وما ينبغي أن يبديه مفصلاً أبداه مفصلاً، وما ينبغي أن يبديه محكماً أبداه محكماً، وما ينبغي أن يبديه متشابهاً أبداه متشابهاً. والخصلة الخامسة: التفصيل وهو العلم بما يقع به الامتياز بين الأشياء ممّا يقع به الاشتراك، فينفصل كل أمر عن مماثله ومقابله وخلافه، ويأتي إلى الأسماء الإلهية القريبة التشابه كالعليم والخبير والمحصي والمحيط والحكيم وكلها من أسماء العلم وهي بمعنى العليم، غير أن بين كل واحد وبين الآخر دقيقة وحقيقة يمتاز بها عن الباقي، هكذا في كل اسم يكون بينه وبين غيره مشاركة. والسادسة: العدل وهو أمر يستعمل في الحكومات والقسمة والقضايا وإيصال الحقوق إلى أهلها وهو في الحقوق شبيه بما ذكر الله عن نفسه أنه أعطى كل شيء خلقه، وقوله في موسىٰ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠] وقوله في ناقة صالح: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ويتعلق به علم الجزاء في الدارين والعدل بين الجناية والحد والتعزير. والسابعة: الأدب وهو العلم بجوامع الخيرات كلها في كل عالم وهو العلم الذي يحضره في البساط ويمنحه المجالسة والشهود والمكالمة والمسامرة والحديث والخلوة والمعاملة بما في نفس الحق في المواطن من الجلوة، فهذا وأمثاله هو الأدب. والثامنة: الرحمة ومتعلقها منه كل مستضعف وكل جبار فيستنزله برحمته ولطفه من جبروته وكبريائه وعظمته بأيسر مؤنة في لين وعطف وجنان. والتاسعة: الحياء فيستحي من الكاذب عن الكاذب ويظهر له بصورة من صدقه في قوله: لا يظهر له بصورة من تعامى عنه حتى يعتقد فيه الكاذب أنه قد مشى عليه حديثه وأنه جاهل بمقامه وبما جاء به فيذل في شغله ثم لا يكون في حقه عند ربه إلاَّ واسطة خير يدعو له بالتجاوز فيما بينه وبين الله عند الوقوف والسؤال يوم القيامة، وقد ورد في الخبر: «**إنَّ الله يَوْمَ القِيَامَةِ يَدْعُو بِشَيْخ فَيَقُولُ لَهُ ما فَعَلْتَ؟ فَيَقُولُ مِنَ المُقَرّباتِ ما شَاءَ الله وَالله يَعْلَمُ أنَّهُ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ فَيَأْمُرُ بِهِ إلَى الجَنَّةِ فَتَقُولُ المَلائِكَةُ: يا رَبِّ إنَّهُ كَذَبَ فِيمَا ادّعَاهُ، فَيَقُولُ**

الحَقُّ: قَدْ عَلِمْتُ ذٰلِكَ وَلٰكِنِّي اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ أَنْ أُكَذِّبَ شَيْبَتَهُ» وما أوصل إلينا رسول الله ﷺ هذا الخبر عن الله إلاَّ لنكون بهذه الصفة فنحن أحق بها لحاجتنا أن يعاملنا الحق بها.
والعاشرة: الإصلاح وأعظمه إصلاح ذات البين وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] وقد ورد في الخبر: «**إِنَّ الله يُصْلِحُ بَيْنَ عِبَادِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُوقِفُ الظَّالِمَ وَالمَظْلُومَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْحُكُومَةِ وَالإِنْصَافِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُمَا: ارْفَعَا رُؤُوسَكُمَا فَيَنْظُرَانِ إِلى خَيْرٍ كَثِيرٍ فَيَقُولاَنِ: لِمَنْ هٰذا الخَيْرُ؟ فَيَقُولُ الله لَهُمَا: لِمَنْ أَعْطَانِي الثَّمَنَ، فَيَقُولُ المَظْلُومُ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ ثَمنِ هٰذَا؟ فَيَقُولُ الله لَهُ: أَنْتَ بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ هٰذا، فَيَقُولُ المَظْلُومُ: يا رَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ الله لَهُ: خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَادْخُلا الجَنَّةَ**»، ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] «**فَإِنَّ الله يُصْلِحُ بَيْنَ عِبَادِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

وأما القطب الثاني من الاثني عشرة فهو على قدم الخليل إبراهيم عليه السلام وهو الذي له سورة الإخلاص الذي حبّه إياها أدخله الجنة ولقارئها ثلث القرآن وله من المنازل بعدد آيها وهو صاحب الحجة والدليل النظريّ يكون له خوض في المعقولات فيصيب ولا يخطىء، وذلك أنّ الناس قد اختلفوا في العلم الموهوب الذي من شأنه أن يدركه العاقل بفكره ويوصله إليه دليل النظر، فقال بعضهم مثل هذا العلم إذا وهبه الله من وهبه وهبه بدليله فيعلم الدليل والمدلول لا بدّ من ذلك. ورأيت أبا عبد الله الكتاني بمدينة فاس إماماً من أئمة المسلمين في أصول الدين والفقه يقول بهذا القول فقلت له: هذا ذوقك هكذا أعطاكه الحق فذوقك صحيح وحكمك غير صحيح بل قد يعطيه العلم الذي لا يحصل إلاَّ بالدليل النظري ولا يعطيه دليله وقد يعطيه إياه ويعطيه دليله كإبراهيم الخليل، قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] وهو أكمل من الذي يعطي العلم الذي يوصل إليه بالدليل ولا يعطي الدليل ولا يشترط أحد تخصيص دليل من دليل إنما يعطي دليلاً في الجملة، فإن الأدلة على الشيء الواحد قد تكثر، ومنها ما يكون في غاية الوضوح، ومنها ما يغمض كمسألة إبراهيم الخليل في إحياء الموتى وإماتة الأحياء، وعدوله إلى إتيان الشمس من المشرق أن يأتي بها الخصم من المغرب وكلاهما دليل على المقصود، وهذا القطب من الدعاة إلى الله بالأمر الإلهيّ، ومسكنه في الهواء في فضاء الجوّ في بيت جالس على كرسي له نظر إلى الخلق لا يزال تالياً عنده جماعة من أهل الله وخاصته كلامه في الأحدية الإلهية وفي أحدية الواحد وفي أحدية الوحدانية بالأدلة النظرية وما حصلها عن نظر، ولكن هكذا وهبها الحق تعالىٰ له وحاله الحضور دائماً إلاَّ أنه لم يحر مثل ما حار غيره، بل أبان الله له ما وقف عنده ولم يشغل خاطره بما يوجب عنده الحيرة قد تفرغ مع الله لقضاء حوائج الناس يعرف الأسماء الإلهية معرفة تامة يقول بنفي المثلية في جانب الحق أخبرني الحق بالطريقة التي جرت العادة أن يخبر بها عباده في أسرارهم أن هذا العبد أعطاه الرحمة لعباده والصلة لرحمه فسأله في أمر فلم يجبه الله إليه وهو أنه سأله أن يرث مقامه عقبه فقال له: ليس ذلك إليك لا يكون مقام الخلافة بالورث ذلك في العلوم والأموال. وأما الخلافة فكل خليفة في قوم بحسب زمانهم فإن الناس في زمانهم

أشبه منهم بآبائهم، فإن الحق لا يحكم عليه خلق إلاّ في العلم، والخلق لا يعرف أن له هذه المرتبة إلاّ من أعلمه الله بذلك، ولقد رأيت من فتح الله عليه بصحبتي واستفاد أحوالاً وعلوماً وخرق عوائد أعطاه الله ذلك من حسن معاملته مع الله وأخبرني أنه ما استفاد شيئاً ممّا هو عليه إلاّ مني وأنا لا علم لي بذلك إنما أدعو إلى الله والله يعلم من يجيب ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] وصدقوا، وكذا هو الأمر، فلا علم لأحد إلاّ من يعلمه الله، وما عدا هذه الطريقة الإلهية في التعليم فإنما هو غلبة ظنّ أو مصادفة علم أو جزم على وهم وأما علم فلا، فإن جميع الطرق الموصلة إلى العلم فيها شبه لا تثق النفس الطاهرة التي أوقفها الله على هذه الشبه أن تقطع بحصول علم منها إلاّ بالطريقة الإلهية وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣و ٤] فهو يبين عمّا في نفسه ولهذا القطب أسرار عجيبة.

وأما القطب الثالث وهو على قدم موسىٰ عليه السلام فسورته: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ومنازله بعدد آيها ولها ربع القرآن، وهذا القطب كان من الأوتاد ثم نقل إلى القطبية كما كان القطب الثاني من الأئمة ثم نقل إلى القطبية وهو صاحب جهد ومكابدة لا ينفك عن الاشتغال بالخلق عند الله، أعطاه الله في منزل النداء اثني عشر ألف علم ذوقاً في ليلة واحدة، ومنزل النداء من أعظم المنازل وقد عيناه في منزل المنازل من هذا الكتاب ولنا فيه جزء مفرد أعني في طبقات المنازل وكمياتها. فمن علوم هذا القطب علم الافتقار إلى الله بالله وهو علم شريف ما رأيت له ذائقاً لما ذقته، ومعنى هذا وسرّه أن الله أطلعه على أن حاجة الأسماء إلى التأثير في أعيان الممكنات أعظم من حاجة الممكنات إلى ظهور الأثر فيها وذلك أن الأسماء لها في ظهور آثارها السلطان والعزّة، والممكنات قد يحصل فيها أثر تتضرر به وقد تنتفع به وهي على خطر، فبقاؤها على حالة العدم أحب إليها لو خيّرت فإنها في مشاهدة ثبوتية حالية ملتذة بالتذاذ ثبوتي منعزلة كل حالة عن الحالة الأخرى لا تجمع الأحوال عين واحدة في حال الثبوت فإنها تظهر في شيئية الوجود في عين واحدة فزيد مثلاً الصحيح في وقت هو بعينه العليل في وقت آخر، والمعافى في وقت هو المبتلى في وقته ذلك بعينه، وفي الثبوت ليس كذلك فإن الألم في الثبوت ما هو في عين المتألم وإنما هو في عينه فهو ملتذ بثبوته كما هو ملتذ بوجوده في المتألم والمحل متألم به، وسبب ذلك أن الثبوت بسيط مفرد غير قائم شيء بشيء وفي الوجود ليس إلاّ التركيب فحامل ومحمول، فالمحمول أبداً منزلته في الوجود مثل منزلته في الثبوت في نعيم دائم، والحامل ليس كذلك فإنه إن كان المحمول يوجب لذة التذّ الحامل وإن أوجب ألماً تألم الحامل ولم يكن له ذلك في حال الثبوت بل العين الحاملة في ثبوتها تظهر فيما تكون عليه في وجودها إلى ما لا يتناهى، فكل حال تكون عليها هو إلى جانبها ناظر إليها لا محمول فيها، فالعين ملتذة بذاتها والحال ملتذ بذاته، فحال الأحوال لا يتغير ذوقه بالوجود، وحال الحامل يتغير بالوجود وهو علم عزيز، وما تعلم الأعيان ذلك في

الثبوت إلاَّ بنظر الحال إليها ولكن لا تعلم أنه إذا حملته تتألم به لأنها في حضرة لا تعرف فيها طعم الآلام بل تتخذه صاحباً، فلو علمت العين أنها تتألم بذلك الحال إذا اتصف به لتألمت في حال ثبوتها بنظره إياها لعلمها أنها تتلبس به وتحمله في حال وجودها فتألفها به في الثبوت تنعم لها، وهذا الفن من أكبر أسرار علم الله في الأشياء شاهدته ذوقاً إلهياً لأن من عباد الله من يطلعه الله كشفاً على الأعيان الثبوتية فيراها على صورة ما ذكرناها من المجاورة والنظر ما يرى فيها حالاً ولا محلاً [مخلع البسيط]:

بَـلْ كُـلُّ ذات عـلـى انْـفِـرَادِ ... مِـن غـيـر شَـوْبٍ ولا اتِّـحَـادِ
ولا حُـلُـولٍ ولا انْـتِـقَـالِ ... ولا اتِّـفـاقٍ ولا عِـنَـادِ

فإذا فهمت الفرق بين الوجود والثبوت وما للأعيان في الوجود وما لها في الثبوت من الأحكام علمت أن بعض الأعيان لا تريد ظهور الأثر فيها بالحال ما لها في ذلك ذوق فهي بالحال لو عرض عليها ذوق الألم في حال الثبوت لضجت، فإن أمرها في حال الوجود إذا حملت الألم قد تحمل الصبر وقد لا تحمله، وفرضناها في حال الثبوت حاملة فاقدة للصبر فما لها بلسان الحال ذلك الافتقار إلى طلب الوجود وإن طلبته بالقول الثبوتي من الله، فإذا وجدت تقول كما قد نقل عن بعضهم ليتني لم أخلق، ليت عمر لم تلده أمه، ليتها كانت عاقراً، وأمثال هذا، فتكون الأعيان أقل افتقاراً من الأسماء، والأسماء أشد افتقاراً لما لها في ذلك من النعيم ولا سيما وهي تشاهد من الحق الابتهاج الذاتي بالكمال من حيث استصحاب الممكنات في ثبوتها لذاته وأنه منزّه عن أثرها والتأثر بسببها، فهو من حيث ذاته في كمال عن التأثّر في حال ثبوت الأعيان وحال وجودها لأنه ما زاد في نفسه علماً بما لم تكن عليه فيها فإنها أعطته العلم بشأنها أزلاً وبتلك الصورة توجد، فالمجاورة في الثبوت حلول في الوجود ففي الثبوت إلى جانبها وفي الوجود حال فيها، فهذا علم واحد من تلك العلوم فاعلم ذلك.

وأما القطب الرابع الذي على قدم عيسىٰ عليه السلام فسورته من القرآن: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ولها ربع القرآن، ومنازله بعدد آيها، وهذا القطب من الضنائن المصانين له التجلي الدائم كلامه في الجمع والوجود وعلم المزيد، إذا رأى شبهة في أحد تحول بينه وبين العلم أزالها حتى يتبين لصاحبها صورة الحق في ذلك الأمر، له ستمائة مفتاح مقام في كل مقام من العلوم ما شاء الله، له علم الامتزاج والتركيب الاعتداليّ لا يعرف الانحراف ولا النقص ولا الزيادة، مسكنه بقبة أرين منقطع عن الخلق إلاَّ من شاء الله عاش طيباً مع الله إلى أن توفاه الله، وكان من الأوتاد أيضاً فانتقل إلى القطبية يقول: إن الوجود وجود الحق، وإن الجمع جمع الحق صفات القدم والحدوث وهو علم غريب في الجمع ما رأيت من يقول به من أهل الله غير هذا القطب، فإني شاهدت هؤلاء الأقطاب أشهدنيهم الحق وإن كانوا قد درجوا من الدنيا وهو العلم الذي وردت به الشرائع في جانب الحق فنقول ذلك هو الجمع، وعنده أن المحدث صاحب دعوى في تلك الصفات المسماة محدثة، ولأجل دعواه قلنا إنه جمع، وإلاَّ فالأمر

واحد كلها صفات قدم في القديم ومحدثة في المحدث لظهورها فيه ولم تكن ظاهرة فحدثت عند المتصف بها كما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وليس إلاّ كلام الله القديم فجمعنا عليه ماله مع نسبته إلينا فسمّى من فعل ذلك صاحب جمع ووجود فمحكوم حكم الممكنات وجود الحق لا غيره فمن فهم الجمع هكذا علم الأمور كيف هي [مجزوء الخفيف]:

مَــنْ دَرَى الــجَــمْــعَ هــكــذا عَــلِــمَ الأمْــرَ كَــيْــفَ هُــوْ
فــهــو الــحَــقُّ لا سِــوَا هُ فــلا تَــسْــمَــعَــنْــهُ

وأما القطب الخامس الذي على قدم داود عليه السلام فسورته من القرآن: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ ولها نصف القرآن ومنازله بعدد آيها وحاله التفرقة وله مقام المحبة فهو معلول للحب فداؤه دواؤه وماله علم يتقدم فيه على غيره إلاّ علم ثبوت المحبة الإلهية والكونية، ولهذا كان في مقام التفرقة وكان من الأئمة فنقل إلى القطبية، يقول هذا القطب: إن الحب ما ثبت وكل حب يزول فليس بحب أو يتغير فليس بحب لأن سلطان الحب أعظم من أن يزيله شيء، حتى أن الغفلة التي هي أعظم سلطان تحكم على الإنسان لا يتمكن لها أن تزيل الحب من المحب يتمكن عنده أن يغفل الإنسان عن نفسه بمحبوبه ولا يتمكن للمحب أن يغفل بأحد عن محبوبه فذلك هو المحب وذلك هو الحب: [المتقارب]

فِــدَاءُ الــمَــحَــبَّــة مــا لا يَــزُولُ وإنّ الــشّــفــاء لــه مُــسْــتَــحِــيــلُ
فــلا تــرْكُــنَــنْ إلــى غــيــر ذا ولا تُــصْــغِــيَــنْ إلــى مــا يــقــولُ

فبحب الله أحببنا الله وحب الحق لا يتغير، فحب الكون لا يتغير، فقيل له: فحب الكون الكون هل يتغير؟ قال: لا لأن الكون محبوب لذاته، والمحبة الذاتية لا يمكن زوالها، قيل له: فقد رأينا من تستحيل مودته، فقال: تلك إرادة ما هي محبة إذ لو كانت محبة ثبتت ألا تراها تسمّى وداً لثبوتها وثبوت حكمها؟ وذلك أنه ما في المحب لغير محبوبه فضلة من ذاته يتمكن للمزيل أن يدخل عليه منها هذا سبب ثبوتها، فإنه يشاهد عين محبوبه في كل شيء يشهده فلا يفقده، فلو صحّ للمحب أن يشهد غير محبوبه في عين ما لدخل عليه من ذلك ما يزيل حبه وهذا ليس بواقع في الحب، فالتبس على من هذه حالته حكم الإرادة بحكم الحب وما كل مريد محب وكل محب مريد، وما كل مراد محبوب وكل محبوب مراد، فمقام هذا القطب ما ذكرناه وشأنه عجيب وتفصيل حاله يطول ومذهبنا الاختصار.

وأما القطب السادس الذي على قدم سليمان عليه السلام فسورته الواقعة ولها الحياة الدائمة، ومنازله بعدد آيها، اختصّ بعلم الحياة والحيوان لا يأخذ حالاً من أحواله إلاّ عن ربه، فأحواله أحوال ربه هديه هدي الأنبياء كما أمر الله نبيه ﷺ لما ذكر له الأنبياء عليهم السلام قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وما قال فبهم اقتده، فعلمنا أن محمداً مساوٍ لجميع من ذكره من الأنبياء ومن لم يذكره فإنه لكل نبي هدى كما ذكر:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فهو سبحانه نصب الشرائع وأوضح المناهج وجمع ذلك كله في محمد ﷺ، فمن رآه فقد رأى جميع المقربين، ومن اهتدى بهديه فقد اهتدى بهدي جميع النبيين [السريع]:

ومـا عـلـى الله بـمُـسْـتَـنْـكَـرٍ أنْ يَـجْـمَـعَ الـعَـالَـمَ فـي وَاحِـدِ

وأعني بقولي إن أحوال هذا القطب أحوال ربه ما قال الحق عن نفسه من أنه كل يوم في شأن فهذا عبارة عن اختلاف الأحوال، فهو من القوم الذين يشاهدون الحق في شؤونه فينظرون إلى ماله من الشؤون فيهم فيتلبسون بها منه فهم من أحوالهم على بصيرة، فمن هذه حاله ما هو مثل من حاله التخلق بالأسماء الإلهية بل لهذا ذوق ولهذا ذوق، فمثل هذا الرجل يكون مجهول الحال لأن مواطن الحق خفية لا يدركها إلاّ من كان مقامه التلبس بالشؤون، والدليل على ذلك أنا قد جمعنا على أنه لا موجد إلاّ الله وأنه حكيم يضع الأمور مواضعها ولا يتعدى بها موطنها، فكل شيء ظهر في العالم فهو حكمة في موضعه، وقد جمعنا أن جميع الخلق وأن أهل الله أكثرهم يقولون: لو كان كذا عن فعل من الأفعال ظهر في الوجود على يد إنسان لكان أحسن من هذا الفعل الذي فعلت وأولى، يقولون للذي يظهر ذلك الفعل الإلهي فيه وعلى يديه فهل هذا إلاّ لجهلهم بحكمة الله فيما وقع لهم فيه مثل هذا القول؟ فهذا ما وقع من أهل الله إلاّ بغفلتهم عن الله لا بجهلهم، فإذا ذكروا تذكروا ويقع من غير أهل الله بجهله لا بغفلته، فإنه لا يزول عمّا ذهب إليه في ذلك الفعل من اللوم حتى تبدو له حكمة الله فيه متى بدت حينئذٍ يعترف بجهله ويعرف قصور علمه وعقله، وما رأيت أحداً من أهل هذا الذوق ولا سمعت بأنه ريء وهو قريب في غاية الظهور، ولكن الأغراض تمنع والأهواء من التعمّل في تحصيله، وذلك أن حجة من لا يروم تحصيله من أهل الدين يقول: إن الشرع قد أمرنا أن ننكر أشياء وأن نقول: الأولى ترك هذا من فعله مع علمي بأن الفعل لله، قلنا: صدقت ولكن ما خرج مثل هذا الاعتراض من شخص فهم رتبتي وذلك أني قلت إنه جهل حكمة الله فيما اعترض فيه، فمن اعترض باعتراض الشرع فهو ناقل اعتراض الله فيما اعترض ما هو المعترض، وذلك الاعتراض إذا وجد من الله يعلم صاحب هذا الذوق حكمته ومنزلته، وصاحب هذا الحال يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم الحدود وهو يشاهد حكمة ذلك كله ويراها في الشؤون الإلهية المشهودة له ولا يشهدها إلاّ عند تكوينها خاصة، هذا هو مقام صاحب هذا الحال، فإن من أهل الله أيضاً من يشاهد هذه الشؤون قبل أن يكون الحق فيها، وهو الذي يشاهد أعيان الممكنات في حال عدمها كما يشهدها الحق، ولهذا يعين الحق منها ما يعين بالتكوين دون غيرها من الممكنات، فإن الحق لا يوجدها إلاّ بما هي عليه في حال عدمها من غير زيادة ولا نقصان، ومن أهل الله من يشهد الأمر قبل ظهوره في الحسّ وهو التكوين الآخر يشهده في الإمام المبين وهو اللوح المحفوظ الحاوي على المحو والإثبات فكل شيء فيه، فلذلك الشيء تكوين أول في التسطير، وهذا الكشف دون كشف الذي يريه الله أعيان الممكنات على ما تكون عليه في حال الوجود فيحكم بها حكم الله فيها، ولإدراك

هذه الشؤون قبل ظهورها في الحسّ مدارك كثيرة أعلاها ما ذكرناه أي أقصاها وبعده مشاهدة الحق في تكوينها، فإن ذلك أعلى من مشاهدة المشاهد إياها في الإمام المبين وفي غيره، ودون هذا الشهود كل شهود يكون للعبد قبل تكوين الشأن، هذا حال من قال: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله معه، وهو أعلى حالاً من الذي يقول: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله قبله، فإن الأولى كلمة تحقيق وإن كانت الأخرى مثلها في التحقيق لكن بينهما فرقان، فالواحد قوله مثل من يقول: رأيت زيداً يصنع كذا، ويقول الآخر: رأيت الصانع يصنع كذا، فهذا الفرق بين الشخصين فيما يشهدانه، فإن الأسماء الأعلام ما وضعت إلاّ للتخاطب بها في حال غيبة المسمّى بها وفي الحضور ما هي مطلوبة وإن جيء بها فإما لأدب يقتضيه الحال، وإما تأكيد في الإخبار فقد أبنت لك من حال هذا القطب ما سمعت وله أحوال كثيرة أعرفها أفعله في كل قطب ما أذكر جميع أحواله لأن ذلك يتسع الخرق فيه حيث أنه لا يفي به الوقت.

وأما القطب السابع الذي على قدم أيوب عليه السلام وسورته البقرة وهي البيضاء الحاوية على سيدة آي القرآن، ومنازله بعدد حروفها لا آيها، حال هذا القطب العظمة بحيث أنه يرى أن العالم لا يسعه لأن ذوقه كونه وسع الحق قلبه، وقد ورد في الخبر أن الحق يقول: «**مَا وَسِعَنِي أَرْضِي وَلاَ سَمَائِي وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي**»، وما كل قلب يسع الحق، وقال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فبين مكان القلوب، فإذا كان مشهود العبد كون الحق في قلبه فكما لا يسع العالم الحق لا يسع العالم أيضاً هذا العبد، فهذا سبب شهود ضيق العالم عنه، وما رأيت من تحقق بهذا المقام وشهوده إلاّ رجلاً بالموصل من أهل حديثة الموصل كان بهذه المثابة وأطلعه الحق على أمر ولم يطلعه على سره فيه، وكان يطلب على من يوضح له حاله فذكرني له الإمام نجم الدين محمد بن أبي بكر بن شاي الموصلي المدرس بمدرسة سيف الدين بن علم الدين بحلب في هذا الزمان الذي نحن فيه وهو سنة ثمان وعشرين وستمائة فطلب الاجتماع بنا، فلما وصل ذكر نازلته فأوضحتها له فسري عنه واستبشر وخرج لي بحاله لما رآني فهمته فوجدته قد أخذ من مقام العظمة بحظ وافر لكنه دون ذوق هذا القطب فيه لأنه أخبرني أن النخامة كانت تدور في فيه لا يقدر أن يلقيها من فيه لأنه لا يجد لها محلاً تقع فيه خالياً من الحق، وقد علم ما جاء في الأدب في إلقائها في الشرع فكان يتحير، ورأيت آخر مثله بإشبيلية من بلاد الأندلس، وروينا عن الحلاج أنه ذاق من هذا المقام حتى ظهر عليه منه حال المقام فكان له بيت يسمّى بيت العظمة إذا دخل فيه ملأه كله بذاته في عين الناظر حتى نسب إلى علم السيميا في ذلك لجهلهم بما هم عليه أهل الله من الأحوال، والمتمكن في هذا المقام لا يظهر عليه بالحال ما يدل على أنه صاحب هذا الذوق ولكن نعوته تجري بحكم هذا المقام لا حاله، فإن الحال يعطي خرق العوائد كما قال صاحب محاسن المجالس فيها لما ذكر الأحوال أنها للمريدين قال: والأحوال للكرامات يريد خرق العوائد، وليست الكرامات في عرف هذا اللسان الأخرق العوائد مع الاستقامة في الحال أو تنتج الاستقامة في الفور لا بدّ من ذلك عندهم، وسبب هذا التحديد أن خرق العادة قد لا

يكون كرامة من الله للعبد، فأكملهم في مقام العظمة من يجهل حاله ولا يعرف فيعرف ما يعامل به ويحار الناظر فيه إلاَّ أنه على بينة من ربه وبصيرة من أمره، فمن أراد أن يعرف أحوال هذا الإمام فليتدبر آيات سورة البقرة آية بعد آية حتى يختمها، فهذا القطب مجموع آيها وبالله التوفيق.

وأما القطب الثامن الذي على قدم إلياس عليه السلام وسورته آل عمران وهي البيضاء أيضاً، ومنازله بعدد آيها، ولست أعني بقولي القطب الأول والثاني أن هذا الترتيب بالزمان إنما أريد به ترتيب العدد إلى أن يكمل اثنا عشر قطباً فقد يكون الثاني عشر أو غيره هو الأول بالزمان، وإنما أعلمت بذلك لئلا يتوهم من قد أوقفه الله وأطلعه على العلم بأزمان هؤلاء الأقطاب فيرى هذا الترتيب الذي سقناه فيهم أنه ترتيب أزمانهم فلذلك بينت أنه ترتيب العدد لا غير، وحال هذا القطب العلم بالمتشابه من كلام الله الذي لا يعلم تأويله إلاَّ الله، فيعلمه هذا القطب بإعلام الله خاصة ولا يعلم أبداً إلاَّ بإعلام الله فيكون عنده محكماً في تشابهه فيعرف من أيّ وجه كان التشابه فيه فيحصل له علم المناسبة التي جمعت بين الله وبين من وقع معه التشابه في الآية كآيات التشبيه كلها، أو ترقع التشبيه من طريق دلالة اللفظ المشترك الذي لا يكون إلاَّ لمناسبة خفية، فإن المناسبة في التشبيه جلية وفي الاشتراك خفية كالنور للعلم جلي، فتسمّى العلم نوراً والنور نوراً كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ [الأنعام: ١٢٢] يعني الوحي وهو العلم ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وفي الاشتراك كالعين، فالمناسبة في العينية في كل مسمّى بالعين خفية فهي عند هذا القطب جلية بإعلام الله. وأما أصحاب التأويل بالنظر في ذلك فما هم على علم وإن صادفوا العلم، ومن هذا العلم تعلم أن النساء شقائق الرجال، ألا ترى حوّاء خلقت من آدم؟ فلها حكمان: حكم الذكورة بالأصل وحكم الأنوثة بالعارض فهي من المتشابه، فإن الإنسانية مجمع الذكر والأنثى، وأين حقيقة الفاعل من المنفعل لمن هو فيه فاعل ولا يفعل إلاَّ في مشاكله، وذلك أنه أول ما أحدث الانفعال في نفسه فظهر فيه صورة ما ينفعل عنه، وبتلك القوّة انفعل عنه ما انفعل وظهر كالبديع والمخترع والحق قد قدمنا تحقيق العلم بالعالم أن العلم يتبع المعلوم والعلم صفة العالم والمعطي العلم ما هو المعلوم عليه، ثم يعطي العالم إيجاد المعلوم كما يعطي المخترع إيجاد الأمر المخترع وإظهاره في الوجود، فمن هنا يعرف لما حبّب الله النساء لمحمد ﷺ، فمن أحب النساء حب النبيّ ﷺ لهنّ فقد أحب الله، والجامع الانفعال لما كان من إعطاء المعلوم العلم ليقال فيه إنه عالم فهو أول منفعل لمعلوم، وظهر في عيسىٰ انفعاله عن مريم في مقابلة حوّاء من آدم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: ٣٧] فيفهم قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ﴾ مثل حوّاء ﴿وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] مثل عيسىٰ، وبالمجموع مثل بني آدم باقي الذرية، فهي الجامعة لخلق الناس، ولقد كنت من أكره خلق الله تعالىٰ في النساء وفي الجماع في أول دخولي إلى هذا الطريق وبقيت على ذلك نحواً من ثمان عشرة سنة إلى أن شهدت هذا المقام وكان قد تقدم عندي خوف المقت لذلك لما وقفت على الخبر النبوي أن الله حبّب النساء

لنبيه ﷺ فما أحبهن طبعاً ولكنه أحبهن بتحبيب الله إليه، فلما صدقت مع الله في التوجه إليه تعالىٰ في ذلك من خوفي مقت الله حيث أكره ما حببه الله لنبيه أزال عني ذلك بحمد الله وحببهن إليّ، فأنا أعظم الخلق شفقة عليهن وأرعى لحقهن، لأني في ذلك على بصيرة وهو عن تحبّب لا عن حب طبيعي، وما يعلم قدر النساء إلاً من علم وفهم عن الله ما قاله في حق زوجتي رسول الله ﷺ عندما تعاونا عليه وخرجا عليه كما ذكر الله في سورة التحريم وجعل في مقابلة هاتين المرأتين في التعاون عليه، من يعاون رسول الله ﷺ عليهما وينصره وهو الله وجبريل وصالحو المؤمنين ثم الملائكة بعد ذلك، وليس ذلك إلاً لاختلاف السبب الذي لأجله يقع التعاون، فثم أمر لا يمكن إزالته إلاً بالله لا بمخلوق، ولذلك أمرنا أن نستعين بالله في أشياء وبالصبر في أشياء وبالصلاة في أشياء فاعلم ذلك، وكان ثم أمر وإن كان بيد الله، فإنّ الله قد أعطى جبريل اقتداراً على دفع ذلك الأمر، فأعان محمداً ﷺ في دفعه أن تعاونا عليه وأن رجعا عنه وأعطيا الحق من نفوسهما سكت عنهما كما سكتنا، فكان لهما الأمر من قبل ومن بعد، وهو نعت إلهيّ فإنه لحركتهما تحرك من تحرك ولسكونهما سكن الذي أراد التحرك، وكذلك صالحو المؤمنين كان عندهما أمر نسبته في الإزالة بصالحي المؤمنين أقرب من نسبته إلى غيرهم، فيكون صالح المؤمنين معيناً لمحمد ﷺ ثم الملائكة بعد ذلك إذا لم يبق إلاً ما يناسب عموم الملائكة التي خلقت مسخرة يدفع بها ما لا يندفع في الترتيب الإلهيّ إلاً بالملائكة مع انفراد الحق بالأمر كله في ذلك والقيام به ولكن الجواز العقلي فأخبر الحق بالواقع لو وقع كيف كان يقع فما يقع إلاً كما قاله، وما قال إلاً ما علم أنه يقع بهذه الصورة، وما علم إلاً ما أعطاه المعلوم من نفسه أنه عليه بما شهده أزلاً في عينه الثابتة في حال عدمه، فانظر يا وليّ كيف تبدي الأمور حقائقها الذي فهم وقلب، جعلنا الله وإياكم من أهل الفهم عن الله ممّن له قلب يعقل به عن الله وألقى السمع لخطاب الله وهو شهيد لما يحدثه الله في كونه من الشأن.

وأما القطب التاسع الذي على قدم لوط عليه السلام فسورته سورة الكهف ولها العصمة والاعتصام، ومنازله بعدد آيها حاله العصمة من كل ما يؤدي إلى سوء الأدب الذي يبعد صاحبه عن البساط فهو محفوظ عليه وقته أبداً، وعلمه علم الاعتصام، وقد عيّنه الله وحصره في أمرين الاعتصام به فقال عزّ من قائل: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الحج: ٧٨] والاعتصام الآخر بحبله وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] فمن الناس من اعتصم بالله، ومنهم من اعتصم بحبل الله، وقال: إن الاعتصام بحبل الله هو عين الاعتصام بالله، وهذا القطب جمع بين هذين الاعتصامين، والفرق بين الاعتصامين أن حبل الله هو الطريق الذي يعرج بك إليه مثل قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وليس حبله سوى ما شرعه وتفاضل فهم الناس فيه فمنهم ومنهم ولذلك فضل الله بعضهم على بعض، فمن لم يخط طريقه فهو المعصوم والتمسك به هو الاعتصام، وعليه حال المؤمنين الذين بلغوا الكمال في الإيمان، ومثل هؤلاء يعتصمون بالله في اعتصامهم بحبل الله وهو

قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وأما الاعتصام بالله فهو قوله ﷺ قوله في الاستعاذة: **«وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»** فإنه لا يقاومه شيء من خلقه فلا يستعاذ به إلاً منه، فإن الإنسان لما حصل في سمعه أنه مخلوق على صورة الحق ولم يفرق بين الإنسان الكامل وبين الإنسان الحيوان وتخيّل أن الإنسان لكونه إنساناً هو على الصورة وما هو كما وقع له ولكنه بما هو إنسان هو قابل للصورة إذا أعطيها لم يمتنع من قبولها فإذا أعطيها عند ذلك يكون على الصورة ويعد في جملة الخلفاء فلا يتصرف من هو على الصورة إلاً تصرف الحق بها، وتصرف الحق عين ما هو العالم عليه وفيه، وأنت تعلم بكل وجه ما العالم فيه من مكلف وغير مكلف، وممّا ينكر ويعرف ولا يعرف ما ينكر وما يعرف من العالم المكلف إلاً الخليفة وهو صاحب الصورة، فالحق له حكم الإنكار لا للعبد، فالمعتصم بالله إذا كان صاحب الصورة لا يعتصم إلاً منه بأن يظهر به في موطن ينكره عليه، وإن كانت صفته فليس له أن يتلبس بها في كل موطن ولا يظهر به في كل مشهد بل له الستر فيها والتحلي بها بحسب ما يحكم به الوقت، وهذا هو المعبر عنه بالأدب، ولو كان مشهده أنه لا يرى إلاً الله بالله وأنّ العالم عين وجود الحق، وأعظم من هذا الصارف عن الإنكار فلا يكون ولكن لا بدّ من الإنكار إن صحّ له هذا المقام فهو ينكر بحق على حق لحق ولا يبالي وحجته قائمة.

وأما القطب العاشر الذي على قلب هود عليه السلام فسورته سورة الأنعام ولها الكمال والتمام في الطوالات، ومنازله بعدد آيها، ولهذا القطب علوم جمة منها علم الاستحقاق الذي يستحقه كل مخلوق في خلقه، وعلم ما يستحقه ذلك الخلق من المراتب، فأما استحقاق الخلق فقوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه: ٥٠] وأما المراتب فالتنبيه عليها من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ١٩] و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١] وهو أن تزيده على مرتبته أو تنقصه منها، وما يتميز العالم العاقل من غيره إلاً بإعطاء كل ذي حق حقه وإعطاء كل شيء خلقه، ومتى لم يعلم ذلك فهو جاهل بالحق، ومتى علم ولم يعمل بعلمه فهو غير عاقل، فلا بدّ لصاحب هذا المقام أن يكون تام العقل كامل العلم، وهذا هو الحفظ الإلهيّ والعناية العظمى والسلوك على هذه الطريقة المثلى التي هي الطريقة الزلفى هو السلوك الأقوم. ولما أتمّ الله خلق العالم روحاً وصورة وأنزل كل خلق في رتبته جعل بين العالم التحاماً روحانياً وجسمانياً لظهور أشخاص كل نوع من العالم، إذ كان دخول أشخاص كل نوع في الوجود مستحيلاً، وإنما فعل ذلك ليظهر فضل الفاعل على المنفعل بالذوق فيعلمون فضل الحق على عباده ويعرفون كيف يتحققون معه في عبودتهم ونسب إليهم الخلق فقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فذكر أن ثم خالقين الله أحسنهم خلقاً فإنه تعالى يخلق ما يخلق عن شهود، والخالق من العباد لا يخلق إلاً عن تصوّر يتصوّر من أعيان موجودة يريد أن يخلق مثلها أو يبدع مثلها، وخلق الحق ليس كذلك فإنه يبدع أو يخلق المخلوق على ما هو ذلك المخلوق عليه في نفسه وعينه فما يكسوه إلاً حلة الوجود بتعلق يسمّى الإيجاد، فمن أوقفه الله كشفاً على أعيان ما شاء من

الممكنات فليس في قوّته إيجادها أي ليس بيده خلعة الوجود التي تلبسها تلك العين الثابتة الممكنة أعني بالمباشرة ولكن له الهمة وهي إرادة وجودها لا إرادة إيجادها منه لأنه يعلم أن ذلك محال في حقه، فإذا علق همته بوجودها يتعلق الحق القول بالتكوين فتعلم قول ربها من قول الخلق، سواء كان القول على لسان الخلق أو كان من الحق بارتفاع الوسائط، فيتكوّن ذلك الشيء ولا بدّ، فيقال في الشاهد فعل فلان بهمته كذا وكذا، وإن تكلم يقال: قال فلان كذا وكذا فانفعل عن قوله كذا، فمن عرف ذلك عرف ما للعبد في ذلك التكوين وما للحق فيه فلذلك قال: إنه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فإذا ظهر عين ذلك المكوّن أيّ شيء كان تشوّفت إليه مرتبته لأن مزاجه يطلبها وأعني المرتبة الأولى، فيكتسب الاستعداد لأمور علية أو دنية بحسب ما يعطيه ذلك الاستعداد المكتسب فيظهر في العالم بصورة ذلك، فإذا نظر فيه الأجنبيّ وأعني بالأجنبيّ الذي لا علم له بالحقائق ونظر إلى استعداده فأعطاه نظره أنه نازل عن رتبته أو رتبته فوق ذلك أعني الرتبة التي ظهر فيها والأمر في نفسه ليس كما ظهر لصاحب هذا النظر، فإن الاستعداد المؤثر إنما هو في الخلق وهو استعداد ذاتي، وأما الاستعداد العرضي فلا حكم له، بل الاستعداد العرضي رتبة أظهرها الاستعداد الذاتيّ وغاب هذا القدر من العلم عن أكثر الخلق، مثال ذلك: أن يروا شخصاً ساكناً قد تصوّر العلوم وأحكمها وأعطي من المراتب أخسّها ممّن لا ينبغي لمن جمع هذه الفضائل والعلوم أن يكون غايته تلك الرتبة فيقال إنه قد حطّ هذا الرجل عن رتبته وما أنصف في حقّه وما عندهم خبر بأن رتبته إنما هي عين تلك الفضائل التي جمعها وتلك العلوم التي أحكمها، ومن جملتها هذه المرتبة الخسيسة التي ولاّه السلطان عليها إن كان من الولاة وإن لم يكن من الولاة ولا نال شيئاً مع هذا الفضل من المناصب قيل فيه إنه محروم وما هو محروم، وإنما الموطن اقتضى ذلك وهو أن الدنيا اقتضت أن يعامل فيها الجليل بالجلال في وقت، وفي وقت يعامل الجليل بالصغار، وفي وقت يعامل الصغير بالصغار، وفي وقت يعامل الصغير بالجلال، بخلاف موطن الآخرة فإن العظيم بها يعامل بالعظمة والحقير بها يعامل بالحقارة، ولو نظر الناظر لرأى في الدنيا من يقول في الله ما لا يليق به تعالى، ومن يقول فيه ما يليق به من التنزيه والثناء وأعظم من الحق فلا يكون هذا العبد، فمن علم المواطن علم الأمور كيف تجري في العالم وإلى الله يرجع الأمر كله ما صحّ منه وما اعتلّ، فلا تنظر إلى المناصب، وانظر إلى الناصب الذي يعمل بحكم المواطن لا بما يقتضيه النظر العقلي، فإن الناظر إذا كان عاقلاً علم بعقله أن موطن الدنيا كذا يعطى ويترك عنه الجواز العقليّ الذي يمكن في كل فرد فرد من أفراد العالم، فإن هذا الجواز في عين الشهود ليس بعلم ولا صحيح، وليكن العاقل مع الواقع في الحال، فإن ذلك صورة الأمر على ما هو عليه في نفسه لا تعلق لعاقل بالمستقبل إلاّ إن أطلعه الله كشفاً على أعيان الممكنات قبل وقوعها في الوجود، فلا فرق بينه وبين من شهدها في وقوعها، لأن هذا المكاشف يزول عنه حكم الجواز العقليّ فيما كوشف به وأطلعه الله عليه فهذا بعض علم هذا القطب.

وأما القطب الحادي عشر الذي على قدم صالح عليه السلام فسورته من القرآن سورة ﴿طه﴾ ولها الشرف التام، ومنازله بعدد آيها. اعلم أن هذا القطب دون سائر الأقطاب أشرف بهذه السورة من سائر الأقطاب لأن هذه السورة أشرف سورة في القرآن في العالم السعيد، فإنها السورة التي يقرؤها الحق تعالىٰ في الجنة على عباده بلا واسطة، وهذا القطب له علوم جمّة له البطش والقوّة كما قال أبو يزيد البسطاميّ وقد سمع قارئاً يقرأ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج: ١٢] فقال: بطشي أشد، وكان حاله حال من ينطق بالله، فقول الله عن نفسه إن بطشه شديد على لسان عبده أشد من بطشه بغير لسان عبده، ثم بطشه على لسان عبده الطبيعي أشد من بطشه على لسان عبده الإلهيّ بما لا يتقارب، وأكثر علم هذا الإمام في التنزيه والإحاطة وليس التنزيه والإحاطة التي يعلم هو المفهوم المتعارف بل هو تنزيه التنزيه المتعارف وجعله في ذلك علم الإحاطة، وذلك أن تنزيهه عدم المشاركة في الوجود فهو الوجود ليس غيره والمعبر عنه عنده بالعالم إنما هو الاسم الظاهر وهو وجهه فما بطن منه عن ظاهره فهو الاسم الباطن وهو هويته فيظهر له ويغيب عنه، وأما الآلام واللذات فتقابل الأسماء وتوافقها وبها تكثرت الصور فإنها التي تشكلت فأدرك بعضها بعضاً فكان محيطاً بها منزّهاً عنها فله الستر عنها والتجلي فيها فتختلف عليه الصور فينكر حاله مع علمه أنه هو، وهو ما تسمعه من قول الإنسان عن نفسه إني في هذا الزمان أنكر نفسي فإنها تغيرت عليّ وما كنت أعرف نفسي هكذا وهو هو ليس غيره، فمن حيث تشكل الأسماء له الإمكان، ومن حيث العين القابلة لاختلاف الصور الأسمائية عليها له الوجوب، فهو الواجب الممكن والمكان والمتمكن المنعوت بالحدوث والقدم كما نعت كلامه العزيز بالحدوث مع اتصافه بالقدم فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ الضمير يعود على صور الأسماء إلاَّ الرب ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] فنعته بالحدوث فهو حادث عند صورة الرحمن ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ الضمير مثل الأوّل إلاَّ الرحمن ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥] فنعته بالحدوث فهو حادث عند صورة الرب، فإن تقدّم إتيان ذكر الرب كان ذكر الرحمن جوابه، وإن تقدّم ذكر الرحمن كان ذكر الرب جوابه، فالمتقدم أبداً من الذكرين قرآن والثاني فرقان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] للمتقدم منهما وهو القرآن ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] للآخر منهما وهو الفرقان ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ كما هو ﴿الظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] وليس إلاَّ قبول صور الأسماء وكل للإحاطة فانحصر الأمر فيه، فما قال ﴿كُن﴾ [النحل: ٤٠] إلاَّ له، ولا كنى بيكون إلاَّ عنه، ألا تراه تسمّى بالدهر وأنه يقلب الليل والنهار، وليس الدهر غير الليل والنهار، وليس التقليب سوى اختلاف الصور، فالأيام والساعات والشهور والأعوام هي عين الدهر، وفي الدهر وقع التفصيل بما ذكرناه، فمن وجه هو ساعة ومن وجه هو يوم وليل ونهار وجمعة وشهر وسنة وفصول ودور [مجزوء الرجز]:

فَكُلُّ خَيْرٍ هُوَ لَهْ وكل شَرّ ليس لَهْ
فَهْوَ الوُجُودُ كُلُّهُ وفَقْدُهُ ما هو لَهْ

يَعْلَمُهُ من عَلِمَهْ يَجْهَلُهُ مَنْ جَهِلَهْ
فإنّما أنا بِهِ في كُلّ أحوالي ولَهْ
فأنتَ هُوْ ما أنتَ هُوْ وأنتَ لَهْ ما أنتَ لَهْ
ولو صَنَعْتَ صُنْعَهُ ولو عَمِلْتَ عَمَلَهْ

فهذا من بعض أنفاس علم هذا القطب، وهكذا مجراه في علومه كلها على كثرتها وتفاصيلها.

وأما القطب الثاني عشر الذي على قدم شعيب عليه السلام فسورته من القرآن سورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] وهي التي تجادل عن قارئها، ومنازله بعدد آيها، انظر في جدالها في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ينبه على النظر في المقدمتين ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] يعني خللاً يكون منه الدخل فيما يقيمه من الدليل ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾ وهو النظر ﴿خَاسِئًا﴾ بعيداً عن النفوذ فيه بدخل أو شبهه ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] أي قد عيي أي أدركه العيا وكل آية في هذه السورة فإنها تجري على هذا النسق إلى أن ختم بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠] ألا ترى الوجود كله من غير تعليم؟ هل تراه في حال اضطراره يلجأ إلى غير الله ما يلجأ إلاّ إلى الله بالذات؟ فلو كان غيراً ما عرفه حتى يلجأ وهو قول العامة فيمن رزىء مالك لما ترجع في رزيتك إلاّ إلى الصبر، والصبر ليس إلاّ صفة الصابر، فتسمى أيضاً بالصبور، يقول: أنا هو ما ثم غيري، وهذا عين ما ادعاه في علمه القطب الذي على قدم صالح صلّى الله على نبينا محمد وعليه وسلّم [مخلع البسيط]:

فيا شُعَيْبُ ما ثَمَّ عَيْبٌ لكنّه شاهِدٌ وغَيْبٌ
فانْظُرْ إلى حكمة وفَضل الـ خطاب فيها ما فيه رَيْبٌ

ولهذا القطب علم البراهين وموازين العلوم ومعرفة الحدود كله روح مجرّد لطيفة حاكم على الطبيعة مؤيد للشريعة، بين أقرانه ضخم الدسيعة، يطعم ولا يطعم وينعم ولا يتنعم، الغالب عليه التفكّر ليتذكر والدخول في الأمور الواضحة التنكر، فهو المجهول الذي لا يعرف، والنكرة التي لا تتعرّف، أكثر تصرّفه فيما يتصرّف فيه من الأسماء الإلهية الاسم المدبر والمفصل والمنشىء والخالق والمصوّر والبارىء والمبدىء والمعيد والحكم والعدل، ولا يرى الحق في شيء من تجليه دون أن يرى الميزان بيده يخفض ويرفع، فما ثم إلاّ خفض ورفع لأنه ما ثم إلاّ معنى وحرف وروح وصورة وسماء وأرض ومؤثر ومؤثر فيه، فما ثم إلاّ شفع وكل واحد من الشفع وتر فما ثم إلاّ وتر ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ١ ـ ٣] فالشفع يطلب الشفع والوتر يطلب الوتر وهو طلب الثأر [السريع]:

فَشَفْعُهُ في وَتْرِهِ ظاهِرٌ ووَتْرُهُ في شَفْعِهِ مُنْدَرِجْ
وجَادَتِ السُّحْبُ بأمطارها فكان ما كان بأمْرٍ مَرَجْ
فَحَدَّثَتْ أرْضُكَ أخبارَها وأنْبَتَتْ من كل زَوْجٍ بَهِجْ

تَفْنَى إذا شاهَدَتْ أعيانَها بعَيْن غير الحَق فيها المُهَجْ
يُبَايِنُ الضِّدُ بها ضِدَّهُ وشَكْلُهُ بِشَكْلِه مُزْدَوِجْ
ونُزْهَةُ الأبصار فيما بَدَا في العالم العُلْويّ بين الفُرَجْ
فكلّ ما للعَيْنِ من ظاهر عنه إذا حَقَّقْتَهُ ما خَرَجْ

جمع لهذا القطب بين القوتين: القوّة العلمية والقوّة العملية، فهو صنع لا يفوته صنعة بالفطرة، وله في كل علم ذوق إلهيّ من العلوم المنطقية والرياضية والطبيعية والإلهية، وكل أصناف هذه العلوم عنده علوم إلهية، ما أخذها إلاّ عن الله وما رآها سوى الحق ولا رأى لها دلالة على الحق، فكل علم أو مسألة من ذلك العلم له آية ودلالة على الله لا يعرف لها دلالة على غيرها لاستغراقه في الله لأنه مجذوب مراد لم يكن له تعمل فيما هو فيه، بل وجد فيه أنه هو ثم فتح عينيه فرأى كل شيء رؤية إحاطة بما رأى، فالزيادة التي يستفيدها إنما هي في تفصيل ما رأى دائماً أبداً لأنه كل مرئي في الوجود فإنه يتنوّع دائماً فلا تزال الإفادة دائماً، وكل استفادة زيادة علم لم يكن عنده في معلوم لم يزل عالماً به مشهوداً له.

فهذا قد ذكرنا من أحوال الاثني عشر قطباً ما يسّر الله ذكره على لساني والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. فواحد من هؤلاء الأقطاب له الواحد من العدد وهو صاحب التوحيد الخالص، وآخر له الثاني من العدد، وهكذا كل واحد إلى العاشر والحادي عشر له المائة، والثاني عشر له الألف، والمفرد له تركيب الأعداد من أحد عشر إلى ما لا نهاية له، وذلك للأفراد وهم الذين يعرفون أحدية الكثرة وأحدية الواحد، جعلنا الله وإياكم ممّن فهم عن الله ما سطره في العالم من العلم به سبحانه الدال عليه عزّ وجلّ، إنه الولي المحسان الجواد الكريم المنان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والستون وأربعمائة
في حال قطب هِجِّيرُهُ لا إله إلاّ الله

[نظم: البسيط]

مَنْ كان هِجِّيرَهُ نَفْيٌ وإثْبَاتُ ذاك الإمام الذي تُبْدِيهِ آياتُ
وَتْرٌ وليس له شَفْعٌ يُعَدِّدُهُ وما تُقَيِّدُهُ فينا علاماتُ
وما له في وجود النَّعْتِ من صِفَةٍ وما له في شُهُودِ الذات لَذَّاتُ
تأَثَّرَ الكلُّ فيه من تَأَثُّرِهِ فنَعْتُهُمْ فيه أحياءٌ وأمواتُ
هم المُصانون لا تُحْصَى مناقبُهم ولا يقوم بهم للموت آفاتُ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] اعلم أن الهجير هو الذي يلازمه العبد من الذكر كان الذكر ما كان، ولكل ذكر نتيجة لا تكون لذكر آخر، وإذا عرض الإنسان على نفسه الأذكار الإلهية فلا يقبل منها إلاّ ما يعطيه استعداده، فأوّل فتح له في الذكر قبوله له، ثم لا يزال يواظب عليه مع الأنفاس، فلا يخرج منه نفس في يقظة ولا نوم إلاّ به

لاستهتاره فيه، ومتى لم يكن حال الذاكر على هذا فليس هو بصاحب هجير، فمن كان ذكره لا إله إلاً الله فمعقول ذكره الألوهة وهي مرتبة لا تكون إلاً لواحد هو مسمّى الله، وهذه المرتبة هي التي تنفيها وهي التي تثبتها ولا تنتفي عمّن تنتفي عنه بنفي النافي، ولا ثبيت لمن تثبت بثبت الثابت المثبت، فثبوتها لها ونفيها لها غير ذلك ما هو فلا تنتج للذاكر إلاً شهودها، وليس شهودها سوى العلم بها، وليس معلوم هذا العلم إلا نسب، والنسبة أمر عدمي، والحكم للنسبة والمنسوب والمنسوب إليه، وبالمجموع يكون الأثر، والحكم مهما أفردت واحداً من هذه الثلاثة دون الباقي لم يكن أثر ولا صحّ حكم، فلهذا كان الإيجاد بالفردية لا بالأحدية، خلافاً لمن يقول أنه ما صدر إلاً واحد فإنه عن واحد فهو قول صحيح لا أنه واقع. ثم جاء الكشف النبويّ والإخبار الإلهيّ بقوله عن ذات تسمّى إلهاً ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا﴾ فهذان أمران قال له ﴿كُن﴾ فهذا أمر ثالث والثلاثة أوّل الأفراد فظهر التكوين عن الفرد لا عن الأحد، وهذه كلها راجعة إلى عين واحدة، فإذا ظهر المكوّن بالتكوين عن كن لم يكن غير تجلي إلهيّ في صورة ممكن لصورة ممكن ناظر بعين إلهيّ كما أنه ما سمع ﴿فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] إلاً بسمع إلهي، ولهذا أسرع بالظهور لأنه المريد والمراد والقائل والمقول له والقول، فحاله في التكوين أن ينطق بالله فينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ﴾ بأمره ﴿يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٦٠] لأنه السامع الذي دعاهن، ولهذا الذكر من المعارف معرفة النفي والإيجاب والتنكير والتعريف، وله من الحروف الألف المزادة والألف الطبيعية والهمزة المكسورة وألف الوصل واللام والهاء، ومن الكلمات أربعة متقابلة في عين واحدة يقابل النفي منها الإثبات والإثبات النفي والمنفي الثابت والثابت المنفي، فأما معرفة النفي فهو اطلاع على ما ليس هو فيما قيل فيه إنه هو وإن كان الذي قيل إنه هو صحيح كشفاً لكنه محال عقلاً، ولهذا التزم بعض أهل الله ذكر الله الله، ورأيت على هذا الذكر شيخنا أبا العباس العريبي من أهل العليا من غرب الأندلس، والتزم آخرون الهاء من الله لدلالتها على الهوية وجعله ذكر خاصة الخاصة وهو أبو حامد الغزاليّ وغيره. وأما الأكابر فيلتزمون لا إله إلاً الله على غير ما يعطيه النظر العقلي أي الوجود هو الله والعدم منفي الذات والعين بالنفي الذاتي والثابت ثابت الذات والعين بالإثبات الذاتي وتوجه النفي على النكرة وهو إله، وتوجه الإثبات على المعرفة وهو الله، وإنما توجه النفي على النكرة وهو إله لأن تحتها كل شيء وما من شيء إلاً وله نصيب في الألوهة يدعيه فلهذا توجه عليه النفي لأن الإله من لا يتعين له نصيب فله الأنصباء كلها، ولما عرف أن الإله حاز الأنصباء كلها عرفوا أنه مسمّى الله وكل شيء له نصيب فهو اسم من أسماء مسمّى الله فالكل أسماؤه، فكل اسم دليل على الهوية بل هو عينها ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] وهذا حكم كل اسم تدعونه ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨] فله أسماء العالم كله، فالعالم كله في المرتبة الحسنى، فالأمر تنكير في عين تعريف ونكرة في عين معرفة وتعريف في عين تنكير ومعرفة في عين نكرة فما ثم إلاً منكور ومعروف.

وأما حروف هذا الهجير فالألف المزادة وهي كل ألف لها موجب يوجب الزيادة فيها،

والزيادة ظهور مثل على صورتها فتكون ألفان والألف أبداً ساكنة فالظاهر أحد الألفين أبداً: إما عبد، وإما رب، وإما حق، وإما خلق. والموجب له في موطن رتبة التقدم وفي موطن رتبة التأخر وهما موجبان الواحد ما يدل على الاتحاد وهو التضعيف، والآخر ما يدل على الباعث للتكوين أو الإعدام وهو التحقيق المعبر عنه بالمهمزة، وقد يكون هذان الموجبان في مقام النزول مثل: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣] و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] و﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] وقد يكون في مقام رفيع الدرجات و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] مثل: ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٥] وأولياء أولئك وأتوا الكتاب. وقد يكون الموجب في مقام البرزخ وهو الوسط مثل: ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] و﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم﴾ [الحشر: ١٣] فإن كان الموجب اسم فاعل رباً كان الموجب أو خلقاً، وإن كان الموجب خلقاً كان الموجب بفتح الجيم حقاً فأثر ظاهر من خلق في حق ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وأثر ظاهر من حق في خلق ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وذلك إما عن باعث وإما عن اتحاد، والإيجاد إبداله الاسم الآخر ليس له في الأوّل قدم، والباعث يكون له الأوّل والآخر، فالباعث حق وخلق والإيجاد حق وخلق، إلاّ أنه لا يكون حقاً مفرداً إلاّ بخلق كالمعرفة بالله من حيث كونه إلهاً لا يكون إلاّ بخلق لا بدّ من ذلك فهي حق في خلق والخلق متأخر حيث عقل أبداً.

وأما الألف الطبيعية في مثل قال وسار فهو الأمر الواحد الذي يجمع الطبيعة فيظهر العالم ويفرّقها فيفنى العالم وهو الأصل المفرق المجمع، وكل ألف مزادة فإنما تظهر على حكم التشبيه بها، والموجب لهذا الأمر المفرق المجمع إنما هو الفتح وهو الأصل، وقد يكون الفتح بما يسرّ وهو الرحمة، وبما يسوء وهو فتح العذاب وهو على نوعين: فتح عذاب فيه رحمة، وفتح عذاب لا يشوبه رحمة إلاّ عندنا فإنه ما ثم عذاب لا يشوبه رحمة قط فإن الرحمة وسعت كل شيء. وأما الميل الطبيعي وهو مثل الألف التي يسمّى واو علة وياء علة فهو ميلها إلى جانب الحق مثل قولوا ومثل فيه. وأما الهمزة المكسورة في هذا الذكر فهو باعث الحق إلى النزول إلى السماء الدنيا وإلى كل ما يكون لجانب الخلق هذا في باعث الحق. وأما إذا كان باعث الخلق فهو أن نظره في نفسه يبعثه على التعمّل في تحصيل علمه بربه، فلذلك كانت الهمزة مكسورة في النفي وفي كلمة الإثبات والمنفي مكسور أبداً. وأما ألف الوصل فهو وصل علم بتمييز مع وجود تشبيه إن لم يكن هناك وجود تشبيه فهي ألف قطع لا ألف وصل. وأما اللام فهي جبروتية لأنها من الوسط من ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥] والهاء ملكوتية فإنها من الصدر من أوّل مجرى النفس وهي أصلية في هاتين الكلمتين في المنفي والمثبت، وما ثمّ إلاّ هويتان: هوية خلق وهي المنفية في دعواها ما ليس لها، وهوية حق وهي الثابتة فإنها لم تزل فإن العبد من حيث عينه هالك. وإذا كان الحق هويته فليس هو ففي كل وجه ما هو هو فتنتفي هوية الحق إذا لبست الخلق ولا تنفي هوية الخلق إذا لبست الحق، فعلى كل حال ما ثم إلاّ حق ثابت غير منفي.

وأما الكلمات الأربع أداة نفي على منفي وأداة إثبات على ثابت، وبقي لمن يضاف العمل هل للأداة أو للذي دخلت عليه؟ فإن كان الحكم لمن دخلت عليه فإنه الذي يطلبها فإنه ما انتفى بها وإنما جاءت الأداة معرفة للسامع بأن الذي دخلت عليه منفي أو ثابت، وما عملت الأداة فيمن دخلت عليه إلاّ تعيين مرتبة العلو أو السفل أو ما بينهما، فبالأداة تظهر المراتب وبمن دخلت عليه تتعين الأداة الخاصة من غيرها من الأدوات، كما ارتبط وجود الخلق بالحق، وارتبط وجود العلم القديم بالمحدث، فهذا بعض ما ينتجه لا إله إلاّ الله من العلم الإلهي، وله ستة وثلاثون وجهاً يعطي كل وجه ما لا يعطيه الوجه الآخر، قد ذكرنا هذه الوجوه في باب النفس بفتح الفاء.

واعلم أنه ما قسمنا الحروف تقسيم من يعقل على طريق التجوّز بل ذلك على الحقيقة، فإنّ الحروف عندنا وعند أهل الكشف والإيمان حروف اللفظ، وحروف الرقم وحروف التخيّل أمم من جملة الأمم لصورها أرواح مدبرة فهي حية ناطقة تسبح الله بحمده طائعة ربها، فمنها ما يلحق بعالم الجبروت، ومنها ما يلحق بعالم الملكوت، ومنها ما يلحق بعالم الملك، فما الحروف عندنا كما هي عند أهل الحجاب الذين أعماهم الله وجعل على بصرهم غشاوة وهم ينظرون كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فإذا قال العبد: لا إله إلاّ الله كان خلاقاً لهذه الكلمات فتسبح خالقها ويحق لها ذلك والحق منزّه بالأصالة لا بتنزيه المنزّه، وقد نسب تعالىٰ الخلق لعبده ووصف نفسه بالأحسن فيه في قوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فيعود تسبيح هذه الكلمة وكل كلمة على قائلها، فإذا كان العبد من أهل الكشف لما ذكرناه هو الذي نقل عنه من الرجال أنه قال سبحاني ولا علم لمن كفره بذلك [مخلع البسيط]:

فكُنْ مَعَ القَوْم حيث كانوا ... ولا تَكُنْ دونهم فتَشْقَى
فإنّما القَوْمُ أهلُ كَشْفٍ ... أراهُمُ الله الحَقَّ حَقًّا
فهم عبادُ الإلٰهِ صِدْقاً ... رَقَوْا من العِلْم كُلَّ مَرْقَى

وقد تقدم في الحروف في هذا الكتاب كلام مختصر شاف في الباب الثاني من هذا الكتاب في صغارها وكبارها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والستون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله الله أكبر

[نظم: البسيط]

الله أكْبَرُ لا أبْغي مُفَاضَلَةً ... فإنَّ أفْعَلَ تُعْطيها وتَطْلُبُها
وقد تصحُّ إذا جاءت عقائدُنا ... وأنه بوجود العَيْن يُذْهِبُها
إلاّ إذا كان بالآيات يطلُبُنا ... فإنّ أفْعَلَ تأتي وهي تَحْجُبُها

وردت السنة بلفظ هذا الذكر ولا سيما في الصلاة والأذان لها والإقامة وعقيب الصلاة

المفروضة عند النوم وفي مواضع كثيرة، وجاء بلفظة «أفعل»، وهذه لفظة «أفعل» يأتي في الأغلب بطريق المفاضلة، وفي أماكن لا تقتضي المفاضلة بحسب ما يقتضيه دليل الوقت، فيعقل منها عند ذلك ما يعقل، فإذا كانت هجيراً لأحد فإن كان المثابر عليها يذكر بها ربّه بالمفاضلة كان الكشف له من عند الله بحسب ما نوى فلا يرى إلاّ مفاضلة وهو كشف معين سأذكره في هذا الباب، وإن كان الذاكر به ربه يستحيل عنده المفاضلة كان الكشف له من عند الله بحسب ما نوى فلا يرى مفاضلة وهو كشف معين سأذكره في هذا الباب إن شاء الله، وإن كان الذاكر به ربه من حيث هو ذكر مشروع لا تخطر له فيه المفاضلة ولا ترك المفاضلة نتج له ما هو الأمر عليه من غير تقييد فيكون ما حصل لمن نوى المفاضلة، ومن لم ينوها تحت علم هذا الذاكر الثالث وهذه الهجيرات هي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] فالهجير هو الكثرة من الذكر دائماً فإذا تقرّر هذا فلنقل:

فصل فيمن ذكر هذه اللفظة بطريق المفاضلة: اعلم أن المفاضلة في هذا الذكر وأمثاله على قسمين: قسم يرجع الفاضل فيه والمفضول إلى الحق. وقسم يرجع الفاضل فيه إلى الحق والمفضول إلى الخلق. فلنبدأ بما يرجع إلى الحق وهو على قسمين: قسم يرجع إلى هذا الاسم من حيث لفظه، وقسم يرجع إلى غير لفظه من الأسماء، فالذي يرجع إلى لفظه كالكبير في قوله تعالىٰ: إنه ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] وكالمتكبر في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] فيكون الكبير أفضل من المتكبر لأن الكبير لنفسه هو كبير والمتكبر تعمّل في حصول الكبرياء، وما هو بالذات أفضل ممّا هو بالتعمّل، فإن التعمّل اكتساب، وإنما كان التكبر من صفات الحق لما كان من نزوله في الصفات إلى ما يعتقده أصحاب النظر وأكثر الخلق أنه صفة المخلوق، فلما علم ذلك منهم وهو سبحانه قد وصف لهم نفسه بتلك الصفات حتى طمعوا فيه وضلّ بها قوم عن طريق الهدى كما اهتدى بها قوم في طرق الحيرة قام لهم تعالىٰ في صفة التكبّر عن ذلك النزول ليعلمهم أنه وإن اشترك معهم في الاسمية فإن نسبتها إليه تعالىٰ ليست كنسبتها إلى المخلوق فيكون مثل هذا تكبّراً ولا يحتاج الكبير إلى هذا كله فتبين لك المفاضلة بين الكبير والمتكبر.

وأما المفاضلة التي لهذه الكلمة أعني قولك: الله أكبر فهي كلمة مفاضلة على كل اسم من الأسماء الإلهية بما يعطيه فهم الخلق فيه أعني في كل اسم اسم، لأن فهم العالم لا بدّ أن يكون يقصر عمّا هو الأمر عليه ولا يتمكن أن يقبل توصيل ذلك لو تمكن أن يوصله الحق إليك، فنحن لا قوة لنا على التحصيل ولا قوة في نفس الأمر على التوصيل فلا بدّ من قصور الفهم، فتدل لفظة الله أكبر من كل ما أعطاه فهم من نسبة الكبرياء إلى الله بأي اسم كان من الأسماء الإلهية بهذا اللفظ وغيره، فإن الله يقال فيه إنه أعظم وأكرم وأجلّ وأعلى وأرحم وأسرع وأحسن وأحكم وأمثال ذلك ممّا لا يحصى كثرة، ألا ترى إلى المشركين لما قالوا: أعل هبل أعل هبل وهبل اسم صنم كان يعبد في الجاهلية وهو الحجر الذي يطأه الناس في العتبة السفلى في باب بني شيبة هو مكبوب على وجهه فقال النبيّ ﷺ لأصحابه لما سمع

المشركين يقولون ذلك قولوا: الله أعلى وأجل يعني بالمفاضلة عندهم في اعتقادهم فساقه في معرض الحجة عليهم، لأن النبي ﷺ ما دعاهم إلاَّ إلى الإيمان بالله الذي هو عندهم وفي اعتقادهم أعلى وأجل من هبل ومن سائر الآلهة بما قالوه عن نفوسهم فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فاتخذوهم حجبة، فالله أعلى وأجل من هبل عندهم، فكان ذلك تنبيهاً من رسول الله ﷺ للمشركين فإنه في نفس الأمر ليس هبل بإله حتى يكون الله أعلى وأجل في الألوهة من هبل، ولو قالها رسول الله ﷺ على طريق المفاضلة في نفس الأمر لكان تقريراً منه ﷺ لألوهة هبل، إلاَّ أن الله أعلى منه وأجل في الألوهة وهذا محال على النبيّ ﷺ وعلى كل عالم أن يعتقده لأنه الجهل المحض على كل وجه، فهذه أيضاً مفاضلة مقرّرة شرعية في قولك: الله أكبر، فصاحب هذا الهجير بطريق المفاضلة يطالعه الحق بسريان هويته في جميع الخلق مثل قوله في الصحيح: «**إِنَّ الله قَالَ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ**» وقوله: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ**» إلى غير ذلك، وقوله: «**فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ**» ولكن نسبة القول إليه دون نسبة القول إليه بلسان عبده أعلى من نسبة القول إليه بلسان الخلق فهو أكبر في ذاته من كبريائه في خلقه فاعلم ذلك، فنقول عند ذلك: الله أكبر مفاضلة إذ لم يخرج عنه كأنه يقول: ذكرك نفسك أعظم وأكبر من ذكري إياك وإن ذكرتك بك فلا بدّ للنسبة من أثر لأن غاية شرف ذكري إياك أن أذكرك بك فتكون أنت الذاكر نفسك بلساني ونسبة الذكر إليك أكبر من نسبته إليّ ولو كنت بك.

فصل في الذكر لا على طريق المفاضلة: وينقسم أيضاً الذاكرون به هنا على هذا الوجه إلى قسمين: طائفة تمنع المفاضلة في الذكر لأنه عين كل ذاكر من حيث ما هو ذاكر فلا ترى ذاكراً إلاَّ الله، وهو من حيث هويته وعينه لا يقبل المفاضلة لأن الواحد لا يفضل نفسه فينتج له هذا الذكر على هذا الحد كشف هذا ذوقاً فيتبين له أنه الحق عينه، وطائفة أخرى وهم القسم الآخر لا يرون التفاضل إلاَّ مع وجود المناسبة، ولا مناسبة بين الله وبين خلقه، فذكر الله نفسه ذكر، وذكر العبد ربه ذكر كل على حقيقة، لا يقال هذا الذكر أفضل ولا أكبر من هذا بل هو الذكر الكبير من غير مفاضلة لله تعالىٰ وهو في حق العبد المذكور كبير عند العبد لا أكبر، فإن العبد عبد لذاته والرب رب لذاته، فلا يحجبنك ما تراه من تداخل الأوصاف فإن ذلك وإن كان حقيقة فكل حقيقة على ما هي عليه ما لها أثر في الأخرى يخرجها عمّا تقتضيه ذاتها، فالحقائق لا تتبدل ولو تبدلت لارتفع العلم من الله ومن الخلق، فإذا ذكر من هذه صفته أنتج له ذلك كشفاً وذوقاً أن الأمر كما نواه وقال به.

فصل في الذكر به من حيث ما هو ذكر مشروع: اعلم أن الذاكر به على ما ذكرنا من كونه ذكراً مشروعاً ينقسم إلى قسمين: طائفة تذكره على أنه مشروع للخلق ويقولون بأن الله تعالىٰ لما أوجد العالم ما خلقهم إلاَّ ليعبدوه ويسبحوه فما من شيء إلاَّ وهو يسبح بحمده ولكن لا نفقه تسبيحه، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فخلق العالم لعبادته، فهؤلاء إذا ذكروا الله ذكروه من حيث إن الله شرع لهم كيف يذكرونه ولا

يعلمون ما تحت ذلك الذكر المشروع عند الله وإن علموه في اللسان فينتج لهم هذا الذكر لماذا شرعه الحق في العالم بهذا القول الخاص دون غيره أيّ ذكر كان، والقسم الآخر يعتقد أن العالم ما اكتسب من الحق إلاّ الوجود وليس الوجود غير الحق فما أكسبهم سوى هويته فهو الوجود بصور الممكنات وما يذكره إلاّ موجود وما ثم إلاّ هو، فما شرع الذكر إلاّ لنفسه لا لغيره فإن الغير ما هو ثم وهو عالم بما شرع فيفتح لصورة الممكن ما ذكرناه كشفاً هذا الذكر وهو قولهم: لا يذكر الله إلاّ الله، ولا يرى الله إلاّ الله، فالمفيد والمستفيد عين واحدة، فهو ذاكر من حيث إنه قابل، وهو مذكور من حيث إنه عين مقصودة بالذكر والعالم على أصله في العدم والحكم له فيما ظهر من وجود الحق، فما ثم إلاّ الحق مجملاً ومفصلاً لأن المحدث إذا قرنته بالقديم لم يبق له أثر، وإن بقي له عين فإن العين بلا أثر ما هي معتبرة، ولهذا قلنا فيمن دلّ على معرفة الواجب لنفسه لا يتمكن له أن يثبت له أثراً حتى يعلم أن هذه الآثار الكائنة في العالم تحتاج إلى مستند لإمكانها، فعند ذلك يقوم لهم البرهان على استنادها لواجب الوجود لنفسه وذلك كمال العلم فإن الكمال للمرتبة أي بالمرتبة، والتمام بما ترجع إليه في نفسها أعني التام، فينتج لهذا القسم هذا الذكر ما قرّرناه من أنه يستحيل أن يذكره إلاّ هو، أو يسمع ذكره إلاّ هو، أو يكون المذكور إلاّ هو، ومن ذكرت به فهو المذكور لا أنت ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١] حتى ذكر بربه فكان مذكوراً بربه لا به، وسيرد في باب الأسماء الإلهية ما يشفي في هذا النوع إن شاء الله تعالىٰ من هذا الكتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والستون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره ومنزله سبحان الله

[نظم: البسيط]

إنّ الوُجُودَ على التَّسْبيح فِطْرَتُهُ	فَهْوَ المُنَزَّهُ عن مِثْلٍ وتَشْبِيهِ
وثم في ثاني حال جاء يُعَلِّمُنا	بأنه رُبَّ تشبيهٍ وتنزيهِ
له النَّقيضان فهو الكَوْنُ أجْمَعُهُ	يدري بذلك ذو فِكْرٍ وتَنْبِيهِ

قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقد ورد الأمر بالتسبيح في القرآن في مواضع كثيرة، ولكل موضع حكم ليس للآخر، وتنقسم الطوائف في تسبيح الحق بحسب كل آية وردت في القرآن في التسبيح لولا التطويل أوردناها وتكلمنا على الذاكر بها.

اعلم أن هذا الذكر ينتج للذاكر به ما قاله أبو العباس بن العريف الصنهاجي في محاسن المجالس لما ذكر حال العابد والمريد والعارف قال: والحق وراء ذلك كله لا بدّ من ذلك، وإن كان مع ذلك كله أو عين ذلك كله فهو مع ذلك كله بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: ٤] وهو عين ذلك كله بقوله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] أو لم يكف بربك وهو من وراء جميع ما ذكره محيط بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠] وبقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤] فمن أراد أن يسبح الحق في هجيره فليسبحه بمعنى قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي بالثناء الذي أثنى به على نفسه فإنه ما أضافه إلاّ الله، هكذا هو تسبيح كل ما سوانا فإنا لا نفقه تسبيحهم إلاّ إذا أعلمنا الله به وهذا ضد ما تعطيه حقيقة التسبيح، بل هذا تسبيح عن التسبيح مثل قولهم: التوبة من التوبة، فإن التسبيح تنزيه ولا ينزه إلاّ عن كل نعت محدث يتصف به المخلوق، وما نزل إلينا من الله نعت في كتاب ولا سنّة إلاّ وهو شرب المخلوق وجعل ذلك تعالىٰ حمد نفسه وذكر عن كل شيء أنه يسبح بحمده أي بالثناء الذي أنزله من عنده والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً، فمن سبحه عن هذه المحامد فما سبحه بحمده بل أكذبه، وإنما سبحه بعقله ودليله في زعمه، والجمع بين الأمرين أن تسبحه بحمده وهو التنزيه عن التنزيه وذلك عين الاشتراك في النسبة كعدم العدم الذي هو وجود وإن أرادوا به المبالغة في التنزيه فذلك ليس بحمد الله بل حمد الله نفسه بما ذكرناه، فإذا سبحه بحمده وهو الإقرار بما ورد من عنده ممّا أثنى به على نفسه أو ممّا أنزله عليك في قلبك وجاء به إليك في وجودك ممّا لم ينقل إليك واجعل ذلك التسبيح كالصورة، واجعل قوله: والحق وراء ذلك كله كالروح التي لا تشاهد عينها لتلك الصورة، ويكفيك من العلم بها مشاهدتك أثرها فإنك تعلم أن وراء تلك الصورة أمراً آخر هو روحها، كذلك تعلم أن الحق وراء كل ثناء لك فيه شرب، ومن المحال أن يكون عندك ثناء على الله معين في الدنيا والآخرة لا يكون لك فيه شرب فإنه لا يصحّ لك أن تثني عليه بما لا تعقله، ومهما عقلت شيئاً أو علمته كان صفتك ولا بدّ، فلا يصحّ في الكون على ما تعطيه الحقائق التسبيح الذي يتوهمه علماء الرسوم، إنما يصحّ التسبيح عن التسبيح ما دام رب وعبد ولا يزال عبد ورب فلا يزال الأمر هكذا فسبّح بعد ذلك أو لا تسبّح، فأنت مسبح شئت أو أبيت وعلمت أم جهلت، ولولا ما هو الأمر على هذا في نفسه ما صحّ أن يظهر في العالم عين شرك ولا مشرك، وقد ظهر في الوجود المشرك والشرك فلا بدّ له من مستند إلهيّ عنه ظهر هذا الحكم، وليس إلاّ ما ذكرنا من أن العبد له شرب في كل ما يسبّح به ربه من المحامد وأعلى المحامد بلا خلاف عقلاً وشرعاً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ثم تمّم الآية لنعرف المقصود ويصحّ أول الآية فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فلو لم يتمّم لكان أول الآية يؤذن بأنا لسنا بعبيد وليس هو لنا بإله فلا بدّ من رابط وليس إلاّ الاشتراك، إلاّ أنه عين الأصل في ذلك ونحن فيه كنسبة الفرع إلى الأصل والولد إلى الوالد وإن كان على صورته فليس هو عينه فارتبط به فلا ينسب إلاّ إليه لأن له عليه ولادة، وغيره من الناس من أبناء جنسه ما له عليه ولادة، فلا يقال إنه ابنه ونسبتنا من وجه مثل هذه النسبة لأن الوجود له وهو الذي استفاده منه المحدث، إلاّ أن النسبة التي ورد بها السمع نسبة العبد إلى السيد، والمخلوق إلى الخالق، والرب إلى المربوب، والمقدور إلى القادر، والمصنوع إلى الصانع، فإن نسبة البنوة أبعد النسب لتقلبه في الأطوار بما ليس للأب فيه

تعمّل، وإنما له إلقاء الماء في الرحم عن قصد بنوة وعن لا قصد فبعدت النسبة لذلك كانت النطفة مخلقة وغير مخلقة، ولو كان الأمر فيها للأب لكانت تامة أبداً، ألا ترى إلى النسبة القريبة في خلق عيسىٰ الطير بيده ثم نفخ فأتم خلقه فقربت نسبة الخلق إليه، وكذلك صنائع المخلوقين كلهم، فالبنوة من الأبوّة أبعد نسبة من جميع الأمور وهي أصحّ النسب، وما كفر من قال: إن المسيح ابن الله إلاّ لاقتصاره، وكذلك كفر من قال: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] لاقتصارهم لأنهم ذكروا نسبة تعمّ كل ما سوى الله إن كانت صحيحة، فإن لم تكن في نفس الأمر صحيحة فهم والعالم فيها على السواء. ولما كان الأمر النسبي في تولد العالم عن الله وأن وجوده فرع عن الوجود الآلي نبّه تعريضاً في تصريح لمن فهم الإشارة وقسم العبارة وذلك بقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [الزمر: ٤] فجوز ذلك وإنما نفى تعلق الإرادة باتخاذ الولد والإرادة لا تتعلق إلاّ بمعدوم والأمر وجود فلا تعلق للإرادة، فإن المقصود حكم البنوة لا عين الشخص المسمّى ابناً، ثم تمّم فقال: ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] فتدبّر هذه الآية إلى تمامها. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي ما كنا فاعلين أن نتخذه من غيرنا لأنه ابن مريم المدعو بالابن، ومن جعل إن شرطاً لا نفياً يكون معنى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أن نتخذ لهواً نتخذه من عندنا لا من عندكم فإنه ما عندكم ينفد وما عند الله باق، وما من شيء إلاّ عندنا خزائنه، فما عندنا هو عند الله ونحن من عند الله، وسيأتي هذا الهجير فإنه حال بعض الأقطاب فاعترف الحق بما أنكر ولذلك يكون الإنكار اعترافاً بأن دعوى المدعي باطلة فيلزمه اليمين ما لم تقم بينة.

وبعد أن حصل من البيان ما حصل فلا بدّ أن نبين ما بقي في المسألة بالإجمال وهو أن التسبيح إذا سبح به المسبح أعني بلفظه الخاص به الدال عليه فلا بدّ أن يقيده باسم ما من الأسماء الإلهية الظاهرة أو المضمرة والمضافة والمطلقة وهو أن يقول: سبحان الله أو سبحان الرب أو العالم فهذا معنى الاسم الظاهر. وأما الاسم المضمر فمثل قونه: سبحانه وسبحانك. وأما المضاف فقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠] وأما المطلق ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] فأي اسم نسبحه من أسماء الله تعالىٰ وبأي حال نربطه فإن النتيجة التي تحصل لهذا الذاكر مناسبة لذلك الاسم ومرتبطة بتلك الحال، ولا يظهر له صورة في الذاكر إلاّ بهذه المناسبة الخاصة، فلا يتعين في هذا الذاكر لنا أمر نقتصر عليه إلاّ ما ذكرناه ممّا يعم حكمه فإن النتائج تختلف، فإن المحامد لا تقف عند حدّ والمسبح لا يسبحه إلاّ بحمده، وتتبعنا الكتاب والسنة في طلب الأسماء فوجدناها تدور على الله والرب المضاف والاسم الناقص والاسم المضمر كالهاء، والملك والعلي، فالله قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧] والرب قوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ [الصافات: ١٨٠] والاسم الناقص: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] والمضمر قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ [الأنعام: ١٠٠] والملك مثل الذي ورد في السنة: **«سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ»** والعلي كما ورد في السنة: **«سُبْحَانَ العَلِيِّ**

الأَعْلَى» وقد ورد من غير تقييد في السنة مثل قوله: «**سُبُّوح**» وهذا ذكر المذكور ونتيجته أعظم النتائج لأنه كناية عن عين المسبح بالتسبيح، فاسمه هنا عينه، وهذا أكمل تسبيح العارفين لأنه غاب عن الاسم فيه بالمسمى [المنسرح]:

فاسْلُكْ مع القَوْمِ أيَّةَ سَلَكُوا ... إلاَّ إذا ما تَرَاهُمُ هَلَكُوا
وهُلْكُهُمْ أنْ تُرَى شَرِيعَتُهُم ... بِمَعْزِلٍ عنهم إذا سَلَكُوا
فاتْرُكْهُمُ لا تَقُلْ بقَوْلِهِمُ ... تَأَسِّياً بالإلٰه إذ تَرَكُوا

فإن جماعة من العقلاء جعلوا الشريعة بمعزل فيما زعموا، والشريعة أبداً لا تكون بمعزل فإنها تعمّ قول كل قائل، واعتقاد كل معتقد، ومدلول كل دليل، لأنها عن الله المتكلم فيه قد نزلت، وإنما قلنا في هذه الطائفة المعينة إنها جعلت الشريعة بمعزل مع كونها قالت ببعض ما جاءت به الشريعة، فما أخذت من الشريعة إلاَّ ما وافق نظرها، وما عدا ذلك رمت به أو جعلته حطاباً للعامة التي لا تفقه هذا، إذا عرفت واعتقدت أن ذلك من عند الله لا من نفس الرسول وهو قوله تعالىٰ الذي قال عنهم على طريق الذمّ لهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] فهذا معنى قولي إنهم جعلوا الشرع بمعزل، وإن كان قد جاء الشرع بما هم عليه فما أخذوا منه ما أخذوا من كون الشرع جاء به وإنما قالوا به للموافقة احتجاجاً وطائفتنا لا ترمي من الشريعة شيئاً بل تترك نظرها وحكم عقلها بعد ثبوت الشرع لحكم ما يأتي به الشرع إليها ويقضي به فهم سادات العالم [مجزوء الخفيف]:

إنَّما القَوْمُ سَادةٌ ... ومع المَجْدِ يملكُونْ
أيَّةَ يسلُكون كُنْ ... معهم حيث يَسْلُكُونْ
إنّما القولُ منه كُنْ ... للذي شاء أن يَكُونْ
كُلُّ شيء يريده الـ ... حقّ مع فعلهم يَهُونْ
والذي لا يُريدُه ... وهو سَهْلٌ فلا يَهُونْ

واعلم أن الله تعالىٰ لما جعل بين الأشياء مناسبات ليربط العالم بعضه ببعض ولولا ذلك لم يلتئم ولم يظهر له وجود أصلاً، وأصل ذلك المناسبة التي بيننا وبينه تعالىٰ لولاها ما وجدنا ولا قبلنا التخلّق بالأسماء الإلهية فما من حضرة له تعالىٰ إلاَّ ولنا فيها قدم، ولنا إليها طريق أمم، وسأورد ذلك إن شاء الله في باب الأسماء الإلهية من هذا الكتاب، وأعظم الحضرات الإلهية في هذا الباب أنه لا يشبهه شيء وما ثم إلاَّ نحن ومن لم يشبهك فلم تشبهه، فكما انتفت المثلية عنه انتفت المثلية عن العالم وهو كل ما سواه بالمجموع، فإن العالم إنسان واحد كبير لا يماثل أي لا مثل له، ولهذا هو كل مبدع على غير مثال فلا يخلو أهل الله إما أن يجعلوا الحق عين العالم فلا يماثله شيء لأنه ليس ثمّ إلاَّ الله والعالم صور تجليه ليس غيره فهو له، وإن كان العالم وجوداً آخر فما ثمّ إلاَّ الله، ومسمّى العالم فلا مثل لله إلاَّ أن يكون إله

ولا إله إلاَّ الله فلا مثل لله ولا مثل للعالم إلاَّ أن يكون عالم ولا عالم إلاَّ هذا العالم وهو الممكنات فلا مثل للعالم، فصحّت المناسبة من وجهين: من نفي المثلية ومن قبوله للأسماء والحضرات الإلهية، وكل ما في العالم من المماثلة بعضه ببعض فإنه لا يقدح في نفي المماثلة، فإن تفاصيل العالم وأجزاءه المتماثلة والمختلفة والمتضادّة كالأسماء لله المختلفة والمتماثلة والمتضادّة كالعليم والعالم والعلام هذه متماثلة. وهو أيضاً الضار النافع فهذه المتضادّة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] فهذه المختلفة ومع هذا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فهذه الآية له ولنا من أجل الكاف والاشتراك يؤذن بالتناسب، وإذا كان لا بدّ من التناسب فنظرنا أي شيء من المناسبات بين الحج والتسبيح حتى شبهه به تعالىٰ فقلنا: إن التسبيح هو الذكر العامّ في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال ﷺ: «**إِنَّمَا شُرِعَتِ المَنَاسِكُ لإِقَامَةِ ذِكْرِ الله**» لاختلاف العالم لأن ذكر الله كله تسبيح بحمده أي بما أثنى على نفسه، كما جعل التهليل مماثلاً لعتق الرقاب النفيسة، والعتق إنما هو أمر يخرج العبد من العبودية، ولا يخرج من العبودية إلاَّ أن يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه فيكون حقاً كله فناسب قوله: لا إله إلاَّ الله، وقد يكون عتق الرقاب من الألوهية بالعبودة، فإن الشخص يتقيد بالربوبية فيطلب منه ما ليس بيده منه شيء وإنما ذلك بيد الله فيحار فيعتقه الله من هذه النسبة إليه بما أظهر فيه عند المعتقد فيه ذلك من الجبر والافتقار وسلب هذه الأوصاف فعاد حرّاً في عبوديته فلم يكن له قدم في الربوبية فاستراح، فهذا عتق أيضاً شريف حيث تخلص لنفسه من تعلّق الغير به، كما خلص بالتهليل الألوهة لله من رق الدعوى بالآلهة المتخذة وهو قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ كما هو الأمر في نفسه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فجعل ﷺ بوحيه المنزل وكشفه الممثل التهليل مناسباً لعتق الرقاب، كما جعل التحميد مناسباً للحمل في سبيل الله وهو باب النعم، والحمد لله شكراً لما يكون منه كما يكون من الأسباب للمسببات شكر بما نراه من آثارها فيها كما قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] وسيرد في هجير الحمد لله ما يشفي الغليل إن شاء الله تعالىٰ. وكذلك من كبر ناسب بين التكبير وبين عظم ما لصاحبه من غير تعيين، وما قرنه بشيء معين مثل ما فعل في التسبيح والتحميد والتهليل فقيد هناك واطلق هنا ليشمل الذكر التقييد والإطلاق، وقد ورد في هذا خبر حسن عن رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ مَنْ سَبَّحَ الله مائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيِّ وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠] وقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] وقرن ذلك بالمائة لأنه ليس لنا دار نسكنها إلاَّ الجنة أو النار والجنة مائة درجة فمن أكملها مائة فقد حاز من كل درجة حظاً وافراً بحسب ذكره بما يناسب ذلك الذكر من تلك الدرجات» وكذلك دركات النار مائة درك تقابل درج الجنان له من جانب النار بهذا الذكر التنزيه من كل درك وله من الجنان الإنعام من كل درج فاعلم ذلك.

ثم نرجع إلى سرد الحديث وهو ما حدثنا به زاهر بن رستم الأصفهانيّ عن الكروحي

عن الثلاثة: محمود الأزدي والترياقي والغورجي كلهم عن الجراجي عن المحبوبي عن أبي عيسىٰ الترمذيّ قال: حدثنا محمد بن رزين الواسطي قال: حدثنا أبو سفيان الحموي عن الضحاك بن حمزة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَبَّحَ الله مائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَجَّ مائَةَ حَجَّةٍ**» يعني مقبولة «**وَمَنْ حَمِدَ الله مِائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ حَمَلَ عَلَى مائَةِ فَرَسٍ فِي سَبيلِ الله** »أَوْ قَالَ «**غَزَا مِائَةَ غَزْوَةٍ، وَمَنْ هَلَّلَ الله مِائَةً بِالغَدَاةِ وَمِائَةً بِالعَشِيِّ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ مِائَةَ رَقَبَةٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَمَنْ كَبَّرَ الله مائَةً بِالغَدَاةِ ومائَةً بِالعَشِيِّ لَمْ يَأْتِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ أَحَدٌ بِأَكْثَرَ مِمَّا أَتَى إِلاَّ مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَى ما قَالَ**» قال أبو عيسىٰ: هذا حديث حسن غريب.

ولما كان التسبيح بحمده قربة به فقال في الصحيح عن رسول الله ﷺ في سبحان الله والحمد لله «**إِنَّهُمَا يَمْلآنِ أَوْ يَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**» وأراد قوله: سبحان الله وبحمده، فإن الحمد لله تملأ الميزان فإنها آخر ما يجعل في الميزان فبها يمتلىء كما قال، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين. فالحمد لله له التأخير في الأمور لأن له الساقة، ولا إله إلاَّ الله له التقدمة، وسبحان الله له الميسرة، والله أكبر له الميمنة والقلب له لا حول ولا قوّة إلاَّ بالله، فأثبت العبد والرب، فاستصحاب الاسم الله لكل تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل هو معطي القوّة لذلك التسبيح أو التهليل أو التحميد والتكبير لأنه لفظ يمكن أن يطلق إذا أطلق، ويقيد بغير الله في الإضافة بأن يسبح شخصاً ليس الله ويكبره ويحمده ويهلل ما ليس بإله كقوم فرعون فلا قوّة لهذا الذكر على أمثاله إلاَّ بالله، فإنه ما يتجلى لك بشيء ليس هو الله فيقول لك: أنا الله، فتقول له: أنت بالله إلاَّ انعدم من ساعته إذا لم يكن الله، وما رأيت من شهد هذا المشهد من رجال الله إلاَّ رجل واحد من أهل قرطبة كان مؤذناً بالحرم المكيّ يقال له موسىٰ بن محمد القباب كان من ساداتهم وهو تلميذ أبي الحسن بن خرازم بفاس فلا قوّة على الثبوت إلاَّ بالله حتى لو قالها بكلام الحق على لسان ذلك المتجلي، ويقول له صاحب الكشف: أنت بالله ما انعدم وثبت، فهذا بعض ما ينتجه هذا الذكر والحمد لله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والستون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله الحمد لله

[نظم: البسيط]

الـحَـمْـدُ لله فـي قَـيْـدٍ وإطْـلاقِ ... مثل الفُروع التي قامتْ على سَاقِ

يَـمُـدُّهـا بـالـذي تُـبْـدِيـهِ مـن ثَـمَـرٍ ... لشَاهِدِ الحِسّ في أنفاسِ أعْراقِ

ونـحـن فَـرْعٌ لـمـن أبْـدَى حـقـائِـقَـنـا ... ذاتٌ بـذاتٍ وأخـلاقٌ بـأخـلاقِ

قال الله تعالىٰ آمراً: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ٢٥] اعلم أن الحمد والمحامد هي عواقب الثناء، ولهذا يكون آخراً في الأمور كما ورد: «**أَنَّ آخِرَ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ**» وقوله ﷺ في الحمد لله: «**إِنَّهَا تَمْلأُ المِيزَانَ**» أي هي آخر ما يجعل في الميزان، وذلك لأن

التحميد يأتي عقيب الأمور، ففي السرّاء يقال: الحمد لله المنعم المفضل، وفي الضرّاء يقال: الحمد لله على كل حال، والحمد هو الثناء على الله وهو على قسمين: ثناء عليه بما هو له كالثناء بالتسبيح والتكبير والتهليل، وثناء عليه بما يكون منه وهو الشكر على ما أسبغ من الآلاء والنعم وله العواقب، فإن مرجع الحمد ليس إلاَّ إلى الله فإنه المثني على العبد والمثنى عليه وهو قوله ﷺ: «أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ عَلَى نَفْسِكَ» وهو الذي أثنى به العبد عليه فردّ الثناء له من كونه مثنياً اسم فاعل، ومن كونه مثنياً عليه اسم مفعول، فعاقبة الحمد في الأمرين له تعالىٰ. وتقسيم آخر وهو أن الحمد يرد من الله مطلقاً ومقيداً في اللفظ وإن كان مقيداً بالحال فإنه لا يصحّ في الوجود إطلاق فيه لأنه لا بدّ من باعث على الحمد وذلك الباعث هو الذي قيده وإن لم يتقيد لفظاً كأمره في قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فلم يقيد. وأما المقيد فلا بدّ أن يكون مقيداً بصفة فعل كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وكقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ١] وقد يكون مقيداً بصفة تنزيه كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١].

واعلم أن الحمد لما كان يعطي المزيد للحامد علمنا أن الحمد بكل وجه شكر، وكذلك ما أعطى المزيد من الأذكار فهو شكر فهو حمد كله لأنه ثناء على الله. فأما زيادته التي تحصل لمن أثنى عليه بما هو عليه فهي أن يعطيه الحق من العلم الذاتيّ به سبحانه ما يثني به عليه وهو قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أما إذا أثنى عليه بما يكون منه فإنه يزيده من ذلك ليثابر عليه بالثناء على الله به، فعلى كل حال يعطي الزيادة وإن كان بين التحميدين فرقان، ولكن من حيث ما هو تحميد من الخلق فهو عطاء أعطاه الله إياه، وكل عطاء يقبل المعطى الزيادة منه فإنا لا نحمده إلاَّ بما أعلمنا أن نحمد به فحمده مبناه على التوقيف، وقد خالفنا في ذلك جماعة من علماء الرسوم لا من العلماء الإلهيين، فإن التلفّظ بالحمد على جهة القربة لا يصحّ إلاَّ من جهة الشرع، ولو استصبح هذا المخالف بنور الإنصاف لعلم أن الصدق حسن وهو يقول به أنه حسن لذاته، ومع هذا فإنه يقبح في مواطن ويأثم القائل به، فلهذا لا يتمكن أن يقال على جهة القربة وإن عقل أنه خير إلاَّ حتى يقول الحق: اذكروني، فإما أن يطلق بكل ذكر ينسب إليه الحسن في العرف وهو من مكارم الأخلاق، وإما أن يقيده فيعين ذكراً خاصاً، فالثناء على الله بما هو فاعل ثناء عرفيّ يثني به المخلوق على الخالق ما لم ينه عنه إذا كان ذلك الثناء ممّا يعظم في العالم فقد يكون من حيث ما هو فاعل وليس بعظيم في العالم، فإذا ذكر بما هذا مثله نكر، ومثاله أن نقول: الحمد لله ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[الأنعام: ١٠٢] فيدخل فيه كل مخلوق معظم ومحقر، ومثال المعظم في العرف أن تقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ١] ومثل ذلك، ولا ينبغي أن يعين في الثناء خلق المحقر عرفاً والمستقذر طبعاً وإن دخل في عموم كل شيء، ولكن إذا عين لا يقتضيه الأدب بل ينسب معينه إلى سوء الأدب أو فساد العقيدة مع صحة ذلك ولا أمثل به فإني أستحي أن يقرأ مع الزمان في كتابي فلذلك لم نمثل به كما مثلت بالعام وبالعظيم والكل منه

ونعمته، ولولا حقارة ذلك بالعرف لم نقل به فإني ما أرى شيئاً ليس عندي بعظيم لأني أنظر بعين اعتناء الله به حيث أبرزه في الوجود فأعطاه الخير فليس عندنا أمر محتقر وهذا شهود القوم، فالكل نعمته ظاهرة وباطنة، فظاهرة ما شوهد منها وباطنة ما علم ولم يشهد، وظاهرة التعظيم عرفاً وباطنة التعظيم عند أهل الله وأهل النظر المستقيم ممّا ليس بعظيم في الظاهر لأن هذا الأمر شبيه بالآيات المعتادة والآيات غير المعتادة، فالآيات المعتادة ما هي آيات إلاّ لقوم يعقلون، ولا فرق بينها وبين الآيات غير المعتادة مثل حركات الأفلاك واختلاف الليل والنهار وما يظهر في فصول السنة من الأرزاق والأمور المعادة والمسخرات فلا يتنبه بها إلاّ كل ذي عقل سليم أنها آيات. وأما غير المعتادة فهي آيات للجميع فتنبعث النفوس للثناء على الله بها دون المعتادة فصاحب هجير الحمد المطلق الذي لا يقيده الذاكر بشيء من الصفات وإن اختلفت عليه الأحوال فما هي بواعث لذلك الذكر وإنما هو الباعث الأوّل الذي به أطلق الذكر فهو تقييد في إطلاق، فينتج له جميع ما يعطيه كل تحميد مقيد بنعت ما من النعوت أو اسم أو صفة ما لم يقف صاحب هذا الذكر مع حال من الأحوال لما يحصل له فيه من الحلاوة فيقيده ذلك الاستحلاء وإن أطلقه في اللفظ فلا ينتج له بعد ذلك إلاّ ما يناسب الحال الذي أعطاه الاستحلاء فإنه ذو صفة فهو بحيث هي وزال عنه بها الحكم الأوّل، قيل لأبي يزيد: كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة وأنا لا صفة لي، فلا يقف صاحب هذا الذكر مع أمر يرد عليه من الحق يقيده فهو مع كل وارد بحسب الوارد من غير تعلّق بمعية، فمعيته مع الوارد معية الحق مع عباده حيث ما كانوا لعلمه أنهم لا يكونون إلاّ بحسب أسمائه الحاكمة عليهم والمتصرفة فيهم فهو مع أسمائه لا معهم، ولكن ما وقع الإخبار إلاّ أن الله معهم أينما كانوا، كذلك الواردات لا تتعين للعبد إلاّ بحسب استعداده الذي أعطاه ذكره وذكره من فعله في معيته مع الواردات مع نفسه كما ذكرنا في معية الحق على السواء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والستون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله الحمد لله على كل حال

[نظم: السريع]

الحَمْدُ لله على كُلِّ حَالِ	فهو الذي يَعُمُّ حَالَ الوُجُودْ
وما على حَمْدِ الذي قالَه	إذا تَلَفَّظْتَ به من مَزِيدْ
وجاء ذا عنه به قائلاً	قد جاء ما قد كُنْتَ منه تَحِيدْ
فإنه ناداك من حَضْرَةٍ	من قَبْلِ هذا في مقام الشُّهُودْ
بأنه ليس بغَيْرٍ له	فلا يَغُرَّنك حَبْلُ الوَرِيدْ
فأنتَ رَبٌّ وأنا عَبْدُهُ	ويَثْبُتُ الربُّ بكَوْنِ العَبِيدْ
فلا تَقُلْ في كونه إنّه	يقول يوم العَرْض هل مِنْ مَزِيدْ

اعلم أيّدك الله وإيانا بروح منه أن رسول الله ﷺ كان يقول في السرّاء: «**الحَمْدُ للهِ المُنْعِم المُفْضِلِ**» وكان يقول في الضرّاء: «**الحَمْدُ لِلهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**» ثبت هذا في الصحاح فعلمنا أنه ذكر أدب إلهيّ لأنه ما قيده باسم كما قيد حمد السرّاء بالمنعم المفضل، ومن أسمائه الضار كما من أسمائه النافع، ولم يتعرض في هذا الحمد إلى ذكر الاسم الضار ولم يكن ذلك عن هوى بل عن وحي إلهيّ يوحى، فإنه الصادق القائل: «**إنَّ الله أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ أَدَبِي**» فعلمنا أن هذا الذكر من جملة الآداب على هذه الصفة، وقد أوحى الله أن نتبع ملة إبراهيم، ومن آداب إبراهيم عليه السلام مع ربه قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فنسب الشفاء إلى ربه ولم ينسب إليه المرض لأنه شرّ في العرف بين الناس وإن كان في طيّه خير في حق المؤمن فأخبر الله نبيه بحديث إبراهيم، وقوله هذا تعليماً له ﷺ ليتأدّب بأدبه فقال رسول الله ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ**» ومن كونه خلقاً يحسّ بالألم الحسّي والنفسي كما يحسّ باللذات المحسوسة والمعنوية ويعلم الفرقان بينهما، وأن السرور يصحب الالتذاذ، وأن الحزن يصحب الألم طبعاً، فلذلك عدل في الضراء إلى حمد الله على كل حال، والأحوال في العالم ما هي بأمر زائد على الشأن الذي ألحق فيه بل هو عين الشأن كل حال يطرأ في الوجود ممّا يوافق الغرض ويلائم الطبع وممّا لا يوافق الغرض ولا يلائم الطبع وإن كان الأمر في ذلك من القابل، لأنا رأينا ما يتضرر به زيد يلتذ به عمرو، فعلمنا أن العلة في القابل وأن الأمر الآتي منه تعالىٰ واحد العين لا انقسام فيه فينقسم فينا أمره ويتعدد، ولما عمّ هذا الذكر جميع الأحوال، فإن تحقق الذاكر الله به ما وضع له فهي دعوى فإن الله لا بدّ أن يبتلي الشخص الذي يذكر الله بهذا الذكر على هذا الحد، فإن الدعوى تفتح باب الابتلاء في القديم والحديث إن فهمت وإن كان الذاكر به ما خطر له أصل وضعه بخاطر بل ذكر الله به لكونه مشروعاً من غير وقوف مع السبب في وجوده وتشريعه فقد يبتليه الله وقد لا يبتليه، وإن قيده هذا الذاكر أعني ذلك الذكر بأنه ثناء على الله لجهة الخير لا يقصد به أصل وضعه ولا يقوله بدعوى أنه الحامد ربه على كل حال وإنما يقول ذلك مخبراً أن الله محمود على كل حال، فإنه ما من حال كما قررناه إلاّ وله وجه في الخلق إلى الالتذاذ به والتألم به، فما من حال إلاّ ويحمد الله عليه حمد سرّاء وحمد ضرّاء، ألا تراه في السرّاء كيف يقول: الحمد لله المنعم المفضل، فمن إنعامه وفضله أن جعل صاحب الضرّاء يحمد الله ولهذا يعافيه ويحول بينه وبين تلك الضرّاء لأن حمده شكر على هذا الإفضال وهو أن ألهمه واستعمله في حمد الله ولم يستعمله في الضجر والسخط، فعافى باطنه بما ألهمه إليه من التحميد فزاده الله عافية بإزالة الضرّاء عنه، وهذا معنى دقيق مندرج في الحمد لله على كل حال وأنه مساو لحمد السرّاء وهو الحمد لله المنعم المفضل وبزيادة، وهذا من جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله ﷺ، وتختلف أحوال الذاكرين الله بهذا التحميد فكل حامد به ينتج له بحسب قصده وعلمه وباعثه وقد فصلناه تفصيلاً كما أنزله الحق عزّ وجلّ في قلوب الذاكرين الله به تنزيلاً فهو حمد سرّاء وحمد ضرّاء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والستون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله وأفوّض أمري إلى الله

[نظم: الكامل]

إنّ الـوُجُـودَ مُـنَـطِّـقٌ ومُـنـطِّـقُ ومُـصَـدِّقٌ ومُـصَـدَّقٌ فـتـفـكّـرُوا
فـالـشـيء يُـكْـذِبُ نَـفـسَـه فـمُـكَـذِّبٌ ومُـكَـذَّبٌ والـعـيـن لا تـتـكـثَّـرُ
فـلأيّ شـيء يـرجـعُ الأمْـرُ الـذي قـد قُـلْـتُـهُ فـي أمـرنـا فـتـبَـصَّـرُوا
حـتـى تَـرَوْهُ بـالـعـيـان فـفَـوِّضُـوا أمْـرَ الـوجـود إلـيـه لا تـتـحـيَّـرُوا

قال الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ أن يقول لقومه حين ردّوا دعوته: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤] وهو من فاض ولا يفيض حتى يمتلىء، فالفيض زيادة على ما يحمله المحل وذلك أن المحل لا يحمل إلاّ ما في وسعه أن يحمله وهو القدر والوجه الذي يحمله المخلوق وما فاض من ذلك وهو الوجه الذي ليس في وسع المخلوق أن يحمله يحمله الله، فما من أمر إلاّ وفيه للخلق نصيب ولله نصيب، فنصيب الله أظهره التفويض فينزل الأمر جملة واحدة وعيناً واحدة إلى الخلق فيقبل كل خلق منه بقدر وسعه، وما زاد على ذلك وفاض انقسم الخلق فيه على قسمين: فمنهم من جعل الفائض من ذلك إلى الله تعالىٰ فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وينسب ذلك الأمر إلى نفسه لأنه لما جاءه ما تخيل أنه يفضل عنه وتخيل أنه يقبله كله فلما لم يسعه بذاته ردّه إلى ربه. ومنهم من لم يعرف ذلك فرجع الفائض إلى الله من غير علم من هذا الذي حصل منه ما حصل فهو إلى الله على كل وجه وما بقي الفضل إلاّ فيمن يعلم ذلك فيفوّض أمره إلى الله فيكون له بذلك عند الله يد. ومنهم من لا يعلم ذلك فليس له عند الله بذلك منزلة ولا حق بتوجه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

واعلم أن العبد القابل أمر الله لا يقبله إلاّ باسم خاص إلهيّ وأن ذلك الاسم لا يتعدّى حقيقته، فهذا العبد ما قبل الأمر إلاّ بالله من حيث ذلك الاسم، فما عجز العبد ولا ضاق عن حمله فإنه محل لظهور أثر كل اسم إلهيّ، فعن الاسم الإلهيّ فاض لا عن العبد فلما فوّضه بقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ما عين اسماً بعينه وإنما فوّضه إلى الاسم الجامع فيتلقاه منه ما يناسب ذلك الأمر من الأسماء في خلق آخر فإنه ما لا يحمله زيد وضاق عنه لكون الاسم الإلهيّ الذي قبله به ما أعطت حقيقته إلاّ ما قبل منه، وقد يحمله عمرو لأنه أوسع من زيد بل لا إنه أوسع من زيد، ولكن عمرو في حكم اسم أيضاً إلهيّ قد يكون أوسع إحاطة من الاسم الإلهيّ الذي كان عند زيد، فإن الأسماء الإلهيّة تتفاضل في العموم والإحاطات فيحيط العالم ويحيط العليم فيكون إحاطة العليم أكثر من إحاطة العالم وإحاطة الخبير أكثر من إحاطة غيره، وكذلك الاسم المريد مع العالم والاسم القادر مع المريد ومع العالم تقل إحاطته عنهما، والعبد لا بدّ أن يكون تحت حكم اسم إلهيّ فهو بحسب ذلك الاسم وما تعطيه حقيقته من

القبول فيرد ما فضل عنه إليه تعالى وذلك التفويض لمن عقل عن الله قوله، فإن اللسان الذي خاطبنا به الحق اقتضى ذلك، فنحن معه بقوله لأنه ليس في وسع المخلوق أن يحكم على الخالق إلاّ من يكون شهوده ما هي الممكنات عليه في حال عدمها فيرى أنها أعطت العلم للعالم بنفسها فقد يشمّ من ذلك رائحة من الحكم لكن افتقارها من حيث إمكانها يغلب عليها، ولهذا ترى النافين للإمكان بالدلالة العقلية يغفلون في أكثر الحالات عمّا أعطاهم الدليل من نفي الإمكان في نفس الأمر فيقولون بالإمكان حتى يراجعوا وينبهوا فيتذكروا ذلك، فلا بدّ من أمر يكون له سلطنة في هذا العبد حتى يتصف بالغفلة والذهول عمّا اقتضاه دليله وليس إلاّ الأمر الطبيعي والمزاج، ألا تراه إذا انتقل بالموت الأكبر أو بالموت الأصغر إلى البرزخ كيف يرى في الموت الأصغر أموراً كان يحيلها عقلاً في حال اليقظة وهي له في البرزخ محسوسة كما هي له في حال اليقظة ما يتعلق به حسّه فلا ينكره، فبما كان يدل عليه عقله من إحالة وجود أمر ما يراه موجوداً في البرزخ، ولا شك أنه أمر وجودي تعلق الحسّ به في البرزخ فاختلف الموطن على الحسّ فاختلف الحكم، فلو كان ذلك محلاً لنفسه في قبول الوجود لما اتصف بالوجود في البرزخ، ولما كان مدركاً بالحسّ في البرزخ، بل قد يتحقق بذلك أهل الله حتى يدركوا ذلك في حال يقظتهم ولكن في البرزخ فهم في حال يقظتهم كحال النائم والميت في حال نومه وموته، فإن تفطنت فقد رميت بك على طريق العلم بقصور النظر العقلي، وإنه ما أحاط بمراتب الموجودات ولا علم الوجود كيف هو، إذ لو كان كما حكم به العقل ما ظهر له وجود في مرتبة من المراتب وقد ظهر فليس لعاقل ثقة بما دلّه عليه عقله في كل شيء، فإذا كان صحيح الدلالة سرى ذلك في كل صورة، فيعلم في كل صورة يراها في البرزخ وتحصل في نفسه أنه الله فهو الله فما يختلف كونه وإن اختلفت صور تجليه، وكذلك عند العارفين به هنا ما يختل عليهم شيء من ذلك ولا في البرزح ولا في القيامة الكبرى فيشهدون ربهم في كل صورة من أدنى وأعلى، وكما هم اليوم كذلك يكونون غداً. وأما أبو يزيد فخرج عن مقام التفويض فعلمنا أنه كان تحت حكم الاسم الواسع فما فاض عنه شيء وذلك أنه تحقق بقوله: «وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي» فلما وسع قلبه الحق والأمور منه تخرج التي يقع فيها التفويض ممّن وقع فهو كالبحر وسائر القلوب كالجداول، وقال في هذا المقام: لو أن العرش يريد به ما سوى الله وما حواه مائة ألف ألف مرّة يريد الكثرة بل يريد ما لا يتناهى في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسّ به يعني لاتساعه حيث وسع الحق، ومن هنا قلنا إن قلب العارف أوسع من رحمة الله لأن رحمة الله لا تنال الله ولا تسعه وقلب العبد قد وسعه، إلاّ أن في الأمر نكتة أومىء إليها ولا أنص عليها وذلك أن الله قد وصف نفسه بالغضب والبطش الشديد بالمغضوب عليه والبطش رحمة لما فيه من التنفيس وإزالة الغضب، وهذا القدر من الإيماء كاف فيما نريد بيانه من ذلك، فإن الرسل تقول: ولن يغضب بعده مثله، فالانتقام رحمة وشفاء، ولولا كونه رحمة ما وقع في الوجود وقد وقع، ولكن ينبغي لك أن تعلم بمن هو وقوع الانتقام رحمة، فبان لك من هنا رتبة أبي يزيد من غيره من العارفين لأنه

وأمثاله لا يتكلمون إلاّ عن أحوالهم وذوقهم فيها ومن أسمائه تعالىٰ الواسع كما ورد، فباتساعه قبل الغضب، فلو ضاق عنه ما ظهر للغضب حكم في الوجود لأنه لم يكن له حقيقة إلهية يستند إليها في وجوده وقد وجد فلا بدّ أن ينسب الغضب إلى الله كما يليق بجلاله وقد وسع القلب الحق ومن صفاته الغضب فقد وسع الغضب، فلا ينكر على العارف مع كونه ما يرى إلاّ الله أن يغضب ويرضى ويتصف بأنه يؤذي وإن لم يتأذ فما أذى من لا يتأذى، غير أنه لا يقال ذلك في الجناب الإلهيّ إلاّ أنه تسمّى بالصبور وأعلمنا بالصبر ما هو وعلى ماذا يكون، ولا نقول هو في حق الحق حلم فإنّ الحليم كما ورد كذلك ورد الصبور، ولكل وارد معنى ما هو عين الآخر، فتغيير الأحوال على العارفين تغير الصور على الحق، ولولا ذلك ما تغيرت الأحكام في العالم لأنها من الله تظهر في العالم وهو موجدها وخالقها فلا بدّ من قيام الصفة به، وحينئذٍ يصحّ وجودها منه كان الموجد اسم فاعل ما كان، وكان الموجد اسم مفعول ما كان، فإن لم تعلم التفويض كما ذكرته لك وإلاّ وقعت في إشكال لا تنحل منه أعني في العلم بالتفويض ما هو فهذا نسبته إلى المخلوق، وأما التفويض الإلهيّ وهو أن يكون هو المفوّض أمره إلى عباده فيه فإنه كلفهم وأمرهم ونهاهم فهذا تفويض أمره إلى عباده فإنه فاض عمّا يجب للحق لأن التكليف لا يصحّ في حق الحق، فلما فاض عنه لم يكن إفاضته إلاّ على الخلق وأراد منهم أن يقوموا به حين ردّه إليهم كما يقوم الحق به إذا فوّض العبد أمره إلى الله، فمنهم من تخلّق بأخلاق الله فقبل أمره ونهيه وهو المعصوم والمحفوظ، ومنهم من ردّه، ومنهم من قبله في وقت وفي حال، وردّه في وقت وفي حال، وكذلك فوّض إليهم أمره في القول فيه فاختلفت مقالاتهم في الله، ثم أبان لهم على ألسنة رسله ما هو عليه في نفسه لتقوم له الحجة على من خالف قوله فقال في الله ما يقابل ما قاله عن نفسه، فلما اختلفت المقالات تجلّى لأهل كل مقالة بحسب أو بصورة مقالته، وسبب ذلك تفويضه أمره إليهم وإعطاؤه إياهم عقولاً وأفكاراً يتفكرون بها، وأعطى لكل موف حقّه في الاجتهاد بنظره نصيباً من الأجر أخطأ في اجتهاده أو أصاب، فإنه ما أخطأ إلاّ المقالة الواردة في الله بلسان الشرع خاصة فحاد عنها بتأويل فيها أدّاه إليه نظره. وورد شرع أيضاً يؤيده في ذلك فما ترك المقالة من حيث عينها وإنما استند فيما ذهب إليه لأمر مشروع ودليل عقل وكونه أصاب أو أخطأ ذلك أمر آخر زائد على كونه اجتهد فإنه ما يطلب باجتهاده إلاّ الدليل الذي يغلب على ظنه أنه يوصله إلى الحق والإصابة لا غير [المتقارب]:

فتكليفُهُ عَيْنُ تَفْويضِهِ ... فنحن وإيَّاه فيه سَوَا

فتَسْبيحُنا عَيْنُ تَسْبيحِهِ ... وتَسْبيحُهُ بلسان السِّوَى

وكلّ امرىء إنما حَظُّهُ ... من الذِّكْرِ لله ما قد نَوَى

فتفويضه في قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧] وتفويضنا إذ أمرنا أن نتخذه وكيلاً فيما استخلفنا فيه ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣] ولما كان العالم تحت حكم الأسماء الإلهية وهي أسماؤه فما تلقى تفويضه إلاّ هو لا نحن فإنه بأسمائه

تلقيناه، فهو الباطن من حيث تفويضه، وهو الظاهر من حيث قبوله، فكان الأمر بيننا كما تنزل الأمر بين السماء وهو العلي وبين الأرض وهي الذلول [السريع]:

فهكذا الأمْرُ فلا تُخْفِهِ فإنّه أوْضَحَهُ كَوْنُهُ
وشَاهِدُ الحَقّ به ناطقٌ فإنه في كَوْنِهِ عَيْنُهُ

وهو ما ذكرناه من أنه ما تلقى تفويض الحق إلاّ اسمه فهو المكلف والمكلف لأنه قال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فهو عين الموجودات إذ هو الوجود ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] والكلام في هذا الباب يطول ويتداخل وينعطف بعضه على بعض فيظهر ويخفى، فإنه ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨] سبحانه وتعالىٰ عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

الباب السبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[نظم: الوافر]

كما أعطاك خَلْقَكَ مَنْ حَبَاكَا فأعطِ ما خُلِقْتَ له كَذاكَا
وإنْ لم تُعْطِهِ فالخَلْقُ يُعْطَى وليس يكون مشكوراً هُناكا
وحَقُّ الحَقّ أوْلَى يا وَلِيِّي بأن يقضي به وَحْيٌ أتَاكَا
فإنْ تَبْلُغْ مُنَاهُ كما تَمَنَّى يُبَلِّغْكَ الإلهُ به مُنَاكا

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقضاؤه لا يرد. علمنا أن نتيجة هذا الذكر شهود هذه الآية بلا شك، فإن الحق هو الوجود والأشياء صور الوجود، فارتبط الأمر ارتباط المادة بالصورة والعبادة ذلة بلا شك في اللسان المنزل به هذا القرآن، والأمر إذا ارتبط بين أمرين لا يمكن لكل واحد منهما أن يكون عند ذلك الأمر إلا بارتباطه بالأمر الآخر، علمنا أن كل واحد من الأمرين المرتبطين للحب الذي قام بكل واحد منهما في ظهور الأمر الثالث وأنه طالب للأمر الثاني فصح الطلب في كل واحد، والحاصل لا يبتغي فلا بد أن يتصفا بالفقد لما يبغيان وجوده والطلب لا يكون إلا بنوع من الإذلال ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فطلب الدعاء من عباده وطلب العباد الإجابة منه فالكل طالب ومطلوب. وقد قام الدليل أن الحوادث لا تقوم به فلا يستقل بكل طلب في ذاته لأن الطلب من الحادث حادث، ويستحيل أن يقوم به مثل هذا الطلب، فلا بد من طلب وجود ما يقوم به هذا الطلب الحادث وهو قوله: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [النحل: ٤٠] والطلب إرادة سواء طلبك لنفسه أو طلبك لك، على كل حال الحاصل لا يبتغى من الوجه الذي يطلب فإنه من ذلك الوجه ليس بحاصل فلا يصح الوجود أصلاً، إلا من أصلين: الأصل الواحد الاقتدار وهو الذي يلي جانب الحق، والأصل الثاني القبول وهو الذي يلي جانب الممكن، فلا استقلال لواحد من الأصلين بالوجود ولا بالإيجاد، فالأمر المستفيد الوجود ما استفاده إلا من نفسه

بقبوله وممن نفذ فيه اقتداره وهو الحق، غير أنه لا يقول في نفسه أنه موجد نفسه بل يقول: إن الله أوجده والأمر على ما ذكرناه، فما أنصف الممكن نفسه وآثر بهذا الوصف ربه فلما علم الله أنه آثر ربه على نفسه بنسبة الإيجاد إليه أعطاه الظهور بصورته جزاء فلا أكمل من العالم لأنه لا أكمل من الحق، وما كمل الوجود إلا بظهور الحادث. ولما كان الأمر بهذه المثابة في التوقف وعدم الاستقلال من الطرفين نبه الحق على ذلك بقوله: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي**»، وهو أيضاً أعني التقسيم موجود في استخلاف العبد وفي وكالة الحق فيما هو فيه العبد مستخلف فاستقل الوجود وكمل بالحادث. ولما كن الحق غيوراً أن يذكر معه سواه تجلى للعالم في صورة المحدثات وعلموه فيها إعلاماً منه للعالم أنه غنيّ عن العالمين بما رأيتموه في ذاته من ظهوره بالتجلي في صور المحدثات فسواء ظهوركم وعدمكم يقول للممكن فعند ذلك ذل الممكن بالفعل في نفسه فوقع منه ما خلقه الله له وزال عنه عز الاستعداد بالقبول في الإيجاد إذا رأى أعيان الصور التي تكوّن عن قبولها واقتدار الحق قد ظهر الحق بها فلم تكن الحاجة إلى الممكنات في قبولها والأمر قد حصل وصح قوله: ﴿ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ولقد برقت لي بارقة إلهية عند تقييدي هذه المسألة رأيت فيها ما شاء الله من العلوم كما ضرب النبيّ ﷺ بالمعول الحجر الذي تعرض لهم في الخندق فبرقت في الضربة منه بارقة رأى بها ما فتح الله على أمته حتى رأى قصور بصرى كأنياب الفيلة، رأى ذلك في ثلاث ضربات في كل ضربة بارقة تبدى له جهة مخصوصة، هذا رأيته عند تقييدي هذا الباب وراثة نبوية بحمد الله ورأيت فيها وبها وإن ظهر بصور الممكنات واتصف بالغنا، فإن ذلك لا يخرجه عن عدم الاستقلال في وجود الحادث به إذ لا بد من قبوله وفيه وقع الكلام هذا مما أعطتنيه تلك البارقة، وأنه تعالى لما خلقهم لعبادته كساهم صفته وهي التي بها طلبهم فعبدوه بها إذ لا يصح أن يعبدوه بأنفسهم على جهة الاستقلال، ولهذا شرع لهم أن يقولوا بعد قولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] لعدم الاستقلال في العبادة، فألقت عندهم الطلب في المعونة على عبادته كما كان القبول منهم معونة للاقتدار الإلهي في الخلق، ولولا هذا الارتباط ما صحت عبادة ولا إيجاد، فالإيجاد عبادة وهو لله، والعبادة إيجاد وهي المطلوبة من الخلق، فهم العابدون وهو المعبود، وهو الموجد وهم الموجودون، فلام العلة ذاتية من الجانبين واسمها في الشرع حكمة وسبب فإنه حكيم، ففي كل شيء له حكمة ظاهرة يعلمها أهل الكشف والوجود في كل شيء، ويعلمها أهل الرسوم في التكليفات التي لا تعلم إلا من جهة الشرع، فحكمتها لا تعلم إلا من جهة الشرع كقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] وأما القول بالعلة في التكليف من جهة الحق فمظنونة غير معلومة، ولكن فتح لهم باب الاستنباط بما ذكره لهم في الوحي المنزل من التعليل فمنه جليّ ومنه خفيّ، كذلك له في الأشياء حكمة باطنة لا يعلمها إلا هو ومن أعلمه الله بها، ولذلك قال الجن وهو ما استتر فلا يعلم إلا منه والإنس وهو ما ظهر فيعلم بذاته حيث ظهر وإلا ليعبدون إثبات

السبب الموجب للخلق، فهذه لام الحكمة والسبب شرعاً ولام العلة عقلاً والعبادة ذاتية للمخلوق لا يحتاج فيها إلى تكليف، فلا بدّ أن يكون الخالق عين كل صورة يعبدها المخلوق مع افتقار الصورة إلى المادة، وأنه إذا لم يكن الأمر هكذا فلا تكن العبادة من المخلوق ذاتية، فإنه إذا اقتصرنا على مسمى الله في العرف عبد المخلوق غير الله فإنا نرى الأكثر من العالم ما يفتقرون إلا إلى الأسباب وكيف وقد قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] ولم يذكر قط افتقار مخلوق لغير الله ولا قضى أن يعبد غير الله، فلا بد أن يكون هو عين كل شيء أي عين كل ما يفتقر إليه وعين ما يعبد، كما أنه عين العابد من كل عابد بقوله أيضاً: كنت سمعه حين خاطبه بالتكليف والتعريف فما سمع كلام إلا بسمعه، وكذلك جميع قواه التي لا يكون عابداً لله إلا بها، فلم يظهر في العابد والمعبود إلا هويته، فحكمته وسببه وعلته لم تكن إلا هو، ومعلوله ومسببه لم يكن إلا هو فإياه عبد وعبد، قال ﷺ في خطبته لما أثنى على ربه: «**فإنَّما نَحْنُ بِهِ وَلَهُ**» فخاطب وسمع وهذا أمر لا يندفع فإنه عين الأمر، غير أن الفضل بين الناس هو بما شاهده بعضهم وحرمه بعضهم، فيعلم العالم من غيره ما لا يعلمه الغير من نفسه مما هو عليه في نفسه فظهر التفاضل، ومع هذا الظهور لا يخرج المخلوق عن أن يكون الحق هويته بدليل تفاضل الأسماء الإلهية وهي الصفات وليست غيره، فلا يعلم الخلق إلا به، ولا يعلم الحق إلا بها. وأما وصفه بالغنى عن العالم إنما هو لمن توهم أن الله تعالى ليس عين العالم وفرق بين الدليل والمدلول ولم يتحقق بالنظر إذا كان الدليل على الشيء نفسه فلا يضاد نفسه فالأمر واحد وإن اختلفت العبارات عليه فهو العالم والعلم والمعلوم فهو الدليل والدال والمدلول، فبالعلم يعلم العلم، فالعلم معلوم للعلم فهو المعلوم والعلم والعلم ذاتي للعالم وهو قول المتكلم ما هو غيره فقط. وأما قوله: وما هو هو بعد هذا فهو لما يرى من أنه معقول زائد على ما هو فبقي أن يكون هو، وما قدر على أن يثبت هو من غير علم يصفه به فقال: ما هو غيره فحار فنطق بما أعطاه فهمه فقال: إن صفة الحق ما هي هو ولا هي غيره، ولكن إذا قلنا نحن مثل هذا القول ما نقوله على حد ما يقوله المتكلم فإنه يعقل الزائد ولا بد ونحن لا نقول بالزائد فما يزيد المتكلم على من يقول إن الله فقير إلا بحسن العبارة، ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين، فهذا بعض نتائج هذا الهجير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والسبعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]

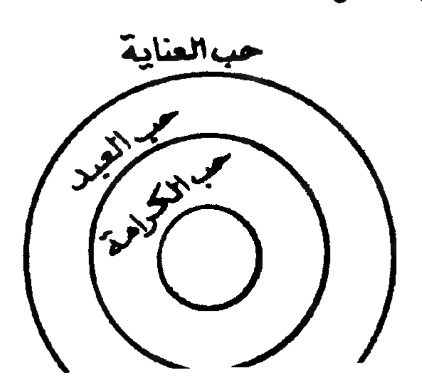
[نظم: الوافر]

إذا أحـبـبـتَ رَبَّـكَ بـاتِّـبـاعٍ … أحَـبَّـكَ مـثـل ذلـك ثـم زَادَا

عـلى الـحُـبِّ الـمضاعَفِ سَتْرَ صَوْنٍ … أتَـتْـكَ بـه الـسـيـادةُ حـيـن سَـادا

وإنْ أحْـبَـبْـتَـهُ بـخـلاف هـذا أفـذتَ ولـم تـكـن مـمّـن أفـادا

وقال ﷺ عن الله: «**إنّ الله تَعالَى يَقُولُ: ما تَقرَّبَ المُتَقرِّبُونَ بِأَحَبَّ إلَيَّ مِنْ أَدَاءِ ما افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِمْ، ولاَ يَزَالُ العَبْدُ يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعاً وَبَصَراً وَيَداً وَمُؤَيِّداً**»، وقد ورد أتم من هذا، فهذا الهجير إذا التزمه العبد أو من التزمه وتحقق به فتح عليه في معرفة نفسه وربه وعلم أن عبادة الفرائض عبادة حقيقية جبرية، وعبادة النوافل عبادة اختيارية فيها رائحة ربوبية لأنها تواضع والتواضع تعمل لا يقوم إلا ممن له سهم في الرفعة والعبد ليس له نصيب في السيادة، ولهذا ورد: «**العَبْدُ مَنْ لاَ عَبْدَ لَهُ**» فلهذا نقص عن درجة الفرض النفل لأن العبد نقصه من العلم بالأمر على قدر ما اعتقده من النفل، بل من أول قدم في النفل اتصف بالنقص في العلم بما هو الأمر عليه، وهذا علم شريف يورث سعادة لمن قام به لا تشبهها سعادة، وذلك أن العبد هو عبد لذاته ولكن لا تعقل له عبودية ما لم يعقل له استناد إلى سيد، والرب رب لذاته، ولكن لا يعقل له ربوبية ما لم يعقل له مربوب وهو مستنده، فكل واحد سند للآخر، فالمعلوم أعطى العلم للعالم فصيره عالماً والعلم صير المعلوم معلوماً، ومن حيث ارتفاع هذا الذي قلناه فلا عالم ولا معلوم ولا رب ولا مربوب، وليس الأمر إلا عالم ومعلوم ورب ومربوب، وهو الذي عليه الوجود، فليتكلم بما أعطاه الوجود والشهود، وليترك وهميات الجائز العقلي، فإن القول بذلك له موطن خاص في ذلك الموطن سلطانه فنقول: قد أخبر الله تعالى أن لله عباداً يحبهم ويحبونه فجعل محبتهم وسطاً بين محبتين منه لهم فأحبهم فوفقهم بهذه المحبة لاتباع رسوله فيما جاءهم به من الواجبات عليهم والترغيب في أن يوجبوا على أنفسهم صورة ما أوجبه عليهم يسمى نافلة، ثم أعلمهم أنهم إذا اتبعوه فيما جاء به أحبهم، فهذا الحب الإلهي الثاني ما هو عين الأول فالأول حب عناية والثاني حب جزاء وكرامة بوافد محبوب بالحب الأول فصار حب العبد ربه محفوظاً بين حبين إلهيين، كلما أراد أو همَّ أن يخرج عند هذا الوصف بالسلوّ وجد نفسه محصوراً بين حبين إلهيين فلم يجد منفذاً فبقي محفوظ العين بين حب عناية ما فيها من فطور وبين حب كرامة ما فيها استدراج، والحصر بين أمرين يوجب اضطراراً، فذلك حب الفرض وهو العبد المضطر في عبوديته المجبور بما فرض الله عليه لينبهه أنه في قبضة الحق محصور لا انفكاك له ولا نفوذ كما رسمناه في الهامش:



ولما رأى أن الحق كلفه علم أنه لو لم يعلم الحق في العبد اقتداراً على إتيان ما كلفه به من الأعمال ما كلفه به، فكان التكليف له معرفاً بأن له مدخلاً في الاقتدار على وجود الفعل الذي كلفه الله إيجاده، وقرر ذلك عنده بما شرع له من طلب المعونة من الله على ذلك فزاده هذا قوة في علمه بأن له اقتداراً، ثم نظر فيما أوجب عليه فرأى ذلك قليلاً مما هو عليه من الاتساع، فعلم عند ذلك أن الاتساع الذي أبقى له إنما أبقاه لما له من الاقتدار، فأراد أن يبتليه ليرى ما يخرج منه في ذلك الاقتدار الذي أعطاه وليس له فيما يخرج فيه ذلك الاقتدار إلا تلك السعة التي أبقى له كما قال: إن لك في النهار سبحاً طويلاً، فعمر ذلك الفراغ هذا العبد بالنوافل ولا يكون نافلة حتى يكمل الفرض، فحصل بذلك من الله حبان آخران: حب الفرائض أي الحب الذي حصل له من إتيانه بالفرائض، والحب الذي حصل له أيضاً من الله من إتيان النوافل وإن كان دون الحب الأول كما هو في الأصل حب الكرامة دون حب العناية فإنه حب جزاء فلا يخلص خلوص الحب الأول، كما ورد في الخبر: أن الرجل إذا قال لأخيه أحبك فأحبه الآخر فإنه لا يلحقه في درجته في الحب أبداً لأن حب الأول ابتداء وحب الثاني جزاء فلن يكافئه أبداً، فإن الحب الأول هو الذي أنتج الحب الثاني فهو منفعل عنه والمنفعل لا يقوى قوة الفاعل أبداً، فلما عمر ذلك الفراغ الواسع بالنوافل وجعل الله فيها فرائض لتتأيد بها النوافل في اللحوق بالفرائض ولهذا تسد مسدها وتكمل بها الفرائض بما فيها من الفرائض كما ورد في الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله يَقُولُ فِي مُوَازَنَةِ الأَعْمَالِ إذا لَمْ يُتِمَّ العَبْدُ فَرْضَهُ أَنْ يُكْمِلَ لَهُ فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ إنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ»** وهو النفل، فلذلك كان في النفل فروض لأن كل نفل فهو على صورة فرضه من صلاة وصدقة وصيام وحج واعتمار، فله الخيار في الإتيان بالنفل ما لم يتلبس به، فإذا تلبس به قيل له: لا تطلبوا أعمالكم فبالأولية في ذلك كان مختاراً وفي التلبس مضطراً عندنا وبخلافه عند علماء الرسوم ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] والشروع عهد عهده مع الله بلا شك فيما لم يجب عليه ولهذا قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع، فدخل الاحتمال في هذا الإجمال.

ولما لم يكن في أداء الفرض رائحة ربوبية توجب له إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل كما هو في النفل كان في الفرض عبد اضطرار بلا شك مجبوراً فأدركه الإنكسار في نفسه لما كان عليه من العزة في كونه أعطى العلم لله به فجبر الله انكساره بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [قٓ: ٢٩] فأزال عن نفسه بهذا الخطاب إن شاء وإن شاء وما أبقى له إلا عين ما شاء لا التخيير في ذلك، فلما سمع العبد مثل هذا انجبر كسره وعلم أن الله لا يقول مجازاً وأن الأمر لما كان في نفسه على هذا ما صح أن يقول مثل هذا القول، فزال الانكسار الذي كان عنده وهو قوله تعالى الخبر المترجم عنه: **«أَنَا عِنْدَ المُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي»** أي أنا كسرت قلوبهم بما أوجبته عليهم وأدخلتهم فيه من الاضطرار وأنزلتهم من معقل

عزتهم بذلك فلما انكسروا كان عندهم في هذا الكسر جابراً بما أوجبه على نفسه، وما أخبر به أنه ما يبدل القول لديه وأن الكلمة منه حقت وأزال الاختيار بإزالة الإمكان من العالم، فلم يبقَ إلا واجب بنفسه أو واجب بغيره وهما وصفان لموصوف واحد ولموصوفين وليس في الكون إلا الرب والمربوب، ثم أعطاه بما خيره فيه في هذا الاتساع من المسمى نفلاً حكم الاختبار الإلهي في قوله: إن شاء وإن شاء فكساه حلته، بل العبد أولى بصفة الاختيار من صفة الاضطرار لأن له التردد بالحقيقة لإمكانه وليس عند الحق ذلك، فإذا ظهر مثل هذا من الحق فتعلم أن الحق ظهر في صورة ممكن، ولهذا تأدبنا في قولنا: إن الله لا ينبغي أن يقال أنه يجوز أن يفعل كذا ويجوز أن لا يفعله، ونقول: يجوز أن يكون هذا الممكن ويجوز أن لا يكون، كما أنه إذا ظهر الاضطرار من العبد إنما يظهر ذلك منه بصورة حق لا بنفسه لأنه لا يكون عبداً إلا بقيامه بمراسم سيده وهو مسلوب الفعل بالأصالة، فلا بد أن تظهر بصورة حق إذا ظهر بعبوديته التي هي العمل بما كلف فعله، ولذلك لم يقل الحق إنه هوية الشيء، وإنما قال إنه هوية العبد، فعلمنا أن حكم العبد ما هو الحكم الشيء، فحكم النفل أحق بالعبد لولا ما فيه من روائح الربوبية، وحكم الفرض أحق بالرب لولا ما فيه من روائح العبودية، فليجعل حكم كل واحد في الموطن الذي جعله الله فيكون الله هو الجاعل لا نحن، فنخلص ونسلم من الاعتراض علينا عند السؤال من الله إيانا.

ثم إن الله تعالى جعل في محبة الجزاء وهي محبة الكرامة غفر الذنوب وهو سترها وختم الآية بأنه لا يحب الكافرين والكافر الساتر وهو تعالى ساتر الذنوب، فعلمنا أنه لا يحب من عباده من يستر نعمه كانت النعم ما كانت فإنه قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وما تحدث به لم يستر، وقال: التحدث بالنعم شكر، وإذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى عليه ونعمه التي أسبغها على عباده ظاهرة وباطنة، ومن ستر نعمة الله فقد كفر بها، ومن كفر بها أذاقه الله لباس الجوع والخوف بصنيعه ذلك، ولهذا قيد الله ستره بالذنوب وهي البقايا التي أبقاها الله لعباده ليتعلموا الأدب مع الله فينسبون الطاعة والخير لله ويجعلونه بيد الله، وينسبون الذنب والمعصية لنفوسهم، فلهذا قلنا: أبقاها الله فهذا نصيبهم مما هو لله فإنه كل من عند الله، لكن هؤلاء المحجوبون لا يكادون يفقهون حديثاً بل يقولون كل ذلك لله في غير الموطن الذي جعله الله لهذا القول وذلك لجهلهم بالمواطن، وهذا القدر كافٍ فإن المجال فيه واسع لاتساع ميدانه لكون العالم ما أوجده الله إلا عن الحب والحب يستصحب جميع المقامات والأحوال فهو سار في الأمور كلها، فلذلك يتفصل الأمر فيه إلى غير نهاية، وأصل الحب النسب وهي الروابط، ومع الروابط لا يثبت توحيد أصلاً، ولهذا قال بعضهم: من وحد فقد أشرك، كما يقول: من قال بالجمع فقد فرق بلا شك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]

[نظم: الوافر]

مَنْ يَسْتَمِعْ قَوْلَ من تَعْنُو الوجوهُ لَهُ ... يَفُزْ بحُسْنِ الذي يأتيه في كَلِمِهْ

وهو الحكيمُ فمن في الكَوْن حِكْمَتُهُ ... وأنت في كونه فأنت مِنْ حِكَمِهْ

فمنك تسمعُ إن حَقَّقْتَ ما سمعتْ ... أُذْنَاكَ من قوله في رُتْبَتَيْ قَدَمِهْ

العرشُ يُفردُ ما الكرسيُّ يَقْسِمُهُ ... من الخطاب لما في القول مِنْ قِدَمِهْ

إنّ الحدوثَ له وَجْهٌ لمُحْدِثِهِ ... وآخرُ ناظرٌ منه إلى عَدَمِهْ

قال الله جل جلاله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥] اعلم أن هذا تنبيه من الحق على أن كل كلام في العالم كلامه، لأنه ما أتى من الله إلينا إلا كل ذكر محدث، لأن الإتيان يحدث بلا شك في الآتي، وما أتى إلا من قام به الحادث، وليس إلا الصورة التي يتجلى فيها في أعين الناظرين ويتخلى عنها في أعين الناظرين، فما ثم إلا سامع ومتكلم وقائل ومقول له ومقول به ومقول وكله حسن إلا أنه بين حسن وأحسن، فكل كلام حسن، وما وافق الغرض من القول فهو أحسن، فالقول كله حسن، وأما قوله: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨] فنفى المحبة أن يكون متعلقها الجهر بالسوء من القول، والسوء من القول أن يقول في القول إنه سوء ولا قائل به إلا الله والجهر بالسوء قد يكون قولاً وقد يكون في الأفعال التي لا تكون قولاً، فيريد بالجهر فيها ظهور الفحشاء من العبد كما قال ﷺ: «**مَنْ بُلِيَ مِنْكُمْ بِهٰذِهِ القَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ**» يعني لا يجهر بها، والسوء على نوعين: سوء شرعيّ وسوء ما يسوءك، وإن حمده الشرع ولم يذمه، فقد يكون هذا السوء من كونه يسوءك لا أن السوء فيه حكم الله كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] فالسيئة الأولى شرعية لأنه تعدى، والسيئة الأخرى ما يسوء المجازى عليها، وليس الجزاء بسيئة مشروعة لأن الله لا يشرع السوء. ولما وقع الاصطلاح في اللسان على السيىء والحسن نزل الشرع من عند الله بحسب التواطؤ، فهم سموه سوءاً وقالوا: إن ثم سوءاً، فقال الله ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٤٨] الذي سميتموه سوءاً لكونه لا يوافق أغراضكم كما قد سمعت: أن حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، وليس ثم الأحسن بالنسبة سيىء بالنسبة على الحقيقة، فكل شيء من الله حسن ساء ذلك الشيء أم سرّ، فالأمر إضافي، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلى معرفة الحسن والأحسن ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨] يعني بالألباب المستخرجين لب الأمر المستور بالقشر صيانة له، فإن العين لا تقع إلا على الحجاب والمحجوب لأولي الألباب تنبيه على الصورة الحجابية التي يتجلى فيها الحق ثم يتحوّل عنها إلى حجاب، فما ثم في الحقيقة

إلا انتقال من حجاب إلى حجاب لأنه ما يتكرر تجل إلهي قط، فلا بد من اختلاف الصور والحق وراء ذلك كله فما لنا منه إلا الاسم الظاهر رؤية وحجاباً، وأما الاسم الباطن فلا يزال باطناً وهو اللب المعقول الذي يدركه أولو الألباب يعني يعلمون أن ثم لباً وهو هذا الذي ظهر حجاب عليه وليس إلا الاسم الظاهر وهو المسمى في الحالين، فمن قال بالرؤية صدق، ومن قال بنفي الرؤية صدق، فإن رسول الله ﷺ أثبت لنا الرؤية بقوله ﷺ: **«تَرَوْنَ رَبَّكُمْ»** الحديث ونفى الرؤية، فإنه ﷺ سئل هل رأيت ربك؟ يعني ليلة الإسراء فقال يتعجب من السائل: **«نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»** أي إنه نور، فلا أدرك النور لضعف الحدوث، والنور لله وصف ذاتي، والحدوث لنا كذلك نسبة ذاتية، فنحن لا نزال على ما نحن عليه وهو لا يزال على ما هو عليه، والراسخون في العلم الذين هداهم الله أي تولى تعليمهم بنفسه وأولئك هم أولو الألباب، فكان من العلم الذي علمهم أن ثم لباً مستوراً بقشر فصدق النافي والمثبت، فمن قال: إن الله ظاهر فما قال على الله إلا ما قال الله عن نفسه، ولا فائدة لكون الأمر ظاهراً إلا مشاهدته، فهو مشهود مرئي من هذا الوجه، ومن قال إن الله باطن فما قال على الله إلا ما قال الله عن نفسه، ولا فائدة لكون الأمر باطناً إلا أنه لا تدركه الأبصار فهو لا يشهد ولا يرى من هذا الوجه، فلما اتبع هذا الذاكر أحسن القول أدرك أن ثم لباً مستوراً حين قال الآخر إنه ليس ثمّ إلا هذا الذي وقع عليه البصر، فهو كمن لا يرى أن خلف هذه الصورة الظاهرة الإنسانية أمراً آخر يدبرها ويصرفها، ومن أبصر عنده صورة زيد فقد أبصره بلا شك، والذي اعترف باللب علم أن خلف هذه الصورة أمراً آخر هذا الأثر الظاهر من هذه الصورة لذلك الباطن المستور في هذا الحجاب دليله الموت مع بقاء الصورة وإزالة الحكم، فمن قال: إن زيداً عين ذلك المدبر لا عين الصورة وأن الصورة عنده لا فرق بينها وبين ما أجمعنا عليه من صورة مثله من خشب أو جص قال إنه ما رآه، ومن قال إن زيداً هو المجموع فهو الظاهر والباطن قال: رآه ما رآه، كما قال في المعنى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] فأحسن القول إثبات الأمرين على الوجهين [الطويل]:

فما ثَمَّ مشهودٌ وما ثم شاهدٌ ... سوى واحدٍ والفَرْقُ يُعْقَلُ بالجَمْعِ
فمن قال شاهَدْناه يصدقُ قوله ... ومن قال لم نشهد فللضعف والصَّدْعِ
إذا اتَّصَفَتْ عَيْنٌ بصَدْعٍ ولم تَزَلْ ... بها صِفَةُ الصَّدْعِ المُزِيلَةُ للنَّفْعِ
على السَّمْعِ عَوَّلْنَا فكُنّا أولي النُّهَى ... ولا عِلْمَ فيما لا يكون عن السَّمْعِ
إذا كان معصوماً وقال فقَوْلُه ... هو الحقّ لا يأتيه مَيْنٌ على القَطْعِ
فعَقْلٌ وشَرْعٌ صاحبان تَآلَفَا ... فبُورِكَ مِنْ عَقْلٍ وبُورِكَ من شَرْعِ

واعلم أن الاتباع إنما هو فيما حده لك في قوله ورسمه، فتمشي حيث مشى بك، وتقف حيث وقف بك، وتنظر فيما قال لك انظر، وتسلم فيما قال لك سلم، وتعقل فيما قال لك اعقل، وتؤمن فيما قال لك آمن، فإن الآيات الإلهية الواردة في الذكر الحكيم وردت متنوّعة وتنوّع لتنوعها وصف المخاطب بها فمنها: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]

و﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] و﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] و﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩] و﴿لَآيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] و﴿آيات للمتقين﴾ و﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤] و﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] و﴿آيات لأولي الأبصار﴾ ففصل كما فصل ولا تتعدّ إلى غير ما ذكر، بل نزل كل آية وغيرها بموضعها. وانظر فيمن خاطب بها وكن أنت المخاطب بها فإنك مجموع ما ذكر، فإنك المنعوت بالبصر والنهى واللب والعقل والتفكر والعلم والإيمان والسمع والقلب، فأظهر بنظرك بالصفة التي نعتك بها في تلك الآية الخاصة تكن ممن جمع له القرآن فاجتمع عليه فاستظهره فكان من أهله بل هو عين القرآن، إذا كان على هذا الوصف وهو من أهل الله وخاصته فالقول كله حسن وأحسن وما ثم سوء إلا في المقول عنه ذلك هو السوء أو في المتكلم به ليس في القول [الخفيف]:

ليس في القَوْل والكَلام قَبِيحُ　　　إنّما القُبْحُ في الذي قيل عَنْهُ

أو قيل أو تكلم به أو تكلم عنه، فافهم ذلك وخذ الوجود كله على أنه كتاب مسطور وإن قلت مرقوم فهو أبلغ فإنه ذو وجهين ناطق بالحق وعن الحق تكن من الذين هداهم الله أي وفقهم بما أعطاهم من البيان وأولئك هم أولو الألباب الغواصون على خفايا الأمور وحقائقها المستخرجون كنوزها والحالون عقودها ورموزها، والعالمون بما تقع به الإشارات في الموضع الذي تسمح فيه العبارات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [البقرة: ١٦٣]

[نظم: الوافر]

بتَوْحيدِ الإلهِ يقولُ قَوْمٌ　　　وتَوْحيدُ الكَثِيرِ هو الوُجُودُ

ومن أسمائه الحُسْنَى عَلِمْنا　　　بأنّ الله يفعل ما يُرِيدُ

فكان بنا الإلهُ وفيه كُنَّا　　　هو المَوْلَى ونحن له عَبِيدُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله أمرنا بتوحيده في ألوهته فلا إله إلا هو، كما نهانا عن التفكر في ذاته، فعصاه أهل النظر في ذلك ممن يزعم أنه من أهل الله كالقدماء وغيرهم من المتكلمين وبعض الصوفية كأبي حامد وغيره في مضنونه وغير مضنونه، واحتجوا بأمور هي عليهم لا لهم، وبعد استيفاء النظر أقرّوا بالعجز، فلو كان ثم علم وإيمان حق وصدق لكان ذلك في أوّل قدم فتعدوا حدود الله التي هي أعظم الحدود وجعلوا ذلك التعدي قربة إليه ولم يعلموا أن ذلك عين البعد منه وعند كشف الغطاء يظهر من أعطى ومن أعطي [الرجز]:

سوف ترى إذا انجَلَى الغُبَارُ　　　أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أم حِمَارُ

فالصورة صورة فرس والخبرة خبرة حمار، هذا الذكر يعطي الذاكر به رجاء عظيماً وفتحاً مبيناً، وذلك أن الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله فما عبدوا إلا الله فلما قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأكدوا

وذكروا العلة، فقال الله لنا: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ﴾ والإله الذي يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذي أشرك به ﴿لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] كأنكم ما اختلفتم في أحديته فقال ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾، فجمعنا وإياهم ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] فما أشركوا إلا بسببه فيما أعطاهم نظرهم، ومن قصد من أجل أمر ما فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد، كما يقال: من صحبك لأمر أو أحبك لأمر ولى بانقضائه، ولهذا ذكر الله أنهم يتبرؤون منهم يوم القيامة، وما أخذوا إلا من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم لا أنهم جهلوا قدر الله في ذلك، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ونبههم فقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله، ثم وصفهم بأنهم في شركهم ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧] ومبيناً لأنهم أوقعوا أنفسهم في الحيرة لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم من الله شيئاً فهي شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم. ثم أخبرنا الله أنه قضى أن لا نعبد إلا إياه بما نسبوه من الألوهة لهم أي جعلوهم كالنواب لله والوزراء كأن الله استخلفهم، ومن عادة الخليفة أن يكون في رتبة من استخلفه عند المستخلف عليه، فلهذا نسبوا الألوهة لهم ابتداء من غير نظر فيمن جعل ذلك وقول من قال: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [صٓ: ٥] إنما كان من أجل اعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة على الجميع، فأشبه هذا القول ما ثبت في الشرع الصحيح من اختلاف الصور في التجلي، ومعلوم عند من يشاهد ذلك أن الصورة ما هي هذه الصورة، وكل صورة لا بد أن يقول المشاهد لها أنها الله، لكن لما كان هذا من عند الله وذلك الآخر من عندهم أنكر عليهم التحكم في ذلك كما ثبت في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] هذا حقيقة، فوجه الله موجود في كل جهة يتولى أحد إليها، ومع هذا لو تولى الإنسان في صلاته إلى غير الكعبة مع علمه بجهة الكعبة لم تقبل صلاته لأنه ما شرع له إلا استقبال هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة، فإذا تولى في غير هذه العبادة التي لا تصح إلا بتعيين هذه الجهة الخاصة فإن الله يقبل ذلك التولي كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولى إليها ما فيها وجه الله لكان كافراً أو جاهلاً، ومع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمال حيث شرعها الله ولهذا اختلفت الشرائع، فما كان محرّماً في شرع ما حلله الله في شرع آخر، ونسخ ذلك الحكم الأوّل في ذلك المحكوم عليه بحكم آخر في عين ذلك المحكوم عليه قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فما نسخ من شرع واتبعه من اتبعه بعد نسخه فذلك المسمى هوى النفس الذي قال الله فيه لخليفته داود: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ يعني الحق الذي أنزلته إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ وهو ما خالف شرعك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [صٓ: ٢٦] وهو ما شرعه الله لك على الخصوص، فإذا علمت هذا وتقرر لديك علمت أن الله إله واحد في كل شرع عيناً وكثير صورة وكوناً، فإن الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه وكلها حق ومدلولها صدق، والتجلي في الصورة يكثره أيضاً لاختلافها والعين واحدة، فإذا كان الأمر هكذا فما تصنع أو كيف يصح لي أن أخطىء قائلاً ولهذا

لا يصح خطأ من أحد فيه وإنما الخطأ في إثبات الغير وهو القول بالشريك فهو القول بالعدم لأن الشريك ليس تم ولذلك لا يغفره الله لأن الغفر الستر ولا يستر إلا من له وجود والشريك عدم فلا يستر فهي كلمة تحقيق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] لأنه لا يجده فلو وجده لصح وكان للمغفرة عين تتعلق بها، وما في الوجود من يقبل الأضداد إلا العالم من حيث ما هو واحد وفي هذا الواحد ظهرت الأضداد وما هي إلا أحكام أعيان الممكنات في عين الوجود التي بظهورها علمت الأسماء الإلهية المتضادة وأمثالها، فإذا علمت هذا فقل بعد ذلك ما شئت، أما كثرة الأسماء أظهرت كثرة الأحكام، وأما كثرة الأحكام أظهرت كثرة الأسماء فإنه أمر لا ينكره عقل ولا شرع، فالوجود يشهد له، وما بقي إلا ما ذكرناه إلى من ينسب الحكم هل للأسماء الإلَهية أم للممكنات الكونية وهما مرتبطان محكوم بهما في عين واحدة [الطويل]:

فيا خَيْبَةَ الجُهَّال ماذا يَفوتُهُمْ ... وماذا يَفُوتُ القائلين بجَهْلِهِمْ
فقد قلت هذا ثم هذا، فإنني ... من أجل الذي قد قلت فيهم من أَهْلِهِمْ

فمن وحد ما أنصف ومن أشرك فما أصاب هو تعالى واحد لا بتوحيده موحد ولا بتوحيد لنفسه لأنه واحد لنفسه، فما أحديته مجعولة ولا أحدية كثرته مجهولة، وما ثم إلا عدم ووجود، فالوجود له والعدم ليس له لكن له الإعدام، ولا يقال: والعدم لغيره فتثبت عين ما تنفي فتجوز في اللفظ، وما بين الوجود والعدم ما لا يتصف بالوجود ولا بالعدم وهو العالم معطي الأحكام لعين الوجود والصور لعين الشهود والمدلولات لأدلة العقود، فشاهد ومشهود، وعاقد ومعقود، وموجد وموجود، وما ثم أمر مفقود فقد تميزت الحدود بل ميزت كل محدود، وما ثم إلا محدود لمن عرف العدم والوجود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]

[نظم: الوافر]

أنا عِنْدَ الذي ما زال عِنْدِي ... فزالَ نَفادُنا فلنا البَقاءُ
تَقَاسَمْنَا الوُجُودَ على سَواءٍ ... فكان له السَّنا ولنا السَّناءُ
به فانْظُرْ إذا ما قُلْتَ أنا ... فنحن به له فلنا الثَّناءُ
رَأَينَاهُ بغير اسمي وَحِيداً ... نَزيهاً لا يُنَهْنِهُهُ اللّقاءُ
فلمّا أن تَسَمَّى غاب عنّا ... وأُسْبِلَ دون أعيُننا الغطاءُ

قال الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٣٥] فله السنا، وقال: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] فله ولنا السناء بصعودنا إليه. وقال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]: [المتقارب]

فنحن وما عندنا عنده ... وليس الذي عنده عندنا

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ﴾ [الحجر: ٢١] قلنا ولما عندنا البقاء فهو وإن نفد ما عندنا من عندنا فإنه لا ينفد من عنده ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الشورى: ٣٦] وما عند الله إلا العالم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣] ممن هو عنده، كذا قال الله سبحانه في كتابه: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأن بقاء العالم إذا وصف بالوجود بإبقائه، وإذا أبقيناه على حاله مع ظهور أحكامه في عين الوجود فله البقاء وهو بكل حال لم يزل في درجة الإمكان فهي له باقية فهو خير وأبقى لأن له الحكم في عين الوجود والحكم لا يزال باقياً فهو خير وأبقى ممن هو منه خير وأبقى في هذا الحكم لما أعطى من العلم بنفسه للعالم به ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه لولا بقاء عينه ما كان لحكم هذا الممكن فيما يظهر فهو خير وأبقى ممن هو عنده خير وأبقى، فخير وأبقى ممن هو خير وأبقى [المتقارب]:

فعِنْدِيَّةُ الحَقّ ما عِنْدَها ... سِوَانا وما عِنْدَنَا من سِوَاهْ

فخَيْرِيَّةُ الحَقّ مشهودةٌ ... وخَيْرِيَّةُ الكون ما لا نَرَاهْ

فلمّا حَمَانَا أرانا حِمَا ... نا فلما رأيناه كنّا حِمَاهْ

فمنه إلينا ومنّا إليه ... فعين ضلالتنا مِنْ هُدَاهْ

فللعَبْدِ في ذا وذاك الذي ... رأيناه من حكمه ما نَوَاهْ

فأعيان العالم محفوظون في خزائنه عنده وخزائنه علمه ومختزنه نحن، فنحن أثبتنا له حكم الاختزان لأنه ما علمنا إلا منا فكان طريقاً وسطاً بين شيئية ثبوتنا وشيئية وجودنا، فإذا أراد أن ينقلنا إلى شيئية وجودنا أمرنا عليه فاكتسبنا الوجود منه فظهرنا بصورته في شيئية وجودنا وصورته ما نحن عليه في شيئية ثبوتنا فإن علمه عين ذاته، وإنما سمي علماً لتعلقه بالمعلوم والتعلق محبة، فلو كان العدم وسطاً بين شيئية الثبوت وشيئية الوجود لكان إذا أراد إيجادنا مر بنا على العدم فاكتسبنا منه نفي شيئية الثبوت فلم نوجد لا في الثبوت ولا في الوجود، فلذلك لم يكن لنا طريق إلا على وجود الحق لنستفيد منه الوجود، فتفهم هذا الترتيب فإنه نافع مفيد فإنه يعطيك العلم بحكم المواطن وإنها تحكم بنفسها في كل من ظهر فيها، فمن مر على موطن انصبغ به، والدليل الواضح في ذلك رؤيتك الله تعالى في النوم وهو موطن الخيال، فلا ترى الحق فيه إلا في صورة جسدية كانت تلك الصورة ما كانت فهذا حكم الموطن قد حكم عليك في الحق أنك لا تراه إلا هكذا، كما أنك إذا دخلت موطن النظر العقلي وخرجت عن خزانة الخيال وموطنه لم تدرك الحق تعالى إلا منزهاً عن الصورة التي أدركته فيها في موطن الخيال، وإذا كان الحكم للموطن عرفت، إذا رأيت الحق ما رأيت وأثبت ذلك للموطن أعني ذلك الحكم حتى يبقى الحق لك مجهولاً أبداً فلا يحصل لك منه علم في نفسك إلا بتوحيد المرتبة له، وأما أن تعلم ذاته فمحال ذلك لأنك ما تخلو عن موطن تكون فيه يحكم عليك ذلك الموطن بأن لا ترى الحق إلا به فإنك تفارق ما أعطاك من العلم

به في موطن آخر فتحكم على الحق في كل موطن بحكم ما هو عين الحكم الذي حكمت به عليه في الموطن الذي قبله، فتعرف عند ذلك أنك ما تعرفه من حيث يعرف نفسه، وهذا غايتنا من العلم به تعالى، فما عندنا منه في موطن ينفد في موطن آخر فما عندنا ينفد وما عند الله باقٍ من علمه بنفسه لا يتغير ولا يتبدل ولا يتنوع لنفسه في نفسه بتنوع المواطن، فإن المواطن تنوعها لذاتها، ولو لم تتنوع لكانت موطناً واحداً، كما أن الأسماء لو لم تختلف معانيها لكانت اسماً واحداً كما هي واحد من حيث مسماها في مثل قوله ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] هذا من حيث المسمى فإنه قال: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فوحد لما أراد المسمى ولم يراع اختلاف الحقائق التي تدل عليه ألفاظ هذه الأسماء الحسنى، فإن لم تعلم قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] على ما أعلمتك به فما علمت إلا صورة صحيحة لا روح لها، فإذا علمت الأمر كما أعلمتك به نفخت في تلك الصورة الظاهرة روحاً تحيى به فكنت خالقاً داخلاً في جملة من وصف الله نفسه بالفضل عليه في ذلك فقال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فأثبتك وكل من أنشأ صورة بغير روح فذلك هو المصوّر الذي يعذب بما صوره يوم القيامة بأن يقال له هنالك أحي ما خلقت وليس بمحيي، ويقال له: انفخ فيها روحاً وليس بنافخ، وهذا من حكم الموطن لأن ذلك الموطن أعني موطن يوم الحشر يعطي ظهور عجز العالم عما كان ينسب إليه في موطن الدنيا من الاقتدار عليه، كان عيسى عليه السلام ينفخ في الطائر الذي خلقه روحاً فيكون طائراً بالصورة والمعنى، وقيل: ليس إلا صورة طائر لا طائراً ولذلك قال عز وجل: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩] ما قال طيراً حتى حصل فيه الروح، وقد ثبت عندنا عن ذي النون المصري أنه أحيى ابن العجوز بإذن الله الذي التقمه التمساح، وأن أبا يزيد أحيى النملة بإذن الله، كما أن موطن الخيال يعطي في أعين الناظرين حياة الجمادات وحركتها وهي في نفسها ليست بتلك الحياة التي تدركها الأبصار كحبال سحرة موسى عليه السلام وعصيهم يخيل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى الذي سحروا به أعين الناس، فتلك حبال نشأت بين الخيال وبين أعين الناظرين كصورة السماء في المرآة فما هي السماء ولا غير السماء، فإنك تعلم قطعاً أن الجرم الذي رأيت في المرآة أقل من جرم السماء وأكبر من جرم المرآة، وتعلم قطعاً أنك ما رأيت إلا السماء عينها، فلهذا جعلنا الحكم للمواطن، فلا يجيء من العالم أمر يسمى خرق عادة إلا بإذن الله فبغير إذن الله ما يصح ولهذا ما يكون من كل أحد ظهور ذلك وإن كنا نعلم أنه ما يحدث صورة في العالم إلا والحياة تصحبها وهي روحها وبذلك الروح تكون تلك الصورة مسبحة، فالروح تسبح الله تعالى، والصورة مسبحة بالروح ربها تعالى [مخلع البسيط]:

فـقـد عَـلِـمْـتَ الـذي أقـولُ ... ولَـسْـتَ تـدري الـذي يَـقُـولُ
ولـسـتُ أدري الـذي نَـقُـولُ ... فـإنـه الـنـاطـقُ الـقَـؤُولُ

وهذا القدر كاف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والسبعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢]

[نظم: البسيط]

شَعَائرُ الله أعلامٌ لنا نُصِبَتْ ... لِنَعْلَمَ الفَرْقَ بين الحَقِّ والخَلْقِ
وهي الحدودُ التي قامت بَرَازِخُهَا ... وقايةً للذي يقول بالفَرْقِ
فمن يُعَظِّمْها كانت وِقَايَتَهُ ... وهو الذي يَتَّقي الأشياءَ بالحَقِّ
الله دون الخَلْقِ له من مُنَزَّلَةٍ ... يوم الوفود تسمَّى مَقْعَدَ الصِّدْقِ
يَحُوزُها بالذي حاز السباق لها ... لمّا جَرَى معهم في حَلْبَةِ السَّبْقِ
يَفْنَى ويَبْقَى الذي يدعوه مُتَّصفاً ... أسماؤه عندنا بالمُفْني والمُبْقي

قال الله تعالى في تعظيمها، لا بل فيها: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا﴾ [الحج: ٣٢، ٣٣] يعني الشعائر ﴿مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣] وهو بيت الإيمان عند أهل الإشارات، وليس إلا قلب المؤمن الذي وسع عظمة الله وجلاله شعائر الله أعلامه وأعلامه الدلائل عليه الموصلة إليه، ويا عجباً كيف يصل إليه وهو عنده كما قال أبو يزيد وقد سمع قارئاً يقرأ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥] فصاح وبكى حتى طار الدم من عينيه وضرب المنبر وقال: كيف يحشر إليه من هو جليسه؟ فصدق الله في الكمال فإن المتقي ما يتقي الرحمن، وصدق أبو يزيد فإنه ما كان مشهوده في الحال إلا الرحمن والولي لا يتعدى ذوقه ولا ينطق بغير حاله ويرد كل شيء يسمع إلى الحال الذي يغلب عليه، وكان حال أبي يزيد في ذلك الوقت هو الذي نطق به فالمرء مخبوء تحت لسانه، فإن اللسان ترجمان أحوال الناطق. ثم اعلم أن البدن جعلها الله من شعائره ولهذا تشعر ليعلم أنها من شعائر الله، وما وهب لله لا رجعة فيه، ألا تراها إذا ماتت قبل الوصول إلى البيت كيف ينحرها صاحبها ويخلي بينها وبين الناس ولا يأكل منها شيئاً، فهذا من منة الله حيث جعلك مثلاً وميزك عنه وجعل لك ملكاً وطلب منك أن تقرضه والنعمة بالأصالة نعمته وهذه كلها من شعائر الله، فإن كل شعيرة منها دليل على الله من حيث أمر ما خاص أراده الله وأبانه لأهل الفهم من عباده فيتفاضلون في ذلك على قدر فهمهم، فإذا رأيت ما يقال فيه أنه من شعائر الله وتجهل أنت صورته في الشعائر ولا تعلم ما تدل عليه هذه الشعيرة فاعلم أن تلك الشعيرة ما خاطبك الحق بها ولا وضعها لك وإنما وضعها لمن يفهمها عنه ولك أنت شعيرة أيضاً غيرها وهي كل ما تعرف أنها دلالة لك عليه كما قال أبو العتاهية [المتقارب]:

وفي كُلّ شيء له آيةٌ ... تَدُلُّ على أنّه وَاحِدُ

فقف عندها ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فيقوى فهمك فيما أنزله ويعلمك ما لم تكن تعلم، فإذا أمكنك الحق من نفسك علمت أنك من أقوى الشعائر عليه وأوضحها، ولهذا

جاءت الشريعة بقولها: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**»، فإذا وصلت إلى ما أوصلتك إليه شعائر نفسك وشاهدت المشعور رأيته على صورتك، فمن هناك تعلم أنك الأصل في علمه بك، وأنه ما تجلى لك، إلا في صورة علمه بك، ولاكان عالماً بك إلا منك، وأنت بذاتك أعطيته لعلم بك، فأنت الشعيرة له عليك، فإن رأيته على غير صورتك فما رأيته من كونك شعيرة له، فلا تنكره إذا رأيت ما لا تعرف حين ينكره غيرك، فإن تلك الحضرة لا مجلى لأحد فيها إلا لله، فإذا كان هذا ارجع في نظرك منه إليك فترى نفسك في تلك الصورة التي رأيته عليها وما أنت انصبغت بها منه وإنما هي أيضاً صورتك في ثبوتك، وما كان وصل وقت دخولك فيها وظهورك بها فإن الصور تتقلب عليك إلى ما لا نهاية له وتتقلب فيها أنت وتظهر بها إلى ما لا نهاية فيه ولكن حالاً بعد حال انتقالاً لا يزول، وقد علمك تعالى في هذه الصور على عدم تناهيها فتجلى لك في صورة لم يبلغ وقت ظهورك بها لأنك مقيد وهو غير مقيد بل قيده إطلاقه، وإنما يفعل هذا مع عباده ليظهر لهم في حال النكرة ولهذا ينكرونه إلا العارفون بهذا المقام فإنهم لا ينكرونه في أي صورة ظهر فإنهم قد حفظوا الأصل وهو أنه ما يتجلى لمخلوق إلا في صورة المخلوق، أما التي هو عليها في الحال فيعرفه أو ما يكون عليها بعد ذلك فينكره حتى يرى تلك الصورة قد دخل فيها فحينئذٍ يعرفه، فإن الله علمه وعلم ما يؤول إليه، والمخلوق لا يعلم من أحواله إلا ما هو عليه في الوقت ولذلك يقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ومن عباد الله من يعلم ذلك إذا رأى الحق في صورة لا يعرفها علم بحكم الموطن وما عنده من القبول أنه ما تجلى له إلا في صورة هي له، وما وصل وقتها فعلمها قبل أن يدخل فيها، فهذا من الزيادة في العلم التي زادها الله، فشكر الله الذي عرفه في موطن الإنكار ولذلك عظم الله هذا الفضل فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] فكان الحق في هذا الموطن من شعائر نفسك فعرفت نفسك به كما عرفته بنفسك فتأمل [مجزوء الرمل]:

فاجْتَمَعْنا في الشَّعَائِرْ … وافْتَرَقْنا في السَّرَائِرْ
فلنا منه التَّجلِّي … وله منا الضَّمَائِرْ
فَلِمِثْلِ ذا عُبَيْدٌ … هائمٌ فيه يُبَادِرْ
فإذا عَلِمْتَ هذا لم … تَكُنْ عنه بصَادِرْ
فهو الصَّادرُ عَنْكُمُ … مثل أوراق الدفاترْ
بعضُها يَسْتُرُ بعضاً … بأوائلِ وأوَاخِرْ
فَلْيُبَادِرْ من يُبَادِرْ … ولْيُفَاخِرْ من يُفَاخِرْ

فما عظم الله شعائره سدى لأنه ما عظم إلا من يقبل التعظيم، وأما العظيم فلا يعظم فإن الموجود لا يوجد والله عظيم والعالم كله لإمكانه حقير إلا أنه يقبل التعظيم، ولم يكن له طريق في التعظيم، إلا أن يكون من شعائر الله عليه، فلما كان في نفس الأمر شعيرة عليه عرفنا الحق بذلك فنظرنا فرأينا حقية قوله فاستدللنا بنا عليه وبه إذا ظهر في النكرة علينا [المتقارب]:

فمنه إليّ دليل عليـ ... يَ ومني إليه دليل عليه
فنحن لديه كما قاله ... بأعماله ثم نحن لديه
وأعماله عين أعياننا ... فبدئي منه وعودي إليه

ولو لم يكن الأمر هكذا ما صدق اتخاذك إياه وكيلاً، والمال ماله فالمال مالك، والإشارة أن الصورة صورتك فصدق لن تراني إذ قال له موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وأداة لن تنفي الأفعال المستقبلة، والإشارة أن من جهلك في الحال جهلك في المآل لأنك إذا ظهرت له في المآل ما تظهر له بصورة الحال التي جهلك فيها عند طلبه رؤيتك، وإنما تظهر له بصورة حال ذلك المآل، فلا يزال منكراً ما يرى حتى يعرف الموطن وحكمه فيعلم ما يرى وما هو الحكم عليه فإن الله لم يزل ظاهراً لذي عينين وأعين، وأما ذو العين الواحدة فهو دجال أعور لم يزل في ربقة التقييد مغلولاً، فمن فتح الله عينيه التي امتن الله بهما عليه في قوله عز وجل: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ [البلد. ٨] ليشهدني في الحالين: في الحال الراهنة والحال المستقبلة، فمن لم يرني في الحال وهو ناظر إليّ فإنه أبعد أن يراني في حال المآل وهو يراني ولكن لا يعرف أني مطلوبه وسبب ذلك أنه يطلبني بالعلامة، وهل هذا إلا عين الجهل بي [الطويل]:

وهل ثَمَّ غَيْري أو يكون ولَيْسَني ... فيا خَيْبَةَ الأبصار عند البَصَائِرِ
فإيّاك والأفكار إن كُنْتَ طالباً ... فإنّ مَحَلَّ الابْتِلاءِ سَرَائِري

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والسبعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: لا حول ولا قوة إلا بالله

[نظم: السريع]

الحَوْلُ والقُوّةُ لله ... عِنْدَ الذي يؤمن بالله
وإنما التّحْقيقُ عَبْدٌ رأى ... الحَوْلَ والقوّة لله
ومن يَرَى الأمْرَيْن في نَفْسِه ... فهو على نُورٍ مِنَ الله

قال الله تعالى معرفاً أن موسى عليه السلام قال لقومه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وشرع لنا في القسمة بيننا وبينه أن نقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فقال: هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، اعلم أن لا حول ولا قوة إلا بالله من خصائص من خلقه الله على صورته وهو الإنسان الكامل، فإن الملك ليس من حقيقته أن يكون هذا مقامه بل هو المتبري لأنه ليس بعبد جامع وإنما هو عضو من أعضاء العبد الجامع، فالعبد الجامع هو الذي لم يبقِ صفة في سيده إلا وهي فيه ومن صورته في الاقتدار على إيجادنا قبولنا لذلك، فما ثم قوّة مطلقة من واحد دون مساعد، فلما علم منا أنا نعلم ذلك شرع لنا أن نستعين به إذ القابل يحتاج إلى مقتدر، كما أنّ المقتدر طلب القبول من القابل، فصحت القسمة بيننا وبينه تعالى

فإنه الصادق وقد قال: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي**» فالاقتدار منه والقبول منا، وبهما ظهر العالم في الوجود الدليل أنّ المحال لا يقبل الوجود فلا ينفذ فيه الاقتدار لأنّ من حقيقة الاقتدار أنه لا يتعلق إلا بالممكن ولا معنى للممكن إلا القبول فلا يصح أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله إلا العبد الجامع، فكل من تبرأ فهو جزء من الجامع، وكل من أثبت الأمرين فهو جامع عالم بنفسه وبربه أديب وَفَى الأمر حقه [المتقارب]:

فـلا حَـوْلَ مِـنْـه ولا قُـوَّة ... إذا لـم أكُـنْ وأنـا الـواقِـع

ولا حَـوْلَ مِـنِّـي ولا قُـوَّة ... إذا لـم يَـكُـنْ وأنـا الـجَـامِـع

ألا تراها كنزاً أخفاه الله في الملك حتى أوجد آدم على صورته وجعله خليفة في أرضه واعترض من اعترض كما أخبر الله تعالى في ذلك وما سمع قبل خلق آدم لا حول ولا قوّة إلا بالله، وكل قائل يقولها من غير العبد الجامع فإنما يقولها بحكم التبعية له، ولما خلق العرش وأمرت الملائكة أن تحمله لم تطقه فلما عجزت قام الحامل الواحد منهم الذي على صورة الإنسان فقال بلسانه لما أعطاه الله لا حول ولا قوة إلا بالله فقال من بقي من الحملة بقوله فحملت العرش وأطاقته فلما أوجد الله الإنسان الكامل جعل له قلباً كالعرش جعله بيتاً له فما في العالم من يطيق حمل قلب المؤمن لأنهم عجزوا عن حمل العرش وهو في زاوية من زوايا قلب المؤمن لا يحس به ولا يعلم أن ثم عرشاً لخفته عليه، وجعل أسماءه الحسنى تحف بهذا القلب كما تحف الملائكة بالعرش، وجعل حملته العلم الإلهيّ، والحياة والإرادة والقول أربعة فالحياة نظير الحامل الذي على صورة الإنسان من حملة العرش لسريان الحياة في الأشياء فما ثم إلا حيّ، والحياة الشرط المصحح لبقية الصفات من علم وإرادة وقول ورد في الخبر أن جبريل لما علم آدم الطواف بالبيت وقال له: إنا طفنا بالبيت قبل أن تخلق بكذا وكذا ألف سنة فقال له آدم: فما كنتم تقولون عند الطواف به؟ فقال جبريل: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فقال آدم: وأزيدكم أنا: لا حول ولا قوّة إلا بالله، فاختص بهذا الكنز آدم عليه السلام، فما ثم من يحول بينك وبين ما أنت قابل له مما إذا قبلته أضرّ بك وأنزلك على رتبتك أعني رتبة كمالك إلى حيوانيتك إلا الله ولا قوّة لك على ما كلفك من الأعمال إلا بالله، كما لا يحول بين الحق مع اقتداره وبين ما لا يصح فيه وجود إلا بك إلا أنت إذا لم تكن فلا بد من كونك فيما لا يوجد إلا بك ولا قوّة أي لا ينفذ اقتدار في أمر لا يظهر إلا بك، فمن القسمة ظهور حقيقة لا حول ولا قوة إلا بالله فيك وفيه بحسب الأحوال التي تطلبها، فلا أجمع من الإنسان الجامع، ولا أشرف فيه من جزئياته إلا الجزء الملكي منه، كما أن ذكر الله في الصلاة أشرف أجزاء الصلاة لا أن الذكر أشرف من الصلاة، كما أنه لا يكون الملك أشرف من الإنسان لأنه جزء من الإنسان والذكر جزء من الصلاة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يعني بصورتها فإن التكبيرة الأولى تحريمها والسلام منها تحليلها عن الفحشاء والمنكر لما فيها من التحريم

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يعني فيها لأن الذكر جزء منها وهو أكبر أجزائها، وفيه وقعت القسمة بين الله وبين المصلي في الصلاة، فإذا علمت هذا علمت مقام الملك فلم يخرج عنك وأصبت الأمر على ما هو عليه وأنصفت وعرفت من أين أتى على من أتى عليه في باب المفاضلة الله تعالى مجموع أسمائه مع التفاضل فيها في عموم التعلق فاجعل بالك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وتأدب بآداب الحق الذي هو عليها، فإن العبد إذا قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله يصدقه ربه فيقول الرب: لا حول ولا قوّة إلا بي، ولم يتعرّض أن يقول: لا حول ولا قوّة إلا بك يا عبدي فإن هذه الكلمة لا تظهر من قائلها إلا بقائلها، ولكن لما علم تعالى أن الإنسان الحيوان شارك الإنسان الكامل بالصورة الإنسانية علم أنه إذا قال الحق: لا حول ولا قوّة إلا بك طردها الإنسان الحيوان في غير موطنها فأساء الأدب، والإنسان الكامل لا يفعل مثل هذا فراعى الحق الحرمة ليتعلم الكامل فهي مسألة تعلم وتعتقد ولا يفوه بها ناطق ولا تجري على لسان عبد مختص إلا في بيان العلم ليعلم الأمر على ما هو عليه، فإن الله أخذ العهد على العلماء أن يعلموا من لا يعلم ما علمهم الله ومما علمهم الأدب، فلا يضعون الحكمة إلا في أهلها هذا من شأنهم رضي الله عنهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] و﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]

[نظم: البسيط]

الشَّخْصُ مُسْتَدْرَجٌ والصَّدْرُ مَشْرُوحُ ... والكَنْزُ مُسْتَخْرَجٌ والبَابُ مَفْتُوحُ
أينَ الأوائلُ لا كانوا ولا سَلَفُوا ... العَقْلُ يقبلُ ما تأتي به الرُّوحُ
لكنهم حُجِبُوا بالفِكْرِ فاعْتَمَدُوا ... عليه والعلمُ موهوبٌ ومَمْنُوحُ
ما فيه مُكْتَسَبٌ إن كُنْتَ ذا نَصَفٍ ... فليس للعقل تعديلٌ وتَجْرِيحُ
العَدْلُ والجَرْحُ شَرْعُ الله جَاءَ به ... مِيزَانُهُ فَبَدَا نَقْصٌ وتَرْجِيحُ
العقلُ أفْقَرُ خَلْقِ الله فاعْتَبِرُوا ... فإنه خَلْفَ باب الفكر مطروحُ
لولا الإلهُ ولولا ما حَبَاهُ به ... من القُوى لم يَقُمْ بالعقل تسريحُ
إنّ العقول قيودٌ إن وَثِقْتَ بها ... خَسِرْتَ فافْهَمْ فقولي فيه تَلْوِيحُ
ميزانُ شَرْعِكَ لا تَبْرَحْ تَزِينُ به ... فإن رُتْبَتَهُ عدلٌ وتصحيحُ
إن التنافُسَ في علم يقوم به ... صَدْرٌ بنُور شهود الحقّ مشروحُ
هذا التنافسُ لا أبْغي به بَدَلاً ... له من الذّكْرِ قُدُّوس وسُبُّوحُ
لمِثْلِ ذا يَعْمَلِ العاملُ ليس لهم ... في غير ذلك تحسين وتقبيحُ

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] وموجب الفرح المناسبة. ولما

علمنا أنّ الإنسان مجموع ما عند الله علمنا أنه ما عند الله أمر إلا وله إليه نسبه فله منه مناسب، فالعالم لا يرمي بشيء من الوجود وإنما يبرز إليه ما يناسبه منه ولا يغلب عليه حال من الأحوال بل هو مع كل حال بما يناسبه كما هو الله معنا أينما كنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ذلك بل هم بهذا القدر جاهلون، وعنه عمون، وهذا هو الذي أداهم إلى ذم الدنيا وما فيها والزهد في الآخرة وفي الكونين وفي كل ما سوى الله، وانتقدوا على من شغل نفسه بمسمى هذه كلها وجعلهم في ذلك ما حكي عن الأكابر في هذا النوع، وحملوا ألفاظهم على غير وجه ما تعطيه الحقيقة، ورأوا أنّ كل ما سوى الله حجاب عن الله، فأرادوا هتك هذا الحجاب فلم يقدروا عليه إلا بالزهد فيه، وسأبين هذا الفن في هذا الباب بياناً شافياً، وكون الحق كل يوم في شأن الخلق وكون الجنة وهي دار القربة ومحل الرؤية هي دار الشهوات وعموم اللذات ولو كانت حجاباً لكان الزهد والحجاب فيها، وكذلك الدار الدنيا، فأقول: إن الله خلق أجناس الخلق وأنواعه وما أبرز من أشخاصه لننظر فيه نظراً يوصلنا إلى العلم بخالقه فما خلقه لنزهد فيه، فوجب علينا الانكباب عليه والمثابرة والمحبة فيه لأنه طريق النظر الموصل إلى الحق، فمن زهد في الدليل فقد زهد في المدلول وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وجهل حكمة الله في العالم وجهل الحق، وكان من الخاسرين الذين ما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، فالرجل كل الرجل من ظهر بصورة الحق في عبودة محضة فأعطى كل ذي حق حقه، ويبدأ بحق نفسه فإنها أقرب إليه من كل من توجه له عليه حق من المخلوقين، وحق الله أحق بالقضاء، وحق الله عليه إيصال كل حق إلى من يستحقه، ولمثل هذا فليعمل العاملون، إذ ولا بد من إضافة العمل إلينا، فإن الله أضاف الأعمال إلينا وعين لنا محالها وأمكنتها وأزمنتها وأحوالها وأمرنا بها وجوباً وندباً وتخييراً، كما أنه نهانا عز وجل عن أعمال معينة عين لنا محالها وأماكنها وأزمانها وأحوالها تحريماً وتنزيهاً، وجعل لذلك كله جزاء بحساب وبغير حساب من أمور ملذة وأمور مؤلمة دنيا وآخرة، وخلقنا وخلق فينا من يطلب الجزاء الملذ وينفر بالطبع عن الجزاء المؤلم، وجعل لي وعليّ حقاً في رعيتي إذ خلق لي نفساً ناطقة مدبرة عاقلة مفكرة مستعدة لقبول جميع ما كلفها به وهي محل خطابه المقصودة بتكليفه وامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده ومراسمه، حيث حد لها ورسم في حق الحق وحق نفسه وحق غيره، فيطلبه أصحاب الحقوق بحقوقهم نطقاً وحالاً ظاهراً وباطناً، فيطلبه السمع بحقه والبصر واللسان واليدان والبطن والفرج والقدمان والقلب والعقل والفكر والنفس النباتية والحيوانية والغضبية والشهوانية والحرص والأمل والخوف والرجاء والإسلام والإيمان والإحسان وأمثال هؤلاء من عالمه المتصل به، وأمره الحق أن لا يغفل عن أحد من هؤلاء أوّلاً ويصرفهم في المواطن التي عين له الحق، وجعل هذه القوى كلها متوجهة على هذه النفس الناطقة بطلب حقوقها، وجعلها كلها ناطقة بتسبيح الله تعالى جعلاً ذاتياً لا تنفك عنه، وجعل هذه الحقوق التي توجهت لها على النفس الناطقة الحاكمة على الجماعة ثابتة الحق جزاء لما هي عليه من تسبيح الله بحمده دنيا وآخرة، وما منهم من

يخالف أمر الله اختياراً، وأنه إذا وقعت المخالفة منهم فجبراً يجبرهم على ذلك الوالي عليهم الذي أمروا بالسمع والطاعة له، فإن جار فلهم وعليه، وإن عدل فلهم وله، ولم يعطِ الله هؤلاء الرعايا الذين ذكرناهم المتصلين به قوّة الامتناع مما يجبرهم على فعله بخلاف ما خرج عنهم ممن له أمر فيهم. ثم إن الله نعت لهم الجزاء الحسي وأشهدهم إياه في الحياة الدنيا بضرب مثال من نعيم الحياة الدنيا وبالوعد بذلك في الآخرة، ومنهم من أشهده ذلك في الأخرى وهو في الحياة الدنيا مشاهدة عين فرأى ما وقع له برؤيته من الالتذاذ ما لا يقدر قدره وما التذ به إلا من يطلب ذلك من رعيته فأخذ يسأله حقه من ذلك وأن لا يمنعه، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون، وأيّ نفاسة أعظم من هذا؟ فالعارف المكمل المعرفة يعلم أن فيه من يطلب مشاهدة ربه ومعرفته الفكرية والشهودية، فتعين عليه أن يؤدّي إليهم حقهم من ذلك، وعلم أن فيه من يطلب المأكل الشهيّ الذي يلائم مزاجه، والمشرب والمنكح والمركب والملبس والسماع والنعيم الحسي المحسوس، فتعين عليه أيضاً أن يؤدّي إليهم حقوقهم من ذلك التي عين لهم الحق، ومن كان هذا حاله كيف يصح له أن يزهد في شيء من الموجودات وما خلقها الله إلا له، إلا أنه مفتقر إلى علم ما هو له وما هو لغيره لئلا يقول: كل شيء هو له، فلا ينظر من الوجوه الحسان إلا ما يعلم أنه له وما يعلم أنه لغيره يكف بصره ويغضه عنه فإنه محجور عليه ما هو لغيره، فهذا حظه من الورع والاجتناب والزهد، إنما متعلقه الأولوية بخلاف الورع وكل ترك، فأما الأولوية فينظر في الموطن ويعمل بمقتضاه ومقتضاه قد عينه له الحق بما أعلمه به بلسان الشارع فسموا من طريق الأخذ بالأولوية زهاداً حيث أخذوا بها فإن لهم تناول ذلك في الحياة الدنيا فما فعلوا لأن الله خيرهم فما أوجبه عليهم ولا ندبهم إليه ولا حجر عليهم ولا كرهه فاعلم ذلك. ثم إنه ينظر في هذا المخير فيه فلا يخلو حاله في تناوله أن يحول بينه هذا التناول وبين المقام الأعلى الذي رجحه له أو لا يحول، فإن حال بينه وبينه تعين عليه بحكم العقل الصحيح السليم تركه والزهد فيه، وإن كان على بينة من ربه أن ذلك لا يقدح ولا يحول بينه وبين المرتبة العليا من ذلك فلا فائدة لتركه كما قال لنبيه سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [صٓ: ٣٩] ولا تكون ممن تلبس عليه الأمور فيتحيل أنه بزهده فيما هو حق لشخص ما من رعيته ينال حظ ما يطلبه به منه شخص آخر من رعيته فإن ذلك عين الجهل، فإن تلك الحقيقة تقول له ما هذا عين الحق لي، فالأولى بالعبد الذي كلفه الله تدبير نفسه وولاه أن يعلم فإذا علم استعمله علمه حتى يكون بحكم علمه ولا يستعمل هو العلم، فإنه إن استعمل علمه كان علمه بحكمه، فوقتاً يعمل به ووقتاً يتركه أي يترك العمل به، وما عمل الترك إلا بالعلم، وإذا كان العلم يستعمله ويصرفه ويكون هو معمولاً مستعملاً للعلم حكم عليه جبراً على الصواب فوفى الحقوق أربابها، ومثل هذا الإمام في العالم قليل ولذلك يقول: ليس السخي من تسخى بماله وإنما السخي من تسخى بنفسه على العلم فكان تحت سلطان علمه، هذا هو كبير العالم. وأما ما ذكرناه من علم الأوامر والنواهي الإلهية فنوردها إن شاء الله في الباب الأخير من هذا

الكتاب، وبه ختمنا الكتاب، وهو باب الوصية، فانظر إلى ما يعطيك هذا الهجير من الفوائد، وما ذكرت لك ما نتيجة هذه الهجيرات إلا ليكون ذلك باعثاً لك على طلب الأنفس والأوجه والأولى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والسبعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]

[نظم: البسيط]

الـرِّزقُ يـأتـي بـه الـرَّزَّاقُ لـيـس لـه ... اسـم سـواهُ ولا عَـيـنٌ ولا أَثَـرُ

ولا تَـقُـولَـنَّ فـي الـوَهَّـاب إنَّ لـه ... حُـكْـمـاً عـلـيـه فـهـذا لـيـس يُـعْـتَـبَـرُ

فـإنـه واجـبٌ والـوَهْـبُ لـيـس لـه ... حُـكْـمُ الـوُجـوب وفـي الـعَـبْـدِ يُـخْـتَـبَـرُ

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦] ما أحل لك تناوله من الشيء الذي يقوم به أودك لتقوم به في طاعة ربك وإنما سماه بقية لأنه بالأصالة خلق لك ما في الأرض جميعاً، فكنت مطلق التصريف في ذلك تأخذ ما تريد وتترك ما تريد، ثم في ثاني حال حجر عليك بعض ما كان أطلق فيه تصرفك وأبقى لك من ذلك ما شاء أن يبقيه لك فذلك بقية الله، وإنما جعلها خيراً لك لأنه علم من بعض عباده أن نفوسهم تعمى عن هذه البقية بما يعطيهم الأصل فيتصرفون بحكم الأصل فقال لهم: البقية التي أبقى الله خير لكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦] أي مصدقين بأني خلقت لكم ما في الأرض جميعاً، فإن صدقتموني في هذا صدقتموني فيما أبقيت لكم من ذلكم، وإن فصلتم بين الأمرين فآمنتم ببعض وكفرتم ببعض لم تكونوا مؤمنين، ثم إنكم لن تنالوا من ذلك مع جمعكم إياه وانكبابكم عليه إلا ما قدرته لكم وخسرتموني، وسواء عليكم تعرضتم لتحصيل ما ضمنته لكم أو أعرضتم عنه لا بد لي أن أوصله إليكم فإني أطلبكم به كما أطلبكم بآجالكم، وما ذلك من كرامتكم علي ولا من إهانتكم، فإني أرزق البر والفاجر والمكلف وغير المكلف، وأميت البر والفاجر والمكلف وغير المكلف وإنما عنايتي أن أوصل إليك من البقية لا من غيرها، في مثل هذا تظهر عنايتي بالشخص الموصل إليه ذلك فإنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، كما أنه لن تموت نفس حتى يأتيها أجلها المسمى، وسواء كان الرزق قليلاً أو كثيراً، وليس رزقك إلا ما تقوم به نشأتك وتدوم به قوتك وحياتك ليس رزقك ما جمعت وادخرت فقد يكون ذلك ولغيرك لكن حسابه عليك إذا كنت جامعه وكاسبه، فلا تكسب إلا ما يقوتك ويقوت من كلفك الله السعي عليه لا غير، وما زاد على ذلك مما فتحت به عليك فأوصله إنعاماً منك إلى من شئت ممن تعلم منه أنه يستعمله في طاعتي، فإن جهلت فأوصله فإنك لن تخيب من فائدته من كونك منعماً بما سميته ملكاً لك فأنت فيه كرب النعمة وليس غيري فأنت نائبي أو النائب بصورة من استخلفه، وقد رزقت النبات والحيوان والطائع والعاصي، فكن أنت كذلك وتحرى الطائع

جهد استطاعتك فإن ذلك أوفر لحظك وأعلى وفي حقك أولى وأثنى. واعلم أنه كما خلقت لك ما تحيي به ذاتك وتنعم به نفسك اعتناء بك فقد خلقت لك أيضاً ما إذا تصرّفت فيه أحييت به أسمائي ونعمت به نفوسهم وتكون أنت الآتي بذلك إليهم كما أنا الآتي برزقك إليك حيث كنت وكان رزقك، فإني أعلم موضعك ومقرّك، وأعلم عين رزقك وأنت لا تعلمه حتى تأكله أو أعلمك به على التعيين، فإذا تغذيت به وسرى في ذاتك حينئذٍ تعلم أنه رزقك كذلك علمتك فعلمت ما تستحقه الأسماء الحسنى من الرزق الذي تقوم به حياتها ونشأتها، وأعطيتك علم ذلك وعينه وجعلتك الآتي به إليهم، وكما طلبت منك الشكر على ما جئتك به من الرزق كذلك تطلب أنت الشكر على ما أتيت به من أسمائي، وإذا شكرتك أسمائي فأنا شكرتك فسعدت سعادة لم يسعد مثلها إلا من عمل مثل هذا العمل، وأسمائي لا بد أن يصل إليها ذلك من العالم ولكن لا يشكر أسمائي إلا من قصدها بذلك اعتناء منه بجانبها لا من جاء بها غافلاً عنها أن ذلك لها ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] لا والله كما لا يستوي الذين اجترحوا السيئات بالذين آمنوا وعملوا الصالحات في محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون أي ساء من يحكم بذلك، ثم أفصل وأقول قول لقمان لابنه: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ [لقمان: ١٦] أي عند ذي قلب قاسٍ لا شفقة له على خلق الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فإن الحجر لا يقدر أن يمتنع عن تأثيرك فيه بالمعول، والقلب يمتنع عن أثرك فيه بلا شك فإنه لا سلطان لك عليه، فلهذا كان القلب أشد قسوة أي أعظم امتناعاً وأحمى، وإن أحسنت في ظاهره فلا يلزم أن يلين قلبه إليك فذلك إليه.

وحكي أن بعض الناس كسر حجراً صلداً يابساً فرأى في وسط ذلك الحجر تجويفاً فيه دودة في فمها ورقة خضراء تأكلها. وروي في النبوّة الأولى أن لله تعالى تحت الأرض صخرة صماء في جوف تلك الصخرة حيوان لا منفذ له في الصخرة وأن الله قد جعل له فيها غذاء وهو يسبح الله ويقول: سبحان من لا ينساني على بعد مكاني يعني من الموضع الذي تأتي منه الأرزاق لا على بعد مكانها من الله، فإن نسبة الله إلى خلقه من حيث القرب بسكون الراء نسبة واحدة، ومن حيث القرب بفتح الراء نسبة مختلفة فاعلم ذلك أو في السموات بما أودع الله في سباحة الكواكب في أفلاكها من التأثيرات في الأركان لخلق أرزاق العالم أو الأمطار أيضاً، فإن السماء في لسان العرب المطر، قال الشاعر [الوافر]:

إذا سَــقَــطَ الــسَّــمَــاءُ بــأرض قَــوْم

يعني بالسماء هنا المطر وقوله: أو في الأرض بما فيها من القبول والتكوين للأرزاق فإنها محل ظهور الأرزاق كالأم محل ظهور الولد الذي للأب فيه أيضاً أثر بما ألقاه من الماء في الرحم سواء كان مقصوداً له ذلك أو لم يكن كذلك الكوكب يسبح في الفلك، وعن سباحته يكون ما يكون في الأركان الأمهات من الأمور الموجبة للولادة، وسواء كان ذلك مقصوداً للكوكب أو لم يكن بحسب ما يعلمه الله عز وجل مما أوحى به في كل سماء من

الأمر الإلهي الذي لا يعلمه إلا من أوحى به إليه فأينما كانت مثقال هذه الحبة من الخردل لقلتها بل لخفائها يأت بها الله، نبه بهذا التعريف لتأتيه أنت بما كلفك أن تأتيه به فإنك ترجوه فيما تأتيه به ولا يرجوك فيما أتاك به فإنه غني عن العالمين، وأنت من الفقراء إليه، فإتيانك إليه بما كلفك الإتيان به آكد في حقك أن تأتي به لافتقارك وحاجتك لما يحصل لك من المنفعة بذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي هو أخفى أن يعلم ويوصل إليه أي إلى العلم به من حبة الخردل ﴿خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] للطفه بمكان من يطلب تلك الخردلة منه لما له من الحرص على دفع ألم الفقر عنه، فإن الحيوان ما يطلب الرزق إلا لدفع الآلام لا غير، فلو لم يحس بالألم لما تصوّر منه طلب شيء من ذلك فليس نفعه سوى دفع ألمه بذلك وهو الركن الأعظم، ولولا أن حكم الجنة في أنه نفس حصول الشهوة نفس حصول المشتهى بحيث لو تأخرت عنه إلى الزمان الثاني الذي يلي زمان حصول الشهوة لكان ذا ألم لفقد المشتهى زمان الشهوة كالدنيا فإنه لا بد أن يتأخر حصول المشتهي عن زمان الشهوة فلا بد من الألم، فإذا حصل المشتهى فأعظم الالتذاذ به اندفاع ذلك الألم فافهم هذا وحققه فإنه ينفعك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والسبعون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]

[نظم: مجزوء الرمل]

مَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَةَ اللَّهِ ... ما يَرَى عيناً سوى اللَّهِ
كل ما في الكون حُرْمَتُهُ ... ليس في الأعيان إلاّ هِي
ليس بالسّاهي مُعَظِّمُها ... لا ولا في الحكم باللاّهي
كيف يَسْهُو عن محارمه ... من يرى الأشياء بالله
فهو الرَّائي بجَارِحَتِي ... وأنا عن ذاك بالسَّاهي

العالم حرم الحق والكون حرمه الذي أسكن فيه هؤلاء الحرم، وأعظم الحرم ما له فيه أثر الطبع النكاحي لأنه محل التكوين، والعالم كله حرم الله فإنه محل تكوين الأحكام الإلهية لظهور الأعيان، فأي عين ظهر عاد حرمة من الحرم فحواء من آدم سواء منه ظهرت فهي عينه وهو عينها حرمته وزوجته التي كون فيها نبيه لأنها ضلعه القصير قبل الشكل المعلوم بالإنسان. فهكذا ما خلق الله من العالم والإشارة إليه في قوله جميعاً منه وقوله في عيسى وروحه لم ينسبه إلى غير لأنه ماثم غير، فمن عظم حرمة الله من العالم فما عظم إلا نفسه، وقد تبين لك أنك منه لا من ذاتك ولا من أمر آخر، فمن عظم حرمة الله فإنما عظم الله ومن عظم الله كان خيراً له وهو ما يجازيه به من التعظيم في مثل قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢] ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٠] وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] العامل في هذا الظرف في طريقنا قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ أي من يعظمها عند ربه أي في ذلك الموطن، فلتبحث في المواطن التي تكون فيها عند ربك ما هي كالصلاة مثلاً، فإن المصلي يناجي ربه

فهو عند ربه، فإذا عظم حرمة الله في هذا الموطن كان خيراً له، وتعظيم الحرمة أن يتلبس بها حتى تعظم فإذا عظمت كان التكوين كما بها، فلما أثقلت دعوا الله، والمؤمن إذا نام على طهارة فروحه عند ربه فيعظم هناك حرمة الله فيكون الخير الذي له في مثل هذا الموطن المبشرة التي تحصل له في نومه أو يراها له غيره، والمواطن التي يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فيعظم فيها حرمات الله على الشهود، وهذا الباب إن بسطنا القول فيه طال، وهذه الإشارة القليلة تعطي صاحب الفهم بقوّتها ما في البسط من الفوائد الوجودية وهذا كاف في الغرض المقصود، والحمد لله رب العالمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثمانون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿وَءَاتَيْنَهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]

[نظم: البسيط]

مِن المِزَاجِ قُوَى الإنسان أجْمَعُهَا ... رُوحاً وجسماً فلا تَعْدِلْ عن الرَّشَدِ

بذاك يضعفُ في حالِ تَصَرُّفِها ... لعله قبلتها نشأة الجَسَدِ

فإن بَدَا لك ما يذهب بعادتها ... فذاك حكم الإلٰهِ الواحد الصَّمَدِ

كمِثْلِ عيسى ومن قد كان أشْبَهَهُ ... من الأناسِي وما بالرَّبْع من أَحَدِ

يأتي بما جاءكم من خَرْق عادتِه ... سوى الذي خَلَقَ الإنسان في كَبَدِ

قال الله عز وجل: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] فهذا سلام من الله عليه. وقال عيسى عن نفسه عليه السلام إخباراً بحاله مع الله فيما أخبر الله به عن عنايته بيحيى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] وزاد المحمدي الوارث: «كُنتُ نَبِياً وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ» وذلك أن [الطويل]:

عنايةُ رَيْعان الشَّباب قَوِيَّةٌ ... لأن لها القُرْبَ الإلٰهيَّ بالنَّصِّ

لأن عُلُوم القوم ذَوْقٌ وخبرةٌ ... وهذي علوم ليس تُدْرَكُ بالفَحْصِ

فإن رسول الله ﷺ برز بنفسه وحسر الثوب وقال لما أقبل الغيث حتى أصابه أنه حديث عهد بربه، فهذا هو النص الجلي الذي أتى من الشرع في الغيث القريب من الرب فكل أول في العالم فإنه حديث عهد بربه، وكل ما في العالم أول فإنه شيء فهو في وجوده حديث عهد بربه إذ قال له: ﴿كُن﴾ فالعالم كله عالم الأمر سواء كان من عالم الخلق أو لم يكن، وقد بينا عالم الأمر والخلق ما هو وهو الوجه الخاص الذي في عالم الخلق وما عثر عليه أحد من أهل النظر في العلم الإلّهي إلا أهل الله ذوقاً، ولما كان للصبي حدثان هذا القرب وهو قرب التكوين والسماع ولم يحل بينه وبين إدراك قربه من الله حائل لبعده عن عالم الأركان في خلقه فلم يكن عن أب عنصري ولكن كان روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، فلم يكن ثم ما يغيبه عمن صدر عنه فقال مخبراً عن ما شاهده من الحال فحكم في مهده على مرأى من قومه الذين افتروا في حقه على أمّه مريم فبرأها الله بنطقه وبحنين جذع النخلة إليه إذا كثر الشرع في

الحكومة بشاهدين عدلين ولا أعدل من هذين فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فحكم على نفسه بالعبودية لله وما قال ابن فلان لأنه لم يكن ثم وإنما كان حق تجلى في صورة روح جبريل لما في القضية من الجبر الذي حكم في الطبيعة بهذا التكوين الخاص الغير معتاد ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فحصل له إنجيله قبل بعثه فكان على بينة من ربه فحكم بأنه مالك كتابه الإلهي ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] فحكم بأن النبوّة بالجعل لأن الله يقول: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨] فهو في الصورة بالجعل لئلا يتخيل أن ذلك بالذات بل هو اختصاص إلّهي ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي خصني بزيادة لم تحصل لغيري، وتلك الزيادة ختمه للولاية ونزوله في آخر الزمان وحكمه بشرع محمد ﷺ حتى يكون يوم القيامة ممن يرى ربه الرؤية المحمدية في الصور المحمدية ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ من دنيا وآخرة فإنه ذو حشرين: يحشر في صف الرسل ويحشر معنا في أتباع محمد ﷺ ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ المفروضة في أمة محمد ﷺ أن أقيمها لأنه جاء بالألف واللام فيها ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أيضاً كذلك ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] زمان التكليف وهو الحياة الدنيا ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ فأخبر أنه شق في خلفه فإن لأمّه عليه ولادة لما كانت محل تكوينه فقلت نسبته العنصرية في خلقه فكان أقرب إلى ربه فكان أحدث عهد بعبوديته لربه ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢] إذ لا يكون ذلك ممن يكون إلا بالجهل والجهل فيه إنما هو من قوّة سلطان ظلمة العنصر، وقد بينا مرتبة عالم الطبيعة من عالم العناصر في هذا الكتاب في مواضع منه ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ لعلمه بمرتبته من ربه وحظه منه ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يعني له السلامة في ولادته من تأثير العبد المطرود الموكل بالأطفال عند الولادة حين يصرخ الولد إذا وقع من طعنته فلم يكن لعيسى عليه السلام صراخ بل وقع ساجداً لله تعالى: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يكذب من يفتري عليه أنه قتل فلم يقل ويوم أقتل ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣] يعني في القيامة الكبرى أكد موته فآتاه الحكم بما ذكره وهو صبيّ رضيع في المهد، فكان أتم في الوصلة بربه من يحيى ابن خالته فإن عيسى سلم على نفسه بسلام ربه ولهذا ادّعي فيه أنه إله، ويحيى سلم عليه ربه تعالى ولم ينص على أنه عرف بذلك السلام عليه أو لم يعرف.

واعلم أن الناس إنما يستغربون الحكمة من الصبيّ الصغير دون الكبير لأنهم ما عهدوا إلا الحكمة الظاهرة عن التفكر والروية، وليس الصبيّ في العادة بمحل لذلك فيقولون إنه ينطق بها فتظهر عناية الله بهذا المحل الظاهر، فزاد يحيى وعيسى بأنهما على علم مما نطقا به علم ذوق لأن مثل هذا في هذا الزمان والسنّ لا يصح أن يكون إلا ذوقاً وأن الله آتاه الحكم صبياً وهو حكم النبوّة التي لا تكون إلا ذوقاً، فمن كان هجيره هذا فوراثته وإن كان محمدياً لهذين النبيين أو لأحدهما على حسب قوّة نسبته منهما أو من أحدهما، وقد نطق في المهد جماعة أعني في حال الرضاعة، وقد رأينا أعظم من هذا رأينا من تكلم في بطن أمّه وأدّى واجباً وذلك أن أمه عطست وهي حامل به فحمدت الله فقال لها من بطنها: يرحمك الله بكلام سمعه الحاضرون وأما ما يناسب الكلام فإن ابنتي زينب سألتها كالملاعب لها وهي في سن الرضاعة وكان عمرها في ذلك الوقت سنة أو قريباً منها فقلت لها بحضور أمها وجدتها: يا بنية

ما تقولين في الرجل يجامع أهله ولا ينزل؟ فقالت: يجب عليه الغسل، فتعجب الحاضرون من ذلك، وفارقت هذه البنت في تلك السنة وتركتها عند أمها وغبت عنها وأذنت لأمها في الحج في تلك السنة ومشيت أنا على العراق إلى مكة فلما جئنا المعرّف خرجت في جماعة معي أطلب أهلي في الركب الشامي فرأتني وهي ترضع ثدي أمها فقالت: يا أمي هذا أبي قد جاء فنظرت الأمّ حتى رأتني مقبلاً على بعد وهي تقول: هذا أبي هذا أبي فناداني خالها فأقبلت فعندما رأتني ضحكت ورمت بنفسها عليّ وصارت تقول لي: يا أبت يا أبت، فهذا وأمثاله من هذا الباب.

الباب الأحد والثمانون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً

[نظم: البسيط]

مَنْ يَشْهَدِ اللَّهَ في أعماله حَسُنَتْ ... نَشْآتُها فلها في الوَزْن رُجْحَانُ

مع الشهودِ له أجْرٌ يُخَصُّ به ... قَضَى بذلك في التعريف مِيزانُ

إنّ الرسولَ له أجْرٌ تُعَيِّنُهُ ... له رسالته ما فيه نُقْصَانُ

لولا الوجودُ لما كان الشهودُ لنا ... وفي الوجود لنا ربحٌ وخُسْرانُ

وليس يَدْري الذي جئنا به أحَدٌ ... إلا عليمٌ بما في الأمْرِ حَيْرانُ

قال رسول الله ﷺ في الإحسان: «إنه العمل على رؤية الحق في العبادة»، وهو تنبيه عجيب من عالم شفيق على أمته، لأنه علم أنه إذا قام العبد في عمله عبادة وجعل في نفسه أنه يرى ربه ويراه ربه بما استحضره في تلك العبادة على قدر علمه فإنه إذا كان هذا هجيره وديدنه ذلك أبصر أن العامل هو الله لا هو وأن العبد محل ظهور ذلك العمل، كما ورد أن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فالإحسان في العبادة كالروح في الصورة يحييها وإذا أحياها لم تزل تستغفر لصاحبها ولها البقاء الدائم فلا يزال مغفوراً له، فإن الله صادق وقد أخبر أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض كان العمل ما كان، فإن كان خيراً فلا يضيع أجره، وإن لم يكن خيراً فإن الله لا يضيعه لأنه لا بد أن يبدل الله سيئات التائب حسنات، فإن لم يكن العمل غير مضيع وإلاّ ففي أي أمر يقع التبديل لأن الأعمال صور أنشأها العامل لا بل أنشأها الله فإنه العامل والعبد محل ظهور ذلك العمل كالهيولى لما يقبله من فتح الصور فيها، ثم إن الحضور مع الله تعالى وهو الإحسان في ذلك العمل حياة ذلك العمل وبه سمي عبادة، ولولا هذا الحضور ما كان عبادة، فما من مؤمن يعصي إلا وفي نفسه ذل المعصية فلذلك يصير عباده ولو لم يكن إلا علمه بأنها معصية، وأي روح أشرف من العلم كما قال الله عن نفسه إنه أحاط بكل شيء علماً ودل عليه دليل العقل والعمل من الأشياء وهو يعلمه ويعلم حيث هو، فكيف يضيع عنه أو يضيعه وهو خلق من خلقه يسبح بحمده، فإن كانت حياته عن نفخ ربه سبح بحمده، وإن كانت حياته عن

حضور عامله ومنشئه وكان العمل ما كان سبح بحمده واستغفر لعامله فهذا الفرقان بين العملين، فإن أعطى الله المغفرة لغير الحاضر فإنما ذلك مراعاة إلهية لكون هذا العبد أنشأ بوجوده صورة ولا بد لكل صورة من روح فإن الله يغفر له لكونه ظهرت عنه صورة نفخ الحق فيها روحاً منه فسبحت بحمده، فلهذا الاشتراك لحقت المغفرة صاحب ذلك العمل كان من كان، ولحقته متى لحقته، والتروك لا تكون أعمالاً إلا إذا نويت وما لم ينوها صاحبها فإنها ليست بعمل، فإن الأعمال منها ظاهرة وباطنة أو يترك الإنسان ما أمر بفعله فإن الترك عدم محض، إلا أن هناك دقيقة وذلك أن العمل الذي يكون فيه في زمان ترك ما أوجب الله عليه فعله هو الذي يكون صورة من إنشاء عامله لا عين الترك، فإن الزمان إنما هو لذلك العمل المتروك حتى يتوب وهذا أشد المعاصي وأعظمها، ولهذا ذهب من ذهب من أهل الظاهر إلى أنه من صلّى ركعتي الفجر ولم يضطجع فإن صلاة الصبح لا تصح له، وإن لم يركع الفجر لم يجب عليه الاضطجاع وجازت صلاة الصبح وغايته أنه ترك سنة مؤكدة لا إثم عليه في تركها وهذا عين ما ذكرناه والتعليل واحد، فكل عمل مأمور به على طريق الفرض والوجوب وترك، فإن العمل الذي يقوم الإنسان فيه على البدل من العمل المأمور به هو الذي يقوم صورة لا عين الترك فافهم، ولكن إذا كان العمل المتروك يشغل زماناً بذاته لا يصح في ذلك الزمان غيره ويكون مطلقاً لا يكون زماناً مقيداً، ويكون العمل ممن يحرم على العامل التصرّف في عمل غيره كالصلاة، فإن لم يكن كذلك فأي عمل عمله فإنه مقبول أعني من أعمال الخير لأنه عمله في زمان يجوز له فيه عمله، فأحسن العمل ما عمل بشرطه وفي زمانه وتمام خلقه وكمال رتبته في حاله، فحينئذٍ يكون صورة مخلقة، فافهم ذلك واعمل بحسبه فإنك تنتفع بذلك إن شاء الله.

الباب الثاني والثمانون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]

[نظم: الوافر]

ومَنْ يُسْلِمْ إلى الرَّحمٰن وَجهاً ... فذاك الوَجْهُ ليس له انتِهاءُ
لأن الله ليس له ابتداءٌ ... يُعَيِّنُهُ فيَحْصُرُهُ الثناءُ
فأُشْهِدُهُ بإسلامي إليه ... وهذا الحَقُّ ليس به خفاءُ
وذاك العُروَةُ الوُثْقى لدينا ... لمَاسِكها الهُدَى والاعتِلاءُ
لقد قَسَمَ الصَّلاةَ ولَسْتُ كُفْؤاً ... فبان الاهتِدَا والاقْتِداءُ
كأن الحَقَّ لم يَخْلُقْ سِوَائي ... فمَنْزِلُهُ ومَنْزِلُنا سَوَاءُ

يعني في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فلم يفرق بين الاسم الله والاسم الرحمن، بل جعل الاسمين من

الألفاظ المترادفة، وإن كان في الرحمن رائحة الاشتقاق ولكن المدلول واحد من حيث العين المسماة بهذين الاسمين، والمسمى هو المقصود في هذه الآية ولذلك قال: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ومن أسمائه الحسنى: الله والرحمن إلى كل اسم سمى به نفسه مما نعلم ومما لا نعلم ومما لا يصح أن يعلم، لأنه استأثر بأسماء في علم غيبه لما كان الاسم الله قد عصمه الله أن يسمى به غير الله فلا يفهم منه عند التلفظ به وعند رؤيته مرقوماً إلا هوية الحق لا غير فإنه يدل عليه تعالى بحكم المطابقة، قال أبو يزيد عند ذلك أنا الله يعني ذلك المتلفظ به في الدلالة على هويته، يقول رضي الله عنه: أنا أدل على هوية الله من كلمة الله عليها ولذلك سماه كلمته، وقال عليه السلام: «**إنَّ أَوْلِياءَ الله هُمُ الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله**» وسموا أولياء الله لقيام هذه الصفة التي تولاهم الله بها بهم وأي إسلام وانقياد ذاتي لأنه قال وجهه أعظم من هذا الانقياد والإسلام وهو محسن أي فعل ذلك عن شهود منه لأن الإحسان أن ترى ربك في عبادتك فإن العبادة لا تصح من غير شهود، وإن صح العمل فالعمل غير العبادة، فإن العبادة ذاتية للخلق والعمل عارض من الحق عرض له فتختلف الأعمال فيه ومنه، والعبدة واحدة العين، فكما لا تفرق بين الله والرحمن كذلك لا تفرق بين العبد الحقيقي وبين ربه فعندما تراه فلا ينكره إلا من أنكر الرحمن، فلذلك سمي هذا المقام العروة الوثقى أي التي لا تتصف بالانخرام لأنها لذاتها هي عروة وثقى شطرها حق وشطرها خلق، كالصلاة حكم واحد نصفها لله ونصفها للعبد ولم يقل للمصلي ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢] فنبه أن مرجع هذا التفصيل كله إلى عين واحدة ليس غير ذلك العين لها صفة الوجود، فمن لم يكن له مثل هذا النتاج في هذا الهجير فما ذكر الله به وإن لم يزل به متلفظاً فليس المقصود منه إلا ظهور مثل هذا، وهذه الإشارة كافية في هذا الذكر، والحمد لله وحده.

الباب الثالث والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩و ١٠]

[نظم: الرمل]

فَازَتِ النَّفْسُ إذا ما اتَّصَفَتْ	بصفات القُدْس في نَشْأَتِها
أر بأَمْرٍ عارضٍ كان لها	وَقَفَتْ فيه على حِكْمَتِهَا
فهما في الحُكْمِ سِيَّان على	ما اقْتَضَاهُ الأمرُ من سورتها
والذي قد دَسَّها بينهما	دون نَعْتٍ خابَ من جُمْلَتِها
لم يجب من بعد ما تنتجه	أنه الظاهر في صُورتها
فله الحَمْدُ على ذاك وذا	لدخول الكَوْنِ في رَحْمتها

تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكو إلا بربها فبه تشرف وتعظم في ذاتها لأن الزكاة ربوّ، فمن كان الحق سمعه، وبصره وجميع قواه والصورة في الشاهد صورة خلق فقد زكت نفس من هذا نعته وربت وأنبتت من كل زوج بهيج كالأسماء الإلهية لله، والخلق كله بهذا

النعت في نفس الأمر، ولولا أنه هكذا في نفس الأمر ما صح لصورة الخلق ظهور ولا وجود ولذلك ﴿خَابَ مَن دَسَّـٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسها في هذا النعت وما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتي لاينفك عنه يستحيل زواله لذلك وصفه بالخيبة حيث لم يعلم هذا ولذلك قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [الشمس: ٩] ففرض له البقاء، والبقاء ليس إلا لله أو لما كان عند الله وما ثم إلا الله أو ما هو عنده فخزائنه غير نافدة فليس إلا صور تعقب صوراً، والعلم بها يسترسل عليها استرسالاً بقوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] مع علمه بها قبل تفصيلها، فلو علمها مفصلة في حال إجمالها ما علمها فإنها مجملة، والعلم لا يكون علماً حتى يكون تعلقه بما هو المعلوم عليه، فإن المعلوم هو الذي يعطيه بذاته العلم والمعلوم هنا غير مفصل فلا يعلمه إلا غير مفصل إلى أنه يعلم التفصيل في الإجمال، ومثل هذا لا يدل على أن المجمل مفصل إنما يدل على أنه يقبل التفصيل إذا فصل بالفعل هذا معنى ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ وإذا كان الأمر كما ذكرناه فما ثم ﴿مَن دَسَّـٰهَا﴾ ولو كان ثم لكان هو الموصوف بالخيبة لأن الشيء لا يمكن أن ينجعل ولا يندس في غير قابل لاندساسه، وإذا دسه فقد قبله ذلك القابل، وإذا قبله فما تعدى ذلك المدسوس رتبته لأنه حل في موضعه واستقرّ في مكانه، فما خاب من دسه الخيبة المفهومة من الحرمان فله العلم وما له نيل الغرض فحرمانه عدم نيل غرضه فإن العلم ما هو محبوب لكل أحد، ولو كان العلم محبوباً لكل أحد ما قال من قال إن العلم حجاب والحجاب عن الخير تنفر منه الطباع، ونحن إذا قلنا العلم حجاب فإنما نعني به يحجب عن الجهل فإن الوجود والعدم لا يجتمعان أعني النفي والإثبات فما يخيب إلا أصحاب الأغراض وهم الأشقياء، فمن لا غرض له لا خيبة له وأنت تعلم أنه إذا دس شيء في شيء إن لم يسعه فلا يندس فيه وإن اندس فقد وسعه ولا يسعه إلا ما هو له فلكل دار أهل، وما ثم في الآخرة إلا داران جنة ولها أهل وهم الموحدون بأي وجه وحدوا وهم الذين زكوا نفوسهم، والدار الثانية النار ولها أهل وهم الذين لم يوحدوا الله وهم الداسون أنفسهم فخابوا لا بالنظر إلى دارهم ولكن بالنظر إلى الدار الأخرى، فكما أنه لم يتعدَ أحد هنا ما قدر له وما أعطته نشأته الخاصة به كذلك لم يتعد هنالك ما قدر له موطنه الذي هو معين لذلك الذي قدر له، فمن خلق للنعيم فسييسره لليسرى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧] ومن خلق للجحيم فسييسره للعسرى ﴿وَأَمَّا مَنْۢ بَخِلَ﴾ بنفسه على ربه حيث طلب منه قلبه ليتخذه بيتاً له بالإيمان أو التوحيد ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل: ٨] بنفسه عن ربه في زعمه ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٩] وهي أحكام الأسماء الحسنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠] فهذا تيسير التعسير وهو يشبه الدس، فإن الدس يؤذن بالعسر لا بالسهولة، فلو جهد أحد أن يدخل فيما لا يسعه ما يمكن له ذلك جملة واحدة وما كلف الله نفساً إلا وسعها في نفس الأمر، ولذلك وسعت رحمته كل شيء وزال الغضب وارتفع حكمه وتعينت المراتب وبانت المذاهب وتميز المركوب من الراكب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثمانون وأربعمائة

في حال قطب كان منزله ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]

[نظم: الطويل]

إذا احْتُضِرَ الإنسانُ هَيَّأَ ذَاتَهُ   لِرُؤْيَةِ من يَلْقَاه وهو بِعَيْنِهْ
فيا عجباً من غائب وهو حاضرٌ   وليس يراه الشخصُ من أجل كَوْنِهْ
فإن زَالَ عن تركيبه وهو زائلٌ   فإن وجودَ الحقّ في سَتْرِ صَوْنِهْ
ومن فَرَّط قرب الشيء كان حجابه   فلو زال ذاك القربُ قام بِعَوْنِهْ
فيَشْهَدُهُ حالاً وعَيْناً بعينه   وخُصَّ بهذا الوصف من أجل حَيْنِهْ
فسبحان من لا تشهدُ العَيْنُ غَيْرَهُ   على عِزِّهِ فيما يَزِينُ وشَيْنِهْ
فما الشأنُ إلا في وجودي وكونه   فمن بينه كانت شواهد بَيْنِهْ

البين الأول الوصل والآخر الفراق وليس إلا آخر الأنفاس فما بعده نفس خارج لأنه ليس ثم وقد خرج وفارق القلب بصورة ما كشف له، فإن كان الكشف مطابقاً لما كان عليه فهو السعيد، وإن لم يكن مطابقاً فهو بحسب ما كشفه قبل فراقه القلب لأنه هنالك يكتسب الصورة التي يخرج بها، وهذه منة من الله بعبده حتى لا يقبض الله عبداً من عباده إلا كما أخرجه من بطن أمه على الفطرة، فإن المحتضر ما فارق موطن الدنيا إلا أنه على أهبة الرحيل رجله في غرز ركابه وهنالك ينكشف له شهوداً حقيقة قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله في حق طائفة: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] غير أن الذين بقيت لهم أنفاس من الحاضرين لا يبصرون معية الحق في أينية هذا العبد فإنهم في حجاب عن ذلك إلا أهل الله فإنهم يكشفون ما هو للمحتضر مشهود كما كان الأمر عندهم، فإن عم بقوله: ﴿لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] فإنه يريد الذوق فإن ذوق كل شاهد في مشهوده لا يكون لغيره، وإن اتصف بالشهود فالحق عند العارف في العين وعند غير العارف في الأين، فبرحمة من الله كان هذا الفضل من الله، ولولا الدار ما تجذب أهلها جذب المغناطيس الحديد، ولولا أهلها ما هم كأولاد أم عيسى مع الصبغ ما رموا نفوسهم فيها، يقول النبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ لَتَقْتَحِمُونَ فِي النَّارِ كَالفَرَاشِ وَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ**» فشبههم بالفراش الذي يعطيه مزاجه أن يلقي نفسه في السراج فيحترق ولكن هؤلاء الذين هم أهلها، وأما من يدخلها وروداً عارضاً لكونها طريقاً، إلى دار الجنان فهم الذي يتبرمون بها وتخرجهم شفاعة الشافعين وعناية أرحم الراحمين بعد أن تنال منهم النار ما تقتضيه أعمالهم، كما أن الذين هم أهلها في أول دخولهم فيها يتألمون بها أشد الألم ويسألون الخروج منها حتى إذا انتهى الحد فيهم أقاموا فيها بالأهلية لا بالجزاء فعادت النار عليهم نعيماً، فلو عرضوا عند ذلك على الجنة لتألموا لذلك العرض، فينقدح لهذا الذكر أعني لأهله مثل هذه المعارف الشهودية، فإن ادعى أحد هذا الهجير وجاء بعلم غير مشهود له معلومه

رؤية بصر فليس ذلك نتيجة هذا الذكر بل ذلك أمر آخر، فلينتظر فتح هذا الذكر الخاص الذي هو هجيره حتى يمن الله عليه بالشهود البصري لا بد من ذلك فإن الموطن يقتضيه، قال الله عز وجل: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [قٓ: ٢٢] فهو يرى ما لا يرى من عنده من أهله الذين حجبهم الله تعالى عن رؤية ذلك إلى أن يأتيهم أجلهم أيضاً، جعلنا الله عز وجلّ في ذلك المقام ممن يشهد ما يسره لا ما يسوءه آمين بعزته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]

[نظم: الكامل]

إنّ الحياةَ هي النَّعِيمُ فمن يُرِدْ ... تَحصِيلَهُ قبل الممات فقد أَسَا

إلا النّعيم بربّه وشهوده ... فهو المُرَجَّى في لعلَّ وفي عَسَى

عند المُحَقّق والمُخَصَّص بالهُدَى ... وتسهّل الأمر الذي بي قد عَسَا

الواحد الفَرْد الذي بوجوده ... لم يتخذ غير المُهَيْمن مُؤنِسَا

وهو الذي عند الإلٰهِ مقامُهُ ... إذ كان من أدنى الخلائق مَجْلِسَا

يقول الله تعالى: «**أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي**» ومجالسة الحق بما يقتضيه مقام ذلك الذكر كان ما كان، فاعلم أن نية العبد خير من عمله والنية إرادة أي تعلق خاص في الإرادة كالمحبة والشهوة والكره، فالعبد تحت إرادته فلا يخلو في إرادته إما أن يكون على علم بالمراد أو لا يكون، فإن كان على علم فيها فلا يريد إلا ما يلائم طبعه ويحصل غرضه، وإن كان غير عالم بمراده فقد يتضرر به إذا حصل له، فإن راعى الحق الإرادة الطبيعية الأصلية نعم، فإن كل مريد إنما يطلب ما يسرّ به لا ما يسوءه ولكن يجهل الطريق إلى ذلك بعض القاصدين ويعرفه بعضهم، فالعالم يجتنب طرق ما يسوءه والجاهل لا علم له، فإن حصل له ما يسرّه فبالعرض بالنظر إليه وبالعناية الإلهية به، فإن الله تعالى وصف نفسه بأنه لا يبخس أحداً في مراده كان المراد ما كان، ومعلوم أن الإرادة الطبيعية ما قلناه وهي الأصل، وأرجو من الله مراعاة الأصل لنا ولبعض الخلق ابتداء، وأما الانتهاء فإليه مصير الكل، فإذا وصف الله نفسه بأنه يوفي كل أحد عمله أي أجرة عمله في الزمان الذي يريدها فيه ولا يبخسه من ذلك شيئاً فقد حبط عمله إن كانت إرادته الحياة الدنيا، فلا حظ له في الآخرة التي هي الجنة أو النعيم الذي ينتجه العمل لأنه قد استوفاه في الدنيا، فإن سعد بنيل راحة فذلك من الاسم الوهاب والإنعام الذي لا يكون جزاء، فلا يكون لمن هذه حاله إن سعد إلا نعيم الاختصاص سكن حيث سكن واستقر حيث استقر، فإن كان ممن يريد الحياة الدنيا ونقصه من ذلك نفس واحد لم ينعم به فليس هو ممن وفى الله له فيها عمله لأنه ما مكنه من كل ما تعلقت به إرادته في الحياة الدنيا، وهل يتصور وجود هذا مع قرصة البرغوث والعثرة المؤلمة في الطريق أو لا؟

فالآية تتضمن الأمرين وهي في الواحد المحال وقوعه في الوجود أظهر فإنه بعيد أن لا يتألم أحد في الدنيا، فمن أراد الحياة الدنيا فقد أراد المحال، فلو صح أن يقع هذا المراد لكان على الوجه الذي ذكرناه لكنه ليس بواقع، وأما الأمر الآخر، فإنه إذا تألم مثلاً بقرصة برغوث إلى ما فوق ذلك من أكبر أو أصغر، فإن كان مؤمناً فله عليه ثواب في الآخرة فيكون لهذا المريد الحياة الدنيا يعطيه الله ذلك الثواب في الدنيا معجلاً فينعم به، كما كان يفعل الله تعالى بأبي العباس السبتي بمراكش من بلاد الغرب رأيته وفاوضته في شأنه فأخبرني عن نفسه أنه استعجل من الله في الحياة الدنيا ذلك كله فعجله الله له، فكان يمرض ويشفي ويحيي ويميت ويولي ويعزل ويفعل ما يريد كل ذلك بالصدقة، وكان ميزانه في ذلك سباعياً، إلا أنه ذكر لي قال: خبأت لي عنده سبحانه ربع درهم لآخرتي خاصة فشكرت الله على إيمانه وسررت به، وكان شأنه من أعجب الأشياء لا يعرف ذلك الأصل منه كل أحد إلا من ذاقه أو من سأله عن ذلك من الأجانب أولي الفهم فأخبرهم غير هذين الصنفين لا يعرف ذلك، وقد يعطي الله ما أعطى السبتي المذكور لا من كونه أراد ذلك ولكن الله عجل له ذلك زيادة على ما ادخره له في الآخرة فإنه غير مريد تعجيل ذلك المدخر كعمر الواعظ بالأندلس ومن رأينا من هذا الصنف وعملت أنا عليه زماناً في بلدي في أول دخولي هذا الطريق ورأيت فيه عجائب وكان هذا لهم من الله ولنا لا من إرادتهم ولا من إرادتنا، ولو عرف أبو العباس السبتي نفسه معرفتي بها منه ما استعجل ذلك فإنه كان على صورة لا يكون عنها إلا هذا إلا أنه سأل ذلك من الله فأعطاه إياه عن سؤال منه ولو سكت لفاز بالأمرين في الدارين، لكن جهله بنفسه وطبعها الذي طبعت عليه وصورته التي ركبه الله عليها جعلته يسأل فخسر حين ربح غيره والعمل واحد، ولهذا يفرح بالعلم لأنه أشرف صفة يتحلى بها العبد.

واعلم أن الحياة الدنيا ليست غير نعيمها فمن فاته من نعيمها شيء فما وفيت له، وما ذكر الله إلا توفية العمل فهو نعيم العمل وصبره الذي ذكرناه على العثرة في محل التكليف، وقرصة البرغوث وإن لم يكن مؤمناً بالدار الآخرة وفاه الله ما يطلبه ذلك العمل في الحياة الدنيا، فما أعطى الله أحداً الحياة الدنيا مخلصة قط ولا هو واقع، ولو وقع له كل مراد لكان أسعد الخلق، فإنه من إرادته النجاة والبشرى من الله تعالى له بها، وإن لم يكن مؤمناً فما وقع المشروط وقوع عموم الشرط فافهم واعمل بحسب ما تعلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾

[الأحزاب: ٣٦]

[نظم: الوافر]

ألا إنّ الرَّسُولَ هو الذي قد ... حَبَاهُ الله بالشَّرَفِ التَّلِيدِ

فمن يَعْصِ الرسولَ فقد عَصَاهُ ... وحَيَّرَهُ بتَفْصِيلِ الوجودِ

فَرَامَ بِه فَلَم يَقْدِرْ عَلَيه لما في الرَّبِّ من نَعْتِ العَبيدِ
فلم يَعْلَمْ به إذ لم يَجِدْهُ يميّزه له حال الشهودِ
فيَرْكَبُ تارةً مَتْنَ اعْتِرافٍ ويركبُ تارةً مَتْنَ الجُحُودِ
فسبحان المُخَصِّصِ كُلِّ حِزْبٍ بآلام ولذّاتِ المَزِيدِ

قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطق إلا بالله، بل لا ينطق إلا لله منه فإنه صورته وما ورد ومن يعصِ الرسول فقد عصى الله كما أنزله في الطاعة لأنّ طاعة المخلوق لله ذاتية وعصيانه بالواسطة، فلو أنزل هنا الرسول كما أنزله في الطاعة لم يكن إلهاً وهو إله فلا يعصى إلا بحجاب وليس الحجاب سوى عين الرسول، ونحن اليوم أبعد في المعصية للرسول من أصحابه إلى من دونهم إلينا، فنحن ما عصينا إلا أولي أمرنا في وقتنا وهم العلماء منا بما أمر الله به ونهى عنه، فنحن أقل مؤاخذة وأعظم أجراً لأن للواحد منا أجر خمسين ممن يعمل بعمل الصحابة، يقول ﷺ: «**لِلوَاحِدِ مِنْهُمْ أَجرُ خَمْسِينَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ**» فاجعل بالك لكونه لم يقل منكم، ثم قال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فذكر الله تعالى وذكر الرسول وذكرنا أعني أولي الأمر منا، وهم الذين قدمهم الله علينا وجعل زماننا بأيديهم، ولم يكن رسول الله ﷺ يقدم في السرايا وغيرها إلا من هو أعلمهم، وما كان أعلمهم إلا من كان أكثرهم قرآناً فكان يقدمه على الجيش ويجعله أميراً، وما خص الاسم الله من غيره من الأسماء في قوله: ﴿فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] إذ كان الله هو الاسم الجامع، فله معاني جميع الأسماء الإلهية كما هو للتجلي جميع الصور كذلك الخليفة وهو الرسول، وأولو الأمر منا لا بد أن يظهروا في جميع الصور التي تحتاج إليها الرعايا، فمن بايع الإمام فإنما يبايع الله تعالى ولا تصح المعصية إلا بعد العقد وقد وقع في أخذ الميثاق والعهد في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ثم ألقمه الحجر الأسود وأمر بتقبيله تذكرة، وأخبر بلسان الرسول أن الحجر يمينه فأمر ببيعة محمد ﷺ، وقال في الذين يبايعونه ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] فأنزله منزلته، ولم ينزل الحجر منزلته بالذكر فعظم قدر ابن آدم [البسيط]:

قَبِّلْ فإنّ يمينَ العَهْد في الحَجَرِ وأين رُتْبَتُهُ من رُتْبَة البَشَرِ
إنّ المُبايَعَ من تَعْنُو الوجوهُ له الواحدُ الأحدُ القَيُّومُ بالصُّوَرِ
إن شاء في مَلَكٍ إن شاء في بَشَرٍ إن شاء في شَجَرٍ إن شاء في حَجَرِ
فما تُقَيِّدُهُ ذاتٌ ولا عَرَضٌ وما له في وجود الكون من أثَرِ
بَلِ الوجودُ هو الحقُّ الصريحُ فلا تَرَوْهُ غيراً فيدعوكم إلى الغِيَرِ
هو المؤثّرُ والآثار قائمةٌ بالحقّ فيما يراه فيه ذو بَصَرِ
إنْ لم يَكُنْ هكذا أَمْرُ الوُجُودِ وما تَضَمَّنَ الكَوْنُ مِنْ نَفْعٍ ومن ضَرَرِ
فما تكون لحَقٍّ صورةٌ أبداً ولا تُضافُ إليه آخرَ العُمُرِ
هو المُطاعُ فما تُعْصَى أوامرُه والخلقُ والأمرُ في الأنثى وفي الذَّكَرِ

بالشَّمْسِ يَظْهَرُ ما في البَدْرِ مِنْ صِفَةٍ فأَنْتَ شَمْسٌ وعَيْنُ الحَقِّ في القَمَرِ
وليس في البَدْرِ ما الأبصار تدركُهُ لكنه هكذا تُدْرِكُهُ في النَّظَرِ
فكَوْنُنا في وجود الحق مغلطةٌ فالأمرُ أغمض بالبرهان والخَبَرِ

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وذلك هو الفضل المبين أقول له: أنت، يقول لي: أنت. أقول له: فأنا، يقول لي: لا بل أنا. فأقول له: فكيف الأمر؟ فيقول: كما رأيت. فأقول: فما رأيت إلا الحيرة فلا تحصيل مني ولا توصيل منك فيقول: قد أوصلتك. فأقول: فما بيدي شيء. فيقول: هو ذاك الذي أوصلت، فعليه فاعتمد وبالله فاتئد [الوافر]:

فما في الكَوْن من يَدْري سِواهُ ومَنْ يُدْرِكْ سواهُ فما دَرَاهُ
ومن يُدْرِكْ مع الخَلاّقِ خَلْقاً فإن الله من جَهْلٍ حَمَاهُ
ومن يُدْرِكْ مع المخلوق حَقّاً يراهُ وما يراهُ فما تَرَاهُ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]

[نظم: البسيط]

لكلّ شيء من الأشياء ميزانُ فكلّ شيء له نَقْصٌ ورُجْحَانُ
فالصالحون لهم وَزْنٌ يَخُصُّهُمُ والطّالحون لهم في الحقّ ميزانُ
فمن يقوم بوَزْنٍ في تَقَلُّبِهِ يَسْعَدْ وإن جاءه في ذاك بُرْهانُ
لأنّ ميزانَه وَفَّى حقيقتَهُ ولم يساعده في ذاك شيطانُ
لذاك قال لمن وَفَّى طريقتَهُ مِنْ خَلْقِهِ ما له عليه سُلْطانُ

قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦] و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ [فاطر: ١٠] فالعمل الصالح له الحياة الطيبة وهي تعجيل البشرى في الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] فيحيى في باقي عمره حياة طيبة لما حصل له من العلم بما سبق له من سعادته في علم الله مما يؤول إليه في أبده، فتهون عليه هذه البشرى ما يلقاه من المشقات والعوارض المؤلمة فـ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥] وكلامه صدق، وقد خوطب بالقول الذي لا يبدل لديه، وكذلك أيضاً للعمل الصالح التبديل فيبدل الله سيآته حسنات حتى يؤدّ لو أنه أتى جميع الكبائر الواقعة في العالم من العالم كله على شهود منه عين التبديل في ذلك، ولقد لقيت من هو بهذه الحال بمكة من أهل توزر من أرض الحرير، ولقيت أيضاً بإشبيلية أبا العباس العريبي شيخنا من أهل العلياء بغرب

الأندلس ما لقيت في عمري إلا هذين من أهل هذا الذوق، وكذلك للعمل الصالح شكر الحق لأنه الغفور الشكور، فسعيه مقبول وكلامه مسموع، ولو لم يكن في العمل الصالح إلا إلحاق عامله بالصالحين وإطلاق هذا الاسم عليه لكان كافياً، فإنه مطلب الأنبياء عليهم السلام، وهم أرفع الطوائف من عباد الله، والصلاح أرفع صفة لهم، فإن الله أخبرنا عنهم أنهم مع كونهم رسلاً وأنبياء سألوا الله أن يدخلهم الله برحمته في عباده الصالحين، وذكر في أولي العزم من رسله أنهم من الصالحين في معرض الثناء عليهم، فالصلاح يكون أخص وصف للرسل والأنبياء عليهم السلام وهم بلا خلاف أرفع الناس منزلة وإن فضل بعضهم بعضاً، ومن نال الصلاح من عباد الله فقد نال ما دونه، فله منازل الرسل والأنبياء عليهم السلام وليس برسول ولا نبي، لكن يغبطه الرسول والنبي لما يناله الرسول والنبي من مشقة الرسالة والنبوّة لأنها تكليف وبها حصلت لهم المنزلة الزلفى ونالها صاحب العمل الصالح المغبوط من غير ذوق هذه المشقات، ومن هنا تعرف ما مسمى الرسول والنبي، وتعرف معنى قول الرسول ﷺ في قوم تنصب لهم منابر يوم القيامة في الموقف يخاف الناس ولا يخافون ويحزن الناس ولا يحزنون ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون حيث رأوا تحصيلهم هذه المنازل مع هذه الحال، فهم غير مسؤولين من بين الخلائق، لم يدخلهم في عملهم خلل من زمان توبتهم، فإن دخلهم خلل فليسوا بصالحين، فمن شرط الصلاح استصحاب العصمة في الحال والقول والعمل، ولا يكون هذا إلا لأهل الشهود الدائم والعارفين بالمواطن والمقامات والآداب والحكم فيحكمون نفوسهم فيمشون بها مشي ربهم من حيث هو على صراط مستقيم، فمن حياتهم الطيبة في الدنيا أنهم وإن دعوا الخلق إلى الله فإنهم يدعونهم بلسان غيرهم ويشهدون من سمع دعوتهم من المدعون، ومن يردّ الدعوة منهم فلا يألمون لذلك الردّ بل يتنعمون بالقبول نعيمهم بالرد لا يختلف عليهم الحال، وسبب ذلك أن مشهودهم من الحق الأسماء الإلهية وشهودهم إياها نعيم لهم، فمن دعا ما دعا إلا باسم إلهيّ فالاسم هو الداعي، ومن رد أو قبل فما رد وما قبل إلا بإسم إلهي، فالاسم هو القابل والراد، وهذا الشخص في حياة طيبة بهذا الشهود دائماً، ومن غيبه الله عن شهوده هذا المقام فإنه يألم طبعاً ويلذ طبعاً وهو أكبر نعيم أهل الله وألمهم، ولا تكون هذه الحياة الطيبة إلا أن تكون مستصحبة، وما ينالها إلا الصالحون من عباد الله، وإن ظهر منهم ما توجبه الأمور المؤلمة في العادة وظهر عليهم آثار الآلام فالنفوس منهم في الحياة الطيبة لأن النفوس محلها العقل ليس الحس محلها فآلامهم حسية لا نفسية، فالذي يراهم يحملهم في ذلك على حاله الذي يجده من نفسه لو قام به ذلك البلاء وهو في نفسه غير ذلك، فالصورة صورة بلاء، والمعنى معنى عافية وإنعام وما يعقلها إلا العالمون، فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩] في الآخرة، وهذا التنبيه على تحصيل هذا المقام كاف فإنه مكتسب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]

[نظم: الرمل]

كُـلّ شَـخْـصٍ زَوْجُـهُ مِـنْ نَـفْـسِـهِ ... ولـهـذا زَوْجُـهُ مـن جِـنْـسِـهْ

فـهـو كُـلٌّ وهـي جـزءٌ فـلـذا ... كَـثُـرَتْ أزواجُـه مـن نَـفَـسِـهْ

وكـذا الـيـومُ الـذي أوْجَـدَهُ ... إنـمـا أوْجَـدَهُ مـن أَمْـسِـهْ

ولـذا جـاء عـلـى صُـورَتِـه ... فـي نَـقِـيض الـقُـدْسِ أو فـي قُـدُسِـهْ

لا تَـمُـدَّنَّ إلـى حُـرْمـة مـن ... كـان عـيـنـيـك فـذا مـن بَـخَـسِـهْ

وفِّـهِ مـيـزانَـهُ لا تَـلْـتَـفِـتْ ... لـلـذي تُـبْـصِـرُهُ مـن أنـسـهْ

إنـمـا يَـأْنَـسُ مـن لَـسْـتَ لـه ... بـك لـلـجَـمْـع الـذي فـي أُسِّـهْ

ولـتُـجَـرِّدْهُ مـن الـشّـكّ ومـا ... جـاء مـن شـيـطـانـه فـي مَـسِّـهْ

ولـتُـفَـرِّقْ بـيـن مـا تـسـمـعُ مـن ... لـيـس فـي الـنُّـطْـقِ بـه أو أَيَـسِـهْ

ولْـتَـخَـفْ مـن زَلَـلِ الـنُّـطْـق ومـا ... جـاء فـي مـحـكـمـه مـن لَـبَـسِـهْ

قال الله تعالى في مثل هذه الآية وهو من تمام هذا المنزل ويدخله صاحبه في هجيره ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٨و ٨٩] ينبهه بذلك على نفسه في إنذاره ورزق ربك ما أعطاك مما أنت عليه في وقتك وما لم يعطك وهو لك فلا بد من وصوله إليك، وما أبطأ به إلا الوقت الزماني الذي هو له وما ليس لك فلا يصل إليك، فتتعب نفسك حيث طمعت في غير مطمع، ، وما أعني بقولنا أنه لك إلا ما تناله على الحد الإلهي الذي أباحه لك، وإن نلته على غير ذلك الحد فما نلت ما هو لك من جانب الحق، إنما نلت ما هو لك من جانب الطبع، وليس المراد في الدنيا إلا ما تناله من جانب الحق، فالحق للدنيا والطبع للآخرة، والطبع له الإباحة والحق له التحجير، وإن كانت الآخرة على صورة الدنيا، كما أن اليوم المولود عن نكاح أمس لليلته يخرج بصورته في الزمان وقد لا يخرج في الحكم، فانظر إلى عطايا ربك فإنها أكثر ما تكون ابتلاء ولا تعرف ذلك إلا بالميزان، وذلك أن كل عطاء يصل إليك منه فهو رزق ربك ولكن على الميزان، فإن خرج عن الميزان وهو لك طبعاً فلا بد لك من أخذه، فإياك أن تأخذه في حال غفلة فخذه بحضور على كره في نفسك وجبر واضطرار، وليكن حضورك في ذلك قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [قٓ: ٢٩]، فأظهر في هذا النيل بصورة الحق في ذلك الحكم الذي لا تبدل له ولا يصح أن يبدل فإنه هكذا علمه، وبهذه الصورة كان الأمر الذي أعطى العلم للحق به، ففي هذا الميزان حصله وزنه به وهو ميزان خفي، فإن غيبك الحق عن حال الكره في ذلك فإنه من الإكراه فاعلم أنك محروم، فإنه لما كان من الإكراه حصول الكراهة في نفس العامل لذلك العمل

الخارج عن ميزان الأدب دخل في حكم الميزان المأمور بالوزن به في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] وطمأنينته في هذه النازلة، إنما هو بما له فيه من الكراهة، فيجمع في هذا الفعل بين حب الطبع وكراهة الإيمان، فإن الله حبب الإيمان للمؤمن وكره إليه الفسوق والعصيان مع وقوعه منه وجعلك من أهل الرشد. ثم إن الله جعلهن زهرة حيث كن، فإذا كن في الدنيا كن زهرة الحياة الدنيا فوقع النعيم بهن حيث كن. وأحكام الأماكن تختلف فهنّ وإن خلقن للنعيم في الدنيا فهنّ فتنة يستخرج الحق بهن ما خفي عنا فينا مما هو به عالم ولا نعلمه من نفوسنا فيقوم به الحجة لنا وعلينا، وهذا مقام أعطانيه الحق بمدينة فاس سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة قبل ذلك ما كان لي فيه ذوق.

واعلم أن المعصية لا تقع أبداً إلا عن غفلة أو تأويل لا غير ذلك في حق المؤمن، وإذا وقع عين ذلك العمل من صاحب الشهود فلا يسمى معصية عند الله، وإن انطلق عليه لسان الذنب في العموم فللغشاوة التي على أبصار المحجوبين فيعذرهم الله فيما أنكروه على من ظهر منه هذا الفعل وهو في نفس الأمر ليس بعاصٍ مسألة الخضر مع موسى في قتل النفس أين حكم موسى عليه السلام فيه من حكم الخضر رضي الله عنه، وكل واحد له وجه في الحق ومستند، وهذا حال أهل الشهود يشهدون المقدور قبل وقوعه في الوجود فيأتونه على بصيرة، فهم على بينة من ربهم في ذلك وهو مقام لا يناله إلا من كان الله سمعه وبصره. ولما كانت الزهرة دليلة على الثمرة ومتنزهاً للبصر ومعطية الرائحة الطيبة هنا أعني في زهرة هذه المسألة كان صاحب هذا الأمر من أهل الأنفاس والشهود والأدلة، ولست أعني بالأدلة أن ذلك عن فكر وإنما هو في كشفه لما جرت العادة به أن لا ينال إلا بالدليل النظريّ أن يعطيه الله كشفاً بدليله فيعرف أدلته كما يعرفه وارتباطه بأدلته، فما يحصل له من علمه بوجوه الدلالات، فيكون علمه أتم من علم من يعطي علم مدلول الدليل من غير علم الدليل، فما فتنهم الحق إلا بما سماه زهرة لهم، فإذا لم يدرك صاحب هذه الزهرة رائحتها ولا شهدها زهرة وإنما شهدها امرأة ولا علم دلالتها التي سبقت له على الخصوص وزوّجت به وتنعم بها ونال منها ما نال بحيوانيته لا بروحه وعقله، فلا فرق بينه وبين سائر الحيوان بل الحيوان خير منه لأن كل حيوان مشاهد لفصله المقوّم له، وهذا الشخص ما وقف مع فصله المقوّم له، وليس الفصول المقوّمة للحيوانات غيره، فهو لا حيوان ولا إنسان، فإن كل حيوان جرى بفصله المقوّم له على ما تعطيه حقيقة ذلك الفصل.

واعلم أن صاحب هذا الهجير يشاهد ما حيّر العقول ولم يقدر على تحصيله وهو العلم بالمرئي في المرآة ما هو وبالمرئي ما هو من حيث تعلق الرؤية هل ينطبع المرئي في عين الرائي أو أشعة نور البصر تتعلق بالمرئي حيث كان، وما من حكم إلا وعليه دخل إلا عند صاحب هذا الذكر فإنه يعلم كيفية إدراك الرائي المرئي وما هي الرؤية ولماذا ترجع؟ وليس يعطيه هذا العلم من هذا الذكر إلا قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨] ولا خوطب إلا بما علم، فعلمنا على القطع أن رسول الله ﷺ قد علم ذلك وما هو قوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ عين

قوله ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] فإن الغض له حكم آخر لأنه نقص مما تمتد العين إليه، والنقص هنا أن لا يمد إلى أمر خاص أي إلى مرئيّ خاص، فإن فهمت يا وليّ ما نبهتك عليه علمت علماً ينفعك في الدنيا والآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثمانون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]

[نظم: البسيط]

الابتلاءُ بعَينِ المالِ والوَلَدِ ... هو البَلاءُ الذي ما فيه تَنْفِيسُ

فالمَالُ كُنْ فَيَكُونُ الأَمْرُ أَجْمَعُهُ ... والابنُ صُورَتُهُ والمِثْلُ تَقْدِيسُ

به تَعَلّق نَفْيُ المِثْلِ فاخطَ به ... فأصلُهُ هو سُبُّوحٌ وقُدُّوسُ

فانْظُرْ إلى خَلْقِنَا على التطابق في ... أسمائه فيه تمثيل وتجنيسُ

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وقال عليه الصلاة والسلام: «**يَمُوتُ ابْنُ آدَمَ وَيَنْقَطِعُ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يَبُثُّهُ فِي النَّاسِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» فقد جمع المال والبنون زينة الحياة الدنيا، وما تعطيه الباقيات الصالحات من الخير عند ربه وهو الثواب، ومن الخير المؤمل وهو البنون لأنهما من الباقيات الصالحات أعني المال والبنين إذا كان المال الصالح والولد الصالح. وأما العلم المذكور في هذا الخبر فهو ما سنه من سنة حسنة، وجعل الله المال والولد فتنة يختبر بهما عباده لأن لهما بالقلب لصوقاً وهما محبوبان طبعاً، ويتوصل بهما ولا سيما بالمال إلى ما لا يتوصل بغير المال من أمور الخير والشر، فإن غلب على العبد الطبع لم يقف في التصرف بما له عند حد بل ينال به جميع أغراضه، وإن غلب على العبد الشرع وقف في التصرف في ماله عندما حد له فيه ربه فلم ينل به جميع أغراضه، وما سمي المال مالاً إلا لكون القلب مال إليه لما فيه من بلوغ العبد إذا كان صالحاً إلى جميع الخيرات التي يجدها عند ربه في المنقلب، وإذا لم يكن تام الصلاح فلما فيه من بلوغه أغراضه به، وأما الولد فلما كان لأبويه عليه ولادة أحباه ومالا إليه ميل الفاعل إلى ما انفعل عنه وميل الصانع إلى مصنوعه، فميله لحب الولد ميل ذاتي، فإن كرهه فبأمر عارض لأخلاق ذميمة وصفات شريرة تقوم بالولد فبغضه عرضي، فيطلع من هذا الهجير على سبب رحمة الله التي وسعت كل شيء، فإن العالم المكلف كله مصنوعه وهو من جملة من ظهرت فيه صنعته، فلا بد أن يكون بالذات محبوباً لموجده حباً بالأصالة، وإذا وقع عليه كره فمن بعض أفعاله وأفعاله عرضية، ومع كونها عرضية ففيها ما يؤيد الأصالة وهو أن جميع الأفعال الظاهرة من العالم كلها لله، والعالم محل لظهور تلك الأفعال أو هي للحق كالآلة للصانع، فغلبت الرحمة والمحبة وتأخر حكم الغضب، وليس تأخره إلا عبارة عن إزالة دوام حكمه، وما فتن الله من

فتن من عباده إلا بحكم ما ظهر عليهم من الدعاوى فيما يتصرفون فيه أن ذلك الفعل لهم حقيقة أو كسباً، فلو أطلعهم الله على اليد الإلهية الخالقة ورأوا نفوسهم آلات صناعية لا يمكن وقوع غير ذلك لما اختبرهم الله، فما اختبرهم إلا ليعثروا على مثل هذا العلم فيعصموا من الدعوى فيسعدوا، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة فحار ولم يدر وهم القائلون بالكسب، ومنهم من حقت عليه كلمة العذاب وهم القائلون بخلق الأفعال، وأما الذين هداهم الله فهم الذي أعطوا كل آية وردت في القرآن أو عن الله أو خبر نبوي حقها ولم يتعدوا بها موطنها ولا صرفوها إلى غير وجهتها، فما يوجب الحيرة منها كان هداهم فيها الوقوف في الحيرة، فلو تعدوها ما أعطوا الآية حقها مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وهي أعظم آية وردت في ثبوت الحيرة في العالم، فمن وقف مع المقالة المشروعة وجعل لها الحكم على ما أعطاه النظر العقلي من نقيض ما دل عليه الشرع فذلك السالم الناجي، ومن زاد على الوقوف العمل بالتقوى جعل الله له فرقاناً يفرق به بين أصحاب النحل والملل، وما تعطيه الأدلة العقلية التي تزيد حكم الشرع عند القائل بها فيتأولها ليردّها إلى دليل عقله فهو على خطر، وإن أصاب فعليك بفرقان التقوى فإنه عن شهود وصحة وجود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل الهادي إلى طريق مستقيم.

الباب الموفي تسعين وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]

[نظم: الرمل]

كَبُرَ المَقْتُ من الله لذا ... كَبُرَ المَقْتُ من الخَلْقِ فَمَنْ
قال قَوْلاً ثُمَّ لم يَعْمَلْ به ... من جَمِيلٍ وهو القولُ الحَسَنْ
عمل الله به في خلقه ... وهو لا يدري به في كل فَنْ
من فُنُون الخَيْرِ فاسْتَبْصِرْ به ... في وجود الكون من لَفْظَةِ كُنْ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله ما أضاف الأفعال إلى الخلق إلا لكون من أضاف الفعل إليه هوية باطنه عين الحق، فلا يكون الفعل إلا لله غير أنه من عباد الله من أشهده ذلك، ومنهم من لم يشهده ذلك، فمن أشهده ذلك وقال ما يمكن أن يكون بالفعل وما فعل فيعلم على القطع شهوداً أنه ما امتنع وقوع الفعل إلا لخروجه عن الإمكان العقلي لأنه لم ير له صورة في الأعين الثابتة التي أعطت العلم لله، فكيف يقع في الوجود ما لا عين له في الثبوت؟ ولهذا أضاف المقت في ذلك لعند الله، فإن هذا الاسم جامع المتقابلات من أحكام الأسماء، فمن جملة ما يدل عليه إثبات الإمكان فيمقت من حيث إثبات الإمكان، فالله هنا هو اسم خاص معين وهو المثبت الإمكان، ويقابله نافي الإمكان فيقول: ما ثم إلا وجوب غير أنه مقيد ومطلق فلا يصح إطلاق هذا الاسم الله، فإذا قيل: فالمراد به التقييد ويظهر بما يدل عليه الحال فيعلم عن أي شيء ناب من الأسماء فينظر في حكم ذلك الاسم فيوجد أثره فيه

فتعلق المقت بمن قال خيراً يمكن له فعله فلا يفعله، فانظر إلى ذلك القول الخير لا بد أن يجني ثمرته في الخير القائل به، ولا سيما إن أعطى عملاً في عامل من عباد الله إلا أنه محروم، فما يكبر عند الله إلا لكون هذا القائل قال هذا القول ولم يفعل ما قاله إذا أطلع على ما حرم من الخير بترك الفعل فمقت نفسه أعظم المقت، ولا سيما إذا رأى غيره قد انتفع به عملاً فهو أكبر مقت عنده يمقت به نفسه عند الله في شهوده في الآخرة، فهو أكبر مقت عند الله من مقت آخر لا أن الله مقته بل هو يمقت نفسه عند الله إذا صار إليه، وللمقت درجات بعضها أكبر من بعض، وهذا من أكبرها عنده، فيكشف له هذا الهجير هذا العلم، فإن الناس يأخذون في هذه الآية غير مأخذها فيقولون: إن الله مقتهم وما يتحققون قوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٣] أي تمقتون أنفسكم، أكبر المقت عند الله إذا رجعتم إليه، فإن قال ما نعتقد صحته ولم يقل ذلك إيماناً فذلك المنافق، وإن قال ذلك إيماناً ولم يفعل فذلك المفرط وهو الذي يكبر مقته عند الله لأن إيمانه يعطيه الفعل فلم يفعل، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به على ألسنتهم وألسنة غيرهم لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وآتاهم الله أجراً عظيم لأنه أضاف الفعل إلى القول، فعظم بالاجتماع على ما تكون صورته إذا انفرد بقول دون فعل وبفعل دون قول، وما أيه الله بمن هذه صفته إلا بالاسم المذكر ليزيلهم به من حكم الاسم الخاذل، فإن الله ما يؤيه إلا من الاسم الذي لا حكم له في الحال، والتأيه على نوعين: تأيه بالصفة مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النساء: ٤٧] وتأيه بالذات مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمتى سمعت التأيه فلتنظر مايأيه به لا من أيه به، فاعمل بحسب ما أيه به من اجتناب أو غير اجتناب فإنه قد يؤيه بأمر وقد يؤيه بنهي، كما تقول في الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وكما يقول في النهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٢] وكذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] فهذا تأيه إنكار كأنه يقول في الأمر: فيه افعلوا ما تقولون، وفي النهي: لا تقولوا على الله ما لا تعملون فإنكم تمقتون نفوسكم عند الله في ذلك أكبر المقت كما قررنا، فإذا أتى مثل هذا كان له وجه للأمر ووجه للنهي وهذا هو الوجه، فيأخذه السامع بحسب ما يقع له في الوقت، وأي وجه أخذ به في أمر أو نهي أصاب وإن جمع بينهما جنى ثمرة ذلك فيكون له أجران، ومن الناس من يكشف له في هذا الهجير أنه القول الخاص وهو أن يقول بإضافة الفعل إلى نفسه في اعتقاده كالمعتزلي فيطلع في كشفه على أن الأفعال لله ليست له فيمقت نفسه حيث جهلت مثل هذا أكبر المقت عند الله، ويكون عند الله هنا عندية الشهود حيث كان في الدنيا أو في الآخرة، فمقته في الدنيا رجوع عن ذلك فيسعد ويلحق بالعلماء بخلاف مقته عند الله في الآخرة فكأنه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ﴾ أن الفعل لكم وما هو كذلك فأضفتم إليكم ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] و ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ [الصف: ٣] منكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [الصف: ٣، ٤] فإنه على صراط مستقيم هذا المنازع الذي نقول له إن الفعل للحق ﴿صَفًّا﴾ لا خلل فيه ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ

مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] لا خلل فيه فيضيف الأفعال كلها لله لا لمن ظهرت فيه، فقد أفلح من كان هجيره هذه الآية لأنه لا فائدة للهجير إلا أن يفتح لصاحبه فيه، فإذا رأيت ذا هجير لا يفتح له فيه فاعلم أنه صاحب هجير لسان ظاهره لا يوافقه لسان باطنه، ومن هو بهذه المثابة فما هو مقصودنا بأصحاب الهجيرات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]

[نظم: الرمل]

إنّما الدُّنيا هُمُومٌ وغُمُومْ	حالها ذا في خُصوص وعُمُومْ
فالذي يَفْرَحُ فيها ما له	فكرة العالم بالأمر الحكيمْ
إنما الأمْرُ إذا حَقَّقْتَهُ	عن شُهُود في حديث وقَدِيمْ
عِبْرَةٌ موعظةٌ قد نُصِبَتْ	لخبير ذي تجاريبِ عليمْ
فبفضل الله فلْيَفْرَحَ مَنْ	شاء أن يَفْرَحَ من أهل النَّعِيمْ

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فيفرحون به، ولا يفرح عاقل إلا بثابت لا بزائل، ولهذا الفرح الذي نسب إلى الله في فرحه بتوبة عبده لأن التوبة أمر لازم دائم الوجود ولا سيما في الآخرة لأن العبد راجع إلى الله في كل ما هو عليه إن كان في حال الحجاب إيماناً وإن كان مع رفع الحجاب فشهود عين، وهذا الهجير ما هو من قول الله في النهي، وإنما حكى الله نهي قومه له فقال: ﴿قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ [القصص: ٧٦] أي قوم قارون ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] فهل أصابوا في هذا الإطلاق ولم يقيدوا أم لا؟ فذلك أمر آخر، فإن كان اتكالهم في ذلك على قرينة الحال فقد قيدوا لأن قرائن الأحوال تقيد، وإن اقتضت الإطلاق في بعض المواطن فهو تقييد إطلاق لا تقييد ينتج لصاحب هذا الذكر الفرح بفضل الله وبرحمته فينتج له نقيض ذكره، فتراه أبداً حزين القلب ما دام في الدنيا إلى الموت وإن فتح له ما يقع له به الفرح لو كان في غير هذا الهجير وذلك إذا فتح له فيما يوجب الفرح يرى ما عليه من الشكر لله فيما فتح له فيه فيعظم حزنه أشد مما كان فيه قبل الفتح كما فعل رسول الله ﷺ حين بشر بأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فزاد في العمل شكراً لله فقام حتى تورمت قدماه وقال: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**» ومن كان في مقام يريد أن يوفيه حقه لا يمكن له الفرح إلا بعد أن لا يبقى عليه من حقه شيء، ولا يزال هذا الحق المعين على المكلف المبشر بفضل الله وبرحمته عليه إلى آخر نفس يكون عليه في الدنيا فلا يفرح إلا عند خروجه منها، فإنه لا يسقط عنه التكليف إلا بعد رحلته من دار التكليف وهي الدار الدنيا، فمن ادعى هذا الذكر ورؤي عليه الفرح فما لهذا الذكر فيه أثر وليس من أهله، ولقد رأى بعض الصالحين رجلاً أو شخصاً يفرح ويضحك فقال له: يا هذا إن كنت ممن بشره الله فما هذه حالة الشاكرين لما بشرهم الله به، وإن كنت ممن لم

يبشره الله فما هذه حالة الخائفين، فأنكر عليه حالة الفرح في الوجهين، وهذا عين ما قلناه في هذا الهجير، وهذه المحبة المنفية محبة خاصة لا كل محبة، فإن المحبة الإلهية لها وجوه كثيرة ولا يلزم من انتفاء وجه منها انتفاء الوجوه كلها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]

[نظم: الرمل]

لـو بَـدَا الـغَـيْـبُ لـعَـيْـنٍ لـم يَـكُـنْ ... ذاك غَـيْـبـاً إنَّـهُ قَـدْ شَـهِـدَا

عـالِـمُ الـغَـيْـب فـلا يُـظْـهِـرُهُ ... لا ولا يـظـهـر فـيـه أحَـدَا

فـجـمـيـعُ الـكَـوْنِ مَـشْـهُـودٌ لـه ... مـا لـديـه غـائـبٌ مـا وجـدا

إنَّـمـا الـغـيـبُ لـنـا لـيـس لـه ... ولـهـذا فـي الـوجـود انـفَـرَدَا

ولـذا قـال لـمـن يَـشْـهَـدُ كُـنْ ... فـاتَّـخِـذْهُ يـا وَلِـيِّـي سَـنَـدَا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أنه من صادف العلم في ظنه أنه موصوف بالعلم عند نفسه وإن كان نعته العلم في نفس الأمر، ولهذا قال رسول الله ﷺ للرجل الذي وقع له أنها الفاتحة: «لِيَهنكَ العِلْمُ» يعني في نفس الأمر، ثم يقول النبي ﷺ له ليهنك العلم فيما ذكر في واقعته حصل له العلم في نفسه كما هو في نفس الأمر لا بد من ذلك، فاعلم أن الغيب على قسمين: غيب لا يعلم أبداً وليس إلا هوية الحق ونسبته إلينا وأما نسبتنا إليه فدون ذلك فهذا غيب لا يمكن ولا يعلم أبداً. والقسم الآخر غيب إضافيّ فما هو مشهود لأحد قد يكون غيباً لآخر، فما في الوجود غيب أصلاً لا يشهده أحد، وأدقه أن يشهد الموجود نفسه الذي هو غيب عن كل أحد سوى نفسه، فما ثم غيب إلا وهو مشهود في حال غيبته عمن ليس بمشاهد له، فإذا ارتضى الله من ارتضاه لعلم ذلك أطلعه عليه علماً لا ظناً ولا تخميناً، فلا يعلم إلا بإعلام الله أو بإعلام من أعلمه الله عند من يعتقد فيه أن الله أعلمه، وما عدا هذا فلا علم له بغيب أصلاً، وإنما اختص بهذا الإعلام مسمى الرسول لأنه ما أعلمه بذلك الغيب اقتصاراً عليه، وإنما أعلمه ليعلمه، فتحصل له درجة الفضيلة على من أعلمه به لتعلم مكانته عند ربه فلهذا سماه رسولاً، وهذا النوع من الغيب لا يكون إلا من الوجه الخاص لا يعلمه ملك ولا غيره إلا الرسول خاصة سواء كان الرسول ملكاً أو غيره، فإن الله نفى أن يظهر على غيبه أحداً، وإنما قال بأن الذي ارتضاه لذلك يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً عصمة له من الشبه القادحة فيه، فهو علم لا دخول للشبه فيه على صاحبه، وهذا هو صاحب البصيرة الذي هو على بينة من ربه في علمه، وله ذوق خاص يتميز به لا يشاركه فيه غيره، إذ لو شاركه لما كان خاصاً، فإذا جاء الرسول به لمن يعلمه فذلك ليس عند هذا المتعلم من علم الغيب فإن الرسول قد أظهره الله عليه، فما هو

عند هذا من علم الغيب الذي لا يظهر الله عليه أحداً وإنما هو ما يحصل لأي عالم كان من الوجه الخاص، ولكنه الآن ليس بواقع في الدنيا لكنه يقع في الآخرة، وسبب ذلك أن كل علم يحصل للإنسان في الدنيا من العلم بالله خاصة فإن محمداً ﷺ قد علمه فإنه علم علم الأوّلين والآخرين وأنت من الآخرين بلا شك، وأما في غير العلم بالله فقد يعطاه الإنسان من الوجه الخاص فلا يعلم إلا منه فهو رسول في تعليمه إلا من يعلمه بذلك هذا أعطاه مقام محمد ﷺ، وليست الفائدة إلا في العلم بالله تعالى، فإنه العلم الذي به تحسن صورة العالم في نفسه، فالعلم بالله من الرسول في المتعلم أعظم وأنفع من العلم الذي يحصل لك من الوجه الخاص إذا كان المعلوم كوناً ما من الأكوان ليس الله، فما الشرف للإنسان إلا في علمه بالله، وأما علمه بسوى الله تعالى فعلالة يتعلل بها الإنسان المحجوب، فإن المنصف ما له همة إلا العلم به تعالى، فاجهد أن تكون ممن يأخذ العلم بالله عن رسول الله ﷺ فتكون محمدي الشهود، إذ قد قطعنا أنه لا علم بالله اليوم عيناً يختص به أحد من خلق الله، وقد أشارت عائشة رضي الله عنها إلى ذلك في تأويلها في حق رسول الله ﷺ فقالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية فإن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وهنا سر فابحث عليه، ولا تقل قد حجرت واسعاً فإني ما حجرت عليك أن لا تعلم وإنما حجرت عليك أنك لا تعلم مثل هذا من الحق إلا في صورة محمدية، وقد بينا أن أعظم الرؤية رؤية محمدية في صورة محمدية، وإليه ذهب الإمام أبو القاسم بن قسي رحمه الله في كتاب خلع النعلين له وهو روايتنا عن ابنه عنه بتونس سنة تسعين وخمسمائة، وما رأيت هذا النفس لغيره فنعينه فإنه ما وصل إلينا فيمكن أن يكون كما علمته أنا من الله تعالى إلقاء إلهياً من غير واسطة أعني ما علمه ابن قسي في ذلك يمكن أيضاً أن يكون غير ابن قسي قبله أو بعده أو في زمانه قد أطلعه الله على ذلك وما وصل إلينا والله أعلم، فلا شرف يعلو شرف العلم، ولا حالة تسمو على حالة الفهم عن الله.

الباب الثالث والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] لأنهم لم يجدوه إذ كان عندهم

[نظم: الرمل]

كلّ ما في الكَوْنِ من خَالِقِهِ	فلهذا ليس في الكَوْنِ حُدُوث
ما تراه قد نَفَى العِلْمَ به	حين لا يُفْقَهُ في الكون حَدِيث
إنهم لم يَجِدُوهُ حادثاً	فلهذا السَّيْرُ في ذاك حثيث
ما نَفَى بالعلم فيه أحَدٌ	غَيْرُ مَعْتُوهٍ جَهُولٍ أو خبيث

إنــمــا يــعــلــم مــنــه كــونــه واحـد الـعـيـن وإن طـال الـتَّـشـيـث
كَــرَّمَ الله رســولاً بــالــذي بَـثَّـهُ فـيـنـا مـن الـذكـر الـحـديـث

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥] وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢، ٣] فجاء الذكر من الرب والرحمن فأخبر أنهم استعمعوا وأصغوا لذكر الرب في حال لهو، وذكر إعراضهم عن ذكر الرحمن مع العلم منهم بأنه القرآن وهو كلام الله والكلام صفته فله القدم وإن حدث الإتيان، اعلم أن الحديث قد يكون حديثاً في نفس الأمر، وقد يكون حديثاً بالنسبة إلى وجوده عندك في الحال وهو أقدم من ذلك الحدوث، وذلك إذا أردت بالقدم نفي الأولية فليس إلا كلام الله، وليس إلا عين القابل صور التجلي، وإذا أردت به غير نفي الأولية فقد يكون حادثاً في نفسه ذلك الشيء قبل حدوثه عندك، وقد يكون حادثاً بحدوثه عندك أي ذلك زمان حدوثه وهو ما يقوم بك أو بمن يخاطبك أو يجالسك من الأغراض في الحال، وأما عندية الله فهي على قسمين أعني ما هو عنده، القسم الواحد ما هو عليه من الأمر الذي يعقل زائداً على هويته وإن لم نقل فيه أنه غيره ولا عينه أيضاً كالصفات المنسوبة إليه لا هي هو ولا هي غيره، وقد يكون عنده ما يحدثه فينا ولنا وهو مثل قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] وهذا الذي عندنا على نوعين نوع يحدث صورته لا جوهره كالمطر فإنا نعلم ما هو من حيث جوهره وما هو من حيث صورته وكل العالم على هذا، أو هو النوع الآخر ما يحدث جوهره وليس إلا جوهر الصورة ووجود جوهر العين القائمة به تلك الصورة فإنه لا وجود لعين جوهرها الذي قامت به إلا عند قيامها به، فهو قبل ذلك معقول لا موجود العين، فموضوع الصورة أو محل الصورة من المادّة يحدث له الوجود بحدوث الصورة في حال ما لا في كل حال، وينعدم من الوجود بعدمها ما لم تكن صورة أخرى تقوم به والكل عند الله فإن الله عين شيئيته، فما ثم معقول ولا موجود يحدث عنده بل الكل مشهود العين له بين ثبوت ووجود، فالثبوت خزائنه والوجود ما يحدثه عندنا من تلك الخزائن، فصورة الماء في الجليد معقولة ينطلق عليها اسم جليد والماء في الجليد بالقوة، فإذا طرأ على الجليد ما يحلله فإنه يصير ماء فظهرت وحدثت صورة الماء فيه ومنه وزال عنه اسم الجليد وصورته وحده وحقيقته، وكان عندنا قبل تحلله أنه خزانة من خزائن الغيث فظهر أنه عين المخزون، فكان خزانة بصورة ومخزوناً بصورة غيرها، وهكذا حكم ما يستحيل هو عين ما استحال وعين ما يستحيل إليه، وإنما جئنا بهذا المثال المحقق لما نعاينه من صور التجلي في الوجود الحق لنلحق بذلك صور العالم كله في وجود الحق فنطلق عليه خلقاً كما يطلق على الماء الذي تحلل من الجليد ماء، ويطلق عليه ذلك إطلاقاً حقيقياً لأنه ليس غير ما تحلل مما كان اسم الجليد له فهو حق بوجه خلق بوجه هذا ينتجه وأمثاله هذا الذكر من العلم الإلهيّ، ومن هنا تعلم جميع المحدثات ما هي ومتى ينطلق عليها اسم الحدوث، ومتى تقبل اسم القدم، وهو علم نفيس يخص الله به من شاء من عباده وذلك هو الفضل المبين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والتسعون وأربعمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:
﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وما أشبه هذا من الآيات القرآنية

[نظم: الرمل]

إنّما يَخشى الإلٰهَ الحقَّ مَنْ ... يعلمُ الحقَّ ويَبقى رَسْمُهُ
فإذا ما فَنِيَ الكُلُّ به ... فَنِيَ العالمُ فيه واسْمُهُ
إنما العِلْمُ الذي ينفعُنا ... كلُّ علم قد شهدنا حُكْمَهُ
فهو العلم الذي نَعْرِفُهُ ... وبه يَعْلَمُ علمي عِلْمَهُ

الخشية من صفات العلم الذي يعطي الخشية اللازمة له، وعلى قدر العلم بها تكون الخشية المنسوبة إلى العالم، ولا أعلم بها ممن علمه عينه، فلا أخشى منه للاسم الله لجمع هذا الاسم بين الأضداد المتقابلات، ومن هنا نزل قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] ولما كان الأمر الذي هو علة ظهور الممكنات أينما ظهر منها ليس إلا أحكام الأسماء الإلهية فما من اسم إلهي إلا وهو يخشى الله لعلمه بما عنده من الأسماء التي تقابل هذا الاسم الوالي في الحال صاحب الحكم فيقول كما ولاني ولم أكن والياً على هذا المحل الخاص الذي ظهر فيه حكمي قد يعزلني عن ذلك بوالٍ آخر يعني بحكم اسم آخر إلهي، فلا أعلم من الأسماء الإلهية فلا أخشى منها لله، فإن الله له التصرّف فيها بالتولي والعزل وهو الواقع في الوجود، فمنها ما يقع عن سؤال من الكون، ومنها ما يقع عن غير سؤال، بل يقع بانتهاء مدة الحكم فيكون نسخاً، فكما انطلق على العلماء من المحدثات اسم الخشية لله انطلق على الأسماء الخشية لله، ولسؤال المحدثات في رفع أحكام الأسماء الإلهية صارت الأسماء الإلهية التي لها الحكم في الوقت تخشى سؤال المحدثات الله في رفع حكمها عن ذلك المحل كقول أيوب عليه السلام إذ نادى ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] يطلب عزل الاسم الضار وإزالة حكمه، فعزل الله حكمه فانعزل بزوال حكمه وتولى موضعه الاسم النافع، فكشف الله ما به من ضرّ فصارت الأسماء الإلهية تخشى الله لما بيده من العزل والتولية، وتخشى العالم لما عنده من السؤال، وعند الله من القبول لسؤال العالم ولا سيما أهل الاضطرار. ثم ننظر إلى انتهاء مدة أحكامها فتترقب العزل كما أيضاً ترجوه لمشاهدتهم التولية، فلا شيء من الأسماء أكثر خشية من المنتقم فإنه يرى ويشاهد زوال حكمه فعلاً ولا يبقى له حكم في الوجود ويكون بالقوة في الحق، ومن جرى مجراه من الأسماء الإلهية، فتفطن لخشية الأسماء الإلهية العالم فإنك إذا كوشفت عليه رأيت أنه لولا ما هو حق بوجه ما صح أن تخشاه الأسماء الإلهية لأنه لا يخشى ولا يرجى في الحقيقة إلا الله ولا يخشاه إلا العالم ولا أعلم من الله، فلا يخشى الله إلا الله، لكن الصور مختلفة لاختلاف النسب أو النسب مختلفة لاختلاف الصور، فلولا النسب ما حدثت الصور، ولولا الصور ما علم اختلاف النسب، فالوجود مربوط بعضه ببعضه فإبرامه عين نقضه، ثم إنه في هذا الذكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] فعزته امتناعه

تعالى عن أن يكون له حكم الأسماء الإلهية من نظر بعضها إلى بعض كما ينظر العالم بعضه إلى بعض فيتصف لذلك بالخوف والرجاء والكره والمحبة، والله عزيز عن مثل هذا، فإنه الذي يخاف ويرجى ويسأل ويجيب إن شاء وإن شاء، وغفور بما ستر من هذه العلوم والأسرار الراجعة إليه تعالى وإلى أسمائه وإلى العالم عن الخلق كلهم بالمجموع، فلا يعلم المجموع ولا واحد من الخلق لكن له العلم بالآحاد فعند واحد ما ليس عند الآخر فهو بالمجموع حاصل لا حاصل، فهو حاصل في المجموع غير حاصل عند واحد واحد وهو قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فجاء بباء التبعيض، فعند واحد من العلم بالله ما ليس عند الآخر فلذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

الباب الخامس والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]

[نظم: البسيط]

مَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمُ عن دِينِهِ ويَمُتْ ... فإنَّهُ كَافِرٌ بالدِّينِ أَجْمَعِهِ
لأنه أَحَدِيُّ العَيْنِ ليس له ... مخالفٌ جاءه من غير مَوْضِعِهِ
وأن إتيانه بالكل شرعته ... بذا أتى الحُكْمُ فيه من مُشَرِّعِهِ

الضمير في «أنه» يعود على الدين قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فالمراد هنا بضمير «منكم» ليس إلا الأنبياء عليهم السلام لا الأمم، لأنه لو كان للأمم لم يبعث رسول في أمة قد بعث فيها رسول إلا أن يكون مؤيداً لا يزيد ولا ينقص وما وقع الأمر كذلك، فإن جعلنا الضمير في قوله منكم للأمم والرسل جميعاً تكلفنا في التأويل شططاً لا نحتاج إليه، فكون الضمير كناية عن الرسل أقرب إلى الفهم وأوصل إلى العلم، ويدخل في ذلك عموم الرسالة وخصوصها، وقال ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**» فاختلف الناس في اليهودي إن تنصر والنصراني إن تهوّد هل يقتل أم لا؟ ولم يختلفوا فيه إن أسلم فإنه ﷺ ما جاء يدعو الناس إلا إلى الإسلام، وجعل علماء الرسوم أن هذا تبديل مأمور به وما هو عندنا كذلك، فإن النصراني وأهل الكتاب كلهم إذا أسلموا ما بدلوا دينهم فإنه من دينهم الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في شرعه إذا أرسل وأن رسالته عامة، فما بدل أحد من أهل الدين دينه إذ أسلم فافهم وما بقي إلا المشرك فإن ذلك ليس بدين مشروع، وإنما هو موضوع من عند غير الله، والله ما قال إلا ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٧] ورسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ**»، وإنما لم يسم الشرك ديناً لأن الدين الجزاء ولا جزاء في الخير للمشرك على الشرك أصلاً لا فيما سلف ولا فيما بقي، وإذا آل المشرك إلى ما يؤول إليه في النار التي هي موطنه الذي لا يخرج منه أبداً فإن ذلك ليس بجزاء، وإنما ذلك اختصاص سبق الرحمة التي وسعت كل شيء، فيظهر حكمها فيه في وقت ما عند إزالة

حكم الغضب الإلهي فما أراد بالدين إلا الذي له جزاء في الخير والشرّ، ولو أراد الدين الذي هو العادة مثل قول امرىء القيس: [الطويل]

كـدِيـنِـك مـن أمّ الـحُـوَيْـرِثِ قـبـلـهـا وجـارتـهـا أم الـرّبـاب بـمَـأسـلِ

أراد بالدين هنا العادة، ونحن إنما تكلمنا في الدين المشروع الذي العادة جزء منه فيكشف للذاكر بهذا الذكر علم الارتداد وهو الرجوع الذي في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فمن الناس من عجل له هنا الرجوع إلى الله وليس ذلك إلا للعارفين بالله فإنهم يرجعون في أمورهم كلها إلى الله، ولا يزالون يستصحبهم ذلك إلى الموت فيموتون عليه، وإنما وصفوا بالكفر لأنهم تستروا بالأسباب ولم يقولوا بإبطالها، فهم في نفوسهم وحالهم مع الله وبظاهرهم في الأسباب، فإنهم يرون الأسباب راجعة إلى الله فرجعوا لرجوعها ورجعوا بها إلى الله، فلما لم يفقدهم أصحاب الأسباب في الأسباب تخيلوا فيهم أنهم أمثالهم فيما هم فيه فجاءت هذه الآية ذماً في العموم وحمداً ومدحاً في الخصوص ولهذا تممها فقال فيهم: إن أعمالهم حبطت لأنه أضافها إليهم وأعطاهم الرجوع إلى الله العلم بأن أعمالهم إلى الله لا إليهم فحبطت أعمالهم من الإضافة إليهم وصارت مضافة إلى الله كما هي في نفس الأمر، وقوله في الدنيا يريد من عجل له الكشف عن ذلك هنا، وقوله في الآخرة يريد من أخر له ذلك وهو الجميع إذا انكشف الغطاء. وأما إضافة الدين إليه في قوله عن دينه: وإنما الدين لله فإن الراجع إذا رآه في رجوعه لله لا إليه زالت هذه الإضافة عنه لشهوده، وإنما قلنا بإضافة الدين إليهم في هذه الآية لأنه أظهر في الحكم من أجل قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ﴾ يعني في الفتنة عن دينكم ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧] فأضاف الدين إليهم، فكان الأوجه أن يكون في ضمير الهاء على ما هو عليه في ضمير الخطاب سواء، وإن جاز أن يكون ضمير الهاء يعود على الله لكن الأصل في الضمائر كلها عودها على أقرب مذكور إذا عريت عن قرائن الأحوال، وقوله في تمام الهجير: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩] لهذا الكشف لأنهم رأوا ما كانوا يتخيلون فيه أنه إليهم ليس إليهم فخسروا رأس المال ولا أعظم خسراناً منه، فما كان من الله إليهم بعد هذا من الإنعام فإنما هو من الاسم الوهاب المعطي لينعم، فما لهم في نظرهم عطاء جزاء لعامل، فهذا وأمثاله هو الذي يعطي هذا الذكر لمن كثر دؤوبه عليه.

الباب السادس والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]

[نظم: المنسرح]

مـا قَـدَرَ الـلّـهَ غَـيْـرُهُ أبـداً ولـيـس غَـيْـرٌ فـكُـلُّـهُـمْ قَـدَرا

مـا حـقّ قـدر الإلـه عـنـدي سـوى بـأنـه الله فـاعْـرِفِ الـصُّـوَرَا

لـو يَـعْـرِف الـخَـلْـقُ مـا أفُـوهُ بـه فـي حَـقّ قَـدْر الإلٰـهِ مـا اعْـتَـبَـرَا

لـو عَـبَّـرُوا عـن وجـود ذَاتِـهِـمُ مـا عَـرَفُـوا الـحَـقَّ لا ولا الـبَـشَـرَا

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] قدر الأمر موازنته لمقداره، وهذا لا يعلم من الأمر حتى يكون له ما يعادله في ذاته فيكن ذلك المعادل مقداراً له لأنه يزنه، فأثبت هذ الذكر لله قدراً لكنه مجهول عند أصحاب هذا الضمير، ولا يعرف قدر الحق إلا من عرف الإنسان الكامل الذي خلقه الله على صورته وهي الخلافة، ثم وصف الحق في الصورة الظاهرة نفسه باليدين والرجلين والأعين، وشبه ذلك مما وردت به الأخبار مما يقتضيه الدليل العقلي من تنزيه حكم الظاهر من ذلك في المحدثات عن جناب الله فحق قدره إضافة ما أضافه إلى نفسه مما ينكر الدليل إضافته إليه تعالى، إذ لو انفرد دون الشرع لم يضف شيئاً من ذلك إليه، فمن أضاف مثل هذا إليه عقلاً فذلك هو الذي ما قدر الله حق قدره، وما قال أخطأ المضيف، ومن أضافه شرعاً وشهوداً وكان على بينة من ربه فذلك الذي قدر الله حق قدره، فالإنسان الكامل الذي هو الخليفة قدر الحق ظاهراً وباطناً صورة ومنزلة ومعنى، فمن كل شيء في الوجود زوجان لأن الإنسان الكامل والعالم بالإنسان الكامل على صورة الحق والزوجان الذكر والأنثى ففاعل ومنفعل فيه، فالحق الفاعل والعالم منفعل فيه لأنه محل ظهور الانفعال بما يتناوب عليه من صور الأكوان من حركة وسكون واجتماع وافتراق، ومن صور الألوان والصفات والنسب، فالعالم قدر الحق وجوداً، وأما في الثبوت فهو أظهر لحكم الأزل الذي هو للممكنات في ثبوتها، لأن الإمكان للممكن نعت ذاتي نفسي، ولم يزل الممكن ممكناً في حال عدمه ووجوده، فبقاء ما بقي منه في العدم وما بقي إلا بالمرجح، فهو الذي أبقاه لما فيه من قبول الوجود، كما هو ممكن مرجح في حال الوجود بالوجود لقبوله العدم بإمساك شرطه المصحح لبقائه. فكما سبح الله نفسه عن التشبيه سبح الممكن نفسه عن التنزيه لما في التشبيه والتنزيه من الحد فهم بين مدخل ومخرج، وما ظفر بالأمر على ما هو عليه إلا من جُمع بينهما فقال بالتنزيه من وجه عقلاً وشرعاً، وقال بالتشبيه من وجه شرعاً لا عقلاً، والشهود يقضي بما جاءت به الرسل إلى أممها في الله ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فكل واصف فإنما هو واقف مع نعت مخصوص فينزه الله نفسه عن ذلك النعت من حيث تخصيصه لا من حيث إنه له، فإن له أحدية المجموع لا أحدية كل واحد من المجموع، والواصف إنما يصفه بأحدية كل واحد من المجموع فهو المخاطب أعني من نعته بذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠] وأما تسبيح الخلق له بقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] وشبه ذلك مما ورد من الآيات والتعريف الإلهي، فإنما يسبح الله عن عقد غيره فيه لأن نظر كل مسبح فيه نظر جزئي، فالذي يثبت له واحد هو عين ما ينفيه عنه الآخر، وكل واحد منهما مسبح بحمد الله فأثبت الله لهذا ما نفاه عن الله لا ما أثبته الآخر، وأثبت الله الآخر عين ما نفاه الأول لا ما أثبته، فما أثبت الله لأحد من أهل الثناء عليه إلا نفى ما نفاه عنه فذلك هو التسبيح بحمده، فما يثنى عليه بالإثبات دون نفي، ولا يوصف بالتسبيح ولا بنقيضه إلا العبد الجامع الكامل الظاهر بصورة الحق فإنه يشاهد الجمع، ومن شاهد الجمع فقد شاهد التفصيل لأنه شاهده جمعاً، فالعبد

الكامل مجموع الحق، ولا يقال الحق مجموع العبد الكامل، ومع هذا فللحق خصوص نعت ليس للعالم أصلاً، وللعالم خصوص وصف ليس للحق أصلاً كالذلة والافتقار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى الباب السادس والتسعون وأربعمائة بانتهاء السفر الثلاثين والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

[السفر الحادي والثلاثون]

الباب السابع والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]

[نظم: البسيط]

الشَّرْعُ يَقْبَلُهُ عَقْلٌ وإيمانُ ... وللعقول موازينٌ وأوزانُ
عند الإله عُلُومٌ ليس يعرفُها ... إلا لبيبٌ له في الوزن رُجْحانُ
فالأمر عقلٌ وإيمانٌ إذ اشتَرَكا ... في حكم تَنْزِيهِهِ ما فيه خُسْرانُ
وثمّ ينفردُ الإيمان في طَبَقٍ ... بما تماثله بالشرع أكوانُ
والعقلُ من حيث حُكْمُ الفِكْرِ يَدْفَعُهُ ... بما يُؤَيِّدُهُ في ذاك برهانُ
لو أن غير رَسُولِ الله جاء به ... في الحين كفره زُورٌ وبُهتانُ
إذا تأَوّلَهُ من غير وُجْهتِهِ ... وقال ما لي على ما قال سلطانُ
لله في ذاك سِرٌّ ليس يعلمُهُ ... إلا فريدٌ وذاك الفَرْدُ إنسانُ
قد كَمَّلَ الله في الإنشاء صُورَتَهُ ... بصورة الحق فالقرآن فُرْقانُ
العينُ واحدةٌ والحُكْمُ مختلفٌ ... للجانبين فما في النَّشْءِ نقصان

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] على أن تكون ما زائدة وليس القليل إلا من آمن بالله، فإن الموحدين بالله هم الذين وحدوا الله بالله، وأما الموحدون الذين وحدوا الله لا بالله بل بأنفسهم فهم الذين أشركوا في توحيده، غير أن هذا الهجير لا يعطي الإيمان بتوحيد الله، وإنما يعطي مشاهدة ميثاق الذرية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وما كان إلا التصديق بالوجود والملك لا بالتوحيد، وإن كان فيه توحيد فغايته توحيد الملك فجاء قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] لما خرجوا إلى الدنيا لأن الفطرة إنما كانت إيمانهم بوجود الحق والملك لا بالتوحيد، فلما عدم التوحيد من الفطرة ظهر الشرك في الأكثر ممن يزعم أنه موحد، وما أدى من أداه إلى ذلك إلا التكليف، فإنه لما كلفهم تحقق أكثرهم أن الله ما كلفهم إلا وقد علم أن لهم اقتداراً نفسياً على إيجاد ما كلفهم به من الأفعال فلم يخلص لهم توحيد، فلو علموا من ذلك أن الله ما كلفهم إلا لما فيهم من

الدعوى في نسبة الأفعال إليهم التي نسبوها إلى أنفسهم ليتجردوا عنها بالله لا بنفوسهم كما فعل أهل الشهود، فإذا ألزم الذاكر نفسه هذا الذكر نتج له إقامة العذر عند الله لعباد الله فيما أشركوا فيه عند إيمانهم، فإن الله أثبت لهم الإيمان بالله وهو خير كثير وعناية عظيمة إذا نظروا إلى من قال فيهم تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٢] فأظهروا ما ليس بوجود وجوداً، وأزالوا في عقدهم وجود ما هو وجود وهو الله فسماه الله ستراً، فكان مستوراً عنهم وجود الحق بما ستروه إذ لم يستروه حتى تصوّروه وبعد التصوّر ستروه فكانوا كافرين. ومن شأن الحق أنه حيث ما تصوّر كان له وجود في ذلك التصوّر، ولا يزول برجوع ذلك المتصوّر عما تصوّر بخلاف المخلوق، فإن المخلوق إذا تصورته كان له وجود من تصوّرك، فإذا تبين لك أنه ليس كذلك زال من الوجود بزوال تصوّرك ما تصوّرته، فهذا فرقان بين الله وبين المخلوق وهم علم دقيق لا يعلمه كثير من الناس، فلهذا ثبت الشرك في العالم لأنه قابل صورة كل معتقد، ولو لم يكن كذلك ما كان إلهاً، فإذا سمع السامع الخبر النبويّ بوجود الله آمن به على ما يتصوّره فما آمن إلا بما تصوّره والله موجود عند كل تصوّر كما هو موجود في خلاف ذلك التصوّر بعينه، فما آمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون لما يطرأ عليهم في نفوسهم من مزيد العلم بالله، ولو في كل مزيد تصوّر فيه ليس عين الأوّل وليس إلا الله في ذلك كله، فما جاء الله بهذه الآية إلا لإقامة عذرهم، ولم يتعرّض سبحانه للتوحيد ولو تعرّض للتوحيد لم يصح قوله إلا وهم مشركون مع ثبوت الإيمان، فدل أنه ما أراد الإيمان بالتوحيد، وإنما أراد الإيمان بالوجود، ثم ظهر التوحيد لمن ظهر في ثاني حال، فمن ادّعى هذا الذكر هجيراً ولم يحصل عنده عذر العالم فيما أشركوا فيه فما هومن أهل هذا الذكر فإنه ما له ذوق إلا هذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢و ٣]

[نظم: البسيط]

مَنْ يَتَّقِ الله في ضِيقٍ وفي سَعَةٍ ... فَرِزْقُهُ يَأْتِهِ من حيث لا يَدْري

رزق المعاني ورزق الحسّ فارْضَ به ... رَبّاً إذا جاء في لَيْلٍ إذا يَسْري

وفي زمان وفي غير الزمان فلا ... تنظرْ إلى أحد في طَبْعه يجري

لولا وُجودي ولولا الدَّهْرُ ما نَظَرَتْ ... عَيْني إلى أحَدٍ من عالَم الأمْرِ

قال الله عز وجلّ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وهو قوله: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] فيخرج مما كان فيه فيفارقه إلى أمر آخر لأنه ما يخرج إلى عدم وإنما يخرج من وجود إلى وجود هذا حال العالم بعد وجوده لا سبيل إلى العدم بعد ذلك قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩] وهو الوجود الحق، ومن صدق هذه الآية الأمر الذي سرى في

العالم وقال به إلا الشاذ النادر الذي لا حكم له، وهو أن أحداً لا تراه راضياً بحاله في الوجود أصلاً ولذلك علة أصلية، وهو أن الحق كل يوم من أيام الأنفاس في شأن، فتحرّك العالم تلك الشؤون الإلهية فيطلب الانتقال مما هو فيه كان ما كان إلى أمر آخر، غير أن الشاذ القليل وإن طلب الانتقال فإنه راضٍ بحاله في وقته وفي طلبه الانتقال فهو يطلب ليجمع، وأكثر العالم لا يطلب الانتقال إلا لعدم الرضا بحاله، فما تجد أحداً من صالح ولا غير صالح يرضى بحاله، هذا هو الساري في العالم، ومن هذا الباب أنك ما ترى أحداً إلا وهو يذم زمانه ويحمد ما مضى وخلا من الأزمان، وليس زمانه إلا حاله مذ وجدت هذه النشأة، وأي زمان كان فيه بنو آدم في وقت آدم حتى ذكر أنه قال في نظم له بلسانه ترجمته: [الوافر]

تَغَيَّرَتِ البِلادُ ومَنْ عليها فوَجْهُ الأَرضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ

فالإنسان يذم يومه ويمدح أمسه وهو الإنسان عينه لا غيره، وقد كان أمس يذم يومه ويمدح ما قبله فلم يزل الأمر هكذا وذلك للأمر الطبيعي أعني الذم، كما أن طلب الانتقال للشأن الإلهي والعارفون يطلبون الانتقال للشأن الإلهي من غير ذم أوقاتهم، وغير العارفين يذمون أوقاتهم طبعاً ويطلبون الانتقال للشأن الإلهي الذي يحركهم لذلك وهم لا يشعرون، وله أيضاً سبب غير هذا عجيب أعني طلب الانتقال والذم، وذلك أن الإنسان مجبول على القلق من الضيق، وطلب الانفساح والإفراج عنه، ويتخيل أن كل ما هو خارج عنه فيه الانفساح من هذا الضيق الذي هو فيه، وذلك أن الإنسان إذا كان في حال ما من الأحوال فإنه مقبوض عليه بذلك الحال لإحاطته به لا بد من ذلك فيجد نفسه محصوراً، ويرى ما خرج عن ذلك الحصر أنه انفساح وانفراج لأن الأمر الخارج عن حاله ما هو واحد بعينه فيضيق عليه الأمر، فلهذا يجد السعة فيما عدا حاله الذي هو عليه، فإذا خرج لم يحصل له من ذلك الاتساع المتوهم إلا حال واحدة تحتاط به فيجد أيضاً فيه الضيق لإحاطتها به وحصره فيه، فيطلب الإفراج عنه كما طلبه في الحال الأوّل، فلا يزال هذا ديدنه والله يخرجه من اسم إلى اسم دائماً أبداً، فمن اتخذ الله وقاية أخرجه من الضيق أي أزال الضيق عنه فاتسع في مدلول الاسم الله من غير تعيين، ولذلك رزقه من حيث لا يحتسب لأنه لم يقيد فلم يتقيد، فكل شيء أقامه الحق فيه فهو له، فيرجع محيطاً بما أعطاه الله فله السعة دائماً أبداً، فالانتقال يعم الجميع والرضا وعدم الرضا الموجب للضيق وهو الذي يتفاضل فيه الخلق، فمن اتقى الله خرج إلى سعة هذا الاسم فيتسع باتساع هذا الاسم الله اتساعاً لا ضيق بعده، ومن لم يتقِ الله لم يشهد سوى حكم اتساع واحد فيخرج من ضيق إلى ضيق، ومن أراد أن يجرب نفسه ويأتي إلى الأمر من فصه ولينظر في نفسه إلى علمه برزقه ما هو، فإن لم يعلم رزقه فذلك الذي خرج من الضيق إلى السعة وهو قوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣] قال بعضهم في ذلك: [المتقارب]

ومَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ كما قال مِن أَمْرِهِ مَخْرَجَا
ويَرْزُقْهُ مِن غيرِ حُسْبانِهِ وإنْ ضاقَ أَمْرٌ بِهِ فَرَجَا

لأنه ما خلقه إلا لعبادته سبحانه وتعالى وهو يرزقه من حيث شاء، فلا يشغل نفسه برزقه كما لا يشغل نفسه بأجله فإن حكمهما واحد، وما يختص بهما حيوان دون حيوان، ومن علم رزقه لم يزل في ضيق لأنه مجبول على عدم الرضا، وإنما قلنا لم يزل في ضيق لأنه قد تعين له ما لا يمكن الزيادة فيه بالخبر الصادق النبويّ، فيبقى معذباً بالضيق إلى أن يموت، والذي لا يعلم يعيش في السعة المتوهمة سعة الرجاء فيعيش طيب النفس فكلما جاءه من رزق من حيث لا يحتسب شغله انتظار ما لا يعلم عن حكم الحاصل في الوقت، فهو في قبضه وضيق وقته في بسط وسعة من أمله فإنه الحاكم عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والتسعون وأربعمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقتاً على زيادة الكاف ووقتاً على كونها صفة لفرض المثل وهو مذهبنا والحمد لله

[نظم: مجزوء الرمل]

لَـيـس فـي الأكْـوان شَـيْءٌ ... غَـيْـرُهُ فَـهُـوَ الـوُجُـودْ
وأنـا وَحْـدي عـلـى مـا ... قُـلْـتُـهُ فـيـه شَـهِـيـدْ
فـانْـتَـفَـى الـمِـثْـلُ عـلـى ذا ... فَـهُـوَ الـفَـرْدُ الـوحـيـدْ
مـا عـلـى مـا قُـلْـتُـهُ فـي ... جـانـب الـحَـقّ مَـزِيـدْ
فـهـو الـمُـرَادُ فـيـنـا ... مـثـل مـا هـو الـمُـرِيـدْ

قال الله عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] فما له مثل، إذ لو كان له مثل لم يصح نفيه فإنه ما نفى إلا المرتبة ما نفي مثلية الذات وما عين التفاضل في الأمثال إلا المراتب، فلو زالت لزال التفاضل، فمن ذاته يقبل الصور ومن مرتبته لا يقبل المثل، ولهذا سماه خليفة وخلفاء لأنها تولية ونيابة فما هم فيها بحكم الاستحقاق أعني استحقاق الدوام، لكن لهم استحقاق قبول النيابة والخلافة، فهم في الرتبة مستعارون وهي لله ذاتية فتزول عنهم ولا تزول ذواتهم، والحق ما تجلى لهم إلا في صورة ذواتهم لا في رتبته فإذا تجلى لهم في رتبته انعزل الجميع فلم يكن إلا هو فنفى مثلية المرتبة في الشهود ونفى مثلية الذات في الوجود: [مخلع البسيط]

مِـثْـلِـيَّـةُ الـذّات فـي الـوُجُـودِ ... مَـنْـفِـيَّـةٌ مـا لـهـا شُـهُـودُ
فـافْـتَـكِـرُوا فـي الـذي أَتَـيْـنـا ... بـه إلـيـكـم ولا تَـزِيـدوا
فـإنـه الـحَـقُّ لا يُـجَـارى ... وإنـنـا عـنـده الـعَـبِـيـدُ
فـإنْ نَـظَـرْتُـم فـيـنـا تَـجِـدْنـا ... مـنـه إلـيـه بـه نـعـودُ
سـبـحـانـه جَـلَّ مـن مـلـيـكٍ ... وهـو بـنـا الـقـائـمُ الـشـهـيـدُ
يـقـصـدنـا لـلـذي يـراهُ ... مـنّـا ومـا عـنـدنـا قُـصُـودُ

إذ نَبْتَغيهِ بِهِ تعالى ... هو المُرادُ وهو المُريدُ

فلا يشهده إلا رب، ولا يجده إلا عبد وبالعكس، لأن الله سمعه وبصره وجميع قواه، فانتفى عن العبد ما ينبغي أن ينتفي، وبقي له ما ينبغي أن يبقى، وهذا كله إذا كان حرف الكاف زائداً فله قبول ما قلنا من النفي وإذا كان للصفة بقي ما قلنا: [الرمل]

وانْتَفَى المِثْلُ عن المِثْل فلم ... يُوجَدِ المِثْلُ مع المثل وقَدْ
ثَبُتَ المِثْلُ له بي مِثْل ما ... ثَبُتَ المِثْلُ لنا منه فَقَدْ
وُجِدَ الأمْرُ على هذا وذا ... كوجود الفَرْد في عين العَدَدْ

فليس كهو شيء وليس مثل مثله شيء فنفى وأثبت. قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» فله التنوّع في باطنه وله الثبوت في ظاهره، فلا يزيد فيه عضو لم يكن عنده في الظاهر، ولا يبقى حال واحد في باطنه، فله التنوّع والثبوت والحق موصوف بأنه الظاهر والباطن، فالظاهر له التنوّع والباطن له الثبوت، فالباطن الحق عين ظاهر الإنسان، والظاهر الحق عين باطن الإنسان فهو كالمرآة المعهودة إذا رفعت يمينك عند النظر فيها إلى صورتك رفعت صورتك يسارها فيمينك شمالها وشمالك يمينها، فظاهرك أيها المخلوق على صورة اسمه الباطن، وباطنك اسم الظاهر له، ولهذا ينكر في التجلي يوم القيامة ويعرف ويوصف بالتحوّل في ذلك، فأنت مقلوبه فأنت قلبه وهو قلبك ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ما أحق هذه الآية في الباطن بهذا المقام: [الرمل]

فكما يَلْبَسُنا نَلْبَسُهُ ... فبنا كان كما نحن بِهِ
فانْتَفَى ما هو موجودٌ بنا ... وبه أكْرِمْ به من مُشْبِهِ

وأكثر من هذا البسط في العبارة ما يكون، فإن هذا الميدان يضيق الجولان فيه جداً، والله ولي الإعانة إذ هو المعين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي خمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]

أي نرده إلى أصله وهو البعد، يقال بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر

[نظم: مجزوء الرمل]

مَنْ يَقُلْ إنّي إلٰهٌ ... فكلامٌ ليس يَصْدُقْ
أو يَقُلْ إنّيَ خلق ... لحقيقة التَّخَلُّق
فهما سِيَّان فيه ... هكذا يُعْطي التَّحَقُّقْ
والذي ليس له ... ذان له حال التّعَلُّق
فله الجَمْعُ المُسَمَّى ... مثل ما له التَّفَرُّق

قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١و ٢٢] ﴿إِنَّ رَبَّكَ

لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] فحقق وانظر تعثر والله الموفق، فحصلوا في نقيض دعواهم، فإن الطاغي المرتفع طغى الماء إذا ارتفع، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] فمن قال إني إله فقد جعل نفسه في غاية القرب، فأخبر الله أن جزاء هذا القائل يكون غاية البعد عن سعادته إذ كان جزاؤه جهنم، فينزل إلى قعرها من طغى إلى الألوهة التي لها الاستواء على العرش بالاسم الرحمن.

واعلم أنه ما في علمي أن أحداً يقع منه هذا القول وهو يجوع ويمرض ويغوط وأمثال هذا إلا فرعون لما استخف قومه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ثم جعل ذلك ظناً بعد شك أو إثباتاً في قوله: ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] وأما القائلون بأن الله هو المسيح ابن مريم فما هم في حكم هذا الذكر لأمرين: الأمر الواحد أنهم فرّقوا بين الناسوت واللاهوت والقائل بهذا الذكر لا يفرّق، والأمر الثاني إنما يدل هذا الذكر على من قال عن نفسه ذلك لا من قيل عنه، والذي ينتج هذا الذكر لصاحبه أحد أمرين أو كلاهما: الأمر الواحد أحدية هذا القائل في الألوهة فيكون العالم كله عند صاحب هذا الذكر عين الحق فله أحدية الكثرة كما لغيره أحدية كثرة الأسماء الإلهية، وتكون الكثرة في النسب والأحكام لا في العين والعالم كله عنده عرض عرض لهذه العين من أعيان الممكنات الثابتة التي لا يصح لها وجود، والأمر الآخر أن يكون قوله من دونه نزولاً عن المرتبة التي لله، وهذا مثل قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فهو وإن كان أنزل منه في الرتبة فهو عنده أنه إله، فيكون هذا القائل إذا كان صاحب هذا الذكر يرى أن تجلي الحق في الصور أنزل منه لو تجلى في كونه غنياً عن العالمين، فلو صح هناك تجل لكان أكمل من تجليه في الصور فتعقل رتبة غناه عن العالم بنفسه، وقد يكون هذا لمن يراه عين العالم فعلامته هويته فهو الدليل له عليه كقوله: أعوذ بك منك، واستعاذ به منه إذ لا مقابل له غير ذاته فهو المعز المذل.

ثم هنا تنبيه إلهيّ حيث قرن هذا الحال بالقول لا بالعلم والحسبان، فإن قال: ما نظن أنه قد علم أن الأمر كذا فتخيل أن قوله مطابق لعلمه وهذا يستحيل وقوعه من أحد علماً لعلمه بذلته وافتقاره وقصوره في نفسه، فإذا قال مثل هذا وهو يعلم قصوره فيقولها بوجه لا يقع عليه فيه مؤاخذة ويكون جزاؤه على هذا القول جهنم أي بعده في نفسه عما يقول به على لسانه وهو خير جزاء لأنه علم ويكون ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥] جزاء الظالم الذي ورث الكتاب من المصطفين، فإن الله أطلق على بعض الورثة اسم الظالم مع كونه من أهل الحق فيتخصص الظالم هنا كما تخصص في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وهو ظلم خاص مع كونه نكرة، فهو نكرة عند السامع لا عند المتكلم به، ولهذا فسره رسول الله ﷺ بأنه الشرك خاصة، فمثل هذا الهجير يكون موجهاً فيما ينتج لأنه في وضعه على ذلك، فيأخذ كل صاحب وجه منه بنصيب لأنه صالح لذلك، وكل آية في الهجيرات إنما تؤخذ على انفرادها كما سطرت، وعند أهل التحقيق هذا المأخذ وإن كان عالي الأوج، فإن

مسمى الآية إذا لزمتها أمور من قبل أو بعد يظهر من قوّة الكلام أن الآية تطلب تلك اللوازم فلا تكمل الآية إلا بها وهو نظر الكامل من الرجال، فمن ينظر في كلام الله على هذا النمط فإنه يفوز بعلم كبير وخير كثير كما تقول في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إنها آية مستقلة وتقول فيها في سورة النمل إنها جزء آية، فلا كمال لها في الآي إلا بزيادة، فاعلم أنه كما لكل أجل كتاب كذلك لكل عمل جزاء والقول عمل فله جزاء أن الله عند لسان كل قائل، وليس بعد الخواطر أسرع عملاً منه أعني من اللسان، فالقول أسرع الأعمال ولا يتولى حساب صاحبه إلا أسرع الحاسبين لأن متولي الحساب على الأعمال من الأسماء الإلهية ما يناسب ذلك العمل إن فهمت ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الواحد وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:
﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠] وكان هذا هجير الشيخ أبي مدين شيخنا رضي الله عنه

[نظم: الرمل]

أفــغَــيْــرَ الله يَــدْعُــو صــادقٌ ... أم بــغــيــر الله فُــوهُ يَــنْــطُــقُ
بــل بــه يــنــطــقُ لا يــعــقــبــهُ ... ولــذا فــي كــل حــال يَــصْــدُقُ
ثــم يَــدْعُــوه إذا يَــدْعُــو بــه ... فــهــو الــدَّاعــي الــذي لا يُــلْــحَــقُ
أخــلــق الــخــالــق مــا يــخــلــقــه ... لــجــديــد بــعــد هــذا يــخــلــقُ
لــيــت شِــعْــري هــل تــرى مــن كــائــن ... قــائــم الــعَــيْــنِ بــه لا يــخــلــقُ
حَــجَــبَ الأمــثــال مــا قــام بــهــا ... مــن فَــنــاء كــونــه يــحــقّــقُ

قال الله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١] أي تتركون الشرك، فأنتج هذا الذكر هذه الشهادة الإلهية وإذا كان الحاكم عين الشاهد بقيت الحيرة في هل يحكم الحاكم بعلمه أم لا؟ فإن الشهادة علم، والحكم قد يكون عن غلبة ظن وعن علم وموضع الشهادة بل إياه تدعون وتنسون ما تشركون وهو قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] فقد شهد على نفسه لنا في دار التكليف بتوحيده في المهمات، ولا يعرف الكريم إلا المسيء ولا أكرم من الله، وقد نبه الله المسيء أن يقول بكرم الحق لكونه يحكم بالكرم في حقه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] هذا ليقول كرمك وما يعني بالإنسان هنا إلا المسيء صاحب الكبيرة، فإنه لا يقاوم كبير كرمه إلا بأكبر الكبائر، فهناك يظهر عموم الكرم الإلهي وقوّته، فهو وإن لم يغفر فلا بد من الكرم الإلهي في المآل، وإن لم يخرج من النار لأنها موطنه، ومنها خلق حتى لو أخرج منها في المآل لتضرر فله فيها نعيم

مقيم لا يشعر به إلا العلماء بالله. فلما كشف الله غطاء الجهل والعما عمن كشفه أبصر أن أحداً من الخلق ما دعا في حال شدته إلا الله، فلو لم يكن في علمه في حال الرخاء أن حل الشدائد بيد الله خاصة وهذا هو التوحيد ما أظهره لك الاعتقاد عند الشدائد، فلم يزل المشرك موحداً بشهادة الله في حال الرخاء والشدة، غير أن المشرك في حال الرخاء لا يظهر عليه علم من أعلام التوحيد الذي هو معتقده، فإذا اضطر رجع إلى علمه بتوحيد خالقه لم يظهر عليه علم من أعلام الشرك وكل ذلك في دار التكليف، وأكثر علماء الرسوم غائبون عن هذا الفضل الإلهي والكرم، فيعطي هذا الذكر من العلم بكرم الله ما ليس عند أحد من خلق الله ممن ليس له هذا الذكر والدؤوب عليه، ولم أسمع عن أحد تحقق به في زماني مثل الشيخ أبي مدين ببجاية رحمه الله، وإذا اجتمع في دار التكليف في الشخص ظهور التوحيد في وقت وظهور الشرك في وقت مع استصحاب التوحيد في الباطن مع وجوده في أصل الفطرة والرجوع إليه في المآل في حال الاحتضار قبل الخروج من الدنيا فكان زمانه أكثر من زمان الشرك، فلو قابلنا الأمر بالزمان بينهما لكان زمان التوحيد غالباً بالفطرة والاستصحاب في الباطن دائماً علماً وعقداً، وكان ظهوره في وقت الشدائد بأزمانه أكثر من زمان الشرك، فلا يحجبنك حكم الدار عن هذا الذي أومأنا إليه في هذا الهجير فإنه ينفعك، ولو قدرت أنه لا ينفعك فإنه لا يضرّك، فقل به على كل حال واعتمد عليه ولاتك ممن يردّ شهادة الله حين شهد لهم بذلك عندك، وما شهد عندك حتى جعلك حاكماً فأنزلك منزلته في الحكم وأنزل نفسه منزلتك في الشهادة، فإن لم تحكم بما قرّرناه فقد رددت شهادة العدل ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢] ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] ثم قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣] أي إن صدقتم ولا تكتمون ما تجدونه في نفوسكم من قولي إنكم ما تدعون في الشدائد إلا الله الذي ما زالت قلوبكم منطوية عليه فهم بلا شك مصدقون لعلمهم فهل يصدقون إذا سئلوا أم لا: [المتقارب]

فقد يَصْدقون وقد يَكْذبونْ ... وقد يعلمون وقد يَجْهَلُونْ
فلا تُصْغِيَنَّ إلى قولهم ... فإني عليمٌ بما يقصدونْ
فكُنْ وَاحِدَ العَصْر لا تَلْتَفِتْ ... إلى ما يقولون إذ يَفْشُرُونْ
فإني خبيرٌ بأقوالهم ... وعلمي بهم أنهم يَخْرصُونْ
ولو كنت أدري بهم أنهم ... إذا ما يقولونه يصدقونْ
لقد كنت أُصْغي إلى قولهم ... فهم إذ يقولون ما يَشْعُرونْ
فهم إذ يقولون ما في العَمَا ... وفي العرش إلا الذي يَفْتَرُونْ
فقد حَرَّفُوا القَوْلَ فاستنصِروا ... عليهم بهم إنَّهُم يَنْصُرُونْ

ومتى لم يعلم الكاذب أنه كاذب فإنه غير مؤاخذ بكذبه، فإن أخذ فما يؤاخذ إلا بتفريطه في تحصيل ما ينبغي له أن يحصله من العلم والعمل بما فيه نجاته وسعادته لا من جهة كذبه، فلا يؤاخذ الكاذب إلا إذا كان عالماً بكذبه في المواطن التي كلف أن يصدق فيها وهو الجاحد

إذا كان هناك من يطلب منه الإقرار في ذلك الأمر المطلوب منه مثل قوله تعالى في حق من كان بهذه الصفة ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقد قررنا أنه إذا أخذ من لا يعلم أنه كاذب إنما يؤخذ من حيث إنه فرط في اقتناء العلم الذي يطلعه على هذا الأمر الذي كذب فيه من غير علم به أنه ليس بحق، ففرق بين مؤاخذة الكاذب ومتى هو كاذب، وبين مؤاخذة المفرّط في اقتناء العلم الذي يعرّفه الصدق من الكذب والصادق من الكاذب، فينزل كل شيء منزلته بصفته، وهذا عزيز في الناس قليل وجوده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. جعلنا الله وإياكم من العلماء العاملين على كل حال، ولايحول بيننا وبين مقام الصادقين والصديقين إنه المليُّ بذلك والقادر عليه آمين بعزته.

الباب الثاني وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]

[نظم: الرمل]

لا تَخُونوا الله إن كنتم له ... والأمانات كذاكم لا تُخَانْ
لا تَكُنْ بالحمل إن حملتها ... دون أمر جاهلاً ليس تُعانْ
كل من حملها يحملها ... بأمان فالأمانات أمانْ
ولها حَقٌّ على حاملها ... ليس يدري ذاك إلا ذو عَيَانْ
فيُؤدّيها كما قال لنا ... في الكتاب الحقّ من قال فكانْ
ذاكُمُ اللَّهُ تعالى جَدُّهُ ... في يَرَاعٍ ولسان وجنانْ

قال رسول الله ﷺ موصياً: «**لاَ تَسْألوا الإمَارَةَ فَإنَّكَ إنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ سُؤَالٍ لَمْ تُعَنْ عَلَيْهَا**» فالخيانة ثلاث: أعني الذين يخانون خيانة الله وخيانة الرسول وخيانة الأمانات، وما أيَّهَ الله في هذه الخيانات إلا بالمؤمنين، فإن كنت مؤمناً فأنت المخاطب، فأما خيانة الله في أمانته وخيانة الرسول وخيانة الأمانات فأنا أذكرها إن شاء الله تعالى، لما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ لأنها كانت عرضاً لا أمراً ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] يريد ظلوماً لنفسه جهولاً بقدر ما حمل، قال لنا تعالى لما حملناها: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وما حملها أحد من خلق الله إلا الإنسان، فلا يخلو إما أن يحملها عرضاً أو جبراً، فإن حملها عرضاً فقد خاطر بنفسه، وإن حملها جبراً فإنه مؤدّ لهاعلى كل حال ولا بد.

واعلم أنّ أهل الأمانات الذين أمرنا الله أن نؤدّيها إليهم ليس المعتبر من أعطاها ولا بد، وإنما أهلها من تؤدّى إليه، فإن كان الذي أعطاها بنية أن تؤدى إليه في وقت آخر فهو أهلها من حيث ما تؤدى إليه لا من حيث أنه أعطاها، وإن أعطاها هذا الأمين المؤتمن إلى من أعطاه

إياها ليحملها إلى غيره فذلك الغير هو أهلها لا من أعطى فقد أعلمك بالأهلية فيها، فإن الحق إنما هو لمن يستحقه فاعلم ذلك واعمل عليه.

واعلم بأن الله قد أعطاك أمانة أخرى لتردّها إليه، كما أعطاك أمانة لتوصلها إلى غيرك لا تردّها إليه كالرسالة فإن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] وأمّا ما يرد إليه عز وجلّ من الأمانات فهو كل علم آمنك عليه من العلوم التي إذا ظهرت بها في العموم ضل به من لا يسمعه منك بسمع الحق، فإذا حصل لك مثل هذا العلم ورأيت من كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه وليس له هذا العلم فأداه إليه فإنه ما يسمعه منك إلا بسمع الحق، فالحق على الحقيقة هو الذي سمع فرددت الأمانة إليه تعالى وهو الذي أعطاكها، وحصلت لهذا الشخص الذي الحق سمعه فائدة لم يكن يعلمها، ولكن حامل هذه الأمانة إن لم يكن عالماً بأن هذا ممن يكون صفته أن يكون الحق سمعه وإلا فهو ممن خان الله وقد نهاه الله أن يخون الله، وكذلك أيضاً من خيانة من أطلعه الله على العلم بأن العالم وجوده وجود الحق، ثم تصرّف فيه بتعدي حد من حدود الله يعلم أنه متعدٍّ فيه، فإن الله في هذا الحال هو عين الأمانة في وجوده عند أهل الحجاب، سواء علم ذلك شرعاً أو عقلاً فقد خان الله في تصرّفه باعتقاده التعدي، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] . وكذلك من خان الله في أهل الله فقد خان الله، وكل أمر بيدك أمرك الله فيه أن تردّه إليه فلم تفعل فذلك من خيانة الله والله يقول: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] وأما خيانة من خان رسول الله ﷺ فهي فيما أعطاك الله من الآداب أن تعامل به رسول الله ﷺ وهذه المعاملة هي عين أدائها إليه ﷺ، فإذا لم تتأدّب معه فما أدّيت أمانته إليه فقد خنت رسول الله ﷺ فيما أمنك الله عليه من ذلك، ومن خيانتك رسول الله ﷺ ما سألك فيه من المودة في قرابته وأهل بيته فإنه وأهل بيته على السواء في مودتنا فيهم، فمن كره أهل بيته فقد كرهه، فإنه ﷺ واحد من أهل البيت، ولايتبعض حب أهل البيت، فإن الحب ما تعلق إلاّ بالأهل لا بواحد بعينه، فاجعل بالك واعرف قدر أهل البيت، فمن خان أهل البيت فقد خان رسول الله ﷺ، ومن خان ما سنه رسول الله ﷺ فقد خانه ﷺ في سنته.
ولقد أخبرني الثقة عندي بمكة قال: كنت أكره ما تفعله الشرفاء بمكة في الناس فرأيت في النوم فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهي معرضة عني فسلمت عليها وسألتها عن إعراضها فقالت: إنك تقع في الشرفاء، فقلت لها: يا ستي ألاترين إلى ما يفعلون في الناس؟ فقالت: أليس هم بنيّ؟ فقلت لها من الآن وتبت فأقبلت عليّ، واستيقظت: [الوافر]

فلا تَعْدِلْ بأهل البيت خَلْقاً ... فأهل البيت هم أَهْلُ السِّيادَهْ
فبُغْضُهُمُ من الإنسان خُسْرٌ ... حقيقيٌّ وحُبُّهُمُ عبادَهْ

ومن خيانتك رسول الله ﷺ المفاضلة بين الأنبياء والرسل سلام الله عليهم، مع علمنا بأن الله فضل بعضهم على بعض كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

[الإسراء: ٥٥] وقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فله سبحانه أن يفضل بين عباده بما شاء وليس لنا ذلك فإنا لا نعلم ذلك إلا بإعلامه، فإن ذلك راجع إلى ما في نفس الحق سبحانه منهم، ولايعلم أحد ما في نفس الحق كما قال عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] ولا دخول هنا للمراتب الظاهرة والتحكم، وقد نهى رسول الله ﷺ أن نفضل بين الأنبياء وأن نفضله ﷺ عليهم إلا بإعلامه أيضاً، وعين يونس عليه السلام وغيره، فمن فضل من غير إعلام الله فقد خان رسول الله ﷺ وتعدى ما حده له رسول الله ﷺ. وأما خيانة الأمانات فيتناولها قوله ﷺ: **«لا تُعْطُوا الحِكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا وَلا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ»** والخيانة ظلم، فالحكمة أمانة وخيانتها أن تعطيها غير أهلها وأنت تعلم أنه غير أهلها، فرفع الله الحرج عمن لا يعلم، إلا أنه أمره بأن يتعرض لتحصيل العلم بالأمور فلا عذر له في التخلف عن ذلك، فمن خان فيه قبل حصول العلم وهو متعلم في حصول العلم ودعاه الوقت إلى ذلك التصريف الخاص المسمى خيانة فإنه غير مؤاخذ بتلك الخيانة ولا بالتفريط، فإنه في حال التعمل لتحصيل العلم والوقت حكم بما وقع به التصرف، فمن كان له هذا الذكر فإنه تحصل له به العصمة من الخيانة ويطلعه على العلم بالأهلية في كل أمانة بعناية هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل: [البسيط]

إنّي خُصِصْتُ بسرٍّ ليس يعلمُهُ ... إلا أنا والذي في الشرع نَتَّبِعُهْ
هو النبيُّ رسولُ الله خَيْرُ فَتًى ... بالله نَتْبَعُهُ فيما يُشَرّعُهُ

الباب الثالث وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]

[نظم: البسيط]

الله يعلمُ أنّي لستُ أعلمه ... وكيف يُعْلَمُ من بالعلم نَجْهَلُهُ
إني علمتُ وجوداً لا يُقَيِّدُهُ ... نَعْتٌ بحقّ ولا خلق يفصّلُهُ
علمي به حَيْرَتي فيه فليس لنا ... دليلُ حَقّ على علم نُحَصّلُهُ
فليس إلا الذي جاء الرسولُ به ... في الحالتين وبالإيمان نقبلُهُ
فإن تَفَكّرْتَ في القرآن تُبْصِرُهُ ... وقتاً يُنَزّهُهُ وقتاً يُمَثّلُهُ

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزمر: ٣] هذا الذكر عليّ المشهد والمحتد، فإن الله ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، ما علل بغير هذا خالق العالم، وما نعلم أحداً أخذ عبادة الخلق لنفسه أو لغير الله حتى يخلصها منه، وقد علمنا صدق قوله في طلبه الإخلاص في العبادة فعلمنا أنه لا بد، ثم من نسبة فيها، إلى غير الله فلم نجد إلا نحن، فنحن أصحاب الدعاوى فيما هو لله لأنه ما من شيء إلا وهو ساجد لله والسجود عبادة إلا نحن ولذلك قال:

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] ولم يعم كما عم في كل من ذكر من الأنواع، ألا تراه تعالى ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه، فالرسالة لله والأداء للرسول عليه السلام بلسان القوم: [الرمل]

علم القرآن كيف ينزل ... في وجودي وعلى مَنْ ينزلُ
إنما ينزله الذكر به ... في قلوب كلهن منزلُ
ولكلٍّ منهمُ قِسْمَتُهُ ... ليس في القرآن شيء يفضلُ
فلنا منه المقامُ الأسهلُ ... ثم لله المقام الأجْزَلُ
وهو قول الله واللفظُ لنا ... وله الحكم العظيم الفَيْصَلُ

ولكن الله قد أبان لنا أن هوية الحق سمع العبد وبصره وجميع قواه، والعبد ما هو إلا بقواه فما هو إلا بالحق، فظاهره صورة خلقية محدودة، وباطنه هوية الحق غير محدودة للصورة، فهو من حيث الصورة من جملة من يسبح بحمده، وهو من حيث باطنه كما ذكرنا، فالحق يسبح نفسه، وأعطى المجموع معنى دقيقاً غامضاً لم يعطه كل واحد على الانفراد به، وأضيف إلى الصورة ما أضيف من موافقة ومخالفة وطاعة ومعصية، وبه قيل: إنه مكلف وبه صحت القسمة في الصلاة بينه وبين الله فيقول العبد كذا فيقول الله كذا ولا يكون عبداً إلا بالمجموع، فانظر ما حصل للحق من النعت لما وصف نفسه بأنه قوى العبد فما كان عبداً إلا به، كما لم يكن الحق قواه إلا به لأن اسم العبد ما انطلق إلا على المجموع، وقد أعلمنا الله من هو المجموع، فيقول العبد: الحمد لله رب العالمين، والحق لسانه والحق سمعه، فمن قال: الحمد لله ومن سمع قوله: الحمد لله فيقول الله: أثنى عليّ عبدي، ولكن بغير هذا اللسان القائل بل بهوية الحق مجردة عن الإضافة بهذا العبد في حال إضافتها إليه، فلم يقل بالمجموع أثنى عليّ عبدي وما أثنى عليه إلا بكلامه فإن الحمد لله رب العالمين كلام الله، فبالمعنى المعلوم كانت العبارة عنه أثنيت على نفسي بصورة عبدي حكى عبدي عني من حيث صورته الظاهرة ما أثنيت به على نفسي، كما ذكر لنا في غير هذا الموضع أن الله قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده، وقال لنبيه ﷺ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وما سمع إلا صوت المؤدي وهو الرسول، ونحن نعلم أن كلام العالم كله ليس إلا كلامه، فإن العالم كله إنسان كبير كامل، فحكمه حكم الإنسان، وهوية الحق باطن الإنسان وقواه التي كان بها عبداً، فهوية الحق قوى العالم التي كان بها إنساناً كبيراً عبداً مسبحاً ربه تعالى: [الطويل]

ألا كُلُّ قَوْلٍ في الوجود كلامُهُ ... سَوَاء علينا نَثْرُهُ ونِظَامُهُ
يعم به أسماع كل مكوّن ... فمنه إليه بَدْؤُهُ وخِتَامُهُ
ولا سامع غير الذي كان قائلاً ... فمندرجٌ في الجهر منه اكْتِتَامُهُ
فتستره ألفاظنا بحروفها ... فما فيه من ضوء فذاك ظَلامُهُ
فما ظَنُّكُمْ بالنُّور منه إذا بدا ... وقد ملأ الجَوّ الفَسِيحَ غَمَامُهُ

لأنه القائل أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام. ولما كان الأمر على ما ذكرناه في نفسه طلب منا أن نخلص العبادة له لأن بالعبادة نكون عبيداً، وما نكون عبيداً إلا بهويته فنخلص العبودية، وتخليصها أن نقول له: أنت هو بأنانيتك، وأنت هو في أنانيتي، فما ثم إلا أنت فأنت المسمى رباً وعبداً إن لم يكن الأمر كذا فما أخلصنا له عبادة، فما طلب الإخلاص فيها إلا من المجموع، ولا يصح لها وجود ولا نسبة إلا بالمجموع لأنه بالانفراد غنيّ عن العالمين، وبالمجموع قال: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] فقيده بالإحسان وفسر لنا ما هو الإحسان، وما فسره إلا بشهود المحدود المنصوب في القبلة، فمعرفة الله بلسان الشارع المترجم عن الله غير معرفته بالنظر العقليّ، فللمعرفة بالله طريقان وأعني العلم بالله منا، وإن شئت قلت ثلاث طرق: الطريق الواحد علمنا به تعالى من حيث نظرنا الفكريّ، وعلمنا به من حيث خطابه الشرعيّ، وعلمنا به من حيث المجموع، وإنا نعلم أنا لا نعلمه كما يعلم نفسه، فهذا حصر المعرفة الحادثة بالله تعالى: [الكامل]

فالحَقُّ عَيْنُ العَبْدِ ليس سواهُ والحَقُّ غَيْرُ العَبْدِ لَسْتَ تَراهُ
فانْظُرْ إليه به على مجموعه لا تُفْرِدَنْهُ فتَسْتَبِيحَ حِمَاهُ
هذا هو الحقّ الصريح فأخلصوا لله منك عبادة تلقاهُ

أي تلقاه تلك العبادة، وإن شئت قلت لله منه عبادة تلقاه فإنك ما أخذتها إلا به فمنه تخلصها له وأنت محل الظهور، فالصورة لك والعين هويته، كما قررنا في غير موضع أن الصور المعبر عنها بالعالم أحكام أعيان الممكنات في وجود الحق ولهذا يقال: إن العالم ما استفاد الوجود إلا من الحق وهو الحدوث، وهذا القدر كافٍ في تخليص العبادة لله فيكون الحق العابد من وجه المعبود من وجه بنسبتين مختلفتين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]

إلى هنا كان هجير شيخنا أبي مدين رحمه الله، وزاد بعضهم قوله تعالى: ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]

[نظم: المتقارب]

إلى الله من كَوْنِنَا المَهْرَبُ وإيَّاه في رَفْعِه أرْغَبُ
ذَرِ الكُلَّ في خَوْضِهِ يلعبُ فليس لنا غيرُه مَذْهَبُ
فإنك إن جِئْتَهُ تقربُ وفيه الورى كله يرغبُ
ولما رأيت الذي يعجبُ من الله فِزْتُ بما أطلبُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الباب قريب من الذي قبله، فإن الله وصف نفسه بالتعجب والضحك والفرح والتبشيش، وأشباه هذه الصفات الخلقية، ووصف نفسه بـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] يعني فيها ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾

[الأنفال: ١٧] فخلصنا له منه أمرنا الحق أن نقول الله ثم نذرهم أي نترك ضميرهم، وهو ضميرهم ضمير الجمع لا هو الذي هو ضمير الأفراد، فإنا للفرد نخلص العبادة من الجمع، فإن الجمع أظهر القسمة بين الله وبين عبده في العبادة وهي لله لا للمكلف من حيث صورته، وإن كانت له من حيث جمعيته بالله فهنا رسخت قدم الشيخ أبي مدين رضي الله عنه ولم يتعد وغيره يتمم الآية فقال: ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] فوقف أبو مدين رضي الله عنه مع قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ وكل ما في العالم آياته فإنها دلائل عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] فامتثل أمر الله فأعرض ووقف غيره مع أمره أن يتركهم في خوضهم يلعبون فامتثلنا أمر الله وتركناهم فكشف الغطاء عن أبصارنا فعلمنا على الشهود من الخائض اللاعب، وما هو هذا الجمع الذي أظهره ضمير لفظة هم في قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وقد تقدم أنه ماثم أثر إلا للأسماء الإلهية، فثبت الجمع لله بأسمائه وثبت التوحيد بهويته: [المتقارب]

فما ثَمَّ جَمْعٌ ولا واحدٌ ... سوى الحقِّ فاشهدْ وذَرْ من أَمَرْ
كما قال في خَوْضِه لاعباً ... لحُكْم القضاء وحُكْم القَدَرْ
فما ثَمَّ فيما ترى لاعبٌ ... سوى من يُصَرِّفُ هذي الصُوَرْ
فتُبْصِرُهُ وهو يَلْهُو بها ... كما شاءه حين يُقْضَى الوَطَرْ
هي الصَّوْلجان ومَيْدانُها ... وجودي لتصريف هذي الكُوَرْ
تجولُ الخيولُ بمَيْدانها ... مراكب أرواحها في البَشَرْ
وهم في الرُّكُوب على ظهرها ... وإن سَلِمُوا فوق مَتْن الخَطَرْ

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] فهو القاتل وإن لم يرد هذا الاسم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فهو الرامي بالصورة المحمدية وإن لم يرد هذا الاسم ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤] في صورة طير وإن لم يرد سرابيل تقيكم الحر وهو الواقي وإن لم يرد والسرابيل اسم: [المتقارب]

فهذا من الخَوْض فاعْلَمْ به ... لتعلم من ذلك الخائضْ
وَأَبْرِمْ وما أنت أَبْرَمْتَهُ ... وكُنْ ناقضاً فهو الناقِضْ
وقل للذي يَجْبُنُ انْهَضْ به ... فتحمد نهوضك يا ناهضْ
فلم تقتلوهم ولكنه ... هو القاتلُ الفارسُ الفارضْ

ليس مسمى اللعب باللعب على طريق الذم فإن اللعب مفرحة النفوس، إلا أن الحق جعل لهذا اللعب مواطن، فإذا تعدى العبد بلعبه تلك المواطن تعلق به الذم لا من كونه لعباً بل من كونه في ذلك الموطن، ثم لتعلم أن الأمور تختلف بالقصد وإن اجتمعت في الصورة، وقد بينا هذا المعنى فيما جبل عليه الإنسان في أصل خلقه من البخل والجبن والحرص والشره وهي في العامة خلق مذمومة عرفاً، فبين الحق لها مصارف تحمد فيه، فلولا أنها قابلة للحمد بالذات ما حمدت في المصارف الإلهية التي عين لها الحق واللعب منها، وقد أمرنا الحق أن

نذر الخائض يلعب في خوضه وقد أمرنا بالنصح وتغيير المنكر بالمعروف وهو أن نبين وجه المعروف في المنكر فنزيل عنه اسم المنكر كما هو في نفس الأمر معروف فإنه ما في الوجود من يقع عليه نعت النكرة فإن كل شخص قد عينته شخصيته فأين المنكور: [الكامل]

فإذا فَهِمْتَ مقالتي فافْرَحْ بها فالقَوْلُ قَوْلُ الله في المَخْلُوقِ
إذْ كان من فهم الذي قد قلته من حكمة أدى إليّ حُقُوقي

هذا ما أنتجه المقال فكيف يكون ما ينتجه العمل؟ فإن الله ما أمرنا إلا أن نقول الله ونترك كل حرف بما عنده فارحاً ما كلفني غير ذلك فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] عن بصيرة فإنهم بين أن يحمدوا ذلك الخوض أو يذموه عقداً، فإن حمدوه فقد قلنا أنه تعالى عند كل معتقد، وإن وجدوه في تصور من تصوره لا يزول بزوال تصور من تصوره إلى تصور آخر، بل يكون له أيضاً وجود في ذلك التصور الآخر كما يتحول يوم القيامة في التجلي من صورة إلى صورة، وما زالت عنه تلك الصورة التي تحول عنها لأن الذي كانت معتقده فيها يراه فما هو إلا كشف منه تعالى عن عين هذا الذي يدركها لا غير فهم على بصيرة وإن ذموه، فهم الذين تحول في حقهم إلى الصورة التي تحول إليها بعلامتهم، فهم في ذمهم على بصيرة لأنه لذلك خلقهم كما تعبد كل مجتهد بما أداه إليه اجتهاده، وحرم عليه أن يعبده باجتهاد غيره إذا كان من أهل الاجتهاد سواء، فالمقلد مطلق فيما يجيء به المجتهدون ويختار ما شاء فله الاتساع في الشرع وليس للمجتهد ذلك فإنه مقيد بدليله وإن أصاب الحق أو أخطأه، كما هو نعت هذا الخائض إن حمد خوضه أو ذمه فهو في الحالتين على بصيرة، ولهذا أمرنا الحق أن نتركهم في خوضهم يلعبون، ولو لم يكن في هذا الذكر من الفائدة إلا كون الله يتخلق لعباده في اعتقادهم، فإن الناظر في الله خالق في نفسه بنظره ما يعتقده فما عبد إلا إلهاً خلقه بنظره وقال له كن فكان، ولهذا أمرنا الناس أن يعبدوا الله الذي جاء به الرسول ونطق به الكتاب، فإنك إذا عبدت ذلك الإله عبدت ما لم تخلق بل عبدت خالقك فأعطيت العبادة حقها موفى، فإن العلم بالله لا يصح أن يكون علماً إلا عن تقليد محال أن يكون عن دليل، ولهذا منعنا عن التفكر في ذات الله ولم نمنع بل أمرنا أن نفرد الرتبة إليه فلا إله إلا هو، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] كان عليه من أصحابنا محمد المراكشي بمراكش

[نظم: الخفيف]

ليس قَلْبُ الوجود غَيْرَ وجودي وكذا في الشهود عَيْن شُهُودي
فأنا القلبُ والمهيمن قلبي وهو منّي مكان حبل الوَريدِ
لا تُحِدُّوهُ للذي قد سمعتم إنّه جَلَّ عن قيود الحُدودِ

من رآني فقد رآه ومن لم يرني لم يَفُزْ بفَرْض السُّجُودِ
إنما يُفرَضُ السجودُ على من قال في الحق إنه من وجودي

يريد قوله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» رأيت محمداً المراكشي بمراكش وكان يكاثرني ليلاً ونهاراً وكان هذا هجيره دائماً فما رأيته ضاق صدره من شيء قط وكانت الشدائد تمر عليه فلا يتلقاها إلا بالفرح والضحك، فتفرج عنه في نظرنا وهو ينتقل من فرح إلى فرح ومن سرور إلى سرور، فكنت أقول له: هل تصبر على حلول هذه النوازل المكروهة طبعاً؟ فيقول: لما صبرت أولاً فأنتج لي ذلك الصبر على الحكم الإلهيّ مشاهدة العين فشغلتني عن كل حكم فما أتلقاه إلا به فهو مجنى فإياه أسأل، فإن النوازل به تنزل في رؤيتي وأنتم ترون حكم النازلة في صورتي وكل عند نظره، ثم كان هذا الشخص من أحفظ الناس على أوقات عباداته، والله ما رأيت مثله بعده في هذا المقام، وما تحسر أحد من إخواني على فراقي حين فارقته إلى هذه البلاد مثل تحسره على فراقي وكان يقول لي: والله لولا مشاهدة العين التي حجبتني عن نفوذ الحكم الرباني في لسافرت معك، فوالله ما يغيب عني منك إلا تحوّل صورة الحق إلى صورة أخرى فأشهده غيباً ومحضراً، وهذا ذوق عجيب، كان كثير الأدب كثير الكلام، يكاد لا يصمت أبداً عن دلالة الناس على الله عز وجل، فإذا قيل له في ذلك يقول: أنا أؤدي فريضتي في كلامي وأنت بالخيار في مجالستي والإصغاء إلي ما نورده أنا أتكلم مع من يسمع ما أتكلم مع من لا يسمع، اعلم أن هذا الذكر يعطي الثبوت مع الحكم الربانيّ لما فيه من المصلحة وإن لم يشعر به العبد وجهله فهو في نفس الأمر مصلحة كان الحكم ما كان، وهذا هو مقام الإحسان الأوّل الذي هو فرق الإيمان، فله الشهود الدائم في اختلاف الأحكام ولا بد من اختلافها لأنه تعالى كل يوم في شأن، فإن كنت صاحب غرض وتحسُّ بمرض وألم فاحبس نفسك عن الشكوى لغير من آلمك بحكمه عليك كما فعل أيوب عليه السلام، وهو الأدب الإلهيّ الذي علمه أنبياءه ورسله فإنه ما آلمك وحكم عليك بخلاف غرضك، وغرضك من جعل حكمه فيك إلا لتسأله في رفع ذلك عنك بما جعل فيك من العرض الذي بسببه تألمت، فمن لم يشك إلى الله مع الإحساس بالبلاء وعدم موافقة الغرض فقد قاوم القهر الإلهي، جاع أبو يزيد البسطاميّ فبكا فقيل له في ذلك فقال: إنما جوعني لأبكي، فالأدب كل الأدب في الشكوى إلى الله في رفعه لا إلى غيره، ويبقى عليه اسم الصبر كما قال تعالى في رسوله أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ [صَ: ٤٤] في وقت الاضطراب والركون إلى الأسباب، فلم يضطرب ولا ركن إلى شيء غير الله إلا إلينا لا إلى سبب من الأسباب، فإنه لا بد طبعاً عند الإحساس من الاضطراب وتغير المزاج، ولذلك لطخ الحلاج وجهه بالدم حين قطعت أطرافه لئلا يظهر إلى عين العامّة تغير مزاجه غيرة منه على المقام لمعرفته بهذا كله، وهو القائل في وقت هذه الحال: [السريع]

ما قُدَّ لي عُضوٌ ولا مفصلٌ إلا وفيه لكُمْ ذِكْرُ

بخلاف الآلام النفسية إذا وردت الأمور التي من شأنها أن تتألم النفوس عند ورودها فقد

يتلقاها بعض عباد الله ولا أثر لها فيه على ظاهره والأمور المؤلمة حساً إذا أحس بها تحرك لها طبعاً إلا أن شغله عنها أمر يزيل إحساسه بها، وإنما كلامنا في ذلك مع الإحساس كأيوب وذي النون سلام الله عليهما، وأما إلى من ليس بيده من الأمر شيء كالمعتاد في العموم وتلك حالة أكثر العالم عباد الأسباب وبها يتستر الأكابر من عباد الله عن أن يشار إليهم ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] المأمور به فذلك هو الثبوت مع الله عند نفوذ الحكم الإلهي فيه أيّ حكم كان من بلاء أو عافية، فإن الفرح بنيل الغرض يزيل صاحبه عن الثبوت أكثر من زوال صاحب البلاء، فإن حركة الفرح تدهش وتكثر اضطراب صاحبه إلا أن يكون له قوّة حال أكثر من وارد الفرح، وأما الهم والغمّ فإنه أقرب إلى الثبوت والسكون لمن حكم عليه به من فرح الواصل إلى غرضه، فهو ذكر يعمّ الخير والشر معاً وهما حالان والأحوال هي الحاكمة بداً، والمحكوم عليه لا بد أن يكون تحت قهر الحاكم لنفوذ حكمه فيه، وهو الذي جعله يضطرب لأن مطلوب الإنسان بالطبع الخروج من الضيق إلى الانفساخ والسعة والضياء المشرق لما يراه من ظلمة الطبع وضيقه فلا يصبر، فقيل له اثبت للحكم فإنك لا تخلو عن نفوذ حكم فيك إما بما يسوءك أو بما يسرك، فإن ساءك فتحرك إلينا في رفعه عنك، وإن سرك فتحرك إلينا في إبقائه عليك والشكر على ذلك فنزيدك ما يتضاعف به سرورك ولا يضعف فأنت رابح على كل حال، وما أمرناك بالصبر إلا ليكون الصبر عبادة واجبة، فتجازى جزاء من أدّى الواجب فتكون عبداً مضطراً مثنياً عليك بالصبر والرضا، ولو تركناك على التخيير وصبرت لكنت عبداً مختاراً أي ذا اختيار، ولم تذق طعماً لسيادتنا عليك، فإن المختار يولينا على نفسه إذا شاء، ويعزلنا إذا شاء، ويخجلنا إذا شاء، ولا يخجلنا إذا شاء، فنحن في الاختيار بحكمه، وفي الاضطرار حاكمون عليه، فانظر إلى رحمة الله بك حيث أمرك بالصبر لحكم ربك، ثم زاد: فإنك بأعيننا أي ما حكمنا عليك إلا بما هو الأصلح لك عندنا سواء سرك أم ساءك، هذا قصده بقوله: فإنك بأعيننا أي ما أنت بحيث تجهله أو ننساه، فكن أي عبد شئت بعد هذا فأنت لما قصدت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]

[نظم: الخفيف]

إن لله في الخلائق مَكْرا ... وهو عنهم مُغَيَّبٌ ليس يُدْرَى

وهو منهم وليس يَدْرِيهِ إلاّ ... من أقام الصلاة شفعاً وَوَتْرَا

بمناجاةِ ذلّةٍ وخضوعٍ ... تتوالى عليه فيها وتَتْرَى

وشُهودٍ ترى الحقائق فيه ... طالعات عليه شمساً وبَدْرا

ووجـــودٍ تـــرى الـــكـــوائـــن فـــيـــه يـــهـــب الـــعـــلـــم مـــنـــه ســـرّاً وجَـــهْـــرَا

قال الله عز جلاله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وقال: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] فإذا شعر بالمكر زال كونه مكراً إلا في حال واحد، وذلك إذا شعر بمكر الله في أمر أقامه فيه وأقام عليه وأقامته عليه بعد العلم أنه من مكر الله مكر من الله مثل قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] وبهذا القدر يفارق علم الغيب، فإن عالم الغيب إذا علمه لم يكن غيباً عنده فزال عنه في حقه اسم الغيب، ولم يزل عن هذا الذي أقام على الأمر الذي كان لا يشعر به أنه مكر من الله اسم المكر به في إقامته في ذلك الأمر في حقه، وإلا فالمسألة على السواء لولا هذا الفارق الدقيق، ومن المكر الإلهي ما يقصد به ضرراً لعبد ومنه ما لا يقصد به ضرراً لعبد، وإنما يكون لحكمة أخرى يكون فيها سعادة العبد، فإنه لولا المكر الخفي لما صح تكليف ولا طلب جزاء، فإنه من مكر الله المحمود في الممكور به تكليف الله إياه بالأعمال والسمع والطاعة له فيما كلفه به، والأمر يعطي في نفسه أن الأعمال خلق لله في العبد وأن الله لا يكلف نفسه وليس العامل إلا هو، وهذا قد شعر به بعض الناس وأقاموا على العمل وثابروا عليه أعني عمل الخيرات.

ومن مكر الله قسمه لصلاة بينه وبين عبده نصفين والكل له، فمن أداها بالقسمة فقد شفع صلاته، ومن أداها بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣] أداها وتراً، فمؤدي الصلاة شفعاً هو الخاشع في صلاته، ومن أداها وتراً على علم لا يتصف بالخشوع في نفسه وإن ظهر على ظاهره فإن ذلك حكمه حكم ظهور العمل منه والله العامل لا هو، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وأما من يرى مكر الله ليس غير مكرهم وهم الذين يخادعون الله وهو خادعهم بعين اعتقادهم أنهم يخادعون الله، فما يخادع الله إلا جاهل بالله غاية الجهل، أو عارف بالله غاية المعرفة التي لا يمكن أن يكون للمحدث أتم منها، فأما الجهل في ذلك فمعلوم، وأما المعرفة في ذلك فكما قال عمر رضي الله عنه: من خدعنا في الله انخدعنا له. وفائدة هذا أنه يعلم من المخادع أنه يخدعه فينخدع له ولا يعلمه أنه انخدع له وهو المتباله الذي يظن فيه أنه أبله وليس بأبله، فإذا علم العارف أنه لا واهب ولا قابل إلا الله ومع هذا يستعيذ من مكر الله كما تعوّذ رسول الله ﷺ بالله من الله تمشية لمراد الله أي لإرادة الله، فإنه ما وضع في العالم حكماً إلا ليستعمل في محكوم عليه، ولو لم يرد استعماله لكان عبثاً، ولو لم يوجد من يستعمل فيه ذلك الحكم ومن يعمل به لكان أيضاً عبثاً، فالعامل به على بصيرة أولى من العامل به على غير بصيرة، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وأن الله قد مشى لمن زعم أنه يخدع الله خداعه ومكره هنا فيكون في حق طائفة من مكر الله بهم، ويكون في حق طائفة أخرى من عناية الله بهم مثل قوله: افعل ما شئت فقد غفرت لك أي سترت نفسي عنك من أجلك، فلا نؤاخذك إذا آخذت غيرك بذلك لما سبقت لك عندي من العناية، فقدم المغفرة للذنب قبل وقوع الذنب وهو قوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فيأتي الذنب مغفوراً أي مستوراً أي بحجاب بينه وبين من يقع منه، فلا يؤثر فيه

حكمه لأجل ذلك الستر، وما سمى الله المكر استدراجاً إلا لتنقله في المراتب من درج إلى درج، ولولا ذلك الانتقال لما اتصف به أهل الله فإنه بانتقاله يعمّ المقامات والمراتب وهي بين محمود ومذموم، ولولا ذلك ما وصف الله نفسه بالمكر والاستدراج، ولذلك يتصف به أهل الله فيخادعون وينخدعون.

ورد خبر أن بعض العباد يوقفه الله في السؤال يوم القيامة فيعترف بين يديه أنه عمل من الخير ما لم يعمل وهو كاذب في ذلك فيتجاهل له ربه حتى يقول ذلك القائل أن الله قد مشى عليه ما كذب به عنده فيأمر به إلى الجنة فتقول الملائكة: يا رب إنه كذب، فيقول الله: قد علمت ذلك ولكني استحييت أن أكذب شيبته، فهذا من انخداع الله له، فأهل الله أولى بالتجاوز عن عباد الله إذا عاملوهم بمثل هذه المعاملة، ونحن ممن تحقق به غاية التحقق وهو من أعظم مكارم الأخلاق الإلهية، فمن يقدر على الاغتبان ولا يظهر للغابن أنه اغتبن له فقد تمكن من حكم نفسه غاية التمكن لأن طبع النفس يطلب أن يعرف الخير منها، ولا خير مثل الاغتبان فإنه نظير الحلم مع القدرة في نفس الأمر، وهو يظهر للجاني أنه عجز عن مؤاخذته، وهو ما ترك مؤاخذته إلا حلماً لا عجزاً، وذلك لا يصدر إلا من قوي على حكم طبعه ونفسه والله ذو القوّة المتين بحلمه لمن عرف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع وخمسمائة

في معرفة قطب كان منزله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]

[نظم: الوافر]

ألـم تَـعْـلَـمْ بـأنّ الله مـنّـا	يـرانـا والـوجـودُ لـنـا شَـهِـيـدُ
فـيـلـزمـنـا الـحـيـاء فـلا يـرانـا	بـحـيـث نَـهَـى ونـحـن لـه شـهـودُ
وذا مـن أعْـجَـبِ الأشـيـاء عـنـدي	فـيـأمـرُنـا ويـفـعـلُ مـا يُـريـدُ
يـقـول لـي اسْـتَـقِـمْ ويـريـدُ منّي	مـخـالـفـةً يـؤيّـدُهـا الـوجـودُ
فـيـا قَـوْم اسـمـعوا ما قـلـتُ فـيـمـن	هـو الـمَـوْلَـى ونـحـن لـه عَـبِـيـدُ
يـريـد الأَمْـرَ لا الـمـأمُـورَ فـانـظـرْ	إلـى حُـكْـم يَـشِـيـبُ لـه الـوَلِـيـدُ

قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَحيوا مِنَ الله حَقَّ الحَياءِ**» ما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وعرف بذلك عباده لاختلاف أهل النظر في ذلك بين الطريقين: بين أنه يرانا وبين أنا نراه، فالمؤمن على كل حال يعلم أن الله يراه من هذا التعريف فما عرفهم إلا ليلزموا الحياء منه تعالى في تعدي حدوده، فمن كان ذكره هذا الذكر فإن الله يتجلى له في هذه الدار تجليه لجبل موسى عليه السلام ولكن لا يجعله دكاً، وسبب ذلك الدؤوب على هذا الذكر فإنه يورث العبد قوة، وتلك القوّة من كون الذاكر لا يزال يذكر الله، والله جليس من يذكره وإن لم يشعر به، فأوّل ما يفتح الله لكل ذاكر في نفسه معرفة من يذكر الله به، فلا يرى الذاكر منه الله إلاَّ لهوية الحق ثم في سمعه ذكره كذلك يشهد أنه لا يسمع ذكر الله منه إلا الله، فإذا

رأى نفسه حقاً كله حينئذٍ يقع له التجلي الذي وقع لجبل موسى ولموسى فلا يندك ولا يصعق وإن فني فإنما يفنيه جمال ذلك المشهود، فإن الله جميل ويحب الجمال، فلا بد أن يكسو الله باطن هذا العبد من الجمال بحيث إنه لا يتجلى له إلا حباً لما ظهر فيه من الجمال الخاص المقيد به الذي لا يمكن أن يظهر ذلك الجمال إلا في هذا المحل الخاص، فإنه لكل محل جمال يخصه لا يكون لغيره، ولا ينظر الله إلى العالم إلا بعد أن يجمله ويسويه حتى يكون قبوله لما يرد به عليه في تجليه على قدر جمال استعداده، فيكسوه ذلك التجلي جمالاً إلى جمال، فلا يزال في جمال جديد في كل تجل، كما لا يزال في خلق جديد في نفسه، فله التحوّل دائماً في باطنه وظاهره لمن كشف الله عن بصيرته غطاء عماه.

واعلم أن الحدود الموضوعة في العالم أعني الحدود المشروعة التي أمرنا الحق أن لا نتعداها، ثم شرع لنا حدوداً تقام علينا إذا تعديناها كل ذلك لنعرف أن الأمر حد كله فينا وفيه دنيا وآخرة، لأن بالحدود يقع التمييز وبالتمييز يكون العلم، فلولا الفارق لما تميزت عين من عين ولا كان ثم علم بشيء أصلاً، وقد تميز لنا وبنا وعنا، كما تميزنا له وبه وعنه، فعرفنا من نحن ومن هو، فإن غلبنا حال يقول ذلك الحال بلسانه: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، فيكفيه من قوّة أثر الحدود أن فرق بين أنا وبين من أهوى ولو أنه يهوى نفسه فحاله كونه يهوى وهو الفاعل ما هو عين حاله يهوى وهو المفعول، فبينت الحدود الأحوال كما بينت الأعيان، وهذا علم ما تصل إليه العبارة في أحدية العين ولم يقدر على أن يوحد الحال ولا ذلك بممكن أصلاً، وفي باب العلم بالله أوصل ما يكون الأمر، وأعظم في الأحدية أن يكون وجود العالم عين وجود الحق لا غيره، ومعلوم اختلاف صور العالم واختلاف الأسماء الإلهية، ولا معنى للاختلاف الواضح إلا العلم بأنه لولا الحدود لما كان التمييز، وإن كان الوجود عيناً واحدة وهو الوجود الحق فالموجودات والمعقولات مختلفة، ولقد لعن الله على لسان رسول الله ﷺ من غير منار الأرض وهو الحدود لأن التشابه إذا غمض جداً أوقع الحيرة وخفي الحد فيه، فإن شخصيات النوع الواحد الأخير متماثلة بالحد متميزة بالشخص. فلا بد من فارق في المتماثل بالحد، ويكفيك أن جعلته مثله لا عينه: [البسيط]

فالحَدُّ يَصْحَبُ ما في العلم أجْمَعِهِ ... والحَدُّ يصحبُه التحديدُ في النَّظَرِ

الباب الثامن وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

[نظم: الكامل]

لـولا الـولايـةُ كـنـتُ فـي الـظُّـلُـمـات ... فـاخْـتَـصَّـنـي الـرَّحْـمٰـنُ بـالـحَـركـاتِ
فـخـرجـتُ مـنـهـا أبـتـغـي الـنُّـورَ الـذي ... جـمـعـتـنـي فـيـه وعـيـن شَـتَـاتـي
ورأيـتُ مـحـيـايَ الـذي أسْـعَـى لـه ... وعـلـمـتُ شـأنـي فـيـه بـعـد وَفَـاتـي
ورأيـتُ فـي الإنـسـان كـل فـضـيـلـة ... والـعِـلْـمُ أُكْـمِـلَ فـيـه فـي الـدرجـاتِ

فضممتُ للإيمان عِلْماً بالذي كان الوجودُ به بغير صِفَاتِ
وبَدَتْ لِيَ الأسماءُ خلف حجابه فشَهِدْتُها بالكشف عين سِمَاتي
إنّ العناية أشرقَتْ أنوارُها فسعيتُ في الأنوار طولَ حياتي
لولا وجودُ النور في أبصارنا وقلوبِنا لسعيتُ في الظلماتِ
فالله أكبرُ والكبيرُ بدايتي ما دامَتِ الدنيا وبَعْد مَمَاتي
إن الخلافة لا يكون كمالُها إلا هنا لا في الذي هو آتي
فيزولُ في الجنّات نصْفُ وجودها لإزالة الأحكام في الدَّرَكات
لما رأيتُ عُمُومَ رحمة ذاته في النشأة الأخرى ولم أرَ ياتي
أمْرٌ مزيلٌ حُكْمَها من خَلْقه فعلمتُ منه خلافتي بالذات
فأنا المُبَرِّزُ في كمال خلافتي عنه ويعلم ذاك كل مَوَاتِ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن الكشف المختص بهذا الذكر أن تطلع منه ذوقاً على كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والمؤمن اسم الله تعالى، والمؤمن اسم للإنسان، وقد عمّ في الولاية بين المؤمنين فهو ولي الذين آمنوا بإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، وليس إلا إخراجهم من العلم بهم إلى العلم بالله فإنه يقول: من عرف نفسه عرف ربه فيعلم أنه الحق، فيخرج العارف المؤمن الحق بولايته التي أعطاه الله من ظلمة الغيب إلى نور الشهود، فيشهد ما كان غيباً له فيعطيه كونه مشهوداً، ولم يكن له هذا الحكم من هذا الشخص قبل هذا، فهذا للعبد تول بهذا القدر من كون الحق له اسم المؤمن، كما تولى الحق عبده من كونه مؤمناً، وكون الشخص مؤمناً سبباً في إخراجه من الظلمات إلى النور، وذلك نصرته المؤمنين من عباده، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وهذا من باب الإشارة إلى حكم الأسماء فيشد منا ونشد منه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] من حيث هو المؤمن ونحن المؤمنون: [مجزوء الرمل]

فلنا منه التَّوَلِّي وله منِّي ذلكْ
وإذا لم يَكُنِ الأمْـ ـر كذا فالكُل هالِكْ
أنا ما لله فاحْفَظْ يا إلٰهي عَيْنَ مَالِكْ
فأنا حفظتُ فَقْري وهو ما لي من هُنَالِكْ

«ما» في قولي: «ما لي» هو بمعنى الذي، فاعلم يا وليّ أن ظلمة الإمكان أشد الظلمات فإنها عين الجهل المحض، فإذا تولى الله عبده أخرجه من ظلمة هذا الجهل الذي هو الإمكان، وليس إلا نظره لنفسه معرى عن نظره للذي تولاه، فيخرجه بهذا التولي من ظلمة إمكانه إلى نور وجوب وجوده به وهو المنعوت بالواجب فأخرجه منه لنفسه، وفرق بين الوجوب الذي حكمه الله وبين حكم الوجوب الذي لنا بالتقيد به، فوجوبه تعالى لنفسه ووجوبنا به: [مجزوء الرمل]

فاشْتَرَكْنا في الوُجُوبْ وافْتَرَقْنا في القُيُودْ

ثم حُزنَا بالوجود ... ما لنا من الحُدود

حين حُزنَا بالوجود ... ما لنا من الحُدود

فنُسَمّيه إلٰهاً ... واختُصِصْنا بالعبيد

فهو لي أشرَفُ وَسْم ... وأنا منه بَعِيد

ومشى بذاك أمري ... في قريب وبَعيد

فأنا أحْمَدُ رَبّي ... حين أُدْعَى بالحَمِيد

وعلمنا ذاك حقاً ... في مَغِيب وشُهُود

ثم لو جَحَدْتُ هذا ... ما تَمَشّى لي جُحُود

ولذا أنزلت بدري ... بمنازل السعود

ورأيتُ عَيْنَ ذاتي ... في هبوط وصُعُود

فأنا من أجل هذا ... أتَسَمّى بالسَّعِيد

فأنا إن كنتُ شيخاً ... عقلُنا عَقْلُ الوليد

فولاية العبد ربه، وولاية الرب عبده في قوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وبين الولايتين فرق دقيق، فجعل تعالى نصره جزاء وجعل مرتبة الإنشاء إليك كما قدمك في العلم بك على العلم به، وذلك لتعلم من أين علمك فتعلم علمه بك كيف كان لأنه قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وقد ذكرنا في كتاب المشاهد القدسية أنه قال لي أنت الأصل وأنا الفرع على وجوه منها علمه بنا منا لا منه فانظر فإن هنا سراً غامضاً جداً وهو عند أكثر النظار منه لا منا أوقعهم في ذلك حدوثنا، والكشف يعطي ما ذكرناه وهو الحق الذي لا يسعنا جهله، ولما سألني عن هذه اللفظة مفتي الحجاز أبو عبد الله محمد بن أبي الصيف اليمني نزيل مكة ذكرت له أن علمنا به فرع عن علمنا بنا إذ نحن عين الدليل، يقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» كما أن وجودنا فرع عنه ووجوده أصل، فهو أصل في وجودنا فرع في علمنا به، وهو من مدلول هذه اللفظة، فسرّ بذلك وابتهج رحمه الله وهذا الوجه الآخر من مدلولها أيضاً وهو أعلى، ولكن ما ذكرناه له رحمه الله في ذلك المجلس لأنه ما يحتمله ولا يقدر أن ينكره، وما تم ذلك الإيمان القوي عنده ولا العلم ولا النظر السليم فكان يحار، فأبرزنا له من الوجوه ما يلايم مزاج عقله وهو صحيح، فإنه ما ثم وجه إلا وهو صحيح في الحق، وليس الفضل إلا العثور على ذلك، فالله وليّ المؤمن والمؤمن وليّ الله.

سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أولياء الله؟ فقال ﷺ: «**الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله فَذُكِرَ وَعُلِمَ وَشُهِدَ بِرُؤْيَتِنَا إِيَّاهُمْ**» فجعلهم أولياء الله، كما جاء عن الله أنه ﴿وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] فالمؤمن من أعطى الأمان في الحق أن منه يضيف إليه ما لا يستحق جلاله أن يوصف به مما ذكر تعالى أن ذلك ليس له بصفة كالذلة والافتقار، وهذه أرفع الدرجات أن نصف العبد بأنه مؤمن، فإن المؤمن أيضاً من يعطي الأمان نفوس العالم بإيصال حقوقهم

إليهم، فهم في أمان منه من تعديه فيها، ومتى لم يكن كذا فليس بمؤمن، فالولاية مشتركة بين الله وبين المؤمنين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]

[نظم: الطويل]

ألا إنّـما الإنـفاقُ من حَضْرَةِ النَّفَقْ ... فإنَّ له بـابَيْـن فـي كـل مـا خَـلَـقْ

فـيأتـي إلـيـه الـرزقُ مـن بـاب غَـيْـبِـهِ ... ولـيـس لـذاك الـبـاب بـابٌ فـيَـنْـطَـبِـقْ

فـمـا زال مـفـتـوحاً عـلـى كـل حـالـة ... لأن اسْـمَـهُ الـفـتـاحُ مـا عـنـده غَـلَـقْ

إذا أنـفـق الإنـسـانُ فـالله مـخـلـفٌ ... فلا تـيأسَـنْ فـالـوقـتُ بـالـوقْـتِ مُتَّسِقْ

وإنْ غـلـق الإنـسـانُ بـاب عـطـائـه ... يـوالـيـه رَبُّ الـجُـود جُـوداً إنِ اتَّـفَـقْ

وإن غـلـق الإنـسـان بـاب هـبَـاتِـه ... فـذلـك إغـلاقُ الإلٰـه إذا انْـغَـلَـقْ

ويُـغْـلِـقُـه إنْ شـاء فـالأمـرُ أمـرُه ... كما جاء في القرآن في سورة العَلَقْ

إذا عُـذْتَ بـالـرحْـمٰنِ فـي كـل حـالـة ... تَـعَـوَّذْ بـمـا قـد جـاء فـي سـورة الـفَـلَـقْ

وفـي سـورة الـنـاس الـتـي جـاء ذِكْـرُهـا ... إلـى جنبهـا تُتْلَـى كما عاذ من سَبَقْ

إن عُـذْتَ عُـذْ بـالـربّ إن كـنـت مؤمـنـاً ... بما جاء في القرآن فانظر تَعُذْ بحَقْ

فـمـا ذُكِـرَ الـتـعـويـذُ إلا بـربّـنـا ... فكـن تـابـعـاً لا تَـتَّـبِـعْ غَـيْـرَ من صَدَقْ

قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] فيغلق عليه باب العطاء لما جعل في قلبه من خوف الفقر، إن أعطى فيطغى في غناه في عين فقره، فإن هو أعطى ما به استغنى افتقر فاحتقر، فلا يزال الغني خائفاً ولا يزال الفقير طالباً فالرجاء للفقير فإنه يأمل الغنى والخوف للغني فإنه يخاف الفقر، فما أنفقتم من شيء فإن الله يخلفه بهويته، فيخلفه بفتح الياء، فإنه ما ينفق حتى يشهد العوض وهو قولهم: من أيقن بالخلف جاد بالأعطية، فما ينفق أحد إلا عن ظهر غنى، لأن العبد فقير بالذات غنيّ بالعرض، وكان الأولى أن يكون غنياً بالذات لأن المصرف لمن يتصرّف فيه كالمال فإنه المتصرف فيمن يتصرّف فيه فهو يصرفه لأنه لا يتعدى فيه علمه، وعلمه ما كان إلا من معلومه، فما تصرّف فيه إلا بما أعطاه من ذاته، فمن حكمك في نفسه فهو الحاكم في تحكمك فيه فافهم: [الوافر]

لـقـد جَـادَ الإلٰـهُ عـلـى وُجُـودي ... بـمـا أخـفـاه عـن خَـلْـقٍ كَـثِـيـرِ

مـن الـعِـلْـم الـذي مـا فـيـه رَيْـبٌ ... ولا شَـكٌّ لـذي الـفِـطَـنِ الـخَـبِـيـرِ

واعلم أنه لا يقبل الإنفاق إلا المحدث فإن الإنفاق إهلاك ولا يهلك إلا المحدث و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فمن أهلك شيئاً فقد فقده، وإذا فقده لم يجده، وإذا لم يجده وجد الله عنده فهو يخلفه، فكما عاد إلى الضمير على الشيء من يخلفه ولا يخلف إلا مثله لا عينه فليس هو هو، وإذا لم يكن هو هو ولا بدّ من الخلف فيخلفه الله

وجوده وهو قوله: ووجد الله عنده، فحيث تفنى الأسباب هناك يوجد الله ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ومعنى ضل منكم وتلف فلم تجدوه وما وجدتم عند فقده إلا الله. يقول رسول الله ﷺ في دعائه ربه في سفره: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**»، فما جعله خليفة في أهله إلا عند فقدهم إياه، فينوب الله عن كل شيء أي يقوم فيهم مقام ذلك الشيء بهويته ولهذا قال: فهو يخلفه، فأي سبب يكون للمنفق بعد الإنفاق يسد مسد ما أنفقه من أمر ظاهر أو باطن حتى اليقين أو الاستغناء عن الأمر الذي كان يصل إليه بذلك الذي أنفقه في عين تحصيله لذلك الشيء، فهو مجعول من هوية الحق أو هوية الحق والهو عند الطائفة أتم الأذكار وأرفعها وأعظمها، وهو ذكر خواص الخواص، وليس بعده ذكر أتمّ منه، فيكون ما يعطيه الهو في إعطائه أعظم من إعطاء اسم من الأسماء الإلهية حتى من الاسم الله، فإن الاسم الله دلالة على الرتبة والهوية دلالة على العين لا تدل على أمر آخر غير الذات، ولهذا يرجع إليها محلول لفظة الله فإنك تزيل الألف واللامين على الطريقة المعروفة عند أهل الله فيبقى هـ، فإن جعلته سبباً لتعلق الخلق به مكنت الضمة فقلت هو فجئت بواو العلة وفيها رائحة الغنى عن العالمين، والعلة ما لها هذا المقام من أجل طلبها المعلول كما يطلبها المعلول فحركت بالفتح تخفيفاً من ثقل العلية فقيل هو فدل على عين غائبة عن أن يحصرها علم مخلوق، فلا يزال غيباً عند كل من يزعم أنه عالم به حتى عن الأسماء الإلهية فشغلها بما وضعها له من المعاني فجعل الرزاق همته متعلقة بالرزق، والمقيت بالتقويت، والعالم بالعلم، والحيّ بالحياة، وكل اسم بما وضع له وما دل عليه من الحكم فالأسماء موضوعة وضعتها الممكنات في حال ثبوتها وعدمها فالأسماء أحكامها والهوية تقوم للممكنات بهذه الأحكام فإليه وهو الهو يرجع الأمر كله، وإلى الهو من ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] ترجع الأمور كلها، وما ذكر إلا الهو بالتصريح أو الله ما ذكر اسماً غيره فافهم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب العاشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]

[نظم: الوافر]

سأَصْرِفُ عن بَرَاهينِ الوُجُود ... قُلُوباً لم تَنَلْ رُتَبَ السُّجُودْ

فلمّا أن زَهَتْ فَخْراً وعُجْباً ... على أهلِ المشاهدِ والشُّهُودْ

حَرَمْنَاها العلومَ فلم تَنَلْها ... كما قد نالها أهْلُ القُصُودْ

فاعلم أيدنا الله وإياك أن الكبرياء ليس إلا لله، فمن تكبر من الخلق بغير الحق فما هو كبير في نفس الأمر، وإنما هي دعوى حال لا وجود له في عين المدعي، فإن كان له وجود وتكون الدعوى صحيحة فليس المدعي عند ذلك إلا الحق والحق له الكبرياء، وما سمي

المحل متكبراً إلا لكون الدعوى ما ظهرت إلا في محل ماله الكبرياء وادعاؤه بحق فكان لسان المدعي عين الحق كما جاء: **«كان الله سَمْعَه وبَصَرَهُ»**.

واعلم أن الله ما صرف أحداً عن الآيات إلا وقد صرفه عن العلم بالأمر على ما هو عليه الأمر والشأن، والآيات التي صرف هذا العبد عنها هي عين الآيات التي أراها لمن أراها في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق الذي يتكبر به من تكبر، فمن تكبر في الأرض دون السماء بغير الحق فهو أجهل الجاهلين لأنه وضع الكبرياء في غير موضعه، إذ من شرطه أمران: الواحد الحق الذي يقبله المخلوق، والثاني العلوّ فمن تكبر في الأرض بالحق فالحق له العلوّ بالذت والسموّ لم يصرف الله عنه الآيات فيريه إياها تشريفاً لهذا المحل، فإذا رآها تبين له عين الحق فإنه ما رآها إلا بالحق ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ [الإسراء: ١٠٥] و﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] وأمرنا أن نعطي كل ذي حق حقه، وما ثم إلا ذو حق وحقه، إنما هو الحافظ له.

وهنا نكتة خفية فإن الله له على عباده حق يطلبه منهم، وقد ورد في الصحيح: «أَنَّ حَقَّ اللهِ أَحَقُّ بِالقَضَاءِ مِنْ حَقِّ المَخْلُوقِ» لأن نسبة الحق إلى الله أتمّ وأصح من نسبة الحق إلى المخلوق، لأن نسبة الحق بالحق ذاتية ما هي بالجعل، ونسبة الحق إلى المخلوق بالجعل ولكنه جعل لا يصح انفكاكه عنه، فالسعيد من عرف الحقوق وأهلها فأداها، والشقيّ من لم يعرف الحقوق ولا عرف أهلها، والذي بين السعيد والشقيّ من عرف الحقوق وأهلها وظلمهم وظلمها، فهذه الطائفة هم في ظلمات لا يبصرون، والطرف الآخر هم: الصمّ البكم العمي الذين لا يرجعون عند ما يبصرون، ولا يعقلون عندما يسمعون، ولا يصيبون عندما يتكلمون، فأولئك الذين ما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين، فإنهم ظلموا الحقوق وأهلها، فإن لهم قلوباً يعقلون ويفقهون بها، وإن لهم أعيناً يبصرون بها، وإن لهم آذاناً يسمعون بها، فأنزلوا نفوسهم منزلة الأنعام بل أضل سبيلاً، لأن الأنعام ما جعل الله لهم هذه القوى التي توجب لصاحب البصر أن يعتبر، ولصاحب الأذن أن يعي ما يسمع، ولصاحب القلب أن يعقل، فهم الذي يتفكرون في خلق السموات والأرض، فيعطيهم التفكر مما سمعوا وأبصروا، وتقليب الأحوال عليهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] فسبحوه أن جعلوه منزهاً عن إيجاب العلة عليه في خلقه لأنه أذن خلقها لحكمة، فكأن تلك الحكمة أوجبت الخلق عليه، وما ثم موجب عليه إلا ما يوجبه بنفسه على نفسه لخلقه امتناناً منه لصدق وعده لا غير، وتمم التعريف بقوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وليست إلا الطبيعة في هذه الدار، فإنها محل الانفعال فيها لأنها للحق بمنزلة الأنثى للذكر، ففيها يظهر التكوين أعني تكوين كل ما سوى الله وهي أمر معقول. فلما رأى من رأى قوّة سلطانها وما علم أن قوّة سلطانها إنما هو في قبولها لما يكوّنه الحق فيها فنسبوا التكوين لها وأضافوه إليها ونسوا الحق بها فأنساهم أنفسهم إذ صرفهم عن آيات نفوسهم وهو قوله: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ووصفهم الحق فانقسم الخلق إلى قسمين:

قسم إلى الحق الصرف، وقسم إلى الطبيعة الصرف، وظهر بينهما برزخ ظهر فيه عالم ما هو ولا واحد من هذين القسمين، فرأى ما يستحقه الحق فأعطاه حقه ولو لم يعطه فهو له، ورأى ما تستحقه الطبيعة فأعطاها حقها ولو لم يعطها فهو لها، فإن الطبيعة ليست بمجعولة بل هي لذاتها في العقل لا في العين كما هو الحق لذاته في العقل والعين، فإن اجتمع الحق والطبيعة في العقل فقد افترق الحق من العقل وتميز في العين فإن الحق له الوجود العينيّ والعقليّ. والطبيعة لها الوجود العقليّ ما لها وجود عيني، وذلك ليكون الحكم في الخلق بين الوجود والعدم، فيقبل العدم من حيث الطبيعة ويقبل الوجود من جانب الحق، فلهذا يتصف كل ما سوى الله بقبول العدم والوجود، فكان الحكم فيه للعدم كما كان فيه الحكم للوجود، ولو لم يكن الأمر على ما ذكرناه لاستحال على المخلوق قبول العدم في وجوده أو قبول الوجود في عدمه، فهكذا ينبغي أن تعرف الحقائق ولا سبيل إليها إلاّ بعدم الصرف عن الآيات، وانظر إلى ما حرم الله من تكبر في الأرض بغير الحق وهذا من العلم الذي أنتجه هذا الذكر لصاحبه وأمثاله ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فللطبيعة القبول وللحق الوهب والتأثير فهي الأمّ العالية الكبرى للعالم الذي لا يرى العالم إلا آثارها لا عينها، كما أنه لا يرى أيضاً من الحق إلا آثاره لا عينه، فإن الأبصار لا تدركه والرؤية ليست إلا بها فهو المجهول الذي لا يعلم سواه، وهو المعلوم الذي لا يمكن لأحد الجهل به وإن لم يعمل ما هو: [مخلع البسيط]

فبين حَقٍّ وبين طَبْعٍ ... لاح لنا في الوجود خَلْقْ
ليس بحَقٍّ ولا بطَبْعٍ ... والطَّبْعُ طَبْعٌ والحقُّ حَقْ
والخَلْقُ كالوَفْقِ إن نَظَرْنا ... فكل خَلْقٍ تراه وَفْقْ

الباب الأحد عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

[نظم: المتقارب]

ومن يَتَّقِ الله يَجْعَلْ له ... كما قال من أمْره فَارِقَا
فيعلمُ منه ضلال الهُدَى ... ونور الهدى هادياً سائقا
ويظهرُ في شرقه غارباً ... ويَطْلَعُ في غربه شَارِقَا
ويُضبح في كل علم له ... على كل شَخْص به فائقا
فكان لفَتْقِ الهُدَى راتقاً ... وكان لرَتْقِ الهُدَى فَاتِقَا
لنَقْسِمَهُ بين أبنائه ... فيَرْقَوْا به جبلاً حَالِقَا
ونُبْصِرَهُ في مناجاتِه ... إذا قام فيها به ناطقا
فينشئها مثله نشأةً ... يكون بها في الوَرَى خالقا

ويَخْزُن في أرضها قُوتَها فيعلمه خالقاً رازقا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن المتقي بمجرّد تقواه قد حصل في الفرقان إذ لو لم يفرق ما اتقى: [البسيط]

فالأمْرُ ما بين مَحْمُودٍ ومَذْمُوم والأَمْرُ ما بين محبوبٍ ومَكْرُوهِ
فكُنْ وقايَتَهُ في كل مكروهٍ يَكُنْ وقايَتَكُم في كل مَأْلُوهِ
واجْعَلْهُ في كل محبوب وقايتكم وكُنْ به بين تنزيه وتَشْبيهِ
مُنَزِّهُ الحَقِّ لا يدري بذاك ولا مُشَبِّهُ الحقّ لا يدري وأَدْرِيهِ
فمن يُنَزِّهُهُ عنه يُشَبِّهُهُ به فهذا الذي قد قُلْتُهُ فِيهِ

وذلك أن الإنسان لا يخلو أن يجعل معبوده مثلاً أو ضداً أو خلافاً وعلى كل وجه، فقد فرق بين الله وبين العالم، فهذا الفرقان الذي تعطيه التقوى لا بد أن يكون فرقاناً خاصاً، وليس سوى الفرقان الذي يكون في عين القرآن فإن القرآن يتضمن الفرقان بذاته، وإنما نسب الجعل إلى هذا الفرقان لأن التقوى أنتجه، فإما أن يكون جعله ظهوره لمن اتقاه مع كونه لم يزل موجود العين قبل ظهوره، أو يكون جعله خلقه فيه بعد أن لم يكن، وما هو إلاّ الظهور دون الخلق فإنه أعقبه بقوله: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩] أي يستر والستر ضد الظهور، فلا يخلو العبد في تقواه ربه أن يجعل نفسه وقاية له عن كل مذموم ينسب إليه، أو يجعل ربه وقاية له عن كل شدة لا يطيق حملها إلا به وهو لا حول ولا قوّة إلا بالله وهو قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فيلتقي به شدائد الأمور التي هي محبوبة لله مكروهة طبعاً، كما تجعل نفسك وقاية له تنفي بها عنه كل مذموم شرعاً محمود محبوب طبعاً فينتج لك كونه وقاية لك علم كل شدة، فتتجلى لك أسماؤها الإلهية كلها بتفاصيلها وأنواعها وهذا من الفرقان، وينتج لك كونه وقاية له كل مذموم ومكروه فتتجلى لك أسماؤه الإلهية كلها بتفاصيلها وأنواعها وهذا من الفرقان، فيحمدك الله في الحالتين فإن الله لا يعطي العلم إلا من يحب، وقد يعطي الحال من يحب ومن لا يحب فإن العلم ثابت والحال زائلة، ولولا الفرقان الذي في عين التقوى ما أنتج التقوى فرقاناً فإن الشيء لا ينتج إلا مثله ولا يكون إلا ذلك، ولهذا كان العالم على صورة الحق، فمن غلب عليه طبعه كان شبهه بأمه أقوى من شبهه بأبيه، ومن غلب عليه عقله كان شبهه بأبيه أقوى من شبهه بأمه لأن العالم بين الطبيعة والحق وبين الوجود والعدم، فما هو وجود خالص ولا عدم خالص، فالعالم كله سحر يخيل إليك أنه حق وليس بحق، ويخيل إنيك أنه خلق وليس بخلق، إذ ليس بخلق من كل وجه وليس بحق من كل وجه، فإنا لا نشك في المسحور، فيما يراه أن ثم مرئياً ولا بد كما قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] فالسعي مرئي بلا شك، وبقي الشأن فيمن هو الساعي، فإن الحبال على بابها ملقاة في الأرض والعصي فيعلم قطعاً أن الخلق لو تجرّد عن الحق ما كان، ولو كان عين الحق ما خلق، ولهذا يقبل الخلق الحكمين، ويقبل الحق أيضاً الحكمين، فقبل صفات الحدوث شرعاً وقبل صفات القدم شرعاً وعقلاً فهو المنزه المشبه، وقبل الخلق الحكمين وهما أنه

جمع بين نسبة الأثر له في الحق بما أعطاه من العلم به كما ذكرناه في غير موضع، وبين نسبة الأثر فيه من الحق وهو أنه أوجده ولم يكن شيئاً، أي لم يكن موجوداً، فالفرقان لم يزل في نفس الأمر ولكن ما ظهر لكل أحد في كل حال من الأحوال: [البسيط]

في كُلّ حال من الأحوال فرقانُ ... أتى بذلك تشريعٌ وبُرهانُ

وهذا الفرقان الذي أنتجه التقوى لا يكون إلا بتعليم الله ليس للنظر الفكريّ فيه طريق غيره، فإن أعطاه الله الإصابة في النظر الفكريّ فما هو هذا العلم الخاص فإن الطريق تميز العلوم المشتبهة بالصورة المختلفة بالذوق وأتوا به متشابهاً فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]

[نظم: الخفيف]

كلّما أنضجَ اللّهيبُ جُلُودا ... بَدَّلَ الله للعذاب جُلُودَا

أبداً ينتهي القضاءُ إليه ... أوْرَثَ القَوْمَ في الجحيم خُلُودا

جَعَل الله منهُمُ وعَلَيْهِمُ ... عندما ينقضي السؤالُ شُهُودَا

فإذا أدَّتِ الشهادةَ فيهم ... ملكوا الفَوْزَ والنعيم الجَديدا

يقول الله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١] أي بالشهادة عليكم لأنهم شهداء عدول مقبولون القول عند الله، وكانوا في الدنيا غير راضين بما كانت النفس الناطقة الحيوانية تصرّفهم فيه زمان حكمها وأمارتها عليهم، وعلى جميع جوارحهم من سمع وبصر ولسان ويد وبطن وفرج ورجل وقلب، وإنما سميت الجلود بهذا الاسم لما هي عليه من الجلادة لأنها تلتقي بذاتها جميع المكاره من جراحة وضرب وحرق وحرّ وبرد، وفيها الإحساس وهي مجن النفس الحيوانية لتلقي هذه المشاق، فما في الإنسان أشد جلادة من جلده ولهذا غشاه الله به فنضجه سبب في عذاب النفس المكلفة والجلد متنعم في ذلك العذاب الحسوس قال بعض المحبين: [المجتث]

فهل سَمعْتُم بصَبٍّ ... سَلِيم طَرْفٍ سَقِيم

مُنَعَّم بعَذابٍ ... معذَّبٍ بنَعِيم

هذا الهجير هو هجير الخائفين من مكر الله يزجرون به نفوسهم الأمّارة بالسوء عسى تنزجر ويأبى الخرق إلا اتساعاً، وسبب ذلك ما ذكره الله عن نفسه من اختيار مشيئته بين المغفرة والعذاب فهو غير قاطع بأحد الأمرين، ثم إنه يرى الأسماء الإلهية تتقابل في حقه، ثم يرى أسماء الفضل تترجح عدداً وقوّة على أسماء العدل والانتقام، ويرى أن التقابل بين هذه الأسماء إنما يقع بميدان الرحمة التي وسعت كل شيء، فجرأهم ذلك على ما ارتكبوه من المخالفات وتعدوه من الحدود وانتهكوه من المحارم، فلو قطعوا بالمؤاخذة على ما صدر منهم إن ماتوا عن غير توبة كما ذهبت إليه طائفة ما فعلوا ما لا يرضي سيدهم، ثم رأوا أنهم

في عذاب الحياة الدنيا لا يصبرون تحت حكمه وينفرون منه طبعاً ولا يقبلونه إلا جبراً فيجعله الخائف لنفسه موعظة وذكرى، فإن كان قوي الإيمان غر متبحر في التأويل خائضاً في بحر الظاهر لا يصرفه للمعاني الباطنة صارف انتفع بالذكرى وإن لم تقم به هذه النعوت وأمثالها وتأوّل تردى وأردى من اتبعه وكان من الذين اتبعوا أهواءهم، وكان أمر من هذه صفته فرطاً فينتج له هذا الذكر من الأحوال العصمة، ومن الأسماء الإلهية الاسم الظاهر والأوّل، ومن المعارف معرفة الشهود وقبول الحق صور التجلي الظاهرة ويتحقق بالتقوى كل التحقق، فيعلم العلم المجهول الذي لا يصل إليه كل أحد وهو العلم بسرائر المحسوسات والحواس والإحساس والمحس، وإنما جهله الأكثرون لما نقوله، وذلك أن النفوس مجبولة على حب إدراك المغيبات واستخراج الكنوز وحل الرموز وفتح المغاليق والبحث عن خفيات الأمور ودقائق الحكم، ولا ترفع بالظاهر رأساً فإن ذلك عندها في زعمها أبين من فلق الصبح، فالنهار عندها لا يخفى على أحد، فصاحب هذا الهجير يبدو له من العلم في هذه الظواهر ما لا يخطر بخاطر أحد أن ذلك الذي أدركه صاحب الكشف لهذا العلم يحمله ظاهر ذلك الأمر ولا صورته، فإذا نبه عليه صاحب هذا العلم والكشف عند ذلك يعظم قدره وتظهر حكمته وكثرة خيره، ويعلم عند ذلك أنه ما كان يحسبه هيناً هو عند الله عظيم، وهذا كله من الاسم الإلهيّ الظاهر الذي له التقدم في الأمور، والخير كله إنما هو في الأوائل. ألا ترى أن الخاطر الأوّل هو الإلهيّ الصادق الذي لا يخطىء أبداً، فله العصمة والمضا، وفيه يظهر القدر والقضا، وكذلك النظرة الأولى والمسموع الأول والحركة الأولى، وهو الذي يعطي علوم الزجر للزاجر، وهي لا تخطىء أبداً بل الصحة تصحبها، فالأوائل هي الظواهر السوابق، وكل ما جاء بعد الخاطر الأوّل فهو حديث نفس يجيء على أثره، فللخاطر الأوّل التمهيد والتوطئة، وهي تعطي العقول التشوق إلى ما وراءها، فالفطن المصيب النحرير لا يزول عن الأمر الظاهر الأوّل الذي ورد عليه حتى يستوفي جميع حقائقه وما تعطيه صورته ويقف على خفيات غيوبه، فإذا حصله وقبله علماً حينئذٍ ينتقل إلى ما يرد عليه في أثره الذي هو باطن، فإن جهل الظاهر كان بالباطن أجهل فإن الدليل عليه، وإن فرط في تحصيل الأوّل كان في تحصيل الآخر أشد تفريطاً لأن من الحرص على تحصيل العلم بالخاطر الآخر تحصل الأوّل، فأوّل الأمر خوف والرجاء يتلوه، فإن تقدّمه الرجاء فقد فاته الخوف، فإن الماضي لا يسترجع، فالتقدّم للخوف وقد وفاته وذهب عنه ومن له برده والرجاء في المحل قد منعه سلطانه، فالمؤمن من تساوى خوفه ورجاؤه بحيث إنه لا يفضل واحد صاحبه عنده لأنه استعمل كل شيء في محله، وأوّل نشيء الإنسان ضعف، ولضعفه يتقدمه الخوف على نفسه، ثم تكون له القوّة بعد هذا الضعف فيأتيه الرجاء بقوّته، فإنه يتقوّى نظره في العلوم والتأويلات، فيعظم رجاؤه في جناب الحق، ولكن العاقل لا يتعدّى به موطنه، فإذا خطر له من قوّة الرجاء ما يوجب استعمال الخوف عند العاقل العارف عزل الرجاء عن الانفراد بالحكم وأشرك معه الخوف فذلك المؤمن، فلا يزال كذلك إلى أن تكمل ذاته الكمال الذي ينتهي إليه أولياء الله في الورث النبويّ في هذا

الزمان المحمديّ الذي أغلق فيه باب نبوة التشريع ورسالته، وبقي باب حكم الاختصاص بالعلوم الإلهية والأسرار مفتوحاً يدخل عليه أهل الله، وأوّل داخل عليه أهل هذا الذكر جعلنا الله ممن استوى خوفه ورجاؤه في الحياة الدنيا إلى حين موته عند الاحتضار فيغلب رجاؤه على خوفه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ١ و ٢]

[نظم: الكامل]

إذا ذكرتني رحمة الرّبّ لم أزل ... أقول له يا رَبّ رَبّ مُحَمَّدِ

لأن لها التّأكيدَ أن كان رَبّهُ ... فأَغلُو بهذا الذّكْر في كل مَشْهَدِ

فأرْسَلَهُ الرحمن للخَلْقِ رحمةً ... على كل حال بين هادٍ ومُهْتَدي

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وأوحى إليه تعالى أن الله لم يبعثك سباباً ولا لعاناً وإنما بعثك رحمة، وقال تعالى في عبده خضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥] فقدم الرحمة على العلم وهي الرحمة التي في الجبلة ثم قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ فأعطاه هذا العلم من أجل قوله لدنا الرحمة المبطونة في المكروه، وبهذه الرحمة قتل الغلام، وخرق السفينة، وبالرحمة الأولى أقام الجدار، فلا يفرق بين هاتين الرحمتين إلا صاحب هذا الذكر، فإن الرحمة هي التي تذكره ما هو يذكرها، فتعطيه بذكره حقيقة ما فيها لأنها تطلب منه التعشق بها فإنه لا ظهور لها إلا به فهي حريصة على مثل هذا.

واعلم أن هذا الذكر تعريف إلهيّ بوجوب حكم الرحمة فيمن تذكره من عباده سبحانه وتعالى، وجاء زكريا لا لخصوص الذكر وإنما ساقته عناية العبد فإنها ما ذكرته إلا لكونه عبداً له تعالى في جميع أحواله، فأيّ شخص أقامه الله في هذا المقام فبرحمته به أقامه لتذكره رحمة ربه عنده تعالى، فحال عبوديته هو عين رحمته الربانية التي ذكرته فأعلمت ربها أنها عند هذا العبد، فأيّ شيء صدر من هذا الشخص فهو مقبول عند الله تعالى، ومن هذا المقام يحصل له من الله ما يختص به مما لا يكون لغيره وهو الأمر الذي يمتاز به ويخصه، فإنه لا بدّ لكل مقرّب عند الله من أمر يختص به. وقد أشار الشرع في التعريف بهذا فقال: إنه ما من أحد من المؤمنين إلا ولا بد أن يناجي ربه وحده ليس بينه وبينه ترجمان فيضع كنفه عليه وهو عموم رحمته به، فذلك محل تحصيل ما يختص به كانت القيامة لهذا العبد حيث كانت لأنه من عباد الله من تعجل له قيامته فيرى ما يؤول إليه أمره في الدار الآخرة وهي البشرى التي للمؤمن في الحياة الدنيا، وقد رأيناها ذوقاً، وكان لنا فيها مواقف منها في ليلة واحدة مائة موقف بأخذ ورجوع لو قسمت تلك الليلة على قدر الوقوف ما وسعته وذلك بمدينة فاس سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة أشاهد في كل موقف من اتساع الرحمة ما لا يمكنني النطق به، وكان ذلك لاتساع ذكر الرحمة فكيف بذكر الرحمن إذا حصل للعبد ولا يحصل إلاّ للعبد الجاني،

وأما غير الجاني فهو عين رحمة الله في خلقه به يرحم الله الخلق كافرهم ومؤمنهم ومشركهم وموحدهم، وبه يرزق عباده في الدنيا، وبه يقع النصر وينزل المطر وتخصب الأرض وتكثر الرسل ويعظم الخير، وهو المعصوم بالشهود في عين الجنايات، فيظهر عليها بحكم القضاء والقدر الحاكم في الطرفين خلق وحق إن فهمت فلا يظهر فيك ولا منك إلا عينك، ولا يحكم بعلمه فيك إلا ما أعطيته من العلم بك، وهنا زلت الأقدام، ونكصت على أعقابها الأفهام، وتحكم على الأحلام سلطان الأوهام، وللأوهام الحكم الغالب التام والدوام، والله ما يوجد إلا عند ظن العبد به فليظن به خيراً، والظن من بعض وزعة الوهم وهو الذي يعطي العذاب المعجل والنعيم المعجل، فظن خيراً تلقه، وبعض الظن إثم، فوالله لولا الظن ما عصى الله مخلوق أبداً، ولا بد من العصيان وهو حكم الله في الفعل أو الترك، فلا بد من الظن، فمن رحمة الله بخلقه أن خلق الظن فيهم وجعله من بعض وزعة الوهم، ولا يتمكن تحصيل العلم لأحد في أمر أصلاً من حيث ما يحكم به على المشهود لا من حيث الشهود فإنك لا تقدر على زوال ما شهدت، وهكذا جميع تعلق باقي القوى، ولكن بقي الحكم على ما تعطيه هل يحصل به العلم أو الظن؟ فعند صاحب هذا المقام لا يحصل إلا بالظن خاصة، وأما غيره فيجعل ذلك علماً لعدم ذوقه لهذه الحال، ففرق بين ما تعطيه القوة وبين ما يحكم به على ذلك المعطي بها هل يحكم بالظن أو بالعلم؟ فالأمر في نفسه شبهة في عين الدليل، وإن لم يكن الأمر هكذا لم يتميز رب من عبد ولا حق من خلق، إن فهمت فهذا بعض ما ينتجه لك هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]

[نظم: المتقارب]

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على رَبِّهِ ... فإنّ إلٰهَ الوَرَى حَسْبُهُ
وإن كان في كل أحْوالِه ... يراه به دائماً رَبُّهُ
فذاك الوليُّ الذي لم يَزَلْ ... على ما يُرَادُ به قَلْبُهُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الذكر يعطي صاحبه أنه هو إذ لا يكتفي إلا به لأن النبي ﷺ يقول: «لَيسَ وَرَاءَ الله مَرْمًى» فما كان من حجاب فما هو إلا بينك وبينه ما هو وراءه فإنه الأوّل وأنت الآخر وهو قبلتك فلا يكون له منك إلا المواجهة، ثم أرسل بينك وبينه حجب الأسباب والنسب والعادات وجعلها صوراً له من حيث لا تشعر فمن قال هي هو صدق، ومن قال ما هي هو فللاختلاف الذي يراه فيها فيصدق فإنه يحجبه عن العلم به اختلاف الصور، فكما يقطع أن هذه الصورة ليست هذه الصورة أي هذا السبب ما هو هذا السبب يقطع أنها ما هي هو، وذهل عن حقيقة الحجاب أو كونها، وإن اختلفت فهي واحدة في السببية أو الحجابية كذلك هي عينه وإن اختلفت وإن لم يكن الأمر هكذا وإلا فلا تصح

المواجهة، ألا ترى الأعمى إذا واجهته وكافحته لا يقدح عماه وكونه لا يراك وأنت تراه عن حكم المواجهة بينكما مع كون الأعمى يرى الظلمة بلا شك وأنت عنده في عين تلك الظلمة التي يراها فيدركك ظلمة لأنه يواجهك فيقول: رأيت فلاناً اليوم مواجهة ويصدق مع كونه أعمى، فما وراء الله مرمى وما وراءك له مرمى، لأن الصورة الإلهية بك كملت وفيك شهدت فهو حسبك كما أنت حسبه، ولهذا كنت آخر موجود وأوّل مقصود، ولولا ما كنت معدوماً ما كنت مقصوداً فصح حدوثك، ولولا ما كان علمك به معدوماً ما صح أن تريد العلم به، فهذا من أعجب ما في الوجود أن يكون من أعطاك العلم بنفسه لا يعلم نفسه إلا بك، لأن الممكنات أعطت العلم بأنفسها الحق، ولا يعلم شيء منها نفسه إلا بالحق، فلهذا كان حسبك لأنه الغاية التي إليها تنتهي وأنت حسبه لأنه ما ثم بعده إلا أنت ومنك علمك وما هي إلا المحال وهو عين العدم المحض الذي التبست بظله كما التبست بضوء الوجود النور فقابلت الطرفين بذاتك، فإن نسب إليك العدم لم تستحل عليك هذه النسبة لظلمته عليك، وإن نسب إليك الوجود لم يستحل لضوئه فيك الذي به ظهرت لك، فلا يقال فيك موجود فإن ظل العدم الذي فيك يمنع من هذا الإطلاق أن تستحقه استحقاق من لا يقبل العدم، ولا يقال فيك معدوم لأن ضوء الوجود الذي فيك يمنع من هذا الإطلاق أن تستحقه استحقاق من لا يقبل الوجود، فأعطيت اسم الممكن والجائز لحقيقة معقولة تسمى الإمكان والجواز، وحصل اسم الموجود للواجب بالذات لحقيقة تسمى الوجود وهي عين الموجود، كما أن الإمكان عين الممكن من حيث ما هو ممكن لا من حيث هو ممكن ما وحصل اسم المعدوم للمحال وهو الذي لا يقبل الوجود لذاته لحقيقة تسمى العدم المطلق وهو الإحالة، فأنت جامع الطرفين ومظهر الصورتين وحامل الحكمين، لولاك أثر المحال في الواجب وأثر الواجب في المحال، فأنت السد الذي لا ينخرم ولا ينقصم، فلو كان للعدم لسان لقال إنك على صورته، فإنه لا يرى منك إلا ظله كما كان للوجود كلام فقال إنك على صورته، فإنه رأى فيك صورته فعلمك بك لنوره وجهلك العدم المطلق لظله، فأنت المعلوم المجهول وصورة الحق سواء فتعلم من حيث رتبتك لا من حيث صورتك، إذ لو علمت من حيث صورتك لعلم الحق والحق لا يعلم، فأنت من حيث صورتك لا تعلم فالعلم بك إجمال لا تفصيل، فقد عرفتك ما يعطيك هذا الذكر من العلم بالله إن عقلت، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والهادي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب الخامس عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [صٓ: ٢٤]

[نظم: الكامل]

الافْـتِـتَـانُ هـو الـبـلاءُ بِـعَـيْـنِـهِ فـاسْـكُـنْ إذا مـا يَـبْـتَـلِـيكَ بـحُـكْـمِـهِ

واسْـتَـغْـفِـرِ الـرَّبَّ الـكـريـمَ بـسَـجْـدةٍ مـنـه فـأنـت مُـعَـيَّـنٌ فـي عِـلْـمِـهِ

واحْذَرْ من الفِكْرِ الدقيقِ فإنما يُؤْتَى الذي فهم الذي من فَهْمِهِ
الشأنُ فوق عقولنا وعُيُوننا فاحْذَرْ من العقل الذي في زَعْمِهِ
إنّ العلوم لديه وهو مقيَّدٌ عَبْدُ الدَّليلِ بكَيْفِهِ وبِكَمِّهِ
إنّ الشريعة قَسَّمَتْهُ بكَيْلها فلذاك قلتُ بكَيْفِهِ وبِكَمِّهِ

لما كان داود عليه السلام في دلالة اسمه عليه أشبه بني آدم بآدم في دلالة اسمه عليه صرّح الله بخلافته في القرآن في الأرض كما صرح بخلافة آدم في الأرض، فإن حروف آدم غير متصلة بعضها ببعض، وحروف داود كذلك، إلا أن آدم فرق بينه وبين داود بحرف الميم الذي يقبل الاتصال القبلي والبعدي فأتى الله به آخراً حتى لا يتصل به حرف سواه، وجعل قلبه واحداً من الحروف الستة التي لا تقبل الاتصال البعدي، فأخذ داود من آدم ثلثي مرتبته في الأسماء، وأخذ محمد ﷺ ثلثيه أيضاً وهو الميم والدال، غير أن محمداً متصل كله، والحرف الذي لا يقبل الاتصال البعدي جعل آخراً حتى يتصل به ولا يتصل هو بشيء بعده وهو قوله ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ**» فيتصل به ولا يتصل هو بأحد، فناسب محمد آدم عليهما الصلاة والسلام من وجهين: الأول مناسبة النقيض بالاتصال بآدم وآدم له الانفصال كداود، والميم من آدم كالدال من محمد، فجاءتا آخراً لذلك أعني في آخر الاسم منهما، والثاني مناسبة النظير التي بين آدم ومحمد في كون الحق ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وأعطى محمداً ﷺ جوامع الكلم وعمت رسالته كما عم التناسل من آدم في ذريته، فالناس بنو آدم والناس أمة محمد ﷺ من تقدم منهم ومن تأخر لأنه قال ﷺ: «**آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي**» فنظر آدم إلى داود دون ولده لما ذكره فاستقل عمره فأعطاه من عمره ستين سنة وهو عمر محمد ﷺ فلما وصل من عمره إلى الميم من اسمه رأى صورة محمد ﷺ في الميم فرجع عن داود لأنه قد فارق رؤية الألف والدال فرجع في عطيته التي أعطاها داود من عمره فدخل تحت لواء محمد ﷺ. فأما تصريح الحق بالخلافتين على التعيين في حقهما فقوله تعالى في خلافة آدم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يريد آدم وبنيه وأمر الملائكة بالسجود له. وقال تعالى في داود عليه السلام ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال فيه ما لم يقل في آدم: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [صٓ: ٢٦] وسبب ذلك لما لم يجعل في حروف اسمه حرفاً من حروف الاتصال جملة واحدة، فما في اسمه حرف يتصل بحرف آخر من حروف اسمه، فعلم أن أمره فيه تشتيت لما كان لكل إنسان من اسمه نصيب، فكان نصيبه من اسمه ما فيه من التشتيت فأوصاه تعالى أن لا يتبع الهوى لانفراد كل حرف من اسمه بنفسه، ثم إن له إلى الفردية وجوهاً في حركاته فهي ثلاثة وحروفه خمسة فهو فرد من جميع الوجوه، فلولا أنه قابل لما وقعت فيه الوصية من الله ما وصاه، ولما علم ذلك داود بما أعلمه الله بطريق التنبيه في نهيه إياه أن لا يتبع الهوى ولم يقل هواك أي لا تتبع هوى أحد يشير عليك واحكم بما أوحيت به إليك من الحق فإن الهوى ما له حكم إلا بالاتصال، وحروف اسم داود لا تقتضي الاتصال فعصمه الله من وجه خاص،

فلما وصاه الحق تعالى استغفر ربه أي طلب الستر من الله الحائل بينه وبين الهوى المضل ليتصل به فيتصف به فيؤثر في الحكم الذي أرسل به رجع إلى الله في ذلك وسقط إلى الأرض اختياراً قبل أن تسقطه الأهواء وتؤثر فيه تأثيرها في الجدران القائمة، فكان ركوعه رجوعاً إلى أصله من نفسه فهو عين الستر الذي طلبه في استغفاره، فلما جاء الهوى لم يجد شيئاً منتصباً قائماً يرده عن مجراه فيؤثر فيه فراح عنه ولم يصبه وعصمه الله وستره، وليس الابتلاء مما يحط درجة العبد عند الله، بل ما يبتلي الله إلا الأمثل فالأمثل من عباده، ﴿فَيُضِلُّ﴾ بالتأويل في ذلك ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤] ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فنفس الأنبياء نفس واحد، فمن عباد الله من سترهم الله عن الذنوب فلم تدركهم ولم ترهم، ومن عباد الله من يسترهم الله عن المؤاخذة عن الذنب وكل له مقام معلوم [المتقارب].

فلو أن داودَ في حُكمِهِ بحُكْمِ الهَوَى ضَلَّ عن نَفْسِهِ
ولكنَّه سَيِّدٌ مُنتَجَبٌ قدِ اخْتَارَهُ الله من قُدْسِهِ
له الضَّوْءُ من ذاته ظاهرٌ تبرز فيه على جِنْسِهِ
فما خَرَّ عن زَلَّةٍ قد أتى بها بل رجوعاً إلى أُسِّهِ
فداودُ في ذاته وُدّه وفي وُدّه الداء من شَمْسِهِ
فأَشْبَهَ يعقوبَ في حُزنه وأشْبَه يوسُفَ في حَبْسِهِ

واعلم أنه لولا الابتلاء لقال من شاء ما شاء، فأصل الابتلاء وسببه الدعوى، ومن الابتلاء ما يكون في غاية الخفاء مثل قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] ومنه ما يكون في غاية الجلاء مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّـٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١] ونبلو أخباركم ولا يعرف مثل هذا إلا من يعرف الجلي والخفي ولماذا يرجع؟ وهل ثم خفي لنفسه أو هو خفي بالنسبة فإنا نعلم أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض وهو المعلوم، وكل ما في الطبيعة من الأسرار فإن صورها أرض الأرواح ولا في السماء وهو المعلوم، وكل ما في الأرواح التي بين الطبيعة والعما وهي التي تشرق هذه الأرض بأنوارها فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس عشر وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[التوبة: ٢٤] **ففروا إلى الله**

[نظم: البسيط]

ليس الإلهُ الذي بالكَشْفِ تُدْرِكُهُ هو الإلهُ الذي بالفِكْرِ تَدْرِيهِ

لـكَـوْنِ فِـكْـرِكَ لا تَـغْـدُوهُ رُتْـبَـتُـهُ وقـد يـكـون ولـكـن فـيـه مـا فِـيـهِ
الحكم بالفكر في الأشياء مختلفٌ والحكمُ بالكشف لا تُدْرَى مَبَانِيهِ
يـراه فـي كَـشْـفِـه فـي كـل مُـعْـتَـقَـدٍ ولـيـس يُـنْـكِـرُ مَـعْـنًـى مـن مَـعَـانِـيـهِ
جَـلَّ الإلٰـهُ فـلا عـقـلٌ يـحـيـطُ بـه ولـيـس يُـدْرَى سـواه فـانـظُـروا فـيـه
جـل الإلٰـهُ فـلا كَـشْـف يـحـيـطُ بـه ولـيـس شـيء مـن الأكـوان يَـحْـوِيـهِ
وهـو الـذي فـي جـمـيـع الـكـون تـدركُـه ولـيـس يُـدْرَكُ إلا مـن تَـجَـلِّـيـهِ
إذا تَـدَلَّـى لـعـبـد جـاء يـقـصـده أعـطـاه مـا لـيـس يُـدْرَى فـي تَـدَلِّـيـهِ
مـن كـلّ خَـيْـرٍ ومـن عـلـمٍ ومـعـرفـةٍ فـمَـنْ يـعـادلُـه أو مَـنْ يُـدَانِـيـهِ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الخير في هذا المنظوم يريد به الحكمة وهو الخير الكثير والعلم ما يدركه من التركيب، والمعرفة ما يدركه في المفردات، هذه آية جاءت إلينا يوم جمعة بعد الصلاة في المقابر بإشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة فبقيت فيها سكران ما لي تلاوة في صلاة ولا يقظة ولا نوم إلا بها ثلاث سنين متوالية أجد لها حلاوة ولذة لا يقدر قدرها، وهي من الأذكار المفرقة بين الله وبين الخلق تفريق تمييز، فهو تفريق في جمع وفرقان في قرآن، فيجمع بهذا الذكر بين القرآن والفرقان، فكل من له عليك ولادة من أي نوع وفي أي صورة كان من ظاهر وباطن واسم إلهي وكياني فهو أبوك، وكل من لك عليه ولادة من أي نوع كان وفي أي صورة كان من ظاهر وباطن واسم إلهي وكياني فهو ابنك، فقد يكون ابنك في هذا الذكر عين أبيك فيكون له عليك ولادة ولك عليه ولادة، وهو المقام الذي أشار إليه الحلاج بقوله: [مجزوء الرمل]

وَلَـدَتْ أُمِّـي أبـاهـا إن ذا مـن عُـجُـوبـاتـي

وكل ما قابلك من الأمثال وداخلك من الأشباه ومازجك أو قارب من الأنداد وكان عديلاً لك في الوراثة بحيث لو وزنتما في العلم الموروث من الكتاب ما رجح عليك وزناً ولا رجحت عليه فهو أخوك ولكن من الاسم الظاهر، فأبوكما واحد ظاهراً لا غير، وليس للاسم الباطن هنا حكم، فإن الباطن يمنع أن تكونا أخوين لأب واحد وأم واحدة، فإن المزاج الواحد لا يجمع اثنين في الكون، والتجلي لا يكون عنه اثنان فإن الأمر أوسع من ذلك، فكل واحد له واحد من أم وأب فالطبيعة لا تلد توأمين، والوالد لا يلقي في كل نكاح ماءين، كما لا يكون في العالم الواحد في زمن واحد شأنان، وكل من ثناك وجوده، وانفعل لك فيما تريده، وكنت فيه خلاقاً، وإليه إذا غاب عنك مشتاقاً، وجمعتكما الرحمة الواحدة والمودة الثابتة، وسكنت إليه وسكن إليك، وأعطاك من نفسه التحكم فيه، وظهر فيه اقتدارك فهو زوجك تحبه طبعاً وتتحد به ويكون ملكاً لك شرعاً، وكل ما تعتضد به في أمورك من الأسماء الإلهية والتجلي والكون من أرواح قدسية وعقول ندسية، تؤيدك في الشدائد، وتأتيك بالتحف والزوائد، فهو عشيرتك وكل من تميل إليه فيميل إليك لميلك،

ويحضره ديوان نيلك، ويقف عند فعلك فيه وقولك، ويتحكم فيه سلطان طولك، وتصل في اقتنائه نهارك بليلك، فذلك هو مالك الذي اقترفته من الأموال الظاهرة والباطنة والمعنوية والمحسوسة من ثابت كالعقار، ومن غير ثابت كالعروض والدرهم والدينار، وكل منقول لا يقرّ به قرار، فالثابت كالمقام وغير الثابت كالحال، وكله مال لأنه مال وإليه المآل، بعد الرحلة عنه والانفصال، ولكن إذا آل إليه أمرك رأيته في غير الصورة التي عليها فارقته، وكل أمر تطلب الخروج عنه ليكون ذلك الخروج سبباً لتحصيل ما يكون عندك أنفس منه فتطلب به النفاق في الأسواق، ويقوم لك فيه الجمع بين التلاق والفراق، والنكاح والطلاق، ظاهراً و باطناً فذلك التجارة التي تخشى كسادها، وتخاف فسادها، فاستبطنت مهادها، واستوطأت قتادها، وأعددت لها إعدادها، وحصلت لها إن كنت تأجر سفر زادها، لتنجيك من عذاب أليم، وتوفيك الربح والحق الجسيم، وكل من اتخذته محلاً، وكنت به محلى، وجعلته حرماً لك وحلاً، فذلك مسكنك الذي ترضاه، ومنزلك الذي تقصده وتتوخاه، فقال لك الحق فيما أنزله إليك، ووفد به رسوله الأمين عليك، إذا لم تر وجه الحق في كل ما ذكرته، وتعشقت به لعينه، وتعرف أنه من عنده ما هو عينه، وآثرته مع هذا الحجاب على ما دعاك الحق إليه من الزهد فيه، إذا فقدت فيه وجه الحق، فتعلم أن الله ما أراد منك إلا أن تعرفه فيما أمرك بالزهد فيه والرغبة عنه وأحببته حب عين وصورة كون وكان أحب إليك من الله الجامع للرغبة فيه والرغبة عنه فإنه المعطي المانع، والضار النافع، وأحب إليك من رسوله الوافد عليك المعرف بما هو حجاب عن المقصود، وستر بين العابد والمعبود، مع علمك بما أعلمك أنه ما خلقك إلا لتعبده، وتؤثره على ما تراه فيه وتقصده، وأحب إليك من جهادك في سبيل الله الذي يجمع لك بين الحياتين فلا تعرف للموت طعماً، ولا للحصر حكماً، فتربصوا كلمة تهديد ووعيد، حتى يأتي الله بأمره، فتعرف عند ذلك خيره من شره، وحلوه من مرّه، وتذوق شهده من صبره، ثم نصح في الإنزال على لسان الإرسال بالفرار إلى الله من هذه الحجب والتدبر لما جاءت به من عند الله الصحف والكتب مع إرخاء الطنب لتخلو بالمقصورات في الخيام، وتفتض أبكاراً لم يطمثهن إنس قبلك ولا جان، فتحصل من المعارف في تلك العوارف، ما لا يصفه واصف، ولا يتمكن أن يقف عنده واقف، لورود ما هو أعلى وأنفس من كل محل أقدس، وإن كان الفكر والتجلي في عدم الإحاطة بالمدرك بهما سيان، وهما من هذا الوجه مثلان فبينهما فرقان بين لا خفاء به إن صاحب الفكر يحكم عليه في محصوله الدخل، وتتمكن منه الشبه، وتزلزله عما كان بالأمس يعتمد عليه، ويركن إليه، والتجلي للعارف ليس كذلك بل هو في نعيم متجدد، وفي شهود لخلق جديد ما هو منه في لبس، وهو الجامع في الالتذاذ بين اليوم والأمس، فلا يزال في لذة موجودة لصورة إلهية مشهودة لا يعطيه الفناء عن جميع لذاته لأنها من لذاته وجدت لوجوده، فاجتمعا في شهوده، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع عشر وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨] **وهذا ذكر الاضطرار والفرج بعد الشدة**

[نظم: المديد]

إنّ أرْضَ الله واسعةٌ ... فشقيٌّ من تَضِيقُ عَلَيْهْ
سَبَبُ الضِّيقِ الخلافُ فكُنْ ... معه إنّ الرجوعَ إليهْ
مَنْ يَقِفْ ولا يخالفُه ... يَقِفِ التحقيقُ بين يَدَيْهْ
ثم يُغطيه لتَوْبَته ... كل ما في علمه ولَدَيْهْ
فإذا أفْنَى حَقِيقَتَهُ ... جاءه المطلوبُ في عَلَمَيْهْ
عند جَمْعِ حين جاء لها ... ليكونَ الحكمُ من حُكْمَيْهْ
كلّ ما في الكون من ولدٍ ... ما لنا منهم سوى وَلَدَيْهْ
فأخ بالشّرْع فثبته ... لأخ بالكَشْف من أبَوَيْهْ

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨] فلو كان واحد ما ضاقت عليه الأرض لأن الضيق إنما يقع بالشريك، ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به فإنه يخرج عنه ما هو له، ولذلك أغضب المشرك الحق غضباً أورثه ذلك الغضب مكاناً ضيقاً لما في الغضب من الضيق، فحصل له مع أمثاله من المشركين كونهم مقرّنين في الأصفاد، فليس اتساع الأرض إلا لمن انفرد بها، فلما انقسمت بين ثلاثة قسمة مشاعة ضاق الفضاء الرحب، ولولا وجود الفردية في الثلاثة لهلكوا فما نجاهم إلا ما في الثلاثة من الأحدية الواردة على الاثنين، وأما لو كانوا أربعة أو اثنين، ما نجوا ولا تاب الله عليهم، فإن الله وتر يحب الوتر، والثلاثة وتر فأبقى عليهم من المحبة ما تاب بها عليهم، وإذا رحم الله الشفع إنما يرحمه بآحاده فيخلو به واحداً واحداً على انفراده حتى لا ينال رحمته إلا الواحد، فما يرحم الله عباده شفعاً وإنما يرحمهم إما في الفردية أو في الأحدية غير ذلك لا يكون وبعد ذلك يفعل ما يريد. وإنما وقع الكلام على الواقع، فما تكثر الأعداد ولا تظهر إلا بآحادها، فلو زالت الآحاد منها لما كان في العالم شفع ولا عدد، ولهذا لم يتكرر تجل قط على شخص ولا في شخصين، فلولا ما قال ثلاثة ما صح لهم ذوق الضيق في الاتساع لما في الثلاثة من الشفعية، ولما صح لهم ذوق الاتساع بالرحمة بالتوبة لما في الثلاثة من الأحدية التي بها كانت فرداً وهي أوّل الأفراد فلها الأولية فهي أقرب إلى الأحدية فأسرعت الرحمة إليهم، فلو كانوا خمسة لكانوا أبعد من الأحدية وأكثر ضيقاً لتضاعف الشفعية، وهكذا الأمر طلعت الأفراد ما طلعت وهو الذي ينفي كثرة المدة في النار في العذاب لأهلها حتى يقطعوا كل شفع يكون في فرديتهم انتهوا إلى ما انتهوا إليه، فغاية إقامتهم في العذاب ثمانية

وتسعون دهراً، ثم يتولاهم الاسم الرحمن بعد ذلك وهم نازلون في الشقاء من ثمانية وتسعين إلى اثنين بعدد كل شفع بينها، وفي كل فردية رحمة تكون لمن له حظ فيها في هذه الدار فيفتر عنه بقدر ذلك، وأما أهل الشفع فلا يفتر عنهم العذاب وهم فيه مبلسون إلى الغاية التي ذكر الله من شفعية وهي الثمانية والتسعون. فالوتر الذي يكون بعد الشفع هو الذي يأخذ بثأر الوتر الذي قبله إذ شفعه من ظهر بين الوترين كالثالث بين الاثنين والرابع فيأخذ بثأر الواحد الذي شفعته الاثنان وكالخامس بين الأربعة، والستة يأخذ بثأر الثالث الذي شفعته الأربعة لينتقم له، فإن الوتر في اللسان الذي جاءت به هذه الشريعة المحمدية هو طلب الثأر، وهكذا حكم كل فرد حتى تنتهي إلى تسعة وتسعين، فإذا وقف الأمر هناك وانحصر في الاسم الرحمن تولاه الله بالاسم الأعظم لأن به تمام المائة، فعمّ درجات الجنة ودركات النار، ولم يتوله الاسم الأعظم المتممّ إلا من الاسم الرحمن فهو حاجب الحجاب، فليس له منازع بين يدي الاسم الأعظم فيؤول الأمر إلى شمول الرحمة في الدارين لساكنيهما وما قال من المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] إلا من كان في مقام الفردية منهم، فإذا قالها صاحب الشفعية فإنما ذلك لحصره بين الواحد الذي شفعه بوجود معبوده، والواحد الذي يفرد هذا الشفع في استقباله، فمن أي وجهة رد إليها وجهه هذا الشفع ولم ير إلا واحداً فنظر إلى نفسه فلم ير إلا أحديته فقال عند ذلك: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فصدرت هذه الكلمة من كل مشرك شفعاً كان أو وتراً للشريك الذي نصبه. وأما من قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [المائدة: ١٧] أو قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] فليس في الظاهر بمشرك وإنما دخل عليه الشرك بالاسم ولذلك قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] فإنهم إذا سموهم عرفوا بالاسم من هو المسمى فقال هؤلاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [المائدة: ١٧] وليس المسيح من أسمائه إذ كان له هذا الاسم قبل أن يدعى فيه أنه الله فأشركوا من حيث الاسم وأشرك فرعون من حيث خالف عقده قوله فبهذا كانوا مشركين، ثم ينتج له هذا الذكر أمراً عجيباً على الأوج مخبوءاً في الدرج مرقوماً في طيّ الدرج إذ سماهم الله مخلفين، فإن كل مفارق أهله فالله خليفته في ذلك الأهل سواء استخلفه أم لم يستخلفه، فكل من يقوم في أهله بعده فإنما ذلك نائب الله لا نائبه، فهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا ما خلفهم الاسم الظاهر فإن الشرع دعاهم إلى الخروج ولكن الله ثبطهم، فمنهم من كره الله انبعاثه فثبطهم، ومنهم من ثبطه لا عن كره فقاموا في أهليهم مقام حق فجعلهم الله خلفاً في أهليهم عنه من الاسم الباطن على كره منهم، فكان من أمرهم ما كان فتاب الله عليهم فتفاضلت توبتهم فكان منهم الكاذب في عذره فقبله منهم الكرم الإلهي، وكان منهم الصادق وهو في الدار الدنيا فأذاقه الله مرارة الصدق هنا ليعلم منهم يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، فإن الدنيا دار بلاء، ورحم الله الجميع ورجع عليهم بالرحمة، ولكن على التفاضل فيها وما فعل ذلك وأخبرنا به إلا لنكون بتلك الصفة الإلهية مع عباده في معاملتهم إيانا،

فمن صدقنا رأينا له منزلة صدقه، ومن كذب لنا لم نفضحه وتغاضينا عن كذبه وأظهرنا له قبول قوله لأن قوله وجود فقبلناه ومدلوله عدم فلم نجد من يقبل فبقينا على البراءة الأصلية فإن المعدوم ليس بمنازع، فمن كان هذا ذكره ولم يكن له هذا الخلق فما ذكره هذا الذكر قط، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

[نظم: السريع]

جَـزاءُ مـن أَصْـعِـقَ فـي حَـالِـهِ ... جـزاؤه الـجَـهْـلُ بـمـن أصْـعَـقَـهْ

لـو أنـه يَـثْـبُـتُ فـي حـالـهِ ... مـا اسْـتَـفْـهَـمَ الـكَـوْنَ الـذي حَـقَّـقَـهْ

وهـو الـذي قَـيَّـدَهُ وَخْـيُـهُ ... وهـو الـذي مـن قَـيْـدِهِ أطْـلَـقَـهْ

مـا أنْـوَرَ الـسِّـرَّ الـذي قـد أتـى ... مـنـه إلـى الـقـلـب ومـا أشْـرَقَـهْ

وهـو عـلـى مـقـداره مُـحْـكَـمٌ ... لا زائـدٌ يَـدْريـهِ مـن طَـبَّـقَـهْ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الملائكة أرواح في أنوار وأنها أولو أجنحة، فإذا تكلم الله بالوحي على صورة خاصة وتعلقت به أسماعهم كأنه سلسلة على صفوان ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لهذا التشبيه فتصعق حتى إذا فزع الله عن قلوبهم وهو إفاقتهم من صعقهم قالوا: ماذا يقول بعضهم لبعض؟ فيقول بعضهم: ربكم إعلاماً بأن كلامه عين ذاته، فيقول بعضهم لهذا القائل: الحق أي الحق يقول وهو العليّ الكبير عن هذا التشبيه ولكن هكذا نسمع: [مجزوء الرمل]

فـمـن الـسَّـمْـعِ أَتَـيْـنَـا ... فـهـو مـنَّـا وهـو فـيـنـا

أَوْرَثَ الـقَـلْـبَ بـمـا ... أوحَـى بـه داءً دَفِـيـنـا

لـم يـكُـنْ ذلـك مـنـه ... بـل مـن الـفـهـم دُهِـيـنـا

وكـذا كـل سـمـيـع ... مـن جـمـيـع الـمـؤمـنـيـنـا

فـإذا صَـيَّـرَ لـيـثـاً ... نَـفْـسَـهُ كـنـتَ عَـرِيـنَـا

لـم يَـسَـعْـهُ غَـيْـرُ قـلـبـي ... هـكـذا جـاء يـقـيـنـا

كـل صـورة تُـجَـلَّـى ... لـي بـهـا حـيـنـاً فَـحِـيـنَـا

فـأنـا أظـهـرُ فـيـهـا ... عـنـدكـم صُـبْـحـاً مُـبِـيـنَـا

وهـو الـغَـنِـيّ حَـقّـاً ... عـن جـمـيـع الـعـالـمـيـنـا

فـإذا رأيـتُ نَـفْـسـي ... لـم أرى إلاَّ الـمَـتِـيـنَـا

لا يُـرَى بـاسـم سـواه ... فـي عـيـون الـنـاظـريـنـا

ومن علم أن للملائكة قلوباً أو علم القلوب ما هي علم أن الله تعالى ما أسمعهم في الوحي الذي أصعقهم إلا ما يناسب من الوحي ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] و﴿يُقَلِّبُ

ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [النور: ٤٤] فمن فزع الله عن قلبه رأى حقيقة انقلابه في الصور وتحوّله فيها، فعلم أن العالم كله في كل نفس في تحوّل وانقلاب، فعلم من ذلك أن ذلك للشؤون التي هو الحق فيها، فهو المحول القلب في الليل والنهار بما يقلبها، وفي السماء بما يوحي فيها، وفي الأرض بما يقدر فيها، وفيما بينهما بما ينزل فيه وفينا بما نكون عليه وهو معنا أينما كنا، فنتحوّل لتحوّله ونتقلب لتقلبه، فإن من أسمائه الدهر ونستغني به لغناه، وأما علمنا بتفاضل بعض الملائكة في العلم بالله على بعض فلما ورد في هذا الذكر من الاستفهام في قول من قال منهم ماذا وهو قولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] في العلم بالله، وأما رفع التهمة عنهم فيما بينهم وتصديق بعضهم بعضاً، وانصباغ بعضهم بما عند بعض مما يكون عليه ذلك البعض من صورة العلم بالله فيفيد بعضهم بعضاً، فمن قوله عنهم قالوا الحق ابتداء ولم ينازعوا عندما قال لهم المسؤول ربكم ثم أقيموا في ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ﴾ [الشورى: ١١] فلم يروه إلا في الهوية وهي ما غاب عنهم من الحق في عين ما تجلى، وتلك الهوية هي روح صورة ما تجلى فنسبوا إليها أعني إلى الهوية من ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ﴾ العلوّ عن التقييد والكبرياء عن الحصر فقالوا بل قال عن نفسه وهو المعلوم عندنا الذي أعطاه الكشف عند قولهم: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [سبا: ٢٣] إلى هنا انتهى كلام الملائكة. فقال الله وهو العليّ الكبير كما قال لنا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ﴾ فقدم ما أخر في خطاب الملائكة ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فأخر عندنا ما قدم في خطاب الملائكة، فنهاية ما خاطب به الملائكة بدايتنا وبداية ما خاطبنا به وعرفنا من قول الملائكة فيه نهايتنا: [مجزوء الخفيف]

فلنا مِثْلُ ما لهم ... ولهم مِثْلُ ما لنا
فانْظُروا في كلامه ... تَجِدُوهُ مُبَيَّنَا
فبه قد أسرّنا ... وبه الحقّ أعلنا
فإذا لم تَكُنْ عليماً ... به كُنْتَ مُؤْمِنَا
وإذا ما عَلِمْتَهُ ... لم تَزَلْ عالماً بنا

فلما شرك الله بيننا وبين ملائكته في العجز عن معرفته زدنا عليهم بالصورة ولحقناهم في الظاهر بما يظهر به من الصور في النشأة الآخرة في ظواهرنا، كما نظهر بها اليوم في بواطننا فنكون على نشأتهم في الآخرة، وليست للملائكة آخرة فإنهم لا يموتون فيبعثون ولكن صعق وإفاقة، وهو حال لا يزال عليه الممكن في التجلي الإجمالي دنيا وآخرة، والإجمال هناك في الملائكة عين المتشابه عندنا، ولهذا يسمعون الوحي كأنه سلسلة على صفوان، فعند الإفاقة يقع التفصيل الذي هو نظير المحكم فينا، فالأمر فينا وفيهم بين آيات متشابهات وآيات محكمات، فعمّ الابتلاء والفتنة بالإجمال والمتشابه الملأين: الملأ الأعلى والملأ الأنزل، فمثل هذا العلم ينتجه هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع عشر وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]

[نظم: البسيط]

إذا دعِيتَ أَجِبْ فالله يَدْعُوكا ... فإنه ما دعا إلا ويعطيكا

أنت الغنيّ فجُدْ مما أتاك به ... ما وافقَ الحَقَّ فالرحمٰنُ يَتْلُوكا

وكلّ شيء خلاف الحقّ فازم بهِ ... في الاعْتِبارِ فإن الفكرَ ناديكا

ولا تقُلْ ليس من رَبِّي فتتركه ... إن العليم بوَجْهِ الأمر يَأْتيكا

فخُذْهُ واسْبُرْه بالمِسْبَار تَعْلَمُهُ ... فإنّه كل ما في كونه فيكا

لا تَرْمِيَنَّ بشيء أنت تجهلُه ... ولا بكلّ خطاب لا يُؤاتيكا

إن الإلٰهَ لهُ مكرٌ بطائفة ... من خلقه فتَحَقَّقْ في معانيكا

ولا تقولنّ هذا ليس يدخلُ في ... ميزانِ عقلِ فجَاريهِ يُجَاريكَا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أنه ما في القرآن دليل أدل على أن الإنسان الكامل مخلوق على الصورة من هذا الذكر لدخول اللام في قوله: وللرسول، وفي أمره تعالى لمن آيه به من المؤمنين بالإجابة لدعوة الله تعالى ولدعوة الرسول، فإن الله ورسوله ما يدعونا إلا لما يحيينا به، فلتكن منا الإجابة على كل حال إذا دعانا فإنه ما نكون في حال إلا منه، فلا بدّ أن نجيبه إذا دعانا فإنه الذي يقيمنا في أحوالنا، وإنما فصل هنا بين دعوة الله ودعوة الرسول لنتحقق من ذلك صورة الحق التي رسول الله ﷺ عليها وهو الداعي في الحالتين إيانا، فإذا دعانا بالقرآن كان مبلغاً وترجماناً وكان الدعاء دعاء الله فلتكن إجابتنا لله والإسماع للرسول، وإذا دعانا بغير القرآن كان الدعاء دعاء الرسول ﷺ فلتكن إجابتنا للرسول ﷺ، ولا فرق بين الدعاءين في إجابتنا، وأن تميز كل دعاء عن الآخر بتميز الداعي، فإن رسول الله ﷺ يقول في الحديث: «**لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئاً عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الخَبَرُ عَنِّي فَيَقُولُ: اتْلُ عَلَيَّ بِهِ قُرْآناً إِنَّهُ وَالله لَمِثْلُ القُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ**» فقوله أو أكثر مثل ما قال أبو يزيد: بطشي أشد، فإن كلام الله سواء سمعناه من الله أو من الرسول هو كلام الله، فإذا قال الله على لسان عبده: ما يبلغه الرسول فإنه لا ينطق عن الهوى فإنه أكثر بلا شك لأنا ما سمعناه إلا من عين الكثرة وهو من الرسول أقرب مناسبة لأسماعنا للتشاكل، كما هو من الله أقرب مناسبة لحقائقنا، فإن الله أقرب إلينا من الرسول لا بل أقرب إلينا منا فإنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وغاية قرب الرسول في الظاهر المجاورة بحيث أن لا يكون بيننا مكان يكون فيه شخص ثالث فيتميز في الرسول بالمكان وبما بلغ بالمكانة، ونتميز عن الله بالمكانة فإنه أقرب إلينا منا ولا أقرب إلى الشيء من نفسه، فهو قرب نؤمن به ولا نعرفه بل ولا نشهده، إذ لو شهدناه عرفناه، فإذا دعانا الله منا فلنجبه به لا بد من ذلك، وإذا دعانا بالرسول منا فلنجبه بالله لا به فنحن في الدعاءين به، وله

وللرسول، ولينظر المدعوّ فيما دعي به فإن وجده حياة علمية زائدة على ما عنده يحيا بها في نفس الدعاء وجبت الإجابة لمن دعاه الله أو دعاه الرسول، فإنه ما أمر بالإجابة إلا إذا دعاه لما يحييه، وما يدعوه الله ورسوله لشيء إلا ما يحييه، فلو لم يجد طعم الحياة الغريبة الزائدة لم يدرِ من دعاه، وليس المطلوب لنا إلا حصول ما نحيى به ولهذا سمعنا وأطعنا، فلا بد من الإحساس لهذا المدعو بهذا الأثر الذي تتعين الإجابة له به، فإذا أجاب من هذه صفته حصلت له فيما يسمعه حياة أخرى يحيى بها قلب هذا السامع، فإن اقتضى ما سمعه منه عملاً وعمل به كانت له حياة ثالثة، فانظر ما يحرم العبد إذا لم يسمع دعاء الله ولا دعاء الرسول والوجود كله كلمات الله، والواردات كلها رسل من عند الله، هكذا يجدها العارفون بالله، فكل قائل عندهم فليس إلا الله، وكل قول علم إلهي، وما بقيت الصيغة إلا في صورة السماع من ذلك، فإنه ثم قول امتثال شرعاً وقول ابتلاء فما بقي إلا الفهم الذي به يقع التفاضل، فاقتصر علماء الرسوم على كلام الله المعين المسمى فرقاناً وقرآناً، وعلى الرسول المعين المسمى محمد ﷺ، والعارفون عمموا السمع في كل كلام فسمعوا القرآن قرآناً لا فرقاناً، وعمموا الرسالة بالألف واللام التي في قوله وللرسول عندهم للجنس والشمول لا للعهد، فكل داع في العالم فهو رسول من الله باطناً ويفترقون في الظاهر، ألا ترى إبليس وهو أبعد البعداء عن نسبة التقريب وكذلك الساحر بعده كيف شهد لهم بالرسالة وإن لم يقع التصريح فقال في السحرة ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ولا معنى للرسالة إلا أن يكون حكمها هذا وهو إذن الله، وقال في إبليس في إثبات رسالته: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣]. ثم عرفنا الله سبحانه ما أرسله به فقال: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤] وهذه الأحوال كلها عين ما جاءت به الكمل من الرسل عليهم السلام الذين أعطوا السيف، فسعد العارف بتلقي رسالة الشيطان ويعرف كيف يتلقاها ويشقى بها آخرون وهم القوم الذين ما لهم هذه المعرفة، ويسعد المؤمنون كلهم والعارفون معهم بتلقي رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ويكون العامل بما جاء في تلك الرسالة أسعد من المؤمن الذي يؤمن بها عقداً وقولاً، ويعصي فعلاً وقولاً، فكل متحرك في العالم منتقل فهو رسول إلهي كان المتحرك ما كان، فإنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه سبحانه، فالعارف ينظر إلى ما جاءت به في تحركها فيستفيد بذلك علماً لم يكن عنده، ولكن يختلف الأخذ من العارفين من هؤلاء الرسل لاختلاف الرسل، فليس أخذهم من الرسل أصحاب الدلالات سلام الله عليهم كأخذهم من الرسل الذي هم عن الإذن من حيث لا يشعرون، ومن شعر منهم وعلم ما يدعو إليه كإبليس إذا قال لصاحبه اكفر فيتلقاه منه العارف تلقياً إلهياً فينظر إلى ما أمره الحق به من الستر فيستره، ويكون هذا الرسول الشيطان المطرود عن الله منبهاً عن الله، فيسعد هذا العارف بما يستره وهو غير مقصود الشيطان الذي أوحى إليه والذي هو غير العارف يكفر بالذي يقول له اكفر، فإذا كفر يقول له الشيطان: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] فشهد الله للشيطان بالخوف من الله رب العالمين في دار التكليف وبالإيمان به، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها لأنها موطنهما الواحد خلق منها وهو الشيطان والآخر خلق لها وإن كان فيه منها فسكناها بحكم الأهلية وعذبا فيها بحكم الجريمة ما شاء الله، فالعالم كله عند العارف رسول من الله إليه وهو ورسالته أعني العالم في حق هذا العارف رحمة، لأن الرسل ما بعثوا إلا رحمة، ولو بعثوا بالبلاء لكان في طيه رحمة إلهية لأن الرحمة الإلهية وسعت كل شيء فما ثم شيء لا يكون في هذه الرحمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] فلا تحجر واسعاً فإنه لا يقبل التحجير، قال بعض الأعراب: يا رب ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً والنبي ﷺ يسمعه فقال النبي ﷺ: يا هذا لقد حجرت واسعاً يعني حجرته قولاً وطلبة، فإذا كان عند العارف مثل هذا كلام الله يأخذه في الرحمة الخاصة التي يناسب الله بها بين هذا القائل وبين محمد ﷺ فشرك الرسول هذا الأعرابي في الرحمة التي يرحمه الله بها غيره فإن الغير ما له تلك المناسبة الخاصة، فإن الرسول له مناسبة بكل واحد واحد من الأمة التي بعث إليها فآمنت به فهو مع كل مؤمن من أمته بمناسبة خاصة يعينها ذلك المؤمن، فإن المتبوع في نفسه لكل تابع إياه منزلة يتميز بها عنده عن غيره، وهذا القدر كافٍ في هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي عشرين وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]

[نظم: البسيط]

إنّي أغارُ على قَلْبي فأسْألُهُ ... أن لا يزاحِمَهُ خَلْقٌ من البَشَرِ

فيه فإن لنا قلباً يَهِيمُ به ... في كل حال من التَّنْزيهِ والصُّوَرِ

لما سمعتُ نداءَ الحَقّ من قلبي ... أجَبْتُهُ حَذَراً من حاكم الغِيَرِ

فقلتُ ماذا فقال الحقُّ قلت له ... ماذا تريد فقال الحَذْرَ من الحَذَرِ

فعِشْتُ في طِيبِ نَفْسٍ حيث كنت فما ... أخافُ من وَقْعِ آفاتٍ ولا ضَرَرِ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الذكر لما وفقنا الله تعالى لاستعماله بإشبيلية من بلاد الأندلس سنة ست وثمانين وخمسمائة بقينا فيه ثلاثة أيام فرأينا له بركة في تلك الأيام وكتابه ثلاثة: أنا وعبد الله النزهوني قاضي شرف وكان عبداً صالحاً ضابطاً فقيهاً، وشخصاً ثالثاً من أهل البلد، فجعل علة الإجابة السماع لا من قال إنه سمع وهو لم يسمع كما قال تعالى ينهانا أن نكون مثل هؤلاء فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] فالسمع في هذا الذكر هو عين العقل لما أدركته الأذن يسمعها من الذي جاء به المترجم عن الله تعالى وهو الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فإذا علم ما سمع كان بحسب ما علم فإن العلم حاكم قاهر في حكمه لا بد من ذلك، وإن لم يكن كذلك فليس بعلم، فما عصى الله قط عالم يعلم بالمؤاخذة على إتيانه المعصية، ولابد من العلم بكونها

معصية في الحكم الإلهي وذلك حظ المؤمن وليس إلا رجلان: قائل بإنفاذ الوعيد فيمن مات على غير توبة، وقائل بغير إنفاذ الوعيد فيمن مات على غير توبة، بل هو في مشيئة الله إن شاء غفر وإن شاء آخذ، وما ثم مؤمن ثالث لهذين، وكلاهما ليس بعالم بالمؤاخذة في حق شخص حي ما لم يمت، فإن القائل بإنفاذ الوعيد يقول بإنفاذه فيمن مات ولم يتب وهو يرجو التوبة ما لم يمت، فليس بعالم بالمؤاخذة على هذه المعصية فإنه لا يعلم أنه يموت على توبة أو على غير توبة، والذي لا يقول بإنفاذ الوعيد لا يعلم ما في مشيئة الحق، فما عصى إلا من ليس بعالم بالمؤاخذة، وأما من كشف له عن المقدور قبل وقوعه فقد علم ما له وعليه، ومن له هذا الحال وهذا المقام فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقد كان ممن سمع قول الله له إيماناً أو عياناً: اعمل ما شئت فقد غفرت لك، وهذا ثابت شرعاً.

وهنا سر لمن بحث عليه وهو أنه من هذه حالته، فما عصى الله لأنه ما عمل إلا ما أبيح له من العمل، والثاني المغفور له فقد سبقت المغفرة ذنبه فما أبصر ذنبه إلا ممحوّاً بخير عظيم يقابل ذلك الذنب، فعلى كل حال وإن جرى عليه لسان ذنب ومعصية فما جرى عليه حكم ذلك، وليس المعتبر إلا جريان الحكم على فاعل تلك المعصية، فما عصى الله عالم بالمؤاخذة، وقد دعانا الله لما خلقنا له من عبادته فسمعنا ولما سمعنا استجبنا، فأخبر الله عنه بسرعة الإجابة لما ذكرها ببنية الاستفعال، وفي هذا الذكر شمول رحمة الله بخلقه، فأخبر أنه ما استجاب إلا من سمع فوجد العذر من لم يسمع كما وجد العذر من لم تبلغه الدعوة الإلهية، فحكمه حكم من لم يبعث الله إليه رسولاً وهو تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وما هو رسول لمن أرسل إليه حتى يؤدي رسالته فإذا سمع المرسل إليه أجاب ولا بد كما أخبر الله تعالى عنه لما جاء به هذا الرسول في رسالته، فإذا رأينا من لم يجب علمنا بإخبار الله أنه ما سمع فأقام الله له حجة يحتج بها يوم يجمع الله الرسل فيقول: ماذا أجبتم؟ فتقول الرسل عليهم السلام: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب، فعلمنا من قولهم أن العلم بالإجابة من علوم الغيب، فعلمنا أن السماع غيب، فلا يعلم من أجاب إلا من هويته غيب وليس إلا الله وما أقام الله العذر عن عباده إلا وفي نفسه أن يرحمهم، فرحم بعض الناس بما أسمعهم فاستجابوا لربهم وأقاموا الصلاة التي حكم الله فيها بالقسمة بينه وبين عبده، ومن لم يستجب اعتذر الله عنه بأنه لم يسمع، وهذا من حكم الغيرة الإلهية على الألوهة أن يقاومها أحد من عبادها بخلاف ما دعت إليه، إذ لو علم أنهم سمعوا وما استجابوا لعظمهم في أعين الناس وجعلهم في مقام المقاومة له، يعني لما علم السابق علمه فيهم أنه لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون فستر علمه فيهم بأن قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] وقال: ولو شاء الله لأسمعهم فأكذبهم في قولهم سمعنا فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] فلو سمعوا استجابوا فإن الله أعز وأجل من أن يقاومه مخلوق. ألا تراه يقول في حق من سمع من النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ فوصفهم بأنهم يسمعون، ثم ذكر ما كان منهم حين سمعوا فقال: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] فأخبر أنهم آمنوا وأخبر أنه تعالى أثابهم على إيمانهم بما ذكر في الآيات، فلا تقل فيمن لم يجب أنه سمع فتخالف الله فيما أخبر عنهم. وقد أخبر الله تعالى عنهم أن بهم صمماً، وأخبر عنهم أنهم قالوا في آذاننا وقر، فطابق قولهم في آذاننا وقر قول الله إنهم صم فلم يسمعوا فلم يرجعوا فإنهم لم يعقلوا ما سمعته آذانهم، وما سمع من سمع منهم إلا دعاء ونداء وهو قوله: يا فلان وما سمع أكثر من ذلك، فما أعظم رحمة الله بعباده وهم لا يشعرون، بل رأيت جماعة ممن ينازعون في اتساع رحمة الله وأنها مقصورة على طائفة خاصة فحجروا وضيقوا ما وسع الله، فلو أن الله لا يرحم أحداً من خلقه لحرم رحمته من يقول بهذا، ولكن أبى الله إلا شمول الرحمة، فمنا من يأخذها بطريق الوجوب وهم الذين يتقون ويؤتون الزكاة الذين يؤمنون ويتبعون الرسول النبيّ الأميّ، ومنا من يأخذها بطريق الامتنان من عين المنة والفضل الإلهي.

ووالله ما أنا بحمد الله ممن يحب التشفي والانتقام من عباد الله، بل خلقني الله رحمة وجعلني وارث رحمة لمن قيل له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وما خص مؤمناً من غيره وتحقق ذلك في وضع الجزية على أهل الكتاب، وما كان السبب في إنزال هذه الآية إلا دعاءه بالمؤاخذة الإلهية على المشركين من رعل وذكوان وعصية، وإذا كان هذا عتبه لرسوله ﷺ في حق المشرك الذي أخبر أنه لا يغفر له فكيف الأمر في غير المشرك وإن لم يؤمن؟ فافتح عين فهمك لما تقرؤه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وهو أن يزيدك في فهمك، فكلما كرّرت تلاوة زدت علماً لم يكن عندك، وكلما نظرت واعتبرت تزيد علماً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والعشرون وخمسمائة

في معرفة قطب كان منزله:

﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]

[نظم: الخفيف]

اتَّقُوا الله يا أُولي الألبابِ ... من عُلُوم عَلامُها في تَبابِ

لا تُفَكِّرْ في ذاته فهو جَهْلٌ ... والْتَزِمْ ما تراه خَلْفَ البَابِ

من نُعُوتٍ تَبْدُو به وصِفَاتٍ ... هنّ حجابُها وعَيْنُ الحِجَابِ

ما دَرَى من يقول بالفكر فيها ... أنّها لا تُنَال بالألبابِ

فالذي قال إنه قد حَوَاهُ ... لم يزل منه تائهاً في إيابِ

اعلم وفقنا الله وإياك أن مثل هذا قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] وهو الذي يواري من اللباس ما يستر ويمنع من الضرر وهو ما زاد على الريش، فالتقوى في اللباس وفي الزاد ما يقي به الرجل وجهه عن السؤال غير الله، وكذلك في اللباس ما يقي به الإنسان برد الهواء وحرّه ويكون ستراً لعورته وهو قوله: ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] وليس

إلا ما يسوءكم ما ينظر إليه منكم هذا الذكر جاء بلفظ الزاد وورد الأمر به، فأعلمنا أنا قوم سفر نقطع المناهل بالأنفاس رحلة الشتاء والصيف لنطعم من جوع ونأمن من خوف، لأنه ما زاد على وقايتك فما هو لك وما ليس لك لا تحمل ثقله فتتعب به، وأقلّ التعب فيه حسابك على ما لا يحتاج إليه فلماذا تحاسب عليه؟ هذا لا يفعله عاقل ناصح لنفسه، فما ثم عاقل لأنه ما ثم إلا من يمسك الفضل ويمنع البذل والمسافر وماله على قلة، فإنه ما من منهلة يقطعها ولا مسافة إلا وقطاع الطريق على مدرجته من الجنة والناس. ويدخل في الجنة الخواطر النفسية فتقطع بهذا المسافر عن معالي الأمور وأصغر المسافات وأقربها أشقها عليه وهو ما بين النفسين، فمن كانت مسافاته أنفاسه كان في أشق سفر، لكنه إذا سلم عظمت أرباحه وأمن الخسارة في تجارته، فإنهم في سفر تجارة منجية من عذاب أليم بضائعهم الإيمان والجهاد، فالإيمان بضاعة تعم النفائس المضنون بها، والجهاد يعم جميع ما جهزنا الله به من بضائع التكليف، والرسل عليهم السلام هم السماسرة في البيع والشراء، والصحف والكتب المنزلة هي الوثائق المكتوبة بين البائع والمشتري، وأخبر الله تعالى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم يعني الأنفس الحيوانية هي التي اشتراها من النفوس الناطقة المكلفة بالإيمان وأموالهم وهو شرى البرنامج فالمشتري بالخيار عند حضور البضائع، فإن وافقت ما في البرنامج مضى البيع وصح الشراء، وإن لم يوافق فالمشتري بالخيار إن شاء وإن شاء، فإن هلك في سفره في الطريق كان في كيس البائع لا في كيس المشتري، وهذ السوق نفاق إلا أن الطريق خطر جداً لكثرة القطاع فيه، فقطاع طريق السفر في المعقولات الشبه، وقطاع طريق السفر في المشروعات التأويل لا سيما في المتشابهات، ولا يخلو المسافر أن يكون في هذين الطريقين أو في أحدهما، فمن لا تأويل له ولا شبهة فليس بمسافر بل هو في المنزل من أوّل قدم فيمرّ عليه المسافرون وهو ما يعرض الله عليه من أحوال عباده، فهو كتاجر الدكان تأتيه البضائع من كل جانب، كما هم أهل مكة تجبى إليهم ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه سبحانه وأكثرهم لا يعلمون ذلك، فتاجر الدكان لا يحتاج إلى زاد لأنه يسافر إليه ولا يسافر، وليس إلا العارفون ترد عليهم الأنفاس ثم تخرج عنهم تلك الأنفاس فهي لهم كعرض المتاع على تاجر الدكان فيأخذ منها ما شاء ويترك ما شاء، لأن الأنفاس قد ترد على العارف بما هو محمود، وهي البضائع التي لا عيب فيها المثمنة خيار المتاع ونقاوته ومذموم وهي البضائع المعيبة التي نقص ما فيها من العيب ما كانت تستحقه من الثمن لو سلمت منه، وهي البضائع الوخش شرّ المتاع، فانظر أي تاجر تريد أن تكون.

ثم إن المسافرين من التجار الذين أمرهم الله بالزاد الذي لا يفضل عنهم بعد انقضاء سفرهم منه شيء بل يكون على قدر المسافة فهم على ثلاثة أصناف: صنف منهم يسافر براً، وآخر يسافر بحراً، وآخر يسافر براً وبحراً بحسب طريقه، فمسافر البحر بين عدوّين نفس الطريق وما فيه، ومسافر البر ذو عدو واحد، والجامع بينهما في سفره ذو ثلاثة أعداء، فمسافر البحر أهل النظر في المعقولات ومن النظر في المعقولات النظر في المشروعات، فهم بين عدوّ شبهة

وهو عين البحر، وبين عدوّ تأويل وهو العدوّ الذي يقطع في البحر، ومسافر البرّ المقتصرون على الشرع خاصة وهم أهل الظاهر، والمسافر الجامع بين البرّ والبحر هم أهل الله المحققون من الصوفية أصحاب الجمع والوجود والشهود، وأعداؤهم ثلاثة: عدوّ برهم صور التجلي، وعدوّ بحرهم قصورهم على ما تجلى لهم أو تأويل ما تجلى لهم لا بد من ذلك، فمن سلم من حكم التجلي الصوري ومن القصور الذي يناقض المزيد ومن التأويل فيما تجلى لهم فقد سلم من الأعداء وحمد طريقه وربحت تجارته وكان من المهتدين، فهذا وأمثاله يعطيه هذا الذكر وهو ذكر الالتباس من أجل ذكر التقوى لما في ذلك من تخيل تقوى الله، ولهذا أبان الله عن تلك التقوى ما هي وفصل بينها وبين تقوى الله فقام في تمام الآية: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلۡأَلۡبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧] وجعل المجاور لهم في تقوى الله ليس عليكم جناح برفع الحرج والسؤال فيما تزودوه في سفرهم من التقوى فإنه فضل على تقوى الله فإن الأصل تقوى الله فقال: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُوا۟ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨] وهو التجارة مع علمك بأنه زاد التقوى، وهذا القدر كافٍ فإن المجال فيه واسع، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والعشرون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَـٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١]

[نظم: البسيط]

إن القُلُوبَ مع الخَيرات في وَجَلِ ... وإنّها عندما تلقاه في خَجَلِ
فيسرعُ العَبْدُ في مرضاة سَيِّدِهِ ... لكونه خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلِ
فالطَّبْعُ يسرعُ والأفكارُ تُسْعِدُهُ ... فما يُرَى أبداً يمشي على مَهَلِ
إن السَّبَاقَ لَمِنْ شَأنِ الرجال فمن ... أَرْبَى على أحد أَرْبَى على رَجُلِ

قال الله تعالى في الورثة: ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] فالضمير من هو يعود على السبق الذي يدل عليه اسم الفاعل. اعلم أن السبب الموجب لوجلهم قول الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وجعل هنا ما بمعنى الذي ثم جاء بأتوا بعد ما وكلامه صدق فأدركهم الوجل إذ قطعوا أنهم لا بد أن يقوم بهم الدعوى فيما جاؤوا به من طاعة الله، فيكشف الله لهم إذا خافوا ووجلوا من ذلك، وتبديل الله لفظة ما التي بمعنى الذي بلفظه ما النافية مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [الأنفال: ١٧] هكذا يكون كشفه هنا للوجل ما يؤتون الذي أتوا به ولكن الله تعالى أتى به فأقامهم مقام نفسه فيما جاؤوا به من الأعمال الصالحة، ثم نظروا في ذكرهم للتعليل وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فيما أتوا به مع كون الله وصفهم بأنهم الذي أتوا به، فانظر ما أدق نظرهم في السبب الذي جعل في قلوبهم الوجل، ثم تمموا الذكر كما

علمهم الله أولئك إشارة إلى هؤلاء الذين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦٠] والإسراع لمن أتى هرولة فافهم، فهم يسارعون في الخيرات بالحق وهم لها سابقون أي يسبقونها ويسبقون إليها فالخيرات ثلاثة: خيرات يكون السباق والمسارعة فيها، وخيرات يكون السباق بها، وخيرات يكون السباق إليها وهي قوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ [الحديد: ٢١] و ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

والسرعة في السباق لا بد منها لأن السباق يعطي ذلك وهو فوق السعي فإتيانهم بسرعة والزائد على السعي ما هو إلا هرولة وهي نعت إلهي، وإذا انفرد الحق بنعت كان له فما يأخذه العبد إلا معار الكون الحق لايشارك في شيء أضافه إلى نفسه، وما لم يذكر بإضافة إلى الله فلك فيه التصرف إن شئت أضفته إلى الله تعالى وإن شئت أضفته إليك، فإن تقدم لك إضافة ذلك إلى الله حرم عليك أن تضيفه بعد ذلك إلى نفسك، فإن صورته في ذلك صورة ما أضافه الحق إلى نفسه، فسواء كان ذلك منه ابتداء أو قال ذلك على لسان عبده، فإن الله عند لسان كل قائل بما يقول كما هو قائم على كل نفس بما كسبت، فأنت الكتاب المشار إليه في قوله: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [المؤمنون: ٦٢] وأنت الناطق فإنه الفصل المقوّم لك في حدك وما أحسن قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢] حيث عرفنا بأننا الكتاب الذي ينطق بالحق وشرفنا بأنا لديه ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النحل: ٩٦] فلنا البقاء بما نحن لديه على هذه الصفة التي وصفنا الله بها من النطق بالحق، فإنا بالله ننطق والله يقول على لسان عبده ما ينطقه به: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وهو القائل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقد وسعت الحق الذي ضاق عنه الأرض والسماء وهو سبحانه لا يثقله شيء وإنما نعته بالتكليف لأنه على كل حال محل جلال للحق به ينطق ويسمع ويبصر ويسعى ويبطش، فقبول الزائد تكليف والوسع في إعطاء كل شيء حقه: [مجزوء الرجز]

فكُنْ به حتى يَكُنْ ... إن لم تَكُنْ فلا يَكُنْ
فأنت خَلاّقٌ له ... وأنت مخلوقٌ بكُنْ
إنَّ الحَديثَ لم يَسَغْ ... إلا الحَدِيثَ المُسْتَكِنْ
فما اسْتَكَانُوا للذي ... قال اسْتَكِينُوا فاسْتَكَنْ
فللإلٰه ما سَكَنْ ... وَهُوَ لنا نِعْمَ السَّكَنْ

فالحمد لله على ما أولى، وله الحمد في الآخرة والأولى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والعشرون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠]

[نظم: الوافر]

مَقَامُ الرَّبِّ ليس له أمانُ ... يدلُّ عليه ما يعطي العَيَانُ

فخَفْهُ لأنه خَطَرٌ وفيه — إذا ما خفْتَهُ حالاً أمانُ
ونَفْسَكَ فانْهَهَا عن كل أمْرٍ — يضيقُ لهَوْلِهِ منك الجَنَانُ
فلا تُعْتِبْ زماناً أنت فيه — فأنت هو المُعاتَبُ والزّمانُ
ولا تَعْمُرْ مكاناً لست فيه — فَرَبُّ الدار ليس له مكانُ
فأنت كهو فأنت له جليسٌ — ومُؤْنِسُكَ التَّعَطُّفُ والحنانُ
وفيها الخُلْدُ والحُورُ الحِسَانُ — لذاك يقال منزلُنا الجِنَانُ

اعلم أيدنا الله وإياك أن المقام الإلهي الرباني ما وصف به نفسه ولما علمه ﷺ حين أعلمه لذلك استعاذ به منه فقال: وأعوذ بك منك. اعلم أن كل مقام سيد عند كل ذي اعتقاد إنما هو بحسب ما ينشئه في اعتقاده في نفسه، ولهذا قال الله مقام ربه فأضافه إليه وما أطلقه، وما تجد قط هذا الاسم الرب إلا مضافاً مقيداً لا يكون مطلقاً في كتاب الله فإنه رب بالوضع والرب من حيث دلالته أعني هذا الاسم هو الذي يعطي في أصل وضعه أن يسع كل اعتقاد يعتقد فيه ويظهر بصورته في نفس معتقده، فإذا كان العارف عارفاً حقيقة لم يتقيد بمعتقد دون معتقد، ولا انتقد اعتقاد أحد في ربه دون أحد لوقوفه مع العين الجامعة للاعتقادات، ثم إنه إذا وقف مع العين الجامعة للاعتقادات كلها فيه، فيخاف أن يكون هذا القدر الذي اعتقده واحد مثل كل ذي اعتقاد في الرب، فيتخيل أنه مع الرب وهو مع ربه لا مع الرب مع كونه بهذه المثابة في تسريحه وعدم تقييده وقوله به في كل صورة اعتقاد وإيمانه بذلك فلا يزال خائفاً حتى يأتيه البشرى في الحياة الدنيا بأن الأمر كما قال، فهذا حد إطلاق العبد في الاعتقاد، ولو لم يكن الحق له هذا السريان في الاعتقادات لكان بمعزل ولصدق القائلون بكثرة الأرباب: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] في كل معتقد إذ هو عين كل معتقد. ثم نصب الله لهذا العارف دليلاً من نفسه بتحوّله في نفسه في كل صورة وقبوله في ذاته عند إنشاء كل صورة ينشها هذا المعتقد في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] نظر إشارة لا تفسير، فلولا قبولك عند تسويتك وتعديلك لكل صورة ما ثبت قوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ وقد صح وثبت هذا القول، فعلمنا أن له التجلي في صور الاعتقادات فلا ينكر، فكل من لم يعرف الله بهذه المعرفة فإنه يعبد رباً مقيداً منعزلاً عن أرباب كثيرة إذا اتصف نفسه لم يدرِ أي رب هو الرب الحقيقي في نفس الأمر من هؤلاء الأرباب الذي في نفس كل معتقد، ونهي النفس في هذا الذكر عن الهوى هو النهي عن تقييده بمعتقد خاص عن معتقد فإنه عابد هوى، ثم تمم الذكر في حق العارف الذي ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ كما قلنا ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] كما شرحنا ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١] يقول مقامه ستر هذا العلم بالله الذي حصل له فإنه مهما ظهر عليه كل صاحب اعتقاد مقيد أنكره عليه وجهله إن كان ذا نظر، وربما كفره إن كان ذا إيمان فلا يعرف ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ إلا من خاف مقام ربه غيره فلا يعرفه: [الطويل]

فكُنْ في أمان أن يقولَ بقَوْلِكُمْ — شُخَيْصٌ له في رَبّه الحَصْرُ والقَيْدُ

فمن يَعْتَقِدْ في الله ما قد شَرَحْتُهُ ... فذاك هو المَكْرُ الإلهيُّ والكَيْدُ
وكيف يَرَى التقييدَ من هو مُطْلَقٌ ... له البَدْءُ فيما شاءه الحَقُّ والعَوْدُ

فإطلاق العبد قبوله لكل صورة يشاء الحق أن يظهر فيها فما ظنك بخالقه الذي له المشيئة فيه وهو سبحانه في تحوّله في الصور لذاته غير مشيء لذلك، فإن المشيئة متعلقها العدم وهو الوجود فلا يكون مشاء لمشيئته بل لم يزل في نفسه كما تجلى لعبده فمشيئته إنما تعلقت بعبده أن يراه في تلك الصورة التي شاء الحق أن يراه فيها، فإذا رآها العبد التبس بها وركبه الحق فيها وهو قوله من باب الإشارة ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ من صور التجلي ﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] هذا في باب المعارف والاعتقادات، وفي باب الخلق في أي صورة من صور الأكوان ما شاء ركبك: [الرجز]

فَخَفْ مقامَ الرَّبِّ إنْ أَضَفْتَه ... ولا تَخَفْ منه إذا عَرَفْتَهُ
فلا يخافُ الرَّبَّ غيرُ مُقَيِّدٍ ... أَطْلَقْتَهُ إن شئتَ أو أَضَفْتَهُ
فإنّه عَيْنُ الذي تشهده ... فكُنْ به الموصوفَ إن وَصَفْتَهُ
لا تَقْتَصِرْ على الذي أَشْهِدْتَهُ ... ولا تَزِدْ في الكشف إن كَشَفْتَهُ
فكن به ولا تكن أيضاً به ... فذا هو الإنصاف إنْ أَنْصَفْتَهُ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والعشرون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩] [نظم: الوافر]

ولو أن البحارَ لنا مِدَادٌ ... وأشجارَ المِهَاد لنا يَرَاعُ
وجاء صَرِيفُها في اللَّوْح يَسْعَى ... وحَرَّكَنا لذلكمُ السَّماعُ
لما نَفِدَتْ له كلماتُ رَبِّي ... وساوى القاعَ في المَجْدِ اليَفَاعُ

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١] ليست كلمات الله سوى صور الممكنات وهي لا تتناهى، وما لا يتناهى لا ينفد ولا يحصره الوجود، فمن حيث ثبوته لا ينفد فإن خزانة الثبوت لا تعطي الحصر فإنه ليس لاتساعها غاية تدرك، فكلما انتهيت في وهمك في اتساعها إلى غاية فهو من وراء تلك الغاية، ومن هذه الخزانة تظهر كلمات الله في الوجود على التتالي والتتابع أشخاصاً بعد أشخاص، وكلمات أثر كلمات، كلما ظهرت أولاها أعقبتها بالوجود أخراها، والبحار والأقلام من جملة الكلمات، فلو كانت البحار مداداً ما انكتب بها سوى عينها وبقيت الأقلام والكلمات الحاصلة في الوجود ما لها ما تكتب به مع تناهيها بدخولها في الوجود، فكيف بما لم يحصره الوجود

من شخصيات الممكنات فهذا حكم الممكن، فما ظنك بالمعلومات التي الممكنات جزء منها؟ وهذا من أعجب ما يسأل عنه مساواة الجزء والبعض للكل في ا لحكم عليه بعدم التناهي مع معقولية التفاضل بين المعلومات والممكنات، ثم إنه ما من شخص من الأشخاص من المعلومات ولا من الممكنات إلا واستمراره لا يتناهى، ومع هذا يتأخر بعضه عمن تقدمه، فقد نقص عن تقدمه وفضل عليه من تقدمه وكل واحد لا يتصف في استمراره بالتناهي، فقد وقع الفضل والنقص فيما لا يتناهى، ووجود الحق ما هو بالمرور فيتصف بالتناهي وعدم التناهي فإنه عين الوجود، والموجود هو الذي يوصف بالمرور عليه، فالذي لا يتناهى المرور عليه وهو في عينه من حيث إنه موجود متناه لأنه على حقيقة في عينه متميز بها عمن ليست له تلك الحقيقة التي بها يكون هو وليست إلا عين هويته فهو الموجود، ولا يتصف بالتناهي، ولا يوصف أيضاً بأنه لا يتناهى لوجوده، فمن حيث إنه ينتهي هو لا ينتهي بخلاف حكم المحدثات في ذلك، ولا يعلم المحدثات ما هي إلا من يعلم ما هو قوس قزح، واختلاف ألوانه كاختلاف صور المحدثات، ثم أنت تعلم أنه ماثم متلوّن ولا لون مع شهودك ذلك كذلك شهودك صور المحدثات في وجود الحق الذي هو الوجود فتقول ثم ما ليس ثم لأنك لا تقدر أن تنكر ما تشهد وأنت تشهد كما لا تقدر أن تجهل ما أنت تعلمه وأنت تعلم، والمعلوم في هذه المسألة خلاف المشهود، فالبصر يقول ثم والبصيرة تقول ماثم، ولا يكذب واحد منهما فيما يخبر به، فأين كلمات الله التي لا تنفد وما ثم إلا الله، والواقف بين الشهود والعلم حائر لتردده بينهما، والمخلص لأحدهما غير حائر منحاز لمن يخلص إليه كان ما كان: [مجزوء الرجز]

والحَقُّ مُغْطٍ ذا وذا ... فخُذْ بِهِ هذا وذا
ولا تَكُنْ عن كلّ ما ... أعْطَاكَهُ مُنْتَبِذَا
ومن يكن يعرفُ ذا ... يكنْ إماماً جَهْبَذَا
فكلُّ من يقول ذا ... لا بدّ أن يقولَ ذا
بينهما يَبْدُو الذي ... يَضْرِفُهُ عن ذا وذا
وقال أقوامٌ بذا ... وقال أقْوامٌ بذا
فهكذا فلْتَعْرِفِ الأشـ ... ياءَ حَقّاً هكذا

فالوجود كله حروف وكلمات وسور وآيات، فهو القرآن الكبير الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] فهو محفوظ العين فلا يتصف بالعدم لأن العدم نفي الشيئية والشيئية معقولة وجوداً وثبوتاً وما ثم رتبة ثالثة، فإذا سمعت نفي شيئية فإنما ينفي النافي عن شيئية الثبوت شيئية الوجود خاصة، فإن شيئية الثبوت لا تنفيها شيئية الوجود، فقوله: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] هو شيئية الوجود لأنه جاء بلفظ تك وهي حرف وجودي فنفاه بلم، وكذلك ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والذكر وجود فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والعشرون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]

[نظم: البسيط]

إذا تَعَدَّتْ حُدُودَ الله أكوانُ ... فحُكْمُها يوم فَضْلِ الحُكْم خُسْرَانُ
فإنْ تَجَدَّدَ حكمٌ ليس يعرفُه ... غيرُ الإلـه ولا يَدْريه ميزانُ
فذاك وجودٌ إلهيٌّ أتاك به ... عنايةٌ من إلهِ الحَقِّ فُرْقَانُ
لولا الوجودُ ولولا سِرُّ حِكْمَتِهِ ... فيه لما ظهرتْ في الكون أعيانُ
هو الوجودُ ولكن ليس يَعْرِفُهُ ... وكيف يَدْري الكَمالَ الحَقَّ نقصانُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس الروح الأمين: [الرمل]

إن لله حدوداً تُعْرَفُ ... والذي يعرفُها لا يُصْرَفُ
ناظراً في حكمها مُتَّئداً ... عندها في كل حال يَقِفُ
فانْظُروا فيها عليها وقِفُوا ... وبحقّ الحقّ لا تَنْحَرِفُوا
تَجِدُوا السرَّ لديها علناً ... ولذا أهلُ التعدِّي عرفوا
ولهذا انتهكوا حُرْمَتَها ... وادَّعَوْا أنهم قد كَشَفُوا
ظلموا أنْفُسَهُم فانْحَجَبُوا ... عن مراد الله حين اعْتَرَفُوا
والترجِّي واقعٌ حيث أتى ... من كلام الله عنه فَقِفُوا
عند ما قلتُ به واتَّصِفُوا ... بالترجِّي مثل ما يَتَّصِفُ
أنه عند الذي ظُنَّ به ... فَلْتَظُنُّوا الخَيْرَ منه ولْتَفُوا

حدود الله أحكامه في أفعال المكلفين، فلا يتعدى منها حد إلا لحد آخر لغير حد إلهي لا يتعداه، ونفس تعديه إليه عين تعديه فيه، فيحكم في الأمور بغير حكم الله لا بد من ذلك فانظر ما أعجب هذا، وأحكام الله التي هي حدوده وجوب وحظر وكراهة وندب وإباحة، فكل متصرف بحركة وسكون فلا بد أن يكون تصرفه في واجب أو محظور أو مندوب أو مكروه أو مباح لا يخلو من هذا، فإن كان تصرفه في واجب عليه فعله بترك فقد تعدى حدود الله بتركه ما وجب عليه فعله فإن تركه على أنه ليس بواجب عليه فعله فقد تعدى في ذلك تعدي كفر، ولا بد أن يحكم فيه بغير حكم الله وينتقل فيه إلى حكم آخر من حكم الله لكن في غير هذا العين، فأباح ترك ما أوجب الله عليه فعله وترك ما حرم الله عليه تركه، وإن قال بوجوب الترك فيما قال الشرع فيه بوجوب الفعل فهذا تعدٍ عظيم فاحش واتباع هوى مضل عن سبيل الله، فالتعدي بالفعل والترك معصية والتعدي بالاعتقاد كفر، ومن قلب أحكام الله فقد كفر وخسر، وثم تعدٍ آخر لحدود الله وهو قلب الحقائق ويسمى المتعدي جاهلاً وتعديه جهلاً وهي الحدود الذاتية للأشياء، وإنما أضيفت إلى الله لأن العلم بها إنما حصل لنا من جانب الله

حيث أعطانا من القوة التي هي قوة العقل والنظر ما نصل بها إلى العلم بهذه الحدود، ولأن الأمور التي نحدها ما هي بأمر زائد على ما ظهر في المظاهر المعقولة والمحسوسة وما ظهر إلا الحق، وذلك الظاهر في العقل أو الحس هو الذي نحده وليس إلا الله فهي حدود الله. وقد تشترك المحدودات في أمور وتتميز بأمور، فما تميزت به من الفصول فهو حدها المميز لها عن الذي شاركها، وما وقع به الاشتراك والتميز كله حد لها، فمن تعدى هذه الحدود فقد ظلم نفسه بظلم يسمى جهلاً وقلباً للحقائق، وقلب الحقائق إما أن يقلبها عينها كلها وإما أن يقلبها من حيث فصولها المقومة لها، وكيف ما كان فقد تعدى حدود الله وجهل، فحد الخالق بما هو حد للمخلوق، فقلب الأمر في عينه كله، وقد حد الإنسان بالفصل المقوم للفرس فقد غلط وجهل بعضاً وعلم بعضاً فأولئك هم الجاهلون حقاً كما هو في تعدي الأحكام، أو ما جاء به الشارع إذا آمن ببعض وكفر ببعض هو الكافر حقاً وغلب الكفر على الإيمان، فإن ذهاب الفصل المقوم من المحدود عين ذهاب ماله من نصيب الاشتراك، فإن حيوانية الإنسان ما هي عين حيوانية الفرس بالنظر إلى شخصية ذلك المحدود، فلهذا يذهب الكل لذهاب البعض، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] و﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. وأما قوله في هذ الذكر: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، وذلك لأنا ما عرفنا من القوى الموجودة في الإنسان إلا قدر ما أوجد فيه، وربما في علم الله عنده أو في الإمكان قوى لم يوجدها الله تعالى فينا اليوم، حتى لو قيل للفرس عن القوة التي تميز بها الإنسان عنه أنكرها، وفي طريق الله ما يقوله أهل الطريق في إثبات المقام الذي فوق طور العقل وهي قوة يوجدها الله في بعض عباده من رسول ونبيّ وولي تعطي خلاف ما أعطته قوة العقل، حتى أن بعض العقلاء أنكر ذلك والشرع أثبته، ونحن نعلم أن في نشأة الآخرة قوى لا تكون في نشأة الدنيا ولا يحكم بها عقل هنا ولا تنال إلا بالذوق عند من أوجدها الله فيه وتحصل لبعض الناس هنا، فلا تعلم نفس ما أخفي لها فيها من قرة أعين، وفي الجنة ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فخرج عن طور العقل بتعيين أمر ما، وما خرج عن طور العقل بالإمكان إذ لا حكم للعقل فيما يعنيه الله من الأمور إلا الإمكان خاصة أو ما تتحير فيه، فلهذا جاءت كلمة لعل وهي كلمة ترج، وكل ترج إلهي فهو واقع فلا بد منه، فهذا هو الأمر الذي يحدثه في النشأة، وأما في الأحكام فمعلوم في العلم الرسمي إلى يوم القيامة فإن الرسول ﷺ لما قرّر حكم المجتهد لا يزال حكم الشرع ينزل من الله على قلوب المجتهدين إلى انقضاء الدنيا، فقد يحكم اليوم مجتهد في أمر لم يتقدم فيه ذلك الحكم واقتضاه له دليل هذا المجتهد من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس جلي، فهذا أمر قد حدث في الحكم إذا تعداه المجتهد أو المقلد له فقد ظلم نفسه، فهذا وأمثاله مما يعطيه هذا الذكر، وهذا القدر من الإشارة في هذا الذكر كافٍ إن شاء الله، فإن هذا الذي يعطيه هذا الذكر فيه تفصيل كثير وتمثيل نبهناك على المأخذ فيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والعشرون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]

[نظم: البسيط]

إنّ الـرُّكُـونَ إلـى الأغـيـار حِـرْمَـانُ ... فـي الـدِّيـن وهـو رُكُـونٌ فـيـه خُـسْـرانُ

نَـاطَ الـعَـذَابَ بـه شـرعٌ يـحـقّـقُـهُ ... ضِـعْـفَـيْـن قـلـبـي وإيـمـان وإحـسـانُ

هـذا لـمـن قـد رأى فـي ذاك مـصـلـحـةً ... فـكـيـف مـن حـالُـهُ زُورٌ وبُـهْـتـانُ

الله يـعـلـمُ أنّـي لا أقـول بـه ... ولـو تُـقَـطَّـعُ أوصـالٌ وأركـانُ

والله مـا كـان ذاك الـحـكـمُ إلا لـنـا ... كـالـشكّ والـشِّرْكِ يـقـضـي فـيـه بـرهـانُ

بـأن قـائـلـه ذو عِـصْـمَـةٍ ولـه ... عـلـى الـذي قـالـه فـي الله سـلـطـانُ

أنزل الله تعالى في مثل هذا بل في هذا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخر السورة وهي سورة تعدل ربع القرآن إذا قسم أرباعاً، كما أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن إذا قسم أثلاثاً، كما أن إذا زلزلت تعدل نصف القرآن إذا قسم قسمين. اعلم أن هذا الذكر يطلعك كشفاً على أعضاء التكليف منك وهي ثمانية أعضاء: القلب والسمع والبصر واللسان واليد والبطن والفرج والرجل، وما ثم تاسع وهي على عدد الجنات الثمانية، فيدخل العبد في عبادته من أي أبواب الجنة شاء، وإن شاء من الأبواب كلها في الزمن الواحد الفرد كأبي بكر الصديق رضي الله عنه دخل منها كلها في يوم واحد، وكما أنه في كل عضو عمل يخصه فلكل عمل نتيجة تخصه من الكون تسمى كرامة ينتجها حال ذلك العمل تناسب الكرامة العضو المكلف، وحال العمل الذي يختص بذلك العضو ويقع في عمل كل عضو تفصيل، وله أيضاً أعني العمل نتيجة تخصه من الحق تسمى منزلاً ينتجه مقام ذلك العمل يناسب ذلك المنزل عند الله العضو المكلف، وتفاصيل المقام الذي يختص بذلك العضو يفصل المنازل على اختلافها، وقد بينا ذلك كله في كتاب مواقع النجوم لنا وهو كتاب يقوم للطالب مقام الشيخ يأخذ بيده كلما عثر المريد ويهديه إلى المعرفة إذا هو ضلّ وتاه، ويعرفه مراتب الأنوار من هذا الذكر المقسمة على الأعضاء التي يهتدي بها وهي نور الهلال والقمر والبدر والكوكب والنار والشمس والسراج والبرق، وما يكشف بنور كل واحد من هذه الأنوار من الصفات التي تحصر الأسماء الإلهية، والذات كالحياة والعلم والإرادة والقدرة والكلام والسمع والبصر، والذات المنعوتة بهذه الصفات فلكل صفة نور من هذه الأنوار ويعرف الموازنات بين الأشياء الموزونة والمناسبات فلا يخفى عليه شيء فإنه نور كله وهو دعاء النبي ﷺ فقال: «**وَاجْعَلْنِي نُوراً**» وتعرف من هذا الذكر أرباب القوى وهي ثمانية القوى الخمسة الحسية والقوى العاقلة والفكرة والخيالية، وما عدا هذه القوى فكالسدنة لهذه الثمانية، كما أن هؤلاء الثمانية وإن كانوا أمهات ففيها ما منزلتها من غيرها منزلة السادن ومنزلة الأقليد، وما زال التفاضل في

الأنواع معلوماً، وكل ما ذكرناه في مواقع النجوم فإنه بعض ما يعطيه هذا الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والعشرون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]

[نظم: البسيط]

لله قَـوْمٌ وَفَـوْا بـمـا لـه خُـلِـقـوا	فـمـا مـضـى طَـبَـقٌ إلا بـدا طَـبَـقُ
فاصْبِرْ مع القوم نفساً ليس تَشْكُرُها	إلا إذا رُزِقْـتَ مـثـل الـذي رُزِقُـوا
مـن انـكـسـار ومـن ذُلٍّ ومَـتْـرَبَـةٍ	فـيـهـا روائـحُ مِـسْـكٍ نَـشْـرُهُ عَـبِـقُ
فـلا يَـغُـرَّنْـكَ أوصـافـي فـإن لـهـا	مـواطـنـاً وبـهـا الأقـوامُ قـد نَـطَـقـوا

اعلم أيدنا الله وإياك بما أيدهم به من الروح القدسي أن لله عباداً كانت أحوالهم وأفعالهم ذكراً يتقرب به إلى الله، وينتج من العلم بالله ما لا يعلمه إلا من ذاقه، فمن حبس نفسه مع هذا الذكر لحق بهم فإنه كل ما أمر الله به نبيه ﷺ ونهاه عنه هو كان عين أحوالهم وأفعالهم، مع كون هذه الطائفة الذي نزل فيهم هذا القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ فما نالوا ما نالوه إلا باتباعه وفهم ما فهموا عنه، ومع هذا عاتب الله تعالى نبيه ﷺ فيهم حتى كان رسول الله ﷺ إذا لقي أحداً منهم أو قعد في مجلس يكونون فيه لا يزال يحبس نفسه معهم ما داموا جلوساً حتى يكونوا هم الذي ينصرفون وحينئذٍ ينصرف رسول الله ﷺ، وكان ﷺ إذا حضروا لا تعدو عيناه عنهم، ويقول إذا جاؤوا إليه أو لقيهم مرحباً بمن عاتبني الله فيهم، ولما عرفوا بذلك كانوا يخففون الجلوس مع رسول الله ﷺ، والحديث لما علموا من تقييده بهم وصبره نفسه معهم، فمن لزم هذا الذكر فإنه ينتج له معرفة وجه الحق في كل شيء، فلا يرى شيئاً إلا ويرى وجه الحق فيه فإنهم ما دعوا ربهم بالغداة والعشيّ الذي هو زمان تحصيل الرزق في المرزوقين كما قال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وهو الصبوح والغبوق عند العرب فكان رزق هؤلاء بالغداة والعشيّ ما يحصل لهم من معرفة الوجه الذي كان مرادهم لأنه قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] يعني بذلك الدعاء بالغداة والعشي وجه الحق لما علموا أن ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فطاعوا ما يبقى وآثروه على ما يفنى، فإذا تجلى لهم وجه الحق في الأشياء ولهذا الذاكر بهذا الذكر لم تعد عيناه عن هذا الوجه ولا يتمكن أن تعدو عيناه عنه لأنه بذاته يقيد كل ناظر إليه، وإنما جاء بالنهي في هذا الذكر لأنهم ليسوا عين الوجه بل هم المشاهدون للوجه، فمن كان منهم قد حصل له تجلي الوجه وبقي معه هذا الذكر فإنما يريد بقاء شهود ذلك الوجه دائماً لما يعرف من

حال الممكن، وما ينبغي لجلال الله من الأدب معه حيث لا يحكم عليه بشيء، ولا بد وإن حكم هو بذلك على نفسه، هذا هو الأدب الإلهيّ. ومن لم يبد له بعد ذلك الوجه المطلوب فيطلب بدعائه ذلك الوجه المراد له، وعلى كل حال فلا تعد عينا رسول الله ﷺ عنهم إلى غيرهم ما داموا حاضرين، ومن هنا قال رسول الله ﷺ في صفة أولياء الله: «**هُمُ الَّذِينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله**» لما حصل لهم من نور هذا الوجه الذي هو مراد لهؤلاء، فإن الذي يتجلى له هذا الوجه لا بد أن يكون فيه أثر معلوم له ولا بد فمنه جليّ بحيث أن يراه الغير منه، ومنه خفي بحيث أن لا يراه منه إلا أهل الكشف أو لا يراه أحد وهو الأخفى، إلا أنه له في نفسه جلي لأنه صاحب الشهود، وحكم غير الأنبياء في مثل هذه الأمور خلاف حكم الأنبياء فإن الأنبياء وإن شاهدوا هؤلاء في حال شهودهم للوجه الذي أرادوه من الله تعالى بدعائهم وأنهم من حيث إنهم أرسلوا لمصالح العباد لا يتقيدون بهم على الإطلاق، وإنما يتقيدون بالمصالح التي بعثوا بسببها، فوقتاً يعتبون مع كونهم في مصلحة مثل هذه الآية ومثل آية الأعمى الذي نزل فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]، فإن رسول الله ﷺ ما أعرض عن الأعمى الذي عتبه فيه الحق إلا حرصاً وطمعاً في إسلام من يسلم لإسلامه خلق كثير، ومن يؤيد الله به الدين، ومع هذا وقع عليه العتب من حقيقة أخرى لا من هذه الجهة فمن ذلك قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥و ٦] فذكر الصفة ولم يذكر الشخص، والغنى صفة إلهية فما حادت عين رسول الله ﷺ إلا إلى صفة إلهية لتحققه ﷺ بالفقر، فأراد الحق أن ينبهه على الإحاطة الإلهية، فلا تقيده صفة عن صفة فليس شهوده ﷺ لغنى الحق في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] بأولى من شهوده ﷺ لطلب الحق في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وأين مقام الغنى من هذا الطلب؟ وقوله: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] فغار عليه سبحانه أن تقيده صفة عن صفة بل كان يظهر لأولئك من البشاشة عل قدر ما يليق بهم، ويظهر للأعمى من الفرح به على قدر ما تقع به المصلحة في حق أولئك الجبابرة، فإن التواضع والبشاشة محبوبة بالذات من كل أحد فإنها من مكارم الأخلاق، وما زال الله يؤدّب نبيه ﷺ حتى تحقق بالأدب الإلهي فقال: «**أَدَّبَنِي الله فَأَحْسَنَ أَدَبِي**»، فإن الله له نسبة إلى الأغنياء كما له نسبة إلى الفقراء، فالعارف ينبغي له أن لا يفوته من الحق شيء في كل شيء فما أحسن تعليم الله عباده، فنحن إذا فتح الله أعين بصائرنا وأفهامنا علمنا أن تعليم الله نبيه ﷺ الآداب مع المراتب أنا أيضاً مرادون بذلك التعليم، وننظره في النبيّ ﷺ كالمثل السائر: «إياك أعني فاسمعي يا جارة»، وإن كان هو ﷺ المقصود لله بالأدب فنحن أيضاً المقصودون لله بالتأسي به والاقتداء ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فكل خطاب خاطب به نبيه ﷺ مؤدّباً له فلنا في ذلك الخطاب اشتراك لا بد من ذلك، فانظر يا وليّ في هذا الذكر ماذا نتج من الخير الكثير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والعشرون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]

[نظم: البسيط]

إن القَبيحَ لأقسامٌ مُقَسَّمَةٌ عُرفِيَّةٌ والتي التشريعُ بَيَّنَها

فمن عفا عن مُسيءٍ نفسُه أَنِفَتْ عن الجزاء لأن السُّوءَ عَيَّنَها

فلا تكن بمَحَلٍّ للقبيح لأن الله بالصفة العلياء زَيَّنَها

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وإن كان له جميع الأسماء التي يفتقر كل فقير إلى مسماها، ولا فقر إلا إلى الله فإنه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [فاطر: ١٥] ومع هذا فلا يطلق عليه من الأسماء إلا ما يعطي الحسن عرفاً و شرعاً، ولذلك نعت أسماءه بالحسنى وقال لنا ادعوه بها ثم قال وصية لنا: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي يميلون في أسمائه إلى ما ليس بحسن، وإن كان في المعنى من أسمائه لكن منع أن يطلق عليه لما ناط به عرفاً أو شرعاً بأنه ليس بحسن وهنا قال: ﴿سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] فالسيئة الأولى سيئة شرعية صاحبها مأثوم عند الله، والسيئة الثانية الجزائية ليست بسيئة شرعاً وإنما هي سيئة من حيث إنها تسوء المجازى بها كالقصاص فيما لك أن تعفو عنه بهذا الشرط، فلما رأى أهل الله أنه تعالى أطلق على ذلك اسم سيئة وقال مثلها، ومن اتصف بشيء من ذلك فيقال فيه إنه مسيء على حد ما سمى تلك سيئة سواء فأنف أهل الله أن يكونوا محلاً للسوء فاختاروا العفو على الجزاء بالمثل نفاسة وتقديس نفس عن اسم لم يطلقه الله على نفسه كما أطلق الحسن ونبه على الزهد والترك للأخذ عليها بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ﴾ ولم يقل وجزاء المسيء فإن المسيء هو الذي يجازى بما أساء لا السيئة، فإن السيئة قد ذهب عينها وهي لا تقبل الجزاء ولو كانت موجودة، فإنها لو قبلت الجزاء لزال عينها، مثال ذلك أن الجرح الحاصل في الذي تعدي عليه فجرح إذا اقتص من الذي جرحه مثل ما تعدى عليه صار الآخر المجازى مجروحاً وما بريء الأوّل من جرحه، فلو قبلت السيئة جزاء لزال عينها منه ولا يزول، فلم يبقَ الجزاء إلا عين المكلف، فإن كانت السيئة فعل المكلف لا مفعوله فقد ذهب عين الفعل بذهاب زمانه فلا يقبل الجزاء لأنه قد انعدم فلم يبقَ إلا المحل المسيء، فأنزل المسيء منزلة السيئة وسمي بها وأضيف الجزاء إلى السيئة، فللمسيء حكم السيئة ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤] هذا من أقوم القيل، وإن كان القيل الإلهي كله قويماً ولكن فيه قويم وأقوم بالنسبة إلينا لأنا قد قدمنا ما من شيء يكون فيه كثرة أمثال إلا ولا بد فيه من التفاضل حتماً لأنه لا شيء فوق أسماء الله الحسنى، ومع هذا تتفاضل بالإحاطة وعدم الإحاطة، وينزل اسم إلهيّ عن اسم إلهيّ، ويعلو اسم إلهيّ على اسم إلهيّ، فالجزاء بالأمثال أبداً، وما خرج عن الوزن والمقدار

بالرجحان لا بالنقص فذلك خارج عن الجزاء، ولهذا يرجع الحق عليه بعدما كان له بخلافه في الخير والحسن، فإن الرجحان فيه فضيلة يثنى عليه بها، وما أحسن قول رسول الله ﷺ في صاحب التسعة فاسمع الوليّ وقد حكم له بالقصاص: «**أَمَا إِنَّهُ إِنْ قَتَلَهُ كَانَ مِثْلَهُ**» يعني قوله ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ فسمي قاتلاً بلا شك فتركه وعفا وهذا من السياسة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والعشرون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: ٥٨]

[نظم: البسيط]

إنّ الوِفَاقَ لَمِنْ طِيبِ الأصول لِمَا ... أَتَى به الله مما شاءه وَشَرَعْ

فمن أبى فلخُبْثٍ في طبيعته ... يَذْرِيه من يفتح الأبواب حين قَرَعْ

له بما في غيوب الطبْعِ من عَجَب ... من صُنْعِهِ في الذي أبداه حين صَنَعْ

كمن دعاه رسول الله حين دَعَا ... فجاءه بالذي قد كان قَبْلَ جُمَعْ

وجاءه غيره بِشَطْرِ ما كسبت ... يداه والكل فيما في يديه طَمِعْ

ولو أكون لما قلنا بقولهما ... وقلت عبد دعاه ربُّه فسَمِعْ

وبَادَرَ الأمْرَ لم ينظرْ إلى أحد ... ولا لمن ضَرَّ في تأخيره ونَفَعْ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن هذا الذكر كان لنا من الله عز وجل لما دعانا الله تعالى إليه فأجبناه إلى ما دعانا إليه مدّة، ثم حصلت عندنا فترة وهي الفترة المعلومة في الطريق عند أهل الله التي لا بد منها لكل داخل في الطريق، ثم إذا حصلت الفترة إما أن يعقبها رجوع إلى الحال الأوّل من العبادة والاجتهاد وهم أهل العناية الإلهية الذين اعتنى الله عز وجل بهم، وإما أن تصحبه الفترة فلا يفلح أبداً، فلما أدركتنا الفترة وتحكمت فينا رأينا الحق في الواقعة فتلى علينا هذه الآيات: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧] الآية ثم قال: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: ٥٨] فعلمت أني المراد بهذه الآية وقلت: ينبه بما تلاه علينا على التوفيق الأوّل الذي هدانا الله به على يد عيسى وموسى ومحمد سلام الله على جميعهم، فإن رجوعنا إلى هذا الطريق كان بمبشرة على يد عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام بين يدي رحمته وهي العناية بنا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف: ٥٧] وهو ترادف التوفيق ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ [الأعراف: ٥٧] وهو أنا ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [فاطر: ٩] وهو ما ظهر علينا من أنوار القبول والعمل الصالح والتعشق به، ثم مثل فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] يشير بذلك إلى خبر ورد عن النبي ﷺ في البعث أعني حشر الأجسام: مِنْ أَنَّ الله «**يَجْعَلُ السَّمَاءَ تُمْطِرُ مِثْلَ مَنِيِّ الرِّجَالِ**» الحديث، ثم قال: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ وليس سوى الموافقة والسمع والطاعة لطهارة المحل، والذي خبث

وهو الذي غلبت عليه نفسه والطبع وهو معتنى به في نفس الأمر لا يخرج إلا نكداً مثل قوله: «**إنَّ لله عِباداً يُقَادُونَ إلَى الجَنَّةِ بِالسَّلاَسِلِ**» وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] فقلنا طوعاً يا إلهنا.

واعلم أن الله تعالى لما خلق هذه النشأة الإنسانية لعبادته وأنشأها ابتداء في ضعف وافتقار فكانت عبادتها ذاتية، وما زالت على ذلك إلى أن رزقها الله القوّة وأظهر لها الأسباب الموجبة للقوّة إذا استعملتها واحتجب الحق من ورائها فلم تشاهد إلا هي وغابت عن الحق تعالى فلم تشهده فناداها سبحانه من خلف تلك الأسباب بما كلفها به من الأعمال، وسمى تلك الأعمال عبادة لتتنبه بذلك على أصلها فإنها لا تنكر عبوديتها لأن العبودة لها ذاتية ذوقاً، وبقي لمن مع معاينتها الأسباب التي تجد عندها دفع ضروراتها فهي تقبل عليها طبعاً وترى الذي دعاها إليه غيباً، فتعلم أن ثم ظاهراً و باطناً وغيباً وشهادة وتنظر في نفسها فتجدها مركبة من غيب وشهادة، وأن الداعي منها إلى الحاجة غيب منها، فإن تقوّت عليها مناسبة الغيب على الشهادة كانت البلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، فسارعت إلى إجابة الداعي وهي من النفوس الذين ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] لأنها رأت الأسباب مختلفة، وأي سبب حضر منها أغناها عن سبب آخر فعلمت أنها مفتقرة بالذات إلى أمر ما غير معين فتعتمد عليه وهي قد شاهدت الأسباب وعلمت قيام بعضها عن بعض وتستغني ببعضها عن بعض، ويغيب في وقت فلا يقدر عليه ويحضر في وقت، فخطر لها ما خطر لإبراهيم الخليل عليه السلام إني ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ورأت أيضاً أنها تخلق بعض أسبابها الموجبة استعمالها لدفع ضروراتها بما تتكلفه من الأعمال الموجبة لوجود ذلك السبب الذي تركن إليه فأنفت أن يتعبدها من له في وجوده افتقاراً إليها فأشبهها، فأرادت الاستناد إلى غنى لا افتقار له لعزة نفسها وشموخ أنفها وما جعل الله في طبعها من طلب العلوّ في الأرض والشفوف على الجنس فقالت: أجيب هذا الداعي الغائب حتى أرى ما هو فلعله عين ما أطلبه، فامتثلت أمر ما دعاها إليه وعملت عليه فأشرقت أرضها بنور ربها فكانت البلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، ونفس أخرى على النقيض منها رجحت الشهادة على الغيب وأعمتها الحاجة عن اختلاف الأسباب وقيام كل سبب عن الآخر وقالت: لعل هذا الغيب الذي دعاني إليه يكون مثل الشهادة كثيرين يغني الواحد منهم عن الآخر فأبقى على حالتي ولا أتعب ذاتي في مظنون فتثبطت عن إجابة الداعي، ثم إن الله بحكمته في وقت قطع عنها الأسباب كلها واضطرها، فلما لم تجد سبباً تستند إليه ظاهراً جنحت إلى ذلك الغيب الذي دعاها لعل بيده فرجاً يخرجها من الضيق الذي تجده فأجابته مضطرة وهو البلد الذي خبث فلا يخرج نباته إلا نكداً قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ فنبه على موضع انقطاع الأسباب ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ يعني الأسباب ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] فكان هو السبب الذي ينجي، فلما نجاه الله وأغاثه واستقل قال: هذا أيضاً من جملة الأسباب التي يقوم بعضها عن بعض فيما نريده فجعله واحداً من الأسباب وهو المشرك فما خرج إلا نكداً، ولهذا سارع في

الرجعة إلى السبب الظاهر فتميز الفريقان، وإنما كان فريقان في العالم بهذه المثابة لما حكم به الأصل، فإن الأصل فيه جبر واختيار، فبالاختيار لم يزل يسقط من الخمسين صلاة عشراً عشراً حتى انتهى إلى خمسة، وبعدم الاختيار أثبتها خمسة وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [قَ: ٢٩] وكان المجبر له ما أعطاه المعلوم فلم يتعدَّ علمه فيه، والذين يلجؤون فيه إلى الله في حال الاضطرار الكلي استنادهم من حيث لا يعلمون إلى هذا الأصل في الحكم، والفريق الآخر استناده إلى حكم الاختيار في أنه تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] فأهل الضرورة في الرجعة أحق، وأهل الاختيار في الرجعة أوفق وأسعد، فالذي خرج نكداً له من الأحوال الإلهية قوله تعالى: ما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض نسمة المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له من لقائي، يقول: لا بد أن أميته على كره مني وهو المعلوم الذي جعلني في هذا لأني علمت منه وقوع هذا، فلولا حصول العلم عنده من الممكنات كما هي في أنفسها عليه ما صح تردّد ولا فعل ما فعله أو بعض ما فعله على كره، فانظر فيما أعطاه هذا الذكر من العلم القريب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي ثلاثين وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]

[نظم: البسيط]

الجهلُ بالله عَيْنُ الجهل بي ولذا ... سترت نفسي عن مِثْلي وأشكالي

وقد علمتُ بأن الله يَنْظُرُني ... على الذي قال لا تُخْطِرْهُ بالبَالِ

فما الجوابُ إذا قال الجليلُ لنا ... لِمَ فعلتم فقلنا له الحكمُ للحال

الحال موهبة وأنت وَاهِبُها ... هلاَّ حَفِظْتَ وجودي حِفْظَ أمثالي

فلا تَلُمْني ولُمْ من أنت تعرفه ... وأنت تدريه ربّ القيل والقال

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الجهل بالله إنما كان من جهلك بك، فإن الله ما جعل دليلاً على العلم به إلا علمك بك فجعل الآية في نفسك، وقال النبي ﷺ المترجم عنه: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» وما أحسن ما قال تعالى: يستخفون من الناس فإنهم مجبولون على النسيان، ولا يستخفون من الله الذي لا يضل ولا ينسى، وكان الأولى لو صح عكس القضية، إلا أنه لا يصح أن يستخفي شيء عن الله، والسبب الموجب للاستخفاء عن الناس ما علموا منهم من الحب في ظهور التحكم فيهم بقدر الحال والاستطاعة، وبما فيهم من حب الثناء الحسن وطلب المحمدة، فإذا اطعلوا على هذا الذي أشرنا إليه من العمل سقطت حرمة العامل من قلب الذي يراه وقام عليه لسان الذم منه، وسبب ذلك الجنسية ومع كونه يعلم أن الله يحيط به علماً، لكن يرى هذا العامل أن الأسماء الإلهية تتحاور فيه في حال هذا العمل ولا سيما

الاسم الحليم والصبور، ويعلم أن الاختفاء منه محال فلا بد من إتيان ما أتى به، فإن كان مؤمناً أتاه على كره فأشبه قبض الحق بالموت نسمة المؤمن على كره فيجد في مثل هذا اتساعاً يجول فيه، حتى أنه ربما قال: فلي سوية الحق في ذلك، ولا يقول مثل هذا إلا غير أديب، ألا تراه يقول تعالى في تمام هذه الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨] ينبه أن هذا العمل الذي هو فيه قد أحطت علماً به من نفسي من حيث كرهت أشياء لا بد من أني أوجدها وأحببت أشياء، وإنما قال ذلك لإقامة عذر عبده المؤمن فإنه ما يكره فعل ما يستخفي منه ويستخفي بسببه إلا المؤمن بأن هذا لا يجوز عمله شرعاً، فالإحاطة من الله بالأشياء مثل الذوق فينا، وهو أن نعلم الأشياء منك أي أنك قد اتصفت بها ذوقاً، وكثير بين من يكون ذلك المعلوم حاله وبين من لا يكون فإنه ما هو منه على علم صحيح، وقوله من أنه مما لا يرضى من القول وهو الجهر بالسوء من القول فإن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول فإن الحكم بكونه سوءاً ما علم لا من القول، إذ لولا القول ما وصل علمه إلينا، فالقول بالسوء بطريق التعريف أنه سوء قول خير يحب الجهر به لأنه تعليم حتى لا يجهر به عند الاستعمال إذا قضى الله على المكلف استعمال هذا فما في الكون حكم ظاهر في عمل إلا وله مستند إلهي يستند إليه، وذلك المستند إليه إن كان خيراً زاد له في الأعطية أضعافاً مضاعفة، وإن كان شراً شفع فيه ذلك المستند وأقام عذره عند الله، فلهذا كان مآل العباد المكلفين إلى الرحمة التي وسعت كل شيء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والثلاثون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]

[نظم: البسيط]

العبدُ في الشَّانِ والرحمٰنُ في الشان ... وشأنُ ما هو فيه الحَقُّ من شاني
فينبغي لي أن أَفْنَى مَدَى عُمُرِي ... في شأنه فأجازي الشأن بالشانِ
لولاه ما نَظَرَتْ عيني إلى أحد ... لعلمنا أنه عَيْني وإنْسَاني
إني لأنْسَى وجودي عند رؤيته ... وما نسيتُ بل النسيانُ أنساني

هذا هجير لزمته سنين كثيرة حتى ما كنت أسمى إلا به مما كنت مستهتراً به متحداً، ورأينا له بركات لا أحصيها وهو الذي اطلعت منه على المراقبة، فكنت رقيباً على نفسي نيابة عن الله حين أمرها أن تكون على وصف خاص معلوم في الشرع المطهر المنزل على لسان المعصوم ﷺ، ورقيباً على آثار ربي فيما يورده على قلبي وفي جميع حركاتي وسكناتي، ورقيباً أيضاً على ربي بموازنة حده المشروع في عباده، فكنت أقيم الوزن بين أمره ونهيه وبين إرادته لأرى مواقع الخلاف ممن خالف والوفاق ممن وافق، وما جعلني في ذلك إلا ما شيب

رسول الله ﷺ وما هو عندي إلا قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] فإذا وافق الأمر الإرادة كانت الاستقامة كما أمر وحصل الوفاق، وإذا لم يوافق الأمر الإرادة وقع ما حكمت به الإرادة ولم يكن للأمر حكم في المأمور، وعلمنا عند ذلك ما هو الأمر الإلهي الذي لا يعصى ومن هو المخاطب، وما هو الأمر الإلهي الذي يعصى في وقت فلم نجده إلا الأمر بالواسطة، وهو على الحقيقة أمر لفظي صوري، فهو صيغة أمر لا حقيقة أمر، وأن المأمور بالأمر الإلهي الذي لا يعصى إنما هو المخاطب عين الممكن الذي توجه من الحق عليه الإيجاد بأن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ولا بد، فهذا هو الأمر الذي لا يعصيه المخاطب أصلاً، وإنما الإنسان المكلف هو محل ظهور هذا المكوّن، كما أن المكوّن محل التكوين فيقول للشهادة كن فتكون الشهادة وما لها محل إلا لسان الشاهد وهو القائل فنسب الشهادة إلى من ظهرت فيه ليس له فيها تكوين، وإنما التكوين فيها لله في هذا المحل الخاص، وهكذا جميع أفعال المكلفين، وكون ذلك الفعل طاعة أو معصية ليس عينه وإنما هو حكم الله فيه، فكنت أشاهد تكوين الأشياء في ذاتي وفي ذات غيري أعياناً قائمة ذاكرة لله مسبحة بحمده مع كونها ينطلق عليها اسم معصية وطاعة، فطلبت من الله مسمى المعصية هل له عين وجودية أو لا عين له؟ وهل بينه وبين مسمى الطاعة فرقان أم الحكم سواء؟ فإن الله لا يأمر بالفحشاء وما يتكوّن شيء إلا عن أمره فهل للمعصية تكوين أم لا؟ فاطلعنا على أن مسمى المعصية إنما هو ترك والترك لا شيء ولاعين له فوجدناها مثل مسمى العدم، فإنه اسم ليس تحته عين وجودية، فإن الشأن محصور في أمر لا يفعل أو نهي لا يمتثل وغير ذلك ما هو ثم. فإذا قيل لي: أقم الصلاة فلم أفعل فعصيت وخالفت أمر الله فما تحت قولي لم أفعل وخالفت إلا أمر عدمي لا وجود له، وكذلك في النهي إذا قيل لي لا تفعل كذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] فلم أمتثل نهيه، ومدلول لم أمتثل عدم لا عين له في الوجود لأنه نفي فاغتبت، ومعنى فاغتبت أي ظهر في محلي عين موجودة أوجدها الحق بالأمر التكوينيّ وهو القول الموجود في لساني على طريق خاص يسمى الغيبة، فامتثل ذلك المقول في لساني أمر سيده وموجده بالإيجاد، وما أضيف إليّ منه إلا كوني لم أمتثل نهيه، فانتفى عن محلي الامتثال، فما أخذت في الوجهين إلا بأمر عدمي وهو ترك الأمر والنهي، ولابد لي في كل نفس أن أكون في شأن وذلك الشأن ليس لي، فإن الشأن الظاهر في وجودي إنما هو لله وهو قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وفينا تظهر تلك الشؤون وأعياننا أيضاً من تلك الشؤون، والله شهيد على ما يخلق منا وفينا، وقوله: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١] هو ما جعل فينا من الإرادة الاختيارية في عين الجبر فإنا محل لما يخلق فينا، فالمكلف مجبور في اختياره، ثم خلق فينا المعنى الذي أوجب حكمه علينا أن نكون به مفيضين في ذلك الشيء المعبر عنه بالشأن، وما عرفنا بهذا الشهود منه إلا لنعلم صورة الأمر حتى نكون من أمرنا على بينة من ربنا، فإن ما أمر نبيه ﷺ إلا بطلب الزيادة من العلم، فإن العلم بالأمور سبب الحياة المزيلة لموت الجهالة والحياة نعيم، فالعالم والناصح نفسه من

لا ينسى الله في شؤونه ويكون مراقباً له تعالى عند شهوده فيرى ما يصدر عنه فيه وفي غيره في السماء والأرض والملأ الأعلى والأسفل، ثم يرى أنه جميع ما رأى من شؤونه بهوية الحق لا بصفة الحق، فرأى هويته تعالى عين صفته فما رآه إلا به، هذا أعطته هذه المراقبة، وهذا هو حكم الدهر الذي نهينا عن سبه فإن الله هو الدهر ليس غيره: [مجزوء الخفيف]

خُذْ من الدَّهْرِ ما صَفَا ... ودَعِ الدَّهْرَ يَحْكُمُ

إنّما الدهرُ ربُّنا ... العليُّ المُقَدَّمُ

حاكم بالذي يَرَى ... مُفْصِحٌ لا يُعْجِمُ

كلَّما قال كُنْ لشـ ... ـيء يكون المُكَلَّمُ

فتَأدَّبْ ولا تَقُلْ ... أنا بالأمر أعْلَمُ

فإلى الله أمْرُنا ... راجعٌ فلتسلموا

فهو بالأمر أعلمُ ... وهو للأمر أحْكَمُ

فقد بان لك الأمر بارتفاع الحجب وعرفت الحجب ومسمى الوفاق والخلاف، وعلمت من رأى وبمن رأيت ومن أنت وما هو طريق الوجود، فإنه سبحانه لا يقال فيه أن له ماهية وإن سئل عنه بما فالجواب بصفة التنزيه أو صفة الفعل لا غير ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]

[نظم: البسيط]

إن الصّلاة لها وَقْتٌ تُعَيِّنُهُ ... شَمْسٌ وآثارها فالحُكْمُ للشَّمْسِ

فانظرْ إليها بعين القلب إن شَرَقَتْ ... أو أشْرَقَتْ لا بعين الحِسِّ والنَّفْسِ

فظُهْرُنا لزوال الشمس في فَلَكٍ ... وعَصْرُنا لانضمام العقل والحِسِّ

ومغربٌ لغروب الحقّ عن نظري ... وذلكم لارتفاع الشكّ واللَّبْسِ

إن الأُفُولَ دليلٌ يُسْتَدَلُّ به ... لكي يُفَرِّقَ بين العلم والحَدْسِ

ثم العشاءُ إذا ما حمرةٌ ذهبتْ ... ذهابَ من أعدم الأشياء بالحِسِّ

وعندما انفجرتْ أنوارُها وبَدَتْ ... كأنها خرجتْ من ظُلْمَةِ الرَّمْسِ

وعاد مغربُها شرقاً بها فزَهَتْ ... وعاد مطلعُها للعرش والكُرْسي

ناجَيْتُهُ في شهود لا انقطاعَ له ... مُؤَيَّدٍ بين حَصْرِ الجَهْرِ والهَمْسِ

وهذه خمسةٌ في العَدّ حافظة ... وليس يحفظُ أكواني سوى الخَمْسِ

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وليست سوى هذه الخمس الموقتة المعينة المكتوبة، وكما أن الخمسة تحفظ نفسها وغيرها الذي هو العشرون

وهو ثاني عقد العشر من العشرة والعشرة أول العقود، وأقل ما يكون العقد بين اثنين، فكذلك الصلاة قسمها الحق نصفين: نصفاً له ونصفاً لعبده وجعلها بين تحريم وتحليل، فإذا شرع فيها العبد لم يصرف ذاته إلى غيرها من الأعمال بخلاف غيرها من الأعمال المشروعة فحفظت نفسها حتى تسمى صلاة، فإن في الصلاة شغلاً وحفظت غيرها وهو المصلي ليبقى عليه اسم المصلي وحكمه، فلهذا شرعها الله خمسة فعين الوقت، فإن قال قائل بالوتر أنه زائد على الخمسة فتكون ستاً قلنا فما زاد إلا من يحفظ نفسها وهي الستة وهي أول عدد كامل فما زاد إلا بما يناسب في الحفظ، فلذا قال السائل: «هل علي غيرها يعني الخمس؟ قال: «**لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ**» وجمع له في الصلاة بين الجهر والسر أعني في القراءة، وجمع له أيضاً بين القول والفعل والحال والهيئات في الحركات من قيام وركوع وسجود وجلوس، وأثنى على من أتى بهن لم يضيع من حقهن شيئاً بالدوام عليها والخشوع فيها، وأعطاها الليل والنهار حتى يعمّ الزمان بركتها، وقد بينا من أسرارها ما شاء الله في باب الصلاة من هذا الكتاب، وكذلك بينا أيضاً من شأنها في كتاب التنزلات الموصلية لنا.

ثم إن الله شرع طهارة لها مائية وترابية فإن النشأ الإنساني لم يكن إلا من تراب كآدم وماء كبني آدم فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] ومن ماء ومن طين وهو خلط الماء بالتراب. فجعل الطهارة للصلاة بما منه خلقنا، فطهارتنا منا من ماء وهو الوضوء وتراب وهو التيمم، فنحن نور على نور بحمد الله، وما كتب الله هذه الصلاة إلا على المؤمنين، وليس المؤمن سوى المصدق بأحدية الكثرة الإلهية لما هي عليه من الأسماء الحسنى والأحكام المختلفة من حيث إن كل اسم إلهي يدل على الذات وعلى معنى ما هو المعنى الآخر الذي يدل عليه الاسم الآخر فله أحدية العين فهو مؤمن أيضاً بأحدية العين، كما هو مؤمن بأحدية الكثرة، فمن لم يكن له هذا الإيمان وإلا فليس هو المؤمن الذي كتب الله عليه هذه الصلاة، وإنما كتبها على المؤمن دون العالم لعموم الإيمان، فإن المؤمن هو عين المقلد لأنه المصدق بالخبر لما تعطيه حقيقة الخبر من الاحتمال فأبقى الخبر على أصله، فالعالم من علمه بالأمور على ما هي عليه أن لا يزيل الخبر عن احتماله بالنظر إلى ذات الخبر، فهو عالم بصدق هذا الخبر المعين لأن الخبر وإن اقتضت ذاته الاحتمال فإنه لا بد أن يكون في نفسه موصوفاً بأحد الاحتمالين: إما صدق وإما كذب، ولا يعرف ما هو عليه من هذين الوصفين إلا بدليل، فهذا هو حظ العالم فقد صدق به العالم أنه صدق لا كذب أعني هذا الخبر المعين، وقلده في هذا التصديق المؤمن، فالمؤمن العالم قام له دليل العلم على أن المخبر صادق، وأن هذا الخبر المعين صدق فهو مؤمن بلا شك، وأعطى العالم نفسه الأمان أن ينقلب العلم جهلاً، وصدق المقلد العالم فيما أخبره به من صدق هذا الخبر فاشترك الكل في نعت الإيمان. فلو كتبها الله على العلماء دون المؤمنين لما وجبت على المقلدين، والعلماء لهم صفة الإيمان فكتب على الوصف العام، ولولا الحق تعالى ما نزل إلى عباده ما وصفهم تعالى بالعلم به ولا بالإيمان فهم أحق بالعلم به من علمه به، فإن علم الخلق به علم اضطرار وافتقار ذاتي لما تعطيه ذات

الممكن من الاستناد إلى المرجح، فبنزوله إلينا عرفناه فهو يظهر بنا، ولا يتمكن لنا أن نظهر به، فيجمع سبحانه بين نعت السادات والعباد، ولا يتمكن للعباد أن يكونوا أرباباً في أنفسهم وإن ظهروا بنعوت سيدهم، وإنما كلامنا في نفس الأمر لا فيما يجدونه في أوقات، فما هو له تعالى فمعلوم من القسمة، وما هو للعبد فمعلوم، وما وقع فيه الاشتراك فما هو لله فهو لله في عين الاشتراك، وما هو للعبد فهو للعبد في عين الاشتراك فهو في نفس الأمر معين، وإن وقع الاشتراك فليس إلا في الألفاظ الدالة على الاشتراك، وأما في نفس الأمر فلا اشتراك بوجه من الوجوه فإن كل واحد على نصيبه المعين له، وإن لم يكن الأمر كذلك اختلطت الحقائق، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [الانشقاق: ٢٥] وقليل ما هم، وقليل أيضاً ما هم، فكل مصل أدى صلاته لوقتها ولم يطلع ولا أنتج له معرفة بسرّ القدر الذي قد أومأنا إليه في هذا الكتاب في مواضع كثيرة مختلفة بطرائق عجيبة، فما صلّى الصلاة لوقتها وذلك أن الله ما شرع هذه العبادات لإقامة نشأة صورتها الظاهرة بل لما تدل عليه وتعطيه من جانب الحق من المعرفة به، وإن لم تكن الصورة قد نفخ القائل فيها روحاً تحيى به، ولا ينفخ فيها روحاً إلا بإذن ربه كما قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ فقد شارك كل مصوّر وما تعلق به ذم كما تعلق بالمصوّرين فإنه ما صوّره عليه السلام، إلا بإذن الله، ثم قال: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] فزال من هيئة الطائر وعاد طائراً، فكذلك عمل العبد إذا عمله بالإيمان من حيث إن الحق أمره بذلك العمل، فقد أذن له في إنشاء تلك الصورة فقد شارك المنافق كما شارك المصوّرين من خلق من الطين كهيئة الطير، فإن المنافق ما أذن الله له أن ينشىء صورة العمل على ذلك الحد، وما أمر الله بإنشاء صور الأعمال إلا للمؤمنين، فلما وقع الاشتراك في ظاهر الصورة بين المؤمن والمنافق نفخ المؤمن بإيمانه فيها روحاً فعادت حياة لا تشاهد سوى منشئها وهو هذا المؤمن فيجدها يوم القيامة حياة تشفع له وتأخذ بيده، والمنافق يجدها ميتة فيقال له أحيها فلا يستطيع وهي حية في نفس الأمر ولكن بإحياء الحق، وقد أخذ الله ببصر هذا المنافق عن إدراك حياتها، كما أخذ الله بأبصارنا عن إدراك حياة المسمى جماداً ونباتاً مع علمنا أنه حي في نفس الأمر إيماناً فإنه مسبح بحمد الله ولا يسبح إلا حي ناطق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والثلاثون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

[نظم: الكامل]

إنّ الدُّعَاءَ حجابُ من لا يشهدُ ... هذا هو الحَقُّ الذي لا يُجْحَدُ
وهو القريبُ بعِلْمِه وبعَيْنِه ... وهو الذي في كل حال يُشْهَدُ
لكنه لمّا دعاك دَعْوَتَهُ ... من قبل ذا أعطاك هذا المشهد

فإذا علمتَ بأنه عَيْنُ الذي يدعو فمن تدعوه أو من تَقْصِدُ
فادعوه أمْراً لا تكُنْ ممن يَرَى أَنَّ الدعاء هو الحجابُ الأَبْعَدُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله تعالى ما أخبر نبيه ﷺ بقربه من السائلين من عباده بالإجابة فيما يسألونه فيه إلا وقد ساوانا في العلم بالله من هذا الوجه، ولو كان هذا القرب الإلهي في الإجابة قربه في المسافة التي ذكر عنها أنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد لاكتفى، وذلك لأنه لا يلزم من هذا القرب السماع، كما لا يلزم من السماع في السؤال الإجابة، فحصل من الفائدة بهذا التعريف ثلاثة أمور: القرب والسماع والإجابة، فلم يترك لعبده حجة عليه بل ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فإذا أقيم العبد في هذا الذكر فأول ما ينتج له الزهد فيما سوى الله فلا يتوسل إليه بغيره، فإن التوسل إنما هو طلب القرب منه، فقد أخبرنا الله تعالى أنه قريب فلا فائدة لهذا الطلب وخبره صدق، ثم أخبر أنه يجيب سؤال السائلين فهو إخبار بأن بيده ملكوت كل شيء، وأخبر بالإجابة ليتحفظ السائل ويراقب ما يسأل فيه لأنه لا بد من الإجابة، فقد يسأل العبد فيما لا خير له فيه لجهله بالمصالح، فهو تنبيه من الله وتحذير أن لا يسأل إلا فيما يعلم أن له فيه الخير الوافر عند الله في الدنيا والآخرة، فمن أخذ هذا الذكر على جهة التنبيه فلم يسأل الله تعالى في حاجة من حوائج الدنيا على التعيين ولكن يسأل فيما له فيه خير مما يعلمه الله مبهماً لا يعين، فإذا عين ولا بد فليسأل فيه الخيرة وسلامة الدين. وأما تعيينه في السؤال فيما يرجع إلى أمر الدين فليعين ما شاء ولا مكر فيه ولا غائلة، وكذلك ما يسأل فيه مما يتعلق بالآخرة، ولكن هنا شرط أبينه في هذا الذكر من أجل ما نرى في الوقائع من عدم الإجابة لأكثر الناس فيما يسألون فيه ربهم، فاعلم أن الله أخبر أنه يجيب دعوة الداع إذا دعاه، وما دعاؤه إياه إلا عين قوله حين يناديه باسم من أسمائه فيقول: يا ألله أو يا رب أو رب أو ياذا المجد والكرم وما أشبه ذلك، فالدعاء نداء وهو تأيه بالله، فإجابة هذا القدر الذي هو الدعوة وبها سمي داعياً أن يلبيه الحق فيقول: لبيك فهذا لا بد منه من الله في حق كل سائل، ثم ما يأتي بعد هذا النداء فهو خارج عن الدعاء وقد وقعت الإجابة كما قال، فيوصل بعد النداء من الحوائج ما قام في خاطره مما شاءه، فلم يضمن في هذا الذكر إجابته فيما سأل فيه ودعاه من أجله، فهو إن شاء قضى حاجته وإن شاء لم يفعل، ولهذا ما كل مسؤول فيه يقضيه الله لعبده وذلك رحمة به فإنه قد يسأل فيما لا خير له فيه، فلو ضمن الإجابة في ذلك لوقع ويكون فيه هلاكه في دينه وآخرته، وربما في دنياه من حيث لا يشعر، فمن كرمه أنه ما ضمن الإجابة فيما يسأل فيه وإنما ضمن الإجابة في الدعاء خاصة كما بيناه، وهذا غاية الكرم من السيد في حق عبده حيث أبقى عليهم.

ثم إن هذا الذكر إذا أنتج له سماع الإجابة الإلهية فإنه لا بد لصاحب هذا الذكر أن يسمع الإجابة ولكن ذوقهم في السماع مختلف، فقد يكون إسماع واحد غير إسماع الآخر، ولكن لا بد من علامة يعطيها الله لهذا الذاكر يعلم بها أنه قد أجاب دعاءه، ومعلوم أنه أجاب دعاءه وإنما أريد أنه يعلمه أن الذي سأل فيه قد قضي، وإن تأخر وأعطي بدله على طريق

العوض لما له في البدل من الخير، وقد يكشف له عن خواص الأحوال والأزمنة والأمكنة التي توجب قضاء حاجة الداعي فيما سأل فيه وإن لم يكن له فيه خير ويعود وباله عليه، فيكون ممن جنى على نفسه فإذا كشف الله له مثل هذا يتحرّز في الدعاء وفيما يدعو فيه، وكذلك يكشف له بخاصية ما يدعو به من الأسماء والكلمات، ألا ترى ابن باعورا و كان قد آتاه الله العلم بخاصية آية من آياته فدعا بها على موسى عليه السلام وقومه فأجابه الله فيما دعا فيه وشقي هو في نفسه وسلب الله عنه علم ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] الآيات، وجعل مثله كمثل الكلب، فيكشف الله لصاحب هذا الذكر علم هذا عناية منه به، فإن في ذلك مكراً إلهياً من حيث لا يشعر، ولا سيما والنفس مجبولة على حب الشفوف على أبناء الجنس وإظهار قدرها عند الله، ولهذا أكابر الأولياء أخفياء أبرياء لا ترى عليهم من أثر المكانة والتقريب ما تحتد من أجله أبصار الخلق إليهم بل لا فرق بينهم وبين العامة، والذين ملكتهم الأحوال لهم خرق العوائد والظهور، ولكن لا يفي ذلك بما فيه من المكر والاستدراج فإنه في غير موطنه ظهر ممن لا يجب عليه الظهور به وهو الولي، وأصعب ما في الأمر أن يذوق في ذلك طعم نفسه فإن صاحبه لا يفلح أبداً ولو صرف الكون والعالم على حكمه، فإذا سألتم الله فاسألوه التوفيق والعافية والعناية في تحصيل السعادة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] فإن العلم يأبى إلا السعادة، فإن الله ما أمر نبيه بطلب الزيادة منه إلا وقد علم أن عين حصول العلم المطلوب هو عين السعادة ما فيه مكر ولا استدراج أصلاً، وما هو إلا العلم بالله خاصة لا العلم بالحساب والهندسة والنجوم، ولو علم ذلك لكان علم دلالة على علم بالله، فلم يعطه الله ذلك للوقوف عنده، فهذا ذكر عظيم الفائدة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والثلاثون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]

[نظم: الوافر]

إذا هُيِّئْتَ لِلْخُلُقِ العَظِيمِ ... فذاك بشارةُ الرَّبِّ الكَرِيمِ
أتاكَ بها رسولُ الحالِ يسعى ... بآياتِ العنايةِ للعليمِ
فقُمْتَ بها مقامَ الحَقِّ فيها ... كما قام الحديثُ من القديمِ
فحُقَّ لكَ الثناءُ بكلِ وَجْهٍ ... وكُنْتَ الوَجْهَ بالخُلُقِ العظيمِ
فأنتَ الوارثُ الفَرْدُ الذي لم ... يَزَلْ ندعوه بالبرِّ الرَّحيمِ
لكَ العلمُ الذي ما فيه رَيْبٌ ... أتتكَ به مؤاخاةُ الكليمِ
فتُدْعَى بالخليلِ وبالنديمِ ... وتدعى بالحميمِ وبالقسيمِ

هذه الآية تليت علينا تلاوة تنزل إلهي من أول السورة إلى قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣] عرفنا الحق في هذه التلاوة المنزلة من عند الله في المبشرة التي أبقى الله علينا من الوحي النبوي وراثة نبوية لله الحمد ورثته فيها من قوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾

[النحل: ١٢٧] وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] فشكرت الله على ما حققني به من حقائق الورث النبوي، وأرجو أن أكون ممن لا ينطق عن هوى نفسه جعلنا الله منهم، فإن ذلك هو عين العصمة الإلهية، فإذا أراد الله بصاحب هذا الذكر خيراً ألهمه لحديث عائشة في رسول الله ﷺ لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ» تريد هذه الآية، وكل شيء عظمه الله يتعين تعظيمه على كل مؤمن، فينظر صاحب هذا الذكر في القرآن، فكل نعت فيه قد مدحه الله ومدح به طائفة من عباده كانوا ما كانوا، فيعلم أن ذلك صفة مدح إلهي فليعمل على الاتصاف بتلك الصفات، وإذا ذكر الله في القرآن صفة ذم بها طائفة من عباده كانوا ما كانوا تعين عليه اجتنابها فيأخذ القرآن منزلاً فيه كأن الحق ما خاطب به غيره فإذا فعل مثل هذا كان خلقه القرآن، وعظمه الحق فعظم حيث تنفع العظمة، ومكارم الأخلاق معلومة عقلاً وعرفاً، والتصرف بها وفيها معلوم شرعاً، فمن اتصف بها على الوجه المشروع وزاد تتميم مكارم الأخلاق وهو إلحاق سفسافها بها فتكون كلها مكارم أخلاق بالتصرف المشروع والمعقول، فقد اتصف بكل ثناء إلهي وصاحب هذا الذكر يفتح له في معاني آيات السورة التي نزل فيها على أكمل الوجوه، ولايزال محسوداً وبالعداوة مقصوداً وينكشف له أمر الآخرة عياناً، ومن هذه السورة علم رسول الله ﷺ علم الأولين والآخرين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله قوله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]

[نظم: الكامل]

الذّاكرون بكلِّ حال رَبَّهُمْ	هم أهلُ كل فضيلة في العَالَم
لا يشهدون سواه في أعيانهمْ	فهُمُ الملوكُ على الوجود الدائم
قاموا بحَقِّ الله لا بحقوقهم	في راقد أو قاعد أو قائم
حازوا الكمالَ فلم يكن لسوَاهُمُ	هذا المقامُ من الإلٰهِ الحاكم
لَهُمُ التَّفَكُّرُ في تَعَلُّقِ وَصْفِهِ	بوجودهم ووجود كل العالَم

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الأصل في الخلق حالة الرقاد حتى يكون الحق يقيمه، إما لجلوس فينال نصيباً من الرحمة قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وإما لقيام فينال نصيباً من آية قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] يقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] واختلف العلماء من أصحابنا في التخلق بالقيومية هل يصح أو لا؟ فعندنا أنه يصح التخلق بها مثل جميع الأسماء، وقال الله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾

[النساء: ٣٤] ولقيت أبا عبد الله بن جنيد لما جاء إلى زيارتنا بإشبيلية فسألته في ذلك فقال: يجوز التخلق بها يعني بالاسم القيوم، ثم منع من ذلك وما أدري ما سبب منعه يقول الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وكان هذا أعني أبا عبد الله بن جنيد القبرفيقي ضيعة من أعمال رندة ببلاد الأندلس فلم أزل به ألاطفه في أصحابه وأتباعه بقريته لكونه كان معتزلي المذهب حتى انكشف له الأمر فرجع عن مذهب الاعتزال القائلين بإنفاذ الوعيد وبخلق الأفعال وعرف محل ذلك فأنزله في موضعه ولم يتعدّ به رتبته وشكرني على ذلك ورجع لرجوعه جميع أصحابه وأتباعه وحينئذٍ فارقته.

فهذا ذكر الأحوال لا يقف عند ذكر خاص وإنما هو بحسب الحال، ومن حاز هذه الأحوال الثلاثة فقد حاز الوجود، فالآية التي تعمّ جميع الأحوال في الذكر قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] هذا هو الذكر العامّ الذي يعمّ جميع الأحوال، وبقي ذكر التخصيص فذكر القائم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [طه: ٥] وذكر القاعد: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] وذكر الجنب: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وهذا كله فيه خلاف أعني في تأويله بين العلماء، فاجمع همك على أمر واحد حتى يزول عنك التبديد، فإن شئت راقبت ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وإن شئت راقبت ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وكونه في السماء يقول: هل من تائب؟ هل من مستغفر؟ هل من داع؟ وإن شئت راقبت وهو الله في السموات وفي الأرض ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ وإن كان طعامك ثريداً فراقب ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وكينونتنا تعم حساً، ومعنى فبالحس حيث نحن من الأرض وحيث نحن فيه من الشغل بالجوارح، ومعنى حيث كنا بالهمم والمقاصد والخواطر فنشهده في الشغل فاعلاً وفي القصد قاصداً أيضاً فنعكس الأمر فنكون بحيث هو فإنا بحيث ما نحن عليه وليس إلا هو: [الوافر]

فكُنْ في أحْسَنِ الهيئات تَسْعَدْ	وكُنْ في أكمل الحالات تَرْشُدْ
وكن بالحال لا بالقَوْلِ فيه	تكن في حُكْمِ من يقضي فيُقْصَدْ

وهذا القدر من الإيماء نصيحة إلهية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والثلاثون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان هجيره:

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]

[نظم: البسيط]

الحَرْثُ حَرْثَان محمودٌ ومذمومُ	وأنت حارثُهُ والرزقُ مَقْسُومُ
لا تَحْرُثَنَّ لدنيا أنت تتركُها	فإن حَرَثْتَ لها فأنت مذمومُ
لا تَحْرُثَنَّ لما يَفْنَى فلست له	واحْرُثْ لباقية فالأمرُ مفهومُ
واحْذَرْ من الرَّكْنِ لا تَرْكَنْ لفانية	تزول عنك فمكرُ الله معلومُ

من حيث عِلْمُك يأتيك الإله به فلا تَثِقْ بوجود فهو معدومُ
واحْرُث لآخرة إن كنت ذا نَظَرٍ كمثل من هو بالخيرات مَوْسُومُ

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] والحسنة حرث الآخرة في الدنيا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠] فنوفقه للعمل الصالح، فلا يزال ينتقل من خير إلى خير في خير فمن حسنة إلى حسنة، فإذا كسب الآخرة نال ما اقتضاه العمل والزيادة ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهو ذوق. فهذه زيادة الحرث في الآخرة فينال في الآخرة جميع أغراضه كلها وزيادة ما لم يبلغه غرضه، سألت بعض الشيوخ من أهل العلم ما الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فقال لي: الزيادة ما لم يخطر بالبال فعلمت ما أراد فلم أزده، وحرث الدنيا ليس كذلك فإنه منزل لا يمكن في وضع مزاجه أن ينال أحد فيه جميع أغراضه، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] ولقد حرص بعمه أبي طالب أن يؤمن فلم يفعل ونفذت فيه سابقة علم الله وحكمه، فهذا يقتضيه حال هذه الدار، كما أن الآخرة يقتضي حالها نيل جميع الأغراض من غير توقف، وأعني بالآخرة الجنة ومن دخلها، لا أريد يوم الحشر لأن الله يقول في الأشقياء: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وأن القيامة أحكامها مقصورة عليها علمنا ذلك كشفاً وإيماناً، وأعلم تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] فإذا كان في الآخرة عاد الحكم فيما تحوي عليه هذه الخزائن التي عند الله إلى العبد العارف الذي كمل الله سعادته فيدخل فيها متحكماً فيخرج منها ما يشاء بغير حساب ولا قدر معلوم، بل يحكم ما يختاره في الوقت، وهو أن المسعود في الآخرة يعطى التكوين ويكشف له عن نفسه أنه عين الخزانة التي عند الله فإنه عند الله. فكل ما خطر له تكوينه كوّنه فلا يزال في الآخرة خلاقاً دائماً فارتفع التقدير فهو يتبوأ من الجنة حيث يشاء لا حيث يمشى به، فإنه في الجنة ارتفع عنه الافتقار العرضي إلى الأشياء، وما بقي عنده إلا الفقر إلى الله خاصة، وإنما ارتفع عن المسعود الافتقار العرضيّ لما فيه من الذلة والانكسار والحاجة، والجنة ليس بمحل لذلك فإن محل ذلك عموماً في الدنيا ومحله في الآخرة النار، وكذلك الذلة فإن الحق لا يتجلى لهم قط في الاسم المذل فلا يذلون أبداً، وكذلك لا يتجلى لهم في الاسم العزيز من الوجه الذي لو تجلى لهم فيه لذلوا، وإنما يكسوهم الله حلة العزة به على الأمور التي يكونونها لا على أهليهم ولا على من عندهم، فلا سلطان لهم ولا عز إلا فيما يتكوّن عنهم ولا يتكوّن عنهم شيء إلا منهم، فيشهدون الأمر قبل تكوينه، فيتعلق بهم إرادة تكوين ذلك الأمر فعين التعلق عين كينونته، وما يتأخر عنه فأمره أسرع من لمح البصر، فانظر في هذا المنزل ماأعطاك فيه هذا الذكر من الفوائد الجمة الإلهية، واعلم أن للدنيا أبناء وللآخرة أبناء وللمجموع أبناء، وما نبه غيرنا على أبناء المجموع، فالسعيد من جمع بين البنوتين فهو الوارث المكمل، وهو القريب البعيد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره:

﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وهذه آية عجيبة

[نظم: السريع]

رأيتُ في واقعتي أنني ... أُداري أهلَ الأرضِ بالأرضِ

لأنهم ليست لهم هِمَّةٌ ... ترفعُهم عن عالم الخَفْضِ

فهم حَيَارَى ما لهم فاصلٌ ... يَفْصِلُ بين الأمر والعَرضِ

لم يَخْشَ خَلْقَ الله إلا الذي ... يُقام في السُّنَّةِ والفَرضِ

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٧] اعلم أن الرجل الكامل واقف مع ما تمسك عليه المروءة العرفية حتى يأتي أمر الله الحتم فإنه بحسب ما يؤمر، فإن كان عرضاً نظر إلى قرائن الأحوال، فإن كانت قرينة الحال تعطيه حكم الأمر الحتم بادر إلى القبول مبادرته إلى الأمر الحتم الذي لا يسعه خلافه، وإن كانت قرينة الحال تحيره بقي على الأمر العرفي الذي يشهد له بمكارم الأخلاق ولذلك قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فهو واقف مع حكم الله، وهكذا المؤمن الكامل الإيمان ما هو مع الناس وإنما هو ما يحكم الله به عليه على لسان رسوله ﷺ الذي بالإيمان به ﷺ ثبت الإيمان له، فإن النبي ﷺ يقول في حق من يؤمن بالله ويؤمن بي وبما جئت به وما بعثه الله تعالى إلا ليتمم مكارم الأخلاق، فأحواله كلها مكارم أخلاق هو مبين لها بالحال وهو أتم وأعدل وأمضى في الحكم من القول فإن الحق: [مخلع البسيط]

له نُزُولٌ إلى عِبَادِهِ ... وما لنا نَحْوَهُ عُرُوجُ

فإنه لم يَزَلْ عليّاً ... يجهله العالم المَرِيجُ

من ليس في حَيِّزٍ تَراهُ ... فلا وُلُوجٌ ولا خُرُوجُ

ونحن في حَيِّزٍ ووَقْتٍ ... يصحُّ فيه لنا الوُلُوجُ

لاح بأرض الجسوم عنه ... من كل شيءٍ زوجٌ بَهِيجُ

فنسبة المؤمن الكامل والرسول إلى الخلق نسبة ليلة القدر إلى الليالي، وما أراد بألف شهر توقيتاً بل أراد أنها خير على الإطلاق من جميع ليالي الزمان في أي وجود كان: [مخلع البسيط]

إذا بَدَا فيك كلُّ أمرٍ ... فأنت خَيْرٌ مِنَ ٱلْفِ شَهْرِ

في ليلة ما لها صباحٌ ... يُذْهِبُها منك نُورُ فَجْرِ

ما الرُّوحُ في كونها سِوَائي ... يا ليلةَ القَدْرِ فيك قَدْري

في ليلة القدر من وجودي ... يُنَزِّلُ الحقُّ كُلَّ أمْرِ

فكان مما نزل: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وما جعله في ذلك إلا

قوله ﷺ: «**لَوْ كُنتُ أَنَا بَدَلَ يُوسُفَ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ**» يعني داعي الملك لما دعاه إلى الخروج من السجن فلم يخرج يوسف حتى قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني العزيز الذي حبسه ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ليثبت عنده براءته، فلا تصح له المنة عليه في إخراجه من السجن ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧] إذ لو بقي الاحتمال لقدح في عدالته وهو رسول من الله فلا بد من عدالته أن تثبت في قلوبهم، فلذلك كانت الخشية حتى لا ترد دعوة الحق، فابتلى الله نبيه ﷺ بنكاح زوجة من تبناه، وكان لو فعله عند العرب مما يقدح في مقامه وهو رسول الله فأبان الله لهم عن العلة في ذلك وهو رفع الحرج عن المؤمنين في مثل هذا الفعل، ثم فصل بينه وبينهم بالرسالة والختم فكان من الله في حق رسول الله ﷺ ما كان من يوسف حين لم يجب الداعي، فهذا من هدى الأنبياء الذي قال فيه لرسوله ﷺ حين ذكر الأنبياء عليهم السلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فلو كان رسول الله ﷺ في الحال الذي كان فيه يوسف عليه السلام ما أجاب الداعي ولقال مثل ما قال يوسف فما قال: لو كنت أنا لأجبت الداعي إلا تعظيماً في حق يوسف كما قال: نحن أولى بالشك من إبراهيم، ولم يكن في شك لا هو ولا إبراهيم من الشك الذي يزعمونه الذي نفاه رسول الله ﷺ، فإنه لو شك إبراهيم لكان محمداً أولى بالشك منه فإنه مأمور أن يهتدي بهداهم، فالرسل والمؤمنون الكمل ما هم واقفون مع ما يعطيهم نظرهم، وإنما يقفون مع ما يأتيهم من ربهم، والذي يأتيهم من الله قد يكون كما قلنا أمراً وعرضاً، فالأمر معمول به ولا بد، وفي العرض التخيير كما قررنا، وأما حالهم في معرفتهم بالله فكما قلنا في قصيدة لنا: [البسيط]

مَعارفُ الحَقِّ لا تَخفَى على أحَدٍ ... إلا على أحَدٍ لا يعرف الأَحَدَا

وكما قلنا: [الطويل]

إذا كان مَشْهُودي هو الكَيْفُ والكَمُّ ... فما ذاك إلا الوهمُ ما ذلك العِلْمُ
بما هو عينُ الأمر في عين ذاته ... وهل يَتَجَلَّى الحقُّ فيما له كَمُّ
فما هو حَقٌّ في الحقيقة واضحٌ ... ولكنه حَقٌّ عليه بنا خَتْمُ
تَنَزَّهت بي عن لم وكيف وكم وما ... وهل عَيْنُ لَفْظٍ قد يكون له الحُكْمُ
وهل ثَمَّ موجودٌ يصحُّ فإن تَزِدْ ... فما زِدْتَ إلا ما يكوّنُهُ الوَهْمُ
بذاك أتى القرآن إن كنت ناظراً ... كما قد أتى للمؤمنين به الفَهْمُ

فهذا ذكر حكيم يعطي من عوارف المعارف والآداب ما لايسعه كتاب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]

[نظم: البسيط]

المُسْتَقِيمُ الذي قامتْ قِيَامَتُهُ ... من غير موت ولا يدري به أحَدُ

وليس يصرفُه عن أمر خالقه ... من الخلائق لا أهلٌ وَلاَ ولدُ
وما له في وجود الكون مُسْتَنَدٌ ... إلا الإلٰهُ الذي إليه يُسْتَنَدُ
إليه يَرْفَعُ من في الكون حاجَتَهُ ... لأنه السيِّدُ المحسانُ والصَّمَدُ
هو المهيمنُ لا تُحْصَى عوارفُهُ ... يدري بذلك سَبَّاقٌ ومقتصدُ

قال رسول الله ﷺ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**» من كل سورة فيها ذكر الاستقامة فإنه والمؤمنين مأمور بها والحكم للعلم لا للأمر وما الله بظلام للعبيد فإنه ما علم تعالى إلا ما أعطته المعلومات، فالعلم يتبع المعلوم، ولا يظهر في الوجود إلا ما هو المعلوم عليه ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] ومن لم يعرف الأمر هكذا فما عنده خبر بما هو الأمر عليه، فالإنسان جاهل بما يكون منه قبل كونه، فإذا وقع منه ما وقع فما وقع إلا بعلم الله فيه، وما علم إلا ما كان المعلوم عليه فصح قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] والرضا إرادة فلا تناقض بين الأمر والإرادة، وإنما النقض بين الأمر، وما أعطاه العلم التابع للمعلوم فهو فعال لما يريد، وما يريد إلا ما هو عليه العلم، وما لنا من الأمر الإلهيّ إلا صيغة الأمر وهي من جملة المخلوقات في لفظ الداعي إلى الله تعالى فهي مرادة معلومة كائنة في فم الداعي إلى الله فتنبه واعتبر ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فمن ازداد علماً ازداد حكماً، فانظر فيما أمرت به أو نهيت عنه من حيث إنك محل لوجود عين ما أمرت به أو نهيت عنه من حيث إنك محل لوجود عين ما أمرت به، فمتعلق الأمر عند صاحب هذا النظر أن يهيىء محله بالانتظار، فإذا جاء الأمر الإلهي الذي يأتي بالتكوين بلا واسطة فينظر أثره في قلبه أولاً فإن وجد الإباية قد تكوّنت في قلبه فيعلم أنه مخذول وأن خذلانه منه لأنه على هذه الصورة في حضرة ثبوت عينه التي أعطت العلم لله به، وإن وجد غير ذلك وهو القبول فكذلك أيضاً، فينظر في العضو الذي تعلق به ذلك الأمر المشروع أن يتكوّن فيه من أذن أو عين أو يد أو رجل أو لسان أو بطن أو فرج، فإنا قد فرغنا من القلب بوجود الإباية أو القبول، فلا نزال نراقب حكم العلم فينا من الحق حتى نعلم ما كنا فيه فإنه لا يحكم فينا إلا بنا كما قلنا: [الرمل]

أيها العَذْبُ التَّجَنِّي والجَنَا ... أيها البدرُ سناءً وَسَنَا
نحن حَكَّمْنَاكَ في أنفُسِنَا ... فاحْكُم انْ شئتَ علينا أو لنا
فإذا تَحْكُمُ فينا إنما ... عين ما تَحْكُمُهُ فينا بنا

ومن كان هذا حاله في مراقبته وإن وقع منه خلاف ما أمر به فإنه لا يضره ولا ينقصه عند الله إفضالاً من الله لا تحكماً عليه عز وجل، فإن المراد قد حصل الذي يعطي السعادة وهو المراقبة لله في تكوينه، وهذا ذوق لا يمكن أن يعلم قدره إلا من كان حاله، وهذا هو عين سر القدر لمن فهمه، وكم منع الناس من كشفه لما يطرأ على النفوس الضعيفة الإيمان من ذلك، فليس سر القدر الذي يخفى عن العالم عينه إلا اتباع العلم المعلوم، فلا شيء أبين منه

ولا أقرب مع هذا البعد، فمن كان هذا حاله فقد فاز بدرجة الاستقامة وبها أمر فإنه أمر بالمراقبة: [مخلع البسيط]

فـيَـتْـبَـعِ الـحـكـم مـا يـكـونُ والـصَّـعْـبُ مـن ذلـكـم يَـهُـونُ

ولذلك لم يكن شيب رسول الله ﷺ بالكثير وإنما كان شعرات معدودة لم تبلغ العشرين متفرقة وقال: «**شَيَّبَتْنِي**» فلولا هذا الخاطر ما شاب رسول الله ﷺ، فلما تبين له الأمر كما قررناه وقف عنه الشيب ولم يقم به هم وعلم من أين وقع ما وقع فاستقام كما أمر، فالله يهدينا صراط من أنعم عليه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والثلاثون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]

[نظم: الرمل]

كُـلُّ مـن فَـرَّ إلـى الله أَصـابْ والـذي فَـرَّ مـن الـرحـمٰـن خَـابْ

اسْـتَـوَى عَـيْـشُ الـذي فَـرَّ بـه وإلـيـه وحَـلاَ فـيـه وَطَـابْ

لـو تَـرَى حَـالَ الـذي أشْـهَـدَهُ عَـيْـنَـهُ حيـن تـجـلَّـى فـي الـسرابْ

لـرَأَيـتَ الـرِّيَّ مـن أرجـائـه خارجاً والساقي من خلف الحِجَابْ

كـان ظـمـآنـاً فـلـمّـا جـاءه لـم يَـزَلْ صـاحـبَ كـأس وشـرابْ

لـم يَـجِـدْهُ مـاءَ مُـزْنٍ سـائـغـاً إنـمـا كـان وُجُـودٌ ثـم غـابْ

مـا حـيـاةُ الـمـاء إلا عَـيْـنُـهُ والـذي خـالـف فـيـه مـا أصـابْ

موسى عليه السلام لما فر من فرعون حين خاف من الله أن يسلطه عليه لأن الله فعال لما يريد، فوهبه الله حكماً وهي الرسالة فجعله من المرسلين إلى من خاف أن يسلط عليه وهو فرعون، فإذا أنتج له هذا الفرار من المخلوق خوفاً على نفسه فأين أنت من المحمدي الذي أمرك أن تفر إلى الله، فقيدك بحرف الغاية في القصد الأوّل فربط لك البداية بالنهاية فقال لنا: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] فالموسوي يفر من والمحمدي يفر إلى عن أمر الله تعالى إياه بذلك الفرار، فما أكمل شرعه وما أعلى رتبته والحكم منقطع والرسالة منقطعة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انقَطَعَتْ فَلا رَسُولَ بَعْدِي وَلا نَبِيَّ**» فيزول الحكم المشروع بزوال الدنيا، ويرجع الحكم إلى الله الذي نفر إليه بلا واسطة، فالذي ينتج الفرار إليه لا يقدر قدره فإنه كشف محمدي يربي على كشف الرسل من حيث هم رسل عليهم السلام فيثبتهم هذا الفار في أماكنهم، ويجوز بكشفه فوق رتبة خطاب التكليف فيرى أحدية العين فيقف معها، ومنها يستشرف على أحدية الكثرة فيرى أيضاً نفسه هناك معهم في أحدية الكثرة فيأمرها على بينة من ربه وبصيرة أن تنتظم في سلك المكلفين، فتنصرف النفوس المحسوسة هنا من هؤلاء الفارين إلى الله عن أمرهم فتراهم معصومين محفوظين، فالرسل منهم

معصومون في خلافهم، والأولياء محفوظون في خلافهم، فللرسل التشريع وللأولياء الانفعال بحسب ما يشهدونه هنالك، فيكون في خلافهم على بصيرة ولا يدعون إليه وإنما يدعون إلى الله كما تفعل الرسل عليهم السلام، قال الله تعالى لنبيه أن يقول: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] فما أفرد نفسه بل ذكر أتباعه معه فإنهم لا يكونون أتباعه إلا حتى يكونوا على قدمه فيشهدون ما يشهد ويرون ما يرى، فخذوا من العلماء بالله الدعاة إلى الله ما يقولون، ولا تنظروا إلى أفعالهم وأحوالهم فإنهم على ما عين الحق لهم غير ذلك لا يكون، قال بعض الصالحين في جلسائهم: من جالسهم وخالفهم في شيء مما يتحققون به نزع الله نور الإيمان من قلبه، فليس لجلسائهم أن يفعلوا مثل أفعالهم، وإنما عليهم أنهم لا ينازعونهم فيما يظهر عليهم من علم الحقيقة فإن أحوالهم تجري عليها ولذلك: قال نزع الله نور الإيمان من قلبه فلا يصدقهم فيما يخبرون به عن الحق وهم بهذه المثابة من القرب من الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي أربعين وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٥]

[نظم: البسيط]

ارْكُنْ إلى الله لا تَرْكُنْ إلى السَّبَبِ ... واجْنَحْ إلى السِّلْم لا تَجْنَحْ إلى الحَرَبِ

فانظرْ إلى كل ما في الكون من عَجَبٍ ... يأتيك سَهْلاً بلا كَدٍّ ولا نَصَبِ

إذا اعْتَمَدْتَ على الرَّحْمٰن فيه فكُنْ ... في كل حال مع الرَّحْمٰن في السَّبَبِ

فكُنْ به لا تَكُنْ فيه بكم فترى ... ما شِئْتَ من صُوَرٍ فيه ومن سَبَبِ

فإنْ دعاك إلى ما أنت تَجْهَلُهُ ... فلا تُجِبْهُ فإنّ العِلْمَ في النَّسَبِ

ولا تُنَازِعْ وكُنْ بالله مُعْتَصِماً ... ولا تُحَارِبْ فخَيْلُ الله في الطَّلَبِ

قال الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] والمدار كله على شهود هذه المعية فإنه ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] فهو مع الصابرين والمتقين والمحسنين، فهذا الذكر ينتج شهود المعية التي له مع الصابرين خاصة هذا وما هو إلا صبر على الرسول حتى يخرج إليهم فكيف الصبر على الله لما كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه والله جليس من يذكره، فلم يزل رسول الله ﷺ جليس الحق دائماً، فمن جاء إليه ﷺ فإنما يخرج إليه من عند ربه إما مبشراً وإما موصياً ناصحاً ولهذا قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٥] فلو كان خروجه إليهم مما يسوءهم في آخرتهم ما كان خيراً لهم وقد شهد الله بالخيرية فلا بد منها، وهي على ما ذكرناه من بشارة بخير أو وصية ونصيحة وإبانة عن أمر مقرب إلى سعادتهم غير ذلك لا يكون، ومن صبر

نفسه على ما شرع الله له على لسان رسوله ﷺ فإن الله لا بد أن يخرج إليه رسوله ﷺ في مبشرة يراها أو في كشف بما يكون له عند الله من الخير، وإنما يخرج الله إليه رسوله ﷺ لأن رسول الله ﷺ لا يتصوّر على صورته غيره، فمن رآه رآه لا شك فيه بخلاف رؤية الحق فإن الحق له التجلي في صور الأشياء كلها، فإن الأشياء ما ظهرت إلا به سبحانه وتعالى، فالعارف يعلم أن كل شيء يراه ليس إلا الحق وهو معطي السعادة والشقاء والرسول ليس كذلك فيعتمد على رؤية الرسول ولايغتر برؤية الحق، ولهذا الذي أشرنا إليه ادعى من ادعى من البشر والجن الألوهة وقبل منهم وعبدوا من دون الله وما قدر أحد يدعي بأنه محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ وإن تبنى فما يقول إنه محمد وإنما يقول إنه رسول الله فيطالب بالدليل على دعواه، فتنبه إلى عصمة هذا الاسم العلم أن يتصور عليه أحد من خلق الله في كشف ولا نوم كصورته في اليقظة سواء فمن رآه فما تغير من صورته تغير حسن، فذلك راجع إلى حال الرائي أو صورة الشرع في المكان الذي رآه فيه عند ولاة أمور الناس، وكذلك لو كان تغير قبح كذلك فاعلم ذلك، فيكون تغيره بالحسن والقبح عين إعلامه وخطابه إياه بما هو الأمر عليه في حقه أو في حق ولاة العصر بالموضع الذي يراه فيه، ورؤية الحق ليست كذلك لأنه ما ثم شيء خارج عنه فكل شيء فيه حسن لا قبح فيه، وما قبح ما قبح من الأمور إلا بالشرع، وفي أصحاب الأغراض بالعرض، وفي أصحاب المزاج بالملائمة للطبع، وفي أصحاب النظر الفكري من الحكماء بالكمال والنقص، وصاحب هذا الهجير كثير الصلاة على محمد ﷺ، وعلى هذا الذكر يحبس نفسه ويصبر حتى يخرج إليه ﷺ. وما لقيت أحداً على هذا القدم غير رجل كبير حداد بإشبيلية كان يعرف باللهم صلِّ على محمد ما كان يعرف بغير هذا الاسم، رأيته ودعا لي وانتفعت به لم يزل مستمراً بالصلاة على محمد ﷺ لا يتفرّغ لكلام أحد إلا قدر الحاجة إذا جاء أحد يطلبه أن يعمل له شيئاً من الحديد فيشارطه على ذلك ولا يزيد، وما وقف عليه أحد من رجل ولا صبيّ ولا امرأة إلا ولا بدّ أن يصلي على محمد ذلك الواقف إلى أن ينصرف من عنده وهو مشهور بالبلد بذلك، وكان من أهل الله، فكل ما ينتج لصاحب هذا الذكر فإنه علم حق معصوم فإنه لا يأتيه شيء من ذلك إلا بواسطة الرسول ﷺ هو المتجلي له والمخبر. لقي رجل بعض الناس في زمان أبي يزيد البسطامي فقال له: هل رأيت أبا يزيد؟ فقال: رأيت الله فأغناني عن أبي يزيد، فقال له الرجل: لو رأيت أبا يزيد مرة كان خيراً لك من أن ترى الله ألف مرّة، فلما سمع ذلك منه رحل إليه فقعد مع الرجل على طريقه فعبر أبو يزيد وفروته على كتفه فقال له الرجل: هذا أبو يزيد فنظر إليه فمات من ساعته، فأخبر الرجل أبا يزيد بشأن الرجل فقال أبو يزيد: كان يرى الله على قدره فلما أبصرنا تجلى له الحق على قدرنا فلم يطق فمات، ولما كان الأمر هكذا علمنا أن رؤيتنا الله في الصورة المحمدية بالرؤية المحمدية هي أتمّ رؤية تكون، فما زلنا نحرّض الناس عليها مشافهة وفي كتابنا هذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩]

[نظم: الرمل]

نُصْرَةُ الله لِنَفْسِ الظَّالِم ... نُصْرَةٌ لَيسَ لَهَا مِنْ خَاذِلِ

فإذا ما ظَلَمَ الغَيْرُ لَه ... حَكَمَ ما شاء بحُكْمٍ فاصِلِ

وحقوق الله أَوْلَى وكَذا ... حَقُّ نفسي بعدها للعاقل

ثُمَّ حَقُّ الغَيْرِ في رُتْبَتِهِ ... آخراً عند العليم الفاضل

وعذابُ الظُّلْمِ ذَوْقٌ فاحْذَرُوا ... منه في العاجل أو في الآجل

وعلومُ الذَّوْقِ ما يَجْهَلُها ... مَنْ يَرَى أحْكامَهَا في العاجل

اعلم أيدنا الله وإياك بروح القدس أن الظلم هنا هو الظلم الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] وليس إلا الظلم الذي قال فيه لقمان لابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] كذا فسره رسول الله ﷺ، فمن التزم هذا الذكر بهذه الآية أقامه الحق مقامه في العالم وقلده أمر عباده، ولو بلغ العبد ما عسى أن يبلغ لا يزال خلقاً، ومن حقيقة الممكن العجز فلا بدّ من القصور في رتبة التصريف ذوقاً، فلا بدّ أن يحصل له من العذاب النفسيّ ذوق كبير لأنه ليس في قوته أن يرضي العالم فإن الله ما أرضاهم، ولله الاتساع الذي لا يمكن أن يكون للعبد ولو اتسع الخليفة ما اتسع، فإن ضيق الطبيعة لا بدّ أن يحكم عليه فيضيق عن السعة الإلهية فيتعذب بقدر ما ذاق العذاب الكبير هذا وهو والٍ من عند الله بأمر الله قال تعالى في حق الكامل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] يعني في حق الله وتكذيبه فهذا هو العذاب الكبير الذي ذاقه، وظلمه المذكور في هذا الذكر إنما كان لكونه قبل الولاية عن العرض الإلهيّ فهو مع الأمر يضيق ولا يسمى ظالماً ومع العرض يكون ظالماً ويذوق العذاب الكبير ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وأيّ أمانة أعظم من النيابة عن الحق في عباده فلا يصرفهم إلا بالحق فلا بدّ من الحضور الدائم، ومن مراقبة التصريف فأبين أن يحملنها وأشفقن منها أي خفن أن لا يقمن بحقها فاستبرأن لأنفسهنّ وحملها الإنسان عرضاً أيضاً لما وجد في نفسه من قوّة الصورة التي خلق عليها إنه كان ظلوماً لنفسه وهو قوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩] فإذا ظلم نفسه بقبول النيابة المعروضة عليه أذاقه الله ما قال الله لأبي يزيد: «اخرج إلى عبادي بصورتي» يعني خليفة «فمن رآك رآني» فلما خطا عنه خطوة غشي عليه فقال الحق: «ردّوا عليّ حبيبي فلا صبر له عني»، فالنيابة مع الأمر يكون فيها الحرج وضيق الصدر فكيف بالعرض؟ فمن زهد في الخلافة المعروضة فمن هذا الذكر زهد وتركها ولم يقبلها وأشفق منها، ومن قبلها من أصحاب هذا الذكر فبتأويل دخل لهم في أول

الدخول في هذا الذكر وهو لفظة العذاب فإنه من العذوبة وهي التلذذ بالأمر وهو قول أبي يزيد في بعض أحواله: [الوافر]

وكُلّ مآربي قد نِلْتُ منها سوى مَلْذوذِ وَجْدي بالعَذَابِ

ولم يقل بالآلام وإنما قال بالعذاب لما فيه من العذوبة وهي اللذة باللذة أي أنه يلتذ باللذة لا أنه يلتذ بالأشياء، وهذا مثل ما يقوله أهل النظر في العلم: إن بالعلم يعلم العلم وبالرؤية ترى الرؤية في مذهب المتكلمين، وكذلك تدرك اللذة باللذة، فاعلم ذلك فإنه باب غريب في الذكر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والأربعون وخمسمائة
في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢]

[نظم: الرمل]

إنما تَعْمَى القُلُوبُ في الصُدُورْ التي تَحْوي عليهنّ الصُدُورْ
ثم هذا الحُكْمُ فيمن صَدَرَتْ عن وُرُودٍ كان منها الأُمُورْ
ليس يَعْمَى صادرٌ عنه به كيف يَعْمَى من له عَيْنُ الظُّهُورْ

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] على الوجهين: الواحد من الوجهين للحصر والثاني للرجوع، فاعلم أن العماء حيرة وأعظمه الحيرة في العلم بالله، والعلم بالله على طريقين: الطريق الواحدة النظر الفكريّ فلا يزال صاحب هذا الطريق إذا وفى النظر حقه في حيرة إلى الموت فإنه ما من دليل إلا وعليه عنده دخل وشبهة لاتساع عالم الخيال، إذ القوّة المفكرة ما لها تصرّف إلا في هذه الحضرة الخيالية، إما بما فيها مما اكتسبته من القوى الحسية وإما مما تصوّره القوّة المصورة، فإذا كان صاحب هذا النظر في الدنيا أعمى أي حائراً ويموت والإنسان إنما يموت على ما عاش عليه وهذا ما عاش إلا حائراً فيجيء في الآخرة بتلك الحيرة، فإذا وقع له الكشف هناك زاد حيرة لاختلاف الصور عليه فهو أضل من كونه في الدنيا، فإنه كان يترجى في الدنيا لو كشف له أن تزول عنه الحيرة، وأما الطريق الثانية في العلم بالله فهو العلم عن التجلي والحق لا يتجلى في صورة مرّتين، فيحار صاحب هذا العلم في الله لاختلاف صور التجلي عليه كحيرة الأول في الآخرة، فما كان لذلك في الآخرة هو لهذا الآخر في الدنيا. وأما البصيرة التي يكون عليها الداعي والبينة فإنما ذلك فيما يدعو إليه وليس إلا الطريق إلى السعادة لا إلى العلم، فإنه إذا دعا إلى العلم أيضاً إنما يدعو إلى الحيرة على بصيرة أنه ما ثم إلا الحيرة في الله لأن الأمر عظيم والمدعو إليه لا يقبل الحصر ولا ينضبط، فليس في اليد منه شيء، فما هو إلا ما تراه في كل تجل، فالكامل من يرى اختلاف الصور في العين الواحدة فهو كالحرباء، فمن لم يعرف الله معرفته بالحرباء فإنه لا يستقرّ له قدم في إثبات العين، فأصحاب التجلي عجلت لهم معرفة الآخرة فهم في الدنيا

أعمى وأضل سبيلاً من أصحاب النظر لأنه ليس وراء التجلي مطلب آخر للعلم بالله ولا يتصوّر، وهذه الإشارة كافية لمن عقل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فإن الكلام في هذا الذاكر واسع.

الباب الثالث والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]

[نظم: البسيط]

عَيْنُ الرّسالة ما تأتي به الرُسُلُ ... فخُذْهُ لا تتوقَّفْ أيها الرَّجُلُ
أنت المَلِيكُ الذي جاءت رسالتُه ... إليك فاعْمَلْ بها يَضْعَفْ لك العَمَلُ
إليه من غير قَطْعٍ في مساحته ... فإنْ تَوَهَّمْتَهُ فذلك الزَّلَلُ
واضْعَدْ إليه تَنَلْ عَيْنَ البقاء به ... وإنْ قَعَدْتَ أتاك الصَّعْقُ والخَبَلُ
إن الظروف لَتَحْوي من يحلُّ بها ... والأمْرُ أنْزَهُ أن يجري له مَثَلُ
عليك بالمَنْزِلِ الأعلى فحُلَّ به ... لا تَقْطَعَنَّكُمُ الأغراضُ والعِلَلُ
هو المُنَزَّهُ عن نَعْتٍ وعن صفةٍ ... فلا يقوم به أمْنٌ ولا وَجَلُ
فأنت أنت إذاً إن كنت صاحبَه ... فاعملْ لنفسك ما أصحابه عَمِلُوا
ولا يَقُمْ بك فيما قد أتَيْتَ به ... عَجْزٌ ولا كَسَلٌ فيه ولا مَلَلُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله يعطي عباده منه إليهم وعلى أيدي الرسل، فما جاءك على يد الرسول فخذه من غير ميزان، وما جاءك من يد الله فخذه بميزان، فإن الله عين كل معط، وقد نهاك أن تأخذ كل عطاء وهو قوله ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] فصار أخذك من الرسول أنفع لك وأحصل لسعادتك، فأخذك من الرسول على الإطلاق ومن الله على التقييد، فالرسول مقيد والأخذ مطلق منه، والله مطلق على التقييد والأخذ منه مقيد، فانظر في هذا الأمر ما أعجبه، فهذا مثل الأوّل والآخر والظاهر والباطن، فظهر التقييد والإطلاق في الجانبين، وذلك أن الرسول ﷺ ما بعثه الله ليمكر بنا أعني بأمته وإنما بعثه ليبين لهم ما نزل إليهم، فلهذا أطلق لنا الأخذ عن الرسول والوقوف عند قوله من غير تقييد، فإنا آمنون فيه من مكر الله والأخذ عن الله ليس كذلك فإن لله مكراً في عباده لا يشعر به قال تعالى: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] وقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وقال: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] وقال: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]. ولم يجعل للرسل في هذه الصفة قدماً لأنهم بعثوا مبينين فبشروا وأنذروا وكله صدق، وأعطى الرسول الميزان الموضوع، فمن أراد السلامة من مكر الله فلا يزل الميزان المشروع من يده الذي أخذه عن الرسول وورثه، فكل ما جاءه من عند الله وضعه في ذلك الميزان، فإن قبله ملكه وإن لم يقبله سلمه لله وتركه فإن تركه عمل به، ولم يجعل نفسه محلاً لقبوله، يقول الجنيد رضي الله عنه: علمنا هذا مقيد

بالكتاب والسنة وهما كفتا الميزان، ومعنى قوله أنه نتيجة عن العمل بالكتاب والسنة فإن عزمت على الأخذ عن الله ولا بد لحال غلب عليك فقل لا خلابة فإنك إذا قلت لا خلابة فإن كان من عند الله ثبت فأخذته، وإن كان من مكر الله ذهب من بين يديك فلم تجده عند قولك لا خلابة فإن الأمر بيع وشراء، وإن الله تعالى لا يدخل تحت الشرط، هذا يقتضيه مقام الحق بالذوق، فإنما يشترط على الله من يجهل الله أو يدل عليه لأنه ظن به خيراً كما أمره سبحانه، فإنه لو علم أن الله ما يبعثه في شغل حتى يهيئه لذلك الشغل فإنه حكيم خبير، فلا تقس الله على المخلوق فإن المخلوق يجهل كثيراً منك ومن نفسه والحق ليس كذلك فلا فائدة للاشتراط، يقول موسى عليه السلام حين بعثه ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥ ـ ٣٢] فأعطاه ذلك كله، ولم يقل محمد ﷺ شيئاً من هذا كله، فالأولى أن تكون محمدياً فإنه ما ذكر الله من حديث موسى عليه السلام ما ذكر إلا ليعلم أن الاشتراط على المستخلف جائز ولا حرج عليه في ذلك لو اشترط، ألا ترى موسى عليه السلام كيف قال لمحمد ﷺ ليلة إسرائه حين فرض الله عليه الصلاة: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، ثم علل وقال: فإني بلوت بني إسرائيل وما راجع محمد ﷺ في ذلك إلا امتثالاً لأمر الله، فإن الله لما ذكر الأنبياء عليهم السلام قال له: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فامتثل أمره في رجوعه فكان خيراً، وهذه فائدة الشيخ المتخذ في الطريق فاعلم ذلك: [الطويل]

فخُذْ منه ما أعطاك إنْ كُنْتَ تابعاً ... ولا تَتَوَقَّفْ فالتَّوَقُّفُ يَضْعُبُ
فإنْ كنتَ ذا لُبٍّ وعِلْم وفِطْنَةٍ ... فقد جاءك الأمْرُ الذي كنت تَطْلُبُ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]

[نظم: الكامل]

إن الرقيبَ على اللِّسانِ مُوَكَّلُ ... فعليه فيما تلفظون تَوَكَّلُوا
انْطُقْ به إن كنت صَاحِبَ نظرةٍ ... واعملْ على عين الحقيقة يا فُلُ
وكذا جميعُ قُواكَ منك فإنها ... هي عَيْنُه والعينُ ما لا تُجْهَلُ
فإذا علمتَ نصيحتي وشهدتها ... عيناً علمتَ من الرَّقيبُ المُرسِلُ

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٢] وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عِنْدَ لِسَان كُلِّ قَائِلٍ» وما خصص قائلاً من قائل فأتى به نكرة فكل ذي لسان قائل فهو عند الله ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وما كل قائل في كل قول يكون قوله منسوباً إلى الله مثل قوله: إن الله قال على لسان عبده: سمع الله

لمن حمده، والمحبوب بإتيان النوافل يكون الحق لسانه فتفاضلت المراتب، فالملك الحافظ الكاتب عند الإنسان كل ما لفظ كتبه الملك، فلا يكتب إلا ما يلفظ به الإنسان فإذا لفظه ورمى به فبعد الرمي يتلقاه الملك، فإن الله عند قوله في حين قوله فيراه الملك نوراً قد رمى به هذا القائل الذي الحق عند لسانه فيأخذه الملك أدباً مع القول يحفظه له عنده إلى يوم القيامة، وإذا عمل يعلم الملك أنه عمل أمراً ما خاصة ولا يكتبه حتى يتلفظ به، فالحفظة تعلم ما يفعل العبد، ولكنها ما تكتب له عملاً حتى يتلفظ به، فإذا تلفظ كتبت فهم شهود إقرار، وسبب ذلك عدم اطلاعهم على ما نواه العبد في ذلك الفعل، ولهذا ملائكة العروج بالأعمال تصعد بعمل العبد وهي تستقله فيقبل منها ويكتب في عليين وتصعد بالعمل وهي تستكثره فيقال لها: اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه فإنه ما أراد به وجهي ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]. فلو علمت الحفظة ما في نية العبد عند العمل ما ورد مثل هذا الخبر، فالنية في الأعمال لا تكون من العبد إلا من الوجه الخاص ولهذا لا يعلمه من العامل إلا الله، والعامل الذي نوى فيه ما نوى، فالملك يرقب حركة العبد ويكتب منه حركة لسانه إذا تلفظ، والله شهيد لأنه عند قول عبده على الحقيقة لا عند عبده، فهذه الكينونة الإلهية هي التي تحدث بحدوث القول، وسبب ذلك أنه تكوين والتكوين لا يكون أبداً إلا عن القول الإلهي في كل كائن، فجميع ما يتكوّن في الوجود فعن القول الإلهي، فما بين الحق والعبد مناسبة أتم ولا أعمّ من مناسبة القول ولهذا كان عند لسان كل قائل، فإن القول كون مفارق قائله، فإن لم يكن الله عنده ضاع القول، وإنما كان الله عنده لينشئه صورة قائمة تامة الخلقة، فإنه لا بد أن يكون تعالى مذكوراً بها فيتم منها ما نقصه العبد مما تستحقه نشأتها من الكمال كما يقبل الصدقة ليربيها حتى تكون أعظم من الجبل العظيم، فهذا من باب الغيرة، والأوّل من باب الكمال، وما ينبغي فالغيرة على الجناب الإلهي من الله الذي له الكمال المطلق، ثم لتعلم أن النقص من كمال الوجود لا من كمال الصورة فتنبه فإنه دقيق: [مخلع البسيط]

لو لم يَكُنْ في الوجود نَقْصٌ	لزال عن رُتْبَة الكَمالِ
لكنه ناقصٌ فأبْدَى	كَمَالَهُ فيه ذو الجَلالِ
فكُلُّ صُنْعٍ من كل خَلْقٍ	لم يُخْلِهِ اللّهُ من جَمالِ
لأنه راجعٌ إليه	في كل عَقْدٍ بكل حالِ
فلا كمالٌ ولا جمالٌ	إلا إلى الله ذي المَعَالي
من كلّ شَخْصٍ بكل وَجْهٍ	في الفعل والحال والمقال
يا من يراني بعَيْنِ حَقّ	لا تَجْعَلِ الحُكْمَ للخيال
لأنه عَقْدُ كل هادٍ	بل مُهْتَدٍ لا عن الضّلالِ

وإن كان كذلك فاجهد أن لا تصدر منك صورة إلا مخلقة في غاية الكمال في قول وعمل، ولا يغرّنك كون النقص من كمال الوجود لأن ذلك من كمال الوجود ما هو من كمال ما وجد عنك، فإن جماعة من الناس زلوا في هذا الموضع لقيناهم فينتج هذا الذكر لصاحبه

مشاهدة الحق عند قوله وقبوله له، ومن شاهد الحفظة فمن هذا المقام شهدهم، ولما أشهدنيهم الحق تعالى تعذبت بشهودهم ولم أتعذب بشهود الحق، فلم أزل أسأل الله في أن يحجبهم عني فلا أبصرهم ولا أكلمهم، ففعل الله معي ذلك وسترهم عن عيني، وإنما لم أتعذب بشهود الحق لأنه عند شهود العبد ربه تعالى يشهده شاهداً ومشهوداً وشهوده الملك ليس كذلك فإنه يشهده أجنبياً عنه، ولو كان الحق بصره فإنه أعظم في الأجنبية وأشد في القلق عند صاحب هذه الصفة، لأن الملك لا ينبغي أن يكون رقيباً على الله وهو رقيب فلا بد أن يكون الملك في هذه الحال محجوباً عن الله تعالى لا يشهده صفة عبده، إذ لو شهدها لم يتمكن له أن يكون رقيباً عليه، فلا بد لهذا العبد أن يتقلق بشهود الملك، فإذا غاب عن حسه انفرد بسرّه بربه وأملى على الملك ما شاء أن يملي عليه، فكان الله على كل شيء رقيباً، والملائكة حافظون من أمر الله هذا الشخص الإنساني، قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] فهم ملائكة تسخير تكون مع العبد بحسب ما يكون العبد عليه فهم تبع له، وهذا الفارق بين توكيل السلطان على الشخص فإنه تحكم الوكلاء عليه لا يتعدى الموضع الذي حجره السلطان، وحفظة الحق يتبعون العبد حيث تصرف، فهو مطلق التصريف في إرادته، وإن حجر عليه بعض التصرّف فإنه يتصرّف فيما حجر عليه، ولا يستطيع الملك يمنعه من ذلك لأمرين: الواحد لكون الحق قد ذهب الله بسمع هذا العبد عن قوله ويبصره عن شهوده، والأمر الآخر لكون الملك الحافظ الموكل به لا يمنعه لشهوده الحق معه في تصرّفه الذي أمره بحفظه، فلذلك لا يحجر الملك عليه التصرف، وتوكيل المخلوق ليس كذلك، فإن الحاكم الذي وكّل الوكلاء به ليس هو عند الموكل عليه، فهذا الفارق بين حكم الوكيل الحق والوكيل المخلوق، فوكلاء الخلق يحفظونه من التصرّف، ووكلاء الحق يحفظونه في التصرّف، وهذا القدر في هذا الذكر من التنبيه كافٍ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الخامس والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩]

[نظم: الكامل]

لا تُطِع[1] النَّفسَ التي من شأنها ... سَدْلُ الحِجَاب عليك واسْجُدْ واقْتَرِبْ

لا تَطْمَعَنَّ بها فلستَ مِنَ أهلِهَا ... واجْنَحْ إلى النُّور المهيمن واغْتَرِبْ

فهو الذي أعْطَى الوجودَ بجُودِهِ ... فاعمل بما يعطي وُجُودُك تَقْتَرِبْ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذا الذكر يوقف العبد على حقيقته، وإذا وقف على حقيقته فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه عرف ربه، والعبد أبداً لا يطلب بحركته إلا ربه

---

(١) صدر البيت من الرجز في حين عجزه من الكامل وكذا بقية الأبيات.

حتى يشهده عين كل شيء ومنه صدر فقد شهد صدوره وهو معه، فقد شهد معيته في تصرفه، فلا بد أن يطلب شهوده فما ينتهي إليه تصرفه فهو غاية المطلب، ولما كان العلو لله عرفاً وعلماً والمعية علماً وشرعاً لا عرفاً أراد أن يرى حكمه في الغاية، فإن السجود في العرف بعد عما يجب لله من العلو، ألا ترى إلى ابن عطاء حين غاص رجل جمله فقال: جلّ الله، فقال الجمل: جل الله وما غاص الا ليطلب ربه، فإنه سجود قربة من ذلك العضو إلى الله، فلما رأى الجمل جهل ابن عطاء بالله في طلب الرجل ربه بالغوص قال الجمل: جل الله أن تحصره معرفتك فلا يكون له في عقدك إلا العلو، فمن يحفظ السفل وأنا رجل ما أنا رأس فلا بد أن أطلب ربي بحقيقتي وليس إلا السجود، قال رسول الله ﷺ: **«لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَى الله»** وهذا عين ما قال الجمل، فمن سجد اقترب من الله ضرورة فيشهده الساجد في علوه، ولهذا شرع للعبد أن يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى ينزهه عن تلك الصفة، فالسجود إذا تحقق به العبد علم نزول الحق من العرش إلى السماء الدنيا، وذلك سجود القلب يطلب العبد في نزوله كما يطلبه العبد في سجوده، ومن لم يقف في هذا الذكر على الذي نبهت عليه وأمثاله فما هو صاحب هذا الهجير فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان هجيره ومنزله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]

[نظم: المجتثّ]

مـا أجْـهَـلَ الـمُـتَـوَلِّـى	بـمـن إلـيـه تَـوَلَّـى
فـلـو رآهُ رآهُ	مـن كـان عـنـه تَـدَلَّـى
ولـو رآه ابـتـداءً	عَـنْ عـيـنـه مـا تَـوَلَّـى
مـا ثَـمَّ عَـيْـنٌ سـواهُ	فـهـو الـذي قـد تَـوَلَّـى
فـمـن يـذوقُ عـذابـاً	مـنـه إذا مـا تَـوَلَّـى
مـن أعْـجَـبِ الـقـول عـنـدي	نُـوَلِّـهِ مَـا تَـوَلَّـى
إذا وَلِـيـتَ أمـوراً	وَلأَكَـهـا فـتَـوَلَّـى

قال الله تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥] اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن التولي عن الذكر المضاف إلى الله ما أطلق الله الإعراض عنه على الانفراد بل ضم إليه قوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] فبالمجموع أمر الحق تعالى نبيه ﷺ إذا وقع بالإعراض عنه فينتج للعارف هذا الذكر خلاف المفهوم منه في العموم، فإن الله له القرب المفرط من العبد سبحانه وتعالى كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، والحياة الدنيا ليس إلا نعيم العبد بربه على غاية القرب الذي يليق بجلاله، ولم يكن مراد المذكر بالذكر إلا أن يدعو الغافل عن الله، فإذا جاء الذاكر ودعا بالذكر فسمعه هذا المدعو وكان معتنى به فشاهد المذكور عند الذكر

في حياته الدنيا أمر الله هذا المذكر أن يعرض عن هذا المذكور لئلا يشغله بالذكر عن شهود مذكوره والنعيم به فقال الحق يخاطبه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩] لأن الذكر لا يكون إلا مع الغيبة ولم يرد إلا الحياة الدنيا وهي نعيم القرب، وهذا من باب الإشارة لمن هو في هذا المقام لا من باب التفسير، ثم تمم وقال: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠] ذمٌّ في التفسير ثناءٌ من باب الإشارة على هذا الشخص وتنبيهاً على رتبته في العلم بالله، فأما ما فيه من الثناء عليه أنه في حال شهوده للحق في مقام القرب فلا يقدر لفنائه على القيام بما يطلبه به الذكر من التكليف، فكأن المذكر ينفخ في غير ضرم لأنه لا يجد قابلاً فأمر بالإعراض عنه لما في ذلك الذكر بهذه الحالة من سوء الأدب في الظاهر مع الذكر، فلو كان هذا السامع عنده من القوّة أن يشهد الحق في كل شيء لشهده في الذكر، فلم يكن الحق يأمر المذكر بالإعراض عنه ولا كان يتولى السامع، فهذا بعض رتبته في هذه الآية وذلك مبلغه من العلم، فإذا أنتج لهذا الذاكر هذا الذكر ما ذكرناه فهو صاحبه، وإن فقد هذا الذي ذكرناه وأخذه على طريق الذم فليس هو بصاحب هجير، فإن الذم في هذا الذكر هو المفهوم الأول، فما زال مما هم عليه عامّة الناس في الفهم، ولا بد أن يكون لصاحب الهجير خصوص وصف يتميز به وهو ما ذكرناه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]

[نظم: البسيط]

اصْدَعْ بربِّك أو بأمرٍ منه تَكُنْ ... ممن يُكَلِّمُهُ الرحمٰنُ تَكْلِيما

سَلِّمْ إليه الذي جاءت أوامره ... به من الحكم في الأعيان تَسْلِيمَا

يعطيك نوراً يُرِيكَ العَيْنَ في عدم ... وفي وجودٍ وأحكاماً وتَحْكِيما

ويُنْزِلَنَّكَ عند الحَقّ منزلةً ... ما نالها أحدٌ قَدْراً وتَعْظِيما

ويَمْنَحَنَّك عِلْماً لَسْتَ تَعْرِفُهُ ... به وتُرْزَقُ آداباً وتَعْلِيمَا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الحق لا يقاوم إلا بالحق فيكون هو الذي يقاوم نفسه، وهو معنى قوله ﷺ: «**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ**» فإذا اتصف العبد بصفة الجبروت والكبرياء قصمه الحق فإنه تعالى لا يقهر إلا المنازع، ولهذا العارف لا يتجلى له الحق في الاسم القاهر أبداً لأنه غير منازع، فالعارف يتجلى بالاسم القاهر ولا يتجلى له الحق فيه، وهذه الصفة في المخلوقين لا تكون قط عن حقيقة بل يعلمون عجزهم وقصورهم، وإنما ذلك صورة ظاهرة كبرق الخلب، فعلى قدر ما يظهر من هذه الصفة يتوجه القهر الإلهي والبطش الشديد، ولما اختلف المحل على الصفة لذلك ظهر الأقوى على الأضعف، فما وقع التفاضل إلا في المحل لا في الصفة، فإذا صدع بأمر الله فالقهر بأمر الله لا له فنفذ في المصدوع لأنه ما قال له اصدع إلا ولا بد أن يكون ذلك قابلاً للنفوذ فيه حتى يسمى مصدوعاً، فلو كان لا يقبل النفوذ

لكان هذا الأمر عبثاً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فإنه لا ينفذ في المشرك إذ لو نفذ لوحد فقال له: ﴿وَأَعْرِضْ﴾ لأنهم ليسوا بمحل فيأمر الرسول المشرك من غير صدع، والذي علم منه أنه يجيب ويقبل الأمر ولو على كره هو الذي يصدع بالأمر، فإذا تحقق العبد بهذا الذكر ولم ينكشف له من يقبل أمر ربه ممن لا يقبله فما هو في بعض الوجوه ممن دعا إلى الله على بصيرة، فإن الداعي على بصيرة لا بدّ أن يكون آمراً في حق طائفة وصادعاً بالأمر في حق طائفة، فيعلم من يتأثر لأمره ممن لا يتأثر، ففائدة هذا الذكر تنوير البصائر وكمال الدعوة إلى الله وهي مدرجة الرسل عليهم السلام والكمل من الورثة في الدعاء فتجد كلامهم كأنه القرآن جديداً لا يبلى، فيفتح للمؤمن به المعاني دائماً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثامن والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله وهجيره: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]

[نظم: البسيط]

مَنْ يَذْكُرِ اللَّهَ في أحواله أبَداً ... يَذْكُرْهُ فيها فلا تنفكُّ تَذْكُرُهُ

فإنَّ ذِكْرَكَ ذِكْرُ الحقّ ليس سوى ... ما قلتُه وكذا في الكشف تُبْصِرُهُ

الحقّ عينُ وُجُودِ الكون فاعتبروا ... العَيْنُ تشهدُه والوَهْمُ يَحْصُرُهُ

والعقلُ يَنفي بحُكْم الفِكْر صُورَتَهُ ... والفِكْرُ يسترُه والكَشْفُ يُظْهِرُهُ

والعقلُ بينهما حارتْ خواطرُه ... هذا يُنَزِّهُهُ وذا يُصَوِّرُهُ

وليس يدري الذي فيه يُقَلِّدُهُ ... فالله يُرْشِدُهُ والله يَنْصُرُهُ

إذا رأى العقلُ ما قلناه فيه رأى ... أمراً عظيماً ونوراً فيه يَبْهَرُهُ

وكلّ ذلك حَدٌّ و الحُدُودُ أبَتْ ... فليس شيءٌ من الأشياء يَحْجُرُهُ

قال الله تعالى جده وكبرياؤه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى﴾ [الأحزاب: ٤٣] فوصف نفسه بالتأخر في الذكر عن ذكر العبد، وهنا كان ذكر العبد يعطي في نفس الحق الذكر لعبده كما يعطى السائل الإجابة في الحق، ومن هذه الحضرة ظهر تأثير الكون في الوجود الحق، فإذا كان الذاكر صحيح الذكر وهو أن يسمع بذكره المذكور وهو صادق في أنه يذكره إذا ذكره عبده فلا بد أن يسمعه ذكره لصدقه في قوله: فمن لم يسمع ذكر ربه إياه عند ذكره فيتهم نفسه في ذكره وأنه ما وفى بشرط الذكر الموجب لذكر ربه إياه، وهنا سر لا يمكن كشفه من أجل الدعوى، وهو أن الله قد أعلمنا بما تذكره من تكبير وتهليل وتسبيح وتقديس وتحميد وتمجيد كل ذلك معلوم مقرر، وما أعلمنا بما يذكرنا، فإذا ذكره صاحب هذا الذكر ووفى الشرط في الإخلاص والحضور فعلامته أن يسمع ما يذكره به ربه فيعلم ما يذكره به كما أعلمه على لسان الرسول ما يذكر به ربه، فإذا لم يعلم ذلك فما هو ذلك الذاكر ولا صاحب هجير فليلزم ما قلناه فإنه لا علامة له على صحة ذكره إلا ما ذكرناه خاصة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب التاسع والأربعون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥، ٦]

[نظم: البسيط]

إذا تَجلَّتْ صفاتُ الحَقِّ في أحَدِ ... يُعَظِّمُ الكَشفُ ذاك الواحِدَ الأَحَدَا

ولو يُعاتبه فيه مُنَزِّهُهُ ... فإنه يقبل العَتْبَ الذي وَرَدا

فإنه عالمٌ بما به وَرَدَا ... وعالمٌ بالذي في عَتْبِهِ قَصَدا

إن الأمور إذا انسَدَّتْ مسالكُها ... فليس يفتحُها إلا الذي وَجَدَا

لولا الصفاتُ التي في خَلْقِهِ ظَهَرَتْ ... لما عَشِقْتُ بها مالاً ولا وَلَدَا

ولا اتخذتُ وجودَ الأهلِ لي سَكَناً ... ولا الملوكَ ولا الأسبابَ لي سَنَدَا

هذي المطالب قد عَزَّتْ مطالبُها ... وليس يعرفُها إلا الذي شَهِدَا

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله لما فرق بين ما يستحقه الكون من الصفات وبين ما تستحقه الذات من الصفات أو الجناب الإلهي عظم عند العارفين بذلك نعت الحق، فحيثما رأوه مالوا إليه ابتداء لعزته كلما بدا لهم، فإذا عوتب العارف في ذلك قبل العتب هنالك خاصة ولم يطرده فمتى تجلى له نعت إلهي مثل ذلك أيضاً تصدى له وعظمه، فإن عوتب كان حاله فيه مثل الحال الأول، فإن طرد العتب في كل نعت من نفسه فليس هو صاحب ذوق وإنما هو صاحب قياس في الطريق فلا يتميز في عبيد الاختصاص أبداً، فإنه إذا طرد ذلك عامل نعت الحق بما لا يجب، وهنا زلت أقدام طائفة من المتشرعين ولم يكن ينبغي لهم ذلك، فإن رسول الله ﷺ قد نبه على ما قلناه، وجعلني أن أحتج به على ما قررناه وهو قوله ﷺ: «إذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ» وقال عز وجل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

واعلم أن الملك العزيز في قومه ما جاء إليك ولا نزل عليك إلا وقد ترك جبروته خلف ظهره أو كان جبروتك عنده أعظم من جبروته، فعلى كل حال قد نزل إليك فأنزله أنت منزلته من نفسه التي يسرّ بها تكن حكيماً، وما عاتب الله نبيه في الأعمى والأعبد إلا بحضور الطائفتين، فبالمجموع وقع العتب وبه أقول لا مع الانفراد، فتعظيم الملوك والرؤساء من تعظيم ربك، وتعظيم الفقراء جبر لا غير لانكسارهم في فقرهم، فإن كان الفقراء من فقراء الطريق فليس ذلك بجبر عنده فإنه لا يزول عنه فقره وانكساره بتعظيمك وقبولك وإقبالك، فإن المشهود له إنما هو ربه، وإنما الجبر إنما هو للفقراء من الله، فالذاكر بهذا الذكر لا يزال معظماً صفة الحق ظهرت على أي محل ظهرت، وإن عوتب اقتصر على الشخص دون غيره فتنبه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الموفي خمسين وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]

[نظم: مخلع البسيط]

إذا تَجَلَّى لمن تَجَلَّى أَصْعَقَهُ ذلك التَّجَلِّي

وإنْ تَوَلَّى عمَّنْ تَوَلَّى أَهْلَكَهُ ذلك التَّوَلِّي

وإنْ تَدَلَّى بمن تَدَلَّى نَوَّرَهُ ذلك التَّدَلِّي

قلتُ الذي قد سمعتموه بالله يا سيِّدي فقُلْ لي

لمّا رأيتُ الذي تجلَّى أَشْهَدَني فيه عَيْنَ ظِلِّي

من لي إذا لم أكنْ سواهُ وليس عيني قل لي فَمَنْ لي

الله لا ظَاهِرٌ سواهُ في كل ضِدٌ وكل مِثْلِ

وكُلِّ جِنْسٍ وكل نَوْعٍ وكُلِّ وَصْلٍ وكُلِّ فَصْلِ

وكُلِّ حِسٌ وكل عَقْلٍ وكل جسم وكل شَكْلِ

اعلم أيدنا الله وإياك أن الأمر في التجلي قد يكون بخلاف ترتيب الحكمة التي عهدت، وذلك أنا قد بينا استعداد القوابل، وأن هناك ليس منع بل فيض دائم وعطاء غير محظور، فلو لم يكن المتجلى له على استعداد أظهر له ذلك الاستعداد هذا المسمى تجلياً ما صح أن يكون له هذا التجلي، فكان ينبغي له أن لا يقوم به دك ولا صعق، هذا قول المعترض علينا، قلنا له: يا هذا، الذي قلناه من الاستعداد نحن على ذلك الحق متجلٍّ دائماً والقابل لإدراك هذا التجلي لا يكون إلا باستعداد خاص، وقد صح له ذلك الاستعداد فوقع التجلي في حقه، فلا يخلو أن يكون له أيضاً استعداد البقاء عند التجلي أو لا يكون له ذلك، فإن كان له ذلك فلا بد أن يبقى، وإن لم يكن له فكان له استعداد قبول التجلي ولم يكن له استعداد البقاء، ولا يصح أن يكون له فإنه لا بد من اندكاك أو صعق أو فناء أو غيبة أو غشية فإنه لا يبقى له مع الشهود غير ما شهد، فلا تطمع في غير مطمع، وقد قال بعضهم: شهود الحق فناء ما فيه لذة لا في الدنيا ولا في الآخرة، فليس التفاضل ولا الفضل في التجلي، وإنما التفاضل والفضل فيما يعطي الله لهذا المتجلي له من الاستعداد، وعين حصول التجلي عين حصول العلم لا يعقل بينهما بون كوجه الدليل في الدليل سواء بل هذا أتم وأسرع في الحكم، وأما التجلي الذي يكون معه البقاء والعقل والالتذاذ والخطاب والقبول فذلك التجلي الصوري، ومن لم يرَ غيره ربما حكم على التجلي بذلك مطلقاً من غير تقييد، والذي ذاق الأمرين فرّق ولا بد، وبلغني عن الشيخ المسن شهاب الدين السهروردي ابن أخي أبي النجيب أنه يقول بالجمع بين الشهود والكلام فعلمت مقامه وذوقه عند ذلك، فما أدري هل ارتقى بعد ذلك أم لا؟ وعلمنا أنه في مرتبة التخيل وهو المقام العام الساري في العموم، وأما الخواص فيعلمونه ويزيدون بأمر

ما هو ذوق العامة، وهو ما أشار إليه السياري ونحن ومن جرى مجرانا في التحقيق من الرجال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الأحد والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]

[نظم: الرمل]

كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ مَا كُلِّفَ بِهْ ... فَبِهِ يَسْعَدُ حَقّاً فانْتَبِهْ

ثُمَّ لِلشَّارِعِ فِيهِ نَظَرٌ ... ويرى الله الذي قد جئت بِهْ

فيرى المُنْصِفَ يسعى جاهداً ... وكذا كُلُّ لبيب مُنْتَبِهْ

يَسْعَى في تحصيلِ زاد مُبَلِّغٍ ... مِنْ حلالٍ لا بزَادٍ مُشْتَبِهْ

إنما ينظرُ في أعمالنا ... من له الحُكْمُ الذي يَحْكُمُ بِهْ

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] ولكل راء عين تليق به فيدرك من المرئي بحسب ما تعطيه قوّة ذلك العين، فثم عين تعطي الإحاطة بالمرئي، وليس ذلك إلا الله، وأما ما يراه الرسول والمؤمنون فليس إلا رؤية خاصة ليس فيها إحاطة فيراه الرسول بحسب ما أرسل به، وكذلك المؤمن يراه بقدر ما علم من هذا الرسول، فليست عين المؤمن تبلغ في الرتبة إدراك عين الرسول، فإن المجتهد مخطىء ومصيب، والرسول حق كله فإن له التشريع، وهو العين المطلوبة لطالب الدلالة، فإذا قامت صورة العمل نشأة كاملة كان العمل ما كان من المكلف يراها الله من حيث أراها الرسول والمؤمنين ومن حيث لا يرونها، أعني تلك الصورة العملية، ويراها الرسول من حيث ما يراها المؤمنون ومن حيث ما يراها، ويرى أيضاً المؤمنون ذلك العمل من حيث يرونها لا من حيث يراها الرسول، فالرسول مقرّر حكم المجتهدين والمجتهدان يتنازعان ويخطّىء كل واحد منهما صاحبه، فلو ساوت الرؤية من كل ذي عين لما كان في العالم نزاع، وإلى الله يرجع الأمر كله في ذلك، فإذا حكم في الأمور بنفسه بماذا يحكم هل بما يراه أو بما يراه الرسول أو بما يراه المؤمنون؟ فصاحب هذا الذكر يرى مواطن في القيامة يحكم فيها الله بما يراه في العمل، ومواطن يحكم فيها الله بما يراه الرسول في العمل لا بما يراه الله، ومواطن يحكم فيها الله بما يراه المؤمنون لا بما يراه الرسول، ومواطن يحكم فيها بالمجموع، فإذا وقف هذا الذاكر على هذه الأحكام وشاهد هذه المواطن فهو صاحب ذكر له، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثاني والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ [النساء: ٦٤]

[نظم: البسيط]

مَن كانَ مِثْلَ أبيه في تَصَرُّفِهِ ... يأتي إلى الحَقِّ مهما نَفْسَهُ ظَلَمَا

واسْتَغْفَرَ اللَّهَ مما قد عصاه به — وزاد قَدْراً على مِقْدَارِهِ وَسَمَا
ثم اجْتَبَاهُ بما قد خَصَّهُ وهَدَى — من الرجوع عليه بالذي حَكَمَا
للشَّرْعِ فيه موازينٌ مُعَدَّلَةٌ — يقضي بها صاحبُ الحَقّ الذي عَلِمَا
في حالة العدل والإحسان يطلبها — منه ويخرج بالإحسان من فَهِمَا

قال الله تعالى مخبراً عن آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] فالظالم نفسه لا الظالم لنفسه هو الذي يرجع إلى ربه، فإن الظالم لنفسه ما خرج عن ربه حتى يرجع إليه فإنه من المصطفين، فالظالم نفسه يجيء للحق المشروع له الذي ظهر الرسول في حياته بصورته، ولذلك كان يقال له رسول الله في التعريف ما كان يقال له محمد فقط، وكذلك أخبر الله في قوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فإذا جاء الظالم إلى الحق المشروع الذي بأيدينا اليوم فإن تجسد له في الصورة المحمدية فيعلم أنه من أصحاب هذا الذكر إما في النوم أو في اليقظة كيف كان، وإن لم يتجسد له فما هو ذلك الرجل، فإذا تجسد له فلا يخلو أن يستغفر الله هذا الظالم نفسه أو لا يستغفر الله، فإن استغفر الله ولم يرَ صورة الرسول تستغفر له فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، فيعلم عند ذلك أنه ما استغفر الله، فإن استغفاره الله في ذلك الموطن يذكر النبيّ ﷺ بالاستغفار لله في حقه، فيجد الله عنده ذلك ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦] وقد ظلمت نفسي وجئت إلى قبره ﷺ فرأيت الأمر على ما ذكرته، وقضى الله حاجتي وانصرفت، ولم يكن قصدي في ذلك المجيء إلى الرسول إلا هذا الهجير، وهكذا تلوته عليه ﷺ في زيارتي إياه عنده قبره فكان القبول وانصرفت، وذلك في سنة إحدى وستمائة، فقد أعلمتك كيف يجيء الظالم نفسه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الثالث والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج: ٢٠]

[نظم: البسيط]

إنّ الإحاطةَ للرّحْمٰن تَحْدِيدُ — مَعَ الوراء ويُقْضَى فيه تَجْرِيدُ
فمن تَجَرَّدَ عن أكتاف نشأته — لم يُقْضَ في عقله لله تَحْدِيدُ
الله أَنْزَهُ أن يُقْضَى عليه بما — يردّه لجلال الله تحميدُ
كمالُه من وجوه الكون أجْمَعِهِ — تسبيحُ حَمْدٍ وتهليلٌ وتَمْجِيدُ

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] لما كان الحق عين الوجود لذلك اتصف بالإحاطة بالعالم، وإنما جعل الله الإحاطة بالوراء للحفظ الإلهي، وذلك لما جعل له عينين وجعلهما في وجهه الذي هو الإمام منه والجنبات، وكل ذلك كان الواقع المسمى عادة، ولم يكن للوراء سبب يقع به الحفظ لهذا المذكور فحفظه الله بذاته ولم يجعل له سبباً يحفظه به سواه، فحصلت نشأة الإنسان بين إمامه وإمام الحق، فما قابله كان شهادة

وما كان وراءه كان غيباً له، فهو من إمامه محفوظ بنفسه ومن خلفه محفوظ بربه، وليس وراء الله مرمى ولو لم يكن الحق من ورائهم محيطاً لأخذ الإنسان من ورائه، فأمن مما يحذره واعتمد على حفظه بما شاهده من إمامه، فحصل له الأمان من إمامه غيباً وشهادة، وحصل له الأمان من ورائه إيماناً، فإن أخذه الله من أي ناحية أخذه من مأمنه، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة أخذها من ورائها، وإما الإحاطة العامة فهي الأخذ الكلي وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] من غير تقييد بجهة خاصة، لكن هو أخذ بتقييد صفة وهو الكفر وليس سوى الستر فأشبه الوراء لأنه لا يدركه الإنسان، فما رأينا أخذ الإحاطة يكون عن شهود أينما ورد، فإذا أخذ الله من أخذ من أوليائه لا يأخذه إلا من ورائه لئلا يفجأه فهو يأخذه برفق حتى لا يشعر، فإذا أحس بذلك أنس لما يجد فيه من اللذة لأنه لا عن مشاهدة تفنيه ولذلك أضرب بأداة بل عن الأول فقال: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ [البروج: ٢١] أي جمع شريف يعني ما هو عليه من الأسماء والنعوت ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢٢] وهو أنت إشارة واعتباراً، وأنت لست منك في جهة وإن كانت الجهات فيك وما ثم سواك، فانتفى الوراء لهذا الإضراب ولم ينتفِ بوجه فإنه عينك وما بقي في الوجود سوى عين واحدة وهو أنت، فتنبه لما أومأنا إليه في هذا الإضراب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب الرابع والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله:

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨]

[نظم: البسيط]

لا تَحسبنَّ رجالاً يفرحون بما ... أَتَوْا وليس لهم فيما أَتَوْا قَدَمُ
ويفرحون بحَمْدِ الخَلْقِ فيه وما ... لهم من الفعل إلا الفَقْدُ والعَدَمُ
وذاك هِجِّيرُ خَتْمِ الأولياءِ ومن ... يَكُنْ له مثل هذا الوَصْفِ يَنْعَدِمُ
وهو الإمامُ الذي رَسَتْ قواعدُهُ ... الطَّيِّبُ الطاهرُ المحسانُ والعَلَمُ
تَعْنُو له أوْجُهُ الأملاك قاطبةً ... والخلقُ تَعْنُو له واللَّوْحُ والقَلَمُ

اعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أني التزمت هذا الذكر أيضاً سنين متعددة حتى كنت أسمى به في بلدي كما كنت أسمى أيضاً بغيره من الأذكار، ورأيت له بركات ظاهرة، فلا بقوله أتوا ولا بقوله بما لم يفعلوا فهو قوله: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ١٧] وقوله: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فيجيء الإنسان بالفعل من كون الفعل ظهر فيه، فيحب أن يحمد بما فعل فيه والفعل ليس له، فله من الالتذاذ بذلك على قدر دعواه إلا أنه التذاذ موجع لكونه يعلم الأمر على خلاف دعواه كالمتكبر الجبار الذي لا يمكن له أن ينتزح عن ضروراته وافتقاره إلى أدنى الأسباب المريحة له من ألمه، فقوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ [آل عمران: ١٨٨] يقول: لا تظن أنهم يلتذون بذلك إشارة

لا حقيقة ويستعذبونه بل لهم فيه استعذاب إن كانوا عارفين، فجمعوا في هذا الذوق بين العذاب والألم فهم من وجه في نعيم ومن وجه في ألم مؤلم كما قال بعضهم: [المجتث]

فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِصَبٍّ سَلِيمِ طَرْفٍ سَقِيمِ
مُنَعَّمٍ بِعَذَابٍ مُعَذَّبٍ بِنَعِيمِ

واعلم أن كل ذكر ينتج خلاف المفهوم الأوّل منه فإنه يدل على ما ينتجه على حال الذاكر كما شرطناه التفسير الكبير لنا إلا لكامل من الرجال، فإنه يعلم جميع ما ينتجه ذلك الذكر لعدم تقييده وخروجه عن تلك الصفات والأسماء التي تحت ولاية الاسم الله، فإن الكامل من الرجال بمنزلة الاسم الله من الأسماء وإن كان له الإطلاق فلا ينطق به إلا مقيداً بالحال أو اللفظ لا بد من ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل: [المجتث]

الباب الخامس والخمسون وخمسمائة
في معرفة السبب الذي منعني أن أذكر فيه
بقية الأقطاب من زماننا هذا إلى يوم القيامة

[نظم: السريع]

لِكُلِّ مَنْعٍ سَبَبٌ ظاهِرٌ أو باطِنٌ لا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِ
فمانعٌ يظهرُ من غيره ومانع يظهرُ من عَيْنِهِ
وقد يكون المَنْعُ من قُرْبِهِ وقد يكون المنعُ من بَيْنِهِ
فمن وجود العقل عن فِكْرِهِ تجدْ وُجُودَ الحَقِّ في صَوْنِهِ
فَزِينَةُ الإنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ إدْرَاكُهُ الزِّينَةَ في شَيْنِهِ

اعلم وفقنا الله وإياك أن الكتب الموضوعة لا تبرح إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفي كل زمان لا بد من وقوف أهل ذلك الزمان عليها، ولا بد في كل زمان من وجود قطب عليه يكون مدار ذلك الزمان، فإذا سميناه وعيناه قد يكون أهل زمانه يعرفونه بالاسم والعين ولا يعرفون رتبته، فإن الولاية أخفاها الله في خلقه، وربما لا يكون عندهم في نفوسهم ذلك القطب بتلك المنزلة التي هو عليها في نفس الأمر، فإذا سمعوا في كتابي هذا بذكره أداهم إلى الوقوع فيه، فينزع الله نور الإيمان من قلوبهم كما قال رويم وأكون أنا السبب في مقت الله إياهم، فتركت ذلك شفقة مني على أمة محمد ﷺ، وما أنا في قلوب الناس ولا في نفس الأمر ولا عند نفسي بمنزلة الرسول يجب الإيمان بي عليهم وبما جئت به، ولا كلفني الله إظهار مثل هذا فأكون عاصياً بتركه، ولا هذه المسألة بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وبسط الرحمة على الكافة أولى من اختصاصها في حقنا، وقد فعل مثل هذا القشيري في رسالته حيث ذكر أولئك الرجال في أوّل الرسالة، وما ذكر فيهم الحلاج للخلاف الذي وقع فيه حتى لا تتطرق التهمة لمن وقع ذكره من الرجال

في رسالته، ثم إنه ساق عقيدته في التوحيد في صدر الرسالة ليزيل بذلك ما في نفس بعض الناس منه من سوء الطوية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السادس والخمسون وخمسمائة

في معرفة حال قطب كان منزله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] وهو من أشياخنا درج سنة تسع وثمانين وخمسمائة رحمه الله

[نظم: مخلع البسيط]

تبارك الملك وللإمام ... بالكَشف والحال والمَقام

وهو الذي لا يزال ملكاً ... في كل حال على الدّوامَ

له الكمالُ الذي تراه ... في كونه أعْيُنُ الأنَامَ

له الكمال الذي تراه ... يزيد قَدْراً على التّمامَ

مُرَتِّباً للأمور كشفاً ... في عالم النُّور والظّلامَ

يشهدُ في الانتباه عيناً ... عَيْنَ الذي كان في المنام

نسأله في الكلام وَحياً ... فجاد بالوحي في الكلام

كان هذا الهجير والمقام لشيخنا أبي مدين، وكان يقول أبداً سورتي من القرآن: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] وهي مختصة بالإمام الواحد من الإمامين، ولها الزيادة دائماً في الدنيا والآخرة فإنها مختصة بالملك، والزيادة إنما تكون من الملك، فإذا تكررت تضاعف على الذاكر ما ينعم الله به على عبده، والناس على مراتب مختلفة، وتكون زياداتهم على حسب مراتبهم بما هم فيه، فمن كان من أهل المعاني كانت الزيادة من المعاني، ومن كان من أهل الحس كانت زيادته من المحسوسات، قد علم كل أناس مشربهم، فلو أعطى في المزيد خلاف ما تعطيه مرتبته لم يقم به رأساً فينسب إلى سوء الأدب، وإذا وافق رتبته وقع به الفرح منه والقبول وزاد في الشكر فتضاعف له المزيد، واعلم أن هذا الذاكر بهذا الذكر الخاص لا بد أن ينقدح له أن عينيه يد الحق الذي بها الملك، فيرى الحق يعطي به من لا يرى أنه يده، فيكون الحق مشكوراً عند المنعم عليهم من جهة هذا الذاكر، فيجني ثمرة نعيم كل منعم عليه فيشركهم في كل نعيم ينالونه من أي نوع كان من الأنعام، وهذا لا يكون إلا لمن كمل من رجال الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الباب السابع والخمسون وخمسمائة

في معرفة ختم الأولياء على الإطلاق

[نظم: الطويل]

ألا إنّ خَتْمَ الأولياء رَسُولُ ... وليس له في العَالِمِينَ عَدِيلُ

هو الرُّوحُ وابْنُ الرُّوح والأمّ مَرْيَم ... وهذا مقامٌ ما إليه سَبِيلُ

فينزل فينا مُقسطاً حَكَماً بنا ... وما كان من حُكْم له فيَزُولُ
فيقتلُ خنزيراً و يَدْمَغُ باطلاً ... وليس له إلا الإله دليلُ
يؤيِّدُهُ في كل حال بآية ... يراها برَأي العين فهو كَفِيلُ
يقيم بأعلام الهُدَى شَرْعَ أحْمَدٍ ... يكون له منه لديه مَقِيلُ
يُفِيضُ عليه من وسيلةِ مُلْكِهِ ... ولكنه في حالَتَيْهِ نَزِيلُ

اعلم وفقنا الله وإياك أن الله تعالى من كرامة محمد ﷺ على ربه أن جعل من أمته رسلاً، ثم إنه اختص من الرسل من بعدت نسبته من البشر، فكان نصفه بشراً ونصفه الآخر روحاً مطهرة ملكاً لأن جبريل وهبه لمريم ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] رفعه الله إليه ثم ينزله ولياً خاتم الأولياء في آخر الزمان يحكم بشرع محمد ﷺ في أمته، وليس يختم إلا ولاية الرسل والأنبياء وختم الولاية المحمدي يختم ولاية الأولياء لتتميز المراتب بين ولاية الولي وولاية الرسل، فإذا نزل ولياً فإن خاتم الأولياء يكون ختماً لولاية عيسى من حيث ما هو من هذه الأمة حاكماً بشرع غيره، كما أن محمداً خاتم النبيين وإن نزل بعده عيسى كذلك حكم عيسى في ولايته بتقدمه بالزمان خاتم ولاية الأولياء وعيسى منهم، ورتبته قد ذكرناها في كتابنا المسمى عنقاء مغرب فيه ذكره وذكر المهدي الذي ذكره رسول الله ﷺ، فأغنى عن ذكره في هذا الكتاب ومنزلته لا خفاء بها، فإن عيسى كما قال: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الأحد والثلاثون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[السفر الثاني والثلاثون]

الباب الثامن والخمسون وخمسمائة
في معرفة الأسماء الحسنى التي لرب العزة
وما يجوز أن يطلق عليه منها لفظاً وما لا يجوز

[نظم: الطويل]

أرى سُلَّمَ الأسماء يَعْلُو ويَسْفُلُ ... وتجري به ريحُ جَنُوبٍ وشَمْأَلُ
فيا عجباً كيف السلامةُ والعَمَا ... شقيقُ الهُدَى والأمرُ ما ليس يفصلُ
ألم تَرَ أن الله في النار يَعْدِلُ ... وفي جنّة الفردوس يُسْدي ويُفْضِلُ
فإن قُلْتَ هذا كافرٌ قُلْتَ عادلٌ ... وإن قلتَ هذا مؤمنٌ قلتَ مُفْضِلُ
فهذا دليلٌ أنّ رَبّيَ واحدٌ ... يُولّي الذي شاء الإلهُ ويَعْزِلُ
فأعيانُنا أسماؤه ليس غيرها ... ففي نفسه يقضي الأُمورَ ويَفْصِلُ

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وليست سوى الحضرات الإلهية التي تطلبها وتعينها أحكام الممكنات، وليست أحكام الممكنات سوى الصور الظاهرة في الوجود الحق، فالحضرة الإلهية اسم لذات وصفات وأفعال، وإن شئت قلت صفة فعل وصفة

تنزيه، وهذه الأفعال تكون عن الصفات والأفعال أسماء ولا بدّ، لكن منها ما أطلقها على نفسه، ومنها ما لم يطلق، لكن جاء بلفظ فعل مثل: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] و﴿سَخِرَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧٩] و﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٦] والله يستهزىء بهم الذي إذا بنيت من اللفظ اسم فاعل لم يمتنع، وكذلك الكنايات منها مثل: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] وهو تعالى الواقي، والنائب هنا السربال وشبه ذلك، ومنها الضمائر من المتكلم والغائب والمخاطب والعامّ مثل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] فقد تسمى في هذه الآية بكل ما يفتقر إليه، فكل ما يفتقر إليه فهو اسم لله تعالى إذ لا فقر إلا إليه، وإن لم يطلق عليه لفظ من ذلك، فنحن إنما نعتبر المعاني التي تفيدنا العلوم، وأما التحجير ورفع التحجير في الإطلاق عليه سبحانه فذلك إلى الله، فما اقتصر عليه من الألفاظ في الإطلاق، اقتصرنا عليه، فإنا لا نسميه إلا بما سمى به نفسه، وما منع من ذلك منعناه أدباً مع الله، فإنما نحن به وله، فلنذكر في هذا الباب الحضرات الإلهية التي كنى الله عنها بالأسماء الحسنى حضرة حضرة، ولنقتصر منها على مائة حضرة، ثم نتبع ذلك بفصول مما يرجع كل فصل منها إلى هذا الباب، فمن ذلك الحضرة الإلهية وهي الاسم الله: [البسيط]

الله الله الـذي حَـكَـمَـتْ ... آيـاتُـه أنَّـهُ فـي كَـوْنِـهِ الـلَّـهُ
سبحانَهُ جَلَّ أن يَحْظَى به أحدٌ ... من العباد فلا إلٰه إلا هُوْ
اخْتُصَّ باسْم فلم يَشْرَكْهُ من أحدٍ ... فيه وذلك قولُ القائلِ اللَّهُ

وهي الحضرة الجامعة للحضرات كلها، ولذلك ما عبد عابد لله إلا هي، وبذا حكم تعالى في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وقوله: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]: [الطويل]

فـلـلَّـه مـا يَـخْـفَـى ولله مـا بَـدَا ... نَعَمْ بل هو الله الذي ليس إلاّ هُوْ

واعلم أنه لما كان في قوّة الاسم الله بالوضع الأوّل كل اسم إلهيّ بل كل اسم له أثر في الكون يكون عن مسماه ناب مناب كل اسم لله تعالى، فإذا قال قائل: يا الله فانظر في حالة القائل التي بعثته على هذا النداء، وانظر أي اسم إلهيّ يختص بتلك الحال، فذلك الاسم الخاص هو الذي يناديه هذا الداعي بقوله: يا الله لأن الاسم الله بالوضع الأوّل، إنما مسماه ذات الحق عينها التي بيدها ملكوت كل شيء، فلهذا ناب الاسم الدال عليها على الخصوص مناب كل اسم إلهي، ثم إن لهذا المسمى من حيث رجوع الأمر كله إليه اسم كل مسمى يفتقر إليه من معدن ونبات وحيوان وإنسان وفلك وملك وأمثال ذلك مما ينطلق عليه اسم مخلوق أو مبدع، فهو تعالى لمسمى بكل اسم المسمى في العالم مما له أثر في الكون، وما ثم إلا من له أثر في الكون، وأما تضمنه لأسماء التنزيه فمأخذ ذلك قريب جداً، وإن كان كل اسم إلهي بهذه المثابة من حيث دلالته على ذات الحق جل جلاله وعز في سلطانه، لكن لما كان ما عدا الاسم من الأسماء مع دلالته على ذات الحق يدل على معنى آخر من سلب أو إثبات بما فيه من الاشتقاق لم يقو في أحدية الدلالة على الذات قوّة هذا الاسم كالرحمن وغيره من الأسماء

الإلهية الحسنى، وإن كان قد ورد قوله تعالى آمراً نبيه ﷺ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فالضمير في له يعود على المدعو به تعالى، فإن المسمى الأصلي الزائد على الاشتقاق ليس إلا عيناً واحدة، ثم إن الله تعالى قد عصم هذا الاسم العلم أن يسمى به أحد غير ذات الحق جل جلاله، ولهذا قال الله عز وجل في معرض الحجة على من نسب الألوهة إلى غير هذا المسمى ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] فبهت الذي قيل له ذلك فإنه لو سماه سماه بغير الاسم الله. وأما ما فيها من الجمعية فإن مدلولات الأسماء الزائدة على مفهوم الذات مختلفة كثيرة، وما بأيدينا اسم مخلص علم للذات سوى هذا الاسم الله، فالاسم الله يدل على الذات بحكم المطابقة كالأسماء الأعلام على مسمياتها، وثم أسماء تدل على تنزيه، وثم أسماء تدل على إثبات أعيان صفات وإن لم تقبل ذات الحق قيام الأعداد وهي الأسماء التي تعطي أعيان الصفات الثبوتية الذاتية، كالعالم والقادر والمريد والسميع والبصير والحيّ والمجيب والشكور وأمثال ذلك، وأسماء تعطي النعوت فلا يفهم منها في الإطلاق إلا النسب والإضافات كالأوّل والآخر والظاهر والباطن وأمثال ذلك. وأسماء تعطي الأفعال كالخالق والرازق والبارىء والمصوّر وأمثال ذلك من الأسماء، وانحصر الأمر وجميع الأسماء الإلهية بلغت ما بلغت لا بد أن ترجع إلى واحد من هذه الأقسام أو إلى أكثر من واحد مع ثبوت دلالة كل اسم منها على الذات لا بد من ذلك فهي حضرة تتضمن جميع الحضرات، فمن عرف الله عرف كل شيء، ولا يعرف الله من لا يعرف شيئاً واحداً أيّ مسمى كان من الممكنات، وحكم الواحد منها حكم الكل في الدلالة على العلم بالله من حيث ما هو إله للعالم خاصة.

ثم إذا وقع لك الكشف بالعمل المشروع رأيت أنك ما علمته إلا به، فكان عين الدليل هو عين المدلول عليه بذلك الدليل والدال، وهذه الحضرة وإن كانت جامعة للحقائق كلها فأخص ما يختص بها من الأحوال الحيرة والعبادة والتنزيه، فأما التنزيه وهو رفعته عن التشبه بخلقه فهو يؤدي إلى الحيرة فيه. وكذلك العبادة، فأعطانا قوة الفكر لننظر بها فيما يعرفنا بأنفسنا وبه، فاقتضى حكم هذه القوّة أن لا مماثلة بيننا وبينه سبحانه وتعالى من وجه من الوجوه إلا استنادنا إليه في إيجاد أعياننا خاصة، وغاية ما أعطى التنزيه إثبات النسب له بكسر النون بنا لما نطلبه من لوازم وجود أعياننا وهي المسمى بالصفات. فإن قلنا: إن تلك النسب أمور زائدة على ذاته وإنها وجودية ولا كمال له إلا بها وإن لم تكن كان ناقصاً بالذات كاملاً بالزائد الوجودي. وإن قلنا ما هي هو ولا هي غيره كان خلفاً من الكلام وقولاً لا روح فيه يدل على نقص عقل قائله وقصوره في نظره أكثر من دلالته على تنزيهه. وإن قلت ما هي هو ولا وجود لها وإنما هي نسب والنسب أمور عدمية جعلنا العدم له أثر في الوجود، وتكثرت النسب لتكثر الأحكام التي أعطتها أعيان الممكنات، وإن لم نقل شيئاً من هذا كله عطلنا حكم هذه القوّة النظرية وإن قلنا إن الأمور كلها لا حقيقة لها وإنما هي أوهام وسفسطة لا تحوي على طائل ولا ثقة لأحد بشيء منها لا من طريق حسيّ ولا فكريّ عقليّ، فإن كان هذا القول

صحيحاً فقد علم، فما هذا الدليل الذي أوصلنا إليه؟ وإن لم يكن صحيحاً فبأيّ شيء علمنا أنه ليس بصحيح؟ فإذا عجز العقل عن الوصول إلى العلم بشيء من هذه الفصول رجعنا إلى الشرع، ولا نقبله إلا بالعقل، والشرع فرع عن أصل علمنا بالشارع، وبأيّ صفة وصل إلينا وجود هذا الشرع وقد عجزنا عن معرفة الأصل فنحن عن الفرع وثبوته أعجز، فإن تعامينا وقبلنا قوله إيماناً لأمر ضروري في نفوسنا لا نقدر على دفعه سمعناه ينسب إلى الله أموراً تقدح فيها الأدلة النظرية، وبأيّ شيء منها تمسكنا قابله الآخر، فإن تأولنا ما جاء به لنرده إلى النظر العقليّ فنكون قد عبدنا عقولنا وحملنا وجوده تعالى على وجودنا وهو لا يدرك بالقياس، فأدانا تنزيهنا إلهنا إلى الحيرة فإن الطرق كلها قد تشوّشت فصارت الحيرة مركز إليها ينتهي النظر العقلي والشرعي.

وأما العبادة فمن حيث هي ذاتية فليست سوى افتقار الممكن إلى المرجح، وإنما أعني بالعبادة التكليف والتكليف لا يكون إلا لمن له الاقتدار على ما كلف به من الأفعال، أو مسك النفس في المنهيات عن ارتكابها، فمن وجه ننفي الأفعال عن المخلوق ونردها إلى المكلف والشيء لا يكلف نفسه، فلا بد من محل يقبل الخطاب ليصح، ومن وجه نثبت الأفعال للمخلوق بما تطلبه حكمة التكليف والنفي يقابل الإثبات، فرمانا هذا النظر في الحيرة كما رمانا التنزيه والحيرة لا تعطي شيئاً، فالنظر العقليّ يؤدّي إلى الحيرة، والتجلي يؤدي إلى الحيرة، فما ثم إلا حائرة، وما ثم حاكم إلا الحيرة، وما ثم إلا الله كان بعضهم إذا تقابلت عنده هذه الأحكام في سرّه يقول: يا حيرة يا دهشة يا حرقاً لا يتقرى، وما هذا الحكم لحضرة أخرى غير هذه الحضرة الإلهية، الحضرة الربانية وهي الاسم الرب: [البسيط]

الـرّبُّ مـالـكـنـا والـربّ مُـصْـلِـحُـنـا ... والـرب ثَـبَّـتَـنَـا لأنـه الـثَّـابـتْ
لـولا وجـودي وكَـوْنُ الـحَـقّ أَوْجَـدَنـي ... مـا كـنـت أدري بـأنـي الـكـائـنُ الـفـائـتْ
فـالـحَـقّ أوجـدنـي مـنـه وأيَّـدَنـي ... بـه لـذلـك أُدْعَـى الـنَّـاطِـقَ الـصَّـامـتْ

ولها خمسة أحكام: الثبوت على التلوين، والسلطان على أهل النزاع في الحق، والنظر في مصالح الممكنات، والعبودة التي لا تقبل العتق، وارتباط الحياة بالأسباب المعتادة. فأما الثبوت على التلوين فهو في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وقوله: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [الشورى: ٤٤] فما من نفس في العالم إلا وفيه حكم التقليب، ألا ترى إلى الشمس التي هي علة الليل والنهار تجري لا مستقر لها ليلاً ولا نهاراً؟ ألا ترى إلى الكواكب ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] ما قال يستقرّون في ثلاثمائة وستين درجة كل درجة بل كل دقيقة بل كل ثانية بل كل جزء لا يتجزأ من الفلك، إذا أنزل الله فيه أي كوكب كان من الكواكب يحدث الله عند نزوله في كل جوهر فرد من عالم الأركان ما لا يعرف ما هو إلا الله الذي أوجده ويحدث في الملأ الأوسط من الأرواح السماوية التي تحت مقعر فلك البروج من العلوم بما يستحقه الحق عز وجل من المحامد على ما وهبهم من المعارف الإلهية ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] والذين في هذا الملأ هم أهل

الجنان وفي عالم الأركان، وفي بعض هذا الملأ هم أهل النار الذين هم أهلها، ويحدث في الملأ الأعلى وهو ما فوق فلك البروج إلى معدن النفوس والعقول إلى العماء من العلوم التي تعطيها الأسماء الإلهية ما يؤديهم إلى الثناء على الله بما ينبغي له تعالى من حيث هم لا من حيث الأسماء، فإن الأسماء الإلهية أعظم إحاطة مما هم عليه، فإن تعلقها في تنفيذ الأحكام غير متناه.

وأما السلطان الذي لهذه الحضرة على أهل النزاع في الحق فهو أن المقالات اختلفت في الله اختلافاً كثيراً من قوّة واحدة وهي الفكر في أشخاص كثيرين مختلفي الأمزجة والأمشاج والقوى، ليس لها من يمدّها إلا مزاجها الطبيعي، وحظ كل شخص على الطبيعة ما يعطيه من المزاج الذي هو عليه، فإذا أفرغت قوّتها فيه حصل له استعداد به يقبل نفخ الروح فيه فيظهر عن النفخ، وتسوية الجسم الطبيعي صورة نورية روحانية ممتزجة بين نور وظلمة، ظلمتها ظل ونورها ضوء، فظلها هو الذي مده الرب فهو ربانيّ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] ونورها ضوء لأن استنارة الجسم الطبيعيّ، إنما كان بنور الشمس، وقد ذكر الله أنه جعل الشمس ضياء وجعل القمر نوراً، فلهذا جعلنا نورها ضوءاً من أجل الوجه الخاص الذي أضاء كل موجود، أو من كون إفاضة الضوء على مرآة الجسم المسوّى، فظهر في الانعكاس ضوء الشمس كظهوره من القمر، فلذا سمينا الروح الجزئي نوراً لأنّ الله جعل القمر نوراً فهو نور بالجعل، كما كانت الشمس ضياء بالجعل، وهي بالذات نور والقمر بالذات محو، فللقمر الفناء وللشمس البقاء: [الوافر]

فللقمر الفناءُ بكلّ وَجْهٍ ... وللشمسِ الإضاءةُ والبَقَاءُ
وللوَجْهِ الجَمِيلِ بكلّ حُسْنٍ ... لنا منه البشاشةُ واللّقاءُ
حَمَيْنَا حُسْنَهُ من كل عَيْنٍ ... كما يَحْمِي من الشجر اللّحاءُ
نَزَلْنَا بالسماء على وجودٍ ... له العَرْشُ المحيطُ له العَمَاءُ
له الإقبالُ والإدبارُ فينا ... له حُكْمُ السَّنَا وله السّناءُ
إذا يَدْنُو فمَجْلِسُهُ رَحِيبٌ ... وإنْ يَعْلُو بنا فلنا الثناءُ
له حُكْمُ الإرادة في وجودي ... هو المختارُ يفعل ما يشاءُ

ثم تبعث القوى الروحانية والحسية لخلق هذا الروح الجزئي المنفوخ بطريق التوحيد لأنه قال: ﴿وَنَفَخْتُ﴾ [الحجر: ٢٩] وأما روح عيسى فهو منفوخ بالجمع والكثرة، ففيه قوى جميع الأسماء والأرواح فإنه قال: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ [التحريم: ١٢] بنون الجمع فإن جبريل عليه السلام وهبه لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] فتجلى في صورة إنسان كامل، فنفخ وهو نفخ الحق كما قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، فلما تبعته هذه القوى كان منها القوّة المفكرة أعطيت للإنسان لينظر بها في الآيات في الآفاق وفي نفسه ليتبين له بذلك أنه الحق، واختلفت الأمزجة فلا بد أن يختلف القبول، فلا بد أن يكون التفاضل في التفكر، فلا بد أن يعطي النظر في كل عقل خلاف ما يعطي الآخر حتى يتميز في أمر ويشترك مع غيره في أمر، فهذا سبب

اختلاف المقالات، فيحكم الرب بين أصحاب هذه المقالات بما يجيء به الشرع المنزل فتبقى العقول واقفة في أدلتها، ورجع اختلاف نظرها في المواد الشرعية بعدما كانت أوّلاً ناظرة بالنظر العقليّ وذلك ليس إلا للمؤمنين والمؤمنات خاصة، فالواقفون مع حكم الرب في ذلك بين المتنازعين هم المؤمنون ولهم عين الفهم، فاختلفوا مع الاتفاق فاختلافهم في المفهوم من هذا الذي حكم به الرب في حق الحق، وهذا هو الحق الذي نصبه الشرع للعباد وبما سمى به نفسه نسميه وبما وصف به ذاته نصفه لا نزيد على ما أوصل إلينا ولا نخترع له اسماً من عندنا.

وأما نزاع غير المؤمنين في اختلاف عقائدهم فيكون الشارع واحداً منهم في كونه نزع في الحق منزعاً لم ينزعوه لكونهم غير مؤمنين، فالحاكم بينهما أعني بين الشرع والعقلاء غير المؤمنين إنما هو الله بصور التجلي به يقع الفيصل بينهما ولكن في الدار الآخرة لا هنا، فإن في الدار الآخرة يظهر حكم الجبر فلا يبقى منازع هناك أصلاً. ويكون الملك هناك لله الواحد القهار، وتذهب الدعاوى من أربابها، وتبقى المؤمنون هنالك سادات الموقف على كل من في الموقف.

وأمّا النظر في مصالح الممكنات الذي لهذه الحضرة فاعلم أن الممكنات إذا نظرتها من حيث ذاتها لم يتعين لقبولها من الأطراف طرف تكوّن به أولى، فيكون الرب ينظر بالأولوية في وجودها وعدمها وتقدّمها في الوجود وتأخرها ومكانها ومكانتها، ويناسب بينها وبين أزمنتها وأمكنتها وأحوالها، فيعمد إلى الأصلح في حقها فيبرز ذلك الممكن فيه لأنه لا يبرزه إلا ليسبحه ويعرفه بالمعرفة التي تليق به مما في وسعه أن يقبلها ليس غير ذلك، فلهذا ترى بعض الممكنات يتقدم على بعض ويتأخر ويعلو ويسفل ويتلوّن في أحوال ومراتب مختلفة من ولاية وعزل وصناعة وتجارة وحركة وسكون واجتماع وافتراق وما أشبه ذلك، وهو تقليب ممكنات في ممكنات في غير ذلك ما تتقلب.

وأمّا العبودة التي لا تقبل العتق فهي العبودة لله فإن العبودة على ثلاثة أقسام: عبودة لله، وعبودة للخلق، وعبودة للحال وهي العبودية فهو منسوب إلى نفسه، ولا يقبل العتق من هذه الثلاثة إلا عبودة الخلق وهي على قسمين: عبودة في حريّة وهي عبوديتهم للأسباب فهم عبيد الأسباب وإن كانوا أحراراً، وعبودية الملك وهي العبودية المعروفة في العموم التي يدخلها البيع والشراء فيدخلها العتق فيخرجه عن ملك المخلوق، وبقيت الحيرة في ملك الأسباب هل يخرج من استرقاق الأسباب أم لا؟ فمن يرى أن الأسباب حاكمة عليه ولا بد ومن المحال الخروج عنها إلا بالوهم لا في نفس الأمر قال ما يصح العتق من رق الأسباب ومن قال بالوجه الخاص وهو الذي لا اشتراك فيه قال بالعتق من رق الأسباب وعتقه معرفته بذلك الوجه الخاص، فإذا عرفه خرج عن رق الأسباب وأما عبودة الله وعبودة العبودية وهي عبودة الحال فلا يصح العتق فيها جملة واحدة.

وأما ارتباط الحياة بالأسباب المعتادة فأظهر ما يكون فيما يقع به الغذاء لكل متغذٍ من الغذاء المعنوي والمحسوس، فالغذاء المحسوس معلوم والغذاء المعنوي ما تتغذى به

العقول، وكل من حياته بالعلم كان ما كان وعلى أيّ طريق كان، فكم من علم يحصل للعالم به من طريق الابتلاء وذلك لإقامة الحجة فيمن من شأنه الطلب وهو سارٍ في جميع الموجودات، وقد بينا ذلك في عضو البطن من مواقع النجوم، ولولا التطويل بينا في هذه الحضرة ما يتعلق من الأسرار بها فلا ننبه من كل حضرة إلا على طرف منها، ولهذا الاسم الرب إضافات كثيرة تجتمع في الإضافة وتفترق بحسب ما يضاف إليه، فثمّ إضافة للعالمين ولكاف الخطاب من مفرد ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٨] ومثنى ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] ومجموع ربكم، وإلى الآباء، وإلى ضمير الغائب ربه وربهم، وإلى السماء والسمٰوات، وإلى الأرض، وإلى المشرق والمغرب، وإلى المشارق والمغارب، وإلى الناس، وإلى الفلق، وإلى ضمير المتكلم فلا تجده أبداً إلا مضافاً، فعلمك به من حيث من هو مضاف إليه فافهم، والكلام في هذه التفاصيل يطول، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الرحموت الاسم الرحمن الرحيم

[نظم: الوافر]

إلى الرَّحْمٰن حِلّي وارْتحالي ... لأَحْظَى بالجلال وبالجمالِ

فإنّ الحَقَّ كان بنا رحيماً ... رؤوفاً يوم يدعوني نَزَالِ

مبالغة في الرحمة الواجبة والامتنانية قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ومن أسماء الله تعالى: الرحمن الرحيم وهو من الأسماء المركبة كـ «بعلبك» و «رام هرمز» وإنما قبل هذا التركيب لما انقسمت رحمته بعباده إلى واجبة وامتنان، فبرحمة الامتنان ظهر العالم، وبها كان مآل أهل الشقاء إلى النعيم في الدار التي يعمرونها وابتداء الأعمال الموجبة لتحصيل الرحمة الواجبة وهي الرحمة التي قال الله فيها لنبيه ﷺ على طريق الامتنان ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] رحمة امتنان وبها رزق العالم كله فعمت، والرحمة الواجبة لها متعلق خاص بالنعت والصفات التي ذكرها الله في كتابه وهي رحمة داخلة في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فمنتهى علمه منتهى رحمته فيمن يقبل الرحمة، وكل ما سوى الله قابل لها بلا شك، ومن عموم رحمته ورحموته نفس الرحمن وإزالة الغضب عنه الذي لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، إن غضب بشهادة المبلغين عنه الإرسال عليهم الصلاة والسلام في الصحيح من النقل، وسميت هذه الحضرة باسم المبالغة لعمومها ودخول كل شيء فيها، فلما كان لها من التعلق بعدد الممكنات على أفراد كل ممكن وبعدد المناسبات الموجبة التركيب وهي لا تتناهى فرحمة الله غير متناهية، ومنها صدرت الممكنات، ومنها صدر الغضب الإلهيّ، ولما صدر عنها لم يرجع إليها لأنه صدر صدور فراق لتكون الرحمة خالصة محضة ولذلك تسابقا، فما تسابقا إلا عن تميز وانفراد، وجميع ما سوى الغضب الإلهيّ وجد من الرحمة في عين الرحمة فما خرج عنها: [مخلع البسيط]

فَرَحْمَةُ الله لا تُحَدُّ ... وكلُّ ما عندها مُعَدُّ
وكل من ضلَّ عن هُدَاهَا ... فإنه نحوها يُرَدُّ
فالقربُ منها هو التداني ... وما لديها من بَعْدُ بُعْدُ
فلا تَقُلْ إنها تناهتْ ... فما لها في الوجود حَدُّ
بها تَمَيَّزَتْ عنه فانظُرْ ... فالرَّبُّ رَبٌّ والعَبْدُ عَبْدُ

ومن علم سبب وجود العالم ووصف الحق نفسه بأن أحب أن يعرف فخلق الخلق وتعرّف إليهم فعرفوه ولهذا سبح كل شيء بحمده علم من ذلك أوّل متعلق تعلقت به الرحمة، فالمحب مرحوم للوازم المحبة ورسومها. واعلم أن الحكم على الله أبداً بحسب الصورة التي يتجلى فيها، فما يصح لتلك الصورة من الصفة التي تقبلها، فإن الحق يوصف بها ويصف بها نفسه، وهذا في العموم إذا رأى الحق أحد في المنام في صورة أي صورة كانت حمل عليه ما تستلزمه تلك الصورة التي رآه فيها من الصفات وهذا ما لا ينكره أحد في النوم فمن رجال الله من يدرك تلك الصورة في حال اليقظة ولكن هي في الحضرة التي يراها فيها النائم لا غيرها، وهذه المرتبة يجتمع فيها الأنبياء عليهم السلام والأولياء رضي الله عنهم، وهنا يصح كون الرحمة وسعت كل شيء، وهذه الصورة الإلهية في هذا الحضرة من الأشياء، فلا بد أن تسعها رحمة الله إن عقلت والانتقام من رحمة المنتقم بنفسه في الخلق ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ عن مثل هذا ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤] ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٩] ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] وإذا وفق الله عبده للتوبة فقد وفقه لما لله به فرح، فإن الله يفرح بتوبة عبده في الصحيح فذلك من رحمة الله، والأخبار النبوية في ذلك أكثر من أن تحصى كثرة.

حضرة الملك والملكوت وهو الاسم الملك

[نظم: الكامل]

إن المَلِيكَ هو الشَّديدُ فكُنْ بِهِ ... ملكاً على الأعداء حتى تَمْتَلِكْ
فإذا ملكتَ النَّفْسَ عن تصريفها ... فيما تريدُ تَكُنْ به نِعْمَ المَلِكْ

وأيضاً: [الكامل]

إن المَلِيكَ هو الشَّديدُ فكُنْ بِهِ ... وله مليكاً في القيامة تَسْعَدْ
لو لم يكن من مُلْكِهِ إلا الذي ... يوم القيامة في السعادة تُشْهَدْ

اعلم أن الملك والملكوت لهما الاسم الظاهر والباطن وهو عالم الغيب وعالم الشهادة، وعالم الخلق، وعالم الأمر، وهو الملك المقهور، فإن لم يكن مقهوراً تحت سلطان الملك فليس بملك، ومن كان باختيار ملكه لا باختيار نفسه في تصرّفه فيه فليس ذلك بملك ولا ملك، بل منزلة من هو بهذه المثابة في ملكه منزلة المتنفل في العبادة، فهو عبد اختيار لا عبد اضطرار، يعزل ملكه إذا شاء ويوليه إذا شاء، والملك المجبور المضطر ليس

كذلك فهو تحت سلطان الملك، فإذا نفذ أمره في ظاهر ملكه وفي باطنه فذلك الملكوت، وإن اقتصر في النفوذ على الظاهر وليس له على الباطن سبيل فذلك الملك، وقد ظهرت هاتان الصفتان بوجود المؤمن والمنافق في اتباع الرسل صلوات الله عليهم، فمنهم من اتبعه في ظاهره وباطنه وهو المؤمن المسلم، ومنهم من اتبعه في ظاهره لا في باطنه وذلك المنافق، ومنهم من اتبعه في باطنه لا في ظاهره فذلك المؤمن العاصي، وما جعل الله للإنسان عينين إلا ليدرك بهما هاتين الصفتين عين حس وعين عقل ببصيرة وبصر، لأنه لما خلق من كل زوجين اثنين خلق لإدراكهما عينين، ولما أضاف إلى نفسه الأعين بلفظ الجمع ليدل على الكثرة، فكل عين حافظة مدركة لأمر ما بأيّ وجه كان فهي عين الحق الذي له الحفظ والإدراك فذلك سبب الجمع فيها: [الكامل]

فَهُوَ الحَفِيظُ بِنَفْسِهِ وبِخَلْقِهِ وهو العَلِيمُ بِما لَهُ مِنْ حَقِّهِ

بل وصف نفسه تعالى بالمشيئة والاختيار أثبت بذلك عندنا شرعاً لا عقلاً أن له تصرّفاً في نفسه، وهذا حكم يحيله النظر العقلي بعين البصيرة على الله ويصححه الخبر الشرعي والعين البصري في اختلاف الصور عليه التي يتجلى فيها وبه ثبت ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] و﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] و﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ﴾ [الزمر: ٤]، ففي هذا كله وجه إلى أحدية متعلق الإرادة، ووجه إلى التصرّف في التعلق، والتصرّف في التعلق تصرّف في الإرادة، والإرادة إما ذاته على مذهب نفاة الزائد، وأما صفته على مذهب مثبتي الصفات زائدة، والصحيح في غير هذين القولين، وهو أن الإرادة ليست بأمر زائد على الذات ولا هي عين الذات، وإنما هي تعلق خاص للذات أثبته الممكن لإمكانه في القبول لأحد الأمرين على البدل لولا معقولية هذين الأمرين، ومعقولية القبول من الممكن ما ثبت للإرادة ولا للاختيار حكم ولا ظهر له في العبارات اسم، فمن حضر مع الحق في حضرة الملك والملكوت ولم يعرف العالم ولا ما هو ولا عرف نسبته من الحق ولا نسبة الحق منه فما حضر في هذه الحضرة بوجه من الوجوه ولا كان له حظ في الاسم الملك.

حضرة التقديس وهو الاسم القدوس

[نظم: الرجز]

مَنْ طَهَّرَ النَّفْسَ التي لا تَنْجَلي أعْلامُها فينا يَكُنْ قُدُّوسَا

ويُرَدُّ مَلْكاً طاهراً ذا عِفَّةٍ من كان في تصريفه إبليسا

* * *

[نظم: الوافر]

إلى القُدُّوسِ أعْمَلْتُ المطايا لأحْظَى بالزكاة وبالطُّهُورِ

وبالعَرْشِ المُحيط وساكنيه وبالأمر العَليّ من الأمورِ

فإن القُدْسَ ليس له نظيرٌ به أخيا له وبه نُشُوري
وإنَّ الحقَّ ليس به خفاءٌ وصَدْرُ الحق منا في الصُدُورِ

سبوح قدوس مطهر من الأسماء النواقص والأسماء النواقص هي التي لا تتم إلا بصلة عائد، فإن من أسمائه سبحانه الذي وما في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وفي قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] وأما ما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] في بعض وجوه ما في هذا الموضع فإن ما قد تكون هنا مصدرية، وقد تكون بمعنى الذي فتكون ناقصة فتكون هنا اسماً لله عز وجلّ. فاعلم أن الله لما خلق الأسباب وجعلها الظاهرة لعباده وفعل المسببات عندها وتخيل الناظرون أنها ما خلقت إلا بها، وهذا هو الذي أضل الخلق عن طريق الهدى والعلم وحجبهم عن الوجه الخاص الذي لله في كل كائن، فاعلم أن ذلك اللفظ المسمى اسماً ناقصاً وهو ما ومن والذي وأخوات هذه الأسماء إنما مسماها السبب الذي احتجب الله به عن خلقه في خلقه هذه المسببات فهو القدوس أي المطهر عن نسبة الأسماء النواقص إليه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] فأنت بخير النظرين: إما أن يكون كشفك أن الحق هو الظاهر في مظاهر الممكنات فيكون التقديس للممكنات بوجود الحق وظهوره في أعيانها فتقدست به عما كان ينسب إليها من الإمكان والاحتمالات والتغييرات، فليس إلا أمر واحد وأعيان كثيرة كل عين في أحديتها لا تتغير عين لعين بل يظهر بعضها لبعض ويخفى بعضها عن بعض بحسب صورة الممكن، وإما أن يكون الحق عين المظهر ويكون الظاهر أحكام أعيان الممكنات الثابتة أزلاً التي لا يصح لها وجود، فيكون التقديس للحق لأجل ما ظهر من تغير أحكام الممكنات في عين الوجود الحق أي الحق مقدس قدوس عن تغيره في نفسه بتغير هذه الأحكام كما تقول في الزجاج المتلوّن بألوان شتى: إذا ضرب النور فيه وانبسط نور الشعاع مختلف الألوان لأحكام أعيان التلوّن في الزجاج ونحن نعلم أن النور ما انصبغ بشيء من تلك الألوان مع شهود الحس لتلوّن النور بألوان مختلفة، فتقدس ذلك النور في نفسه عن قبول التلوّن في ذاته، بل نشهد له بالبراءة في ذلك، ونعلم أنه لا يمكن أن ندركه إلا هكذا فكذلك، وإن نزهنا الحق عن قيام تغيير ما أعطته أحكام أعيان الممكنات فيه عن أن يقوم به تغيير في ذاته بل هو القدوس السبوح، ولكن لا يكون الأمر إلا هكذا في شهود العين لأن الأعيان الثابتة في أنفسها هذه صورتها، وكذلك روح القدوس تارة يتجلى في صورة دحية وغيره وتجلى وقد سد الأفق، وتجلى في صورة الدر وتنوّعت عليه الصور أو تنوّع في الصور، ونعلم أنه من حيث إنه روح القدس مطهر عن التغيير في ذاته ولكن هكذا ندركه، كما أنه إذا نزل بالآيات على من نزل من عباد الله والآيات متنوعة، فإن القرآن متنوّع ينطبع عند النازل عليه في قلبه بصورة ما نزل به عليه، فتغير على المنزل عليه الحال لتغيير الآيات والكلام من حيث ما هو كلام الله واحد لا يقبل التغيير والروح من حيث ما هو لا يقبل التغيير، فالكلام قدوس، والروح قدوس، والتغيير موجود فتنظر في مدلول الآيات فإذا كان مدلولها الممكنات فالتقديس للحق، وإذا كان مدلول

الآية الحق فما هو من حيث عينه لأنه قدوس وإنما هو من حيث اسم ما إلهي من الأسماء، وهذه فائدة الدلالة.

حضرة السلام الاسم الإلهي السلام

[نظم: الكامل]

لـمـا تَـسَـمَّـى بـالـسـلام لـخَـلْـقِـهِ كـان الـسّـلام لـه الـمـقـامُ الـشـامـخُ
والـحُـكْـمُ فـيـهـم بـالـذي قـد شـاءه والـعـزُّ والـمَـجْـدُ الـتَّـلِـيـدُ الـبـاذخُ

* * *

[نظم: الكامل]

إن الـسَّـلامَ تَـحِـيَّـةٌ مـن رَبِّـنـا فـيـنـا ومـن أسـمـائـه نـرجـو الـسَّـلامْ
ولـنـا الـتـأَخُّـرُ عـن عُـلُـوِّ مَـقَـامِـهِ ولـه الـتَّـقَـدُّمُ والـتَّـحَـكُّـمُ والأَمَـامْ
لـمـا تَـسَـمَّـى بـالـسـلام لـخَـلْـقِـهِ حـارتْ عـقـولُ الـواصـلـيـن مـن الأنَـامْ

قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وهي دار ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨] فهم فيها سالمون. واعلم أن السلامة التي للعارف هي تنزيهه من دعوى الربوبية على الإطلاق إلا أن يظهر عليه نفحاتها عندما يكون شهوده كون الحق جميع قواه فيكون دعوى، فيكون سلامته عند ذلك من نفسه، وبها سمي السلام سلاماً لما أراد الصحابة رضي الله عنهم في التشهد أن يقولوا أو قالوا: السلام على الله تحية، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تَقُولُوا السَّلامُ عَلَى الله فَإِنَّ الله هُوَ السَّلامُ**» فإذا حضر العبد وهو عبد السلام مع الحق في هذه الحضرة وكان الحق مرآة له فلينظر ما يرى فيها من الصور، فإن رأى فيها صورة باطنة ومعاينة مشكلة بشكل ظاهره فعلم أنه رأى نفسه وما حصلت له درجة من يكون الحق جميع قواه، وإن رأى صورة غير مشكلة بشكل جسدي مع تعقله أن ثم أمراً ما هو عينه فتلك صورة حق، وأن العبد في ذلك الوقت قد تحقق بأن الحق قواه ليس هو، وإن كان العبد في هذا الشهود هو عين المرآة وكان الحق هو المتجلي فيها فلينظر العبد من كونه مرآة ما تجلى فيه، فإن تجلى فيه ما يقيد بشكله فالحكم للمرآة لا للحق فإن الرائي قد يتقيد بحقيقة شكل المرآة من طول وعرض واستدارة وانحناء وكبر وصغر فترد الرائي إليها ولها الحكم فيه، فيعلم بالتقييد المناسب لشكل المرآة أن الذي رآه قد تحوّل في شكل صورته في أنواع ما تعطيه حقيقته في تلك الحال، وإن رآه خارجاً عن شكل ذاته فيعلم أنه الحق الذي هو بكل شيء محيط، وبأي صورة ظهر فقد سلم من تأثير الصورة الأخرى فيه لأن حضرة السلام تعطي ذلك، ألا ترى الرجل الذي رأى الحق عند رؤية أبي يزيد فمات، وقد كان يرى الحق قبل رؤية الحق في رؤية أبي يزيد فلا يتأثر، فقد رأى الحق في غير صورة مرآته، ومثاله رؤية الشخص نفسه في مرآة فيها صورة مرآة أخرى وما في تلك المرآة الأخرى فيرى المرآة الأخرى في صورة مرآة نفسه ويرى الصورة التي في تلك المرآة الأخرى في صورة تلك المرآة الأخرى فبين الصورة ومرآة الرائي مرآة وسطى بينها وبين الصورة التي فيها، وقد بينا ونبهنا على هذا،

ورغبنا في هذا المقام في رؤية الحق بالرؤية المحمدية في الصورة المحمدية فإنها أتم رؤية وأصدقها، وهذه الحضرة لمن لم يشرك بالله شيئاً ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] والجاهل من أشرك بالله خفياً كان الشرك أو جلياً، وذلك لأنهم يعرفون من أين خاطبهم الجاهلون وما حضرتهم، فلو أجابوهم لانتظموا معهم في سلك الجهالة، فإن كل إنسان ما يكلم إنساناً بأمر ما من الأمور ابتداء أو مجيباً حتى ينصبغ بصفة ذلك الأمر الذي يكلمه به كان ذلك ما كان، وكل ذلك من الحضرات الإلهية علم ذلك من علمه وجهله من جهله، فلم يتمكن لهؤلاء أن يزيدوا على قولهم سلاماً شيئاً، ولو راموا ذلك ما استطاعوا، وهذه الحضرة من أعظم الحضرات منها تقول الملائكة لأهل الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤] ومنها شرعت التحية فينا بالسلام على التعريف والتنكير وفي الصلاة وفي غير الصلاة.

واعلم أن الجاهل هو الذي يقول أو يعتقد ما يصوّره في نفسه، وما لذلك المصوّر اسم مفعول صورة في عينه زائدة على ما صوره هذا القائل والمعتقد في نفسه، فكل ما تطلبه في حضرة وجودية فلا تجده إلا في نفس الذي صوّره أو تلقاه عمن صوّره فذلك الجهل أعني تصويره، وذلك الجاهل أعني الذي صوّره، ومن كان من أهل هذه الحضرة السلامية فإنه عالم بالحضرات الوجودية وما تحوي عليه من الصور، فإذا لم يجد فيها صورة ما خاطبه بها هذا القائل علم أنه جاهل أو مقلد لجاهل فلا يزيده على قوله سلاماً شيئاً، وهذا مقام عزيز ما رأيت من أهله أحداً إلى الآن أعني أهل الذوق الذين لهم فيه شهود، وإن كنت رأيت من يصمت عند خطاب الجاهل، فما كل من يصمت عن خطاب الجاهل يصمت من هذه الحضرة وإن علم أن القائل من الجاهلين ولكن لا يقول سلاماً إلا صاحب هذه الحضرة فإن له اطلاعاً على وجود تلك الصورة في نفس القائل، ولا يرى لها صورة في غير محله أصلاً سواء كان ذلك القائل مقلداً أو قائلاً عن شبهة، وكل ما لا صورة له إلا في نفس قائله فإنها تذهب من الوجود بذهاب قوله أو ذهاب تذكر ما صوّره من ذلك، فإنه ما ثم حضرة وجودية تضبط عليه وجوده، وللحروف المنظومة الدالة عليه من المتكلم به أعني أعياناً ثابتة في حضرة الثبوت أعني في شيئية الثبوت في عين هذا القائل، وفي شيئية الوجود الخطابي أيضاً، ولكن مدلولها العدم، فلا بد من ذهاب الصورة من النفس وإن بقيت لها صورة في الخطاب كائنة من حيث ما تشكلت في الهواء ملكاً مسبحاً يعرف أمه وهو القائل ولا يعرف له أباً في حضرة من حضرات الوجود فيبقى غريباً ما له نسب يعرفه سوى الذي تكوّن فيه وهو هذا الجاهل القائل، وبهذا كان الصدق له الإعجاز في الكلام لأنه حق وجودي، بخلاف المزوّر في نفسه ما ليس هو فما له شيء يستند إليه فيظهر قصوره عن غيره، ولذلك نهينا أن نضرب لله الأمثال وهو يضرب الأمثال لأنه يعلم ونحن لا نعلم، فهو عز وجلّ يضرب لنا الأمثال بما له وجود في عينه، ونحن لسنا كذلك إلا بحكم المصادفة، فنضرب المثل إذا ضربناه بما له وجود في عينه وبما لا وجود له إلا في تصوّرنا فنطلب مستنداً فلا نجده فلا يبقى له عين فيزول لزواله ما ضرب له المثل لأنه لا يشبهه، كما يزول نور السراج من البيت إذا ذهب السراج منه، وقد

رأينا جماعة من المنتمين إلى الله يتسعون في ضرب المثل من علماء الرسوم ومن أهل الأذواق، كما أنهم يتكلمون في ذات الحق بما يقع به التنزيه لها من كونها لو كانت كذا لزم أن تكون كذا فإذن ليست بكذا، والكلام في ذات الله عندنا محجور بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] من باب الإشارة، وإن كان له مدخل في التفسير أيضاً، ولا يقع في مثل هذا إلا جاهل بالأمر، وفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ما يقع به الاستغناء لو فهموه، وما رأينا أحداً ممن يدّعي فيه أنه من فحول العلماء من أي صنف كان من أصناف النظار إلا وقد تكلم في ذات الحق غير أهل الله من تحقق منهم بالله فإنهم تعرّضوا لشيء من ذلك لأنهم رأوه عين الوجود كما أشهدهم فهم يتكلمون عن شهود فلا يسلبون ولا ينفون ولا يشبهون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الأمان وهي للاسم المؤمن

[نظم: الكامل]

مُعْطي الأمَان المُؤمِنُ الرَّبُّ الذي ... ما زال يدعوه الوَرَى بالمُؤْمِنِ
فهو العليمُ بحَقِّهِ ويحقّنا ... وبما له منا وما للمُمْكِنِ

ولهذا الاسم أيضاً: [الوافر]

إذا كان الأَمَانَ لكل خائِفْ ... فقد حاز المَشَاهِدَ والمَوَاقِفْ
وآتاه المُنَزَّهُ كُلَّ شيءٍ ... على كتب وأشباه المَعَارِفْ
فيصبحُ عارفاً لا يَعْتَرِيهِ ... قُصُورٌ في الهِبَاتِ وفي العَوَارِفْ
ولولا غيرةُ الرحمن فينا ... لأثْبَتُّ الأمانَ لكل عَارفْ
ولكنّي سَتَرْتُ لكَوْنِ رَبِّي ... يريد السَّتْرَ في حَقّ المُكَاشَفْ

وهي لعبد المؤمن، فإن كل حضرة لها عبد، كما لها اسم إلهي، فأوّل حضرة تكلمنا فيها هي لعبد الله ويتلوها عبد ربه لا عبد الرب، فإنه ما أتى هذا الاسم في كلام الله إلا مضافاً، ثم عبد الرحمن ثم عبد الملك ثم عبد القدّوس ثم عبد السلام ثم عبد المؤمن وله هذه الحضرة وتحققت بهذه العبودية بعد دخولي هذا الطريق بسنة أو سنتين تحققاً لم ينله في عملي أحد في زماني غيري، ولا ابتلي فيه أحد ما ابتليت فيه، فقطعته بحيث إنه ما فاتني منه شيء، وصفا لي الجوّ ولم يحل بيني وبين خبر السماء، وعصمني الله من التفكر في الله فلم أعرفه إلا من قوله وخبره وشهوده، وبقي فكري معطلاً في هذه الحضرة وشكرني فكري على ذلك وقال لي الفكر: الحمد لله الذي عصمني بك عن التصرّف والتعب فيما لا ينبغي لي أن أتصرّف فيه، فصرفته في الاعتبار وبايعني على أني لا أصرفه إلا في الشغل الذي خلق له متى صرفته فأجبته إلى ذلك فما قصرت في حق قواي كلها حيث ما تعدّيت بها ما خلقت له وحصل لها الأمان من جهتنا في ذلك فأرجو أنها تشكرني عند الله، وأعني القوى الروحانية التي خلق الله فينا.

واعلم أن هذه الحضرة ما لها في الكون سلطان إلا في الأخبار الإلهية، وهي على قسمين عند من دخل إلى هذه الحضرة وتحقق بها القسم الواحد الخبر الإلهيّ الآتي من عند الله المسمى صحفاً أو توراة أو إنجيلاً أو قرآناً أو زبوراً، وكل خبر أخبر به عن الله ملك أو رسول بشري أو كلم الله به بشراً وحياً أو من وراء حجاب، هذا الذي عليه أهل الإيمان وأهل الله. والقسم الآخر يقول به طائفة من أهل الله أكابر في كل خبر في الكون من كل قائل، وأصحاب هذا القسم يحتاجون إلى حضور دائم وعلم بمواقع الأخبار، وأعني بالعلم العلم بمواقع الأخبار وهو أنهم يعرفون الخطاب الوارد على لسان قائل ما ممن له نطق في الوجود أين موقعه من العالم أو من الحق فيبرزون له آذاناً منهم واعية لا يسمعونه إلا بتلك الآذان، فيتلقونه ويطلبون به متعلقه حتى ينزلوه عليه ولا يتعدوه به، وهذا لا يقدر عليه إلا من حصر أعيان الموجودات أعني أعيان المراتب لا أعيان الأشخاص فيلحقون ذلك الخبر بمرتبته فهم في تعب ومشقة، فإن المتكلم مستريح في كلامه وهذا متعوب في سماعه ذلك الكلام فإنه لا يأخذه إلا من الله فينظر من يراد به فيوصله إلى محله فيكون ممن أدّى الأمانة إلى أهلها، ولهذا كان بعضهم يسد أذنيه بالقطن حتى لا يسمع كلام العالم، ولله رجال هان عليهم مثل هذا، فبنفس ما يسمعون الخطاب من الله تقوم معهم مرتبة هذا الخطاب فينزلوه فيها من غير مشقة، والحمد لله الذي رزقنا الراحة في هذا المقام فإنه كشف لطيف، وذلك أن الخطاب الإلهي العام في السنة القائلين من جميع الموجودات مرتبة، ذلك القول معه يصحبه فإنه قول إلهي في نفس الأمر وإن كان لا يعلمه إلا القليل، فعندما يسمعه الكامل من رجال الله تعالى يشهد مع سماعه مرتبته فيجمع بين السماع وشهود الرتبة فيلحقه بها عن كشف من غير مشقة، ولقد رأينا جماعة من أهل الله يتعبون في هذا المقام بطلب المناسبات بين الأخبار وبين المراتب حتى يعثروا عليها، وحينئذٍ يلحقوا ذلك الخبر بأهله فتفوتهم أخبار إلهية كثيرة. وأما إعطاء هذه الحضرة الأمان فليس ذلك إلا للمتحققين بالخوف، فلا تزال المراتب تنظر إلى الأخبار التي ترد على ألسنة القائلين وتعلم أنها لها، وتعلم أن الآخذين بها هم السامعون، وأن السامعين قد يأخذونها على غير المعنى الذي قصد بها فيلحقونها بغير مراتبها، فتلك المرتبة التي ألحقوها بها تنكرها ولا تقبلها، ومرتبتها تعرفها وقد حيل بينها وبينها بسوء فهم السامع، فإذا علموا من السامع أنه على صحة السمع والصدق فيه وأنه لا يتعدى بالخطاب مرتبته كانت المرتبة في أمان من جهة هذا السامع فيما هو لها فتعلم أن حقها يصل إليها فهي معه مستريحة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل سامع بهذه المثابة، فلهذا السامع أجر الأمان وهو أجر عظيم في الإلهيات، فيهزأ الإنسان في كلامه ويسخر ويكفر ويقصد به ما لم يوضع له، وهذا السامع الكامل يأخذه من حيث عينه لا من حيث قصد المتكلم به، فإنه ما كل متكلم من المخلوقين عالم بما تكلم به من حيث هو خطاب حق فيتكلم به من حيث قصده، ويأخذه السامع الكامل من حيث رتبته في الوجود، فقد أعطى هذا السامع الأمان للجانبين: الجانب الواحد إلحاقه برتبته، والجانب الآخر ما حصل لمن قصد به المتكلم به من الأمان من

حصوله عنده من جهة هذا السامع الكامل، فإنه في الزمن الواحد يكون له سامعان مثلاً: الواحد هذا الذي ذكرناه، والآخر على النقيض منه ما يفهم منه إلا ما قصده المتكلم المخلوق فيلحقه بهذه الرتبة في الوقت الذي يأخذه عنها السامع الكامل فهي تحت وجل من هذا السامع الناقص التابع للمتكلم، وفي أمان من هذا السامع الكامل، فلا والله ما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر ما قلناه أولو الألباب الغواصون على درر الكلام.

حضرة الشهادة وهي للاسم المهيمن

[نظم: الكامل]

إنّ الـمُـهَـيْـمِـنَ يَـشْـهَـدُ الأسْـرارا ... فـيـنـا وفـيـه ويَـسْـتُـرُ الأنْـوارا

عَـنَّـا وعـنـه بـنـا إذا مـا نُـورُهُ ... يُـعْـمـي الـبـصـائرَ فيه والأبـصـارا

ولـذاك مـا اتَّـخَـذَ الـحِـجَـابَ لـنَـفْـسِـهِ ... والـجُـنْـدَ والأعـوانَ والأنْـصَـارا

جـاءت بـه الأرسَـالُ مـن عَـرْشِ الـعَـمَـا ... لـيُـحَـيِّـرَ الألْـبَـابَ والأفْـكَـارا

ويـفـوز أهْـلُ الـذِّكْـرِ مـن مَـلَـكُـوتِـهِ ... بـالـذِّكْـرِ حـيـن يـشـاهـدوا الأخـبـارا

صاحبها عبد المهيمن، المهيمن هو الشاهد على الشيء بما هو له وعليه، ولله حقوق على العباد وللعباد حقوق على الله تعالى ذاتية ووضعية، ومن هذه الحضرة يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] فلا بد لصاحب هذه الحضرة من العلم بما لله عليه من الحقوق وبما له عليه من الحقوق لا بد من ذلك، وافترق أهل هذا المقام بعد تحصيل هذا في الحقوق التي لهم عند الله، فمن قائل بها على أنها حقوق، ومن قائل بها لا على أنها حقوق، فيأخذونها منه على جهة الامتنان، وهم القائلون بأن الله لا يجب عليه شيء لكونهم حدوا الواجب بما لا يليق أن يدخل في ذلك جناب الحق، ومن لم يحده بذلك الحد أدخل الحق في الوجوب كما أدخل الحق نفسه فيه فقال: كتب ربكم على نفسه الرحمة. وقال: حرّمت الظلم على نفسي، وقال: وأكره مساءته ولا يرضى لعباده الكفر. وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقال: وما تفعلوا من خير فلن تكفروه[1]، فأدخل نفسه بكل ما ذكرناه تحت حكم الأحكام التي شرعها لعباده من وجوب وحظر وندب وكراهة وإباحة، والحق متى أقام نفسه في خطابه إيانا في صورة ما من الصور فإنا نحمل عليه أحكام تلك الصورة لأنه لذلك تجلى فيها، فنشهد له على أنفسنا ونشهد عليه لأنفسنا، وهذه الشهادة له وعليه لا تكون إلا في يوم الفصل والقضاء أي وقت كان، فإنه ما يختص به يوم القيامة فقط بل قد يقام فيه العبد هنا في حال من الأحوال، بل كل حكم يكون في الدنيا في مجلس الشرع هو من يوم الفصل والقضاء ويدخل في حكم هذه الحضرة، وفي غير فصل ولا قضاء لا يكون لهذه الحضرة حكم وإنما ذلك في حضرة المراقبة، وسترد إن شاء الله تعالى في هذا الباب.

واعلم أنه في هذه الحضرة نزل هذا الكتاب المسمى قرآناً خاصة دون سائر الكتب

(١) هذا ليس نصّ آية كما قد يتبادر إلى الذهن.

والصحف المنزلة، وما خلق الله من أمة من أمم نبي ورسول من هذه الحضرة إلا هذه الأمة المحمدية وهي ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولهذا أنزل الله في القرآن في حق هذه الأمة ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فنأتي يوم القيامة يقدمنا القرآن ونحن نقدم سائر أهل الموقف، ويقدم القراء منا من ليس له من القرآن مثله، فأكثرنا قرآناً أسبقنا في التقدم والرقي في المعراج المظهر للفصل بين الناس يوم القيامة، فإن للقراء منابر لكل منبر درج على عدد آي القرآن يصعد الناس فيه بقدر ما حفظوا منه في صدورهم، ولهم منابر أخر لها درج على عدد آي القرآن يرقى فيها العاملون بما حققوه من القران، فمن عمل بمقتضى كل آية بقدر ما تعطيه في أي شيء نزلت رقي إليها عملاً، وما من آية إلا ولها عمل في كل شخص لمن تدبر القرآن، وفي القيامة منابر على عدد كلمات القرآن، ومنابر على عدد حروفه يرقون فيها العلماء بالله العاملون بما أعطاهم الله من العلم بذلك، فيظهرون على معارج حروف القرآن وكلماته بسور تلك الحروف والكلمات والآيات والسور والحروف الصغار منه، وبه يتميزون على أهل الموقف في هذه الأمة لأن أناجيلهم في صدورهم، فيا فرحة القرآن بهؤلاء فإنهم محل تجليه وظهوره، فإذا تلا الحق على أهل السعادة من الخلق سورة طه تلاها عليهم كلاماً وتجلى لهم فيها عند تلاوته صورة فيشهدون ويسمعون، فكل شخص حفظها من الأمة يتحلى بها هنالك كما تحلى بها في الدنيا بالحاء المهملة، فإذا ظهروا بها في وقت تجلي الحق بها وتلاوته إياها تشابهت الصور فلم يعرف المتلو عليهم الحق من الخلق إلا بالتلاوة فإنهم صامتون منصتون لتلاوته، ولا يكون في الصف الأوّل بين يدي الحق في مجلس التلاوة إلا هؤلاء الذين أشبهوه في الصورة القرآنية الطاهية، ولا يتميزون عنه إلا بالإنصات خاصة، فلا يمرّ على أهل النظر ساعة أعظم في اللذة منها، فمن استظهر القرآن هنا بجميع رواياته حفظاً وعلماً وعملاً فقد فاز بما أنزل الله له القرآن وصحت له الإمامة وكان على الصورة الإلهية الجامعة، فمن استعمله القرآن هنا استعمل القرآن هناك، ومن تركه هنا تركه هناك، وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وورد في الخبر فيمن حفظ آية ثم نسيها عذبه الله يوم القيامة عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين. وما أحسن ما نبه النبي ﷺ على منزلة القرآن بقوله: **«لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ نَسِيتُ آيَةَ كَذَا وَكَذَا بَلْ نُسِّيتُهَا»** فلم يجعل لتارك القرآن أثراً في النسيان احتراماً لمقام القرآن، وقالت عائشة في خلق النبي ﷺ: **«كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ»** وليس إلا ما ذكرناه من الاتصاف به والتحلي على حد ما ذكرناه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العزة وهي الاسم العزيز

[نظم: الوافر]

ألا إنَّ العَزِيزَ هو المَنِيعُ ... له سَتْرُ الوَرَى فهو الرَّفيعُ

يعزُّ وجوده فيعزّ ذاتاً ... ولولا الخلقُ ما ظهر البَديعُ

فقل للمُنْكِرِينَ صَحِيحَ قَوْلي ... حِمَى الرَّحْمٰنِ ذلكُمُ المَنِيعُ

الداخل فيها يدعى في الملأ الأعلى عبد العزيز لم أذق في كل ما دخلته من الحضرات ذوقاً ألذ منه ولا أوقع في القلب لهذه الحضرة المنع، فلها الحدود لا بل لها من الحدود ما يقع به التمييز فيقف كل محدود لا بل كل شيء على عزته، فيكون كل شيء عزيزاً وعبوديته فيه فهو عبد نفسه، فمن هنا ظهر كل من غلبت عليه نفسه واتبع هواها، ولولا الشرع ما ذمّه بالنسبة إلى طريق خاص لما ذمه أهل الله فإن الحقائق لا تعطي إلا هذا، فمن اتبع الحق فما اتبعه إلا بهوى نفسه وأعني بالهوى هنا الإرادة، فلولا حكمها عليه في ذلك ما اتبع الحق، وهذا حكم من اتبع غير الحق، وأعني بالحق هنا ما أمر الشارع باتباعه، وغير الحق ما نهى الشرع عن اتباعه، وإن كان في نفس الأمر كل حق لكن الشارع أمر ونهى، كما أنا لا نشك أن الغيبة حق ولكن نهانا الشرع عنها؛ ولنا: [الطويل]

وحَقِّ الـهَوَى إنّ الـهَوَى سَبَبُ الـهوى ... ولولا الهَوَى في القَلْبِ ما عُبِدَ الهَوَى

فبالهوى يجتنب الهوى، وبالهوى يعبد الهوى، ولكن الشارع جعل اسم الهوى خاصاً بما ذمّ وقوعه من العبد، والوقوف عند الشرع أولى، ولهذا بينا قصدنا بالهوى الإرادة لا غير، فالأمر يقضي أن لا حاكم على الشيء إلا نفسه فيما يكون منه لا فيما يحكم عليه به من خارج، لكن ذلك الحكم من خارج لا يحكم عليه إلا بما تعطيه نفسه من إمضاء الحكم فيه، فكل ما في العالم من حركة وسكون فحركات نفسية وسكون نفسي، فإذا حصل العبد بالذوق في هذه الحضرة فعلامته أن لا يؤثر فيه غيره بما لا يريده ولا يشتهيه، فيمنع ذاته من أثر الغير فيها بما لا يريده، وإنما قلنا بما لا يريده لأنه ما في الوجود نفس إلا وتقبل تأثير نفس أخرى فيها، يقول الحق تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولا أعز من نفس الحق، وقد قال عن نفسه أنه أجاب الداعي عندما دعاه، ولكن هو تعالى شرع لعبده أن يدعوه فقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فما أجابه إلا بإرادته لذلك. ولقد نادى بعض الرعايا سلطاناً كبيراً بمرسية فلم يجبه السلطان فقال الداعي: كلمني فإن الله تعالى كلم موسى، فقال له السلطان: حتى تكون أنت موسى، فقال له الداعي: حتى تكون أنت الله، فمسك السلطان له فرسه حتى ذكر له حاجته فقضاها، كان هذا السلطان صاحب شرق الأندلس يقال له محمد بن سعد بن مردنيش الذي ولدت أنا في زمانه وفي دولته بمرسية، وإن كانت الحقائق تعطيه فإن حمل الأسماء على ذات الحق إنما أعطى ذلك الحمل حقائق المحدثات، فلو زالت لزالت الأسماء كلها حتى الغنى عن العالم إذ لو لم يتوهم العالم لم يصح الغنى عنه، واسم الغنيّ لمن اتصف بالغنى عنه فما نفاه حتى أثبته، فما ثم عزة مطلقة واقعة في الوجود ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فأوقع الاشتراك فيها، ولكن المنافقين لا يعلمون أن العزة للرسول وللمؤمنين وإن كان يعلم العزة ولكن تخيل أن حكمها له ولأمثاله هذا القائل، فعزة الحق لذاته إذ لا إله إلا هو، وعزة رسوله بالله وعزة المؤمنين بالله وبرسوله، ولهذا شرع له الشهادتين، ولكن أولو الألباب لما سمعوا هذا الخطاب تنبهوا لما ذكر المؤمنين، فللّه العزة في المؤمنين فإنه المؤمن، وللرسول العزة في المؤمنين فإنه منهم، فعمت عزة المؤمنين عزة الله ورسوله فدخل

الحق في ضمنهم، وما دخلوا في ضمنه لأحديته وجمعهم، وأحدية الرسول وجمعهم، فلهم الحضرة الجامعة، ولكن نسبة العزة لله غير نسبتها له تعالى من حيث دخوله بالاسم المؤمن في المؤمنين، فإن الحق إذا كان سمع العبد وبصره كانت العزة لله بما كان للعبد به في هذا المقام عزيزاً، ألا تراه في هذا المقام لا يمتنع عليه رؤية كل مبصر ولا مسموع ولا شيء مما تطلبه قوّة من قوى هذا العبد لأن قواه هوية الحق ولله العزة، ويمتنع أن يدركه من ليست له هذه القوة من المخلوقين ولهذا ما ذكر الله العزة إلا للمؤمنين. ثم إن عزة الرسول بالمؤمنين إذ كانوا هم الذين يذبون عن حوزته فلا عزة إلا عزة المؤمن فبالعزة يغلب وبالعزة يمتنع، فهي الحصن المنيع وهي حمى الله وحرمه، ولا يعرف حمى الله ويحترمه إلا المؤمن خاصة وليس المنع إلا في الباطن. وهنالك يظهر حكم العزة. وأما في الظاهر فليس يسري حكمها عاماً في المنع ولا في الغلبة، فالمؤمن بالعزة يمتنع أن يؤثر فيه المخالف الذي يدعوه إلى الكفر بما هو به مؤمن، والكافر بالعزة يمتنع أن يؤثر فيه الداعي الذي يدعوه إلى الإيمان، ولما كان الإيمان يعمّ والكفر يعمّ تطرّق إليهما الذمّ والحمد فإن الله قد ذكر الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله فسماهم مؤمنين فهذا من حكم العزة، وبقي الحكم لله في المؤآخذة بحسب ما جاء به الخبر الحق من عند الله، فالحكيم إذا عرف الحقائق، وأن حكم العزة وإن عمّ فلا يعمّ من كل وجه تعرض عند ذلك الوجود الأثر فيه عن إرادة منه بتأثير تكون فيه سعادته ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] لأنها علمت أنها إن لم تجب مختارة جبرت على الإتيان فجيء بها كما جيء بجهنم، وما وصفها الحق بالمجيء من ذاتها وإنما قال: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣] يعني يوم القيامة، وإنما امتنعت من الإتيان حتى جيء بها لما علمت بما هي عليه وما فيها من أسباب الانتقام بالعصاة من المؤمنين، وما وقعت عينها إلا على مسبح لله بحمده وفيها رحمة الله لكونها دخلت في الأشياء، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فمنعتها الرحمة القائمة بها من الإتيان وأشهدتها تسبيح الخلائق وطاعتهم لله فجيء بها ليعلم من لا يدخلها ما أنعم الله عليه به بعصمته منها، ويعلم من يدخلها أنه بالاستحقاق يدخلها فتجذبه بالخاصية إليها جذب المغناطيس الحديد وهو قوله ﷺ: «**إنَّهُ آخِذٌ بِحُجَزِ طَائِفَةٍ مِنَ النَّارِ وَهُمْ يَتَقَحَّمُونَ فِيها تَقَحُّمَ الفَرَاشِ**»، فاعلم ذلك، والضابط لهذه الحضرة الحد المقوّم لذات كل شيء محدود، وما ثم إلا محدود لكنه من المحدود ما يعلم حده ومنه ما لا يعلم حده، فكل شيء لا يكون عين الشيء الآخر كان ما كان، فذلك المانع أن يكون عينه هو المسمى عزاً وعزة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الجبروت وهي للاسم الجبار

[نظم: البسيط]

الجَبْرُ أَصْلٌ يَعُمُّ الكَوْنَ أَجْمَعَهُ ... فما ترى غير مَجْبُورٍ لِمَجْبُورِ

العِلْمُ يَجْبُرُ من كنا نُعَظِّمُهُ ... وهذه نفثةٌ من صدر مَصْدُورِ

لـولاه مـا وُجِـدَتْ أعـيـانُـنـا وبَـدَتْ أكـوانُـنـا بـيـن مَـطْـوِيٍّ ومَـنْـشُـورِ

والمتخلق بهذا الاسم يسمى عبد الجبار هذه الحضرة لها الإجبار في الأعزاء ولا أثر لها إلا فيهم، فحضرتها عظيمة في الفعل، ولكن لا أثر لها في الأعزاء من جهة المعنى الذي وقعت للأشياء به العزه لا أثر لها في ذلك، ولكن أثرها في الأعزاء لقبولهم لما لا عزة لهم فيه، ومن هنالك يقبلون التأثير فاعلم ذلك.

اعلم أن العزيز إذا نظر إلى ما هو به عزيز وأنه من المحال قبوله للتأثير فيه من ذلك الوجه ولا يعلم عند شهوده ذلك أن فيه ما يقبل التأثير من غير هذا الوجه فيدعي المنع وأنه في حمى لا ينتهك فهنا يظهر حكم الجبروت في الملكوت، فإذا أحس العزيز بالجبر نظر عند ذلك من أين أتى عليه، فما ظهر له إلا من جهله بذاته، وأنه مركب من حقائق تقبل التأثير وحقائق لا تقبل التأثير، فإن كان عاقلاً بادر ليحصل له الثناء في تلك المبادرة، ويبقى الامتناع في باب الاحتمال عند الأجنبي عن مشاهدة هذه الحقائق، وإن تعاظم حكم الجبر عليه فيتصرف فيه في اختياره وهو أعظم الحجب وأكثفها، فمن شاهد الجبر في الاختيار علم أن المختار مجبور في اختياره، فليس للجبروت حكم أعظم من هذا الحكم، ومن دخل هذه الحضرة وكانت حاله عظم إحسانه في العالم حتى ينفعل له جميع العالم بل ينفعل له الوجود كله اختياراً من المنفعل وهو عن جبر لا يشعر به كل أحد فهو جبر الإحسان والتواضع، فإنه يدعوه إلى الانقياد إليه أحد أمرين في المخلوقين بل في الموجودات وهو الطمع أو الحياء، فالطامع إذا رأى الإحسان ابتداء من غير استحقاق أطمعه في الزيادة منه، إذا جاء إليه بما يمكن أن يكون معه الإحسان، وإنما تفعل النفس ذلك حتى يكون الإحسان جزاء وفاقاً لأنها تكره المنة عليها لما خلقت وجبلت عليه النفوس من حب النفاسة، وصاحب الحياء يمنعه الحياء بما غمره من الإحسان أن يعتاص على المحسن فيما يدعوه إليه، فهو مجبور بالإحسان في إتيانه وقبوله لما يريده منه هذا المحسن حياء ووفاء، وليجعل ذلك أيضاً جزاء لإحسانه الأوّل حتى يزول عن حكم المنة وهذا من دسائس النفوس، فلا جبر أعظم من جبر الإحسان لمن سلك سبيله وقليل ما هم. وأما الجبر بطريق القهر والمغالبة فهو وإن قبل في الظاهر ولم يقدر على الامتناع والمقاومة المجبور لضعفه فإنه لا يقبل الجبر بباطنه، فلا أثر له إلا في الظاهر، بخلاف جبر المحسن فإن له الأثر الحاكم في الظاهر والباطن بحكم الطمع أو الحياء أو الجزاء كما قررنا. وأما الجبر الذاتيّ فهو عن التجلي في العظمة الحاكمة على كل نفس فتذهل عن ذاتها وعزتها وتعلم عند ذلك أنها مجبورة بالذات فلا تجهل نفسها، فالعارف هنا ينظر من الحاكم عليه فلا يجد إلا قيام العظمة به فيعلم أنه ما حكم عليه إلا ما قام به، وما قام به إلا محدث فيعظم عنده الجبر فيعلم عند ذلك جبروت الحق. وأما جبروت العبد بمثل هذه الصفة فممقوت عند الله لأنه ليس له ذلك ولا يستحقه، وإنما جبر المخلوق في المخلوق بالإحسان خاصة وذلك هو الجبر المحمود شرعاً وعقلاً، وكل عبد أظهر القهر في العالم بغير صفة الحق وأمره فهو جاهل غاية الجهل، ولهذه الحضرة الجبروتية حكمان أو وجهان كيف شئت

قل الوجه الواحد العظمة وهو قول أبي طالب المكيّ وغيره ممن يقول بقوله، والوجه الآخر البرزخية فلهذا المقام الجمع بين الطرفين بما هو برزخ فيعلم نفسه ويعلم بطرفيه ما هو به برزخ بين شيئين فيكون جامعاً من هذا الوجه عالي المقام وبين فضله على الطرفين، فإن كل طرف لا يعلم منه إلا الوجه الذي يليه فهو عالم أعني الجبروت إن شاء تجلى في صورة برزخية وإن شاء تجلى في صورة إحدى طرفيها كيف شاء تجلى فيكون شبهه بالحق أتم، ونسبة هذا الجبروت إلى الحق نسبة لطيفة لايشعر بها كثير من الناس، وهو أن الحق بين الخلق وبين ذاته الموصوفة بالغنى عن العالمين، فالألوهة في الجبروت البرزخي فتقابل الخلق بذاتها وتقابل الذات بذاتها، ولهذا لها التجلي في الصور الكثيرة والتحوّل فيها والتبدل فلها إلى الخلق وجه به يتجلى في صور الخلق، ولها إلى الذات وجه به تظهر للذات، فلا يعلم المخلوق الذات إلا من وراء هذا البرزخ وهو الألوهة، ولا تحكم الذات في المخلوق بالخلق إلا بهذا البرزخ وهو الألوهة، وتحققناها فما وجدناها سوى ما ندعوه به من الأسماء الحسنى، فليس للذات جبر في العالم إلا بهذه الأسماء الإلهية، ولا يعرف العالم من الحق غير هذه الأسماء الإلهية الحسنى وهي أعيان هذه الحضرات التي في هذا الباب، فهذا قد أنبأناك بالجبروت الإلهي ما هو على الاقتصار والاختصار، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة كسب الكبرياء وهو للاسم المتكبر

[نظم: الكامل]

إنّ التَّكَبُّرَ من يقومُ بنفسه ... كِبْرٌ فكُنْ عبداً به مُتَكَبِّرَا

يَزْهو ويَخْطُرُ في العداء بنفسه ... متجرداً عن كِبْرِهِ متبَصِّرا

كأبي دُجَانَة حين أشْهَرَ سَيْفَهُ ... يمشي به بين العِدَا مُتَبَخْتِرَا

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد المتكبر وهو اسم غريب غير متعارف وإنما يعرف الناس عبد الكبير، وقال الله عز وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] لم يقل كبير فإن التكبر لا يكتسبه الكبير وإنما يكتسبه الأدنى في الرتبة، فيكسب العبد الكبرياء بما هو الحق صفته، فالكبرياء لله لا للعبد فهو محمود مشكور في كبريائه وتكبره ويكسب الحق هذا الاسم، فإنه تعالى ذكر عن نفسه أنه متكبر وذلك لنزوله تعالى إلى عباده في خلقه آدم بيديه وغرسه شجرة طوبى بيده وكونه يمينه الحجر الأسود وفي يد المبايع بالإمامة من الرسل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ونزوله في قوله: «**جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي وَمَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**» وما وصف الحق به نفسه مما هو عندنا من صفات المحدثات، فلما تحقق بهذا النزول عندنا حتى ظن أكثر المؤمنين أن هذا له صفة استحقاق وتأوّلها آخرون من المؤمنين، فمن اعتقد أن اتصاف الحق بهذا أن المفهوم منه ما هو المفهوم من اتصاف الخلق به أعلم الحق هذه الطائفة خاصة أنه يتكبر عن هذا أي عن المفهوم الذي فهمه القاصرون من كون نسبته إليه تعالى على حد نسبته إلى

المخلوق، وبه يقول أهل الظاهر أهل الجمود منهم القاصرة أفهامهم عن استحقاق كل مستحق حقه، فقال عن نفسه تعالى إنه الجبار المتكبر عن هذا المفهوم وإن اتصف بما اتصف به فله تعالى الكبرياء من ذاته، وله التكبر عن هذا المفهوم لا عن الاتصاف، لأنه لو تكبر عما وصف به نفسه مما ذكرنا لكان كذباً والكذب في خبره محال، فالاتصاف بما وصف به نفسه حق يعلمه أولو الألباب.

ومن هذه الحضرة يكون لبعض العباد ما يجدونه في قلوبهم من كبرياء الحق مما يفقده بعضهم من ذلك من العصاة ومن له اجتراء على الله، ومن الناس الذين يتوبون عن بعض المخالفات فيتميز عنهم من غلب على قلبه كبرياء الحق فإنه تكبر في نفس هذا العبد اكتسبه بعد أن لم يكن موصوفاً بهذه الصفة فعبيد المتكبر قليل، وأما الذين أجرأهم على المخالفة ما وصف الحق به نفسه من العفو والمغفرة ونهاهم عن القنوط من رحمة الله فما عندهم رائحة من نعت التكبر الإلهيّ الذي هو به متكبر في قلوب عباده، إذ لو كبر عندهم ما اجترؤوا على شيء من ذلك، ولا حكمت عليهم هذه الأسماء التي أطمعتهم، فإن كبرياء الحق إذا استقر في قلب العبد وهو التكبر من المحال أن تقع منه مخالفة لأمر الحق بوجه من الوجوه فإن الحكم لصاحب المحلّ في وقته، فدل وقوع المخالفة على عدم هذا الحاكم، فالحق المتكبر إنما هو في نفس هذا الموافق الطائع عبد الله على الحقيقة، وهذا أعلى الوجوه لهذه الحضرة في تكسب الكبرياء، حتى أن العبد المقدر عليه وقوع المحظور إذا اتفق أن يقع منه بحكم القدر المحتوم وسلب العقل عنه وظهور سلطان الغفلة وانتزاح الإيمان منه حتى يصير عليه كالظلة يأتي هذا الأمر وقلبه وجل مع هذا كله لإيمانه أنه إلى ربه راجع يعني هذا الفعل إذا نسبه من كونه فعلاً أنه راجع إلى الحق، والحكم فيه أنه معصية أو مخالفة إنما هو للعبد فيبقى العبد المقدّر عليه في وجل إن نسبه إلى الحق، فيرى الحكم بالذم الإلهي يتبعه فيدركه الوجل كيف ينسب إلى الله ما يناط به الذم وإن نسبه إلى نفسه من كونه محكوماً عليه بالذم، فإن كونه عملاً ينسب إلى الله حقيقة وأنه في التكوين لمن قال له ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] فلا حكم للعبد في وجود هذا العمل فيدركه الوجل إن نسبه مع هذا العلم في التكوين إلى نفسه فيكون ممن أشرك بالله، وقد نهى أن يشرك بالله شيئاً، وسبب هذا كله كبرياء الحق الذي اكتسبه بالنظر العقلي في نفسه، فما كبر الله من عصاه ولا عرف الله من لم يعصه، فإنه إذا عرف الله عرف أنه ما عصى إلا صيغة الأمر لا الأمر الإلهيّ فإنه جاءه على لسان واحد من أبناء الجنس، ورأى خطابه إياه بما خاطبه به ينقسم إلى ما تعضده الأدلة النظرية التى قد أمره الحق بها، وحكم العقل باتباعها وإلى ما ترده الأدلة النظرية وإن حكمت مع الشرع باتباع ما ترده إيماناً بذلك وتصديقاً، وقد حكم النظر العقليّ بدليله بصدق هذا المخبر وأنه لا ينطق إلا عن الله، وأن الله هو القائل على لسانه لهذا السامع ما خاطبه به، فإن عصاه فمن حيث هو مثل له والمثلان متقابلان فلا بد من حكم التقابل والتضاد، فلا بد من المخالفة وإن أطاع ووافق، فمن حيث إن المخاطب عين الحق ما هو المثل فيعظم في نفس السامع ويقبل

الخطاب، وذلك هو عين كون الحق متكبراً أي في نفس هذا العبد حين عصاه من حيث نظره إلى المثل في الخطاب. وأما الواقفون مع الصورة الإلهية في الخلق فإن الله إذا تسمى لهم بالمتكبر فإنه تنزيه لما هم عليه من الصورة ودواء لما يحصل لهم في نفوسهم من عظمتهم على المخلوقين، وما له دواء في نفس الخطاب إلا قوله: إن الله خلق آدم على صورته، فيعلم أنه حاز الصورة فهو مخلوق فقد تميز فلا يتمكن له أن يتكبر في نفسه، ولكن بهذا يكبر الحق عنده في قلبه بعد أن لم يكن لهذا العبد هذا النعت، فإذا أضافه إلى ما تقدم ظهر حكم اسم المتكبر والمجال واسع، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الخلق والأمر وهي للاسم الخالق

[نظم: الطويل]

إلى خالق الأرواح أَعْمَلْتُ هِمَّتِي ... لأَحْظَى به والشاهدون حُضُورُ

فيا من يراني عاملاً متخلّقاً ... ألا إنني ظِلٌّ لديه ونُورُ

وإنْ لم يكن هذا مقالي فإنني ... عُبَيْدٌ له بالعالمين خَبيرُ

وإنْ لم يكنْ قولي وقلتُ نيابةً ... فإني وَربِّ الراقصات كَفُورُ

وإن كان قولي فالوجودُ مُحَقَّقٌ ... وإني عليم بالمقال بَصِيرُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الخالق، والخلق خلقان: خلق تقدير وهو الذي يتقدم الأمر الإلهي كما قدمه الحق وأخر الأمر عنه فقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] والخلق الآخر بمعنى الإيجاد وهو الذي يساوق الأمر الإلهي، وإن تقدمه الأمر الإلهي بالرتبة فالأمر الإلهيّ بالتكوين بين خلقين: خلق تقدير وخلق إيجاد، فمتعلق الأمر خلق الإيجاد وستأتي حضرته وهي حضرة الباري، ومتعلق خلق التقدير تعيين الوقت لإظهار عين الممكن فيتوقف الأمر عليه وقد ورد: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَتَّى العَجْزُ وَالكَيْسُ**» والوقت أمر عدمي لأنه نسبة، والنسب لا أعيان لها في الوجود، وإنما الأعيان الممكنات الثابتة في حال العدم مرتبة كما وقعت وتقع في الوجود ترتيباً زمانياً، وكل عين تقبل تغييرات الأحوال والكيفيات والأعراض وأمثال ذلك عليها، فإن الأمر الذي تتغير إليه إلى جانبها متلبسة به. فلهذه العين القابلة لهذا الاختلاف في الثبوت أعيان متعددة لكل أمر تتغير إليه عين ثبوتية فهي تتميز في أحوالها وتتعدد بتعدد أحوالها، سواء تناهى الأمر أو لا يتناهى، وهكذا تعلق بها علم الباري أزلاً، فلا يوجدها إلا بصورة ما علمه في ثبوتها في حال عدمها حالاً بعد حال، وحالاً في أحوال في الأحوال التي لا تتقابل، فإن نسبتها إلى حال ما من الأحوال المتقابلة غير نسبتها إلى الحال التي تقابلها، فلا بد أن تثبت لها عين في كل حال، وإذا لم تتقابل الأحوال يكون لها عين واحدة في أحوال مختلفة، وكذا توجد، فالأمر الإلهي يساوق الخلق الإيجادي في الوجود، فعين قول ﴿كُن﴾ عين قبول الكائن للتكوين ﴿فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فالفاء في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ جواب أمره ﴿كُن﴾ وهي فاء التعقيب، وليس الجواب والتعقيب إلا في الرتبة، كما

يتوهم في الحق أنه لا يقول للشيء ﴿كُن﴾ إلا إذا أراده، ورأيت الموجودات يتأخر وجود بعضها عن بعض، وكل موجود منها لابد أن يكون مراداً بالوجود، ولا يتكوّن إلا بالقول الإلهيّ على جهة الأمر، فيتوهم الإنسان أو ذو القوّة الوهمية أوامر كثيرة لكل شيء كائن أمر إلهيّ لم يقله الحق إلا عند إرادته تكوين ذلك الشيء، فبهذا الوهم عينه يتقدم الأمر الإيجاد أي الوجود، لأن الخطاب الإلهي على لسان الرسول اقتضى ذلك فلا بد من تصوّره، وإن كان الدليل العقلي لا يتصوّره ولا يقول به، ولكن الوهم يحضرة ويصوّره كما يصوّر المحال ويتوهمه صورة وجودية وإن كانت لا تقع في الوجود الحسيّ أبداً، ولكن لها وقوع في الوهم، وكذا هي مفصلة في الثبوت الإمكاني، فإنّ قوّة الخيال ما عندها محال أصلاً ولا تعرفه، فلها إطلاق التصرف في الواجب الوجود والمحال، وكل هذا عندها قابل بالذات إمكان التصوّر، وهذه القوّة وإن كان لها هذا الحكم فيمن خلقها فهي مخلوقة، وهذا الحكم لها وصف ذاتي نفسي لا يكون لها وجود عين فيمن خلقت فيه إلا ولها هذا الحكم فإنه عين نفسها، وما حازها إلا هذا النشئ الإنساني، وبها يرتب الإنسان الأعيان الثبوتية في حال عدمها كأنها موجودة وكذلك هي، لأن لها وجوداً متخيلاً في الخيال، ولذلك الوجود الخيالي يقول الحق له: ﴿كُن﴾ في الوجود العينيّ ﴿فَيَكُونُ﴾ السامع هذا الأمر الإلهي وجوداً عينياً يدركه الحس أي يتعلق به في الوجود المحسوس الحس كما تعلق به الخيال في الوجود الخيالي.

وهنا حارت الألباب هل الموصوف بالوجود المدرك بهذه الإدراكات العين الثابتة انتقلت من حال العدم إلى حال الوجود؟ أو حكمها تعلق تعلقاً ظهورياً بعين الوجود؟ الحق تعلق صورة المرئيّ في المرآة وهي في حال عدمها كما هي ثابتة منعوتة بتلك الصفة، فتدرك أعيان الممكنات بعضها بعضاً في عين مرآة وجود الحق، والأعيان الثابتة على ترتيبها الواقع عندنا في الإدراك هي على ما هي عليه من العدم، أو يكون الحق الوجودي ظاهراً في تلك الأعيان وهي له مظاهر، فيدرك بعضها بعضاً عند ظهور الحق فيها فيقال: قد استفادت الوجود وليس إلا ظهور الحق وهو أقرب إلى ما هو الأمر عليه من وجه، والآخر أقرب من وجه آخر وهو أن يكون الحق محل ظهور أحكام الممكنات، غير أنها في الحكمين معدومة العين ثابتة في حضرة الثبوت، ويكشف المكاشف هذين الوجهين وهو الكشف الكامل، وبعضهم لا يكشف من ذلك إلا الوجه الواحد كان ما كان، فنطق صاحب كل كشف بحسب ما كشف، وليس هذا الحكم إلا لأهل هذا الطريق، وأما غيرهم فإنهم على قسمين: طائفة تقول لا عين لممكن في حال العدم وإنما يكون له عين إذا أوجده الحق وهم الأشاعرة ومن قال بقولهم، وطائفة تقول: إن لها أعياناً ثبوتية هي التي توجد بعد أن لم تكن، وما لا يمكن وجوده كالمحال فلا عين له ثابتة وهم المعتزلة والمحققون من أهل الله يثبتون بثبوت الأشياء أعياناً ثابتة، ولها أحكام ثبوتية أيضاً بها يظهر كل واحد منها في الوجود على حد ما قلناه من أن تكون مظهراً أو يكون له الحكم في عين الوجود الحق فهذا يعطيه حضرة الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] كما له ﴿ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحضرة البارئية وهي للاسم البارىء

[نظم: الرمل]

بَـــرَا الله عـــلـــيـــه خَـــلْـــقَـــهُ فـــلـــذا كـــان عـــلـــى صُـــورَتِـــهِ

فـهـو يـمـشـي فـي وجـودي دائـمـاً بـــالـــذي يُـــعْـــلَـــمُ مـــن سِـــيـــرَتِـــهِ

يدعى صاحبها عبد البارىء، فمن أصحابنا من قصرها على كل مخلوق من الأرض العنصري خاصة ما لها سوى ذلك من الخلق، وما عدا هذا الخلق المنسوب إلى أرض العنصر فخلق آخر ما هو عين هذا، ومن أصحابنا من عمم الأمر في كل مخلوق من أرض الطبيعة، فدخل فيه كل صورة طبيعية من جوهر الهيولى إلى كل صورة تظهر فيه، فلم يدخل اللوح والقلم والملائكة المهيمة في هذا الخلق وجعل أولئك خلقاً آخر، والكل خلق في العماء الذي هو نفس الرحمن القابل لصور كل ما سوى الله، وقد ورد ذلك في خلق الحق نفسه، فردته العقول كلها لعدم فهمها من ذلك، وما شعرت بأن كل صاحب مقالة في الله أنه يتصوّر في نفسه أمراً ما يقول فيه هو الله فيعبده وهو الله لا غيره، وما خلقه في ذلك المحل إلا الله، فهذا معنى ذلك الخبر.

واختلفت المقالات باختلاف نظر النظار فيه، فكل صاحب نظر ما عبد ولا اعتقد إلا ما أوجده في محله وما وجد في محله وقلبه إلا مخلوق وليس هو الإله الحق، وفي تلك الصورة أعني المقالة تتجلى له، وإن كانت العين من حيث ما هي واحدة ولكن هكذا تدركه، وهذا معنى قول عليم الأسود حين ضرب بيده الأسطوانة فصارت ذهباً في عين الرائي فلما بهت الرائي عند ذلك قال له عليم: يا هذا إن الأعيان لا تنقلب ولكن هكذا تراها لحقيقتك بربك، يشير إلى ظهور الحق في صورة كل اعتقاد لكل معتقد، وهذا هو الحق المخلوق به في نفس كل ذي عقد من ملك وجان وإنسان مقلد أو صاحب نظر، فجاءت الأنبياء في الحق على مقالة واحدة لا تتبدل ولا تتغير بل عين ما أثبته الأول أثبته كل رسول بعده، ونبيّ إلى آخر من يخبر عن الله، وادّعوا أن ذلك مما أوحى به إليهم، ولولا ذلك لاختلفوا فيه كما اختلف أهل النظر فهم أقرب إلى الحق، بل ما جاؤوا إلا بالحق في ذلك ليصدق الآخر الأول والأول الآخر، وهذه مقالة لا يقتضيها النظر الفكري أصلاً لكن الكشف يعطيها. وعلى كل حال فأنجى الطوائف من اعتقد في الله ما أخبر الحق به عن نفسه على ألسنة رسله فإنا نعلم أن الحق صادق القول، فلولا أن هذا الحكم عليه صحيح بوجه ما وجه به إرساله إلى الكافة من عباده، ولولا أن له وجهاً في كل معتقد ما وصف نفسه على ألسنة رسله بالتحوّل في صور الاعتقادات، فقد يُرى في نفس كل معتقد صورة حق يقول من يجدها هذا هو الحق الذي نستند إليه في وجودنا فلم ير المخلوق إلا مخلوقاً فإنه لا يرى إلا معتقده، والحق وراء ذلك كله من حيث عينه القابلة في عين الرائي، والعاقل لهذه الصور لا في نفسها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] بالعالمين، كما نقول في صاحب المال أنه غنيّ بالمال عن المال، فهو الموجب له صفة الغنى عنده، وهي مسألة دقيقة لطيفة الكشف فإن الشيء لا يفتقر إلى نفسه فهو غنيّ بنفسه عن

نفسه لكونه عند نفسه ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عنكم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] الذي يرجع إليه عواقب الثناء، وما يثنى عليه إلا بنا من حيث وجودنا.

وأما تنزيهه عما يجوز علينا فما وقع الثناء عليه إلا بنا فهو غنيّ عنا بنا لأن كونه غنياً إنما هو غناه عنا، فلا بد منا لثبوت هذا الغنى له نعتاً، ومن أراد أن يقرب عليه تصوّر هذا الأمر فلينظر إلى ما سمى به نفسه من كل اسم يطلبنا فلا بد منا فلذا لم يكن الغنى عنا إلا بنا، إذ حكم الألوهية بالمألوه والربوبية بالمربوب والقادر بالمقدور، فللربوبية سر لو ظهر لبطلت الربوبية، كما أنّ للربوبية أيضاً سرّاً لو ظهر لبطلت النبوّة، وهو ما يقتضيه النظر العقليّ بأدلته في الإله إذا تجلى الحق فيه بطلت النبوّة فيما أخبرت به عن الله مما لا تقبله العقول من حيث أدلتها وقد دلت على صدق المخبر فلها الردّ والقبول، فتقبل الخبر الوارد وتردّ الفهم فيه الذي يقع به المشاركة بين الله وبين خلقه، وإذا رددت المفهوم الأوّل فقد بطلت النبوّة في حقها التي ثبتت عند السوداء وأمثالها والنبوّة لا تتبعض، فإذا رد شيء منها ردت كلها كما قال الله تعالى في حق من قال: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] فرجح جانب الكفر في الحكم على جانب الإيمان وإنما رجح حكم الكفر لأحدية المخبر وصدقه عنده فيما أخبر به مطلقاً من غير تقييد لاستحالة الكذب عليه، فلا بد له من وجه صحيح فيما جاء به مما يردّه العقل، ولذلك المؤمن يتأوّل إذا كان صاحب نظر، وإذا عجز علم أن له تأويلاً يعجز عنه لا يعلمه إلا الله فيسلمه لله ولكن عن تأويل مجهول ما هو على مفهوم لفظه الظاهر، وعند أهل الله كل الوجوه الداخلة تحت حيطة تلك الكلمة صحيحة صادقة فهم المؤمنون حقاً، وقد أعد الله للمؤمنين ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

حضرة التصوير وهي للاسم المصوّر

[نظم: الطويل]

إذا كـان مـن تَـدْري مـصـوّر ذاتـنـا ... عـلـيـه فـمـا فـي الـعَـيْـنِ إلا مُـمَـاثِـلُ

وإن كـان هـذا مِـثْـلَ مـا قُـلْـتُـهُ لـكـم ... وصَـحَّ بـه حُـكْـمـي فـصَـحَّ الـتَّـمَـاثُـلُ

فـمـا عـنـده إلا الـذي هـو عـنـدنـا ... فـإن صَـحَّ هـذا الـقـولُ أيـن الـتـفـاضـلُ

بـلـى إنـه عـيـنـي ومـا أنـا عَـيْـنَـهُ ... ولـو أنـنـي كُـفْـؤٌ لَـبَـانَ الـتَّـقَـابُـلُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد المصور، والمصوّر من الناس من يذهب يخلق خلقاً كخلق الله وليس بخالق وهو خالق لأنه قال: ﴿تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] فسماه خالقاً وما له سوى هيئة الطائر، والهيئة صورته، وكل صورة لها قبول ظهور الحياة الحسية، فإنّ الله قد ذمّ وتوعد المصوّر لها لأنه لم يكمل نشأتها، إذ من كمال نشأتها، ظهور الحياة فيها للحس ولا قدرة له على ذلك، بخلاف تصويره لما ليس له ظهور حياة حسية من نبات ومعدن وصورة فلك وأشكال مختلفة، وليست الصورة سوى عين الشكل، وليس التصوير سوى عين التشكيل في الذهن.

واعلم أن الله لما خلق آدم على صورته علمنا أن الصورة هنا في الضمير العائد على الله أنها صورة الاعتقاد في الله الذي يخلقه الإنسان في نفسه من نظره أو توهمه وتخيله فيقول: هذا ربي فيعبده، إذ جعل الله له قوّة التصوير ولذلك خلقه جامعاً حقائق العالم كله، ففي أي صورة اعتقد ربه فعبده، فما خرج عن صورته التي هو عليها من حيث هو جامع حقائق العالم فلا بد أن يتصور فيه أعني في الحق إنسانيته على الكمال أو من إنسانيته، ولو نزه ما عسى أن ينزه فإن غاية المنزه التحديد، ومن حد خالقه فقد أقامه كنفسه في الحد، ولذلك أطلق الله له على لسان رسوله ﷺ: «**اعْبُدِ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» فأدخل على الرؤية كاف التشبيه والتمثيل وقال له: «**إن الله في قِبْلَةِ المُصَلِّي**»، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] ووجه الشيء ذاته وحقيقته، ففي أي صورة أقام الله عبده فهي موضع توليه ففيها وجه الله، إن عقلت فقد أثبت الحق لك ما ينفيه عقلك بدليله، والحق أحق أن يتبع، فالإنسان ينشئ في نفسه صورة يعبدها فهو المصوّر وهو مخلوق منشأ أنشأه الله عبداً يعبد ما ينشئه: [البسيط]

فليس ينشئ عَبْدٌ غير خالقه ... وليس يُنْشِئُهُ إلا الذي خَلَقَهْ
فهو الذي أنشأ الأكْوَانَ أجْمَعَها ... في مُضْغَةٍ كان ذاك النَّشْءُ أو عَلَقَهْ
فزاد في خَلْقِهِ بكون خالقه ... له الغِنَى ولهذا فَقْرُهُ طَبَقَهْ
مع الغِنَى فله النَّعْتَان قد جُمِعَا ... بمثل هذا الذي قلناه قد سَبَقَهْ

فللعبد المؤمن إقامة نَشْء صور الأعمال التي كلفه الحق أن يقيم نشأتها على أتم الوجوه، وأعطاه القوّة على نفخ الروح في كل صورة ينشئها من عمله وهو الحضور والإخلاص فيها، وما ذم الله عبداً يصوّر صورة لها روح منه ينفخه فيها بإذن ربه فتقوم عنه حية ناطقة مسبحة بحمد ربه، وإنما ذم الله من يخلق صورة لها استعداد الحياة، فلا يحييها إذ كان خالقها، ولكن بما هي عليه من الاستعداد يحييها الحق دون هذا الذي أنشأها، فبمثل هذا المصوّر تعلق الذمّ الإلهيّ، ثم إن الحق ردّ كل صورة في العالم تظهر عن الأسباب المنشئة لها إلى نفسه في الخلق تعالى فقال في كل عامل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فهو خالقك وخالق ما أضاف عمله إليك، فأنت العامل لا العامل كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ فنفى عين ما أثبت لك وأثبته لنفسه فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] وما رمى إلا العبد، فأعطاه اسمه وسماه به، وبقي الكلام في أنه هل حلاه به كما سماه به أم لا، فإنا لا نشك أن العبد رمى، ولا نشك أن الله تعالى قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وقد نفى الرمي عنه أوّلاً فنفى عنه اسم العبودة وسماه باسمه إذ لا بد من مسمى، وليس إلا وجود عين العبد لا من حيث هو عبد لكن من حيث هو عين، فإن العبد لا يقبل اسم السيادة والعين كما تقبل العبودية تقبل السيادة، فانتقل عنها الاسم الذي خلقت له وخلع عليها الاسم الذي يكون عنه التكوين وهو قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ والحق لا يباهت خلقه، فما يقول إلا ما هو الأمر عليه في نفسه، فنفى ما يستحق النفي لعينه، وأثبت ما يستحق الثبوت أيضاً لنفسه، فظهرت الحقائق في أماكنها على منازلها ما اختل شيء منها في نفس الأمر، وإن ظهر

الاختلال بالنظر إلى قوم فذلك الاختلال لو لم يكن لكان في الوجود نقص لعدم حكم ذلك الاختلال فلا بد من كونه لأنه لا بد من كمال الوجود وهو قولنا في النقص: إنه من كمال الوجود أن يكون فيه نقص وإن كان عيناً سلبية ولكن حكمها واضح لمن عقل الأمور على ما هي عليه، فحضرة التصوير هي آخر حضرة الخلق، وليس وراءها حضرة للخلق جملة واحدة فهي المنتهى والعلم أولها، والهوية هي المنعوتة بهذا كله أعني الهوية، فابتدأ بقوله هو لأن الهوية لا بد منها، ثم ختم بها في السلب والثبوت وهو قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٢] وابتدأ من الصفات بالعلم بالغيب والشهادة، وختم بالمصور ولم يعين بعد ذلك اسماً بعينه بل قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]. ثم ذكر أن له ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٢٤] ولم يقل وما في الأرض لأن كثيراً من الناس في الأرض لا يسبحون الله، وممن يسبح الله منهم ما يسبحه في كل حال، والأرض تسبحه في كل حال والسموات وما فيها وهم الملائكة والأرواح المفارقة وهي تسبحه كما قال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] فراعى هنا من يدوم تسبيحه وهو الأرض، كما راعى في مواطن آخر من القرآن تسبيح من في الأرض وإن كان البعض من العالم فقال عز من قائل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، بجمع من يعقل، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وزاد في التأكيد بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فأتى بلفظة من ولم يأت بما وأتى في الحشر بما ولم يأت بمن، فإن سيبويه يقول: إن اسم ما يقع على كل شيء إلا أنه لم يعم الموجودات، فوجلت قلوب من بقي منها ولم يقع له ذكر في التسبيح، فجبر الله كسرها وأزال وجلها بقوله عقيب هذا القول: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وزاد في الثناء عليهم بجهل الناس تسبيحهم بقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فكان هذا الجبر في مقابلة ذلك الانكسار الذي نالهم، فتضاعف الطرب عندهم بذلك والفرح وما هو تضاعف على الحقيقة وإنما هو تعمير الموضع الذي ظهر الكسر، فإنه أخبر أن كل شيء يسبح بحمده كما هو الأمر عليه في نفسه، وسدّ خلل الانكسار بقوله: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ بحرف الاستدراك وهو قوله: «ولكن» طمعاً في أن ينفردوا دون من سواهم بهذا التسبيح الخاص، فإن الناس إذا عرفوه سبحوا الله أيضاً به، فالمسبحون أبداً في إنشاء صور فهم المصوّرون الذين ينفخون في صورهم أرواحاً، وإنشاء الصور لا يتناهى دنيا ولا آخرة، فالإنشاء متصل دائم وإن تناهت الدنيا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة إسبال الستور وهي للاسم الغفار والغافر والغفور

[نظم: الطويل]

إذا كـان دِرْعـي مـن وُجُـودي لِـبَـاسَـهُ ... فـإنّ وجـودَ الـحَـقّ لـلـرأس مِـغْـفَـرُ

فَـحَـقِّـقْ مـقـالـي إنـه فـيـه بَـيِّـنٌ ... فـإن شـئـتُ أُبـديـه وإن شـئـتُ أَسْـتُـرُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الغفار وهي حضرة الغيرة والوقاية والحفظ والعصمة

والصون. فاعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن الأمور كلها ستور بعضها على بعض، وأعلاها ستر الاسم الظاهر الإلهيّ فإنه ستر على الاسم الباطن الإلهيّ، وما ثم وراء الله مرمى فهو ستر عليه، فإذا كنت مع الاسم الباطن الإلهيّ في حال شهود ورؤية كان هذا الاسم الإلهيّ الباطن الذي أنت به في الوقت متحداً وله مشاهد ستراً على الاسم الإلهيّ الظاهر، ولا تقل انتقل حكم الظهور للاسم الإلهيّ الباطن وصار البطون للاسم الظاهر بل الظاهر على ما هو عليه من الحكم يعطي الصور في العالم كله، والباطن وإن كان مشهوداً فهو على حاله باطن يعطي المعاني التي تسترها الصور الظاهرة، فهذا أعلى الستور وأخفاها، وأعلى مستور وأخفاه، ودون هذا الستر كون القلب وسع الحق فهو ستر عليه، فإن القلب محل الصور الإلهية التي أنشأتها الاعتقادات بنظرها وأدلتها، فهي ستور عليها لذلك تبصر الشخص ولا تبصر ما اعتقده إلا أن يرفع لك الستر بستر آخر وهو العبارة عن معتقده في ربه. فالعبارة وإن دلتك عليه فهي ستر بالنظر إلى عين ما تدل عليه، فإن الذي تدل عليه ما ظهر لعينك وإنما حصل في قلبك مثل ما يعتقده صاحب تلك العبارة، فأخبر عن مستور وهو عندك مستور أيضاً فما كشفته ولكن نقلت مثاله إليك لا عينه، فكل حرف جاء لمعنى فهو ستر عليه وإن جاء ليدل عليه فهو الستر من أعظم الستور، وإن كان دون الستر الأوّل الذي هو ستر الأسماء الإلهية، وإن دلت على ذات المسمى فهي أعيان الستور عليها، فإن الناظر يحار فيها لا ختلاف أحكامها في هذه الذات المسماة، فكل اسم له حكم فيها فهي وإن عزت وعظمت لها الحكم الذاتيّ في الوجود بالإيجاد محكوم عليها بأحكام هذه الأسماء الحسنى، بل أسماء الموجودات كلها أسماؤها لمن فهم عن الله. ثم المرتبة الثالثة في النزول في علم الستور ستور أعيان الأسماء اللفظية الكائنة في ألسنة الناطقين، والأسماء الرقمية في أقلام الكاتبين، فإنها ستور على الأسماء الإلهيّة من حيث إن الحق متكلم لنفسه بأسمائه، فتكون هذه الأسماء اللفظية والمرقومة التي عندنا أسماء تلك الأسماء وستوراً عليها، فإنا لا ندرك لتلك الأسماء كيفية، ولو أدركنا كيفيتها شهوداً لارتفعت الستور وهي لا ترتفع، وما لنا في أنفسنا أمثلة لها جملة واحدة، بل أعظم ما عندنا تخيلها في نفوسنا، والتخيل أمر تحدثه في النفوس المحسوسات فتصوّرها بالقوّة المصوّرة في خيال الشخص، وليس بعد هذه الستور إلا ستور الخلق بعضه على بعض، فالستور وإن كانت دلائل إجمالية، فالعالم بل الوجود كله ستر ومستور وساتر، فنحن في عيبه مستورون وهو ستر علينا فهو مشهود لنا إذ الستر لا بد أن يكون مشهوداً لمستوره، فإن الستر برزخ أبداً بين المستور والمستور عنه فهو مشهود لهما.

ولما جاءت الأحكام المشروعة إلى المكلفين وتعلقت بأفعالهم وفرق الحكم في أفعال المكلفين إلى طاعة ومعصية ولا طاعة ولا معصية، وإلى مرغب فيه وإلى حكم غير مرغب فيه، فالطاعة والمعصية حظر ووجوب فعلاً أو تركاً، والمرغب فيه وغير المرغب فيه ندب وكراهة فعلاً أو تركاً، ولا طاعة ولا معصية ولا مرغب فيه ولا غير مرغب فيه إباحة وهو حكم مرتبة النفس بما هي لذاتها وعينها، وباقي الأحكام ليست لعينها وإنما تقبله بالداعي من خارج من لمة

ملك ولمة شيطان فهي لمن حكمت عليه لمته منهما لا لذاتها، فالسعيد من النفوس المكلفة على نوعين في السعادة: النوع الواحد مستور عن قيام المعصية به وغير المرغب فيه ولا لا طاعة ولا لا معصية ولا مرغباً ولا غير مرغب فيه فهو أسعد السعداء، والنوع الآخر هو المستور بعد حكم المعصية فيه عن العقوبة على ذلك وهو المغفور له. وهذه الأحكام تتعلق من المكلف في ظاهره وباطنه، فالسعيد التام الكامل المعصوم ودونه المحفوظ ظاهراً غير المحفوظ باطناً، فأقل مستور من اسمه عبد الغافر، وأكثر مستور من اسمه عبد الغفور، والمتوسط بينهما عبد الغفار، فالناس أعني المكلفين على ثلاثة أحوال: غافر وغفار وغفور. ثم إن للمكلفين بعضهم مع بعض حكم هذه الأسماء فيمن جنى عليهم أو من حموه عن وقوع الجناية منهم، ولهم أحكام أسماء الله فمن تجاوز عمن جنى عليه تجاوز الله عنه، ومن أنظر معسراً جنى ثمرة ذلك في الآخرة من عند الله، فما يرى المكلف في الآخرة إلا أعماله، ثم إن الله يعفو عن كثير.

واعلم أن من الستور وإرخائها ما هو معلول بالبشرية وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ وهو الستر ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] وهو ستر أيضاً، وليس الستر هنا سوى عين الصورة التي يتجلى فيها للعبد عن إسماعه كلام الحق في أي صورة تجلى، فإن الله يقول لنبيه ﷺ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] والمتكلم رسول الله ﷺ، وأن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده، وقوله تعالى: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» الحديث، فهذه كلها صور حجابية أعطتها البشرية وما ثم إلا بشر، وروح هذه المسألة: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] فنفى الوسائط عن خلق آدم، ومن هنا إلى ما دون ذلك حكم اسم البشر، فحيث ارتفعت الوسائط ظهر حكم البشرية لمن عقل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧] فهذا حصر الستور وإرخاؤها على البدور والمكسوفات ستور، فمنها ظلالية ومنها أعيان ذوات مثل كسوف القمر والشمس وسائر الكواكب الخمسة وأعظمها ستر الشمس فإنها تطمس أنوار الكواكب كلها، فلا يبقى نور إلا نورها في عين الرائي وإن كانت أنوار الكواكب مندرجة فيها ولكن لا ظهور لها كما قال النابغة الجعدي في ممدّحه: [الطويل]

ألــم تَــرَ أن الله أعــطــاك صُــورةً ... تَـرَى كُـلَّ مَـلْـكٍ دونـهـا يَـتَـذَبْـذَبُ
بـأنـك شَـمْـسٌ والـمـلـوكُ كـواكـبٌ ... إذا طَـلَـعَـتْ لـم يَـبْـدُ مـنـهـنّ كَـوْكَـبُ

ونعلم بالقطع أن الكواكب بادية وطالعة في أعيانها ومجاريها، غير أن إدراك الرائي يقصر عنها لقوّة نور الشمس نور على نور البصر فيبهره، قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت ربك؟ فقال: «**نُورٌ أَنَّى أراه**» فكيف أن يرى به فهو حجاب عليه، ولم يكن ذلك إلا لضعف الإدراك، فإنه تعالى قد يتجلى فيما دون النور فيرى كما ورد أينما شاء وهو القائل: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فرؤيته لا رؤيته فهو المستور المرئي من غير ظهور ولا إحاطة فالستر لا بد منه، وهذا القدر كافٍ من الإيماء، فإن ميدان الغفران واسع لأنه الغيب والشهادة﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠] فأسبل الستر بالوراء على أعين السامعين فوقفوا مع ما سمعوا: [مخلع البسيط]

فأسبل الستر بالوراء إسباله الستر بالمرائي
بلا نزاع ولا خصام ولا جدال ولا مراء
فكل مجلى له حجاب يحجبه عند كل راء
من عن يمين وعن شمال وعن أمام وعن وراء
يعرفه كل من رآه من مخلص كان أو مراء

حضرة القهر

[نظم: الطويل]

إذا كان قهري عين أمري فإنني إذا ما أمرت الأمر كان لي القهر
عليه فيبدو للوجود بصورتي فما نهينا نهي ولا أمرنا أمر

يدعى صاحبها عبد القهار وعبد القاهر، فأكبر العلماء من لا يكون له هذا الاسم أعني عبد القهار ولا عبد القاهر، وهو العارف المكمل المعتنى به بل هو المعصوم، وما تجلى لي الحق بحمد الله من نفسي في هذا الاسم، وإنما رأيته من مرآة غيري لأن الله عصمني منه في حال الاختيار والاضطرار فلم أنازع قط، وكل مخالفة تبدو مني لمنازع فهي تعليم لا نزاع، فإني ما ذقت في نفسي القهر الإلهي قط ولا كان له من هذه الحضرة فيّ حكم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] أي قهر عباده لما صدر منهم في النزاع ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] وهو التوكيل أعني هذا الإرسال في حق قوم وحفظاً وعصمة في حق آخرين وهو قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي من حيث إن الله أمرهم بحفظه فهم المعصومون المحفوظون، وقد يحفظونه من أمر النازل به فيدفعونه كما فعل بالزاني في حين زناه أخرج عنه الإيمان حتى صار عليه كالظلة يحفظه من أمر الله النازل به حيث تعرض بالمخالفة لنزول البلاء عليه، فيحفظه الإيمان من هذا الأمر النازل بأن يتلقاه فيردّه عنه لعله يستغفر أو يتوب، فإذا كان غير المعصوم يحفظ مثل هذا الحفظ فما ظنك بالمعتنى به فإنه محفوظ في الأصل، وأدق ما يكون من الخلاف النزاع الإلهي بإنابة العبد، فإذا زال العبد عن إنابته لم يجد القهار من يقف له فيقهره والسهم لا يمشي إلا إلى مرماه.

واعلم أن الدعاء لا يقتضي المنازعة كما ذهب إليه سهل والفضيل بن عياض حيث أرادا ما أراد الله كما جاء عنهما فإن الدعاء ذلة وافتقار والنزاع رياسة وسلطنة، ولولا النزاع القائم بنفوس الرعية الذين لو مكنوا من إرساله لوقع منهم ما أضيف إلى الرعية أنهم مقهورون تحت سلطان مليكهم، ومن لم يخطر له شيء من ذلك ولم ينازع فما هو مقهور ولا الملك له بقاهر بل هو به رؤوف رحيم، فمن قهر تخلقاً من عباد الله فإنما قهر بالله من نازع أمر الله لا بنفسه، وما ثم إلا نزاع الشيطان بلمته فيما يلقيه إلى هذا العبد في قلبه منازعة لأمر الله ونهيه هذا قصده بالإلقاء، وإن لم يخطر للعبد ذلك فإنه لا يخطر له مثل هذا الكون الإيمان يردّه، ولكن

يستدرجه بالمخالفة شيئاً بعد شيء إلى أن يكفر، فإن المعاصي بريد الكفر ولا تأتي إذا كثرت وترادفت إلا بالكفر، فلهذا يسارع بها وينوّعها الشيطان، فلا يزال المؤمن يقهره بلمة الملك مساعدة للملك على نفسه لينجو، فإن المؤمن يقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله.

ومن النزاع الخفي الصبر على البلاء إذا لم يرفع إزالته إلى الله كما فعل أيوب عليه السلام وقد أثنى الله عليه بالصبر فقال مع ثبوت شكواه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] فذكره بكثرة الرجوع إليه في كل أمر ينزل به، فمن حبس نفسه عند الضرّ النازل به عن الشكوى إلى الله في رفع ما نزل به وصبر مثل هذا الصبر فقد قاوم القهر الإلهي، فإن الله قاهر هذا العبد وإن كان محموداً في الطريق، ولكن الشكوى إلى الله أعلى منه وأتم، ولهذا قلنا: إن الدعاء لا يقدح ولا يقتضي المنازعة، بل هو أعلى وأثبت في العبودة من تركه. وأما الرضا والتسليم فهما نزاع خفي لا يشعر به إلا أهل الله، فإن كان متعلق الرضا المقضي به فيحتاج إلى ميزان شرعي وإن كان متعلق الرضا القضاء، فإن كان القضاء يطلب القهر ويجد الراضي ذلك من نفسه فيعلم أن فيه نزاعاً خفياً فيبحث عنه حتى يزيله وإن لم يرَ أنّ ذلك القضاء يطلب القهر فيعلم أنه الرضا الخالص الجبلي لأن الرضا من راض يروض ومنه الرياضة ورضت الدابة وهو الإذلال، ولا يوصف به إلا الجموح والجموح نزاع، إنما يراض المهر الصغير لجموحه وجهله بما خلق له، فإنه خلق للتسخير والركوب والحمل عليه، والمهر يأبى ذلك فإنه ما يعمله فيراض حتى ينقاد في أعنة الحكم الإلهي، وكذلك رياضة النفوس لولا ما فيها من الجموح لما راضها صاحبها، فإذا خلقت مرتاضة بالأصالة فكان ينبغي أن لا يطلق عليها اسم راضية بل هي مرضية، وإنما النفوس الإنسانية لما خلقها الله على الصورة الإلهية شمخت على جميع العالم ممن ليست له هذه الحقيقة، وانحجبت عن الحقائق الإلهية التي تستند إليها حقائق العالم حقيقة فاكتسبت الرياضة لأجل هذا الشموخ فذلت تحت سلطانه وحمدت على ذلك، وكذلك التسليم لم يصح إلا مع التمكن من الجموح، وكذلك التوكيل لم يصح إلا بعد الملك فهو نزاع خفي، والقهر الإلهي يخفى بخفاء النزاع ويظهر بظهور النزاع، والعارف لا يغفل عن نفسه طرفة عين، فإنه إذا غفل عن نفسه غفل عن ربه، ومن غفل عن ربه نازع بباطنه ما يجده من الأثر فيه مما يخالف غرضه، فيجيء القهر الإلهي فيقهره، فيكون إذا كثر منه مثل هذا يسمى عبد القهار، وإذا قل منه يسمى عبد القاهر. والضابط لهذه الحضرة أن ينظر الإنسان في خفايا موافقاته ومخالفاته فيعلم من ذلك هل لهذه الحضرة حكم فيه أم لا؟ فهذا أمر كلي قد وكلناك فيه إلى نفسك وأنت أعلم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الوهب وهو للاسم الوهاب

[نظم: الطويل]

جـمـيـعُ الـعـطـايـا مـنـه وَهْـبٌ إلٰـهـي ... وإن كـان لا يُـدْرَى الـوُجُـودُ الـكِـيَـانـي

فـذلـك لا يَـخْـفَـى عـلـى كـل عـاقـل ... عـن الله إن كـان الـعـيـان الإلٰـهـي

فإن لـم يـكـن فـالـجـهـلُ نَـعْـتٌ لـخَـلْـقِهِ ... بـه وبـذا جـاء الـوجـودُ الـعَـيَـانِـي

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الوهاب، والوهب العطاء من الواهب على جهة الإنعام لا يخطر له خاطر الجزاء عليه من شكر ولا غيره، فإن اقترن به طلب شكر جزاء فليس يوهب، وإنما هو عطاء تجارة يطلب به الربح والخسران، فإن العطاء الإلهي على أنواع متعدّدة سيأتي ذكرها في هذا الباب إن شاء الله، فمن هذه الحضرة يتجرّد العبد عن جميع أغراضه كلها في إحسانه بهباته البدنية والمالية، ومعنى البدنية أن يصرف بدنه بسفر أو أي نوع كان من أنواع الحركات البدنية في حق من كان من عباد الله من إنسان أو حيوان، لا يبتغي بذلك أجراً ولا يطلب عليه شكراً إلا لمجرّد الإنعام على هذا الذي يتحرّك من أجله مما له فيه منفعة أو دفع مضرة، وكون الله عز وجل يأجره على ذلك، ذلك إلى الله تعالى لا إليه، بل يفعل ذلك لمجرد قيام هذه الصفة به، وحكم هذا الاسم الإلهي عليه، فإذا تحرك في العبادات التي لاحظ للخلق فيها كالصلاة والصيام والحج وأمثال ذلك بل كل عبادة مشروعة وهو مستمد من هذه الحضرة، فينوي في عبادته تلك ما كان منها لا حظ للمخلوق فيها أن ينشئها ويظهر عينها بحركاته أو مسكه عنها إذا كانت العبادة من التروك لا من الأفعال، فينشئها صورة حسنة على غاية التمام في خلقها والكمال لتقوم صورة لها روح بما فيها من الحضور مع الله بالنية الصالحة المشروعة في تلك العبادة يفعلها فرضاً كانت أو نفلاً من حيث ما هي مشروعة له على الحد المشروع لا يتجاوزه، لتسبح الله تلك الصورة التي أنشأها المسماة عبادة، وتذكر الله بحسب ما يقتضيه أمره فيها تعالى، ويزيد هذا العبد الإنعام على تلك الصورة العملية المشروعة بالظهور لتتصف بالوجود فتكون من المسبحين بحمد الله إنعاماً عليها وعلى حضرة التسبيح، فيخلق في عباداته السنة مسبحة لله بحمده لم يكن لها عين الوجود. جاءت امرأة إلى مجلس شيخنا عبد الرزاق فقالت له: ياسيدي رأيت البارحة في النوم رجلاً من أصحابه قد صلى صلاة فانتشأت تلك الصلاة صورة فصعدت وأنا أنظر إليها حتى انتهت إلى العرش فكانت من الحافين به، فقال الشيخ صلاة بروح متعجباً من ذلك، ثم قال: ما تكون هذه الصلاة لأحد من أصحابي إلا لعبد الرزاق يقول ذلك في نفسه، فقال لها: وعرفت ذلك الشخص من أصحابي؟ قالت نعم هو هذا وأشارت إلى عبد الرزاق الذي خطر للشيخ فيه، فقال لها الشيخ: صدقت وأخذها مبشرة من الله. أخبرني بهذه الحكاية عبد الله ابن الأستاذ الموروري بمورور من بلاد الأندلس وكان ثقة صدوقاً، كما خلق عيسى عليه السلام كهيئة الطير من الطين فنفخ فيه فكان طائراً بإذن الله، ولم يكن لهذه الصورة وجود إلا على يديه، ثم نفخ فيها فكانت طائراً بإذن الله، أي أن الله أمره بذلك وأذن له فيه، كما أمر الله أيضاً المؤمن في الشرع وأذن له في إنشاء صور عباداته التي كلفه الله عز وجل بها، فإن كان عيسى عليه السلام قد نوى في خلقه ذلك الطائر الإنعام على تلك الصورة لتلحق بالموجودات وينعم على حضرة التسبيح بزيادة المسبحين فيها كان من أهل هذه الحضرة والتحق بهم، وإن كان نوى غير ذلك فهو لما نوى، وما بين صاحب هذا المقام وغيره إلا مجرد النية ومشاهدة صدور الأعمال منه صوراً فإن الأمر في نفسه من إنشاء صور العبادات من المكلفين لا بد منه في كل

مكلف قبيحة كانت أو حسنة، ويفترقون في النيات والمقاصد، وما ثم إلا مكلف، فأعظمها منزلة من يقصد بعبادته ما ذكرناه، فإن عمل هذا العبد هذه العبادة لكونها أعظم صفة ومنزلة في العبادات فما هو ذلك الذي ذكرناه من هذه الحضرة فإن االأمر لا يقبل الاشتراك، فمثل هذا ما أقامه في نشء صور هذه العبادات إلا كونها من أعظم الصفات وأجلها، فتميز بذلك عمن لم يقمه الله في مثل هذا طلباً للأجر والمثوبة، وإنما يقصد صاحب هذه الحضرة مجرد الإنعام على ظهور تلك العبادة وزيادة المسبحين لله، لا يبتغي بذلك حمداً ولا ثناء ولا جزاء إلا عين ما قصده الحق في إيجاد العالم، فكما قصد الله بالخلق أن يعبدوه في مثل ما نص عليه من ذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] فنوى هذا العبد في إنشاء صور العبادات أن تعبد الله كما أراده الحق، وهذا لا يبطل نية الإنعام من هذا العبد على هذه الصور بالإنشاء والإيجاد، فإن كان مشهد هذا العبد أن الله هو المنشىء هذه الصور بالعبد لا هو فليس من هذه الحضرة الوهبية الكيانية، بل ذلك من الوهب الإلهي على هذه الصورة المنشأة. وليس غرضي فيما ذكرناه ما هو الأعلى والأعظم في المنزلة، وإنما غرضي تمييز المقامات بعضها من بعض حتى لا يلتبس على القائمين بها، فإنها تتداخل الأحكام فيها ولا يشعر لحد الفصل بين الأحوال والمقامات إلا الراسخون في العلم الإلهي، فإذا جازاهم الله على ما أنشؤوه إنعاماً من الله تعالى عليهم كان جزاء من أشهد أن إنشاء تلك الصور لله لا للعبد المكلف، وأن الإنعام لله في ذلك عليها لا إلى المكلف، فإنه أعظم جزاء إلٰهياً من الذي لم يشهده الله ذلك عند إنشائها، فقد تميز الشخصان بما وقع لهما به الشهود عند العمل المشروع، وهذا عمل لم ينسج على منواله انفردنا بالتنبيه عليه على غاية الكمال من العبد وحررناه تحريراً تاماً، فإن أحداً من العلماء بالله وبالأشياء ما يجهلون العطاء على جهة الإنعام، ولكن مثل ما ذكرناه لا يتصوره ولا يخطر ببال كل عامل إلا من تحقق بهذه الحضرة الواهبة خاصة وهو المسمى عبد الوهاب، والوهاب أوجده لا غيره من الأسماء مثل قوله في عيسى عليه السلام لمريم ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] والصور التي أوجدها الاسم الوهاب قليلة جداً تعلم ذلك إذا علمت مراتب العلماء بالأسماء الإلهية بالغاً بالأسماء الإلهية فاعلم ذلك، وهذا القدر من الإيماء إلى علم هذه الحضرة كاف إن شاء الله تعالى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو الهادي إلى طريق مستقيم.

حضرة الأرزاق وهي للاسم الرزاق

[نظم: البسيط]

الـرِّزْقُ رِزْقَـانِ مـحـسـوسٌ ومـعـقـولُ ... يـدري بـذلـك مـعـقـولٌ ومـنـقـولُ

فـمـنـه يـقـبـل مـا يـعـطـيـه مـن مِـنَـحٍ ... وذلـك الـرزق فـي الـتـحـقـيـق مـقـبـولُ

جَـلَّ الإلٰـهُ فـمـا تُـحْـصَـى عـوارفُـهُ ... وفـي مـعـارفـهـا هَـدْيٌ وتـضـلـيـلُ

مثل النكاح الذي يحوي على عَجَبٍ ... مـن الـتَّـلَـذُّذ تَـلْـسِـيـنٌ وتـقـبـيـلُ

قال الله تعالى في قصة مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الرزاق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] هذا في حق من أطعم من أجله حين سمعه يقول سبحانه في الخبر الصحيح: «**جِعتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي فَيَقُولُ العَبْدُ: كَيفَ تَطْعَمُ وَتَشرَبُ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ الحَقُّ: إِنَّ عَبْدِي فُلَاناً جَاعَ وَفُلَاناً ظَمِىءَ فَلَوْ أَطْعَمْتَهُ حِينَ اسْتَطْعَمَكَ أَوْ سَقَيْتَهُ حِينَ اسْتَسْقَاكَ**» فذلك معنى قوله تعالى: «**جِعتُ فَلَمْ تُطعِمْنِي وَظَمِئْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي**» فأنزل نفسه تعالى منزلة الجائع والعاطش الظمآن من عباده، فربما أدى العامل على هذا الحديث الإلهي أن يجهد في تحصيل ما يطعم به مثل هذا حتى يكون ممن أطعم الله تعالى فقال له الله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] انتقال من مقام إلى مقام لأنه يعلم عباده العلم بالمقامات والأحوال والمنازل في دار التكليف حتى يتنقلون فيها. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] والمتانة في المعاني كالكثافة في الأجسام فجاء بالاسم المناسب للرزق لأن الرزق المحسوس به تتغذى الأجسام وتعبل، وكلما عبلت زادت أجزاؤها وكثفت، وأين السمن من الهزال؟ فما أحسن تعليم الله وتأديبه وتبيانه لمن عقل عن الله.

واعلم أن الرزق معنوي وحسي أي محسوس ومعقول، وهو كل ما بقي به وجود عين المرزوق فهو غذاؤه ورزقه وقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] وقال في الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] وهي الأرزاق، وتقديرها بوجهين: الوجه الواحد كمياتها، والثاني أوقاتها، فالرزق الذي في الأرض ما تقوم به الأجسام، والذي في السماء ما تقوم به الأرواح، وكل ذلك رزق ليصح الافتقار من كل مخلوق وينفرد الحق بالغنى، وأرفع المنازل في الأرزاق وشهودها رزق ما يظهر به عين الوجود الحق من صور أحكام الممكنات ومن صور التجلي، فينظر صاحب هذه المشاهدة إلى الصورة في التجلي أو لصور أحكام الممكنات في عين الوجود الحق فينظر ما تستحقه تلك الصورة من مسمى الرزق وما تطلبه لبقائها فيكون هذا العبد يرزقها ذلك إذا كان مشهده هذه الحضرة أعني حضرة الأرزاق، ثم ينزل الأمر في الكائنات الخلقية والأمرية بحسب حقائقها، فيطلب عين الكون رزقه منه، وأكثفه ما تطلبه المولدات في الأركان كالمعادن والنبات والحيوان وقد جعل الله من الماء ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وكل شيء حيّ، فإن كل شيء مسبح لله بحمده، ولا يكون التسبيح إلا من حيّ، فكل شيء من الماء عينه ومن الهواء حتى حيوان البحر الذي يموت إذا فارق الماء ما حياته إلا بالهواء الذي في الماء لأنه مركب فيقبل الهواء بنسبة خاصة وهو أن يمتزج بالماء امتزاجاً لا يسمى به هواء، كما أن الهواء المركب فيه الماء وبه يكون مركباً لكن امتزج الماء به امتزاجاً خاصاً لا يسمى به ماء، فإذا كانت حياة الحيوان بهواء الماء مات عند فقده ذلك الهواء الخاص، وكذلك حيوان البر إذا غرق في الماء مات لأن حياته بالهواء الذي مازجه الماء لا

بالماء الذي مازجه الهواء، وثم حيوان بري بحري وهو حيوان شامل برزخيّ له نسبة إلى قبول الهواءين فيحيى بالهواء كما يحيى البري، ويحيى في الماء كما يحيى البحري، وبالهواء تكون حياته في الموضعين، والماء أصله في كونه حياً، فالرزق في عالم الأركان الهواء فيما في كل مطعوم ومشروب من ركن الهواء به تكون الحياة لمن يتغذى به من كل شيء حيّ من نبات ومعدن وحيوان وإنسان وجان. وأما الملائكة المخلوقة من أنفاس العالم عند تنفسهم فلهم غذاء أيضاً من الأركان لا بد من ذلك، ويخرج الملك من المتنفس بحسب ما يكون في قلب ذلك المتنفس من الخواطر، فإن تلفظ المتنفس خرج النفس بحسب ما تلفظ به مفصلاً في الصورة تفصيله حروفاً في الكلمة، وبهذا القدر تكون كيفية الانفعال عن خواص الحروف لمن شهد ذلك وإن لم يتلفظ وخرج النفس من غير لفظ فإنه يخرج هيولانياً لا صورة له معينة، فيتولى الله تصويره بحسب ما كان عليه العبد في باطنه عند التنفس فيركبه الله في تلك الصورة، فإن تعرى المحل المتنفس عن كل شيء كتنفس النائم الذي لا رؤيا له في منام ولا هو في الحس فإن الله يصوّر ذلك النفس بصورة ما نام عليه عند فراقه الإحساس كان الذكر ما كان، أو الخاطر في القلب ما كان، فإذا أقيم العبد في هذه الحضرة التي نحن بصددها ونظر إلى ما تكون عنه أمده من الرزق ما به بقاؤه فإنه خالقه والرزق تابع للخلق فخالق الشيء هو رازقه، ولا تكون في مقام خلق الأشياء إلا إذا أشهدك الحق ما ينفعل عنك، فعند ذلك تشاهد طلبة ما تكوّن عنك بما يحتاج إليه من الرزق فترزقها، كما تسعى هنا في افتناء الرزق الذي تطلبه منك عائلتك سواء، وهذا لا يقدح في أن الله هو الرزاق، وإنما كلامنا في تقرير الأسباب وإثباتها كما قررها الحق عز وجل وأثبتها، وقد بينا لك في غير موضع أن الإنسان إذا تجلى له الحق في منام أو غيره في أي صورة تجلى فلينظر فيما يلزم تلك الصورة المتجلي فيها من الأحكام فيحكم على الحق بها في ذلك الموطن، فإن مراد الله فيها ذلك الحكم ولا بد، ولهذا تجلى فيها على الخصوص دون غيرها ويتحوّل الحكم بتحوّل الصور فاعلم ذلك.

فكذلك أيضاً رزق الصور يتنوّع بتنوّع الصور، فما به غذاء صورة قد لا يكون به غذاء صورة أخرى وليس غذاء الصور سوى رزقها، فإذا تصوّرت المعاني كالعلم في صورة اللبن والثبات في الدين في صورة القيد فرزق تلك الصورة ما أريدت له، فإن كانت رؤيا فأصاب عابرها ما أراد الله بها بتلك الصورة فذلك رزقها فدامت حياتها وبقاؤها، وصورة ذلك ما يناله الرائي والمكاشف من ذلك كما رأى النبي ﷺ يشرب اللبن حتى خرج الريّ من أظافره مما تضلع منه فقيل له: ما أوّلته يا رسول الله؟ فقال: «العِلْمَ» يعني أن العلم ظهر في صورة اللبن. ولما كان العلم لبناً وصف نفسه بالشرب منه والتضلع إلى أن خرج الري من أظافره فنال كما قال علم الأوّلين والآخرين، وما خرج منه من الريّ هو ما خرج إلى الناس من العلم الذي أعطاه الله لا غير، ثم أعطى ما فضل في الإناء عمر فكان ذلك الفضل القدر الذي وافق عمر الحق فيه من الحكم كحكمه في أسارى بدر وفي الحجاب وغير ذلك ففاز به دون غيره من عند الله، وهكذا كل من حصل له مثل هذا من عند الله كالمتقي، إذا اتقى الله جعل له

فرقاناً وهو علم يفرق به بين الحق والباطل في غوامض الأمور ومهماتها عند تفصيل المجمل وإلحاق المتشابه بالمحكم في حقه، فإن الله أنزله متشابهاً ومجملاً، ثم أعطى التفصيل من شاء من عباده وهو ما فضل من اللبن في القدح وحصل لعمر لأنه من شرب من ذلك الفضل فقد عمر به محل شربه فلذلك كان عمر دون غيره من الأسماء، هذا تعبير رؤياه على التمام ﷺ ولعمر بن الخطاب في ذلك خصوص وصف لاختصاصه بالاسم والصورة في النوم دون غيره من العمريين ومن الصحابة ممن ليس له هذا الاسم، فكل رازق مرزوق، أما الرزق المعنوي أو الحسي على انقسام الأرزاق المعنوية والمحسوسة، ومن هذه الحضرة قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فحتى نعلم رزق الابتلاء أي كوّنه الله من الابتلاء فهو علم إقامة الحجة لتكون الحجة البالغة لله كما أخبر عن نفسه فقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] التي لا دخل عليها ولا تأويل فيها، وإذا وصف الحق نفسه بحتى نعلم فعم حكم الرزق جميع الصور، فـ «كلُّ الصيد في جوف الفَرَا»، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الفتح وهي للاسم الفتاح

[نظم: الرمل]

حَضْرَةُ الفَتَّاحِ للفَتْحِ وما ... يعلمُ الشَّخْصُ بما يُفتَحُ لَهْ

إن ربَّ الخلقِ في الخيرِ وفي ... كلِّ شَرٍّ واقعٍ قد أَجْمَلَهْ

ربما يعرفُهُ الشخصُ وما ... يعرفُ الأمرَ الذي قد أنْزَلَهْ

ثم قد يعلمُهُ الشخصُ وما ... يعلمُ الشيءَ الذي كُوِّنَ لَهْ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الفتاح، ولها صورة ومعنى وبرزخ، وما حازها على الكمال إلا آدم عليه السلام بعلم الأسماء، ومحمد ﷺ بجوامع الكلم، وما عدا هذين الشخصين فما ذكر لنا، ومن هذه الحضرة نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ و ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ولقد كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الأندلس لقتال العدوّ حين استفحل أمره على الإسلام، فلقيت رجلاً من رجال الله ولا أزكي على الله أحداً وكان من أخص أودّائي فسألني ماتقول في هذا الجيش هل يفتح له وينصر في هذه السنة أم لا؟ فقلت له: ما عندك في ذلك؟ فقال: إن الله قد ذكر ووعد نبيه ﷺ بهذا الفتح في هذه السنة وبشر نبيه ﷺ بذلك في كتابه الذي أنزله عليه وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فموضع البشرى فتحاً مبيناً من غير تكرار الألف فإنها لإطلاق الوقوف في تمام الآية، فانظر أعدادها بحساب الجمل، فنظرت فوجدت الفتح يكون في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ثم جزت إلى الأندلس إلا أن نصر الله جيش المسلمين وفتح الله به قلعة رباح والأركو وكركوى وما انضاف إلى هذه القلاع من الولايات، هذا عاينته من الفتح ممن هذه صفته، فأخذنا للفاء ثمانين وللتاء أربعمائة وللحاء المهملة ثمانية وللألف واحداً وللميم أربعين وللباء اثنين وللياء عشرة وللنون خمسين، والألف قد أخذنا عددها فكان المجموع

إحدى وتسعين وخمسمائة كلها سنون من الهجرة إلى هذه السنة، فهذا من الفتوح الإلهي لهذا الشخص. وكذلك ما ذكرناه من فتح البيت المقدس فيما اجتمع بالضرب في ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] مع البضع من السنين المذكور فيه بالحسابين الجمل الصغير والكبير، فظهر من ذلك فتح البيت المقدس وقد ذكرناه فيما تقدم من هذا الكتاب في باب الحروف منه وهو أن البضع جعلناه ثمانية لكون فتح مكة كان سنة ثمان، ثم أخذنا بالجمل الصغير ألم ثمانية فأسقطنا الواحد لكون الأس يطلب طرحه لصحة العدد في أصل الضرب في الحساب الرومي، والفتح إنما كان في الروم الذين كانوا بالبيت المقدس، فأضفنا ثمانية البضع إلى ما اجتمع من حروف ألم بعد طرح الوحد للأس فكان خمسة عشر، ثم رجعنا إلى الجمل الكبير فضربنا واحداً وسبعين في ثمانية والكل سنون لأنه قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤] فكان المجموع ثمانية وستين وخمسمائة، فجمعناها إلى الخمسة عشر التي في الجمل الصغير فكان المجموع ثلاثاً وثمانين وخمسمائة وفيها كان فتح البيت المقدس، وهذا العلم من هذه الحضرة. ولكن عبد السلام أبو الحكم بن برجان ما أخذه من هذا فوقع له غلط وما شعر به الناس، وقد بيناه لبعض أصحابنا حين جاءنا بكتابه فتبين له أنه غلط في ذلك ولكن قارب الأمر، وسبب ذلك أنه أدخل عليه علماً آخر فأفسده، وهذا كله من صورة الفتح لا من معناه ولا من وسطه الذي هو الجامع للطرفين، فكان لآدم إحصاء جميع اللغة الواقعة من أصحابها المتكلمين بها إلى يوم القيامة، وكان لمحمد ﷺ الرسالة إلى الناس كافة باللسان العربيّ، فعمّ جميع كل لسان فنقل شرعه بالترجمة فعمّ اللغات. وأما الفتح الوسط فهو فتح الأذواق وهو العلم الذي يحصل للعالم به بالتعمل في تحصيله كعلم الفرقان للمتقي فإنه حصله بتقوى الله مع ما انضاف إليه من تكفير السيئات وغفر الذنوب، وهذا علم مخصوص بأهل الطريق وهم أهل الله وخاصته وهو علم الأحوال، وإن كانت مواهب فإنها لا توهب إلا لمن هو على صفة خاصة وإن كانت تلك الصفة لا تنتجها في الدنيا لكل أحد، ولكن لا بد أن تنتج في الآخرة، فلما لم يكن من شرطها الإنتاج في الدنيا قيل في علم الأحوال أنها مواهب وهو حصولها عن الذوق، ومعنى عن الذوق أوّل التجلي، فإن التوكل مثلاً الذي هو الاعتماد على الله فيما يجريه أو وعد به، فالذوق فيه الزائد على العلم بذلك عدم الاضطراب عند الفقد لما تركن النفس إليه، فيكون ركونها في ذلك إلى الله لا إلى السبب المعين فيجد في نفسه من الثقة بالله في ذلك أعظم مما يجده من عنده السبب الموصل إلى ذلك، كالجائع ليس له سبب يصل به إلى نيل ما يزيل جوعه من الغذاء، وجائع آخر عنده ما يصل به إلى نيل ما يزيل ما عنده، فيكون صاحب السبب قوياً لوجود المزيل عنده، وهذا الآخر الذي ما عنده إلا الله يساويه في السكون وعدم الاضطراب لعلمه بأن رزقه إن كان بقي له رزق فلا بد من وصوله إليه، فسمي عدم هذا الاضطراب ممن هذه صفته من فقد الأسباب ذوقاً وكل عاقد يجد الفرق بين هذين الشخصين، فإن العالم الذي ليس له هذا الذوق يضطرب عند فقد المزيل مع علمه بأن رزقه إن كان بقي له رزق لا بد أن يصل إليه، ومع هذا العلم لا يجد سكوناً نفسياً مع الله، وصاحب

الذوق هو الذي يجد السكون كما يجده صاحب السبب المزيل لا فرق بل ربما هو أوثق، وهو قول بعض العلماء أن الإنسان لا ينال هذه الدرجة حتى يكون بربه أوثق منه بما في يده، لأن الوعد الإلهي صادق لا تتطرّق إليه الآفات، والذي بيده من الأسباب يمكن أن يتطرق إليه الآفات فيحال بينه وبين من هو عنده بأي وجه كان، فلذلك قلنا إن المتوكل ذوقاً أتم في السكون من صاحب السبب الحاصل المزيل لهذا الألم، فاعلم ذلك فهذا هو الوسط من علم الفتح وصاحبه يلتذ في باطنه غاية الالتذاذ. وأما المعنى من هذه الحضرة فهو ما يطالع به العبد من العلم بالله إذا كان الحق أعني هوية الحق صفات هذا العبد فما يحصل له من العلم إذا كان بهذه الصفة هو المعنى الحاصل من هذه الحضرة، وما كل أحد ينال هذا المقام من هذه الحضرة وإن كان فيها فإن الناس يتفاضلون في ذلك، ومن هذه الحضرة قال رسول الله ﷺ حين ضرب بين كتفيه: «عَلِمْتُ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ» بذلك الوضع وتلك الضربة أعطاه الله فيها ما ذكره من العلم ويعني بذلك العلم بالله فإن العلم بغير الله تضييع الوقت، فإن الله ما خلق العالم إلا له، ولا سيما هذا المسمى بالإنس والجن فإنه نص عليه أنه خلقه لعبادته، وذكر عن كل شيء أنه يسبح بحمده، فمن علم الله بمثل هذا العلم علم أن كل نطق في العالم كان ذلك النطق ما كان مما يحمد أو يذم أنه تسبيح بوجه لله بحمده أي فيه ثناء على الله لا شك في ذلك، ومثل هذا العلم بحمد الله حصل لنا من هذه الحضرة، ولكن ما يعرف صورة تنزيله علماً بحمد الله والثناء عليه إلا من اختصه الله بوهب هذه الحضرة على الكمال، فيسب إنسان إنساناً وهو عند هذا السامع صاحب هذا المقام تسبيح بحمد الله فيؤجر السامع ويأثم القائل والقول عينه، وهذا من العلم اللطيف الذي يخفى على أكثر الناس، وهو في العلوم بمنزلة أسماء الأشياء كلها أنها أسماء الله في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] خبراً صدقاً مع علمنا بما نفتقر إليه من الأشياء، فهذا وذلك سواء ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ فسمع بالله ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] فأبصر بالله، وهذا القدر من الإيماء كافٍ في هذه الحضرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العلم وهي للاسم العليم والعالم والعلام

[نظم: البسيط]

إنّ العُلُومَ هي المَطْلُوبُ بالنَّظَرِ ... فانظُرْ وفَكِّرْ فإنّ الفِكْرَ مُعْتَبَرُ
لولا العلومُ التي في الكَوْن ما ظهرتْ ... أفكارُ من هو في الأشياء مُعْتَبَرُ
هو الإمام الذي يَدْرِيه خالقُه ... والنجمُ يعرفه والشمسُ والقَمَرُ
كيُوسُف حين خَرُّوا سُجَّداً ومضتْ ... أحكامُه فيهِمُ بالله فاعْتَبِروا
فلو ترى الشمسَ والأفلاكَ دائرةً ... في نارها ونجوم الليل تَنْتَثِرُ
من بَعْدِ مَا طُمِسَتْ أنوارُها ومَضَتْ ... أحكامُها وبَدَتْ في العين تَنْكَدِرُ
ماتوا وراح الذي قد كان يجمعهم ... في دار دنياهم فالكلّ قد قُبِرُوا

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد العليم، والعلماء في هذه الحضرة على ثلاث مراتب: عالم علمه ذاته، وعالم علمه موهوب، وعالم علمه مكتسب، وله حكم في الإلهيات، وله حكم في الكون، ففي الله علمه بكل شيء لذاته، وعموم تعلقها بكل معلوم، وقد بينا من أين تعلق علمه بالعالم والمكتسب في الله قوله حتى نعلم، والموهوب في الله ما أعطاه العبد من تصرّفه في المباح فإنه لا يتعين تقييده تعين الواجب والمحظور والمندوب والمكروه، فحصول العلم بالتصريف في المباح علم وهب يعلمه الحق من العبد بطريق إلهية لأنه لا يجب عليه الإتيان به، كما يجب عليه اعتقاده فيه أنه مباح والإيمان به واجب. وأما مراتب هذه العلوم في الكون فهينة الخطب، فإن الكون قابل للعلم بالذات، فالعلم الذاتي له هو ما يدركه من العلم بعين وجوده خاصة لا يفتقر في تحصيله إلى أمر آخر إلا بمجرد كونه، فإذا ورد عليه ما لا يقبله إلا بكونه موجوداً على مزاج خاص هو علمه الذاتي له والمكتسب ما له في تحصيله تعمل من أي نوع كان من العلوم المكتسبة، والموهوب هو ما لم يخطر بالبال ولا له فيه اكتساب كعلم الأفراد وهو علم الخضر فعلمه من لدنه علماً رحمة من عند الله به حتى كان مثل موسى عليه السلام الذي كلمه ربه يستفيد منه ما لم يكن عنده ولا أحاط به خبراً يقول: لم نذق له طعماً فيما علمه الله من العلم بالله.

واعلم أنه ما من موجود في العالم إلا وله وجه خاص إلى موجده إذا كان من عالم الخلق، وإن كان من عالم الأمر فما له سوى ذلك الوجه الخاص وإن الله يتجلى لكل موجود من ذلك الوجه الخاص فيعطيه من العلم به ما لا يعلمه منه إلا ذلك الموجود، وسواء علم ذلك الموجود أو لم يعلمه، أعني أن له وجهاً خاصاً، وأن له من الله علماً من حيث ذلك الوجه، وما فضل أهل الله إلا بعلمهم بذلك الوجه، ثم يتفاضل أهل الله في ذلك، فمنهم من يعلم أن لله تجلياً لذلك الموجود من هذا الوجه الخاص، ومنهم من لا يعلم ذلك، والذين يعلمون ذلك منهم من يعلم العلم الذي يحصل له من ذلك التجلي، ومنهم من لا يعلمه أعني على التعيين، وما أعني بالعلم إلا متعلق العلم هل هو كون أو هو الله من حيث أمر ما؟ والعلم المتعلق بالله: إما علم بالذات وهو سلب وتنزيه أو إثبات وتشبيه، وإما علم باسم ما من الأسماء الإلهية من حيث ما سمى الحق به نفسه من كونه منعوتاً بالقول والكلام. وإما علم باسم مّا من أسماء الأسماء من حيث ما تقتضيها عبارات المحدثات. وإما علم نسب إلهية. وإما علم صفات معنوية، وإما علم نعوت ثبوتية إضافية تطلب أحكاماً متقابلة. وإما علم ما ينبغي أن يطلق منه عليه وما ينبغي أن لا يطلق ولكل علم أهل. وأما ما يتعلق بالكون من العلم الإلهي الذي يعطيه الله من شاء من عباده من هذه الحضرة فهو إما علم يكون متعلقه نسبة العالم إلى الله، وإما علم يكون متعلقه نسبة الله إلى العالم. وإما علم بارتفاع النسبة بين العالم والذات وإثباتها بين العالم والأسماء، وإما علم بإثبات النسبة بين العالم والذات وهو علم القائلين بالعلة والمعلول. وإما علم إثبات النسبة شرطاً لا علة. وإما علم يتعلق بالصورة التي خلق الله العالم عليها كله. وإما علم بالصورة التي خلق الإنسان عليها. وإما علم بالبسائط.

وإما علم بالمركبات، وإما علم بالتركيب، وإما علم بالتحليل. وإما علم بالأعيان الحاملة مركبة كانت أو بسائط وإما بالأعيان المحمولة. وإما علم بإلهيات، وإما علم بالأوضاع. وإما علم بالمقادير، وإما علم بالأوقات. وإما علم بالاستقرارات، وإما علم بالانفعالات، وإما علم بالعين المؤثرة اسم فاعل المؤثرة فيها اسم مفعول وأنواع الآثار بالتوجهات والقصد أو بالمباشرة، هذا كله مما يكون للعالم به أو ببعضه من هذه الحضرة العلمية، فمن دخل هذه الحضرة ذوقاً فقد حاز كل علم، ومن دخلها بالفكر فإنه ينال منها على قدر ما هو فيه.

ومن هذه الحضرة يحيط بعض الخلق بعلم ما لا يتناهى من أعيان أشخاص نوع نوع من الممكنات على حد ما يعلم في العامة تضاعف العدد إلى ما لا يتناهى، ولا يقدر أحد على إنكاره من نفسه أنه يعلم ذلك ولا يخطىء فيه. ثم لتعلم أن مسمى العلم ليس سوى تعلق خاص من عين تسمى عالماً لهذا التعلق وهو نسبة تحدث لهذه الذات من المعلوم، فالعلم متأخر عن المعلوم لأنه تابع له هذا تحقيقه، فحضرة العلم على التحقيق هي المعلومات وهو بين العالم والمعلوم، وليس للعلم عند المحقق أثر في المعلوم أصلاً لأنه متأخر عنه، فإنك تعلم المحال محالاً ولا أثر لك فيه من حيث علمك به ولا لعلمك فيه أثر، والمحال لنفسه أعطاك العلم به أنه محال، فمن هنا تعلم أن العلم لا أثر له في المعلوم بخلاف ما يتوهمه علماء أصحاب النظر، فإيجاد أعيان الممكنات عن القول الإلهي شرعاً وكشفاً، وعن القدرة الإلهية عقلاً وشرعاً لا عن العلم، فيظهر الممكن في عينه فيتعلق به علم الذات العالمة بأنه ظاهر كما تعلق به أنه غير ظاهر بذلك العلم، فظهور المعلوم وعدم ظهوره أعني وجوده أعطى العلم فهو حضرة المعلوم ينوع العلم من العالم بما هو عليه في ذاته أعني المعلوم، هذا في كل موصوف بالعلم، فالصفات المعنوية كلها على الحقيقة نسب غير أنه ثم نسبة تتقدم كالقول بالإيجاد على الموجود، ونسبة تتأخر كالعلم والمعلوم، فإذا فهمت ما ذكرته لك في هذه الحضرة علمت الأمر العلمي على ما هو عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة القبض وهي للاسم القابض

[نظم: البسيط]

لا شَكَّ أن القَبْضَ مَعْلُومُ   فِي ذاته فالأمْرُ مَفْهُومُ

وليس معلوماً لنا سِرُّهُ   لكنه لله معلومُ

يعلمُهُ الخائفُ من خَوْفِهِ   لذاك يُمْسي وهو مَغْمُومُ

بُسْتانه تبكيه أطيارُهُ   يَغْمُرُهُ الغِرْبانُ والبُومُ

منقبضٌ عنه وعن مثله   فسِرُّهُ في الكون مَكْتُومُ

لها أثر في المحدث والقديم يدعى صاحبها عبد القابض بما يعطيه الممكن من أفعاله فيقبضها الحق منه كما ورد أنّ الله يأخذ الصدقات من عباده فيربيها لهم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فيقبضه بحيث أنه لا يبقى لغير الله فيه تصرّف بعد القبض الإلهيّ إلا أن

يعطيه الحق ذلك فيقبضه العبد من ربه، وأوّل قبض قبضه الممكن من ربه وجوده، فقبض الحق من الممكن علمه به، وقبض الممكن من الحق وجوده، وجميع ما يتصرف فيه ويضاف إليه من الأفعال، فإذا وقعت يقبضها الحق من العامل فحضرة القبض بين القابض والمقبوض والمقبوض منه، وقد يكون لهذه الحضرة في القابض قبض مجهول وهو خطر جداً كما يكون لها قبض معلوم، فإذا وجد العبد من هذه الحضرة قبضاً في نفسه لا يعرف سببه ولا يعرف منه سوى علمه بأنه قابض لأمر مجهول فهو مقبوض الباطن للحق بذلك الأمر الذي لا يعلمه، فإذا وقع له مثل هذا القبض من هذه الحضرة، فليسكن على ما هو عليه، وليتحرّك على الميزان المشروع والميزان العقليّ ولا يتزلزل، فإنه لا بد أن ينقدح له سبب وجود ذلك القبض إما بما يسوءه أو بما يسرّه، ولله عباد يسرّهم كل شيء يقامون فيه من بسط وقبض مجهول ومعلوم.

واعلم أن الأدب مصاحب لهذه الحضرة ولحضرة البسط، فإذا قبض من الحق ما يعطيه الله فيقبضه من يده في أمور معينة، ومن يد الغير في أمور معينة يعين ذلك مسمى الخير والشرّ، فالخير كله بيد الله فيقبضه منه ولكن بأدب يليق بذلك الخير المعين، وابذل جهدك في أن لا تقبض الشرّ جملة واحدة، فإن أعماك الحق وأصمك واستعملك في قبض الشرّ فمن الأدب أن لا تقبضه من يد الله واقبضه من يد المسمى شيطاناً، فإن على يده يأتيك الشر، فلو زال هذا البر يد لم يقع في الوجود حكم شر، وما أظهر عين الشر من هذا الشيطان إلا التكليف، فإذا ارتفع ارتفع هذا الحكم ولم يبقَ إلا الغرض والملاءمة، فنيل الغرض والملائم خير وفقد ما تعلق به الغرض وما لا يلائم شرّ: [مجزوء الخفيف]

فَخُذِ الخَيْرَ كُلَّهُ ... مِن يَدِ الحَقِّ تَسْعَدْ

ودَعِ الشَّرَّ كلَّهُ ... فِي يَدِ الغَيْرِ تَرْشُدْ

سواء نسبتهما إلى الشرع أو إلى الغرض أو الملاءمة، فمن القبض ما يكون عن وهب، ومنه ما يكون عن جود وكرم وعن سخاء وعن إيثار، وليس إلا قبض الشريكون وهو عن إيثار لجناب الحق حيث أضفته إلى نفسك ولم تضفه إلى الله أدباً مع الله حيث لم ينسبه إلى نفسه، فإن رسول الله ﷺ المترجم عن الله تعالى يقول: «وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ» وقال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] فكل ما يسوءك فهو شر في حقك، فلو لم يطلق عليه اسم شرّ لم تضفه إليك ولا أضافه الحق إليك، ألا تراه إذا نظرته فعلاً من غير حكم كيف يقول: كل من عند الله ظهر، فقف مع الحكم الإلهيّ في الأشياء وعلى الأشياء تكن أديباً معصوماً، فإنه لا يحفظ الله هذا المقام إلا على من عصم الله واعتنى به، ومن هذه الحضرة تقرض الله ما طلب منك من القرض، وتعلم أنه ما طلبه منك إلا ليعود به وبأضعافه عليك من جهة من تعطيه إياه من المخلوقين، فمن أقرض أحداً من خلق الله، فإنما أقرض الله، وليس الحسن في القرض إلا أن ترى يد الله هي القابضة لذلك القرض لا غير فتعلم عند ذلك في يد من جعلت ذلك وهو الحفيظ الكريم. وأما قبضه ما يقبضه للدلالة عليه كقبض الظل إليه ليعرفك بك وبنفسه

لأنه ما خرج الظل إلا منك، ولولا أنت لم يكن ظل، ولولا الشمس أو النور لم يكن ظل، وكلما كشف الشخص تحققت أعيان الظلال، فالأمر بينك وبينه كما قرّرنا في الوجود بين الاقتدار الإلهي وبين القبول من الممكن مهما ارتفع واحد منهما ارتفع الوجود الحادث، كذلك إذا ارتفع العين المشرق والجسم الكثيف الحائل عن نفوذ هذا الإشراق فيه حدث الظل فالظل من أثر نور وظلمة، ولهذا لا يثبت الظل عند مشاهدة النور كما لا تثبت الظلمة لأنه ابنها، فإن للظلمة ولادة على الظل بنكاح النور، فما قابل النور من الجسم الكثيف أشرق فذلك الإشراق هو نكاح النور له، وبنفس ما يقع النكاح تكون ولادته للظل، فنفس النكاح نفس الحمل نفس الولادة في زمان واحد كما قلنا في زمان وجود البرق انصباغ الهواء وظهور المحسوسات وإدراك الأبصار لها، والزمان واحد والتقدم والتأخر معقول، وهكذا الظل فافهم. ومن هذه الحضرة سماع ما يقبضك ورؤية ما يقبضك، فلو لم يقبض المسموع الذي قبضك ما كنت مقبوضاً وكذلك الرؤية فأنت القابض المقبوض، فما أتى عليك إلا منك، فلو أزلت الغرض عند السماع أو الرؤية لكنت قابضاً ولم تكن مقبوضاً، غير أن هذه الحقيقة لا ترتفع من العالم لأن الاستناد قوي بقوله: ﴿اتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨] وليس إلا القبض، فإذا أخبر الحق بوجود الأثر في ذلك الجناب فأين يخرج العبد من حكمه لذلك؟ قال في نعيم الجنان: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] وليس إلا نيل الأغراض، فتحقق حكم هذه الحضرة وما تعطيه في الإنسان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة البسط وهي للاسم الباسط

[نظم: السريع]

لا يَفْرَحُ العاقلُ في بَسْطِهِ	إلا إذا بَشَّرَهُ اللَّهُ
على لسانِ صادقٍ مُنْجِدِ	ومُثْبِتٍ يعلمُهُ اللَّهُ
فإنَّهُ الصَّادِقُ في قَوْلِهِ	لَهُ إذا يَحْشُرُهُ الجَاهُ
لا تَمْتَرِي في صِدْقِ إرسالهِ	لكونها أعلمها اللَّهُ
فلا تقولوا مثل ما قال من	يقول إذ قيل له ما هُوْ
مَاهِيَّةٌ ما ثَمَّ مجهولة	فافْرَحْ فإن الواحد اللَّهُ

يدعى صاحبها عبد الباسط، ولها حكم وأثر قديماً وحديثاً، فمن أرضى الله فقد منع غضبه وبسط رحمته ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]: [مجزوء الخفيف]

فلهُ الحُكْمُ كُلُّهُ	ولِيَ الحُكْمُ جُلُّهُ
فهو الحَقُّ أصْلُنا	وأنا العبدُ ظِلُّهُ
فإذا دام غَضَبُهُ	فأنا منه ظِلُّهُ
ما لِيَ أمر يخصّني	بل لِيَ الأمْرُ كُلُّهُ
إن أسَأْنا فعدلُه	إن يشأ ذاك فَضْلُهُ

كل جنس يعمنا وأنا منه فضله
أيّ فضل مقوّم أنا منه فشكله
شكل ذاتي وفيضه عين فيضي أو مثله

فله الحكم في عباده من هاتين الحضرتين، غير أن المحالّ تختلف فيختلف البسط لاختلافها والأحوال تختلف، فيختلف البسط لاختلافها، فأما في محل الدنيا ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] فأنزل بقدر ما يشاء، وأطلق له في الجنة البسط لكونها ليست بمحل تعن ولا تعد، فإن الله قد نزع الغل من صدورهم، فالعبد باتباع الرسول وأعني به الشرع الإلهيّ، والوقوف عند حدوده ومراسمه بالأدب الذي ينبغي له أن يستعمله في ذلك الاتباع يؤثر في الجناب الأقدس المحبة في هذا المتبع فيحبه الله وإذا أحبه انبسط له، فحال العبد في الدنيا عند انبساط الحق إليه أن يقف مع الأدب في الانبساط وهو قبض يسير أثره بسط الحق، فالعبد ينقبض لقبض الحق ولبسطه وإن اختلف حكم القبض فيه أعني في الدنيا لأجل التكليف، فمن المحال كمال البسط في الدنيا للأدب، ومحال كمال القبض في الدنيا للقنوط، غير أن حكم القبض أعم في الدنيا من البسط، فمن الناس من وفقهم الله لوجود أفراح العباد على أيديهم، أول درجة من ذلك من يضحك الناس بما يرضي الله أو بما لا رضا فيه ولا سخط وهو المباح، فإن ذلك نعت إلهيّ لا يشعر به بل الجاهل يهزأ به، ولا يقوم عنده هذا الذي يضحك الناس وزن وهو المسمى في العرف مسخرة، وأين هو هذا الجاهل بقدر هذا الشخص من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣] ولا سيما وقد قيدناه بما يرضي الله أو بما لا رضا فيه ولا سخط، فعبد الله المراقب أحواله وآثار الحق في الوجود يعظم في عينه هذا المسمى مسخرة، وكان لرسول الله ﷺ نعيمان يضحكه ليشاهد هذا الوصف الإلهيّ في مادة فكان أعلم بما يرى، ولم يكن رسول الله ﷺ ممن يسخر به ولا يعتقد فيه السخرية وحاشاه من ذلك ﷺ، بل كان يشهده مجلى إلهياً يعلم ذلك منه العلماء بالله، ومن هذه الحضرة كان رسول الله ﷺ يمازح العجوز والصغير يباسطهم بذلك ويفرحهم، ألا ترى إلى أكابر الملوك كيف يضاحكون أولادهم بما ينزلون إليهم في حركاتهم حتى يضحك الصغير، ولم أرَ من الملوك من تحقق بهذا المقام في دسته بحضور أمرائه والرسل عنده مثل الملك العادل أبي بكر بن أيوب مع صغار أولاده وأنا حاضر عنده بميافارقين بحضور هذه الجماعة، فلقد رأيت ملوكاً كثيرة ولم أر منهم مثل ما رأيته من الملك العادل في هذا الباب، وكنت أرى ذلك من جملة فضائله ويعظم به في عيني وشكرته على ذلك، ورأيت من رفقه بالحريم وتفقد أحوالهن وسؤاله إياهنّ ما لم أرَ لغيره من الملوك، وأرجو أن الله ينفعه بذلك.

واعلم أن الفرق بين الحضرتين أن القبض لا يكون أبداً إلا عن بسط والبسط قد يكون عن قبض وقد يكون ابتداء، فالابتداء سبق الرحمة الإلهية الغضب الإلهي، والرحمة بسط والغضب قبض، والبسط الذي يكون بعد قبض كالرحمة التي يرحم الله بها عباده بعد وقوع

العذاب بهم فهذا بسط بعد قبض، وهذا البسط الثاني محال أن يكون بعده ما يوجب قبضاً يؤلم العبد، فالبسط عام المنفعة وقد يكون فيه في الدنيا مكر خفيّ وهو إرداف النعم على المخالف فيطيل لهم ليزدادوا إثماً وهو قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] والإملاء بسط في العمر والدنيا فيتصرفون فيهما بما يكون فيه شقاؤهم، ومن البسط ما يكون أيضاً مجهولاً ومعلوماً أعني مجهول السبب، فيجد الإنسان في نفسه بسطاً وفرحاً ولا يعرف سببه، فالعاقل من لا يتصرف في بسطه المجهول بما يحكم عليه البسط فإنه لا يعرف بما يسفر له في عاقبته، هل بما يقبضه ويندم فيه أو بما يزيده فرحاً وبسطاً، فالمكر الخفيّ فيه إنما هو لكونه مجهول السبب، وقوة سلطانه فيمن قام به، والدار الدنيا تحكم على العاقل بالوقوف عند الجهل بالأسباب الموجبة لبعض الأحوال فيتوقف عندها حتى ينقدح له أمرها، فإذا علم تصرف في ذلك على علم فإما له وإما عليه، بحسب ما يوفقه الله، وينصره أو يخذله، فمن الله نسأل العصمة من الزلل في القول والعمل، ومن هذه الحضرة يدعو إلى الله من يدعو على بصيرة فيدعو من باب البسط من يعلم أن البسط يعين على الإجابة من المدعوّ ويدعو من باب القبض من يعلم أن القبض يعين على إجابة المدعو، فهذا الداعي وإن كان في مقام مباسطة الحق فإنه يدعو بالقبض والبسط فإنه يراعي المصلحة ويدفع بالتي هي أحسن في حق المدفوع عنه وفي حق نفسه، والأدب أعظم ما ينبغي أن يستعمل في هذه الحضرة فإن البسط مطلب النفوس فليحذر غوائلها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الخفض

[نظم: البسيط]

إنَّ التَّواضُعَ حُكْمٌ ليس يَعْرِفُهُ ... إلا العَلِيُّ الذي لله يَخْفِضُهُ
تنزّل الحَقّ إكراماً إلى دَرَجٍ ... به يجزّئه به يُبَعِّضُهُ
يقسم الخلق في تعيين رُتْبَتِهِ ... قسم يحبّبه وقسم يُبَغِّضُهُ
إن الذي خَفَضَ الأكوان أجْمَعَها ... عن المقام الذي بما يخفضُهُ
رفعت همّته نحو العليّ عسى ... يوماً على غلظ يكون تَنَهُّضُهُ
أبْرَمْتُ أمراً وفي الإبرام حاجته ... فجاء في الحال للحرمان يَنْقُضُهُ
إني جعلتُ له في قلب ذي أدب ... حُبّاً وجاء سفير الحال يبغضُهُ
صِفْرَ اليدين أتاك اليوم يسألكم ... قَرْضاً يضاعفه من أنت تُقْرِضُهُ
وقلت يا منتهى الآمال أجمعها ... عساك يوماً على خير تُحَرِّضُهُ
عَرَفْتَهُ بالذي يأتيه من كُتُبٍ ... عساه يوماً يراه الحق يَرْفُضُهُ

فيدعى صاحبها في الملأ الأعلى عبد الخافض فاعلم أن الوجود قد انقسم في ذاته إلى ما له أول وهو الحادث، وإلى ما لا أول له وهو القديم، فالقديم منه هو الذي له التقدم، ومن

له التقدم له الرفعة والحدوث له التأخر، ومن تأخر فله الانخفاض عن الرفعة التي يستحقها القديم لتقدمه، فإن المتقدم له التصرف في الحضرات كلها لأنه لا منازع له يقابله ولا يزاحمه ويرى المراتب فيأخذ الرفيع منها، والحادث ليس له ذلك التصرف في المراتب فإنه يرى القديم قد تقدمه في الوجود وتصرف وحاز مقام الرفعة وما نزل عنه فهو خفض فلم يكن له تصرف إلا في حضرة الخفض، فإذا أراد الحق أن يتصرف فيها تصرف المحدث ينزل إليها فإذا نزل إليها حكم عليه بأحكامها، فإذا ارتفع عنها بعد هذا النزول هو المسمى بهذا الارتفاع الخاص متكبراً فقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ بالرفعة الأولى ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] بالرفعة بعد النزول، فحضرة الخفض سلطانها في المحدث كان المحدث ما كان، وإنما قلنا كان المحدث ما كان من أجل صور التجلي فإنها محدثة، ومن أجل إتيان الذكر الذي هو القرآن كلام الله فإنه محدث الإتيان، قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وليس إلا القرآن وقد حدث عندهم بإتيانه، فلذلك قلنا كان الحادث ما كان، فمن هذه الحضرة يكون حكم الخافض والمخفوض، ألا ترى إلى حروف الخفض هي الخافضة والحرف في أدنى الدرجات ومع ذلك فلها أثر الخفض في الأسماء مع علو درجة الأسماء فتقول: أعوذ بالله فالباء خافضة ومعمولها الهاء من كلمة الله فهي التي خفضت الهاء من الكلمة فأثرت في الكلمة بحقيقتها، وإن كانت الأسماء أعلى في الرتبة منها فالعالم وإن كان في مقام الخفض ورتبته رتبة الخفض فإنه بعضه لبعضه كأداة الخفض في اللسان لا يخفض المتكلم الكلمة إلا بها، كذلك ما لا يفعله الحق من الأشياء إلا بوساطة الأشياء ولا يمكن غير ذلك فلا بد من حقيقته، هذا أن ينزل إلى رتبة الخفض ليتصرف في أدوات الخفض بحسب ما هي عليه تلك الأدوات من الأحكام وهي كثيرة كأداة الباء على اختلاف مراتبها، وهي في كل ذلك لا تعطي إلا الخفض، فلها رتبة القسم ورتبة الاستعانة ورتبة التبعيض والتأكيد والنيابة مناب الغير، وكذلك من وإلى وفي وجميع أدوات الخفض لها صور في التجلي، فتظهر بحكم واحد وعين واحدة في مراتب كثيرة، فمن على كل حال حكمها الخفض وذاتها معلومة فهي لا تتغير في الحكم ولا في العين، وهي لابتداء الغاية خرجت من الدار وتكون للتبعيض: أكلت من الرغيف، وتكون للتبيين: شربت من الماء، فما تغير لها عين ولا حكم في الخفض.

ثم إنه إذا دخل بعضها على بعض صير المدخول عليه فيها اسماً وزال عنه حكم الحرفية، فيرجع خفضه بالإضافة كسائر الأسماء المضافة وأبقى عليه بناءه حتى لا يتغير عن صورته، قال لشاعر: من عن يمين الحبيا نظرة قبل. أراد جهة اليمين فدخلت من على عن فصيرتها بمعنى الجهة وأخرجتها عن الحرفية، فمعقول من عين عن واليمين كما قلنا مضافة إلى عن ولم يظهر في عن عمل الخفض في الظاهر لأنها بالأصالة خافضة، والخافض لا يكون مخفوضاً، فهي هنا مخفوضة المعنى غير مخفوضة الصورة لما هي عليه من البناء مثل: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] وكذلك قول الشاعر وهو كثير في اللسان، وهذا العمل في هذا الطريق إذا أثر المحدث في المحدث لم يزله أثره فيه عن أن يكون محدثاً

والحدوث له بمنزلة البناء للحرف والأثر فيه للمؤثر ولا مؤثر إلا الله، فهذا خلق ظهر بصورة حق فانفعل المنفعل لصورة الحق لا للخلق، فقد تلبس في الفعل الخلق بالحق في الإيجاد، وتلبس الحق بالخلق في الصورة التي ظهر عنها الأثر في الشاهد كما ظهر عقلاً عن الحق: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] والإشارة إلى الأسماء الإلهية هنا وإن كان المراد الزوجات تفسيراً: [الطويل]

فإنْ قُلْتَ هذا الحَقّ أظْهَرْتَ غائباً ... وإنْ قُلْتَ هذا الخَلْق أخْفَيْتَهُ فِيهِ

فلولا وُجُودُ الحَقِّ ما بَانَ كائنٌ ... ولولا وجودُ الخَلْقِ ما كُنتَ تُخْفِيهِ

فمن حضرة الخفض ظهر الحق في صورة الخلق فقال: «**كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ**» الحديث. وقال تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] كما قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩] فلولا حكم النسب وتحقيق النسب ما كان للأسباب عين ولا ظهر عندها أثر، وأنت تعلم أن استناد أكثر العالم إلى الأسباب، فلولا أن الله عندها ما استند مخلوق إليها فإنا لم نشاهد أثراً إلا منها ولا عقلناه إلا عندها، فمن الناس من قال بها ولا بد، ومن الناس من قال عندها ولا بد، ونحن ومن شاهد ما شاهدنا نقول بالأمرين معاً عندها عقلاً وبها شهوداً وحساً كما قدمنا في الاقتدار والقبول، فذلك هو الأصل الذي يرجع إليه الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، فهل طلب منك ما ليس لك فيه تعمل؟ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢] فلا بد من حقيقة هنا تعطي الإضافة في العمل إليك مع كونه خلقاً لله تعالى كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] أي وخلق ما تعملون، وأهل الإشارة جعلوا هنا ما ناقية فالعمل لك والخلق لله، فما أضاف إليه تعالى عين ما أضافه إليك إلا لتعلم أن الأمر الواحد له وجوه، فمن حيث ما هو عمل أضافه إليك ويجازيك عليه، ومن حيث ما هو خلق هو لله تعالى، وبين الخلق والعمل فرقان في المعنى واللفظ فلا تحجب عن معرفة هذا فإنه لطيف خفي، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الرفعة

[نظم: الخفيف]

يَرْفَعُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ قَوْماً ... آمَنُوا فوق غيرِهم دَرَجَاتِ

فتراهم بهم نفوساً سُكَارَى ... داخلات في حكمه خَارِجاتِ

ورأينا لديه فتيانَ صِدْقٍ ... عامَلُوه بالصدق في فَتَيَاتِ

طاهراتٍ من الخَنَا مُغْلِنَاتٍ ... بشهاداتِ حَقِّهِ مُؤمِنَاتِ

يدعى صاحبها عبد الرفيع. قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥] فالرفعة له سبحانه بالذات وهي للعبد بالعرض وأنها على النقيض من حضرة الخفض في الحكم، فإن الخفض للعبد بالأصالة والرفعة للحق.

واعلم أيدنا الله وإياك بروح منه أن هذه الحضرة من حضرات السواء التي لها موقف السواء في المواقف التي بين كل مقامين يوقف في كل موقف منها العبد ليعرف بآداب المقام الذي ينتقل إليه، ويشكر على ما كان منه من الآداب في المقام الذي انتقل عنه، وإنما سمي موقف السواء أو حضرة السواء لقوله تعالى عن نفسه: إنه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ فجعل له درجات ظهر فيها لعباده، وقال في عباده العلماء به: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] يظهر فيها العلماء بالله ليراهم المؤمنون.

ثم إنه من حكم هذه الحضرة السوائية في رفع الدرجات التسخير بحسب الدرجة التي يكون فيها العبد أو الكائن فيها كان من كان، فيقتضي له أي للكائن فيها أن يسخر له من هو في غيرها ويسخره أيضاً من هو في درجة أخرى، وقد تكون درجة المسخر اسم مفعول أعلى من درجة المسخر اسم فاعل، ولكن في حال تسخير الأرفع بما سخره فيه شفاعة المحسن في المسيء إذا سأل المسيء الشفاعة فيه، وفي حديث النزول في الثلث الباقي من الليل غنية وكفاية وشفاء لما في الصدور لمن عقل، ولما كانت الدرجة حاكمة اقتضى أن يكون الأرفع مسخراً اسم مفعول، وتكون أبداً تلك الدرجة أنزل من درجة المسخر اسم فاعل والحكم للأحوال كدرجة الملك في ذبه عن رعيته وقتاله عنهم وقيامه بمصالحهم، والدرجة تقتضي له ذلك، والتسخير يعطيه النزول في الدرجة عن درجة المسخر له اسم مفعول، قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] فافهم.

ثم إنه أمر عباده ونهاهم كما أمر عباده أيضاً أن يأمروه وينهوه فقال لهم قولوا: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦] في مثل الأمر ويسمى دعاء ورغبة، وفي مثل النهي: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وأمر الله أن نقول: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] والنهي: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] وأمثال ذلك، فنظرنا في السبب الذي أوجب هذا من الله أن يكون مأموراً منهياً على عزته وجبروته، ومن العبد على ذله وافتقاره، فوجدناه حكم الدرجات بما تقتضيه، والدرجة أيضاً هي التي جعلت هذا الأمر والنهي في حق الله يسمى أمراً ونهياً، وفي حق العبد يسمى دعاء ورغبة، فأقام الحق نفسه بصورة ما أقام فيه عباده بعضهم مع بعض، وقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥] إنما ذلك على خلقه. ثم أنزل نفسه معهم في القيام بمصالحهم وبما كسبوا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] لأنهن عائلته، وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الخَلْقَ عِيَالُ اللهِ**» فيقوم بهم لأن الخلق إلى الله يميلون ولهذا كانوا عائلة له، فلما أنزل نفسه في هذه المنزلة فضلاً منه وحقيقة فإنه لا يكون الأمر إلا هكذا نبه أنه منا وفينا كنحن منا وفينا: [مجزوء الرمل]

إنَّـــهُ مِـــنّـــا وفـــيـــنـــا ... مـــثـــلـــنـــا مـــنّـــا وفـــيـــنـــا
وبـــنـــا عَـــرَفْـــتُ رَبِّـــي ... هـــكـــذا جـــاء يَـــقِـــيـــنَـــا

قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وعلل بقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] ومن سألته فقد اتخذته موضعاً لسؤالك فيما سألته فيه، وقد أخبر عن نفسه بالإجابة فيما سأله لمن سأله على الشرط الذي قرره كما نجيبه نحن فيما سألنا أيضاً على الشرط الذي تقضي به مراتبنا، ثم إنه عز وجل لما كان عين أسمائه في مرتبة كون الاسم هو عين المسمى ومن يقول في صفات الحق أنها لا هي هو ولا هي غيره، وقد علمنا رفعة الدرجات في الأسماء بعضها فوق بعض كانت ما كانت ليتخذ بعضهم بعضاً بحسب مرتبته، فنعلم أن درجة الحيّ أعظم الدرجات في الأسماء لأنه الشرط المصحح لوجود الأسماء، وأن العلم من العالم أعم تعلقاً وأعظم إحاطة من القادر والمريد لأن لمثل هؤلاء خصوص تعلق من متعلقات العالم فهو للعالم كالسدنة. ولما كان العلم يتبع المعلوم علمنا أن العالم تحت تسخير المعلوم يتقلب بتقليبه ولا يظهر له عين في التعلق به إلا ما يعطيه المعلوم، فرتبة المعلوم إذا حققتها علمت علوّ درجتها على سائر الدرجات أعني المعلومات، ومن المعلومات للحق نفس الحق وعينه وما يجب له ويستحيل عليه، وما يجب لكل معلوم سوى الحق، وما يستحيل على ذلك المعلوم وما يجوز عليه، فلا يقوم فيه الحق إلا بما يعطيه المعلوم من ذاته، وكذلك درجة السميع والبصير والشكور وسائر الأسماء في التعلق الخاص، والرؤوف والرحيم وسائر الأسماء كلها تنزل عن الاسم العليم في الدرجة، إلا المحيط فإنه ينزل عن العليم بدرجة واحدة فإنه لا يحيط إلا بمسمى الشيء والمحال معلوم وليس بشيء إلا في وجود الخيال، فهنالك له شيئية اقتضتها تلك الحضرة، فهو محيط بالمحال إذا تخيله الوهم شيئاً كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ولكن في المرتبة الخارجة عن الخيال لا إحاطة له بالمحال مع كون المحال معلوماً للعالم غير موصوف بالإحاطة، وكذلك الحيّ لما كانت له درجة الشرطية كان له السببية في ظهور أعيان الأسماء الإلهية وآثارها، وكذلك كل علة لا بد أن يكون لها حكم الحياة، وحينئذٍ يكون عنها الأثر الوجودي، ولا يشعر بذلك كل أحد من نظار العلماء من أولي الباب إلا أرباب الكشف الذين يعاينون سريان الحياة في جميع الموجودات كلها جوهرها وعرضها، ويرون قيام المعنى بالمعنى حتى يقال فيه سواد مشرق وسواد كدر، ومن لا علم له يجعل الإشراق للمحل لا للسواد وما عنده خبر، فكذلك قيام الحياة بجميع الأعراض قيامها بأعيان الجواهر، فما من شيء من عرض وجوهر وحامل ومحمول إلا وهو يسبح بحمد الله، ولا يسبح الله إلا حي عالم بمن يسبح وبما يسبح، فيفضل بعلمه بين من ينبغي له التسبيح وبين من ينبغي له التشبيه في العين الواحدة من وجوه مختلفة، وهو سبحانه يثني على نفسه ويسبح نفسه بنفسه كما قال: إنه ﴿غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال: ﴿يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وكل ذلك في معرض الثناء على نفسه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ومن لم يعرف

الله تعالى والعالم بمثل هذه المعرفة فما عنده علم بالله ولا بالعالم، ولولا ما هو الأمر كما قررناه ما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وأتى بالعامل الذي يتعدى إلى مفعول واحد ولم يقل علم وذلك ليرفع الإشكال في الأحدية فقد بان لك يا ولي بما فضلناه وأومأنا إليه ما تقتضيه هذه الحضرة حضرة الرفع، والتي قبلها حضرة الميزان الذي به يخفض الله ويرفع، ولما كانت للحق الدرجة العليا قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] فإن الكلمة إذا خرجت تجسدت في صورة ما هي عليه من طيب وخبيث، فالخبيث يبقى فيما تجسد فيه ما له من صعود، والطيب من الكلم إذا ظهرت صورته وتشكلت، فإن كانت الكلمة الطيبة تقتضي عملاً وعمل صاحبها ذلك العمل أنشأ الله من عمله براقاً أي مركوباً لهذه الكلمة فيصعد به هذا العمل إلى الله صعود رفعة يتميز بها عن الكلم الخبيث، كل ذلك يشهده أهل الله عياناً أو إيماناً، فالخلق في كل نفس في تكوين فهم كل يوم في شأن لأنهم في نفس وهو هيولى صور التكوين، فالحق في وجود الأنفاس شؤونه، والتصوير لما هو العبد عليه من الحال في وقت تنفسه فيعطيه الحق النفس الداخل هيولائي الذات، فإذا استقر في القلب وأعطى أمانته من التبريد الذي جاء له تشكل وانفتحت في ذات ذلك النفس صورة ما في القلب من الخواطر فيزعجه السحر بعد فتح الصورة فيه على مدرجته خروج انزعاج لدخول غيره لأن السحر وهو الرئة له حفظ هذه النشأة فهو كالروبان بل هو كالحاجب الذي بيده الباب، فإذا خرج فلا يخلو إما أن يتلفظ صاحب ذلك النفس بكلام أو لا يتلفظ، فإن تلفظ تشكل ذلك الهواء بصورة ما تلفظ به من الحروف فيزيد في صورة ما اكتسبه من القلب، وإن لم يتلفظ خرج بالصورة التي قبلها في القلب من الخاطر هكذا الأمر دائماً دنيا وآخرة، ففي الدنيا يتصوّر في خبيث وطيب، وفي الآخرة لا يتصور إلا طيباً لأن حضرة الآخرة تقتضي له الطيب، فلا يزال يوجد طيباً بعد طيب حتى يكثر الطيبون فيغلبون على الخبيثين الذين أوردوا صاحبهم الشقاء، فإذا كثروا عليهم غلبوهم فأزالوا حكمهم فيه، فهو المعبر عنه بمآلهم إلى الرحمة في جهنم وإن كانوا من أهلها فمن حيث أنهم عمار لا غير فإن رحمة الله سبقت غضبه والحكم لله، وما سوى الله فمجعول وآله العقائد مجعول، فما عبد الله قط من حيث ما هو عليه، وإنما عبد من حيث ما هو مجعول في نفس العابد، فتفطن لهذا السرّ فإنه لطيف جداً، به أقام الله عذر عباده في حق من قال فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] فاشترك الكل المنزه وغير المنزه في الجعل، فكل صاحب عقد في الله فهو صاحب جعل، فمن هنا تعرف من عبد ومن عبد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الإعزاز

[نظم: البسيط]

إنّ الـمُـعـزَّ الـذي أُعِـزَّ جَـانِـبُـه ... كـمـا أُعِـزَّ الـذي فـي الله صـاحِـبُـهُ

إذا أَتَـى مُـسْـتَـجِـيـرٌ نـحـو حَـضْـرَتِـهِ ... فـي الـحـيـن أَكْـرَمَـهُ فـي الـوقـت عَـاتَـبَـهُ

يدعى صاحبها عبد المعز وهذه الحضرة تجعل العبد منيع الحمى، وتعطيه الغلبة والقهر على من ناواه في مقامه بالدعوى الكاذبة التي لا صورة لها في الحق وهو الذي يعتز بإعزاز المخلوق، فهو كالقياس في الأحكام المشروعة يضعف الحكم فيه عن حكم المنصوص عليه، ولهذا أثبتته طائفة ونفته أخرى أعني القياس في الأحكام المشروعة، وإنما جعله من جعله أصلاً في الحكم لما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فما تفطنوا لذكر الله العزة لهؤلاء الموصوفين بالرسالة المضافة إليه تعالى والإيمان، فما قال الناس فهؤلاء المذكورون لهم الإعزاز الإلهيّ وقد قلنا به، والذين أثبتوا القياس نظروا إلى أن الله ما أعز دينه إلا بهؤلاء، فما عزوا إلا بالدين، ولا أعز الله الدين إلا بهم، فقد حصل للدين إعزاز بإعزاز مخلوق وهو الرسول والمؤمنون الذين لهم العزة بإعزاز الله، فثبت للفرع ما ثبت للأصل فثبت القياس في الحكم، فمن هذه الحضرة كان القياس أصلاً رابعاً. ولما كان مثبوتاً بالكتاب والسنة فبقيت الأصول في الأصل ثلاثة، فصح التربيع في الأصول بوجه والتثليث بوجه كالمقدمتين اللتين ركبت كل مقدمة منهما من مفردين، وهذه المفردات ثلاثة في التحقيق، فصح التربيع والتثليث على الوجه الخاص وشرطه فكان الإنتاج، وليس إلا ظهور الحكم وثبوته في العين، فهذا أعطاه الاجتهاد، ولو كان خطأ فإن الله قد أقر حكمه على لسان رسوله، وما كلف الله نفساً إلا ما آتاها، وما آتاها إلا إثبات القياس أعني في بعض النفوس، والإعزاز من السلطان لحاشيته مقيس على إعزاز الله من أعزه من عباده. وأما صورة الاعتزاز بالله فهو أن يظهر العبد بصورة الحق بأيّ وجه كان مما يعطي سعادة أو شقاوة لأن العزة إنما هي لله، ففي أي صورة ظهرت كان لها المنع، فظهورها في الشقي مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي المنيع الحمى في وقتك الكريم على أهلك وفي قومك فما هي سخرية به فإنه كذلك كان وهي سخرية به لأنه خاطبه بذلك في حالة ذله وإباحة حماه وانتهاك حرمته، فما ظهر معتز في العالم إلا بصورة الحق أي بصفته إلا أن الله ذمها في موطن وحمدها في موطن، وذلك الموطن المحمود أن يكون هو الذي يعطي ذلك على علم من العبد فهو صاحب اعتزاز في ذل، ومن ليس له هذا المقام فهو ذو اعتزاز في غير ذل وإن أحس بالذل في نفسه لأنه مجبول على الذلة والافتقار، والحاجة بالأصالة لا يقدر أن ينكر هذا من نفسه ولذلك قال الله بأنه يطبع على كل قلب متكبر جبار فلا يدخله الكبرياء والجبروت وإن ظهر بهما فإنه يعرف في قلبه أنه لا فرق بالأصالة بينه وبين من تكبر عليهم وتجبر، وأعظم الاعتزاز من حمى نفسه من أن يقوم به وصف رباني وليس إلا العبد المحض، فإن ظهر بأمر الله فأمر الله أظهره، فإعزاز الله عبده أن لا يقوم به من نعوت الحق في العموم نعت أصلاً فهو منيع الحي من صفات ربه، وإنما قلنا في العموم لأن صفات الحق في العموم ليست إلا ما يقتضي التنزيه خاصة المعبر عنها بالأسماء الحسنى، والتي في الخصوص أن جميع الصفات كلها لله التي يقال إنها في العبد بحكم الأصالة وإن اتصف الحق بها، والأسماء الحسنى في الحق بحكم الأصالة وإن اتصف العبد بها وعند الخصوص كلها لله وإن اتصف العبد بها،

ومتى لم يعتز العبد في حماه عن قيام الصفات الربانية به في العموم فما اعتز قط لأنه ما امتنع عنها، وذلك إذا حكمت فيه عن غير أمر الله كفرعون وكل جبار ومن له هذه الصفة الحجابية وإن أخذها عن أمر الله، ولكنه لما قام بها في الخلق وظهر بها اعتز في نفسه على أمثاله فلحق بالأخسرين أعمالاً وهم ملوك الإسلام وسلاطينهم وأمراؤهم، فيفتخرون بالرياسة على المرؤوسين جهلاً منهم، ولذلك لا يكون أحد أذل منهم في نفوسهم وعند الناس إذا عزلوا عن هذه المرتبة ومن كان في ولايته حاله مع الخلق حاله دون هذه الولاية ثم عزل لم يجد في نفسه أمراً لم يكن عليه فبقي مشكوراً عند الله وعند نفسه وعند المرؤوسين الذين كانوا تحت حكم رياسته، وهذا هو المعتز بالله، بل العزيز الذي منع حماه أن يتصف بما ليس له إلا بحكم الجعل.

ثم إن الله قد جعل في الوجود موطناً يكون فيه العبد المحقق القائم به صفة الحق في الخلافة معزار به إذا رأى اهتضام جانب الحق من القوم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] فيعزه العبد بحسن التعليم والتنزل باللفظ المحرّر الرافع للشبه في قلوبهم حتى يعز الحق عندهم، فيكون هذا العبد معزاً للحق الذي في قلوب هؤلاء الذين ما قدروا الله حق قدره قبل ذلك، فانتزحوا عن ذلك وعبدوا إلهاً له العزة والكبرياء والتنزيه عما كانوا يصفونه به قبل هذا، فهذا نصيبه وحظه من الاسم المعز فإنه حمى قلوب هؤلاء عن أن يتحكم فيهم ما لا يليق بالحق من سوء الاعتقاد والقول، وقد ورد في القرآن من ذلك ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وأمثال هذه الصفات: [البسيط]

هو المُعزُّ ولكن ليس يَدْرِيهِ ... إلا الذي جَلَّ عن كَيْفٍ وتَشْبِيهِ
إنّ المُعِزَّ الذي دَلَّتْ دلائلُهُ ... على تَنَزُّهِهِ عن كل تَنْزِيهِ
من العباد فإن الحَقَّ يكذبه ... بما يقول به في كل تَنْبِيهِ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الإذلال

[نظم: الكامل]

إنّ المُذِلَّ هو المُعِزُّ بعَيْنِهِ ... عند الدُّخُولِ به وعندَ خُرُوجِهِ
فإذا أَذَلَّ حَبِيبَهُ أدْنَاهُ مِنْ ... أكوانه عيناً بُعَيْدَ عُرُوجِهِ

يدعى صاحبها عبد المذل وهو الذليل. ومن هذه الحضرة خلق الله الخلق، إلا أنه تعالى لما خلق الإنسان من جملة خلقه خلقه إماماً وأعطاه الأسماء وأسجد له الملائكة وجعل له تعليم الملائكة ما جهلوه، ولم يزل في شهود خالقه، فلم تقم به عزة بل بقي على أصله من الذلة والافتقار، ولما حمل الأمانة عرضاً وجرى ما جرى قال هو وزوجه إذ كانت جزءاً منه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] بما حملاه من الأمانة، ثم إن بنيه اعتزوا لمكانة أبيهم من الله

لما اجتباه ربه وهدى به من هدى ورجع عليه بالصفة التي كان يعامله بها ابتداء من التقريب والاعتناء الذي جعله خليفة عنه في خلقه وكمل به وفيه وجود العالم وحصل الصورتين ففاز بالسورتين أعني المنزلتين: منزلة العزة بالسجود له، ومنزلة الذلة بعلمه بنفسه، وجهل من جهل من بنيه ما كان عليه أبوه من تحصيل المنزلتين والظهور بالصفتين، فراضهم الاسم المذل من حضرة الإذلال فأخرجهم عن الإدلال بالدال اليابسة، وذلك لمن اعتنى الله به من بنيه فأشهدهم عبوديتهم فتقربوا إليه بها، ولا يصح أن يتقرّب إلى الله إلا بها فإنها لهم ليس لله منها شيء كأبي يزيد وغيره إذ قال له ربه: تقرب إلي بما ليس لي الذلة والافتقار. وقال في طرح العزة عنه وقد قال له: يا رب كيف أتقرّب إليك أو منك؟ فقال له ربه: يا أبا يزيد اترك نفسك وتعال، والنفس هنا ما هو عليه من العزة التي حصلت له من رتبة أبيه من خلقه على الصورة، ولو علم من يجهل هذا أنه ما من شيء في العالم إلا وله حظ من الصورة الإلهية والعالم كله على الصورة الإلهية، وما فاز الإنسان الكامل إلا بالمجموع لا بكونه جزءاً من العالم ومنفعلاً عن السموات والأرض من حيث نشأته، ومع هذا فهو على الصورة الإلهية كما أخبر رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»** واختلف في ضمير الهاء من صورته على من يعود وفي رواية وإن ضعفت على صورة الرحمن وما كملت الصورة من العالم إلا بوجود الإنسان فامتاز الإنسان الكامل عن العالم مع كونه من كمال الصورة للعالم الكبير بكونه على الصورة بانفراده من غير حاجة إلى العالم، فلما امتاز سرى العز في أبنائه أي في بعض بنيه فراضهم الله بما شرع لهم فقال لهم: إن كنتم اعتززتم بسجود الملائكة لأبيكم فقد أمرتكم بالسجود للكعبة فالكعبة أعز منكم إن كان عزكم للسجود فإنكم في أنفسكم أشرف من الملائكة التي سجدت لكم أي لأبيكم وأنتم مع دعواكم في هذا الشرف تسجدون للكعبة الجمادية، ومن عصى منكم عن السجود لها التحق بإبليس الذي عصى بترك سجوده لأبيكم، فلم يثبت لكم العز بالسجود مع سجودكم للكعبة وتقبيلكم الحجر الأسود على أنه يمين الله محل البيعة الإلهية كما أخبرتكم، وإن كنتم اعتززتم بالعلم لكون أبيكم علم الملائكة الأسماء كلها فإن جبريل عليه السلام من الملائكة وهو معلم أكابركم وهم الرسل صلوات الله عليهم وسلامه والنبيّ محمد ﷺ يقول حين تدلى إليه ليلة إسرائه رفرف الدرّ والياقوت فسجد جبريل عليه السلام عند ذلك ولم يسجد النبي ﷺ وقال: **«فَعَلِمْتُ فَضْلَ جبريل عليَّ في العِلْم عند ذلك»**.

ثم إنكم عن لمة الملك تتصرّفون في مرضاة الله فهم الذين يدلونكم على طرق سعادتكم والتقرب فبأي شيء تعتزون على الملائكة فكونوا مثل أبيكم تسعدوا، وما ثم فضل إلا بالسجود والعلم وقد خرج من أيديكم، والذين لهم العزة من النبيين ليس إلا الرسل والمؤمنون فمن ارتاض برياضة الله فقد أفلح وسعد.

واعلم أنا قد ذكرنا في غير موضع من هذا الكتاب أنه ما من حكم في العالم إلا وله مستند إلهي ونعت رباني، فمنه ما يطلق ويقال: ومنه ما لا يجوز أن يقال ولا يطلق وإن تحقق، وقد خلق الافتقار والذلة في خلقه، فمن أي حقيقة إلهية صدر وقد قال لأبي يزيد: إنه

ليس له الذلة والافتقار، وقد نبهتك على المستند الإلهي في ذلك بكون العلم تابعاً للمعلوم والعلم صفة كمال ولا يحصل إلا من المعلوم، فلو لم يكن إلا هذا القدر كما أنه ما ثم إلا هذا القدر لكفى، ثم إني أزيدك بياناً مما تعطيه حقائق الأسماء الإلهية التي بها تعددت وكانت الكثرة، فلو رفعت العالم من الذهن لارتفعت أسماء الإضافة التي تقتضي التنزيه وغيره بارتفاع العالم فما ثبت لها حكم إلا بالعالم فهي متوقفة عليه، ومن توقف عليه ظهور حكم من أحكامه فلا بد له أن يطلبه ولا يطلب إلا ما ليس بحاصل.

ثم إن التنزيه إذا غلب على العارف في هذه المسألة رأى أنه ما من جزء من العالم إلا وهو مرتبط باسم إلهي مع تقدم بعضه على بعض، فما توقف اسم ما من الأسماء الإلهية في حكمه إلا على اسم ما إلهي من الأسماء يظهر في ذلك حكمه بالإيجاد أو بالزوال، فما توقفت الأسماء الإلهية إلا على الأسماء الإلهية، وليست الأسماء إلا عين المسمى، فمنه إليه كان الأمر هذا عقد المنزه. وأما العام فالذي ذكرناه من ارتفاع حكم الأسماء بارتفاع العالم ذهناً أو وجوداً فقد علمت مستند الذلة والافتقار والإذلال فإنه لايوجد الموجد إلا ما هو عليه، ألا ترى إلى الحكماء قد قالوا لا يوجد عن الواحد إلا واحد والعالم كثير فلا يوجد إلا عن كثير وليست الكثرة إلا الأسماء الإلهية، فهو واحد أحدية الكثرة الأحدية التي يطلبها العالم بذاته، ثم إن الحكماء مع قولهم في الواحد الصادر عن الواحد لما رأوا منه صدور الكثرة عنه وقد قالوا فيه إنه واحد في صدوره اضطرهم إلى أن يعتبروا في هذا الواحد وجوهاً متعدّدة عنه بهذه الوجوه صدرت الكثرة، فنسبة الوجوه لهذا الواحد الصادر نسبة الأسماء الإلهية إلى الله، فليصدر عنه تعالى الكثرة كما صدر في نفس الأمر، فكما أنه للكثرة أحدية تسمى أحدية الكثرة، كذلك للواحد كثرة تسمى كثرة الواحد وهي ما ذكرناه، فهو الواحد الكثير والكثير الواحد، وهذا أوضح ما يذكر في هذه المسألة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة السمع

[نظم: الخفيف]

أَسْمِعِ الحَقَّ يا أُخَيَّ نِدَاكَا	إنه سامعٌ عليمٌ بذاكا
لو جَفَوْتَ الجَنَابَ يوماً بأمْرِ	لم تَجِدْهُ يوماً له قد جَفَاكَا

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد السميع لأنه مسموع فيتضمن الكلام لأنه مسموع وكذا الأصوات. فهذه الحضرة تتعلق بحضرة النفس وهو العمى، وقد تقدّم له باب يخصه كبير مبسوط إلا أني أوميء إلى نبذ من هذه الحضرة مما لم نذكره في باب النفس يطلب السمع في حضرته وليس إلا تلاوة الكتب الإلهية تلاها من تلاها على جهة التوصيل، فلا بدّ لحكم هذه الحضرة فيها وليس إلا السمع ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] وقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١] وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

[الأنفال: ٢١] ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] من هذه الحضرة سمع كل سامع غير أن الموصوفين بأنهم يسمعون مختلفون في القبول، فمنهم سامع يكون على استعداد يكون معه الفهم عند سماعه بما أريد له ذلك المسموع، ولا يكون ذلك إلا لمن كان الحق سمعه خاصة وهو الذي أوتي جميع الأسماء وجوامع الكلم، وكل من ادّعى هذا المقام من العطاء أعني الأسماء وجوامع الكلم وسمع ولم يكن عين سمعه عين فهمه فدعواه لا تصح، وهو الذي له نصيب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ والسماع المطلق الذي لكل سامع إنما هو للذي لا يسمع إلا دعاء ونداء وقد يعلم من نودي فذلك هو الأصم، لأن لكل صورة روحاً وروح السماع الفهم الذي جاء له المسموع قال تعالى: ﴿صُمٌّ﴾ وإن كانوا يسمعون ﴿بُكْمٌ﴾ وإن كانوا يتكلمون ﴿عُمْيٌ﴾ وإن كانوا يبصرون، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] لما سمعوا ولا يرجعون في الاعتبار إلى ما أبصروا ولا في الكلام إلى الميزان الذي به خوطبوا مثل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] و﴿أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣] و﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] وأصحاب هذه الصفات أيضاً كما لا يرجعون، فإن الحق قد أخبر عنهم في منزلة واحدة أنهم لا يعقلون من العقال أي لا يتقيدون بما أريد له ذلك المسموع ولا المبصر ولا المتكلم به من الذي تكلم، فإن الله عند لسان كل قائل يعني سميعاً يقيده بما سمع منه. فلا يتخيل قائل أن الله أهمله وإن أمهله ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] يحصي عليه ألفاظه التي يرمي بها، لا يترك منها شيئاً حتى يوقفه عليها، إما في الدنيا إن كان من أهل طريقنا، وإما في الآخرة في الموقف العام الذي لا بد منه، وكل صوت وكلام من كل متكلم وصامت إذا أسمعه الحق تعالى من أسمعه فإنما أسمعه ليفهمه فيكون بحيث ما قيل له ونودي به وأقله النداء، وأقل ما يتعلق بالنداء الإجابة وهو أن يقول: لبيك فيهيء محله لفهم ما يقال له أو يدعى إليه بعد النداء كان ما كان، فإذا كان الحق السميع نداء العبد نادى العبد من نادى إما الحق وإما كوناً من الأكوان، فإن الله يسمع ذلك كله لأنه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] يسمع ما يتناجون به ولذلك قال لهم: ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنه معكم أينما كنتم فيما تتناجون به فإنكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩] وإن كان معهم، فكنى بالحشر إذا فتح الله بإزالة الغطاء عن أعينهم فيرون عند ذلك من هو معهم فيما يتناجون به فيما بينهم، فعبر عنه بالحشر للسؤال عما كانوا فيه. وأما ذكره تعالى بأنه يشفع فرديتهم ويثني أحديتهم في قوله: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ [المجادلة: ٤] فهل يريد به أيضاً إفراد شفعيتهم كما شفع وتريتهم أو لا يكون أبداً إلا مشفعاً فرديتهم خاصة كما نص عليه؟ فاعلم وفقك الله أن الله ما خلق شيئاً إلا في مقام أحديته التي بها يتميز عن غيره، فبالشفعية التي في كل شيء يقع الاشتراك بين الأشياء، وبأحدية كل شيء يتميز كل شيء عن شيئية غيره، وليس المعتبر في كل شيء إلا ما يتميز به، وحينئذٍ يسمى شيئاً، فلو أراد الشفعية لما كان شيئاً وإنما

يكون شيئين وهو إنما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ [النحل: ٤٠] ولم يقل لشيئين، فإذا كان الأمر على ما قررناه ثم جاء الحق لكل شيء بصورته التي خلقه الله عليها فقد شفع ذلك الشيء كما يشفع الرئى صورته برؤيته في المرآة نفسه، فيحكم بالصورتين: صورته وصورة ما شفعها، فلذلك ما أتى الحق في الإخبار عن كينونته معنا إلا مشفعاً لفرديتنا فجعل نفسه رابعاً وسادساً وأدنى من ذلك، وهو أن يكون ثانياً وأكثر وهو ما فوق الستة من العدد الزوج إعلاماً منه تعالى أنه على صورة العالم أو العالم على صورته، وما ذكر في هذه الكيونية إلا كونه سميعاً من كون من هو معهم يتناجون لا من كونهم غير متناجين، فإذا سمعت الحق يقول أمراً ما فما يريد الأعيان وإنما يريد ما هم فيه من الأحوال إما قولاً وإما غير قول من بقية الأعمال إذ لا فائدة في قصد الأعيان لعينهم، وإنما الفائدة إحصاء ما يكون من هذه الأعيان من الأحوال، فعنها يسألون وبها يطلبون فيقال له ما أردت بهذه الكلمة، ولذلك ورد في الخبر الصحيح: **«إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله ما لا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيُكْتَبُ بِهَا فِي عِلِّيينَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله ما لا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ فَيُكْتَبُ بِهَا فِي سِجِّين»** فأعلم عباده أن للمتكلم مراتب يعلمها السامع إذا رمى بها العبد من فمه لم تقع إلا في مرتبتها، وأن المتلفظ بها يتبعها في عاقبة الأمر ليقرأ كتابه حيث كان ذلك الكتاب، فعبد السميع هو الذي يتحفظ في نطقه لعلمه بمن يسمعه وعلمه بمراتب القول، فإن من القول ما هو هجر ومنه ما هو حسن، وإذا كان هو السامع فينظر في خطاب الحق إياه، أما في الخطاب العام وهو كل كلام يدركه سمعه من كل متكلم في العالم فيجعل نفسه المخاطب بذلك الكلام ويبرز له سمعاً من ذاته يسمعه به فيعمل بمقتضاه، وهذا من صفات الكمل من الرجال، ودون هذه المرتبة من لا يسمع كلام الحق إلا من خبر إلهي على لسان الرسول أو من كتاب منزل وصحيفة أو من رؤيا يرى الحق فيها يخاطبه، فأيّ الرجلين كان فلا بد أن يهيىء ذاته للعمل بمقتضى ما سمع من الحق كما فعل الحق معه فيما يتكلم به العبد في نجواه نفسه أو غيره، فإن الإنسان قد يحدث نفسه كما قال أو ما حدثت به أنفسها، وهو تنبيه أن المتكلم إذا لم يكن ثم من يسمعه لا يلزم من ذلك أنه لا يتكلم، فأخبر أن نفسه تسمع وهو متكلم فيحدث نفسه فيما هو متكلم يقول وبما هو ذو سمع يسمع ما يقول، فعلمنا أن الحق ولا عالم يكلم نفسه وكل من كلم غيره فقد كلم نفسه، وليس في كلام الشيء نفسه صمم أصلاً فإنه لا يكلم نفسه إلا بما يفهمه منها بخلاف كلام الغير إياه، فلا يقال فيمن يكلم نفسه أنه ما يفهم كلامه كيف لا يفهمه وهو مقصود له دون قول آخر فما عينه حتى علمه وما له تعيين كلام غيره، وكذلك قد يكون ذا صمم عنه إذا لم يفهمه لأنه لا فرق بين الصمم الذي لا يسمع كلام المخاطب وبين من يسمع ولا يفهم أو لا يجيب إذا اقتضى الإجابة، ولهذا قال الله فيهم أنهم صم فلا يعقلون ومن عقل فالمطلوب منه فيما أسمعه أن يرجع فلا يرجع، فمن تحقق بهذه الحضرة وعلم أن كلامه من عمله وأن الله عند لسانه في قوله قل كلامه حتى في نفسه به، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة البصر

[نظم: مخلّع البسيط]

إنّ البَصِيرَ الذي يَرَاكَا ... عِلْماً وعَيْناً إذا تَرَاهُ

فكُنْ به لا تَكُنْ بكَوْنٍ ... ولا تُشَاهِدْ فيه سِوَاهُ

فإنه قَوْلُهُ مُجيباً ... بنا يرانا به نَرَاهُ

يدعى صاحبها عبد البصير، ومن هذه الحضرة الرؤية والمشاهدة، فلا بد من مبصر ومشهود ومرئي، قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقال ﷺ: «**تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ وَكَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ بِالظَّهِيرَةِ لَيسَ دُونَهَا سَحَابٌ**». يريد بذلك ارتفاع الشك في أنه هو المرئيّ تعالى لا غيره، فيلزم عبد البصير الحياء من الله في جميع حركاته، وإنما لزمه الحياء لوجود التكليف، فعبد البصير لا يبرح ميزان الشرع من يده يزن به الحركات قبل وقوعها، فإن كانت مرضية عند الله ودخلت في ميزان الرضى اتصف بها هذا الشخص، وإن لم تدخل له في ميزان الرضى وحكم عليها الميزان بأنها حركة بعد عن محل السعادة وأنها سوء أدب مع الله حمى نفسه عبد البصير أن يظهر منه هذه الحركة، فعبد البصير يخفض الميزان ويرفعه صفة حق، فإن الله ما وضع الميزان إلا ليوزن به وهو مما بين السماء والأرض فما خلقه باطلاً ولا عبثاً ولا يستعمله إلا عبد السميع وعبد البصير، بل له دخول في كل اسم إلهي لكل عبد مضاف إلى ذلك الاسم مثل عبد الرؤوف فإنه يرأف بعباد الله، وجاء الميزان في إقامة الحدود، فأزال حكم الرأفة من المؤمن، فإن رأف في إقامة الحد فليس بمؤمن ولا استعمل الميزان، وكان من الذين يخسرون الميزان، فيتوجه عليه بهذه الرأفة اللوم حيث عدل بها عن ميزانها فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] وهو الرؤوف تعالى. ومع علمنا بأنه الرؤوف شرع الحدود وأمر بإقامتها وعذب قوماً بأنواع العذاب الأدنى والأكبر، فعلمنا أن للرأفة موطناً لا تتعداه، وأن الله يحكم بها حيث يكون وزنها، فإن الله ينزل كل شيء منزلته ولا يتعدى به حقيقته كما هو في نفسه، فإن الذي يتعدى حدود الله هو المتعدي لا الحدود، فإن الحدود لا تتعدى محدودها فيتجاوز هذا المخذول ويقف عندها العبد المعتنى به المنصور على عدوّه، فعبدالبصير إما أن يعبد الله كأنه يراه وهذه عبادة المشبهة، وإما أن يعبد الله لعلمه بأن الله يراه فهذه عبادة المنزهة، وإما أن يعبد الله بالله فهذه عبادة العلماء بالله فيقولون بالتنزيه ويشهدون التشبيه لا يؤمنون به فإنه ليس عندهم ذلك خبراً وإنما هو عيان والإيمان بأنه الخبر، فالمحجوب يؤمن بقول المخبر، وصاحب الشهود يرى صدق المخبر فكثير ما بين يرى ويؤمن، فإن صاحب الرؤية لا يرجع بالنسخ إلا رجوع الناسخ، وصاحب الإيمان يرجع بالنسخ ويعتقد في المرجوع عنه أنه كفر بعد الرجوع عنه وإن كان مؤمناً به، ولكن يؤمن به أنه كان لا يؤمن به أنه كائن لأنه منسوخ. فإذا علم الله من العبد أنه يعلم أنه يراه يمهله فيما يجب بفعله المؤاخذة لأنه علم أنه

يعلم أنه يراه فيتربص به ليرجع لأنه تحت سلطان علمه، وإن انحجب عن استعماله في الوقت لجريان القدر عليه بالمقدور الذي لا كينونة له إلا فيه، وأن الله يستحي من عبده فيما لا يستحي العبد فيه، وذلك إذا علم من العبد أنه يعلم من الله أن بيده ملكوت كل شيء فيقول الحق ما أعلمته بذلك ورزقته الإيمان به إن كان من المؤمنين أو أشهدته ذلك، إن كان من أهل الشهود إلا ليكون له ذلك مستنداً يستند إليه في إقامة الحجة، فكون العبد قد أشهد ذلك أو آمن به ولم يحتج به فما منعه من ذلك إلا الحياء فيما لم يستحي فيه فإن الله يستحي منه أن يؤاخذه بعلمه الذي ما استحيى منه فيه.

واعلم أن هذه الحضرة أعطت أن يكون للعبد عينان وللحق أعين فقيل في المخلوق ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨] وقال تعالى عن نفسه: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] فمن عينيه كان ذا بصر وبصيرة، ومن أعينه كانت أعين الخلق عينه فهم لا يبصرون إلا به وإن لم يعلموا ذلك، والعالمون الذين يعلمون ذلك يعطيهم الأدب أن يغضوا أبصارهم فيتصفوا بالنقص فإن الغض نقص من الإدراك، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] إرسال مطلق في الرؤية لا غض فيه، فإن لم يغضوا مع علمهم فيعلم عند ذلك أنهم مع شهود المقدور الذين لا بد من كونه فهم يرونه كما يراه الله من حيث وقوعه لا من حيث الحكم عليه بأنه كذا، هكذا يراه العلماء بالله فيأتون به على بصيرة وبينة في وقته وعلى صورته ويرتفع عنهم الحكم فيه فإنه من الشهود الأخروي الذي فوق الميزان، ولذلك لا يقدح فيهم لأنه خارج عن الوزن في هذا الموطن وهو قوله في حق رسول الله ﷺ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] و﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فهو سؤال عن العلة لا سؤال توبيخ لأن العفو تقدمه، وقوله حتى يتبين لك إنما هو استفهام مثل قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] كأنه يقول: أفعلت ذلك حتى يتبين لك الذين صدقوا؟ فهو عند ذلك إما أن يقول نعم أو لا، فإن العفو ولا سيما إذا تقدم والتوبيخ لا يجتمعان لأنه من وبخ فما عفا مطلقاً فإن التوبيخ مؤاخذة وهو قد عفا. ولما كان هذا اللفظ قد يفهم منه في اللسان التوبيخ لهذا جاء بالعفو ابتداء ليتنبه العالم بالله أنه ما أراد التوبيخ الذي يظنه من لا علم له بالحقائق، وقال في هذه المرتبة في حق المؤمن العالم: اعمل ما شئت فقد غفرت لك، أي أزلت عنك خطاب التحجير يا محمد فاسترسل مطلقاً فإن الله لا يبيح الفحشاء وهي محكوم عليها فحشاء تلك الأعمال، فزال الحكم وبقي عين العمل فما هو ذنب يستر عن عقوبته، وإنما الستر الواقع إنما هو بين هذا العمل وبين الحكم عليه بأنه محجور خاصة، هذا معنى قد غفرت لك لا ما يفهمه من لا علم له فيمشي هذا الشخص في الدنيا ولا خطيئة عليه، بل قد عجل الله له جنته في الدنيا، فهو في حياته الدنيا كالمقتول في سبيل الله نسمته تعلق من ثمر الجنة، كذلك هذا الشخص وإن أقيمت عليه الحدود، فلجهل الحاكم هذا المقام الذي هو فيه، فإقامة الحدود على من هذا مقامه ما هي حدود وإنما هي من جملة الابتلاءات التي يبتلي الله بها عبده في هذه الدار الدنيا كالأمراض وما لا يشتهي أن تصيبه في عرضه وماله وبدنه فيصيبه وهو مأجور في ذلك لأنه ما ثم ذنب فيكفر، وإنما هو تضعيف أجور فما هي حدود في نفس الأمر،

وإن كانت عند الحاكم حدوداً وتظهر رائحة من هذا في علماء الرسوم المجتهدين فإن الحاكم إذا كان شافعياً وجيء إليه بحنفي قد شرب النبيذ الذي يقول بأنه حلال فإن الحاكم من حيث ما هو حاكم وحكم بالتحريم في النبيذ يقيم عليه الحد، ومن حيث إن ذلك الشارب حنفيّ وقد شرب ما هو حلال له شربه في علمه لا تسقط عدالته فلم يؤثر في عدالته. وأما أنا لو كنت حاكماً ما حددت حنفياً على شرب النبيذ ما لم يسكر فإن سكر حددته لكونه سكران من النبيذ، فالحنفي مأجور ما عليه إثم في شربه النبيذ وفي ضرب الحاكم له وما هو في حقه إقامة حد عليه، وإنما هو أمر ابتلاه الله به على يد هذا الحاكم الذي هو الشافعيّ كالذي غصب ماله، غير أن الحاكم هنا أيضاً غير مأثوم لأنه فعل ما أوجبه عليه دليله أن يفعله فكلاهما غير مأثوم عند الله، وهذا عين ما ذكرناه في إقامة الحدود على الذين أبيح لهم فعل ما أقيم عليه فيه الحد وهو حد في نفس الأمر بالنظر إلى من أقامه، فاعلم ذلك. وهذه الحضرة واسعة الميدان يتسع فيها المجال فاكتفينا بهذا القدر من التنبيه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو حسبي عز وجل ونعم الوكيل.

حضرة الحكم

[نظم: البسيط]

إذا تُـنَـازِعُـكُـمْ نَـفْـسٌ لـتَـقْـهَـرَكُـمْ	فـاجْـعَـلْ إلٰـهَـكَ فـيـمـا بـيـنـكـم حَـكَـمَـا
احْـذَرْ مـن الـعَـدْلِ مـنـه أن يـعـادلـه	فـإنـه لـكـمـا بـمـا بـه حَـكَـمَـا

يدعى صاحبها عبد الحكم، قال تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] وقال ﷺ في عيسى عليه السلام: «**إِنَّهُ يَنزِلُ فِينَا حَكَماً مُقْسِطاً**» الحديث كما ورد، فالحكم هو القاضي في الأمور إما بحسب أوضاعها وإما بحسب أعيانها، فيحكم على الأشياء بحدودها فهي الحكم على نفسها لأنه ما حكم عليها إلا بها، ولو حكم بغير ما هي عليه لكان حكم جور وكان قاسطاً لا مقسطاً، والحكم هو القضاء المحكوم به على المحكوم عليه بما هو المحكوم فيه، وأعجب ما في هذه الحضرة نصب الحكمين في النازلة الواحدة وهما من وجه كالكتاب والسنة فقد يتفقان في الحكم وقد يختلفان، فإن علم التاريخ كان نسخاً وإن جهل التاريخ إما أن يسقطا معاً وإما أن يعمل بهما على التخيير، فأيّ شيء عمل من ذلك كان كالمسح في الوضوء للرجلين وكالغسل، فأي الأمرين وقع فقد أدى المكلف واجباً، على أن في المسألة الخلاف المشهور، ولكن عدلنا إلى مذهبنا فيه خاصة فذكرناه، ومرتبة الحكم أن يحكم للشيء وعلى الشيء، وهذه حضرة القضاء من وقف على حقيقتها شهوداً علم سر القدر وهو أنه ما حكم على الأشياء إلا بالأشياء فما جاءها شيء من خارج، وقد ورد: «**أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ**» وفي الحدود الذاتية برهان ما نبهنا عليه في هذه الحضرة الحكمية.

اعلم أن حقيقة هذه الحضرة من أعجب ما يكون من المعلومات فإنها مماثلة لحضرة العلم، وذلك أنها عين المحكوم به الذي هو ما هو المحكوم عليه أو له، فالحكم ما أعطى أمراً من عنده لمن حكم له أو عليه إذا كان عدلاً مقسطاً، وأما إذا كان جائراً قاسطاً وإن كان

حكماً فما هو من هذه الحضرة وهو منها بالاشتراك اللفظي وإمضاء ما حكم به. وأما قول الله مخبراً وآمراً ﴿قَالَ﴾ وقل كلاهما ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] هو الحكم الذي لا يكون حقاً، إلا بك، ومتى لم يكن الحكم بالمحكوم له أو عليه فليس حقاً، فالمخلوق أو المحكوم عليه جعل الحاكم حكماً، كما أن المعلوم جعل العالم عالماً أو ذا علم لأنه تبع له وليس القادر كذلك ولا المريد، فإن الأثر للقادر في المقدور ولا أثر للعلم في المعلوم ولا للحكم في المحكوم عليه والحكم أخو العليم فإنه حاكم على كل معلوم بما هو ذلك المعلوم عليه في ذاته. وقوله في جزاء الصيد: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] فيه رائحة أن الجائر في الحكم يسمى حكماً شرعاً، إلا أن الحاكم لما شرع له أن يحكم بغلبة ظنه وليس علماً فقد يصادف الحق في الحكم وقد لا يصادف وليس بمذموم شرعاً ويسمى حكماً وإن لم يصادف الحق ويمضي حكمه عند الله وفي المحكوم عليه وله، فهنا ينفصل من العليم ويتميز لأنه ليس هنا تابع للمحكوم عليه مع كونه حكماً ولا هو جائر، فإنه حكم بما شرع له من إقامة الشهود أو الإقرار الذي ليس بحق، فكان اللفظ من الشاهد واللفظ بالإقرار من المقرّ أوجب له الحكم، وإن كان قول زور أو شهادة زور، وإنما قلنا فيه إنه أخو العليم لكونه في نفس الأمر ما يكون حكماً حقيقة إلا بجعل المحكوم له أو عليه هذا هو التحقيق. والأخوة هنا قد تكون أخوة الشقائق، وقد تكون أخوة الصفة كإخوة الإيمان وغير الإيمان، وقد تكون أخوة من الأب الواحد دون الآخر، وقد تكون من الرضاعة، فلذلك قلنا إنه أخو العليم، وما بينا مراتب الأخوة فأحقها أخوة الإيمان فإن بها يقع التوراث وهي أخوة الصفة، كذلك الحكم ما حكم الحاكم على المحكوم عليه إلا لصفة لا لعينه، ومن شرط الحكم أن يكون عالماً بالحكم لا بالمحكوم عليه وله، وإنما شرطه العلم بصفة ما يظهر من حال المحكوم عليه وله بما ذكرناه من شهود صدقوا أو كذبوا، ومن إقرار صدق أو كذب فهو تابع أبداً، فيكون عالماً بالحكم لا بد من ذلك الذي يوجبه ويعينه ما قرّرناه والحق فيه مصادفة وهو الاجتماع مع كونه بهذه المثابة، والخلاف في حكم الحاكم بعلمه دون إقرار ولا شهادة هل يجوز أو لا يجوز؟ وقد بينا مذهبنا في هذه المسألة في هذا الكتاب في حكم الحاكم بعلمه أين ينبغي أن لا يحكم وأين ينبغي أن لا يحكم بعلمه فإنها من أشكل المسائل، وعلى كل حال فهي حضرة مبهمة حكم حكمها الأشاعرة في الصفات الإلهية بقولهم: لا هي هو ولا هي غيره مع قولهم بأنها زائدة بالعين على الذات وجودية لا نسبية، وغير الأشعري لا يقول بهذا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العدل

[نظم: السريع]

الـعَـدْلُ لا يَـصْـلُـحُ إلا لـمـن ... يَـفْـصِـلُ فـي الـخَـلْـقِ إذَا يَـعْـدِلُ

فـإن أَبَـى أَكْـوانُـهُ عَـدْلَـهُ ... فـإنـه بـحَـقِّـه يـفـضـلُ

يُـنْـعِـمُ بـالـفَـضْـل عـلـى خَـلْـقـه ... ويَـسْـتُـرُ الـسّـتْـرَ إذا يُـسْـبِـلُ

يدعى صاحبها عبد العدل، وهو ميل إلى أحد الجانبين الذي يطلبه الحكم الصحيح التابع للمحكوم عليه وله، أو للإقرار أو الشهود وغير ذلك لا يكون عدلاً في الحكم، ومن هذه الحضرة العجيبة خلق الله العالم على صورته، ومن هنا كان عدلاً لأنه تعالى عدل من حضرة الوجوب الذاتي إلى الوجوب بالغير أو إلى حضرة الإمكان كيف شئت فقل، وعدل أيضاً بالممكنات من حضرة ثبوتها إلى وجودها فأوجدهم بعد أن لم يكونوا بكونه جعلهم مظاهر وبكونه كان مجلى لظهور أحكامهم، ومن هذه الحضرة عدوله من شأن يجوّزه العقل في حق الممكن إلى شأن آخر، يجوّزه أيضاً العقل، والعدول لا بد منه فلا يعقل في الوجود إلا العدل فإنه ما ظهر الوجود إلا بالميل وهو العدل فما في الكون إلا عدل حيث فرضته، وبالعدل ظهرت الأمثال وسمي المثل عدلاً قال الله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥] و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وهنا له وجوه في العدل منها عدولهم إلى القول بأن له أمثالاً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ومنها أنهم بربهم عدلوا لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ومنها أن الباء هنا بمعنى اللام فلربهم عدلوا لكون من عدلوا إليه إنما عدلوا إليه لكونه عندهم إلهاً فما عدلوا إلا لله، كقوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] أي للحق كذلك ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. ولما قال الله عز وجلّ في هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] جعلوا له أمثالاً فخاطب المانية الذين يقولون أن الإله الذي خلق الظلمة ما هو الإله الذي خلق النور فعدلوا بالواحد آخر، وكذلك الذين يقولون بخلق السموات والأرض إنها معلولة لعلة ليست علته إلا له أي ليست العلة الأولى، لأن تلك العلة عندهم إنما صدر عنها أمر واحد لحقيقة أحديتها وليس إلا العقل الأول، فهؤلاء أيضاً ممن قيل فيهم إنهم بربهم يعدلون وسماهم كفاراً لأنهم إما ستروا أو منهم من ستر عقله عن التصرّف فيما ينبغي له بالنظر الصحيح في إثبات الحق والأمر في نفسه على ما هو عليه، فاقتصر على ما بدا له ولم يوف الأمر حقه في النظر، وأما إن علم وجحد فستر عن الغير ما هو الأمر عليه في نفسه لمنفعة تحصل له من رياسة أو مال فلهذا قيل فيهم إنهم كفروا أي ستروا فإن الله حكيم يضع الخطاب موضعه والعدل هو الرب تعالى، والرب على صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض؛ والعدل الميل فالميل عين الاستقامة فيما لا تكون استقامته إلا عين الميل، فإن الحكم العدل لا يحكم إلا بين اثنين، فلا بد أن يميل بالحكم مع صاحب الحق، وإذا مال إلى واحد مال عن الآخر ضرورة، فليست الاستقامة ما يتوهمه الناس، فأغصان الأشجار وإن تداخل بعضها على بعض فهي كلها مستقيمة في عين ذلك العدول والميل لأنها مشت بحكم المادّة على مجراها الطبيعي، وكذلك الأسماء الإلهية يدخل بعضها على بعض بالمنع والعطاء والإعزاز والإذلال والإضلال والهداية، فهو المانع المعطي المعز المذل المضل الهادي، فمن يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وكلها نسب حقيقية ما ترى فيها عوجاً ولا أمتاً:

[مجزوء الكامل]

إن الإلٰهَ بجُودِهِ … يُعطي العُبَيدَ إذا افتَقَر
ما شاءه ممَّا له … ما ثَمَّ إلا ما ذُكِر
لما وقفتُ تَحَقُّقاً … منه على سِرّ القَدَر
وشهدتُه فرأيتُهُ … سَمْعَ الحَبِيبِ مع البَصَر
فيه بَدَتْ أحكامُهُ … وله نَهَى وله أمَر
ويقال هذا مؤمنٌ … ويقال هذا قد كَفَر
فلنا الحقائقُ كُلُّها … ولنا التَّحَكُّمُ والأثَر
ما الأمرُ إلا هكذا … ما الأمر ما يعطي النَّظَر
الحكمُ ليس لغيرنا … في كل ما تعطي الصُّوَر
والأمرُ فيه فَيْصَلٌ … في الكون من خَيْرٍ وشَر
لم تَسْتَفِدْ منه سوى … أكْوانِنَا وكذا ظَهَر
وانظُرْ بربِّك لا … بعقلك في شؤونك واعتَبِر
هذا هو الحَقُّ الصُّراحُ … لمن تَحَقَّقَ وادَّكَر
الحكمُ حكمُ ذَوَاتِنَا … لا حُكْمُهُ فاعدلْ وسِر
عنه إليه بما لنا … تَعْثُرْ على الأمر الخَطِر
لا تَأْتلي لا تَأْتني … فإليك منك المُسْتَقَر
إنّ الغِنَى صفةٌ له … عنا فنستر ما سَتَر
لولا افتقارُ المحدثات … إليه ما جاء الخَبَر
هذا هو المَيْتُ الذي … يوم القيامة قد نُشِر

أن هذا هو السرّ الذي أخفاه الله عمن شاء من عباده قد ظهر في حكم افتقارنا في غناه، فأظهره الله لمن شاء أيضاً، فتأمل هذا الغنى وهذا الفقر وانظر بنور بصيرتك في هذا الوجود والفقد وقل: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]: [البسيط]

فحَضْرَةُ العَدْل ما تَنفَكُّ في نَصَبِ … وحضرةُ الجُور في بَلْوَى وفي تَعَبِ
لو كان ثَمَّ مُرِيحٌ كان يحكمُ لي … بالاستراحة في لَهْوي وفي لَعِبِي
أنا جَنَيْتُ على نفسي فبي حَكَمَتْ … عليَّ أسماؤه الحُسْنَى مع النَّسَبِ
فإنّ لي نَسَباً فيه الهلاكُ كما … لربنا نَسَبٌ يُنجي من العَطَبِ
هو التُّقَى فاتَّقِ الرحمنَ إن له … مكراً خَفِيّاً بأهل الوعد والنَّسَبِ
واحذر غوائلَه في كل مكرمة … واضمُمْ إليك جناحيك من الرَّهَبِ

يقول رسول الله: «**يقول الله تبارك وتعالى: اليَوْمَ**»، يَعْنِي يَوْمَ القِيَامَةِ «**أَضَعُ نَسَبَكُمْ وَأَرْفَعُ نَسَبِي أَيْنَ المُتَّقُونَ**». قال الله تعالى مخبراً عباده: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

ويقول الله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة اللطف

[نظم: مجزوء الرمل]

إنّما اللّطفُ خفاءٌ ... ليس في اللُّطفِ ظُهُورْ

وبه أبْرزَ كَوْني ... وبه تجري الأمُورْ

كُنْ عُبَيْدَ اللّطيف ... هو بالأمر خَبِيرْ

إن دينَ الله يُسْرٌ ... وهو بالهوى عَسِيرْ

لا تُخالِفْ لا تُوافِقْ ... إنه الخير الكثيرْ

والذي يفهمُ قَوْلي ... هو بالأمر بَصِيرْ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد اللطيف، وما لطفه وأخفاه عن الإدراك إلا شدة ظهوره، فلما لم تقع عين إلا عليه ولا نظرت إلا به فإنه البصر لكل عين تبصر، فما الفائدة إلا لمن يشهد ذلك ويعرفه ذوقاً ومشاهدة، فإن التقليد في ذلك ما يقع موقع الشهود فإنه ما ثم إلا هو لم يتميز عن غير لأنه لم يكن غير فيمتاز عنه فعمن خفي وما ثم غير: [المجتث]

فليس للُطفِ حُكْمٌ ... إلا إذا كنت ثَمَّهْ

ولست ثَمَّ فقُلْ لي ... من ذا يُعَيِّنُ حُكْمَهْ

وإنّ في القلب منه ... إذا تَفَكَّرْتَ غَمَّهْ

تجيء منه سحابٌ ... على القلوب وظُلْمَهْ

* * *

[نظم: مجزوء الرمل]

جاءت الحيرةُ تجري ... يا عبيدي ضاع قَدْري

أين أسمائي وحُكْمي ... أين نَهْيي أين أمْري

ارْقَبُوني تَجِدُوني ... في خفايا الكون أسري

إنه لا بدّ مني ... فلذا أمْرُك أمْري

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فانظر إلى سريان هذا اللطف الإلهي ما أعجبه، وحكمه الظاهر في هذه الكثافة كيف أبان أن طاعة رسوله ﷺ طاعته ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] والحجر الأسود يمين الله للبيعة، وجعله في الحجر حتى لا يقع في ذلك دعوى فهي بيعه خالصة مخلصة فمن بايعه بايع الله، فانظر إلى ما يشهده البصر وانظر إلى ما يشهده الإيمان، فمن نظر بعين الإيمان رأى قوّة نفوذه في الكثيف حتى سرى إلى اللطيف الخبير فيحصل له المعرفة بالأمر على ما هو عليه، فإذن عين اللطيف الذي سار إليه عين الكثيف الذي سار منه يبين ذلك في الحدود مثاله الجوهر قائم بنفسه ظاهر

شخصه من أعيان غير ظاهرة هي مجموعه وليست سوى عينه وما لها وجود إلا عينه فمن الجوهر ومن الصفات النفيسة له، فالأمر هكذا في هذه الحضرة فهو حق وعين ما هو حق إذا ظهر كان خلقاً، ولا يصح حكم لحضرة اللطف إلا بوجود الخلق البخار يصعد لا يدركه البصر للطفه ورقته فينضمّ بعضه إلى بعضه ويتراكم فيظهر غماماً أنشأه الحق فظهر وهو من شيء لا يظهر، فأعطاه هذا المزاج الخاص حكماً لم يكن له قبل ذلك، وأعطاه اسماً وظهر عنه أثر في الجو لم يكن له شيء من هذا كله قبل ذلك، فأمطر وأحيى وأضحك الأرض بالنبات وأروى وهو ما عمل شيئاً إلا بذلك السرّ اللطيف الذي نشأت منه صورته. وفي قبض الظل ومده من اللطف ما إذا فكر فيه الإنسان رأى عظيم أمر، ولهذا نصبه الله دليلاً على معرفته فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] فلا يدرك البصر عين امتداده حالاً بعد حال، فإنه لا يشهد له حركة مع شهود انتقاله فهو عنده متحرك لا متحرك، وكذلك في فيئه وهو قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦] فمنه خرج فإنه لا ينقبض إلا إلى ما منه خرج كذلك تشهده العين وقد قال تعالى وهو الصادق أنه قبضه إليه، فعلمنا أن عين ما خرج منه هو الحق ظهر بصورة خلق فيه ظل يبرزه إذا شاء ويقبضه إذا شاء، لكن جعل الشمس عليه دليلاً ولم يتعرض لتمام الدلالة وهو كثافة الجسم الخارج الممتد عنه الظل، فبالمجموع كان امتداد الظل، فهذا شمس وهذا جدار وهذا ظل وهذا حكم امتداد، وقبض بفيء ورجوع إلى ما منه بدا فإليه عاد والعين واحدة، فهل يكون شيء ألطف من هذا؟ فالأبصار وإن لم تدركه فما أدركت إلا هو فإنه ما أحالنا إلا على مشهود بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ وما مده إلا بشمس وذات كثيفة تحجب وصول نور الشمس إلى ما امتد عليه ظل هذه الذات وجهة خاصة ثم قبضه كذلك، فهذه كيفية ما خاطبنا بها أن ننظر إليها وما قال فيها، فكنا نصرف النظر تألقاً إلى الفكر ولكن بأداة إلى أراد شهود البصر، وإن كانت الأدوات يدخل بعضها في مكان بعض ولكن لا يعرف ذلك إلا بقرائن الأحوال وهي إذا استحال أن يكون حكم هذه الأداة بالوضع في هذا الموضع علمنا أنها بدل وعوض من أداة ما يستحقه ذلك الموضع وهذا معلوم في اللسان، وبهذا اللسان أنزل القرآن كما قال ﷺ: «**إنَّمَا أُنزِلَ القُرْآنُ بِلِسَانِي لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**» وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فلا بدّ أن يجري به على ما تواطؤوا عليه في لحنهم فاعلم ذلك فتأمّل فيما أوردناه في نظمنا هذا الذي أذكره: [الوافر]

فلا يدري اللَّطِيفَ سوى لَطِيفٍ ... وعَيْنُ اللُّطْف في عين الكثافَهْ
فهذا عَيْنُ هذا يا خليلي ... فقِفْ بين الكثافة واللَّطافَهْ
تَحُزْ قَصَبَ السباق بكل وَجْهٍ ... كما قد حَازَهُ أهلُ العِيَافَهْ
وكن عَبْدَ اللطيف بكل وَجْهٍ ... تَنَلْ ما ناله أهل القيافَهْ
مِنِ ٱدْخَالِ السرور على رسولٍ ... نَقِيِّ الثوب من أهل النظافَهْ

وهذه حضرة نلت منها في خلقي الحظ الوافر بحيث أني لم أجد أحداً فيمن رأيت وضع

قدمه فيها حيث وضعت لا إن كان وما رأيته، لكني أقول أو أكاد أقول: إنه إن كان ثم فغايته أن يكون معي في درجتي فيها، وأمّا أن يكون أتم فما أظن ولا أقطع على الله تعالى فأسراره لا تحد وعطاياه لا تعد، وقد بينا في الأحوال من هذا الكتاب في باب اللطيفة ما يقتضيه هذا الاسم الإلهي في أهل الله وما يطلبه بالوضع في اللسان، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الخبرة والاختبار وهي حضرة الابتلاء بالنعم والنقم

[نظم: البسيط]

إنّ الخَبيرَ هو المُبْلي إذا نَظَرَتْ عيناك نِعْمَةَ مَنْ يُبْلي بها البَشَرَا
وإن يكنْ نِقْمَةٌ منه حَبَاكَ بها إنّ السّعيدَ الذي ما زال مُفْتَقِرَا

يدعى صاحبها عبد الخبير، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] وهو كل علم حصل بعد الابتلاء، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] وقال: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، بخلقه الموت والحياة، وهذا لإقامة الحجة فإنه يعلم ما يكون قبل كونه لأنه علمه في ثبوته أزلاً، وأنه لا يقع في الكون إلا كما ثبت في العين، وما كل أحد في العلم الإلهيّ له هذا الذوق فتعلق علم الخبرة تعلق خاص، وأصل الابتلاء الدعوى كانت ممن كانت، فمن لا دعوى له لايبتلى، وما ثم إلاّ من له دعوى، والتكليف ابتلاء فأصله عن دعوى، وقد عمّ من يدّعي ومن لا يدّعي أي من لا دعوى له عامة فلا يبالي من لا دعوى له فإنه يحشر مع من لا دعوى له أصلا، وما هو ثم أعني في الوجود ولا تكليف عليه كالمغصوب على نفسه يجازى بنيته لا بما ظهر منه، كالجيش الذي يخسف به بين مكة والمدينة، وفيه من غصب على نفسه في المجيء فقالت عائشة في ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ وَإِنْ عَمَّهُمُ الخَسْفُ**» كما قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] بل تعمّ المحق والظالم، وتختلف أحوالهم في القيامة فيحشر المحق سعيداً والظالم شقياً، فحيث كانت الدعوى كان الاختبار، ومن وصف نفسه بأمر توجه عليه الاختبار وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. والإيمان يقطع بصدق هذا القول، ولكن لا يظهر حكمه مشاهدة عين إلا في المسرفين وهم المذنبون فكأنه قال لهم: اعصوا حتى تعرفوا ذوقاً صدق قولي في مغفرتي إذا كان أمير المؤمنين المأمون يقول لو علم الناس حبي في العفو لتقربوا إليّ بالجرائم وهو مخلوق فما ظنك بالكريم المطلق الكرم؟ فلا يختبر إلا بإتيان الذنوب وقد قال: «**لو لَمْ تُذْنِبُوا لَجاءَ الله بِقَوْم يُذْنِبُونَ وَيَتُوبُونَ فَيَغْفِرُ الله لَهُمْ**»، وهذا القول من النبيّ ﷺ في الحقيقة فيه تقديم وتأخير إلا أنه ستره ليبين فضل العالم بأصول الأمور على غير العالم فهو يقول: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَجاءَ الله بِقَوْم يُذْنِبُونَ وَيَتُوبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**» كما جاء في نص القرآن ثم يقول بعد قوله «**فيغفر لهم**»: «**فَيَتُوبُونَ**» أي يرجعون إلى الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لأنه لا غافر إلا هو. وأما إذا تاب قبل

المغفرة فالحكم للتوبة لا للكرم الإلهي، وإنما يكون الكرم عند ذلك كونه أعطاه التوبة والتوبة مجاءة والقرآن ما ذكر توبة، والرسول ﷺ لا يخالف القرآن، ولكن ثم قوم يغفر لهم من غير توبة، وثم قوم يعطيهم الله التوبة، فالتوبة قد جعلها الله تتضمن المغفرة فكأنها للتائب بشرى معجلة في هذه الدار، فأدخل الحق نفسه في الدعوى ليمشي حكمها في الخلق، ثم طلب بالابتلاء صدق الدعوى ليبين للعباد صدق دعواه، فإذا ادّعيت فليكن دعواك بحق وانتظر البلاء، وإن لم تدّع فهو أولى بك ولكن كن محلاً لجريان الأقدار عليك، وكن على علم أنه لا يجري عليك إلا ما كنت عليه حتى تعلم أن الحجة البالغة لله فإنه يقول: كذا علمتك وما علمتك إلا منك، ولو كان كما يتخيله بعض الناس ومن لا علم له بسرّ القدر يقول: لو مكنني الله من الاحتجاج لقلت أنت فعلت كما قال أبو يزيد ولكن قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فسد الباب هذا القول ما يقع إلا من جاهل بالأمر بل ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] في قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ فإنه ما فعل من نفسه ابتداء، وإنما فعل بك في وجودك ما كنت عليه في ثبوتك ولهذا قال: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ وقد أطلعهم الله عند ذلك على ما كانوا عليه وأن علمه ما تعلق بهم إلا بحسب ما هم عليه، فيعرفون إذا سئلوا أنه تعالى ما حكم فيها إلا بما كانوا عليه، وإذا سئلوا وهم يشهدون اعترفوا فيصدق قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] فيأخذها الناس إيماناً، ونحن وأمثالنا نأخذها عياناً فنعلم موقعها ومن أين جاء بها الحق لا إلا هو اللطيف الخبير. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الحلم

[نظم: البسيط]

ليس الحَلِيمُ الذي تَجْني فيُهْمِلكُمْ	إنّ الحَليمَ الذي تَجْني فيُمْهِلُكُمْ
فضلاً عليكم وإحساناً لعَلَّكُمُ	في شأن حال يُرَى منكم تَمَلْمُلُكُمْ
فإن رآه على قول فإنّ له	شُكْراً على حالِ أَعْطاهُ تَفَضُّلُكُمْ
عليكم لا عليه حين يشكركم	لديه في حقه منكم يُبَدِّلُكُمْ

يدعى صاحبها عبد الحليم، وهي حضرة الإمهال من القادر على الأخذ، فيؤخر الأمرويمهل العبد ولا يهمله، وإنما يؤخره لأجل معدود ولا يمحوه لأنه يبدّله بالحسنى فيكسوه حلة الحسن وهو هو بعينه ليظهر فضل الله وكرمه على عبيده، ولهذا وصف الذنوب بالمغفرة وهي الستر وما وصفها بذهاب العين، وإنما يسترها بثوب الحسن الذي يكسوها به لأنه تعالى لا يردّ ما أوجده إلى عدم بل هو يوجد على الدوام ولا يعدم فالقدرة فعالة دائماً، ولهذا يكسو الأعراض التي لا تقوم بنفسها صور القائمين بأنفسهم ويجعل ذلك خلعاً عليها، وقد جاء وزن الأعمال وشبهها بمثاقيل الذر ويؤتى بالموت وهو نسبة، والنسب أخفى من الأعراض، في صورة كبش أملح فقد خلع على هذه النسبة صورة كبش أبيض، فما أعدم النسبة بعد تحققها بنعت من نعوت الوجود بما لها من الحكم في الموجودات فلم يردها إلى

حكم العدم، فأحرى ما هو موصوف بالوجود العيني، فلهذا وصف نفسه بالغفار والحليم وهو الإمهال، فما أهمل حين أمهل ولا أعدم حين حكم فإنه ما شأنه إلا الإيجاد ولهذا قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٣] والذهاب انتقالكم من الحال التي أنتم فيها إلى حال تكونون فيها ويكسو الخلق الجديد عين هذه الأحوال التي كانت لكم لو شاء لكنه ما شاء، فليس الأمر إلا كما هو فإنه لا يشاء إلا ما هي الأمور عليه لأن الإرادة لا تخالف العلم، والعلم لا يخالف المعلوم، والمعلوم ما ظهر ووقع فلا تبديل لكلمات الله فإنها على ما هو عليه.

ومن شأن هذه الحضرة إثبات الاقتدار فإن صاحب العجز عن إنفاذ اقتداره لا يكون حليماً ولا يكون ذلك حلماً، فلا حليم إلا أن يكون ذا اقتدار. ولما كانت المخالفة تقتضي المؤاخذة فأفسد الحلم حكمها في بعض المذاهب ولذلك يقال: حلم الأديم إذا فسد وتشقق، وكذلك حلم النوم أفسد المعنى عن صورته لأنه ألحقه بالحس وليس بمحسوس حتى يراه من لا علم له بأصله، فيحكم عليه بما رآه من الصورة التي رآه عليها، ويجيء العارف بذلك فيعبر تلك الصورة إلى المعنى الذي جاءت له وظهر بها فيردّها إلى أصلها، كما أفسد الحلم العلم فأظهره في صورة اللبن وليس بلبن فرده رسول الله ﷺ بتأويل رؤياه إلى أصله وهو العلم فجرّد عنه تلك الصورة، وفي تلك الصورة يكون حكم الحلم فلذلك نقول إنه أفسد صورة العلم فرده رسول الله ﷺ، والعابر المصيب كان من كان إلى أصله وأزال عنه ما أفسده الحلم، ومن هنا تعرف ما للحق من رتبة الأحلام، جاء رجل إلى ابن سيرين وكان إماماً في التعبير للرؤيا فقال له: إني رأيت أرد الزيت في الزيتون، فقال: أمّك تحتك، فبحث الرجل عن ذلك فإذا به قد تزوّج أمه وما عنده ولا عندها خبر بذلك. وأين صورة نكاح الرجل أمه من صب الزيت في الزيتون. وإذا رأى صاحب الرؤيا الأمر كما هو عليه في نفسه فليس بحلم وإنما ذلك كشف لا حلم سواء كان في نوم أو يقظة، كما أن الحلم قد يكون في اليقظة كما هو في النوم كصورة دحية التي ظهر بها جبريل عليه السلام في اليقظة فدخلها التأويل ولا يدخل التأويل النصوص. وأما قول إبراهيم لابنه وقد رأى أنه يذبح ابنه فأخذ بالظاهر على أن الأمر كما رآه وما كان إلا الكبش وهو الذبح العظيم ظهر في صورة ابنه فرأى أنه يذبح ابنه فذبح الكبش فهو تأويل رؤياه على غير علم منه ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ يعني تلك الصورة وهي ابنه التي رآها إبراهيم عليه السلام ﴿بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] وهو الكبش فما ذبح إلا كبشاً في صورة ولده فأفسد الحلم صورة الكبش في المنام ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] وكيف ترى وأين ترى؟ وكن على علم في أحوالك كلها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العظمة

[نظم: المنسرح]

إنّ الـعَـظِـيـمَ الـذي تُـعَـظِّـمُـهُ ... أفـعـالُـهُ لـيـس مـن يـقـولُ أَنَـا

ومَـنْ يَـقُـلْ إِنَّ مـا تُـعَـظِّـمُـهُ ... أحـسـابُـهُ لا أرى لـه ثَـمَـنَـا

فـلا تُـعَـظِّـمْـهُ إنـه رَجُـلٌ ... يُحْشَرُ يوم الحساب في الجُبَنَا

يدعى صاحبها عبد العظيم وحال هذا العبد الاحتقار التام مع كونه محلاً للعظمة فيفنيه عند نفسه، وما رأيت أحداً يحكم هذا المقام إلا شخصاً واحداً من حديثة الموصل، وأخبرني شيخي أبو العباس العريبي من أهل العلياء من غرب الأندلس أنه رأى واحداً أيضاً من أهل هذه الحضرة وقد تلبس كالحلاج فيعظم جسمه في أعين الناظرين بالأبصار. وأما حكمها في النفوس فكثير الوقوع فإنه تقع أمور كثيرة يعظم في النفوس قدرها بحيث لا تتسع النفس لغيرها ولا سيما في الأمور الهائلة التي تؤثر الخوف في النفوس﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] و﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولكن في نفس الموحد يشاهد عظمته في نفس المشرك لا في نفسه، فيشاهد ظلمة عظيمة إذا أخرج يده فيها لم يكد يراها. واعلم أن العظمة حال المعظم اسم فاعل لا حال المعظم اسم مفعول، إلا أن يكون الشيء يعظم عنده ذاته، فعند ذلك تكون العظمة حال المعظم لأن المعظم اسم فاعل ما عظمت عنده إلا نفسه فهو من كونه معظماً نفسه كانت الحال صفته وما عظم سوى نفسه فالعظمة حال نفسه، وهذه الحالة توجب الهيبة والإجلال والخوف فيمن قامت بنفسه، قال بعضهم: [البسيط]

كأنما الطَّيْرُ منهم فوق أرْؤُسِهِمْ ... لا خَوْفَ ظُلْمٍ ولكن خَوْفَ إجْلالِ

لما في قلوبهم من هيبته وعظمته. وقال الآخر: [مجزوء الكامل]

أشْـتـاقُـهُ فـإذا بَـدَا ... أطْـرَقْـتُ مـن إجْـلالِـهِ

لا خِـيـفَـةً بـل هَـيْـبَـةً ... وصـيـانـةً لـجَـمَـالِـهِ

وهذه الأسباب كلها موجبات لحصول العظمة في نفس هذا المعظم، إلا أن عظمة الحق في القلوب لا توجبها إلا المعرفة في قلوب المؤمنين وهي من آثار الأسماء الإلهية، فإن الأمر يعظم بقدر ما ينسب إلى هذه الذات المعظمة من نفوذ الاقتدار وكونها تفعل ما تريد ولا رادّ لحكمها ولا يقف شيء لأمرها فبالضرورة تعظم في قلب العارف بهذه الأمور وهي العظمة الأولى الحاصلة لمن حصلت عنده من الإيمان، والمرتبة الثانية من العظمة هي ما يعطيه التجلي في قلوب أهل الشهود والوجود من غير أن يخطر لهم شيء من تأثير الأسماء ولا من الأحكام الإلهية، بل بمجرّد التجلي تحصل العظمة في نفس من يشاهده وهذه العظمة الذاتية ولا تحصل إلا لمن شاهده به لا بنفسه وهو الذي يكون الحق بصره، ولا أعظم من الحق عند نفسه، فلا أعظم من الحق عند من يشهده في تجليه ببصر الحق لا ببصره، فإن بصر كل إنسان وكل مشاهد بحسب عقده وما أعطاه دليله في الله، وهذا الصنف من أهل العظمة خارج عما ارتبطت عليه أفئدة العارفين من العقائد فيرونه من غير تقييد فذلك هو الحق المشهود فلا يلحق عظمتهم عظمة معظم أصلاً، وما أحسن ما جاء هذا الاسم حيث جاء في كلام الله ببنية «فعيل» فقال عظيم وهي بنية لها وجه إلى الفاعل ووجه إلى المفعول. ولما كان الحق عظيماً عند نفسه كان هو المعظم والمعظم فأتى بلفظ يجمع الوجهين كالعليم سواء، وقد يرد هذا البناء

ويراد به الوجه الواحد من الوجهين كالاسم الحليم هذا لسان الظاهر وعلم الرسم. وأما علم الحقيقة المعتمد عليه عند العارفين فكل فعيل في أسماء الحق وصفاته ونعوته كالحليم والعليم والكريم فلا فرق بين هذه الأسماء، وبين العظيم في دلالتها على الوجهين، وذلك لكونه هو الظاهر في مظاهر أعيان الممكنات، فما حلم إلا عنه ولا تكرم إلا عليه، ألا ترى حكم إيجاد المرجح لا يكون إيجاده عند المتكلمين إلا بالقدرة أو القادرية عند بعضهم أو بكونه قادراً عند طائفة فهو القادر، ولا يترجح الممكن إلا بالإرادة كما قلنا في القدرة على ذلك الترتيب والمساق فهو المريد، فالمريد إذا أراد ترجيح الوجود على العدم في المخلوق إن لم يكن هو القادر على ذلك، وإلا فعدم الإرادة أو وجودها على السواء، فيحتاج المريد إلى القادر بلا شك والعين واحدة ما ثم عين زائدة مع اختلاف الحكم، فلهذا قلنا في هذا البناء في حق الحق بطلب الوجهين، ولا يقدر أحد من الطوائف من العلماء بالله على مثل هذا العلم الإلهي إلا العلماء الراسخون من أهل الله الذين هوية الحق علمهم كما هي سمعهم وبصرهم فاعلم ذلك، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الشكر

[نظم: الوافر]

شَكُورٌ مَنْ أَتَى الكَرْمَ المُسَمَّى ... كما قد جاء في نَصِّ الكتابِ

لِيُطْعِمَ من قُدُورٍ راسياتٍ ... جياعاً في جِفَانٍ كالجَوابي

ولا يبغي على ما كان منه ... مِنِ اطْعامٍ إلى يوم الحسابِ

ثَناءً لا ولا حمداً وذِكْراً ... ولا نوعاً مِنَ انْواعِ الثَّوابِ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الشكور وعبد الشاكر، وهي لصفة الكلام المنسوب إلى الحق قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣] يعني المبالغة في الشكر، وهو أن يشكر الله حق الشكر، وذلك بأن يرى النعمة منه؛ ذكر ابن ماجة في سننه حديثاً وهو: «**أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوْحَى إلى مُوسَى اشْكُرْنِي حَقَّ الشُّكْرِ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ يا رَبِّ؟ فقالَ لَهُ: إذا رَأَيْتَ النِّعْمَةَ مِنِّي فَقَدْ شَكَرْتَنِي**» فمن لا يرى النعمة إلا منه فقد شكره حق الشكر، لا تراها من الأسباب التي سدلها بينك وبينه عند إرداف النعم، فإن النعم أشياء لا تتكون إلا عنه من الوجه الخاص الذي لكل كائن، وقال من هذه الحضرة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ووصف نفسه بشكره عباده طلباً للزيادة منهم مما شكرهم عليه مقابلة نسخة بنسخة لأنه على صورته، وهو يريد أن يوقفك على صحة هذه النسخة، فإنه ما كل نسخة تكون صحيحة ولا بد قد تختل منها أمور، فلذلك شرعت المعارضة بين النسختين، فما أخرج الناسخ منها أثبت بالمعارضة لتصح النسخة، ومن الأمر الواقع في المنتسخ منه أنه شاكر وشكور عباده، ثم طالبهم بالشكر ليظهروا بصفته من كونهم على صورته، ثم عرفهم أن الشكر يقتضي لذاته الزيادة من المشكور مما شكر من أجله وهو

المعروف الذي سدله وأسداه إلى عباده. فإذا علم أن الحق تعالى يطلب الزيادة من عباده في دار التكليف مما كلفهم فيها من الأعمال، وجعل استيفاء حقه أن يرى العبد النعمة منه عز وجل، فكان تنبيهاً من الله لعبده في تفسير حق الشكر أن الحق يرى النعمة من العبد حيث أعطاه العلم به كما قلنا إن العلم يتبع المعلوم فهو يجعل التعلق به في نفس العالم فيتصف العالم بالعلم فيشكره الحق على ذلك فيزيده العبد بتنوع أحواله تعلقات لم يكن عليها تسمى علوماً. وهذا الذي أشرنا إليه من أصعب العلوم علينا لشدة غوصها وهي سريعة التفلت، ومن علم هذا علم قوله تعالى: حتى نعلم فما قال حتى نعلم حتى كلف وابتلى ليعلم ما يكون منه فيما أتاه به، وقد علم منه ما يكون في حال ثبوته، إلا أن الممكن إذا تغيرت عليه الأحوال يعلم أنه كان في عينه في حال ثبوته بهذه الصفة ولا علم له بنفسه، فإن الإنسان قد يغفل عن أشياء كان قد علمها من نفسه ثم يذكرها وهو قوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] ولب الشيء سره وقلبه، وما حجبه إلا صورته الظاهرة فإنها له كالقشر على اللب صورة حجابية عليه لعينه الظاهرة، فهو ناس لما هو به عالم وأخفى منه في التشبيه الزهرة مع الثمرة هي الدليل عليها والحجاب والحال الإلهي كالحال الكوني لأنه عينه ليس غيره، فما شكر إلا نفسه لأنه ما أنعم إلا هو، ولا قبل الإنعام ولا أخذه إلا هو، فالله المعطي والآخذ كما قال: إن الصدقة تقع بيد الرحمن فإنه يأخذ الصدقات، ويد السائل صورة حجابية على يد الرحمن فتقع الصدقة في يد الرحمن قبل وقوعها في يد السائل، وإن شئت قلت: إن يد السائل هي يد المعطي فيشكر الحق عبده على ذلك الإنعام ليزيده منه، يقول الله عز وجل: **«جِعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي»** فطالبه الحال بالتفسير فقال له: وَكَيْفَ تُطْعَمُ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ قال تعالى: **«أَمَا إِنَّ فُلَاناً جَاعَ فَاسْتَطْعَمَكَ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذٰلِكَ عِنْدِي»** وكذا جاء في المرض والسقي أي أنا كنت أقبله لا هو، والحديث في صحيح مسلم، وعند هذا القول كان الحق صورة حجابية على العبد، وعند الأخذ والعطاء كان العبد صورة حجابية على الحق.

فإذا شهدت فاعلم كيف تشهد ولمن تشهد وبمن تشهد وعلى من تشهد، فلتشكر على حد شهودك ولتقبل الزيادة ولتعط أيضاً الزيادة على شهود وتحقيق وجود، وموجب الشكر الإنعام والنعم، وأعظم نعمة تكون النكاح لما فيه من إيجاد أعيان الأمثال فإن في ذلك إيجاد النعم الموجدة للشكر، ولذلك حبب الله إليه النساء وقواه على النكاح أعني لرسول الله ﷺ وأثنى على التبعل وذم التبتل، فحبب النساء إليه لأنهن محل الانفعال لتكوين أتم الصور وهي الصورة الإنسانية التى لا صورة أكمل منها، فما كل محل انفعال له هذا الكمال الخاص، فلذلك كان حب النساء مما امتن الله به على رسوله ﷺ حيث حببهن إليه مع قلة أولاده ﷺ، فلم يكن المراد إلا عين النكاح مثل نكاح أهل الجنة لمجرد اللذة لا للإنتاج، فإن ذلك راجع إلى إبراز ما حوى عليه ﷺ من ذلك، وهذا أمر خارج عن مقتضى حب المحل المنفعل فيه التكوين، ألا ترى الحق إن فهمت معاني القرآن كيف جعل الأرض فراشاً وكيف خلق آدم منها

وجعله محل الانفعال؟ ونطق رسوله ﷺ بقوله: «**الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ**» يريد المرأة أي لصاحب الفراش كما كان آدم عليه السلام حيث جعله خليفة فيمن خلق فيها ليكون أيضاً صاحب فراش لأنه على صورة من أوجده فأعطاه قوة الفعل كما أعطاه قوة الانفعال فكان وطاء وغطاء، فالحق هو الشاكر المشكور: [الطويل]

وفي الشُّكْرِ أسْرارٌ يراها ذَوُو الحِجَى ... يفوزُ بها عَبْدُ الشَّكُورِ إذا شَكَرْ

ومن أجل ذَا سَمَّى الإلٰهُ لِعَبْدِهِ ... على لغة الأعراب الفَرْجَ بالشَّكَرْ

لما فيه من الزيادة على الالتذاذ بالنكاح وهي ما يتولد فيه عن النكاح من الولد الروحاني والجسماني دنيا جسماً وآخرة روحاً، وقد ذكرنا ذلك في توالد الأرواح من هذا الكتاب، وبينا ذلك أيضاً في القصيدة الطويلة الرائية التي أولها: [مجزوء الرجز]

اعْتَرَضَتْ عَقَبَةٌ ... وَبُنَيّةُ الطريق في السَّفَرْ

وهذا القدر من الإيماء كاف في معرفة هذه الحضرة الإلهية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة العلو

[نظم: الوافر]

تَوَاضَعْ فالإلٰهُ هو العَلِيُّ ... له التنزيهُ منّا والعُلُوُّ

فقُلْ إن شِئْتَ فَرْدٌ لا يُدَانَى ... وقُلْ ما شِئْتَهُ فالأمْرُ تَوُّ

فليس سوى الذي قد قام عندي ... إلٰهٌ ما له إلا السُّمُوُّ

وليس سوى الذي قد قام عندي ... عُبَيْدٌ ما له إلا الدُّنُوُّ

فلا تَغْلُ فَدَيْتُكَ يا خليلي ... فإنَّ الدين يفسده الغُلُوُّ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد العلي. قال الله عز وجل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وكان شيخنا العُريبي يقف في هذه الآية ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ويبتدىء ﴿ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٥-٦] أي ثبت له وكل ما سوى الله عرش له علو قدر ومكانة في قلوب العارفين به من علماء النظر وغيرهم من العلماء، فعلوه تعالى بهذا التفسير مطلق، وبقي علو المكان الذي أثبته الإيمان بالخبر الصدق، ودل عليه عند العلماء بالله من طريق الشهود صور التجلي فهو بكل شيء محيط لاستوائه. ولما كان أعلى الموجودات وأعظمها من وجب له الوجود لنفسه استقلالاً وكان له الغنى صفة ذاتية لم يفتقر إلى غيره كان بالاسم العلي أولى وأحق وكان من كان وجوده بغيره مستوى لهذا العلي وليس إلا الله، فمن هذه الحضرة ظهر العلو فيمن علا في الأرض كفرعون الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، وجعل العلو في الإرادة في بعض الناس وذمهم بذلك فقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] ونعني بالدار الآخرة هنا الجنة خاصة

دون النار ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وسواء حصل لهم ذلك المراد أو لم يحصل فقد أرادوه وحصل في نفوسهم وما بقي إلا أن يحصل في نفوس الغير الذي كنى عنها بالأرض، والعلماء بالله لا يريدون علواً في الأرض لأنه علو مكتسب ولا يريدون ما يقع عليه اسم الكسب، وإنما يريدون ما تقتضيه ذواتهم من حيث ما يشهدون من افتقروا إليه في وجودهم خاصة، فما لهم نظر إلا إليه لا فيه لأنه ممنوع لنفسه أعني النظر فيه الذي هو الفكر في ذاته، فالذي يعطي العلو هذه الحضرة إنما هو السعادة لا التكبر، فالعلو الذي تعطي هذه الحضرة لأجل السعادة إنما هو علمهم بذواتهم ليعلموا أن الحادث في مقام الانحطاط عما يجب لله من العلو، ويكفيهم من العناية الإلهية أن حصلوا مع الحق في باب الإضافة: [مجزوء الرمل]

إذْ بهم كان عَلِيًّا ... وبه كانوا سِفَالاً
لم أجد لله فينا ... غَيْرَ ما قلنا مِثَالا
فهو التاجُ علينا ... عندما كُنَّا نِعَالا
وهو البدرُ المسمَّى ... عندما كان هِلالا
صَيَّرَ الإلٰهُ ذاتي ... لِرَحَى الكون ثقالا
فله التعظيم منّا ... جَلَّ قَدْراً وتعالىٰ
جعل الإلٰهُ فينا ... لشيوخنا محالا
فإذا لم يَسْتَفِلُوا ... كان جَعْلُهُمْ مُحَالا
وإذا هُمُ اسْتَفَلُوا ... لم أجِدْ عنهم زوالا
فبذاتي وبربّي ... كنت حرماً وحَلالا
وبربّي لا بكوني ... صَيَّرَ الضعفَ محالا
وسقاني كأسَ حظي ... طَيِّباً عذباً زُلالا
فلصَحْوي عند شُرْبي ... لم أجد منه خَبَالا
ولسُكْري منه أيضاً ... كنت في نفسي خَيَالا
لم يكن فيه سِوَائي ... فلذا كُوِّنْتُ آلا
من يراني ما يراني ... فالهُدَى صار ضَلالا
وانتقلنا عنه سرّاً ... للذي شاء انتقالا
لم أجِدْ عند انتقالي ... عنه في نفسي كَلالا
فنَعَمْ لم أرَ فيه ... عندما قلت ولا لا
ثُمَّ لم يكن سكوتٌ ... عند قولي واسْتَحَالا
فلذا قد جِزْتُ فيه ... ولذا ذُقْتُ وَبَالا
جُبْتُ غرباً ثم شرقاً ... وجنوباً وشمالا
ثم أنشأنا سحاباً ... من عطاياه ثِقَالا
ثم نُودِينا وَجدْتُم ... في وُجُودِكُمْ مَنَالا

وما حصل التشريف للممكنات إلا بإضافتها إلى الله، وهذا التشريف في حقنا هو أعظم تشريف إمكاني، فعلو الإنسان عبودته لأن فيها عينه وعين سيده، والمتلبس بصفة سيد لابس ثوب زور ليس عليه منه شيء ولا تقبله ذاته وهو يعلم ذلك من نفسه وإن جهله غيره واعترف له بالعلو عليه، فمن وجه ما لا من جميع الوجوه فإنه يعلمه أنه هو، فهوية ما سوى الحق معلومة لا تجهل، ولولا معقولية المكانة ما اعترف مخلوق بعلو مخلوق، فلهذا لا يعظم أحد في عين أحد لذاته إلا المحبوب خاصة فإنه يعظم في عين محبه لذاته، فكل شيء يكون منه يتلقاه المحب الصادق الحب بالقبول والرضى، وما كل محب محب لأن طلب الغرض من المحب لا يصح في الحب الصادق الذي استفرغ قواه، وإنما ذلك لمن بقيت فيه فضلة يعقل بها أنه محب وأن محبوبه غير له.

ولما وصف الحق نفسه بالنزول كان هذا النزول عين الدليل على نسبة العلوّ لأنه لو وقف مع قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] واكتفى ولم يذكر النزول، وكل جزء من الكون عرشاً له لأنه ملكه، فما تحقق له العلو إلا باتصافه بالنزول إلى السماء الدنيا، فأثبت له علو المكان، وأثبت الاستواء على العرش المكانة والقدر، فبالاستواء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وبالنزول ظهر الحد والمقدار فعلمنا بالنزول في أي صورة تجلى ولمن نزل وتدلى، وله الحمد أي عاقبة الثناء ترجع إليه في الآخرة وهو النزول والأولى وهو الاستواء، فعمّ علوّه وتحقق دنوّه، فطوبى للتائبين والداعين والمستغفرين، فيا ليت شعري هل يسمعون قوله تعالى ذلك؟ نعم العارفون يسمعونه، وأهل الحضور مع إيمانهم بهذا الخبر يسمعونه، وما عدا هذين الصنفين فلا يسمعه، وما عرفنا الله تعالى بأنه كلم موسى تكليماً إلا لنتعرض إلى هذه النفحة الإلهية والجود لعل نسيماً يهب علينا منها فيأخذ الناس هذا التعريف بأن الله كلم موسى ثناء على موسى عليه السلام خاصة، نعم هو ثناء ولكن ما أثنى الله بشيء على أحد من المخلوقين إلا وفيه تنبيه لمن لم يحصل له ذلك الأمر أن يتعرّض لتحصيله جهد الاستطاعة، فإن الباب مفتوح والجود ما فيه بخل، وما بقي العجز إلا من جهة الطالب ولهذا يقول: من يدعني فأستجيب له ومن نكرة فما وقع العجز إلا منا، وهنا الحيرة لأنا ما ندعوه إلا بتوفيقه وتوفيقه إيانا لذلك من عطائه وجوده واستعداد كنا عليه به قبلناه، فتأهلنا لدعائه وإجابته إيانا فيما دعوناه به على ما يرى الإجابة فيه فهو أعلم بالمصالح منا، فإنه تعالى لا ينظر لجهل الجاهل فيعامله بجهله، وإنما الشخص يدعو والحق يجيب، فإن اقتضت المصلحة البطء أبطأ عنه الجواب، فإن المؤمن لا يتهم جانب الحق، وإن اقتضت المصلحة السرعة أسرع في الجواب، وإن اقتضت المصلحة الإجابة فيما عينه في دعائه أعطاه ذلك سواء أسرع به أو أبطأ، وإن اقتضت المصلحة أن يعدل مما عينه الداعي إلى أمر آخر أعطاه أمراً آخر لا ما عينه، فما جاز الله لمؤمن في شيء إلا كان له فيه خير، فإياك أن تتهم جانب الحق فتكون من الجاهلين وأنت من الجاهلين، ولو أعطيت علم اللوح المحفوظ والقلم الأعلى والملائكة العلى، وأما العالون من عباد الله الذين قال الله في توبيخه لإبليس

حين أبى عن السجود لآدم: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] فهم الأرواح المهيمة في جلال الله، فأعلاهم الحق أن يكون شيء من الخلق لهم مشهوداً ولا نفوسهم وهم عبيد اختصهم لذاته، فالتجلي لهم دائم وهم فيه هائمون لا يعلمون ما هم فيه، فعلوهم بين الاسم العليّ وبيننا، فهم لا يشهدون علوّ الحق لأنه لا يشهد علوّ الحق إلا من شهد نفسه وهم في أنفسهم غائبون، فهم عن علوّ الحق ومكانته أشد غيبة والعلوّ نسبة فالأعلى من ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] إنما هو نعت أحدية من ادّعى العلوّ أو أراد العلوّ فإذا زال كان علياً لأعلى، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الكبرياء الإلهي

[نظم: الوافر]

كـبـيـرُ الـقَـدْر لـيـس لـه نَـظِـيـرٌ ... كـبـيرٌ فـي الـنـفـوس وفـي الـعُـقُـولِ

لـه فـي أنْـفُـسٍ عـنـدي قـبـولٌ ... ولـيـس لـذاتـه بـي مـن قَـبُـولِ

يدعى صاحبها عبد الكبير وهو عين العبد لأن الكبرياء رداء الحق وليس سواك فإن الحق تردى بك إذ كنت صورته فإن الرداء بصورة المرتدي، ولهذا ما يتجلى لك إلا بك. وقال: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» فمن عرف الرداء عرف المرتدي ما يتوقف معرفة الرداء على معرفة المرتدي، وفي هذا غلط عظيم عند العلماء وما تفطنوا لمراد الحق في التعريف بنفسه، فما وصف نفسه إلا بما نعرفه ونتحققه على حد ما نعرفه ونتحققه، فإنه بلساني خاطبني لنعقل عنه فلو أحالنا عليه ابتداء لما عرفناه، فلما أنزل كبرياءه منزلة الرداء المعروف عندنا علمنا ما الكبرياء، ثم زاد رسول الله ﷺ في تجليه يوم القيامة في الزورالأعظم على كثيب المشاهدة في جنة عدن وذلك اليوم الكبير أنه تعالى يتجلى لعباده ورداء الكبرياء على وجهه ووجه الشيء ذاته فحال الحجاب بينك وبينه فلم تصل إليه الرؤية فصدق لن تراني وصدقت المعتزلة فما وصلت الأعين إلا إلى الرداء وهو الكبرياء وما تجلى لك إلا بنا، فما وصلت الرؤية إلا إلينا، ولا تعلقت إلا بنا، فنحن عين الكبرياء على ذاته قال: «وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي» فإذا قلبت الإنسان الكامل رأيت الحق والإنسان لا ينقلب فلا يرجع الرداء مرتدياً لمن هو له رداء، فهذا معنى الكبير، فإنه كبير لذاته والكبرياء نحن فمن نازعه منا فينا قصمه الحق لأنه جهل فإنه له ما رأيناه قط ولا نراه من حيث هو ونحن لنا فما نرى قط سوانا فلا يزال الكبرياء على وجهه في الدنيا والآخرة لأنا ما نزال، وهذا عين افتقارنا واحتقارنا ووقارنا: [المجتث]

لله يـوم كـبـيـرٌ لا يَـمْـتَـري فـيـه مُـؤْمِـنْ ... له التَّحَكُّمُ فينا بالاسم منه المُهَيْمِنْ

قال الله تعالى لمحمد ﷺ ولكل رسول أن يقول لنا: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣] ولا خوف علينا إلا منا فإن أعمالنا ترد علينا فنحن اليوم الكبير ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨] يعني مرجع اليوم ونعته بالكبرياء والشيء لا ينازع في نفسه ولا فيما هو له، فمن نازع الحق في كبريائه فما نازع إلا نفسه فعذابه عين جهله به، ومن هنا تعرف أن

الإحاطة لنا وليس سوى ما حزناه من صورته فإن الرداء يحيط بالمرتدي: [المجتث]

فظاهِرُ الحَقِّ خَلْقٌ ... وباطِنُ الخَلْقِ حَقٌّ

ومن ذلك: [الوافر]

إذا حُزْنَا مَقَامَ الكبرياءِ ... فنحن له بمنزلة الوِعَاءِ

فلم يُرَ غَيْرُنا لمَّا شَهِدْنا ... فكُنَّا منه عَيْنَ الكِبْرِيَاءِ

ولما كنا عين كبرياء الحق على وجهه والحجاب يشهد المحجوب فأثبت أنا نراه كما وسعناه فصدق الأشعري وصدق قوله: ترون ربكم كما صدق لن تراني، وللرداء ظاهر وباطن فيراه الرداء بباطنه فيصدق ترون ربكم ويصدق مثبت الرؤية ولا يراه ظاهر الرداء فيصدق المعتزلي ويصدق لن تراني والرداء عين واحدة، وكان الفضل لهذه النشأة الإنسانية على جميع العالم، فإن العالم كله دون الإنسان منحاز عن الإنسان متميز عنه، فلا يشهد العالم سوى الإنسان الذي هو الرداء والرداء من حيث ظاهره يشهد من يشهده وهو العالم، فيرى الحق ظاهر الرداء بما هو الحق العالم وهي رؤية دون رؤية باطن الرداء، فالعالم له الإحاطة لأنه لا يتقيد بجهة خاصة، فالحق وجه كله والرداء وجه كله، فهو الظاهر تعالى للعبد من حيث العالم، وهو الباطن لنفسه عن العالم من حيث ما له صورة في العالم ومن حيث إن الرداء بينه وبين العالم، فإن الصورة التي للحق في عين العالم الحق لها باطن من حيث إن الرداء حائل بينه وبين الحق الذي العالم به فهو باطن لنفسه وللعالم، ولا يصح أن يكون باطناً لباطن الرداء لكن لظاهره، فالإنسان الكامل يشهده تعالى في الظاهر بما هو في العالم وفي الباطن بما هو مرتد فتختلف الرؤية على الإنسان الكامل والعين واحدة، ولهذا ينكره بعض الناس في القيامة إذا تجلى والكامل لا ينكره فإنه ما كل إنسان له الكمال، فما ينكره إلا الإنسان الحيوان لأنه جزء من العالم فإذا تجلى له في العلامة وتحول فيها عرفه لأنه ما يعرفه إلا مقيداً، فالإمام تابع للمأموم في الأحوال والمأموم يتبع الإمام في الأفعال وفي بعض الأقوال، فلولا الكبرياء ما عرف الكبير: [الطويل]

فقد بَانَ عَيْنُ الحَقّ في عين نَفْسه ... وبَانَ لذي عينين من كبرياؤه

وهذا وُجُودُ الجُودِ ما ثَمَّ غَيْرُهُ ... وهذا صباحٌ قد تَلاهُ مَسَاؤه

فإن كان وَسْمِيٌّ فذاك ابتداؤه ... وما وَلِيَ الوَسْمِيَّ فهو انتهاؤه

فتبدو ثغور الروض ضاحكةً به ... بما جَادَ من جُودٍ عليه عطاؤه

فما كان من رَوْضٍ فذاك وطاؤه ... وما كان من غَيْمٍ فذاك غطاؤه

وما كان من مُزْنٍ فعَيْنُ نِكَاحِهِ ... وما كان من شربٍ فذاك وعاؤه

فَلاحَ لنا في قابلٍ عند صَيِّبٍ ... بحيث يُرَى أبناؤه وابتناؤه

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وحسبنا الله في كل موطن ونعم الوكيل.

حضرة الحفظ

[نظم: البسيط]

إن الحفيظ عليمٌ بالذي حَفِظَهْ … وما سواه فإن العَقْلَ قد لَفَظَهْ

فمن يقول به يليقه في خَلَدي … مع الذي عين الكتاب والحَفَظَهْ

إذا تَلَفَّظَ شخصٌ باسمه تَرَهُ … في نفسه طالباً بما به لَفَظَهْ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الحفيظ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] يخاطب موسى وهارون عليهما السلام. وقال في سفينة نوح عليه السلام: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] يشير إلى أنه يحفظها لأن المحفوظ لا يختفي عنه، ومن الناس من يحفظه الحفظ لأنه يريد أن يخلو بهواه، والحفظ الإلهي يمنع من ذلك ويحول بينه وبين هواه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] فمن عصى الله واتبع هواه فما عصى إلا مجاهرة ولكن بعد عمى القلب حتى لا يجتمع النظرتان إذ لو اجتمعتا لا حترق الكون، فإن بصر الحق إذا اجتمع به بصر العبد احترق العبد من فوره، ومعلوم أن الله يدركه ببصره الآن في حق العبد فإن الحق ليس في الآن لكن ما اجتمع بصر العبد معه فيعلم بالمقدمتين ما ينتج بينهما، فإن باجتماع البصرين وقع الحرق، فما انحفظ العالم إلا بكون البصرين ما اجتمعا على رؤية الكون ولذلك وصف نفسه إذا تجلى أن يكون رداء الكبرياء على وجهه فلا يرتفع أبداً، فإذا رأينا الحق متى رأيناه بأبصارنا نراه من حيث لا يرانا كما يرانا من حيث لا نراه، فإنه يرانا عبيداً ونراه إلهاً ونراه به ويرانا بنا، ومهما رآنا به فلا نراه به بل وهي الرؤية العامة، ورؤية الخواص أن يروه به ويراهم بهم، فهو الذي يحفظ عليهم وجودهم ليفيدهم ويستفيد من يستفيد منهم حتى نعلم إلى من هو دونه فهو الحفيظ المحفظ.

ولما سرى الحفظ في العالم فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠] وقال: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وعم فقال: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] فحدودهم كان كل عين في العالم من حيث ما هي حافظة أمراً ما عين الحق ولهذا وصف نفسه بالأعين فقال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ فإن مدبر السفينة يحفظها والمقدم يحفظها وصاحب الرجل يحفظها، وكل من له تدبير في السفينة يحفظها بل يحفظ ما يخصه من التدبير فقال تعالى فيها إنها تجري بأعين الحق وما ثم إلا هؤلاء وهم الذين وكلهم الله بحفظها، فالحق مجموع الخلق في الحفظ وفي كل ما يطلب الجمع، ولهذا المقام في صنعة العربية بدل الاشتمال تقول: أعجبني الجارية حسنها للاشتمال الذي هنا، وأعجبني زيد علمه، فالعلم بدل من زيد والحسن بدل من الجارية ولكن بدل اشتمال كما يكون في موضع آخر بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، كقولهم: رأيت أخاك زيداً فزيد أخوك وأخوك زيد، فهكذا قوله: «كُنْتُ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ» وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] إذ رميت فهذا بدل الشيء من الشيء وإن كان في هذا البدل رائحة من بدل البعض من الكل فقال: أكلت الرغيف ثلثيه، وليس في أنواع البدل بدل أحق بالحضرة الإلهية من بدل الغلط وهو الذي فيه الناس

كلهم يظنون أنهم هم وما هم هم، ويظنون أن ما هم هم وهم هم، ولهذا لا يوجد بدل الغلط في كلام فصيح مثاله: رأيت رجلاً أسداً أردت أن تقول: رأيت أسداً فغلطت فقلت: رأيت رجلاً ثم تذكرت أنك غلطت فقلت أسداً فأبدلت الأسد منه، فالعارف يلزمه الأدب أن يضيف إلى الله كل محمود عرفاً وشرعاً ولا يضيف إليه ما هو مذموم عرفاً وشرعاً إلا إن جمع مثل قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] وكل يقتضي العموم والإحاطة، وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] فالكشف والدليل يضيف إليه كل محمود ومذموم فإن الذم لا يتعلق إلا بالفعل ولا فعل إلا لله لا لغيره، فالعارف في بدل الغلط فإن عقله يخالف قوله، فقوله في المذموم ما هو له ويقول في عقده وقلبه هو له عند قوله بلسانه ما هو له، ومن لا يعلم أنه غلط يصمم على ما قاله أو على مااعتقده فالله الحفيظ وهو بدل من الحفظة والحافظين وأعيننا فالحفظ يطلب الرؤية ولا بد، والرؤية لا تطلب الحفظ ولا بد، ولكن قد تجيء للحفظ: [الطويل]

لِكُلٍّ حَفِيظٍ في الوجود حَفِيظُ وفي كل بابِ رَحْمَةٌ وكَظِيظُ
فكن عَبْدَ لِينٍ في دعائك عَبْدَهُ إلى الله لا فَظٌّ عليه غَلِيظُ
فكم بين محفوظ عليه وُجُودُهُ وبين حَفيظٍ ما عليه حَفِيظُ

فكما أن ربّك على كل شيء حفيظ، فهو بكل شيء محفوظ لأنه بالأشياء معلوم، فالأشياء تحفظ العلم به عند العلماء به والعلم صفته. والعلم والمعلوم أعطاه العلم بنفسه، فالمعلوم يحفظ عليه العلم ويزيل عنه العلم فهو يتقلب لتقلبه، فحفظ الله علمه من حيث ما هو معلوم له: [مجزوء الوافر]

فَحِفْظُ الحَقِّ مَوْسُومُ وحِفْظُ الخَلْقِ مَعْلُومُ
وما أَرْبَى على هذا فَمَدْخُولٌ ومَوْهُومُ

لأن المعلومات تحفظ على العالم بها علمه بها ولا عالم إلا الله على الحقيقة، والحق يحفظ على العالم نسبة الوجود إليه فهو يحفظ عليه وجوده، وإنما قلنا المعلومات لأن الحق معلوم لنفسه والخلق معلومون لله والحق ليس بمعلوم للخلق، فقد علمنا ما يحفظ الحق وما يحفظ الخلق، فإن زدت وقلت إن العالم يحفظ المعلوم فمدخول هذا القول وهو وهم من قائله لأن التابع بأمر المتبوع والعلم يتبع المعلوم فتفطن لهذا الأمر فإنه حسن يجعلك تنزل الأشياء منازلها وتفظ عليها حدودها فتكون حفيظاً والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وإنما ألحقنا الحفظية بالحفظ لما وصف الحق بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله، فلما كان لها حكم في الوجود الحق وسعى الانتقام والعفو في إزالتها خفنا أن يعتقد إزالة عينها وما زالت إلا إضافتها فجعل محلها جهنم فهي غضب الله الدائم فهي تنتقم دائماً في زعمها ولا تشعر بما يجد الساكن فيها، وكذلك حياتها وعقاربها في لدغها ونهشها تلدغ انتقاماً وتنهش غضباً لله وما عندها علم بما يجده الملدوغ إذا عمته الرحمة من الالتذاذ بذلك اللدغ فإنه بمنزلة الجرب بالحك أنت تدميه وهو يجد اللذة بذلك الإدماء، وكلما قوي الحق عليه تضاعفت اللذة حتى أنه يبادر إلى حك نفسه بيده لما يجد في ذلك من الالتذاذ به مع سيلان دمه في ذلك الحك،

فجهنم دار الغضب الإلهي وحاملته والمتصفة به، وكذلك من فيها من وزعة الغضب والمغضوب عليه بما يجده لا بما في نفوس هؤلاء، ولكن لا يحصل لهم هذا إلا بعد استيفاء الحدود والإحساس بالآلام عند نضج الجلود فتبدل لذوق العذاب كما تبدلت الأحوال عليهم في الدنيا بأنواع المخالفات، فلكل نوع عذاب ولهم جلد خاص يحس بالألم كما كان هنا دائماً في تجديد خلق، والناس في هذا التجديد في لبس، فإذا انتهى زمان المخالفة المعينة انتهى نضج الجلد، فإن شرع عند انتهاء المخالفة في مخالفة أخرى أعقب النضج تبديلاً بجلد آخر ليذوق العذاب كما ذاق اللذة بالمخالفة، وإن تصرّف بين المخالفتين بمكارم خلق استراح بين النضج والتبديل بقدر ذلك فهم على طبقات في العذاب في جهنم، ومن أوصل المخالفات ومذام الأخلاق بعضها ببعض فهم الذين لا يفترّ عنهم العذاب، فلما انتهى بهم العمر إلى الأجل المسمى انتهت المخالفة فتنتهي العقوبة فيهم إلى ذلك الحدّ وتكتنفهم الرحمة التي وسعت كل شيء، ولا تشعر بذلك جهنم ولا وزعتها أعني ما فيها من الحيوانات المضرّة لا ملائكة العذاب، فتبقى أحوال جهنم على ما هي عليه، والرحمة قد أوجدت لهم نعيماً لهم في تلك الصورة بحكمها، فإن الرحمة هي السلطانة الماضية الحكم على الدوام فافهم ما أومأنا إليه من لباب الحفظ الإلهي حفظ المراتب وربك على كل شيء حفيظ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة المُقيت

[نظم: البسيط]

إن الـذي قَـدَّرَ الأَقْـوَاتَ أَجْـمَـعَـهَـا ... هـو الـمُـقِـيـتُ الـذي لـعـبـده شَـرَعَـهْ
وهـو الـذي قـدّر الأوقـات جُـمْـلَـتَـهـا ... رِزْقـاً وخَـلْـقـاً ومصنوعـاً كـمـا صَـنَـعَـهْ

عبد المقيت هو أخ شقيق لعبد الرزاق، فإن الرزق قوت المرزوق وهو على مقدار خاص لا يزيد ولا ينقص في كل شهوة في الجنان، وفي كل دفع ألم وشهوة في الدنيا لأنها دار امتزاج ونشأة أمشاج، فمن هذه الحضرة يكون القوت لكل من لا يقوم له بقاء صورة في الوجود إلا به، ومن هذه الحضرة يكون تعيين أوقات الأقوات وموازينها كما قال تعالى في خلق الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] أي أعطى مقادير أوقات الأقوات وموازينها، وهذه الأقوات عين الوحي الذي في السماء، فالقوت في الأرض كالأمر في السماء، وتقدير القوت في الأرض كالوحي في السماء وهو عينه لا غيره، فأوحى في السماء أمرها وهو تقدير أقواتها وقدر في الأرض أقواتها: [المتقارب]

بُـرُوجُ الـسـمـاء لـهـا قُـوَّةٌ ... بـهـا يَـبْـعَـثُ الله أمْـوَاتَـهَـا
وحِـكْـمَـتُـهـا فـي الـثَّـرَى سَـيْـرُهـا ... لـيَـجْـمَـعَ بـالـسَّـيْـر أشْـتَـاتَـهـا
فـإن الإلـه بـنـاهـا لـنـا ... وعَـيَّـنَ بـالـسـيـر أوْقَـاتَـهـا
فـكـان غِـذَاءً لـهـا وَقْـتُـهـا ... وقَـدَّرَ فـي الأرض أقْـوَاتَـهـا

وهو وحي أمرها، واختلفت الأسماء لاختلاف المحال والصور وعمّ بالسماء والأرض ما علا من العالم وما سفل، وما في الوجود إلا عال وسافل، ومن أسمائه العلي ورفيع الدرجات فأمر الأسماء وأقواتها أعيان آثارها في الممكنات، فبالآثار تعقل أعيانها فلها البقاء بآثارها فقوت الاسم أثره وتقديره مدة حكمه في الممكن أي ممكن كان، ومن هذه الحضرة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] والخزائن عند الله تعلو وتسفل، فأعلاها كرسيه وهو علمه وعلمه ذاته، وأدنى الخزائن ما خزنته الأفكار في البشر، وما بين هذين خزائن محسوسة ومعقولة وكلها عند الله فإنه عين الوجود، فهي حضرة جامعة للأعيان والنسب والحدوث والقدم، فالخلق والخالق والمقدور والقادر والملك والمالك كل واحد لصاحبه أمر وقوت فأمره في سمائه وهو علوّه وقوته في أرضه وهو دنوه، فإنا من أهل الأرض ونحن المخاطبون بهذا الخطاب ليس غيرنا ولهذا كان القرآن منزلاً والنزول لا يكون إلا من علوّ كما العروج لا يكون إلا إلى علوّ: [الوافر]

فَمِنْ سُفْلٍ إلى عُلْوٍ عُرُوجٌ ومن عُلْوٍ إلى سُفْلٍ نُزُولُ
وكُلٌّ جاء في التنزيل فينا فمهما قُلْتَ فانْظُرْ ما تَقُولُ

ولما لم يكن في الكون إلا علة ومعلول علمنا أن الأقوات العلوية والسفلية أدوية لإزالة أمراض ولا مرض إلا الافتقار، فكل من في السموات ومن في الأرض آتى الرحمن عبداً، والسماء والأرض أتيا إلى الرحمن طائعين، وكل عبد فقير لسيده، وخادم القوم سيدهم لقيامه بمصالحهم، والعبد هو من يقوم في خدمة سيده لبقاء حقيقة العبودة عليه، والسيد يقوم بمصالح عبيده لبقاء اسم السيادة عليه، فلو فني الملك فني اسم المالك من حيث ما هو مالك، وإن بقيت العين فتبقى مسلوبة الحكم لأنه لا فائدة للأشياء لا بأحكامها لا بأعيانها، ولا تكون أحكامها إلا بأعيانها فأعيانها مفتقرة إلى أحكامها، وأحكامها مفتقرة إلى أعيانها، وأعيان من تحكم فيهم فمائم إلا حكم نعين فما ثم إلا مفتقر ومفتقر إليه، ولله الأمر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس، فأتى بكل وهي حرف شمول فشملت كل نفس فما تركت شيئاً في هذا الوضع، وسيعلم الكافر الذي سترَ عنه هذا العلم في الحياة الدنيا لمن عقبى الدار الآخرة حيث ينكشف الغطاء عن الأعين، فيعلم من كان يجهل ويفضل عليه من علمه هنا في الحياة الدنيا وهم أهل البشرى، وكل من تحقق أمراً كان بحسب ما تحققه: [السريع]

مَنْ قَدَّرَ القُوتَ فقد قَدَّرَا والقُوتُ ما اخْتُصَّ بحال الوَرَى
بل حُكْمُهُ سارٍ فقد عَمَّنَا ونَفْسُهُ فانظرْ ترى ما تَرَى
كُلٌّ تَغَذَّى فيه قام في وجوده حَقّاً بغير افْتِرَا

فقوت القوت الذي يتقوّت به هو استعماله، فالمستعمل قوت له لأنه ما يصح أن يكون قوتاً إلا إذا تقوّت به، فاعلم من قوتك ومن أنت قوته، روينا عن عالم هذا الشأن وهو سهل بن عبد الله التستري أنه رضي الله عنه سئل عن القوت فقال: «الله»، فقيل له: عن الغذاء

نسألك فقال: «الله» لغلبة الحال عليه، فإن الأحوال هي ألسنة الطائفة وهي الأذواق، فنبهه السائل على ما قدر ما أعطاه حاله في ذلك الوقت فقال: يا سهل إنما أسألك عن قوت الأجسام أو الأشباح، فعلم سهل أن السائل جهل ما أراده سهل فنزل إليه في الجواب بنفس آخر غير النفس الأول، وعلم أنه رضي الله عنه جهل حال السائل كما جهل السائل جوابه فقال له سهل: مالك ولها يعني الأشباح دع الديار إلى بانيها إن شاء خربها وإن شاء عمرها، فما زال سهل عن جوابه الأول لكن في صورة أخرى وعمارة الدار بساكنها، فالقوت الله كما قال أول مرة إلا أن السائل قنع بالجواب الثاني لنزوله من النص إلى الظاهر، وهكذا أكثر أجوبة العارفين إذا كانوا في الحال أجابوا بالنصوص، وإذا كانوا في المقام أجابوا بالظواهر فهم بحسب أوقاتهم، وهذا القدر من التنبيه على شرف هذه الحضرة كافٍ إن شاء الله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة الاكتفاء

[نظم: الكامل]

إنّ الحَسِيبَ هو العليمُ بما لنا ... وبما له فالكُلُّ في الحُسْبَانِ
لو تعلمون بما أقول وصِدْقَنَا ... فيه وفي الأكوان والإنسانِ
إني نطقتُ به وعنه وليس لي ... عَيْنٌ تُنَطِّقُني سوى المِخسانِ

يدعى صاحبها عبد الحسيب، وأدخلها القائلون بحصر الأسماء في الصفات السبعة في صفة العلم، وقد جاء في مدلول هذه الحضرة الأمر أن الواحد مثاله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ [الكهف: ١٨] وأمثاله والثاني: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي به تقع له الكفاية فلا يفتقر إلى أحد سواه، وعند الكشف يعلم المحجوب أن أحداً ما افتقر إلا إلى الله لكن لم يعرفه لتحليه في صور الأسباب التي حجبت الخلائق عن الله تعالى مع كونهم ما شاهدوا إلا الله، ولهذا نبههم لو تنبهوا بقوله تعالى وهو الصادق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] لعلمه بفقرهم إليه، فلم يتنبه لهذا القول إلا من فتح الله عين فهمه في القرآن وعلم أنه الصدق والحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] فكلام الحق لا يعلمه إلا من سمعه بالحق فإنه: [الوافر]

كلامٌ لا يُكَيِّفُهُ سَمَاعُ ... كلام ما له فينا انْطِبَاعُ
فنسمعه ونَتْلُوهُ حروفاً ... بنَظْم لا يُداخِلُهُ انْصِدَاعُ

فقول الله هذا القول الساري القديم الطارىء من سمعه تكلم به ومن لم يسمعه ما سمع إلا هو ولم يتكلم به وما تكلم إلا به، فصاحب الحجاب لا يعلم ذلك إلا بالخبر مثل قول الله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ومثل المصلي إذا قال: سمع الله لمن حمده، وكل من إذا كان فذاً أو إماماً يقول: سمع الله لمن حمده هذا محل الإجماع، وما كل قائل هذا يعلم أن الله هو القائل إلا إذا سمع هذا الخبر فهذا هو المحجوب، وأما أهل الكشف والوجود فما

يحتاجون إلى خبر بل يعلمون من هو السامع والقائل فهم غرقى في بحره لا يرجون موتاً ولا حياة ولا نشوراً: [مجزوء الرجز]

إنـي أُكَـابـدُ الـلُّـجَـجْ ... حـتـى أفُـوزَ بـالـثَّـبَـجْ
وإنـمـا الـعِـلْـمُ بـه ... فـي مَـوْجِ هـذه الـلُّـجَـجْ
والـسـيـف لا أرى لـه ... عـيـنـاً فـدَعْ عـنـك الـحُـجَـجْ
يـا حـضـرةً قـد تـلِـفَـتْ ... فـيـهـا الـنـفـوسُ والـمُـهَـجْ
إن الـفَـتَـى كُـلَّ الـفَـتَـى الـ ... ـرابِـضُ فـي عَـيْـن الـسَّـبَـجْ
ومـا عـلـيـه فـي الـذي ... يَـلْـقَـاهُ فـيـه مـن حَـرَجْ
مـن كـل مـا يـكـرهُـهُ ... مَـنْ قـد نـجـا ومـا خَـرَجْ
ومـا نَـجَـا مـنـه سـوى ... مـن مـات فـيـه فَـدَرَجْ
وكـلّ مـا تـحـذره ... مـن ذات دُلٍّ ودَعَـجْ
فـلا تَـخَـفْ فـإنـهـا ... نَـفْـسُـك فـي ثـانـي دَرَجْ

وقد كثر الله في خطابه من قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وعدد أموراً كثيرة هي مذكورة في القرآن يطول إيرادها، وما منها آية فيها: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ أو ﴿يَحْسَبُ﴾ [الهمزة: ٣] إلا وفيها قوّة الاكتفاء لمن فهم وما يعقلها إلا العالمون من هذه الحضرة يحسب على المتنفس أنفاسه لأنها أنفاس معدودة محصاة عليه إلى أجل مسمى، فلا بد أن يكون كما قلنا ولكن لا بما هي أنفاس وإنما بما تجري فيه إلى أمد معين، وتلك حضرة بين العلم والجهل فهي حضرة التخمين والحدس والظن الذي لم يبلغ مبلغ العلم ولهذا جاء: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [المائدة: ٧١] وكانت الفتنة فما كان ما حسبوا، وقال في طائفة: ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] وما أحسنوا صنعاً فهي شبهات في صور أدلة تظهر وليست أدلة في نفس الأمر، فالكيس من يقف عندها ولا يحكم فيها بشيء فإن لها شبهاً بالطرفين، ومن هذه الحضرة نزلت الآيات المتشابهات التي نهينا عن الخوض فيها ونسبنا إلى الزيغ في اتباعها فإن الزيغ ميل إلى أحد الشبهين، وإذا أولت إلى أحشد الشبهين فقد صيرتها محكمة وهي متشابهات فعدلت بها عن حقيقتها، وكل من عدل بشيء عن حقيقته فما أعطاه حقه كما أعطاه الله خلقه، والإنسان مأمور بأن يوفي كل ذي حق حقه، ومن هذه الحضرة ظهرت الأعداد في أعيان المعدودات فلما تركب العدد في المعدود تخيل منه ما ليس له حكم في وجود عيني، فهذه الحضرة أعطت كثرة الأسماء لله وهي كلها أسماء حسنى تتضمن المجد والشرف بل هي نص في المجد والشرف، فلهذا قيل فيه أنه تعالى حسيب، والحسيب ذو الحسب الكريم والنسب الشريف، ولا نسب أتم ولا أكمل في الشرف من شرف الشيء بذاته لذاته، ولهذا لما قيل لمحمد ﷺ: انسُبْ لنا ربك ما نسب الحق نفسه فيما أوحى إليه به إلا لنفسه وتبرأ أن يكون له نسب من غيره فأنزل عليه سورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ فعدد

ومجد فكانت له عواقب الثناء بما له من التحميد. ثم أبان له الأسماء الحسنى وعين لنا منها ما شاء وأمرنا أن ندعوه بها مع أن له أسماء كل شيء في العالم، فكل اسم في العالم فهو حسن بهذه النسبة، ومن هنا قالوا: أفعال الله كلها حسنة ولا فاعل إلا الله، هكذا حكم الأسماء التي تسمى بها العالم كله، ولا سيما إن قلنا بقول من يقول: إن الاسم هو المسمى، وقد بينا أنه ما ثم وجود إلا الله، وكذلك لو قلنا إن الاسم ليس المسمى لكان مدلول الاسم وجود الحق أيضاً، فعلى كل وجه ليس إلا الحق فما ثم وضيع، فالكل ذو حسب صميم ومجد وشرف عميم، وإنما الحسبان الذي رمى الله به روضة أحد الرجلين من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً وأصبح ماؤها غوراً، فكونها أصبحت صعيداً زلقاً أورثها الشرف وبما نعتها به من الزلق أورثها التنزيه والرفعة في الدرجة بما جعلها صعيداً وأزال عنها أنواع المخالفة بما أزال عنها من الشجر، فإن الحسبان كان من السماء، فأعطى مرتبة السمو لمن كان موصوفاً بالأرض وهي الساترة من فيها ولهذا سميت جنة، فما أبرز ما برز منها إلا جود السماء وهو المطر وجودها بحرارة الشمس، فمن السماء ظهرت زينتها فالسماء كستها بحسبانها والسماء جرّدتها من زينتها بحسبانها، فمن زينتها كثرت أسماؤها بما فيها من صنوف الثمر والأشجار والأزاهر، ومن تجريدها وتنزيهها توحد اسمها وذهبت أسماؤها لذهاب زينتها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ [الكهف: ٧] وليس الأرض في الاعتبار سوى المسمى خلقاً وليس زينتها سوى المسمى حقاً، فبالحق تزينت وبالحق تنزهت وتجردت عن ملابس العدد وظهرت بصفة الأحد، وهذا كله من هذه الحضرة حضرة الاكتفاء وهو الاسم الإلهي الحسيب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو قوله: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

حضرة الجلال

[نظم: الكامل]

إنّ الجَلِيلَ له الجلالُ الأعْظَمُ ... والجُودُ والكَرَمُ العَمِيمُ الأفْخَمُ
فإذا تَخَلَّقَ عَبْدُهُ بجلالهِ ... تَعْنُو الوجوهُ له ومنه يَعْظُمُ
وهو الذي سَبَقَ الجمالَ نفاسةً ... فله التقدُّمُ والمقامُ الأقْدَمُ
وله التَّنَزُّهُ في المعارج كلها ... وله التَّكَرُّمُ والصِّراطُ الأقْوَمُ
يبدو فيُظْهِرُه جمالُ وُجُودِهِ ... يعلو فيَحْجُبُهُ الجلالُ المُعْلَمُ
بحقيقةٍ حَوَتِ الحقائقَ كُلَّها ... ما قد عَلِمْتَ به وما لا يُعْلَمُ
فانْهَضْ بها إن كنت تعرفُ قَدْرَهَا ... ذَوْقاً ولا تَكُ في القيامة تَنْدَمُ
لا تَفْزَعَنَّ لها فأنت مِنَ أهْلِها ... وارْحَلْ إلى طَلَب المعالي تُعْصَمُ
إن الذين يبايعونك إنهم ... لَيُبَايِعون الحَقَّ حَقّاً فاعلموا
وافشوا الذي جئنا به في حقه ... لا تكتُمُوه فإنه لا يُكْتَمُ
وانْظُرْ إليه من وراء حجابه ... تَحْظَ به إن كنت ممن يَفْهَمُ
إن كُنْتَ من أصحابه في غَيْبِه ... فانْعَمْ به إن كنت ممن ينعمُ

مهما بَنَيْتَ الصَّرحَ أنت خليفةٌ فاحذَرْ إذا قام البنا يَتَهَدَّمُ
إن البناء إذا تَقُومُ بأمره لا يعتريه تَقَوُّضٌ وتَهَدُّمُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الجليل، قال تعالى وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]: [الخفيف]

جَعَلَ الرزقَ والبناءَ جميعاً في سماء وما لها مِنْ فُرُوجْ
ثم لا بُدَّ للعَبِيدِ إليها حين يُدْعَوْنَ نحوها من عُرُوجْ
إنما الخلق إن نظرتم إليهم تَجِدُوهُمُ في أمْرٍ مَرِيجْ
دون علم فهم حيارى سكارى في خروج إن كان أو في وُلُوجْ

فمن نسبة الجلال إليه له الاسم، ومن حضرة الجلال ظهرت الألوهة وعجز الخلق عن المعرفة بها، ومن هذا الاسم يعلم سرّكم في الأرض لما فيكم من نسبة الباطن وجهركم لما فيكم من نسبة الظاهر لارتفاعكم عن تأثير الأركان، فكل عظيم فهو جليل وكل حقير فهو جليل فهو من الأضداد، وقيل لأبي سعيد الخراز: بم عرفت الله؟ فقال: بجمعه بين الضدين ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] يعني من عين واحدة وفي عين واحدة.
ثم نرجع ونقول: ولا أحقر ممن يسأل أن يطعم لإقامة نشأته وإبقاء الحياة الحيوانية عليه، وعلى قدر الاحتقار يكون الافتقار، وأي افتقار أعظم ممن لا يكون له ما يريد إلا بغيره لا بنفسه، ولولا القوابل ما ظهر مجد القادر، لولا جوع العبد ما ادعى فيه السيد، ولولا عين العبد ما كان للجوع حكم، ولما أراد السيد أن يظهر بحكم لا يقوم إلا بعبده فلا بد أن يتعين وجود العبد وهو الذليل، فالمفتقر إليه أشد في الحكم وأولى بالاسم، فما كمل الوجود إلا بهذا الاسم، فما من شيء إلا وله وعليه حكم فثبت الافتقار للحكم سواء حكمت له أو عليه، وما حكم على شيء ولا لشيء إلا عينه، فما جاءه شيء من خارج فما ثم إلا هو، فهو الحاكم والحكم والمحكوم عليه أوله، فتوحدت العين واختلفت النسب كبدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، وأما عظمة الجليل فمن تأثيره كما أن حقارته من كونه مؤثراً فيه اسم مفعول، وما من شيء إلا مؤثر ومؤثر فيه لا بد من ذلك، فاسم الجليل له حقيقة فيقول العظيم الذي له التأثير للمؤثر فيه الحقير يا جليل، ويقول الحقير الذي تأثر وظهر الأثر فيه للذي له الأثر والتأثير يا جليل بالوجهين من كل قائم ومسم وواصف وناعت، فما رأينا أشبه شيء منه بالصدى، فإنه ما يرد عليك إلا ما تكلمت به، فوضعه الحق لهذا المقام وأمثاله مثالاً مضروباً، فإن الله ما خلق الخلق لعين الخلق وإنما خلقه ضرب مثال له سبحانه وتعالى علوّاً كبيراً، ولهذا أوجده على صورته، فهو عظيم بهذا القصد وحقير بكونه موضوعاً، ولا بد من عارف ومعروف، فلا بد من خلق وحق وليس كمال الوجود إلا بهما فظهر كمال الوجود في الدنيا.
ثم ينتقل الأمر إلى الأخرى على أتم الوجوه وأكملها عموماً في الظاهر كما عمت في الدنيا في الباطن، فهي في الآخرة في الظاهر والباطن، فلا بد أن تكون الآخرة تطلب حشر الأجساد وظهورها، ولا بد من إمضاء حكم التكوين فيهما، فهي في الدنيا في العموم تقول للشيء كن

فيكون في تصوّرها وتخيلها، لأن موطن الدنيا ينقص في بعض الأمزجة عن إمضاء عين التكوين في العين في الظاهر، وفي الآخرة تقول ذلك بعينه لما يريد أن يكون كن فيكون في عينه من خارج كوجود الأكوان هنا عن كن الإلهية عند أسبابها، فكانت الآخرة أعظم كمالاً من هذا الوجه لتعميم الكلمة الحضرتين الخيال والحس: [الهزج]

فللأُولى هو السِّرُّ ... وللآخرة الجَهْرُ
فمن آمن بالكُلّ ... فقد بان له الأَمْرُ

وما ثم حضرة في الحضرات الإلهية من يكون عنها النقيضان في العين الواحدة إلا هذه فهي الحضرة العامة الجامعة التي تضمنت الأسماء كلها حسنها وسيئها، والجلال من صفات الوجه فله البقاء دائماً، وهو من أدل دليل على أن كل ما في الدنيا في الآخرة بلا شك ومما في الدنيا ما لا خفاء به وهي الأجسام الطبيعية التي من شأنها أن تأكل وتشرب وتستحيل مأكلها ومشروبها بحسب أمزجتها، ففي الجنة يستحيل ما يأكله أهلها عرقاً يخرج من أعراضها أطيب من ريح المسك قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] فقال قائل: بأي نسبة يكون له هذا البقاء؟ فقال ذو الجلال والإكرام فرفع بنعت الوجه فلو خفض نعت الرب وكان النعت بالجلال وله النقيضان فيبقى الوجه الذي له النقيضان ولا يفنى، وإنما يفنى ما كان على هذه الأرض فناء انتقال في الجوهر وفناء عدم في الصورة، فيظهر مثل الصورة لا عينها في الجوهر الباقي الذي هو عجب الذنب الذي تقوم عليه نشأة الآخرة، فيبقى حكم الوجه المنعوت بالجلال ويتبعه اسمه حيث كان، فللاسم البقاء كما كان البقاء للمسمى به، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. [نظم: البسيط]

حضرة الكرم

[نظم: البسيط]

إنّ الكَرِيمَ الذي يُعْطي إذا سُئلا ... ولو تراه فقيراً للّذي سَألا
وليس يبرح من إذلال نشأته ... بما يعزُّ ولو محبوبُه وَصَلا
ولا أحاشي من الأعيان من أحَد ... إلا الغَنِيَّ الذي يعطي إذا سُئِلا
وذاك للأدب المعتاد أنْسُبُهُ ... فإنه مانعٌ ولا تقل بَخِلاَ
سبحانه وتعالى أنْ يُحِيطَ به ... عِلْمُ الخلائق عيناً حَلَّ أو رَحَلا
فإنْ يَحُلَّ ففي قلبي منازلُه ... وإن أقام أراه فيه مُرْتَحِلا
وليس ينقُصُهُ مما يُحيط به ... إلا إذا قيل شهرُ الله قد كمُلا
إنّ القُرَانَ في آياته عَجَبٌ ... آباره تقتضي الأزمان والأزلا

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الكريم وهو يتبع الجليل ويلازمه، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] وإنما تبعه من حيث ما يعطيه وضع الجلال، ولما كان يعطي النقيضين جاء

بالإكرام على الوجهين، فإن السامع إذا أخذ الجلال على العظمة أدركه القنوط لعدم الوصول إلى من له العظمة، لما يرى نفسه عليه من الاحتقار والبعد عن التفات ما يعطيه مقام العظمة إليه، فأزال الله عن وهمه ذلك الذي تخيله بقوله: ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي وإن كانت له العظمة فإنه يكرم خلقه وينظر إليهم بجوده وكرمه نزولاً منه من هذه العظمة، فلما سمع القانط ذلك عظم في نفسه أكثر مما كان عنده أولاً من عظمته، وذلك لأن عظمته الأولى التي كان يعظم بها الحق كانت لعين الحق عن انكسار من العبد وذلة، فلما وصف الحق نفسه بأنه يكرم عباده بنزوله إليهم حصل في نفس المخلوق أن الله ما اعتنى به هذه العناية إلا وللمخلوق في نفس هذا العظيم ذي الجلال تعظيم فرأى نفسه معظماً، فلذلك زاد في تعظيم الحق في نفسه إيثاراً لجنابه لاعتناء الحق به على عظمته، فزاد الحق بالكرم تعظيماً في نفس هذا العبد أعظم من العظمة الأولى، هذا إذا أخذ الجلال وحمله على العظمة، فإن أخذه السامع وحمله على نقيض العظمة فإنه يحصل أيضاً في نفسه القنوط لأنه حقير، وقد استند إلى مثله فمن أين يأتيه من تكون له منه رفعة والذي استند إليه جليل فيقول له لسان الصفة ومع هذا فإنه ذو إكرام، والدليل على أنه ذو إكرام امتنانه عليك بوجودك ولم تكن شيئاً موجوداً ولا مذكوراً فلولا كرمه لبقيت في العدم، فكرامته بك في إعطائه الوجود إياك أعز من كرامته بك بعد وجودك بما يمنحك به من نيل أغراضك، فيتنبه هذا الناظر في هذا الاسم وحمله على نقيض العظمة ويقول صحيح ما قال من أكرمني بالوجود الخيّر وحال بيني وبين الشرّ المحض وهو العدم لا بدّ أن يكون قادراً على إيجاد ما يسرّني، ودعه يكون في نفسه ما كان، إنما الغرض أن يكون له الاقتدار على تكوين ما أريده منه، وما جعل عنده هذا إلا قوله: ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾.

وانظر إلى قول النبيّ ﷺ وما أعجبه في نهيه أن يقال عن العنب الكرم وغيرته ﷺ على هذا الاسم ثم قال: «**فإن الكَرَمَ قَلْبُ المؤمن**» فإن قلبت المؤمن وجدت الحق في قلبك إياه فإن الله يقول: «**وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ**» والحق باطن المؤمن وهو قلب الظاهر، والحق هنا هو الكريم لأن القلب هو الكرم فهو محل الكرم، وجاء بالاسم الكريم على هذه البينة لكونها تقتضي الفاعل والمفعول فهو تعالى كريم بما وهب وأعطى وجاد وامتن به من جزيل الهبات والمنح، وهو مكرم ومتكرم عليه بما طلب من القرض فأقرض العبد ربه عن أمره بما عبده خلقه لأنه ما خلقهم إلا ليعبدوه، وجعل لهم الاختيار فلما جعل لهم الاختيار الذي أداهم ذلك إلى البعد عما خلقوا له من العبادة، ولما علم الحق ذلك ظهر في صورة كل شيء وأخبر عباده بذلك فقال: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] ولا بد لكل مخلوق من التولي إلى أمر ما، وقال الحق تعالى في ذلك الذي توليت إليه ومراجعة أعدمهم بذلك إلا ليتصفوا بصفة الكرم على الله بتوليهم، لأنهم لو لم يعلموا ذلك بإعلامه مع وجود الاختيار الذي يعطي التفوق في الاشياء لتخيلوا أنهم قد خرجوا عن حكم ما خلقوا له من التكرم على ربهم بعبادتهم إياه، فربما كانوا يجدون في نفوسهم من ذلك حرجاً حيث خالفوا ما خلقوا له مع كرمه بهم بإيجادهم، فأزال الله عنهم ذلك الحرج كرماً منه واعتناء بهم بقوله: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ

فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ فانطلقوا في اختيارهم إذا علموا أنهم حيث تولوا ما ثم إلا وجه الله، فوقفوا على علم ما خلقوا له، وقد كان قبل هذا يتخيلون أنهم يتبعون أهواءهم والآن قد علموا أن أهواءهم فيها وجه الحق، ولهذا جاء بالاسم الله لأنه الجامع لكل اسم فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ وذلك الأين يعين بحقيقته اسماً خاصاً من أسماء الله، فللّه الإحاطة بالأينيات بأحكام مختلفة لأسماء إلهية مختلفة تجمعها عين واحدة، فمن كرمه قبول كرم عباده فقبل عطاياهم قرضاً وصدقة، فوصف نفسه بالجوع والظمأ والمرض ليتكرم عليه في صورة ذلك الكون الذي الحق وجهه بالعيادة والإطعام والسقي والكرم على الحاجة أعظم وقوعاً في نفس المتكرم عليه من الكرم على غير حاجة، لأنه مع الحاجة ينظره إحساناً مجرداً يثمر له الشكر ولا بد، والشكر يثمر الزيادة من العطاء والكرم على غير الحاجة من المتكرّم عليه يظهر له الحال الذي هو عليه وجوهاً من التأويل قد يخرجه من نظره أنه أحسن إليه فربما يتخيل فيه أمراً يرد به، فلهذا أنزل الحق إلى عباده في طلب الكرم منهم إلى الظهور بصفة الحاجة ليعلمهم أنه ما ينظر في أعطياتهم إلا الإحسان مجرّداً، فهي بشرى من الله جاءت منه إلى عباده من قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] وهذه منها، فهذا اسم الكريم من حضرة الكرم فبكرمه تكرّمت عليه كما قرّرنا، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة المراقبة

[نظم: البسيط]

إنّ الـرَّقِـيـبَ لَـزِيـمٌ حـيـثـمـا كَـانـا	لـذاك يـحـفـظ أعـيـانـاً وأكْـوَانَـا
وقـتـاً يـكـون عـلـى ذات مـصـرّفـة	عـن أمـره كـان ذاك الأمْـرُ مـا كـانـا
ولـيـس يَـخْـفَـى عـلـيـه مـن مُـرَاقِـبِـهِ	شـيءٌ وإن جَـلَّ ذاك الأمْـرُ أو هَـانَـا

يدعى صاحبها عبد الرقيب، وليس في الحضرات من يعطي التنبيه على أن الحق معنا بذاته في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾ [الحديد: ٤] إلا هذا الاسم الرقيب وهذه الحضرة لأنه على الحقيقة من الرُقبى والرقبى أن تملك رقبة الشيء بخلاف العمرى فإذا ملكت رقبة الشيء تبعته صفاته كلها وما ينسب إليه بخلاف الصفة لأنك إذا ملكت صفة ما لا يلزم أن تملك جميع الصفات، وإذا ملكت الموصوف فبالضرورة تملك جميع الصفات لأنها لا تقول بأنفسها وإنما تطلب الموصوف ولا تجده إلا عندك فتملكها عند ذلك فهي كالحبالة للصائد، فأما ملكه إياك فمعلوم بما تعطيه حقيقتك، وأما ملكك إياه فبقوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ١١٥] ووجه الشيء ذاته وحقيقته، والرقيب اسم فاعل على كل شيء وهو المرقب عليه فإنه المشهود لكل شيء فيرقب العبد في جميع حركاته وسكناته، ويرقبه العبد في جميع آثاره في قلبه وخوطره وحركاته وحركات ما خرج عنه من العالم، فلا يزال صاحب هذه الحضرة في مزيد علم إلهيّ أبداً، علم ذات ينجرّ معه علم صفات ونعوت وأسماء ونسب وأحكام، ولا بد لهذا الاسم من حكم الإحاطة حتى يصح شمول المراقبة، ولما كانت المراقبة تقتضي

الاستفادة والحفظ حذراً من الوقائع فالعلم قوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فإذا ابتلاه راقبه حتى يرى ما يفعل فيما ابتلاه به لأنه ما ابتلاه ابتداء وإنما ابتلاه لدعواه لأنه قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فادعوا فابتلاهم ليرى صدق دعواهم، ولقد رحم الله عباده حين أشهدهم على أنفسهم بما قبضهم وقرّرهم عليه من كونه ربهم وما أشهدهم على توحيده، ويصدق المقرّ بالملك لمن له فيه شقص فجعل لهم الانفساح من أجل ما علم من يشرك من عباده الشرك المحمود والمذموم، فغير المذموم شرك الأسباب فإن القائلين بها أكثر العباد مع كونهم لا يعتقدون فيها إلا أنها موضوعة من عند الله، والمذموم من الشرك أن يجعل المشرك مع الله إلهاً آخر من واحد فما زاد ولذلك قال من قال من المشركين: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] فقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ عندنا هو قول الله، وقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ حكاية الله لنا عن المشرك أنه قال هكذا إما لفظاً وإما معنى، فقال الله عند قولهم ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ حيث جعلوا الإله الواحد آلهة وخصوص وصفة أنه إله وبه يتميز فلا يتكثر بما به يتميز، ويشهد لهذا النظر قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فعصم الله هذا الاسم الله أن يقع فيه اشتراك فهم يعلمون أنهم نصبوهم آلهة، ولهذا وقع الذمّ عليهم بقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] والإله من له الخلق والأمر من قبل ومن بعد.

وأما لطفه بهم في هذا الإشهاد فهو القبض والقبض يقتضي القهر فما أقروا به إلا مع القهر، فالمشرك منهم أقرّ على كره فلما تخيلوا أنهم قد خرجوا من القبضة لجهلهم بما هو الأمرعليه قالوا بالشركة، فإذا قيل لهم في ذلك احتجوا بما كانوا عليه من القبض فيعذرون في دعواهم أنهم ما ادّعوا ذلك إلا جبراً لا اختياراً والحكم في الأشياء للأحوال، فمن راقب أحواله علم من أين صدر، فلا يخلو هذا المراقب إما أن يكون ميزان الشريعة بيده فإنه يرى بعين إيمانه إن كان من أهل الإيمان، أو بعين شهوده إن كان من أهل الشهود، ومن لم يكن له إحدى هذين العينين فهو أعمى، فيرى الحق والميزان بيده يخفض ويرفع فيقتدي بربه ويتأسى وما عنده إلا ميزان ما شرع له لا يلتفت مع الإيمان إلى ميزان عقله فيزن ما يرد عليه من الأحوال من جانب ربه فيخفض ويرفع ويزيد في الناقص وينقص من الزائد فيأخذ من عباده بالعدل ويعطي بالفضل، فلا يزال ما دام هذا الميزان بيده معصوماً في مراقبته، ويصح عنده أنه عند الاسم الرقيب لأنه قد تحقق بنعته بسيده، فأسعد العبيد من يراقب سيده مراقبة سيده إياه، فيراقب الحق مراقبة عبده لمن يراقب فيكون معه بحيث يرى منه، ومن ملك المراقبة كان له التصريف كيف شاء في المراقب فإن الله مع عبده حيث كان: [مجزوء الخفيف]

هــكــذا الأمْــرُ فــاعْــتَــبِــرْ ... واحْــفَــظِ الــسِّــرَّ وازْدَجِــرْ

إنــمــا الأمْــرُ مِــثْــلُ مَــا ... قُــلْــتُــهُ فــيــه فــافْــتَــكِــرْ

فالعبد وإن كان مقيداً بالشرع فإن الشرع قد جعله مسرح العين في تصرّفه ويحمده الميزان ويذمه، والمراقب معه أينما كان من محمود ومذموم فإذا كان العبد هو المراقب ولا

يرى الحق مجرّداً عن الخلق تجريد تنزيه وتقديس أبداً لأنه لا تصح هناك مراقبة، فلا بدّ أن يراه في الخلق في حضرة الأفعال فيكون المراقب وهو العبد حيث كان الحق من خلقه لأنه في الخلق يشهده فينظر ما يقتضيه ذلك الأثر في ذلك الخلق المعين فيزنه بالميزان الموضوع ويكون معه بحسب ما يعطيه ميزان الحق فينظر أيّ اسم إلهي يكون له الحكم في ذلك الأمر الموزون فيتوجه إليه باسم إلهيّ يكون عليه هذا المراقب الذي هو العبد كان ما كان من الأسماء الإلهية، فإن كان يقتضي ما لا يوافق غرضه ولا يلائم مزاجه ولا يحمده شرعه سأل رفع ذلك الحكم منه إن كان نظره شرعاً بالتوبة والمغفرة، وإن كان ذا غرض سأل الموافقة، وإن كان ممن يقول بالملائمة سأل الأصلح والأولى طبعاً فهو بحسب ما يكون عليه في حاله: [الطويل]

فمن مَلَكَ الرُّقْبَى فقد مَلَكَ الكُلاً ... ومن مَلَكَ الكُلَّ يصحُّ له الجُزْءُ
فلا تَغْمَ عن إدراك كُلِّ مراقبٍ ... فقد بانَتِ الأسرارُ إذ أُخْرِجَ الخَبْءُ
فإن الرقيبَ الحَقَّ في كل حالةٍ ... لديه قَبُولُ الحال إن شاء والدَّرْءُ
فمن راقبَ الحَقَّ الرقيبَ بعينه ... فذاك الرقيبُ الحقُّ والمثل والكُفْءُ
فللخَلْقِ أحكامٌ إذا هي حُقِّقَتْ ... يكون له منها الإعادةُ والبدْءُ
ويظهرُ في الحق الذي قلت مثل ما ... يضافُ إلى المخلوق في كونه النَّشْءُ
دليلي حُدُوثُ الصّور في كل ناظر ... إليه وما في كل ما قلتُه هُزْءُ

حضرة الإجابة

[نظم: الخفيف]

كن مجيباً إذا الإلٰهُ دَعَاكا ... وسميعاً لما دَعاكَ مُطِيعَا
واحْفَظِ السِّرَّ لا تكن يا وَلِيِّي ... للذي خَصَّكُمْ بذاك مُذِيعَا
فإذا ما دعاك في حَقّ شخصٍ ... كُنْ مُجيباً لما دعاك سَمِيعا
لا تكن كالذي أتاه حريصاً ... فإذا ما استفاد كان مُضِيعَا
كُلُّ من ضاعت الأمورُ لديه ... إنه قد أتى حديثاً شَنِيعَا

يدعى صاحبها عبد المجيب وتسمى حضرة الانفعال، فإن صاحب هذه الحضرة أبداً لا يزال منفعلاً، وهو قولهم في المقولات أن ينفعل، وهذا حكم ما يثبت عقلاً وإنما يثبت شرعاً فلا يقبل إلا بصفة الإيمان وبنوره يظهر وبعينه يدرك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ يعني منكم ولا أقرب من نسبة الانفعال، فإن الخلق منفعل بالذات والحق منفعل هنا عن منفعل فإنه مجيب عن سؤال ودعاء ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وهو الموجب للإجابة ﴿إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى﴾ [البقرة: ١٨٦] إذا دعوتهم، وما دعاهم إليه إلا بلسان الشرع فما دعاهم إلا بهم فإنه تلبس بالرسول فقال: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فقرّر أنه ما جاء منه إلا به فما فارقه ولا شاهد الخلق المبعوث إليهم إلا الرسول، فظاهره خلق وباطنه حق كما

قال في البيعة: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وما في الكون إلا فاعل ومنفعل فالفاعل حق وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] والفاعل خلق وهو قوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤] و﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] والمنفعل خلق وهو معلوم، وخلق في حق وهو الإجابة، وحق في خلق وهو ماانطوت عليه العقائد في الله من أنه كذا وكذا وخلق في خلق وهو ما تفعله الهمم في المخلوقات من حركات وسكون واجتماع وافتراق.

ثم اعلم أن الإجابة على نوعين: إجابة امتثال وهي إجابة الخلق لما دعاه إليه الحق، وإجابة امتنان وهي إجابة الحق لما دعاه إليه الخلق، فإجابة الخلق معقولة، وإجابة الحق منقولة لكونه تعالى أخبر بها عن نفسه، وأما اتصافه بالقرب في الإجابة فهو اتصافه بأنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، فشبه قربه من عبده قرب الإنسان من نفسه إذا دعا نفسه لأمر ما تفعله فتفعله، فما بين الدعاء والإجابة الذي هو السماع زمان بل زمان الدعاء زمان الإجابة، فقرب الحق من إجابة عبده قرب العبد من إجابة نفسه إذا دعاها، ثم ما يدعوها إليه يشبه في الحال ما يدعو العبد ربه إليه في حاجة مخصوصة فقد يفعل له ذلك وقد لا يفعل كذلك دعاء العبد نفسه إلى أمر ما، قد تفعل ذلك الأمر الذي دعاها إليه وقد لا تفعل لأمر عارض يعرض له، وإنما وقع هذا الشبه لكونه مخلوقاً على الصورة وهو أنه وصف نفسه في أشياء بالتردد، وهذا معنى التوقف في الإجابة فيما دعا الحق نفسه إليه فيما يفعله في هذا العبد، وقد ثبت هذا في قبضه نسمة المؤمن فإن المؤمن يكره الموت، والله يكره مساءة المؤمن فقال عن نفسه سبحانه: «مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي» فأثبت لنفسه التردد في أشياء ثم جعل المفاضلة في التردّد الإلهي فقال تعالى: «تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَسْمَةِ الْمُؤْمِنِ» الحديث، فهذا مثل من يدعو نفسه لأمر ما ثم يتردّد فيه حتى يكون منه أحد ما يتردّد فيه. والدعاء على نوعين: دعاء بلسان نطق وقول ودعاء بلسان حال، فدعاء القول يكون من الحق ومن الخلق، ودعاء الحال يكون من الخلق ولا يكون من الحق إلا بوجه بعيد. والإجابة للدعاء بلسان الحال على نوعين: إجابة امتنان على الداعي وإجابة امتنان على المدعوّ، فأما امتنانه على الداعي فقضاء حاجته التي دعاه فيها وامتنانه على المدعوّ فإنه بها يظهر سلطانه بقضاء حاجته فيما دعاه إليه، وللمخلوق في قبوله ما يظهر فيه الاقتدار الإلهي رائحة امتنان، ولهذه القوّة الموجودة منّ من منّ على رسول الله ﷺ بالإسلام فقال تعالى تأنيساً له: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ثم أمره أن يقول لهم فقال يا محمد ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] فتلك المنة الواقعة منهم إنما هي على الله لا على رسوله ﷺ فإنهم ما انقادوا إلا إلى الله لأن الرسول ما دعاهم إلى نفسه وإنما دعاهم إلى الله فقوله لهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني في إيمانكم بما جئت به، فإنه مما جئت به أن الهداية بيد الله يهدي بها من يشاء من عباده لا بيد المخلوق. ثم إن النبي ﷺ أبان عما ذكرناه من أن لهم رائحة في الامتنان: **«أَمَا والله لَوْ شِئْتُمْ أَنْ تَقُولُوا لَقُلْتُمْ»** وذكر نصرة الأنصار وكونهم أووه حين طرده قومه، وأطاعوه

حين عصوه قومه، فأشبهوا فيما كان منهم بما قرّره رسول الله ﷺ من ذلك قوله تعالى لنبيه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى] ولما كانت النعم محبوبة لذاتها وكان الغالب حب المنعم حتى قالت طائفة: إن شكر المنعم واجب عقلاً جعل الله التحدث بالنعم شكراً فإذا سمع المحتاج ذكر المنعم مال إليه بالطبع وأحبه فأمره أن يتحدث بنعم الله عليه فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] حتى يبلغ القاصي والداني، وقال في الإنسان: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ يعني في العلم ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠] ومن هذا الأمر ذكر أهل الله ما أنعم الله به عليهم من المعارف والعلم به والكرامات، فإن النعم ظاهرة وباطنة وقد أسبغها على عباده كما قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] فهذا بعض ما يعطيه هذه الحضرة من الانفعال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حضرة السعة

[نظم: مجزوء الخفيف]

إنّما الواسعُ الذي	وَسِعَ الكُلَّ خَلْقُهُ
فإذا ما خَلا بنا	نازع الحقّ خَلْقُهُ
وزَها بالذي بدا	من سَنَا الشَّمْسِ أُفْقُهُ
فهي فينا بنُورها	وأنا فيه حَقُّهُ

يدعى صاحبها عبد الواسع، قالت الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فقدمت الرحمة على العلم لأنه أحب أن يعرف والمحب يطلب الرحمة به، فكان مقام المحب الإلهي أول مرحوم، فخلق الخلق وهو نفس الرحمن، وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فعم بكل كل مرحوم وما ثم إلا مرحوم، ومن كان علمه بالشيء ذوقاً وكان حاله فإنه يعلم ما فيه وما يقتضيه من الحكم، وقد قال الترجمان ﷺ: **«إنَّ المُؤمِنَ لا يَكْمُلُ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»** وقد علمنا أن له الكمال وأنه المؤمن وأن العالم على صورته فقد ثبتت الأخوة بالصورة والإيمان لأنه ما ثم إلا قائل به مؤمن مصدق بوجوده، فإنه ما من شيء إلا يسبح بحمده وما من شيء إلا وسعته رحمته كما وسعه تسبيحه وحمده، فهو الواسع لكل شيء، ولهذا الاتساع هو لا يكرّر شيئاً في الوجود، فإن الممكنات لا نهاية لها، فأمثال توجد دنيا وآخرة على الدوام وأحوال تظهر وقد﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ وهو علمه ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ووسعت رحمته علمه والسموات والأرض وما ثم إلا سماء وأرض فإنه ما ثم إلا أعلى وأسفل ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فلا أعلى بعده، ولو دليتم بحبل لهبط على الله فلا أنزل منه وما بينهما فينزل إلى العلو الأدنى وهو السماء الأولى من جهتنا فإنها السماء الدنيا أي القريبة إلينا، وما نزل ليعذب ويشقي بل يقول: هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ وما يخلو شيء من سؤال بخير في حق نفسه هل من تائب فأتوب عليه؟ وما من شيء إلا ويرجع في ضرورته إذا انقطعت به الأسباب إليه، هل من

مستغفر فأغفر له؟ وما من شيء إلا وهو مستغفر في أكثر أوقاته لمن هو إله، ولم يقل إنه ينزل ليعذب عباده الذين نزل في حقهم، ومن كان هذا نعته وعذب فعذابه رحمة بالمعذب وتطهير كعذاب الدواء للعليل فيعذبه الطبيب رحمة به لا للتشفي ثم اتساع العطاء فإنه أعطى الوجود أولاً وهو الخير الخالص، ثم لم يزل يعطي ما يستحقه الموجود مما به قوامه وصلاحه كان ما كان فهو صلاح في حقه، ولهذا أضاف العارف به المترجم عنه كلمة الحضرة ولسان المقام الإلهي رسوله ﷺ الخير إليه فقال: **«وَالخَيرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ»** ونفى الشر أن يضاف إليه فقال: **«وَالشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ»**.

وقد بينا أنه ما ثم معطٍ إلا الله فما ثم إلا الخير سواء سر أم ساء، فالسرور هو المطلوب وقد لا يجيء إلا بعد إساءة، لما يقتضيه مزاج التركيب وقبول المحل لعوارض تعرض في الوجود وكل عارض زائل، ولهذا يسمى بالمعطي والمانع والضارّ والنافع، فعطاؤه كله نفع، غير أن المحل في وقت يجد الألم لبعض الأعطيات فلا يدرك لذة العطاء فيتضرّر بذلك العطاء ولا يعلم ما فيه من النفع الإلهي فيسميه ضاراً من أجل ذلك العطاء، وما علم أن ذلك من مزاج القابل لا من العطاء. ألا ترى الأشياء النافعة لأمزجة ما كيف تضرّ بأمزجة غيرها؟ قال الله في العسل إنه شفاء للناس، فجاء رجل لرسول الله ﷺ فقال له: إن أخي استطلق بطنه فقال: **«اسْقِهِ عَسَلاً»** فسقاه عسلاً فزاد استطلاقه فرجع فأخبره فقال: **«اسقه عسلاً»** فزاد استطلاقه، وما علم هذا الرجل ما علمه رسول الله ﷺ من ذلك فإنه كان في المحل فضلات مضرّة لا يمكن إخراجها إلا بشرب العسل فإذا زالت عنه اعقبته العافية والشفاء فلما رجع إليه قال له: يا رسول الله سقيته عسلاً فزاد استطلاقه فقال: **«صَدَقَ الله وكَذَبَ بَطْنُ أخيك، اسْقه عَسَلاً»** في الثالثة فسقاه فبرىء. فإنه استوفى خروج الفضلات المضرة، وكالذي يغلب على العضو الحامل للطعم المرة الصفراء فيجد العسل مراً فيقول: العسل مر فكذب المحل في إضافة المرارة إلى العسل لأنه جهل أن المرة الصفراء هي المباشرة لعضو الطعم فأدرك المرارة فهو صادق في الذوق والوجدان كاذب في الإضافة، فالقوابل أبداً هي التي لها الحكم فما من الله إلا الخير المحض كله، فمن اتساعه رحمته أنها وسعت الضرر فلا بد من حكمه في المضرور، فالضرر في الرحمة ما هو ضرر وإنما هو أمر خير بدليل أنه بعينه إذا قام بالمزاج الموافق له التذ به وتنعم وهو هو ليس غيره، فالأشياء إلى الله إنما تضاف إليه من حيث إنها أعيان موجودة عنه، ثم حكم الالتذاذ بها أو غير الالتذاذ إنما هو راجع إلى القابل، ولو علم الناس نسبة الغضب إلى الله لعلموا أن الرحمة تسع الكل، فإن القادر على إزالة الألم عن نفسه لا يتركه فقامت الأحوال من الخلق والمواطن للحق مقام المزاج للحيوان، فيقال في الحق إنه يغضب إذا أغضبه العبد ويرضى إذا أرضاه العبد فحال العبد والموطن يرضي الحق ويغضبه، كالمزاج للحيوان يلتذ بالأمر الذي كان بالمزاج الآخر يتألم به فهو بحسب المزاج كما هو الحق بحسب الحال والمواطن، ألا ترى في نزوله إلى السماء الدنيا ما يقول فإنه نزول رحمة يقتضيها الموطن، وإذا جاء يوم القيامة يقتضي المواطن أنه يجيء للفصل والقضاء بين العباد

لأنه موطن يجمع الظالم والمظلوم وموطن الحكم والخصومات، فالحكم للمواطن والأحوال في الحق والحكم في التألم والالتذاذ والتلذذ للمزاج ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] أي واسع الستر، فما من شيء إلا وهو مستور بوجوده وهو الستر العام، فإنه لو لم يكن ستر لم يقل عن الله هو ولا قال أنت فإنه ما ثم إلا عين واحدة فأين المخاطب أو الغائب؟ فلهذا قلنا في الوجود إنه الستر العام ثم الستر الآخر بالملائم وعدم الملائم فهو واسع المغفرة وهي حضرة إسبال الستور، وقد تقدم الكلام عليها في هذا الباب ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] والستر وقاية والغفران هو الستر، فالعبد يتقي بالستر ألم البرد والحر إذا علم من مزاجه قبول ألم الحر والبرد، فإن الحر والبرد ما جاءا إلا لمصالح العالم ليغذي النبات الذي هو رزق العالم فيبرزه لينتفع به فيكون جسم الحيوان على استعداد يتضرر به فيقول: إني تأذيت بالحر والبرد، وإذا رجع مع نفسه لما قصد بهما بحسب ما يعطيه الفصول علم أنه ما جاء إلا لنفعه فتضرّر بما به ينتفع والغفلة أو الجهل سبب هذا كله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحكيم * حضرة الحكمة

[نظم: البسيط]

إنّ الحَكِيمَ الذي مِيزَانُهُ أبَداً ... بالرَّفْعِ والخَفْضِ مَنْعُوتٌ ومَوْصُوفُ

يُرَتِّبُ الأَمْرَ تَرتِيباً يُرِيكَ بِهِ ... عِلْماً وفيه إذا فَكَّرْتَ تَعرِيفُ

بأنه الله فَرْدٌ لا شَرِيكَ لَهُ ... في مُلْكِه وله في الخَلْقِ تَصْرِيفُ

مِيزَانُهُ الحَقُّ لا خُسْرانَ يَلْحَقُهُ ... ولا يقوم به في الوزن تَطْفِيفُ

يدعى صاحبها عبد الحكيم. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وما كثره الله لا تدخله قلة، كما أن ما عظم الله ما يدخله احتقار، وامتن على داود بأن آتاه الحكمة وفصل الخطاب وهو من الحكمة، فإنه لفصل الخطاب موطن يعطي الحكمة لصاحبها أن لا يظهر منه في ذلك الموطن إلا فصل الخطاب، وهو الإيجاز في البيان في موطنه لسامع خاص لذي حال خاص، والإسهاب في البيان في موطنه لسامع خاص ذي حال خاص، ومراعاة الأدنى أولى من مراعاة الأعلى، فإن ذلك من الحكمة، فإن الخطاب للإفهام، فإذا كرر المتكلم الكلام ثلاث مرات حتى يفهم عنه كما كان كلام رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن الله للناس يراعي الأدنى ما يراعي من فهم من أول مرّة، فيزيد صاحب الفهم في التكرار أموراً لم تكن عنده أفادها إياه التكرار، والأدنى الذي لم يفهم فهم الأوّل فهم بالتكرار ما فهمه الأوّل بالقول الأول. ألا ترى العالم الفهم المراقب أحواله يتلو المحفوظ عنده من القرآن فيجد في كل تلاوة معنى لم يجده في التلاوة الأولى، والحروف المتلوة هي بعينها ما زاد فيها شيء ولا نقص، وإنما الموطن والحال تجدّد ولا بد من تجدده، فإن زمان التلاوة الأولى ما هو زمان التلاوة الثانية فافهم، فتعطي هذه الحضرة علم الترتيب، وإعطاء كل شيء حقه وإنزاله منزلته، فيعلم العبد المراقب أن الله هو واضع الأشياء وهو الحكيم، فما

وضع شيئاً إلا في موضعه، ولا أنزله إلا منزلته، فلا تعترض على الله فيما رتبه من الكائنات في العالم في كل وقت، ولا يرجح نظره وفكره على حكمة ربه فيقول: لو كان كذا في هذا الوقت لكان أحسن في النظم من الترتيب فما أخطأ إلا في قوله في هذا الوقت لا في قوله لو كان كذا لكان أحسن، فلما غابت عنه حكمة الوقت تخيل أن ذلك الذي هو أحسن أن هذا الوقت يقتضيه وهذا نظر عقلي، فإن الأزمنة لكل ممكن على نسبة واحدة، فليس زمان لشيء بأولى من زمان آخر، ولكن أين فائدة المرجح إلا علمه بالزمان وما يقتضيه لأنه خالق الزمان، وما هذا الناظر خالق الزمان فهو يعلم ما خلق، فما رتب فيه إلا ما استحقه بخلقه فإنه أعطى كل شيء خلقه، فالحكيم من حكمته الحكمة فصرّفته لا من حكم الحكمة فإنه من حكم الحكمة له المشيئة فيها، ومن حكمته الحكمة فهي المصرّفة له، وإذا قامت الصفة بالموصوف أعطته حكمها عطاء واجباً قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩] فالحكم للقول وذلك ليس إلا لله أو لرجل متحقق بالله طالع القول الإلهي.

ومن هنا تعلم ما هو النسخ، فإن مفهوم النسخ في القائلين به رفع الحكم بحكم آخر كان ما كان من أحكام الشرع، فإن السكوت من الشارع في أمر ما حكم على ذلك المسكوت عنه فما ثم إلا حكم فهو تبديل، وقد قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فما ثم نسخ على هذا القول، ولو كان ثم نسخ لكان من الحكمة، وصورته أن الزمان إذا اختلف اختلف الحكم بلا شك، فالنسخ ثابت أبداً لأن الاختلاف واقع أبداً، فالحكمة تثبت النسخ والحكمة ترفع النسخ ولكن في مواطن معينة تطلبها لذاتها فيوفيها الحكيم ما تستحقه من ذلك، فالحكيم من قامت به الحكمة فكان الحكم لها به كما كان الحكم له بها فهو عينها وهي عينه، فالحكمة عين الحاكم عين المحكوم به عين المحكوم عليه، فالحكمة علم خاص وإن عمت، والفرق بينها وبين العلم أن الحكمة لها الجعل والعلم ليس كذلك، لأن العلم يتبع المعلوم والحكمة تحكم في الأمر أن يكون هكذا، فيثبت الترتيب في أعيان الممكنات في حال ثبوتها بحكمة الحكيم، لأنه ما من ممكن يضاف إلى ممكن إلا ويمكن إضافته إلى ممكن آخر لنفسه، لكن الحكمة اقتضت بحكمها أن ترتبه كما هو بزمانه وحاله في حال ثبوته، وهذا هو العلم الذي انفرد به الحق تعالى وجهل منه وظهر به الحكم في ترتيب أعيان الممكنات في حال ثبوتها قبل وجودها، فتعلق بها العلم الإلهي بحسب ما رتبها الحكيم عليه، فالحكمة أفادت الممكن ما هو عليه من الترتيب الذي يجوز خلافه، والترتيب أعطى العالم العلم بأن الأمر كذا هو، فلا يوجد إلا بحسب ما هو عليه من الثبوت الذي هو ترتيب الحكيم عن حكم الحكمة، فقد بان لك الفرقان بين العلم والحكمة فما يبدل القول لديه فإنه ما يقول إلا ما رتبته الحكمة، كما أنه ما علم إلا ما رتبته الحكمة فيقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] بالحال الذي هو عليه كان ما كان. فمن هذه القوّة يقول الناظر في الأمر: لو كان كذا لجوازه عنده فإذا علم حكمة الله يقول بأنه يجهل حكمة الله في هذا الوضع الذي يقتضي في نظري لو كان خلافه لكان أحسن لكن لله فيه علم لا أعرفه وصدق، ومن الناس من يفتح له في سر ذلك الترتيب، ومن الناس من لا يعلم ذلك إلا بعدما يقع حكمه في الوجود، فيعلم عند

ذلك حكمة ذلك الأمر ويعلم جهله بالمصالح وهذا كثير، اتفاقه في العالم يكون الشخص يتسخط بالأمر الذي لا يوافق غرضه ولا نظره، وينسب مثلاً الحاكم به إلى الجور فإذا ظهرت منفعة ذلك الحكم الذي تسخطت به عاد المتسخط يحمد الله ويشكر ذلك الحكم والحاكم على ما فعل حيث رفع الله به ذلك الشرّ العظيم الذي لو لم يكن هذا الحكم لوقع بالمحكوم عليه ذلك الشرّ وهذا يجري كثيراً، فغاية العارفين أنهم يعلمون بالجملة أن الظاهر في الوجود والواقع إنما هو في قبضة الحكمة الإلهية، فيزول عنه التسخط والضجر ويقوم به التسليم والتفويض إلى الله في جميع الأمور كما جاء: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، هذا هو حكم الحكمة لمن عقل عن الله، ومثل هذا الشخص قد استعجل النعيم فإنه يتفرح، وإذا كان هذا حاله فإن الله في أغلب الأحوال يطلعه في سرّه على حكمه الواقع في الحال الذي لا يرضى به العباد، فإنه كل ما وقع به الرضى فقد علمت حكمته فإنه يراها الراضي موافقة لغرضه، وإنما يقع النزاع والجهل فيما لا يوافق الغرض ولا الترتيب الوهمي، فإن العقل لا يعطي صاحبه في الواقع إلا الوقوف فإنه يدري ممن صدر، وإنما الوهم الذي هو على صورة العقل له ذلك النظر المرجح، وحاشا العقل أن يرجح على الله ما لم يرجحه الله، وما رجح الله إلا الواقع فأوقع ما أوقع حكمة منه، وأمسك ما أمسك حكمه منه وهو الحكيم العليم؛ فالعارف عنده الحكيم يتقدم العليم والعامي يقدم العليم ثم الحكيم وقد ورد الأمران معاً، فالحكيم خصوص والعليم عموم، ولذلك ما كل عليم حكيم وكل حكيم عليم فالحكمة الخير الكثير: [مجزوء الرمل]

فهي الخَيْرُ الكَثيرُ ... وهي البَذْرُ المُنِيرُ
تختفي وقتاً وتبدو ... هكذا قال الخَبِيرُ
فبها خَفِيَتْ علينا ... وبها كان الظهورُ

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. انتهى السفر الثاني والثلاثون بانتهاء حضرة الحكمة لعبد الحكيم والحمد لله وحده.

[السفر الثالث والثلاثون]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

الوداد * حضرة الود

[نظم: الوافر]

ألا إن الوِدَادَ هو الثَّبَاتُ ... على حال يُزَعْزِعُهُ الشَّتَاتُ
ويجمعنا وإياه مقامٌ ... إذا تبدو على الوجه السِّماتُ
بِوَادٍ لا أنيسَ به وأرْضٍ ... تُزَيِّنُها الأزاهرُ والنَّباتُ

أزاهِـرُهُ الـبَـنُـونُ إذا تـراهـم ... عـلـى كُـرْسِـيِّـهِ وكـذا الـبَـنَـاتُ
إذا خـافـوا يُـؤَمِّـنُـهُـم صـبـاحٌ ... ولـيـس يُـخِـيـفُـهُـمْ إلا الـبَـيَـاتُ

يدعى صاحبها عبد الودود. قال الله تعالى في أصحاب هذه الحضرة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وفي الحديث الصحيح: «**إذا أَحبَّ الله عَبْدَهُ كَانَ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ**» وقواه ثابتة له لا تزول، وإن كان أعمى أخرس فالصفة موجودة خلف حجاب العمى والخرس والطرش فهو ثابت المحبة من كونها وداً، فإن هذه الصفة لها أربعة أحوال لكل حال اسم تعرف به وهي: الهوى والود والحب والعشق، فأوّل سقوطه في القلب وحصوله يسمى هوى من هوى النجم إذا سقط، ثم الود وهو ثباته، ثم الحب وهو صفاؤه وخلاصه من إرادته فهو إرادة محبوبه، ثم العشق وهو التفافه بالقلب مأخوذ من العشقة اللبلابة المشوكة التى تلتف على شجرة العنبة وأمثالها، فهو يلتف بقلب المحب حتى يعميه عن النظر إلى غير محبوبه.

تنبيه: وكيف لا يحب الصانع صنعته ونحن مصنوعاته بلا شك فإنه خالقنا وخالق أرزاقنا ومصالحنا أوحى الله إلى بعض أنبيائه: يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي فلا تهتك ما خلقت من أجلي فيما خلقت من أجلك. يا ابن آدم إني وحقي لك محب فبحقي عليك كن لي محباً والصنعة مظهرة علم الصانع لها بالذات واقتداره وجماله وعظمته وكبرياءه، فإن لم يكن فعلى من وفيمن وبمن؟ فلا بد منا ولا بد من حبه فينا فهو بنا ونحن به كما قال ﷺ في ثنائه على ربه: «**فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ**» وهذه حضرة العطف والديمومة: [الوافر]

فـلـولا الـحُـبُّ مـا عُـرِفَ الـوِدَادُ ... ولـولا الـفَـقْـرُ مـا عُـبِـدَ الـجَـوادُ
فـنـحـن بـه ونـحـن لـه جـمـيـعـاً ... فـمـن وُدِّي عـلـيـه الاعْـتِـمَـادُ
إذا شـاء الإلٰـهُ وُجُـودَ عَـيْـنٍ ... بـهـا قـد شـاءهـا فـمَـضَـى الـعِـنَـادُ
فـكـنّـا عِـنـدَ «كُـنْ» مـن غـيـر بُـطْءٍ ... ونـعـت الـكـون ذاك الـمـسـتـفـادُ
فـعَـيْـنُ الـحُـبِّ عَـيْـنُ الـكَـوْنِ مـنـه ... وعـيـنـه وأظـهـره الـودادُ

فلم يزل يحب فلم يزل ودوداً، فهو يوجد دائماً في حقنا، فهو كلّ يوم في الشأن؛ ولا معنى للوداد إلا هذا، فنحن بلسان الحال والمقال لا نزال نقول له: افعل كذا افعل كذا، ولا يزال هو تعالى يفعل ومن فعله فينا نقول له: افعل أترى هذا فعل مكره ولا مكره له تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً بل هذا حكم الاسم الودود منه، فإنه الغفور الودود ذو العرش المجيد الذي استوى عليه بالاسم الرحمن، فإنه ما رحم إلا صبابة المحب وهي رقة الشوق إلى لقاء المحبوب، ولا يلقاه إلا بصفته وصفته الوجود فأعطاه الوجود، ولو كان عنده أكمل من ذلك ما بخل به عليه كما قال الإمام أبو حامد في هذا المقام: ولو كان وادّخره لكان بخلاً ينافي الجود وعجزاً يناقض القدرة، فأخبر تعالى أنه الغفور الودود أي الثابت المحبة في غيبه، فإنه عز وجلّ يرانا فيرى محبوبه فله الابتهاج به والعالم كله إنسان واحد هو المحبوب، وأشخاص

العالم أعضاء ذلك الإنسان، وما وصف المحبوب بمحبة محبه وإنما جعله محبوباً لا غير. ثم إن من رزقه أن يحبه كحبه إياه أعطاه الشهود ونعمه بشهوده في صور الأشياء، فالمحبون له من العالم بمنزله إنسان العين من العين، فالإنسان وإن كان ذا أعضاء كثيرة فما يشهد ويرى منه إلا العينان خاصة فالعين بمنزلة المحبين من العالم، فأعطى الشهود لمحبيه لما علم حبهم فيه وهو عنده علم ذوق ففعل مع محبيه فعله مع نفسه، وليس إلا الشهود في حال الوجود الذي هو محبوب للمحبوب، فما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فما خلقهم من بين الخلق إلا لمحبته، فإنه ما يعبده ويتذلل إليه إلا محب، وما عدا الإنسان فهو مسبح بحمده لأنه ما شهده فيحبه، فما تجلى لأحد من خلقه في اسمه الجميل إلا للإنسان وفي الإنسان في علمي فلذا ما فني وهام في حبه بكليته إلا في ربه أو فيمن كان مجلى ربه، فأعين العالم المحبون منه كان المحبوب ما كان، فإن جميع المخلوقين منصات تجلي الحق، فودادهم ثابت فهم الأوداء وهو الودود والأمر مستور بين الحق والخلق بالخلق والحق، ولهذا أتى مع الودود الاسم الغفور لأجل الستر فقيل: قيس أحب ليلى فليلى عن المجلى، وكذلك بشر أحب هنداً وكثير أحب عزة، وابن الذريح أحب لبنى، وتوبة أحب الأخيلية، وجميل أحب بثينة، وهؤلاء كلهم منصات تجلى الحق لهم عليها وإن جهلوا من أحبوه بالأسماء، فإن الإنسان قد يرى شخصاً فيحبه ولا يعرف من هو ولا يعرف اسمه ولا إلى من ينتسب ولا منزله، ويعطيه الحب بذاته أن يبحث عن اسمه ومنزله حتى يلازمه ويعرفه في حال غيبته باسمه ونسبه فيسأل عنه إذا فقد مشاهدته، وهكذا حبنا الله تعالى نحبه في مجاليه. وفي هذا الاسم الخاص الذي هو ليلى ولبنى أو من كان ولا نعرف أنه عين الحق فهنا نحب الاسم ولا نعرف أنه عين الحق، فهنا نحب الاسم ولا نعرف العين، وفي المخلوق تعرف العين وتحب وقد لا يعرف الاسم ويأبى الحب إلا التعريف به أي بالمحبوب، فمنا من يعرفه في الدنيا ومنا من لا يعرفه حتى يموت محباً في أمر ما فينقدح له عند كشف الغطاء أنه ما أحب إلا الله وحجبه اسم المخلوق كما عبد المخلوق هنا من عبده، وما عبد إلا الله من حيث لا يدري، ويسمى معبوده بمناة والعزى واللات، فإذا مات وانكشف الغطاء علم أنه ما عبد إلا الله فالله يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي حكم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وكذلك كان عابد الوثن لولا ما اعتقد فيه الولهة بوجه ما عبده إلا أنه بالستر المسدل في قوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] لم يعرفه وليس إلا الأسماء ولذلك قال المعبود الحقيقي في نفس الأمر لما أضافوا عبادتهم إلى المجالي والمنصات: قل سموهم فإذا سموهم عرفوهم وإذا عرفوهم عرفوا الفرق بين الله وبين من سموه كما تعرف المنصة من المتجلي فيها فتقول هذه مجلى هذا فيفرّق: [مخلع البسيط]

فهكذا الأمْر إنْ عقلنا ... فإن تكن فيه كُنْتَ أَنْتَا
مِنَصَّةُ الحَقّ أنت حقّاً ... فأنت ما أنت حين أَنْتَا
فقد مَلَكْتَ الذي أَرْدتَا ... وقد علمت الذي عَبَدْتَا

فليس ليلى وليس لبنى | سوى الذي أنت قد علمتا
إن كنت في حُبِّه بصيراً | تشهده منك أنت أَنْتَا
فما أَحَبَّ المُحِبُّ غَيْراً | سواه فالكل أنت أنتا

فما أعجب القرآن في مناسبة الأسماء بالأحوال ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٤ ـ ١٦] فهو المحب وهو فعال لما يريد، فهو المحبوب لأن المحبوب فعال لما يريد بمحبوبه، والمحب سامع مطيع مهيأ لما يريد به محبوبه لأنه المحب الودود أي الثابت على لوازم المحبة وشروطها والعين واحدة، فإن الودود هنا هو الفعال لما يريد، فانظر في هذا التنبيه الإلهي ما أعجبه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٤] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المجد * حضرة المجد

يدعى صاحبها عبد المجيد والقرآن المجيد وهو كلامه تعالى فهو عينه: [مجزوء الخفيف]

حَضْرَةُ المَجْدِ والشَّرَفْ | حَضْرَةُ الزَّهْو والصَّلَفْ
فذووا مَجْدِنا فَمِنْ | بَخْرِهَا الكُلُّ يَغْتَرِفْ
فإذا ما تَمَجَّدَتْ | عَيْنُهُ قام يَنْصَرِفْ
لقُصُورٍ له بها | خادمُ العزِّ قد وَقَفْ
فتَحَلَّى بحِلْيَةٍ | وَهَبَتْهُ حُكْمَ النَّصَفْ
وَهَبَتْهُ نَصِيفَها | وبه قام فالتَحَفْ
نحن للجوهر المكـ | ـوّن في عيننا صَدَفْ

إذا قال المصلي: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] يقول الحق: مجدني عبدي أي جعل لي الشرف عليه كما هو الأمر في نفسه، فانظر إلى هذا الاعتراف وهو الحق الذي له المجد بالأصالة والكلام كلامه بلا خلاف فإنه القرآن، وقال عن نفسه إنه يقول عند ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ «مَجّدني عَبْدي» وهو تنبيه إلهي من الله على أن الأمر إضافي، فإنه إذا لم يكن هناك من يشرف عليه كوناً ثابتاً أو عيناً كائنة فعلى من يشرف ويتمجد فما أعطاه المجد إلا وجود العبد، فما قال الحق في قوله «مَجَّدني عبدي» إلا حقاً: [الوافر]

فلو زُلْنا لزال المَجْدُ عَنْهُ | فتَمْجيدي له المَجْدُ التَّلِيدُ
تَوَلَّدَ عن وجود القول مني | كذا قال الإلهُ لِيَ المَجِيدُ
وقلناه بعلم واعتقادٍ | فجاء لشُكْرنا منه المَزِيدُ
فكان هو المُرَادَ بعَيْنِ قولي | كما قد كان في الأصل المُرِيدُ
له حُكْمُ التَّحكُّمِ في وجودي | هو الفَعَّالُ فينا ما يُرِيدُ

وليس يريد إلا كلَّ ما لا | وُجودَ له فحَقِّق ما أريدُ
فليس يريد عيني حال كوني | فكون الكائنات هو الوجودُ
فقد شَهِدَتْ إرادتُهُ عليه | بأن مُرَادَهُ أبداً فَقِيدُ

فلما قال: «مجدني عبدي» عند قول المصلي: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ علمنا أنه قال: أعطاني عبدي المجد والشرف على العالم في الدنيا والآخرة لأني جازيت العالم على أعمالهم في الدنيا والآخرة، فيوم الدين هو يوم الجزاء، فإن الحدود ما شرعت في الشرائع إلا جزاء، وما أصابت المصائب من إصابته إلا جزاء بما كسبت يده مع كونه يعفو عن كثير، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وكذلك ما ظهر من الفتن والخراب والحروب والطاعون فهو كله جزاء بأعمال عملوها استحقوا بذلك ما ظهر من الفساد في البرّ من خسف وغير ذلك وقحط ووباء وقتل وأسر، وكذلك في البحر مثل هذا مع غرق وتجرّع غصص لزعزع ريح مثلفة قال تعال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ وهو ما ذكرناه ومن جنس ما قرّرناه ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي بما عملوا ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ [الروم: ٤١] وهذا عين الجزاء وهو في الدنيا هو، فيوم الدنيا يوم الجزاء ويوم الآخرة هو يوم الجزاء غير أنه في الآخرة أشد وأعظم لأنه لا ينتج أجراً لمن أصيب، وقد ينتج في الدنيا أجراً لمن أصيب وقد لا ينتج، فهذا هو الفرقان بين يوم الدينا ويوم الآخرة، وقد تعقب المصيبة لمن قامت به توبة مقبولة، وقد يكون في الدنيا حكم يوم الآخرة في عدم قبول التوبة وهو قوله في طلوع الشمس من مغربها أنه لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، فلا ينفع عمل العامل مع كونه في الدنيا فأشبه الآخرة، وكذلك أيضاً المصاب في الدنيا تكفر عنه مصيبته من الخطايا ما يعلم الله ومصيبة الآخرة لا تكفر، وقد يكون هذا الحكم في يوم الدنيا فأشبه الآخرة أيضاً وهو قوله في حق المحاربين الذين يحاربون الله ورسوله من قتلهم وصلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم من مواطنهم ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣] على تلك المحاربة والفساد جزاء لهم، فما كفر عنهم ما أصابهم في الدنيا من البلاء. فانظر ما أحكم القرآن وما فيه من العلوم لمن رزق الفهم فيه، فكل ما هم فيه العلماء بالله ما هو إلا فهمهم في القرآن خاصة فإنه الوحي المعصوم المقطوع بصدقه الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ فتصدقه الكتب المنزلة قبله ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] ولا ينزل بعده ما يكذبه ويبطله فهو حق ثابت، وكل تنزل سواه في هذه الأمة وقبلها في الأمم فيمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه فيعثر صاحبه على آية أو خبر صحيح يبطل له ما كان يعتمد عليه من تنزيله وهو قول الجنيد، علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة أن يشهدا له بذلك بأنه حق من عند الله ويأتيه من خلفه أي لا يعلم في الوقت بطلانه لكن قد يعلمه فيما بعد فهو نظير قوله في القرآن ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] فأي مجد أعظم من هذا المجد الذي اعترف به العبد لربه بأن شهد له بأنه الملك في يوم الدين والخلق ملكه الذي

تظهر فيه أحكامه؟ ثم إنه قد علمنا بالخبر الصدق أن أعمال العباد ترجع عليهم فلا بد أن يرجع عليهم هذا المجد الذي مجدوا الحق به فيكون لهم في الآخرة المجد الطريف والتليد، فرجوع أعمالهم عليهم اقتضته حقيقة قوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] بعدما كانت الدعاوى الكيانية قد أخذته وأضافته إلى الخلق، فمن رجوع الأمر كله إليه رجعت أعمال العباد عليهم فالعبد بحسب ما عمل، فهو المقدس إن كان عمله تقديس الحق، وهو المنزه بتنزيهه والمعظم بتعظيمه، ولما لحظ من لحظ من أهل الكشف هذه الرجعة عليه قال سبحاني فأعاد التنزيه عليه لفظاً كما عاد عليه حكماً، وكما قال الآخر في مثل هذا: أنا الله فإنه ما عبد إلا ما اعتقده، وما اعتقد إلا ما أوجده في نفسه، فما عبد إلا مجعولاً مثله فقال عندما رأى هذه الحقيقة من الاشتراك في الخلق قال: أنا الله فأعذره الحق ولم يؤاخذه فإنه ما قال الأعلى كما قال من أخذه الله تعالى: ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥] وأما من قالها بحق أي من قال ذلك والحق لسانه وسمعه وبصره فذلك دون صاحب هذا المقام، فمقام الذي قال أنا الله من حيث اعتقاده أتم ممن قالها بحق فإنه ما قالها إلا بعد استشرافه على ذلك فعلم من عبد والفضل في العلم يكون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحياء * حضرة الحياء

[نظم: البسيط]

إنّ الحَيَاءَ لِبَابِ الله مِفْتَاحُ وإن سِرِّي لذاك الفَتْحِ فَتَّاحُ

فإن فَتَحْتَ ترى نوراً يضيء به وَجْهُ جميلٌ علاه النُّورُ وَضَّاحُ

كأنَّهُ ظَلامُ اللَّيْلِ إنْ نَظَرَتْ عيناك صُورَتَهُ صُبْحٌ ومِصْبَاحُ

يدعى صاحبها عبد الحيّ أو عبد المستحيي. ورد في الخبر: «**إنَّ الله حَيِيٌّ**» لكن للحياء موطن خاص فإن الله قد قال في الموطن الذي لا حكم للحياء فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] أي لا يترك ضرب المثل بالأدنى والأحقر عند الجاهل فإنه ما هو حقير عند الله، وكيف يكون حقيراً من هو عين الدلالة على الله فيعظم الدليل بعظمة مدلوله، ثم إن رسول الله ﷺ نطق من هذه الحضرة بقوله: «**الحَيَاءُ مِنَ الإيمانِ والإيمانُ نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ وَالله هُوَ الصَّبُورُ الشَّكُورُ**» ومن هذه الحضرة من اسمه المؤمن شكر عباده على ما أنعموا به على الأسماء الإلهية بقبولهم لآثارها فيهم وصبر على أذى من جهله من عباده، فنسب إليه ما لا يليق به، ونسبوا إليه عدواً بغير علم كما أخبرنا عنهم فصبر على ذلك، ولا شخص أصبر على أذى من الله لاقتداره على الأخذ، فهو المؤمن الكامل في إيمانه بكمال صبره وشكره، ومن أعجب شكره أنه شاكر عباده على ما هو منه، ثم إنه تعالى من حيائه أنه يؤتى بشيخ يوم القيامة فيسأله ويقرّره على هناته وزلاته فينكرها كلها فيصدقه ويأمر به إلى الجنة، فإذا قيل له سبحانه في ذلك يقول: إني استحييت أن أكذب شيبته، فأما تصديقه من كون الحياء من الإيمان وهو المؤمن فإنه صدق من قبوله لما خلق الله فيه من المعاصي

والذنوب، وكل ما خلق الله فيه لولا قبوله ما نفذ الاقتدار فيه، وأما قوله ﷺ وهو الحياء لا يأتي إلا بخير والله حيي فأتاه من حيائه بخير، وأي خير أعظم من أن يستر عليه ولم يفضحه وغفر له وتجاوز عنه، وأن العبد إذا قامت به هذه الصفات الإلهية فمن هذه الحضرة تأتيه ومنها يقبلها، فإنه لكونه على الصورة الإلهية يقبل من كل حضرة إلهية ما تعطيه لأن لها وجهاً إلى الحق ووجهاً إلى العبد، وكذلك كل حضرة تضاف إلى العبد مما يقول العلماء فيها تضاف إلى العبد بطريق الاستحقاق والأصالة وإن كنا لا نقول بذلك، فإن لكل حضرة منها أيضاً وجهين: وجهاً إلى الحق ووجهاً إلى العبد، فانتظم الأمر بين الله وبين خلقه واشتبه فظهر في ذلك الحق بصفة الخلق وظهر الخلق بصفة الحق، ووافق شنّ طبقة فضمه واعتنقه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فظهر في ذلك التعانق والتوافق لام الألف فكان ذلك العقد والرباط وأخذ العهود والعقود بين الله وبين عباده فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

السخي * حضرة السخاء

[نظم: الكامل]

إن السَّخيَّ هو الذي يعطي على ... قَدْر الذي يحتاجُه المَخْلُوقُ

لا زائدٌ فيه ولا نَقْصٌ لذا ... قد عُيِّنَتْ فيه عليه حُقُوقُ

* * *

[نظم: البسيط]

ليس السَّخِيُّ الذي يعطي مجازفة ... إن السَّخِيَّ الذي يعطي على قَدَرِ

وليس نَعْت الذي كان الوجود به ... لكنه من نُعُوتِ الخلق والبَشَرِ

وإنما سُقْتُهُ لله حين أتتْ ... به النصوصُ التي جاءتك في الخَبَرِ

فكن به عالماً فمِنْ حَقِيقَتِهِ ... أن لا يَقُومَ به شيءٌ من الغِيَرِ

فإن صورته في طَيِّ صورتنا ... وإن سُورَتَهُ تُرْبي على السُّوَرِ

يدعى صاحبها عبد السخي، وهي من حضرات العطاء والسخاء العطاء بقدر ما يحتاج إليه المعطى إياه، فلا يكون إلا عن سؤال إما بلسان حال أو بلسان مقال، وإذا كان بلسان المقال فلا بد من لسان الحال وإلا فليس بمحتاج، وحضرات العطاء كثيرة منها الوهب والجود والكرم والسخاء والإيثار وهو عطاء الفتوة، وقد بيناه في هذا الكتاب في باب الفتوة، وفي كتاب مواقع النجوم في عضو اليد الذي ألفناه بالمرية من بلاد الأندلس سنة خمس وتسعين وخمسمائة عن أمر إلهي وهو كتاب شريف يعني عن الشيخ في تربية المريد، ثم نرجع فنقول: الوهب في العطاء هو لمجرد الإنعام وهو الذي لا يقترن به طلب معارضة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] فهو موصل أمانة كانت بيده، والكرم عطاء بعد سؤال، والجود عطاء قبل السؤال، والسخاء عطاء بقدر الحاجة، والإيثار عطاؤك ما أنت محتاج إليه في الحال وهو الأفضل، وفي الاستقبال وهو دون المعطي في الحال، ولكل

عطاء اسم إلهي إلا الإيثار فالله تعالى وهاب كريم جواد سخي، ولا يقال فيه عز وجل مؤثر، وقد قررنا أنه عالم بكل شيء فكيف يكون السخاء عطاء عن سؤال بلسان الحال وهو القائل عز وجلّ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥] فما ترك لمخلوق ما يحتاج إليه من حيث ما هو مخلوق تام. فاعلم أن ثم تماماً وكمالاً فالتمام إعطاء كل شيء خلقه وهذا لا سؤال فيه ولا يلزم إعطاء الكمال ويتصوّر السؤال والطلب في حصول الكمال فإنها مرتبة، والمرتبة إذا أوجدها الحق في العبد أعطاها خلقها وما هي من تمام المعطي إياه ولكنها من كماله، وكل إنسان وطالب محتاج إلى كمال أي إلى مرتبة ولكن لا يتعين فإنه مؤهل بالذات لمراتب مختلفه، ولا بد أن يكون على مرتبة ما من المراتب فيقوم في نفسه أن يسأل الله في أن يعطيه غير المرتبة لما هو عليه من الأهلية لها فيتصور السؤال في الكمال وهو مما يحتاج إليه السائل في نيل غرضه، فإنه من تمام خلق الغرض أن يوجد له متعلقه الذي يكون به كماله، فإن تمامه تعلقه بمتعلق ما وقد وجد، فإن أعطاه الله ما سأله بالغرض فقد أعطاه ما يحتاج إليه الغرض وذلك هو السخاء فإن السخاء عطاء على قدر الحاجة، وقد يعطيه الله ابتداء من غير سؤال نطق، لكن وجود الأهلية في المعطي إياه سؤال بالحال كما تقول: إن كل إنسان مستعد لقبول استعداد ما يكون به نبياً ورسولاً وخليفة وولياً ومؤمناً لكنه سوقة وعدوّ وكافر، وهذه كلها مراتب يكون فيها كمال العبد ونقصه، قال ﷺ: **«كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرُونَ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّساءِ إلاَّ مَرْيَم بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ»** وكل شخص ما عدا هؤلاء مستعدّ بإنسانيته لقبول ما يكون له به هذا الكمال، فبالأهلية هو محتاج إليه وللحرمان وجد السؤال بالحال فحضرة السخاء فيها روائح من حضرة الحكمة، فإن الله عز وجلّ ما منع إلا لحكمة ولا أعطى إلا لحكمة، وهو الحكيم العليم في المنع والعطاء، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الطيب * حضرة الطيب

[نُظم: الكامل]

طَابَتْ بِطِيبِ الطَّيِّبِ الأشْيَاءُ ... ولـذا لـه الأوصافُ والأسماءُ
أسماؤه الحُسْنَى التي قد عُيِّنَتْ ... ما عندها سُوءٌ ولا أسْواءُ

* * *

[نظم: البسيط]

ما طيب الطيب إلا كون خالقنا ... سميته طيباً وفيه إجمالُ
من ذاقه ذاق طَعْمَ الشَّهْدِ فيه كما ... من لم يَذُقْ ما له علمٌ ولا حالُ
إن قال ما هو هذا العلمُ قلت له ... إن الشيوخ بهذا القول قد قالوا
ولا تَرُدَّ الذي قالوه إنَّ له ... وجهاً صحيحاً إليه القوم قد مالوا
ما طيب الذكر إلا طيب نشأتنا ... في صورة الحقّ والأعمال أموالُ

يدعى صاحبها عبد الطيب، فالطيب من يميز الخبيث من الطيب فيجعل ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: ٢٦] من كونه طيباً ويجعل ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ

لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦] من كونه حكيماً فإنه هو الجاعل للأشياء والمميز بين الأشياء والأحكام، فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم فلا تزال أمه هاوية دائماً، وعليون للطيبين فلا يزال يعلو دائماً، وكل عالٍ وكل هاوٍ إنما يطلب ربه، فالهاوي عارف بربه في جهة خاصة تلقاها من الرسول لما سمعه يقول: «لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَىٰ اللهِ» وهنا سرّ لو بحثت عليه ظفرت به، فاقتضى مزاج الخبيث واستعداده أنه لا يطلب ربه إلا من هذه الجهة وهو الخبيث وجهنم البعيدة القعر فهو يهوي فيها يطلب ما ذكرناه، والطيب الصاعد عارف بربه في جهة خاصة تلقاها من الرسول لما سمعه يقول عن الله ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فاقتضى مزاج الطيب واستعداده أنه لا يطلب ربه إلا من هذه الجهة وهو الطيب والعلوّ لا نهاية له إلا الله كما الهوى لا نهاية له إلا الله، والذي لا يتقيد بصفة كأبي يزيد يطلبه في الإحاطة بجميع الجهات الست لأنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ﴾ [فصلت: ٥٤] فيطلبه في العلوّ والهوي واليمين والشمال والخلف والأمام، وكل هذا الجهات فهي عين الإنسان ما ظهرت إلا به وفيه، فهو الذي حدر به بالإحاطة فأكمل الأناسي من لم يحكم عليه جهة دون جهة ودونه من حكمت عليه جهة خاصة، فالكامل له الظهور في كل صورة، وغير الكامل هو بما تقيد به بها، فقوله: لا صفة له يعني لا تقييد له بأمر خاص بل له العموم بالظهور فإنه ما يمكن أن يخلو معلوم عن حدّ في نفسه، وأعلى الحدود الإطلاق وهو تقييد فإنه قد تميز بإطلاقه عن المقيد كما تميز مقيد عن مقيد، فالخلق وإن كان له السريان في الحق فهو محدود بالسريان، والحق وإن كان له السريان في الخلق فهو محدود بالسريان، وهذا كان مذهب أبي مدين رحمه الله، وكان ينبه على هذا المقام بقوله الأمي العامي: سرّ الحياة سري في الموجودات كلها فتجمدت به الجمادات ونبتت به النباتات وحييت به الحيوانات، فكل نطق في تسبيحه بحمده لسر سريان الحياة فيه، فهو وإن كان رحمه الله ناقص العبارة لكونه لم يعط فتوح العبارة فإنه قارب الأمر ففهم عنه مقصوده، وإن كان ما وفاه ما يستحقه المقام من الترجمة عنه، فهذا معنى الطيب وأنه من أسماء التقييد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المحسان * حضرة الإحسان

[نظم:][(١)]

حَـضْـرَةُ الْـمِـحْـسَـانِ إِحْـسَـانُ   وهـو فـي الـتَّـحْـقِـيـقِ إِنْـسَـانُ
ولـذا مـن الـشُّـهـورِ لـه   مـا يُـقـال فـيـه نَـيْـسَـانُ

* * *

[نظم: البسيط]

إذا رَأَيْـتَ الـذي بـالـفـعـل تَـعْـبُـدُهُ   فـأنـت صـاحـب إحـسـان وإيـمـانِ

(١) النظم مختل (على الرمل).

وإنْ جهلتَ ولم تَعْلَمْ برؤيتكم إياه فاعْمَلْ على إحسانه الثاني
وإنما جَمَعَ الرحمٰنُ بينهما لكي يقابل إحساناً بإحسان
والكل من عنده إن كنت تعرفُهُ ولست أعرفُه إلا إنَ أغناني
طال انتظاري لما يأتيه من قبلي قولاً وفعلاً وهذا الأمْرُ أغياني

يدعى صاحبها عبد المحسن، وإن شئت عبد المحسان. قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: مَا الإحْسَانُ؟ فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الإحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» وفي رواية: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» فأمره أن يخيله ويحضره في خياله على قدر علمه به فيكون محصوراً له وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] فمن علم قوله: «**إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**» وعلم قوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ**» وعلم قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] علم بالضرورة أنه إذا رأى نفسه هذه الرؤية فقد رأى ربه بجزاء الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه إلا الإحسان وهو أنك تراه حقيقة كما أريته نفسك، فالصورة الأولى الإلهية في العبادة مجعولة للعبد من جعله فهو الذي أقامها نشأة يعبدها عن أمره عز وجلّ له بذلك الإنشاء، فجزاؤه أن يراه حقيقة جزاء وفاقاً في الصورة التي يقتضيها موطن ذلك الشهود، كما اقتضى تجليه في الصورة الإلهية المجعولة من العبد في موطن العبادة والتكليف، فإن الصور تتنوّع بتنوّع المواطن والأحوال والاعتقادات من المواطن، فلكل عبد حال ولكل حال موطن، فبحاله يقول في ربه ما يجده في عقده، وبموطن ذلك الحال يتجلى له الحق في صورة اعتقاده والحق كل ذلك والحق وراء ذلك، فينكر ويعرف وينزه ويوصف، وعن كل ما ينسب إليه بتوقف، فحضرة لإحسان رؤية وشهود، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الدهر * حضرة الدهر

[نظم: المجتث]

الدَّهْرُ عَيْنُ الزمان وما لديه أمان
فإن يكن عَيْنَ قَلْبي فليس إلا العَيَان

* * *

[نظم: الطويل]

إذا كان دَهْري عَيْنَ رَبِّي فإنه قديم وما دهري يُحَدُّ بأزمان
وما سَبَّهُ إلا جهولٌ بقَدْره ذليلٌ فقيرٌ ذو جفاء ونُقْصانِ
ولو كان عَلاّماً به وبفعله لجُوزي بما به بخل عَذْنانِ
وكان لذاك العلم صَاحِبَ مَشْهَدِ يراه عَيَاناً ذا بيان وتبيانِ
فسبحان من أحياه بعد مماته ونَعَّمَهُ منه لَهِيبٌ ببركان

يدعى صاحبها عبد الدهر. وقال رسول الله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا الدَّهرَ فَإنَّ الله هُوَ الدَّهرُ**» فجعل الدهر هوية الله، فصدق القائلون في قولهم وما يهلكنا إلا الدهر فإنه ما يهلكهم إلا الله، فإنهم جهلوا في قولهم: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا أي نحيى فيها ثم نموت، وصدقوا في قولهم بعد ذلك: وما يهلكنا إلا الدهر فصدقوا فإن الدهر هو الله وجهلوا في اعتقادهم فإنهم ما أرادوا إلا الزمان بقولهم الدهر، فأصابوا في إطلاق الاسم وأخطؤوا في المعنى، وهم ما أرادوا إلا المهلك فأصابوا في المعنى، ووافقوا الاسم المشروع توفيقاً من الله، ولم يقولوا الزمان أو ربما لو قالوا الزمان لسمى الله نفسه بالزمان كما سمى نفسه بالدهر، والدهر عبارة عما لا يتناهى وجوده عند مطلقي هذا الاسم أطلقوه على ما أطلقوه، فالدهر حقيقة معقولة لكل داهر، وهو المعبر عنه بحضرة الدهر وهو قولهم: لا أفعل ذلك دهر الداهرين، وهو عين أبد الآبدين، فللدهر الأزل والأبد أي له هذان الحكمان، لكن معقولية حكمه عند الأكثر في الأبد فإنهم أتبعوه الأبد فلذلك يقول القائل منهم: دهر الداهرين، وقد يقول بدله، أبد الآبدين فلا يعرفونه إلا بطرف الأبد لا بطرف الأزل، ومن جعله الله فله حكم الأزل والأبد فاعلم ذلك.

ومن هذه الحضرة ثبت حكم الأزل والأبد لمن وصف به وأن عين العالم لم يزل في الأزل الذي هو الدهر الأوّل بالنسبة إلى ما نذكره ثابت العين، ولما أفاده الحق الوجود ما طرأ عليه إلا حالة الوجود لا أمر آخر، فظهر في الوجود بالحقيقة التي كان عليها في حال العدم، فتعين بحال وجود العالم الطرف الأوّل المعبر عنه بالأزل وليس إلا الدهر، وتعين حال وجود العالم بنفسه وهو زمان الحال وهو الدهر عينه، ثم استمرّ له الوجود إلى غير نهاية فتعين الطرف الآخر وهو الأبد وليس الدهر، فمن راعى هذه النسب جعله دهوراً وهو دهر واحد، وليس إلا عين الوجود الحق بأحكام أعيان الممكنات أو ظهور الحق في صور الممكنات، فتعين أنّ الدهر هو الله تعالى كما أخبر عن نفسه على ما أوصله إلينا رسوله ﷺ فقال لنا لما سمع من يسب الدهر لكونه لم يعطه أغراضه فقال: «**لا تَسُبُّوا الدَّهرَ فَإنَّ الله هُوَ الدَّهرُ**» لأنه المانع وجود ما لكم في وجوده غرض، ولهذا سمي بالمانع. وله حضرة في هذا الباب في هذا الكتاب مذكورة، فتوليد العالم إنما هو للزمان وهو الدهر ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ [الحج: ٦١] فيتناكحان فيلد النهار جميع ما يظهر فيه من الأعيان القائمة بأنفسها وغير القائمة بأنفسها من الأجسام والجسمانيات والأرواح والروحانيات والأحوال، فيظهركل روحانيّ وجسماني من كل اسم رباني، ويظهر كل جسم وروح من الاسم الرب لا من الاسم الرباني.
﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١] فيتناكحان فيلد الليل مثل ما ولد النهار سواء على حد ما مضى، وهذا المعبر عنه بالليل والنهار سدنة الدهر والإيلاج والتكوير والغشيان وهو قوله. ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: ٥] من كور العمامة ﴿ويُغۡشِي ٱلَّيۡلَ فَيَتَشَفَّعُوا ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فهذه مقاليد الدهر الذي ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الزمر: ٦٣] وهو المنكوح، فمن علا من هذين الزوجين فله الذكورية وهو السماء، وهو الناكح ومن سفل من هذين الزوجين فله الأنوثة وهو الأرض ونكاحهما المقلاد، والإقليد الذي به

يكون الفتح فيظهر ما في خزائن الجود وهو الدهر، فهكذا وجد العالم عن نكاح دهري زماني ليلي ونهاري، فإن علا ماء الناكح ماء المنكوح أذكر فظهرت الأرواح الفاعلة، وإن علا ماء المنكوح ماء الناكح أنثى فظهرت الجثث الطبيعية القابلة للانفعال المنفعلة: [مخلع البسيط]

فهكذا كانت الأمورُ ... وأظهرتْ حُكْمَها الدُّهورُ
فكل أمر يخصه اسْمٌ ... كان له الكون والصدورُ
ثم إلى الله بعد هذا ... تصير في سيرها الأمُورُ
فكلّ جسم له ظلامٌ ... وكل روح لديه نُورُ
إذا انطَوَى ظلُّه ويَخفَى ... في ذاته ذلك النفورُ
لم يعدم الله عين شيء ... أبداه لكنه يَبُورُ
فخَلقُهُ لم يَزَلْ جديداً ... في كلّ أوقاته يَثُورُ
لولا وجود النِّكَاحِ فيه ... ما كان للعالم الظُّهُورُ
ولا لأسمائه احتكامٌ ... ولا لأعيانها نُشُورُ
فأنْجُمٌ منه طالعاتٌ ... وأنْجُمٌ عنده تَغُورُ
كأنها طالباتُ ثَارٍ ... وطالب الثَّار ما يَجُورُ
فالكونُ في ليلٍ أو نهارٍ ... على الذي قلتُه يدورُ

الصاحب * حضرة الصحبة

[نظم: البسيط]

الصاحبُ الحقُّ ليس الصَّاحِبَ الدَّاعي ... ولو تَحَكَّمَ في بُرئي وأوجاعي
وإن صاحبها يَبْغي مصاحبتي ... ويَدَّعي أنه مني كأسماعي

[نظم: الرمل]

صُحْبَةُ الرحمٰن فيها أدبٌ ... فاصحب الرحمن لا تَصْحَبْ سواه
يتمنَّاه الذي يصحبُهُ ... أن يراه فيَرَى فيه مُنَاه
عجباً فيه وفي رؤيته ... ما لعَبْدٍ فيه إلا ما نواه
بَذَلَ المجهودَ كي يُبْصِرَهُ ... وأبى ذلك في الحَقِّ عَمَاه
لو دَرَى الإنسانُ من غيرته ... أنه حقّاً على هذا بَنَاه

يدعى صاحبها عبد الصاحب. قال رسول الله ﷺ في دعائه ربه: **«أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ»** وقال تعالى مصدقاً له فيما سماه به من الصاحب: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فهو الصاحب على كل حال مع العبد في أينيته: [مجزوء الخفيف]

فهُوَ الله في السَّمَاء ... وفي الأرض يَحْكُمُ
وإذا كان هكذا ... فاحْذَروا منه واعْلَمُوا
أنه عالمٌ بِكُمُ ... عادل ليس يَظْلِمُ

وذلك أن الله تعالى حد حدوداً لعباده عقلية وشرعية معللة وغير معللة، فما عقلت علتة منها سميناها عقلية، وما لم تعقل علته سميناها تعبداً وعبادة شرعية، فهو مع عباده المكلفين يحفظ عليهم أنفاسهم في حدوده، وهو مع من ليس بمكلف ينظر ما يفعل معه المكلفون بأن لا يتعدّوا حدوده، فهو مع كل شيء بهذه المثابة في الدنيا، وأما في الآخرة فما هو معهم إلا لحفظ أنفاسهم ولما يوجده فيهم فإنهم محل الانفعال لما يريد إيجاده، فلا يزال يوجد له تعالى ولهم فله من حيث ما يسبحه الموجود بحمده في شيئية وجوده فإنها النعمة الكبرى، فتسبيحه: الحمد لله المنعم المفضل، وأما كونه يوجد لهم فلما يحصل لهم من المنفعة بسبب ذلك الموجود وما يليق به فيعود نفعه عليهم ويعود تسبيحه عليه تعالى هكذا دائماً. ثم إن العالم لا يزال مسافراً أبداً فالله صاحبه أبداً فهو بعينه يسافر من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، والحق معه صاحبه وللحق الشؤون كما قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩] فالحق أيضاً له من شأن إلى شأن، فشؤون الحق هي أحوال المسافرين يجدد خلقها لهم في كل يوم زمان فرد فلا يتمكن للعالم استقرار على حال واحدة وشأن واحد لأنها أعراض والأعراض لا تبقى زمانين مطلقاً، فلا وجود لها إلا زمان وجودها خاصة، ثم يعقبها في الزمان الذي يلي زمان وجودها الأمثال أو الأضداد، فأعيان الجواهر على هذا لا تخلو عن أحوال ولا خالق لها إلا الله، فالحق في شؤون أبداً فإنه لكل عين حال، فللحق شؤون ولنا أحوال، فالصحبة دائمة غير منقطعة وشؤون حاكمة إلى غير نهاية ولا بلوغ غاية، وذلك من المرتبة التي صح لنا فيها أولية الظهور، ثم استمرّ السير وتمادى السفر والانتقال من بلد إلى بلد، ومن مكان إلى مكان، ومن مكانة إلى مكانة لكل موجود من العالم.

فلنعين من ذلك ما يختص بهذا النوع الإنساني فأوجده بكله ظاهر صورته وباطنها أجزاء العالم فظهر بعينه في كونه بعد أن كان يدور في أطوار العالم من عالم الأفلاك والأركان، ولكن مختلف الأحوال مفترق الأجزاء غير معين بهذا الشيء الخاص، فالتأمت أجزاؤه والحق صاحبه في كل حال من أحوال تنقلاته، وكيف لا يصحبه وهو خالق تلك الأحوال التي ينقله فيها والأطوار؟ فأظهر عينه مجموعاً لم يبقَ منه شيئاً في غير ذاته، ثم جعل ما جعل فيه يستحيل من صورة إلى صورة وهو أيضاً سفر ويمده بمثل ما زال عنه وسافر أو بضده لتبقى عين جمعيته، فصار الإنسان منزلاً من منازل الوجود يسافر منه ويسافر إليه، وليس لكل مسافر إليه إذا وصل ونزل به سوى جائزته ليلة واحدة وهي الزمن الفرد ويرحل ولا يرد عليه حال من الأحوال إلا والحق صاحب لذلك الوارد، فيتعين على هذا المحل الذي هو الإنسان في كل نفس عند ورود كل حال كرامتان: كرامة وضيافة لذلك الوارد بحسب مكانته من ربه وما تعطيه حقيقته، والإنسان قادر على إجازته والقيام بحرمته وكرامته وضيافته، ولسرعة ارتحاله تكون المسارعة إلى أداء جائزته، والكرامة الأخرى المتعينة عليه كرامة صاحبه الواصل معه وهوالله الصاحب في السفر، فينظر بأي اسم إلهيّ وصل، فذلك الاسم الإلهيّ هو صاحبه، فينظر ما يستحقه ذلك الاسم الإلهي من الجلال والتعظيم والتمجيد والتحميد فيكرمه ويضيفه بها فتلك

كرامته، ويبادر إلى ذلك في الزمان الواحد لأن الإنسان مجموع والرحلة سريعة، فيعين لك واحد أعني للحال الوارد وللصاحب معه وهو الاسم الإلهي الذي يحفظه من نفسه ما يستحق أن يقوم بما يتعين للحق عليه من الكرامة، ويعين من نفسه أيضاً حقيقة أخرى مناسبة للوارد تقوم بخدمته إلى أن يرحل عنه، فالإنسان منزل ومناخ للمسافرين من الأحوال وهو في نفسه مسافر أيضاً، فله مع الله صحبة دائمة لسفره، وله تلقي كل وارد عليه من الله مع صاحبه من الأسماء الإلهية، فيتعين عليه في كل نفس خمسة حقوق يطالب بالقيام بها: حق الوارد عليه، وحق صاحبه، وحق المسافر عنه في تسفيره، وحق صاحبه، والحق الخامس حق الله تعالى وهو صاحبه الملازم له في سفره فإنه الصاحب في السفر كما هو الخليفة في الأهل، فما خلق الله أتعب خاطر ولا قلب من أهل الكشف والحضور العارفين بالله من أهل الله أهل الشهود لهذه الأمور، فيتخيل من لا معرفة له بالأمور أن العارف في راحة، لا والله بل هو أشد عذاباً من كل أحد، فإنه لا يزال في كل نفس يطلب نفسه مطلوباً من أجل ما أشهده الله ما أشهده بأداء هذه الخمسة الحقوق، ولولا أن الله يعفو عن كثير برحمته التي وسعت كل شيء وأن من رحمة الله أعطى الله هذا العبد من الاتساع وكثرة الوزعة والخدام ما يستعين بهم على أداء هذه الحقوق ما قدر الإنسان على أداء شيء منها، ولا يطالب بهذه الحقوق كلها إلا من أشهده الله عين ما ذكرناه كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. كما يعين في الإنسان الواحد في إنزال القرآن أنه بلاغ من وجه وإنذار من وجه وإعلام بتوحيد من وجه وتذكرة لما نسيه من وجه، والمخاطب بهذا كله واحد العين وهو الإنسان قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ فهو بلاغ له من كونه من الناس﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ من كونه على قدم غرور وخطر فيحذروا﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي يفعل ما يريد ما ثم آخر يرده عن إرادته فيك ويصده ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] بما أشهدهم به على نفسه أنه ربه ليقوم بما يجب على المملوك من حق سيده الذي أقر له بالملك، ولهذا العبد إذا اشتراه الإنسان من غيره، فمن شرطه أن يقرّ العبد لبايعه بالملك ولا يسمع مجرد دعواه في أنه مالك له، ولا يقوم على العبد حجة بقول سيده ما لم يعترف هو بالملك له، ويغفل عن هذا القدر كثير من الناس فإن الأصل الحرية واستصحاب الأصل مرعي، وبعد الاعتراف بالملك صار الاسترقاق في هذه الرقبة أصلاً يستصحب حتى يثبت الحرية إن ادّعاها هكذا هو الأمر قال تعالى﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فثبت الاسترقاق لله عليهم، فطولبوا بالوفاء بحق العبودية لهذا الإقرار فهو قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] فإن التذكر لا يكون إلا عن علم متقدم منسي فيذكره من يعلم ذلك، فالله مع الخلق هو الصاحب المجهول لغيبتهم عن شهود هذه الصحبة فلا يطالبون بحق ما يختص به، والذي يشهده إيماناً أو عياناً يطالب بذلك، فالعالم المحجوب للغيبة يخاف من المعاصي، والعارف للشهود يخاف من الكفر وهو التستر يقول: سدل الحجاب بعد الكشف، نسأل الله عصمة واقية وهي الشهود الدائم فإنه مباح له جميع ما

يتصرّف فيه من هذا حاله، فإنه إذا كان العبد المذنب في عقب ذنبه يعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب علم إيمان وقد أبيح له ورفع الحجر عنه في تصرّفه، فما ظنك بصاحب الشهود الذي يرى من يفعل به وفيه وما ينفعل وصدور الأعيان من حضرة من تصدر فافهم وتأمّل ترشد﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فإني ما ترجمت لك إلا عن شرع مستقر ودين كالصباح الأبلج ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الخليفة * حضرة الخلافة

[نظم: البسيط]

إنّ الخِلافَةَ سِرُّ الله في البَشَرِ ... لذا تَحَمَّلْتُ ما فيها من الضَّرَرِ

أنا الخليفه ما عندي سوى نفسي ... فلا أخاف ولا أَخْشَى من الغِيَرِ

* * *

[نظم: البسيط]

خليفةُ الحَقّ في الأكوان من ظَهَرا ... بصورة الحق مَلْكاً كان أو بَشَرا

فكان من قد أتى نَصُّ الكتاب به ... ابْناً وجَدّاً وهذا كله ذُكِرَا

وكان يجهل في الأعيان رُتْبَته ... وكان حقاً ولم يلحق به غِيَرَا

فلو تراه وقد خرّت ملائكةٌ ... لذاته سُجَّداً لقلت ذا سحرا

ومن أَبَى نزلتْ في الحال رُتْبَتُه ... ولم يَزَلْ خاسئاً مثل الذي كَفَرَا

يدعى صاحبها عبد الخليفة، قال رسول الله ﷺ في دعائه ربه في سفره: «**أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ**» وقد مضى فيه القول «**وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ**» فسماه خليفة لما استخلفه أي بين أنه الخليفة أي الذي يخلف المسافر في أهله فهو خليفة بالنظر إلى المفارق أهله بسفره وهو صاحب للمقيمين أهل هذا المسافر، فنحن نتكلم فيه من حيث إنه خليفة فهو القائم على كل نفس فإن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] فسافروا عن أهليهم فاستخلفوا الحق فيهم ليقوم عليهم بما كان يقوم به عليهم صاحبهم وأوفى، فمن هذه الحضرة أيضاً جعل الله الخلفاء في الأرض واحداً بعد واحد لا يصح ولاية اثنين في زمان واحد، قال ﷺ «**إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخرَ مِنْهُمَا**». ولا نشك أن النبي ﷺ أخبرنا أن الله هو خليفة المسافر في أهله بجعله لا بجعل المسافر بخلاف الوكالة، وسترد حضرة الوكالة إن شاء الله، فما جعل الحق نفسه خليفة في أهل المسافر إلا وله حكم ما هو عين الحكم الذي له فيهم من كونه إلهاً لهم وخالقاً ورباً ورازقاً، وكونهم مألوهين له ومخلوقين ومرزوقين ومربوبين، فما عين الله للرجل أو القائم في أصله من الحقوق التي لهم عليه، فإن الله يتكفل لهم بذلك ما دام مسافراً غائباً عن أهله، وما يفعله معهم من الإنعام وغير ذلك مما لا يجب على الرجل لأهله عليه فهو من حضرة أخرى لا من حضرة الخلافة، بل من حضرة الوهب أو الكرم أو الجود أو غير

ذلك، ومما يجب للأهل على القائم بهم مما هو خارج عن مؤنتهم حفظ الأهل وصيانته والغيرة عليه، فمن خلف غائباً بسوء في أهله فقد أتى باباً من أبواب الكبائر فإنه انتهك حرمة الخليفة في الأهل وغره حمله وإمهاله، وما علم سر الله في ذلك من خير يعود على الغائب فإنه مؤمن وما يقضي الله لمؤمن بقضاء إلا وله فيه خير، وكذلك هذا المنتهك من حيث إنه انتهك حرمة الغائب فله فيه خير التبديل لكونه مؤمناً، ومن حيث إنه منتهك حرمة الخليفة فأمره إلى الله لا أحكم عليه بشيء إلا أنه في محل الرجاء والخوف من غير ترجيح، ألا ترى إلى موسى عليه السلام كيف قال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وهذا خطاب خارج عمن استخلفه في قومه وهو هارون فسماهم خلفاء وما استخلفهم لكنه لما تركهم خلفه وسار إلى ربه سماهم بهذا الاسم، فاجعل بالك لما تقتضيه هذه الحضرة بما نبهتك عليه، والله الموفق لا رب غيره.

الجميل * حضرة الجمال

[نظم: البسيط]

إنّ الجَميلَ الذي الإحْسانُ شِيمَتُهُ ... هو الذي تعرفُ الأكوانُ قِيمَتَهُ

إذا يراه الذي فينا يُحَبّبه ... يرى الوجود فيبدي فيه حِكْمَتَهُ

يدعى صاحب هذه الحضرة عبد الجميل. قال رسول الله ﷺ للرجل الذي قال له يا رسول الله إني أحب أن يكون نعلي حسناً وثوبي حسناً فقال له ﷺ: «**إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» خرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، وفي حديث عنه ﷺ: «**الله أَوْلَى مَنْ تُجُمِّلَ له**» ومن هذه الحضرة أضاف الله الزينة إلى الله وأمرنا أن نتزين له فقال: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١] وهي زينة الله عند كل مسجد يريد وقت مناجاته وهي قرة عين محمد ﷺ وكل مؤمن لما فيها من الشهو، فإن الله في قبلة المصلي وقد قال: «**اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، ولا شك أن الجمال محبوب لذاته، فإذا انضاف إليه جمال الزينة فهو جمال على جمال كنوره على نور فتكون محبة على محبة، فمن أحب الله لجماله وليس جماله إلا ما يشهده من جمال العالم فإنه أوجده على صورته، فمن أحب العالم لجماله فإنما أحب الله وليس للحق منزه ولا مجلى إلا العالم، وهنا سرّ نبوي إلهي خصصت به من حضرة النبوة مع كوني لست بنبي وإني لوارث: [البسيط]

إنّي خُصِصْتُ بسِرٍّ ليس يَعْلَمُهُ ... إلاّ أنا والذي في الشَّرْع نَتْبَعُهُ

ذاك النبيُّ رسول الله خَيْرُ فَتًى ... لِلّهِ نَتْبَعُهُ فيما يُشَرّعُهُ

فأوجد الله العالم في غاية الجمال والكمال خلقاً وإبداعاً فإنه تعالى يحب الجمال وما ثم جميل إلا هو فأحب نفسه ثم أحب أن يرى نفسه في غيره، فخلق العالم على صورة جماله ونظر إليه فأحبه حب من قيده النظر، ثم جعل عز وجل في الجمال المطلق الساري في العالم جمالاً عرضياً مقيداً يفضل آحاد العالم فيه بعضه على بعض بين جميل وأجمل، وراعى الحق

ذلك على ما أخبر نبيه ﷺ فقال المؤمن لرسول الله ﷺ الحديث الذي ذكرناه في هذا الباب الذي خرجه مسلم في صحيحه: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ» فهو أولى أن تحبه إذ وقد أخبرت عن نفسك أنك تحب الجمال وأن الله يحب الجمال، فإذا تجملت لربك أحبك وما تتجمل له إلا باتباعي فاتباعي زينتك هذا قوله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] أي تزينوا بزينتي يحببكم الله فإن الله يحب الجمال، فأعذر الله المحبين بهذا الخبر لأن المحب لا يرى محبوبه إلا أجمل العالم في عينه، فما أحب إلا ما هو جمال عنده لا بد من حكم ذلك، ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] فما رأى سوء العمل حسناً وإنما رأى الزينة التي زين له بها، فإذا كان يوم القيامة ورأى قبح العمل فرّ منه فيقال له: هذا الذي كنت تحبه وتتعشق به وتهواه فيقول المؤمن: لم يكن حين أحببته بهذه الصورة ولا بهذه الحلية، أين الزينة التي كانت عليه وحببته إليّ ترد عليه فإني ما تعلقت إلا بالزينة لا به، لكن لما كان محلها كان حبي له بحكم التبع، فيقول الله لهم: صدق عبدي لولا الزينة ما استحسنه فردوا عليه زينته فيبدل الله سوءه حسناً فيرجع حبه فيه إليه ويتعلق به، فما قال الحق هذا القول أعني زين له سوء عمله إلا ليلقن عبده الحجة إذا كان فطناً، فلا ينبغي للمؤمن الكيس أن يهمل شيئاً من كلام الله ولا كلام المبلغ عن الله، فإن الله تعالى يقول فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] وقد ذم قوماً اتخذوا دينهم لهواً و لعباً وهم في هذا الزمان أصحاب السماع أهل الدف والمزمار نعوذ بالله من الخذلان: [البسيط]

ما الدِّينُ بالدُّفِّ والمزمار واللَّعِبِ ... لكنَّما الدينُ بالقرآن والأدَبِ
لما سمعتُ كتابَ الله حَرَّكني ... ذاك السماعُ وأدْناني من الحُجُبِ
حتى شهدتُ الذي لا عَيْنَ تُبْصِرُهُ ... إلا الذي شاهد الأنوار في الكُتُبِ
هو الذي أنزل القرآن في خَلَدي ... يوم الخميس بلا كَدٍّ ولا نَصَبِ
إلا عناية ربّي حين أرسلها ... إلى فؤادي فنادَتْني على كَثَبِ
أنت الإمامُ الذي تُرْجَى شفاعَتُهُ ... في المذنبين وأنت السرُّ في النَّصَبِ
لولاك ما عبدوا نجماً ولا شَجَراً ... ولا أتَوْا ما أتوا به من القُرَبِ

فإن كلام المبلغ عن الله ما جاء به إلا رحمة بالسامع، وهو إن كان فطناً كان له، وإن كان حماراً كان عليه، ولما كان الجمال يهاب لذاته والحق لا يهاب شيئاً وقد وصفه العالم ﷺ بأنه جميل والهيبة تجعل صاحبها أن يترك أموراً كان في نفسه في وقت حديث النفس أن يفعلها مع محبوبه عند الاجتماع به واللقاء، فتمنعه هيبة الجمال مما حدثته به نفسه، وقد وصف الله نفسه بالحياء من عبده إذا لقيه فقام الحياء لله مقام الهيبة في المخلوق، فما اقتضى من حال العبد أن يؤاخذه به الله ولما لقيه استحيى منه فترك مؤاخذته، ولذلك قال فيمن أخذ منهم أنهم﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] فأرسل الحجاب بينهم وبينه فلم يروه، فلو كانت الرؤية لكان الحياء القائم بالحق مقام الجمال في الخلق، فالحكم واحد والعلة تختلف، فحقق هذه الحضرة وتزين وتجمل تارة بنعتك من ذلة وافتقار وخشوع وخضوع

وسجود وركوع، وتارة بنعته عز وجلّ من كرم ولطف ورأفة وتجاوز وعفو وصفح ومغفرة وغير ذلك مما هو لله ومن زينة الله التي ما حرمها الله على عباده، فإذا كنت بهذه المثابة أحبك الله لما جملك به من هذه النعوت وهو الحب الذي ما فيه منة لأن الجمال استدعاه كالمغفرة للتائب والمغفرة لغير التائب، فالمغفرة للتائب ما فيها منة فإن التوبة من العبد استدعت المغفرة من الله، والمغفرة لغير التائب منة محضة قال تعالى في مغفرته الواجبة: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وغير المتقي والتائب يطلب رحمة الله ومغفرته من عين المنة، فتجمل إن أردت أن ترتفع عنك منة الله من هذا الوجه الخاص، ويكفيك حكم الامتنان بما وقفت إليه من التجمل بزينة الله، فإن ذلك إنما كان برحمة الله كما قال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] والله يقول الحق هو يهدي السبيل.

المسعر * حضرة التسعير

[نظم: الكامل]

إنّ المُسَعِّر رَتَّبَ الأقْواتَا ... لِيُبَيِّنَ الأحوالَ والأوقَاتَا

فيُميتُ أحياءً يشاهد فعله ... فينا ويُحْيي جُودُهُ أمْواتا

ويَرُدّنا بعد اجتماع نفوسنا ... عند الصُّدور لما نرى أشْتَاتا

والله أنْبَتَنَا بأرْضِ وُجُودِهِ ... من جُودِهِ في كَوْننا إنْباتا

يدعى صاحبها عبد المسعر، وهي تحكم على حضرة الأرزاق التي تتملك ويدخلها البيع والشراء، فتعين هذه الحضرة مقادير أثمانها التي هي عوض منها ولا يعلم قدر ذلك إلا الله فإنها من حضرة ضرب الأمثال لله، وقد نهينا عن ذلك فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] قيل لرسول الله ﷺ: سعر لنا فقال ﷺ: **«إنَّ الله هُوَ المُسَعِّرُ وَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى الله وَلَيسَ لأحَدٍ مِنكُمْ عَلَيَّ طَلِبَة»**، فإن الوزن بين الشيئين بالقيمة مجهول لا يتحقق فما بقي إلا المراضاة بين البائع والمشتري ما لم يجهل أمر السوق بالوقت والزمان وأحوال الناس في ذلك، فإن الأحكام والأسعار تختلف باختلاف الأوقات لما يختلف من الأحوال بسلطان الأوقات: [البسيط]

فكُلّ وَقْتٍ له حالٌ يُعَيِّنُهُ ... وكلّ حال له حُكْمٌ وتَرْتِيبُ

وليس يعرفهُ إلا مُوَقِّتُهُ ... وليس ينفعُ في التسعير تهذيبُ

ولما قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله هُوَ المُسَعِّرُ»** علمنا أنه: [الكامل]

يُغْلي ويُرْخِصُ سُوقَهُ مُتَبَذِّلٌ ... فهو المُسَعِّرُ حُكْمُهُ ما يُقَرَرُ

وهو الكبيرُ فكونه متكبِّراً ... من مثل هذا فالمقام يُحَيِّرُ

لو لم يكن هذا لكان بحكمنا ... وبحكمنا هذا ألا تَتَبَصَّرُوا

ما حكمة تَعْنُو الوجوهُ لعَيْنِها ... هذا الذي جئنا به فتَفَكَّرُوا

فأخبر أنه ألسنة العالم في أثمان الأشياء التي تدخل في حكم البيع والشراء، فمن سام

فليعرف من يسم، ولا تسم على سوم أخيك، ولا تبع على بيعه، كما نهيت أن تخطب على خطبته لأن الخطبة من باب الشراء والبيع لأنها شراء استمتاع ببعضو وبيعه، فلهذا لا بد من الصداق وهو القيمة والثمن والعوض، فالبيع والشراء معاوضة: [الخفيف]

فله البَيْعُ والشِّراءُ جميعاً وبه ينطقان لو عَقَلُوهُ
حَكَمَ الكشفُ والدليلُ بهذا وإلينا عن رُسْلِهِ نَقَلُوهُ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١] فوقع البيع بين الله وبين المؤمن من كونه ذا نفس حيوانية وهي البائعة، فباعت النفس الناطقة من الله وما كان لها مما لها به نعيم من مالها بعوض وهو الجنة والسوق المعترك فاستشهدت فأخذها المشتري إلى منزله وأبقى عليها حياتها حتى يقبض ثمنها الذي هو الجنة، فلهذا قال في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠] ببيعهم لما رأوا فيه من الربح حيث انتقلوا إلى الآخرة من غير موت، وقبض الحق النفس الناطقة إليه وشغلها بشهوده وما يصرّفها فيه من أحكام وجوده، فالإنسان المؤمن يتنعم من حيث نفسه الحيوانية بما تعطي الجنة من النعيم ويتنعم بما يرى مما صارت إليه من النعيم نفسه الناطقة التي باعها بمشاهدة سيدها فحصل للمؤمن النعيمان، فإن الذي باع كان محبوباً له، وما باعه إلا ليصل إلى هذا الخبر الذي وصل إليه وكانت له الحظوة عند الله حيث باعه هذا النفس الناطقة العاقلة، وسبب شرائه إياها أنها كانت له بحكم الأصل بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فطرأت الفتن والبلايا وادعى المؤمن فيها فتكرم الحق وتقدس ولم يجعل نفسه خصماً لهذا المؤمن ، فإن المؤمنين إخوة فتلطف له في أن يبيعها منه وأراه العوض، ولا علم له بلذة المشاهدة لأنها ليست له فأجاب إلى البيع فاشتراها الله تعالى منه، فلما حصلت بيد المشتري وحصل الثمن تصدق الحق بها عليه امتناناً لكونه حصل في منزل لا يقتضي له الدعوى فيما لا يملك وهو الآخرة للكشف الذي يصحبها. وقد مثل هذا الذي قلناه رسول الله ﷺ حين اشترى من جابر بن عبد الله بعيره في السفر بثمن معلوم واشترط عليه البائع جابر بن عبد الله ظهره إلى المدينة فقبل الشرط المشتري فلما وصل إلى المدينة وزن له الثمن فلما قبضه وحصل عنده وأراد الانصراف أعطاه بعيره والثمن جميعاً. فهذا بيع وشرط، وهكذا فعل الله، سواء اشترى من المؤمن نفسه بثمن معلوم وهو الجنة واشترط عليه ظهره إلى المدينة وهو خروجه إلى الجهاد، فلما حصل هناك واستشهد قبضه الثمن ورد عليه نفسه ليكون المؤمن بجميعه متنعماً بما تقبله النفس الناطقة من نعيم العلوم والمعارف، وبما تعمله الحيوانية من المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمركب وكل نعيم محسوس، ففرحت بالمكانة والمكان والمنزلة والمنزل، فهذا هو المال الرابح والتجارة المنجية التي لا تبور، جعلنا الله وإياكم ممن حصل له رتبة الشهداء في عافية وسلامة ومات موت السعداء ففاز بالأجر والنور والالتذاذ بالنعيمين في دار المقامة والسرور فإنها تجارة لن تبور، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

القريب الأقرب * حضرة القربة والقرب والقرب

[نظم: مجزوء الرمل]

أقْـرَبُ الـخَـلْـقِ إلَـيْـهِ عَـبْـدُهُ إن كُـنْـتَ تَـدْري
إنـه يـعـلـمُ سـرّي مـثـل مـا يـعـلـمُ جَـهْـري
لا تَـقُـلْ إنَّـكَ إنّـي ولْـتُـقِـمْ فـي الله عُـذْري
إنـنـي عـبـد قـريـبٌ مـن وجـودي مـثـل سَـحْـري
إنـه نَـفَّـسَ عـنـي كُـرْبَـةً مـن ضِـيـقِ صَـدْري

* * *

[نظم: الرمل]

حـضـرةُ الأقْـرَب أعْـلَـى الـحـضـراتِ وهـي بـالـذات لأهـل الـفَـتَـرَاتِ
فـهـي قُـرْبٌ فـيـه بُـعْـدٌ لـلـذي قـيـل فـيـه إنـه ذو عَـثَـراتِ

يدعى صاحبها عبد الأقرب وعبد القريب. فإنه عز وجل أقرب إلينا من حبل الوريد. وقال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠] فهو القريب بنزوله من العرش إلى السماء الدنيا كما أخبر ﷺ وهو أقرب فإنه معنا أينما كنا، فهو المسمى بالقريب الأقرب فهو أقرب إلينا منا لأن حبل الوريد منا والحبل والوصل فهو أوصل، فإنه ما كان الوصل إلا به فبه نسمع ونبصر ونقوم ونقعد ونشاء ونحكم، وهذه الأحكام ليست لحبل الوريد فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، فإن غاية حبل الوريد منا الذي جاء له ما للعروق من الحكم في أنها مجرى الحياة وسكك الدماء. ثم إنه تعالى شرع القرب فينا لكوننا مخلوقين على صورته فأنزلنا منزلة الأمثال والمثلان ضدان والضد في غاية البعد ممن يضاده مع كونه في غاية القرب للاشتراك في الصفات الذاتية النفسية، فلما تحقق العبد بالتعريف الإلهي هذا البعد عن الله شرع له تعالى طرق القربة إليه إلى أن كان مع هذا البعد سمعه وبصره وجميع قواه بفعله ما شرع له أن يفعل فهو لذله وافتقاره ضد. وهو بالصورة لكونه مثلاً ضد، فصح بالذلة والافتقار إضافة الفعل إليه فيما شرع له، فتقرب إليه بما نسب إليه من الفعل، فقرب القرب الذي أخبر الحق أنه جميع قواه وأعضائه بهويته وأقرب من هذا فلا يكون، فإنه أثبت عين العبد بإعادة الضمير عليه من قوله: «**سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسَانَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ**» وأثبت أنه ما هو هو، فإنه ليس هو هو إلا بقواه فإنها من حده الذاتي كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فالصورة والمعنى معاً له تعالى فلك الكل إذ كان عين الكل، فما في الكون إلا هو سبحانه وتعالى عنه في منازل أسمائه الحسنى لأنه ما ثم عمن تسبحه وتنزهه إلا عنه: [مجزوء الرمل]

فـلـه الـقُـرْبَـةُ والـقُـرْبْ ولـه الـجُـنَّـةُ والـقَـلْـبْ
ولـه مـا نـحـن فـيـه فـلـه الـظـاهـرُ والـقَـلْـبْ
يـقـلـب الأمـر إلـيـه حـالـة الـراحـة والـكَـرْبْ

غَضَبُ الحَقِّ كُرُوبي ... وبها السُّرُورُ فاعْجَبْ
فاجْتَهِدْ إن كنت تَبْغي ... سورة العبد المُقَرّبْ
فإذا فرغت فانْصَبْ ... وإلى ربك فارْغَبْ
هذه آية مَنْ في ... حُكْمِهِ بي يَتَقَلَّبْ
فإذا زلنا فأمْرٌ ... واحدٌ ما فيه مَذْهَبْ
فبه يَحْيَى وُجُودي ... وبه نَلْهُو ونَلْعَبْ
وبه نَأكُلُ خُبْزاً ... وبه والله نَشْرَبْ
فَرَحاً بكَوْنِ عَيْني ... عَيْنَهُ فمن تقرّبْ
وإلى من كان قُرْبي ... وهو عينُ كل مَطْلَبْ
فإذا ما جئت منه ... فإليه لا تشغبْ
فهو الطالبُ حَقّاً ... وأنا فلست أكْذِبْ
إنني أطمعُ فاعْلَمْ ... في الذي عندي مِنَ أشْعَبْ

ولما شرع الله القرب ما شرعها إلا من هذه الحضرة، وسبب وجود الشرع الدعوى، فعمت الشريعة المدعي وغير المدعي، وكل واحد يحشر يوم القيامة على نيته ويختص بنحلته وملته، والقرب كلها عند العاقل العالم تعب لا راحة فيها تعمّ إلا من رزقه الله شهود العامل، ولا بد من تعب القابل الحامل فهو وإن كانت الأمور ترجع إلى الله تعالى فإن العبد ولا بد محل ظهورها وهو الذي ترجع إليه آلامها فهو المحس لها: [مجزوء الخفيف]

حَضْرَةُ القُرْبِ والقُرَبْ ... حَضْرَةٌ كلّها نَصَبْ
فأمُورُ الوَرَى بها ... إن تأمّلْتَها نَشَبْ
كلما قلتُ قد كفى ... قال لا تَفْعَل انْتَصِبْ
أنت أخطأتَ في الذي ... قُلْتَهُ فيه لم تُصِبْ
هكذا الأمْرُ دائماً ... يقتضيه حكمُ النَّسَبْ
فاهْجُر أنْ شئتَ أو فَصِـ ... ـلْهُ فلا بُدَّ من سَبَبْ
فعن الكَدِّ لا تَنِي ... إذ عن الشوق لم تَغِبْ
هكذا جاء في الذي ... قد قرأنا من الكُتُبْ

المعطي * حضرة العطاء والإعطاء

[نظم: البسيط]

عينُ العطاء كَشْفُ الغطاء ... وفي الغطاء عَيْنُ الهِبَاتِ
فإنها تعالَتْ وجَلَّتْ ... عن أن تجيءَ بالمُحْدَثاتِ
فما حديثي غير حُدُوثي ... وما صِفَاتي غير سمَاتي
فإن تكن تُريدُ انتقالي ... عني فذاك عينُ سُبَاتي

وفي مقامي عين قصوري — وفي مسيري عين التفاتي
فالحمد للإله الذي — لم يزل يمدني بثباتي
حتى يكون فرداً وحيداً — في ذاته وفي الكلمات
فإنه إليه رجوعي — من بعد فرقتي وشتاتي
فمن يرد كوني إليه — فذاك من أجل ثقاتي
ومن يرد كوني إلينا — فذاك من أجل عداتي
وإن تشأ عكست مقالي — فالعيش كله في مماتي
وإنه مرادي وقولي — وفيه رغبتي وحياتي
فمن يكون من أصدقائي — فإنما يريد وفاتي
فإن فيه جمعي بربي — وبالذي له من عداتِ
وهو المحب سراً وجهراً — وهو الصديق لي والمواتِ

يدعى صاحبها عبد المعطي، والعبد آخذ والعبد معطي الصدقة وهي تقع بيد الرحمن في حال العطاء فالله آخذ فهو الآخذ كما هو المعطي ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]لأنها أعطته بحقيقتها وقبولها التمكن من الأخذ بناصيتها إذلالاً لأنه عبد، وكل من أخذ بناصيته فإنه ذليل والكل عبيد الله تعالى، فالكل أذلاء بالذات وهو العزيز الحكيم:
[مجزوء الخفيف]

فله الجود والكرم — والسخاء الذي يعم
وله الوهب منعماً — للذي تطلب الهمم
ليس يدري ما حكمُ لا — إنما حكمه نعم
والوجود الذي له — عندنا كله نِعَم
إن بإنعام عبرةً — في الذي قاله فتم
فانظروا في الذي بدا — وانظروا في الذي حكم
هو قولي في حكم لا — ليس يدري لمن فهم
فخذوه مبيناً — وأنا لو رأيت ثم
لا تقل عندما ترى — إنه جار أو ظلم
جلَّ عن مثل ذا وذا — فاكتم الأمر يكتتم

والعطاء منه واجب ومنه امتنان، فإعطاء الحق العالم الوجود امتنان، وإعطاء كل موجود من العالم خلقه واجب وهو قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ يعني في نفس الأمر ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] بين بالتعريف أنه أعطى كل شيء خلقه، والجود والإنعام والكرم الذاتي أوجب هذا العطاء عليه لما قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فأوجبها للعالم على نفسه ولكن لا كل العالم بل لعالم مخصوص وهو المنعوت في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام: ٥٤] وفي قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧] وما عدا هؤلاء المنعوتين فإن الله يرحمهم برحمة الامتنان من غير وجود نعت وهي الرحمة التي وسعت كل شيء، وفيها يطمع إبليس مع كونه يعلم أنه من أهل النار الذين هم أهلها فلا يخرج منها بل الله يرحمها ويرحم من فيها بوجه دقيق لا يشعر به إلا جهنم ومن فيها بإنعام يليق بذلك الموطن ومزاج يكون أهله عليه بحيث إنهم لو عرضت عليهم الجنة تألموا بالنظر إليها تألم أهل الجنة لو عرض عليهم دخول النار وتحققوا ذلك، أعوذ بالله من النار ومما يقرب إليها: [الطويل]

فكلّ مكان فيه أهلٌ يَخُصُّهُ ... لهم رحمةٌ فيها نعيمٌ ولَذَّاتُ
وإن كان مكروهاً يعود محبباً ... لمزج لهم فيه سُرورٌ وجَنَّاتُ
فجَنّةُ أهل النار بالنار عينها ... وبالقرّ إعطاء قد أعطتهمُ الذاتُ
فإنّ اسْمَهُ الرحمن في عرشه اسْتَوَى ... فرحمته عَمَّتْ وبالخلق تَقْتَاتُ

فمن هذه الحضرة أوجد العالم وأنزل الشرائع لما تتضمنه من المصالح فهي الخير المحض بما فيها من الأمور المؤلمة المنازعة لما تتعلق به الأغراض النفسية التي خلقها الله بالرحمة خلق الأدوية الكريهة للعلل البغيضة للمزاج الخاص، فالرحمة التي بالقوّة في زمان استعمال الدواء وبالفعل في زمان وجود العافية مما كان يألم منه فاقدها، وهذا كله عطاء إلهي، كلا نمد هؤلاء أصحاب الجنة وهؤلاء أصحاب النار من عطاء ربك فعم الجميع مع اختلاف الذوق ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] أي ممنوعاً، فعم العطاء الكل فعلمنا أن عطاءه عين الرحمة التي سبقت فوسعت كل شيء من مكروه وغيره وغضب وغيره، فما في العالم عين قائمة ولا حال إلا ورحمة الله تشمله وتحيط به وهي محل له ولا ظهور له إلا فيها، فبالرحمن استوى على عرشه وما انقسمت الكلمة إلا من دون العرش من الكرسي فما تحته فإنه موضع القدمين وليس سوى انقسام الكلمة، فظهر الأمر والخلق والنهي والأمر والطاعة والمعصية والجنة والنار كل ذلك عن أصل واحد وهي الرحمة التي هي صفة الرحمن: [منهوك البسيط]

فما اسْتَوَى علينا إلا بِرَحْمَتِهِ ... وما لنا نعيم إلا بنعْمَتِهِ
مَيْدَانُنا عريضٌ في حصر قَبْضَتِهِ ... نَجُولُ فيه حتى نَحْظَى بحُظْوتِهِ

ولما كانت اليد لها العطاء ولها القبض فباليد قبض علينا فنحن في قبضته، واليد محل العطاء والجود. فنحن في محل العطاء لأنا في قبضته: [الوافر]

فلولا الحَضْرُ ما وُجِدَ النعيمُ ... ولا كان الجنانُ ولا الجَحِيمُ
وفي الدارين إنعامٌ لرُحْمَى ... بأهلهما يقوم بهم مقيمُ
وقولُ الله أصدقُ كُلِّ قِيلٍ ... يعرّف أنه البَرُّ الرحيمُ

فالتكوين دائم فالعطاء دائم، فهي حضرة لا يحصرها عدد ولا أمد يقطعها تجري إلى

غير أجل من حيث ذاتها، وإن كان فيها آجال معينة فما تخرج منها فآجالها فيها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الشافي * حضرة الشفاء

[نظم: الكامل]

إن الشفاء إزالةُ الآلام تغنو له الأرواحُ والأجسامُ
هذا هو الحَقُّ الذي قلنا به دَلَّتْ عليه السادةُ الأعلامُ
والشرعُ يَعْضُدُهُ لذا جئنا به وكذلك الألبابُ والأحلامُ

* * *

[نظم: البسيط]

إني عليلٌ ولا شَخْصٌ يُخَبِّرُني عنه تعالى بنا بأنه الشافي
إني سَعَيْتُ وعَيْنُ الحق تحفظُني ولست أدري بها في عين إتلافي
إني وَفَيْتُ له بعهده زَمَناً وما يُعَرِّفُني بأنه الوافي
الحقُّ يُثْبِتُني في كل طائفة حُبّاً ويظهر لي في صورة النافي
لكل شخص من القرآن سُورَتُهُ وسُورتي عندما أتلو لإيلاف

يدعى صاحبها عبد الشافي، يقول الله عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فالشافي مزيل الأمراض ومعطي الأغراض، فإن الأمراض إنما تظهر أعيانها لعدم ما تطلبه الأغراض، فلو زال الغرض لزال الطلب فكان يزول المرض، فحضرة الشفاء هي التي تنيل أصحاب الأغراض أغراضهم ولا بد من الغرض، فإن حيل بين من قام به الغرض وما تعلق به كان المرض، فإن نال ما تعلق به فهو الشفاء له من ذلك المرض والمنيل هو الشافي، وكثيراً رأينا ممن يطلب آلاماً أي أموراً مؤلمة ليزيل بها آلاماً هي عنده أكبر منها وأشد فتهوّن عليه ما هو دونها، وتلك الآلام المطلوبة له هي في حقه شفاء وعافية لإزالة هذه الآلام الشديدة، فما طلب هذه الآلام لكونها آلاماً فإن الألم غير مطلوب لنفسه وإنما طلبه لإزالة ما هو أشد منه في توهمه، ومهما وجد الألم المؤلم ولو كان قرصة برغوث لكان الحكم له في وقت وجوده، ويريد المتبلى به إزالته بلا شك، فما طلبه إذا طلبه إلا بالتوهم المتعلق بإزالة هذا الأشد، فإذا حصل وذهب الأشد كان ذلك الألم المطلوب شديداً في حقه يطلب زواله بعافية أو مزيل لا ألم فيه. وورد في الخبر: «**أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لا شِفَاءَ إلاَّ شِفَاؤُكَ**» وما ثم شفاء إلا شفاؤه فإن الكل خلقه، ولهذا قال الخليل: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فأمرنا الله أن نصلي على محمد ﷺ كما نصلي على إبراهيم لأنه جاء بأمر محتمل أزال هذا الاحتمال إبراهيم عليهما السلام، وقد أمر أن يبين للناس ما نزل إليهم لأن الله ما أنزل ما أنزله إلا هدى أي بياناً ورحمة بما يحصل لهم من العلم من ذلك البيان فقال الخليل: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فنص على الشافي وما ذكر شفاء لغيره، وقال النبي ﷺ في دعائه: «**لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ**» فدخل الاحتمال لما جعل الله في الأدوية من الشفاء وإزالة

الأمراض، فيحتمل أن يريد محمد ﷺ أن كل مزيل لمرض إنما هو شفاء الله الذي أودعه في ذلك المزيل فأثبت الأسباب وردها كلها إلى الله، وهذا كان غرض رسول الله ﷺ مع تقرير الأسباب، لأن العالم ما يعرفون شفاء الله من غير سبب مع اعتقادهم أن الشافي هو الله، ويحتمل لفظ النبي ﷺ إثبات أشفية لكن لا تقوم في الفعل قيام شفاء الله فقال: **«لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ»** والأوّل في التأويل أولى بمنصب رسول الله ﷺ، فلما دخل الاحتمال كان البيان من هذا الوجه في خبر إبراهيم الخليل عليه السلام فقيل لنا قولوا في الصلاة على محمد كما صليت على إبراهيم والصلاة من الله الرحمة والشفاء من الرحمة، وقد اقتضى مقام النبي ﷺ أن يبين أن الأشفية التي تكون عند استعمال أسبابها أنها شفاء الله إذ لا يتمكن رفع الأسباب من العالم عادة، وقد ورد أن الله ما خلق داء إلا وخلق له دواء، فأراد الله أن يعطي محمداً ﷺ ما أعطاه إبراهيم خليله مع ما عنده مما ليس عند غيره، هذا أبو بكر رضي الله عنه وهو حسنة من حسنات رسول الله ﷺ يقول الطبيب أمرضني والخليل يقول: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فانظر ما بين القولين تجد قول أبي بكر أحق، وانظر ما بين الأدبين تجد الخليل عليه السلام أكثر أدباً فإن آداب النبوّة لا يبلغها أدب كما قال معلم موسى عليه السلام﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وأراد ربك أن يبلغا أشدهما فهذا لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: [البسيط]

وكُـلّ وَقْـتٍ لـه حـالٌ يُـنَـطِّـقُـهُ ... وكـل حَـالٍ لـه مـعـنـى يُـحَـقِّـقُـهُ

فقول إبراهيم الخليل: **«وإذا مرضت»** نهاية قوله: **«يشفين»** بداية، وقول النبي ﷺ: **«لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ»** نهاية النهاية فهي أتم والإتيان بالأمرين أولى وأعم، فجمع الله الأمرين لمحمد ﷺ في الصلاة عليه كما صليت على إبراهيم الذي أمرنا الله أن نتبع ملته لتقدمه فيها لا لأنه أحق بها من محمد ﷺ، فللزمان حكم في التقدم لا في المرتبة كالخلافة بعد رسول الله ﷺ الذي كان من حكمة الله تعالى أنه أعطاها أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً بحسب أعمارهم، وكل لها أهل في وقت أهلية الذي قبله، ولا بد من ولاية كل واحد منهم وخلع المتأخر لو تقدم لا بد منه حتى بلي من لا بد له عند الله في سابق علمه من الولاية فرتب الله الخلافة ترتيب الزمان للأعمار حتى لا يقع خلع مع الاستحقاق في كل واحد من متقدم ومتأخر، وما علم الصحابة ذلك إلا بالموت، ومع هذا البيان الإلهي فبقي أهل الأهواء في خوضهم يلعبون مع إبانة الصبح لذي عينين بلسان وشفتين نسأل الله العصمة من الأهواء، وهذه كلها أشفية إلهية تزيل من المستعمل لها أمراض التعصب وحمية الجاهلية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفرد الوتر الأحد * حضرة الإفراد

[نظم: المتقارب]

تَـفَـرَّدْتُ بـالـفَـرْدِ فـي نـشـأتـي ... وإنـي بـتَـثْـلـيـثـهـا مُـفْـردُ

ومـا لـي سـبـيـلٌ إلـى غـايـتـي ... وإنـي إلـى غـايـتـي أوْحَـدُ

ورثــتُ مِــنَ أشــيــاخــنــا كــل مــا | يــورثــنــي الــمَــجْــدُ والــسُّــؤدَدُ
وإنـــي إذا كــنـــتـــه لـــم أكـــن | وإنـــي أنـــا ذلـــك الأوْحَـــدُ
وهـــذا الـــذي قـــلـــتـــه إنـــه | عـــن الله ســبــحــانــه أُسْــنِــدُ

يدعى صاحبها عبد الفرد وعبد الوتر وعبد الأحد وأمثال ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**» وأوتر رسول الله ﷺ بواحدة وبثلاث وبالخمس وبالسبع وبالتسع وبإحدى عشرة وكل فرد وتر بالغاًما بلغ، وكل مشفع وتراً أحد، وكل موتر شفعاً وتر وفرد وأحد، ويسمى وتراً لأنه طالب ثأر من الأحد الذي شفع فرديته فإن الحكم للأحد في شفع الفرد ليس للفرد ولا للوتر، فلما انفرد به الأحد طلب الفرد ثأره من الأحد بالوتر فإن الوتر في اللسان بلحنهم هو الدحل وهو طلب الثأر وهو قوله ﷺ في الذي تفوته صلاة العصر في الجماعة: «**كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ**» كَأنَ صلاة الجماعة في العصر طلبت ثأرها من المصلي فذّاً مع تمكنه من الجماعة، وإذا أوتر بواحدة سميت البتيراء لأن من شأن الوتر على حكم الأصل أن يتقدمه الشفع فإذا أوتر بواحدة لم يتقدمها شفع فكانت بتيراء على التصغير، والأبتر هو الذي لا عقب له، وهذه البتيراء ما هي بتيراء لكونها لا عقب لها وإنما هي بتيراء لكونها ليست منتجة ولا نتجت فلها منزلة لم يلد ولم يولد فإذا تقدمها الشفع لم تكن بتيراء لأنها ما ظهرت إلا عن شفع، ولهذا كان رسول الله ﷺ لا يسلم من شفعه إلا في وتر ذلك الشفع فيصله بالشفع ليعلم أنه منه، هذا كله ليتميز من الأحد فإن الأحد لايدخله اشتراك ولا يكون نتيجة عن شفع أصلاً، وإن كان عن شفع فليس بواحد وإنما هو ثلاثة أو خمسة فما فوق ذلك، وتقول في سادس الخمسة أنه واحد لأنه ليس بسادس ستة فقد تميز عن الشفع مما هو منفصل وليس إلا الأحد بخلاف الفرد والوتر. وقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لله تَعَالَى تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِائَةً إلاَّ وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ فَإِنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ**» فأوتر التسعين بالتسعة واستثنى الواحد من المائة ولم يقل مائة إلا وتراً أو فرداً لأن الاشتراك في الفردية والوترية وليس في الأحدية اشتراك ولو قالها هنا لعلم بذكر المائة وذكر التسعة والتسعين أنه أراد الواحد، فلولا قرائن الأحوال ما كان يعرف أنه أراد الواحد للاشتراك الذي في الأفراد والأوتار، فأبان بالواحد بعين اسمه، فقوّة الأحد ليست لسواه وأحدية الكثرة أبداً إنما هي فرد أو وتر لا يصح أن تكون واحداً، وسواء كانت الكثرة شفعاً أو وتراً وإنما أحب الله الوتر لأنه طلب الثأر والله يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧] والحق سبحانه قد نوزع في أحديته بالألوهية، فلما نوزع في ألوهيته جاء بالوتر أي بطالب الثأر ليفنى المنازع وينفرد الحق بالأحدية أحدية الذات لا أحدية الكثرة التي هي أحدية الأسماء، فإن أحدية الأسماء شفع الواحد لأن الله كان من حيث ذاته ولا شيء معه فما شفع أحديته إلا أحدية الخلق فظهر الشفع: [الوافر]

فـمـا فـي الـكَـوْن إلا الـشَّـفْـعُ فـانْـظُـرْ | فــإن الــرَّبَّ بــالــمــربــون كــانــا
فــمــن فَــهِــمَ الــذي قــد قــلــتُ فــيــه | أهــان شــريــكــه والــشــرك هــانــا
لــهــذا الــحــقّ بــعــد الأخــذ فــيــه | يــورثُــه بــرَخــمــتــه جــنَــانــا

بدار النار لم يُخرجهُ منها — وأعطاه بها النُّعمى امْتِنَانَا
فكن فرداً وكن وتراً تَكُنْهُ — ولا تَكُ واحداً فيه عَيَانا
تَحُزْ بالوتر إن فكَّرْتَ فيه — وبالفرد المكانةَ والمكانا
ولا تنظُرْ إلى الأحَدِ المُعَلَّى — فما في الكون من عَيْنٍ سوانا
إذا قال الإلٰهُ لكل شيء — يريد وُجُودَهُ أن كُنْ فكانا
وما كان الذي قد كان منه — سواه فمن رآه فقد رآنا

الرفيق * حضرة الرفق والمرافقة

[نظم: الكامل]

إن الرَّفيقَ هو الذي يسترفقُ — وهو الإمامُ العالمُ المُتَحَقِّقُ
فإذا نطقتَ عن الإلٰه مُتَرْجِماً — ألْقَى على الأسماء ما يَتَحَقَّقُ

* * *

[نظم الوافر]

إذا كان الرَّفيقُ هَوَى الرفيقِ — فلا تَجْنَحْ إلى غير الرَّفِيقِ
تَفُزْ بالسَّبْقِ والتحقيقِ فيه — يبينه له معنى الطَّريقِ
لقد دَقَّتْ إشاراتُ المعاني — إلى قلبي بمعناها الدَّقيقِ
وجَلَّتْ إن تُنَالَ بكل فكر — لأن مجيئها لَمْعُ البُرُوقِ
وقلتُ لصاحبي مهلاً فإني — سأشهدُ حَالَها عند الشُّرُوقِ

يدعى صاحبها عبد الرفيق وهو أخو الصاحب في الدلالة، ولما خير ﷺ عند الموت ما قال ولا سمع منه، إلا الرفيق الأعلى فإنه تعالى كان مرافقه في الدنيا وعلم منه تعالى أنه يريد بطلوع الفجر الرجوع الى عرشه من السماء الدنيا التي نزل إليها في ليل نشأته الطبيعية، فلم يرد ﷺ مفارقة رفيقه فانتقل لانتقاله ورحل لرحلته ولذلك قال ﷺ الرفيق ولم يقل غير ذلك لأن الإنسان خلق في محل الحاجة والعجز فهو يطلب من يرتفق به، فلما وجد الحق نعم الرفيق وعلم أن الارتفاق به على الحقيقة هو الارتفاق الموجود في العالم وإن أضيف إلى غيره فلجهل الذي أضافه فطلب الرفيق الذي بيده جميع الإرفاق فلم يطلب أثراً بعد عين، وهكذا حال كل من أحب لقاء الله إذا لم تكن له درجة مشاهدة الرفيق وهو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] فهو رفيقنا تعالى في كل وجهة نكون فيها غير أنا حجبنا فسمي انفصالنا عن هذا الوجود الحسي بالموت لقاء الله وما هو لقاء وإنما هو شهود الرفيق الذي أخذ الله بأبصارنا عنه فقال: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه: [ ][1]

فتلقاهُ بالكَرَامة — والبشر وبالرِّضى
وبأهْل ومَرْحَبٍ ضاق — عن وسْعِهِ الفضا

(١) النظم مختل.

فلم يعرفه المحجوب رفيقاً حتى لقيه فإذا لقيه عرفه وهو قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧] فاستحيوا منه المؤمنون لما عاملوه به من المخالفة لأوامره تعالى وخاف منه المجرمون فلقوه على كره فكره الله لقاءهم، ومع هذه الكراهة فلا بد من اللقاء للجزاء كان الجزاء ما كان، ولما كان الأنس والرحمة وأخواتهما في الرفيق والمرافقة لذلك اختصت البنوية باسم الرفيق فتقول: فلان رفيق فلان لأنه يغضب لرفيقه وينصره ولا يخذله وينصر الحق ولا يخذله فإنه من شرط البنوة أنه لا يكذب فيعتضد بالبنوي الحق في إظهار الصدق وليس ذلك لغير هذه الطائفة، وإذا لم يكن على مكارم هذه الأخلاق خلع عنه قميص البنوّة وهو قميص نقي سابغ، فمن دنسه أو قلصه عاد ذلك عليه وخلع عنه قميصها فلا يلبسه إلا أهلها.

الباعث * حضرة البعث

[نظم: الخفيف]

حَضْرَةُ البَعْثِ حَضْرَةُ الإِرْسَالِ ... فلها الصِّدْقُ وهو من أخوالي
كما قلت قد أتاني رسولٌ ... منه يَبْغي دون الأنام سؤالي
تُهْتُ عُجْباً به وقلت أنيسي ... أنت والله إن خَطَرْتَ ببالي

* * *

[نظم: البسيط]

إني بعثتُ إلى المحبوب في السَّحَرِ ... بما أتيت به من صادق الخَبَرِ
وقلتُ إن كُنْتَ تدري ما أَفُوهُ به ... من شَاهِدِ الحُبِّ فلتنهضْ على أثري
لما شَهِدْتُكَ يا من لا شَبِيهَ له ... لا فرق عندي بين السَّتْرِ والنَّظَرِ
فالكشفُ ينبيء عن أسرار مُوجِدِهِ ... بما يشاهده في الشمس والقَمَرِ
إن البصائر أغْنَتْني حقائقُها ... عما يشاهد ربّ الكَشْفِ بالبَصَرِ

يدعى صاحبها عبد الباعث. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢] وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٧] وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [المجادلة:٦] فمن هذه الحضرة بعث الرسل وأنزل الكتب وحشر الناس بعد أن أنشرهم، ثم بعث بهم من هذه الحضرة، إلى منازلهم يعمرونها من جنة ونار كل بشاكلة عمله، فيبعثهم ويبعث إليهم، فالبعث لا ينقطع في الدنيا والآخرة والبرزخ غير أن الرسل عرفاء لا تمشي إلا بين الملوك لا بين الرعايا، وإنما تخاطب الرؤساء والعرفاء، فالإرسال من الله إنما أرسلهم من كونه ملكاً إلى النفوس الناطقة من عباده لكونهم مدبرين مدائن هياكلهم ورعاياهم جوارحهم الظاهرة وقواهم الباطنة، فما تجيء رسالة من الملك إلا بلسان من أرسل إليهم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤] فيبعث الله رسله إلى هذه النفوس الناطقة وهي التي تنفذ في الجوارح

ما تنفذ من طاعة ومخالفته ولها قبول الرسالة والإقبال على الرسول والتحفي به أو الإهانة، وقد يكون الرد بحسب ما أعطاها الله من الاستعداد من توفيق أو خذلان، فجعل النفوس ملوكاً على أبدانها وأتاها ما لم يؤت أحداً من العالمين وهو طاعة رعاياها لها، فالجوارح والقوى لا تعصي لها أمراً بوجه من الوجوه، وسائر الملوك الذين رعاياهم غير متصلين بهم قد يعصون أوامر ملوكهم، كما أن من هؤلاء الملوك قد يعصي ما أمره به الملك الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله إليهم وقد يطيع، فتوجيه الرسل وبعث الله إليهم أثبت لهم كونهم ملوكاً، فلما أنزلهم منزلته في الملك علمنا أنه لولا ما ثم مناسبة تقتضيه ما كان هذا، فإذ المناسبة في أصل الخلقة وهي قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فهو ولاه وملكه وجعله خليفة عنه، فمنهم من خرج عليه كفرعون وأمثاله، ومنهم من لم يخرج عليه فما كانت الرسل إلا إلى ولاته، ثم إن هؤلاء الملوك النواب وجهوا أيضاً منهم إليه تعالى إرسالهم يطلبون منه ما يؤيدهم به من تدبير ما ولاهم عليه، فصار الملك ملك الملك لهذا السبب فمنه إليهم ومنهم إليه، فما وجه ولا بعث إرساله إلا إليه، وما قبل الإرسال إلا منه فإنهم من روحه وجدوا، ومن عين كونه كانوا، وهنا أمور وأسرار أعني في خروجهم عليه كما يخرج الولد على والده: والعبد على سيده إذا ملكه يسعى في هلاكه مع إحسانه إليه وبايع على قتله لينفرد هو بالملك، وهذا واقع في رد الأفعال إليهم وليست إلا إلى الله تعالى، وغاية الموفق منهم الاشتراك في الأمر وهو الشرك الخفي، فشرع لهم سبحانه قول: لا حول ولا قوة إلا بالله رحمة بهم، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقنع منه بذلك من كونه حكيماً.

ولما علم أن مثل هذا الشرك يقع منهم والدعوى أمرهم بالاستعانة بالله تقريراً لدعواهم حتى يكون ذلك عن أمره، فأمثالنا يقول مثل هذا كله تعبداً ويثابر عليه بخلاف من لا يعلم، وما قرار الحق لعباده هذا إلا غيرة فيتخذون ذلك عبادة ويقولون إذا رجعوا إليه وكان الملك لله الواحد القهار في موطن الجمع، وسئلوا عن مثل هذا الشرك الخفي يقولون أنت أمرتنا بالاستعانة بك فأنت قررت لنا أن لنا قوّة ننفرد بها وإن كان أصلها منك ولكن ما لها النفوذ إلا بمعونتك فطلبنا القوّة منك فإنك ذو القوة المتين، فيصدقهم الله في كونهم جعلوا القوّة منه التي فيهم وأنهم رأوا فيها القصور لخاصية المحل، فمالها نفوذ الاقتدار الإلهي، إلا بمساعدة الاقتدار الإلهي، فإن العجز والجبن والبخل في الخلق ذاتي لازم في جبلته، وأصل خلقه ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١] فإذا نكر وتشجع فنصرته من المكانة والاكتساب والتخلق بأخلاق الله حيث كان في ذاته روحاً منه فأثرت البقعة كما تؤثر البقعة في الماء بما يوجد من الملوحة والمرارة وغير ذلك من المطاعم والماء من حيث هويته على صفة واحدة من الطيب والطعم، فانظر إلى ما أثرت فيه البقعة كذلك هي الأرواح المنفوخة في الأجسام من أصل مقدس نقي، فإن كان المحل طيب المزاج زاد الروح طيباً، وإن كان غير طيب خبثه وصيره بحكم مزاجه فرسل الله الذين هم خلفاؤه أطهر الناس محلاً فهم المعصومون، فما زادوا الطيب إلا طيباً، وما عداهم من

الخلفاء منهم من يلحق بهم وهم الورثة في الحال والفعل والقول، ومنهم من يختل بعض اختلال وهم العصاة، ومنهم من يكثر منه ذلك الاختلال وهم المنافقون، ومنهم المنازع والمحارب وهم الكفار والمشركون فيبعث الله إليهم الرسل ليعذروا من نفوسهم، إذا عاقبهم بخروجهم عليه واستنادهم إلى غيره الذي أقاموه إلهاً فيهم من أنفسهم وكذبوا عليهم في جعلهم إياهم آلهة والإله لا يكون بالجعل، ولكن ما حملهم على ذلك إلا أصل صحيح وهو أنهم رأوا اختلاف المقالات في الله مع الاجتماع على أحديته وأنه واحد لا إله إلا هو، ثم اختلفوا فيما هو هذا الإله فقال كل صاحب نظر بما أداه إليه نظره فتقرر عنده أن الإله هو الذي له هذا الحكم، وما علم أن ذلك عين جعله فما عبد إلا إلهاً خلقه في نفسه واعتقده سماه اعتقاداً، واختلفوا في ذلك اختلافاً كثيراً، والشيء الواحد لا يختلف في نفسه، فلا بد أن يكون هو في نفسه على إحدى هذه المقالات أو خارجاً عنها كلها.

ولما كان الأمر بهذه المثابة أثر وهان عليهم اتخاذ الأحجار والأشجار والكواكب والحيوانات وأمثال ذلك من المخلوقات آلهة كل طائفة بما غلب عليها. كما فعل أهل المقالات في الله سواء، فمن هذا الأصل كان المدد لهم وهم لا يشعرون، فما ترى أحداً يعبد إلهاً غير مجعول فيخلق الإنسان في نفسه ما يعبده وما يحكم عليه، والله هو الحاكم لا ينضبط للعقل ولا يتحكم له بل له الأمر في خلقه من قبل ومن بعد لا إله إلا هو إله كل شيء ومليكه، وهذا كله من الاسم الباعث فهو الذي بعث إلى بواطنهم رسل الأفكار بما نطقوا به واعتقدوه في الله، كما أنه بعث إلى ظاهرهم الرسل المعروفين بالأنبياء والنبوة والرسالة، فالعاقل من ترك ما عنده في الله تعالى لما جاؤوا به من عند الله في الله، فإن وافقوا ما جاءت به رسل الأفكار إلى بواطنهم كان وشكروا الله على الموافقة، وإن ظهر الخلاف فعليك باتباع رسول الظاهر، وإياك وغائلة رسل الباطن تسعد إن شاء الله، وهذا نصيحة مني إلى كل قابل ذي عقل سليم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الحق * حضرة الاسم الحق

[نظم: البسيط]

الحقُّ بالحقِّ أُفْنِيهِ وأُثْبِتُهُ ... فالحقُّ ما بين إعدام وإثْبَاتِ

لولا الوجودُ ولولا سِرُّ حِكْمَتِهِ ... ما كان يُعْبَدُ في العُزَّى وفي اللَّاتِ

إن الأمُورَ التي بها يُقَيِّدُني ... بها يُسَرِّحُني في الحال والآتي

إن الذي قد مضى إلى مرجعه ... لما لديه مِنَ أمراض وآفات

والله لو عَلِمَتْ نفسي بمن كَلِفَتْ ... ما كنت أفرحُ بالفاني إذا يَاتي

يدعى صاحبها عبد الحق، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] وليس إلا الخلق والضلال الحيرة، وبالخلق ظهر حكم الضلال: [الطويل]

فعَيْنُ وُجُودِ الحقِّ نُورٌ مُحَقَّقٌ ... وعَيْنُ وُجُودِ الخَلْقِ ظِلٌّ له تَبَعُ

فالحق عين الوجود والخلق قيده بالإطلاق، فالخلف قيد مقيد فلا حكم إلا له وبه، والحق الحاكم ولا يحكم إلا بالحق، فحق الحق عين الخلق فأنى تصرفون، والأمر كما قلناه، وما سمي خلقاً إلا بما يخلق منه، فالخلق جديد وفيه حقيقة اختلاق لأنك تنظر إليه من وجه فتقول هو حق، وتنظر إليه من وجه فتقول هو خلق وهو في نفسه لا حق ولا غير حق، فإطلاق الحق عليه والخلق كأنه اختلاف فغلب عليه هذا الحكم فسمي خلقاً وانفرد الحق باسم الحق، إذ كان له وجوب الوجود بنفسه، وكان للخلق وجوب الوجود به لا أقول بغيره فإن الغير ماله عين وإن كان له حكم كالنسب لا عين لها ولها الحكم، فبالحق خلق السماء والأرض، وبالحق أنزل القرآن، وبالحق نزل، وللحق نزل، ففي الخلق تاه الخلق لأنه ليل سلخ منه النهار فإذا هم مظلمون حيارى تائهون ما لهم نور يهتدون به كما جعل الله النجوم لمن يهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر، وهو نظر العامّة والخواص في ظلمات لا يبصرون ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] تارة يقولون: نحن نحن وهو هو، وتارة يقولون: هو نحن ونحن هو، وتارة يقولون: لا نحن نحن مخلصون ولا هو هو مخلص، ثم صدق الله هؤلاء الخواص في حيرتهم بقوله لأخص خلقه علماً ومعرفة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فنفى عين فما أثبت وما نفى فأين العامة من هذا الخطاب؟ فالعلم بالله حيرة والعلم بالخلق حيرة، وقد حجر النظر في ذاته وأطلقه في خلقه، فالهداة في النظر في الخلق لأنه الهادي وقد هدى، والعمى في النظر في الحق فإنه قد حجر وجعله سبيل الردى، وهذا خطاب خاطب به العقلاء ما خاطب به أهل الجمع والوجود، فما نظر قط أهل الخصوص في اكتساب علم به ولا بمعلوم، وإنما جعل لهم أن يهيؤوا محالهم ويطهروا قلوبهم حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده بالفتح فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين لأنهم عاينوا ما وصلوا إليه بالفتح الإلهي والأمر عين ما انفصلوا عنه فما زادهم إلا إيماناً بالحيرة وتسليماً لحكمها، ومن هذه الحضرة أثبت أن الباطل شيء قذف بالحق عليه فدمغه، فإذا الباطل زاهق ولا يزهق إلا ماله عين أو ما تخيل أن له عيناً فلا بدّ له من رتبة وجودية خيالاً كانت أو غير خيال قد اعتنى بها على كل حال، ثم إنه من أعظم الحيرة في الحق أن الحق له الوجود الصرف فله الثبوت وصور التجلي حق بلا شك: [منهوك البسيط]

لكن لها اللقاء فما لها شقاءُ ... ومـا لـهـا ثُبُوتٌ وما لها بقاءُ

ما من صورة ينجلي فيها إلا إذا ذهبت مالها رجوع ولا تكرار، وليس الزهوق سوى عين الذاهب فأين تذهبون؟ فهل في الحق باطل أو ما هو الباطل، وما أذهب الصورة إلا قذف الصورة الأخرى وهي تذهب ذهاب أختها فهي من حيث ورودها حق ومن حيث زهوقها باطل، فهي الدامغة المدموغة فصدق من نفى رؤية الحق فإن الحق لا يذهب، فإنه إن كانت الصور صورنا فما رأينا إلا أنفسنا ونحن ليس بباطل وقد زهقنا بنا فنحن الحق لأن الله بنا قذف علينا، فما أتى علينا إلا منا، فالله بالحق قاذف والعبد للحكم الإلهي واقف: [المجتث]

فالعَيْنُ مِنّي ومِنْهُ   لها البقا والثُّبُوتْ
مَن ذا الذي منه يَحْيَى   أو من هو منه يُميتْ
ومنه مِنِّيَ يَحْيَى   أو منه مِنِّي يَمُوتْ
قد جِزتُ فيه وفينا   فنحن خُرْسٌ صُمُوتْ
لا تَدَّعي فيه دَعْوى   فإنه ما يَفُوتْ
أصبحتُ لله قُوتاً   وإنه لِيَ قُوتْ
فالأمْرُ دَوْرٌ وهذا   علمي به ما بَقِيتْ

فلا تعتمد على من له الزهوق فإنه ما يحصل بيدك منه شيء ولا تعتمد إلا عليك فإن مرجعك إليك وإلى الله ترجعون كما ترجع الأمور، فمن هنا قال من قال من رجال الله أنا الله فاعذروه فإن الإنسان بحكم ما تجلى له ما هو بحكم عينه وما تجلى له غير عينه فسلم واستسلم فلأمر كما شرحته، وعلى الله قصد السبيل ولو شاء لهداكم أجمعين.

الوكيل * حضرة الوكالة

[نظم: الوافر]

وَكِيلي من يقولُ أنا الوَكيلُ   ويدري أنني عنه أقُولُ
ولو أني أشاهده بقَلْبي   لما كان الطلوعُ ولا الأفُولُ
ولكني أشاهدُه بعَيْني   لذا وَقَعَ التَّحَيُّرُ والذُّهُولُ

يدعى صاحبها عبد الوكيل، بهذا الاسم الإلهي ثبت الملك والملك للخلق، فإنا ما وكلناه إلا في التصرّف في أمورنا فيما هو لنا لعلمنا بكمال علمه فينا فإنه يعلم منا ما لا نعلمه من نفوسنا، وما أعطاه العلم بنا سوانا في حال ثبوتنا، فنحن العلماء الجاهلون وهو العليم الذي لا يجهل، ولهذا هو الحليم الذي لا يعجل فيمهل ولا يهمل ونحن نعجل، وهو يعلم منا أنا نعجل وما نعجل وإنما هو انتهاء مدّة الأجل، فالأجل منه قصير المدّة ومنه طويلها، فكل يجري إلى أجل مسمى إلى ما لا يتناهى جرياناً دائماً لا ينقضي، فالحق كل يوم في شأن ونحن في خلق جديد بين وجود وانقضاء، فأحوال تتجدد على عين لا نبعد بأحكام لا تنفد وهي كلمات الله وخلقه، ولا تبديل لكلمات الله ولا تبديل لخلق الله، وإنما التبديل لله فنحن كلماته وخلقه، فهذا الوكيل الحق قد أعلمنا بتصرفه فينا أنه ما زاد شيئاً على ما أعطيناه منا لأن الوكيل بحكم موكله فلا يتصرّف إلا فيما أذن له، فللوكيل الحجة البالغة فإنه لا يزيد على الحد المفوض إليه وما ثم ما يقبل الزيادة، فإن قلت للوكيل: لم فعلت كذا؟ كشف لك عنك فرأيت أنك جعلته أن يفعل ما أنكرت عليه فعله، وكشف لك عن إنكارك، فلا بد لك من الإنكار عليه فعذرك وعذرته: [مجزوء الرجز]

فلا تَلُمْ وَكِيلاً   ولُمْ مُوَكِّلَهْ
فإنما وُجُودي   به ونحن لَهْ

ولا تَـلُـمْـهُ أيـضـاً فـالـعَـيْـنُ مُـجَـمِّـلَـهْ
وكُـلَّـمَـا بـدا لـي فـالـكـون فَـصَّـلَـهْ
يـعـلـمُ ذا إلٰـهـي عـلـيّ فَـضَّـلَـهْ

من يطع الرسول فقد أطاع الله لأن الله وكله على عباده، فأمر ونهى وتصرّف بما أراه الله الذي وكله، ونحن وكلناه تعالى عن أمره وتحضيضه، فأمره قوله فاتخذ وكيلاً وتحضيضه أن لا يتخذوا من دوني وكيلاً، فالرسول وكيل الوكيل، وهو من جملة من وكل الحق عن أمره تعالى فهو منا وهو الوكيل من الوكيل علينا، فوجب على الموكل طاعة الوكيل لأنه ما أطاع إلا نفسه فإنه ما تصرّف فيه إلا به كما قرّرناه، فرتبة الوكالة رتبة إلهية سرت في الكون سريان الحياة، فكما أنه ما في الكون إلا حيّ فما في الكون إلا وكيل موكل، فمن لم يوكل الحق بلفظه وكله الحال منه وتقوم الحجة عليه، وإن وكله بلفظه فالحجة أيضاً عليه لأن الوكيل ما تصرّف في غير ما فوّض إليه موكله، وجعل له أن يوكل من شاء، فوكل الرسل في التبليغ عنه إلى الموكلين أنه من المصالح التي رأينا لكم أن تفعلوا كذا وتنتهوا عن كذا، فإن ذلكم لكم فيه السعادة والفوز من العطب، فمن تصرّف من الموكلين عن أمر وكيل الوكيل فقد سعد ونجا وحاز الخير بكلتا يديه وملأهما خيراً ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فلا تتهموا وكيلاً ولا تتخذوا إلى تجريحه سبيلاً وقفوا عند حدّه وأوفوا له بعهده، وهذه حضرة التسليم والتفويض، وأنت الجناح المهيض، فإنه خلقك على صورته ثم كسرك بما شرع لك فصرت مأموراً منهياً، ثم جبرك من هذا الكسر بما سلب عنك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ثم كسرك بالجزاء لأنه ما عمل معك إلا ما علم وما علم إلا منك، وليس المهيض سوى هذا فإنه المكسور بعد جبر والجبر لا يرد إلا على كسر، فالأصل عدم الكسر وهو الصحة وليست إلا الصورة، فاعلم ما نبهتك عليه واسأل به خبيراً فلا علم إلا عن ذوق: [البسيط]

لا يَـعْـرِفُ الـشَّـوْقَ إلا مـن يُـكَـابِـدُهُ ولا الـصَّـبـابَـةَ إلا مـن يُـعَـانِـيـهـا

وهذا القدر من هذه الحضرة كاف لمن استعمله، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

القوي * حضرة القوّة

[نظم: الوافر]

إذا كـان الـقَـوِيُّ يَـشُـدُّ رُكْـنـي فـلـسـت أُبَـالـي مـن ضَـعْـفٍ يَـكُـونْ
إذا عَـسُـرَتْ عـلـيَّ أمـورُ كَـوْنـي فـمـن تَـيْـسِـيـره أبـداً تَـهُـونْ
أنـا الـعَـبْـدُ الـمـطـاعُ بـكـل وَجْـهٍ إذا مـا شـئـتـه وأنـا الـمـكـيـنْ
وإنـي واحـدٌ فَـرْدٌ تـريـه وإنـي عـنـده الـرُّوحُ الأَمِـيـنْ
أبـانـت لـي مـشـيـئـتُـه تـعـالـى مـشـائـي والـتـي لـي مـا تـبـيـنْ

هذه الحضرة ممتزجة يدعى صاحبها عبد القوي، وصف نفسه تعالى بأنه ذو القوّة وهذا

فيه إجمال فإنه اسم حميري أي صاحب القوّة أي قوّة القوّة التي فينا ونجدها من نفوسنا كما نجد الضعف وهي قوّة مجعولة لأنه قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] وما خلقنا إلا عليه، كما سخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، فما أنشأ العالم إلا منه وعليه إن فهمت، ثم جعل من بعد ضعف قوّة لما نقلنا من حال الطفولة إلى حال الشباب، ثم جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة رجوعاً إلى الأصل فسمي هرماً والشيب للشيخوخة، فهل هو الضعف الأوّل الذي خلقنا منه وأين القوّة هناك؟ فالمدبر الأوّل هو المدبر الآخر وهو الأوّل والآخر والوسط محل الدعوى الواقعة منه في الظاهر والباطن إلا من وفقه الله للنظر في أوّل نشأته ورجوعه إليها وما وجدنا للقوّة ذكراً في الأوّل ولا في الآخر، فرأينا أن ننظر في معنى هذا الضعف الذي خلقنا منه فوجدناه عدم الاستقلال بالإيجاد إن لم تكن منا الإعانة بالقبول لأجل الإمكان، فإن المحال غير قابل للتكوين. ولما كانت الإعانة بالقبول والاستعداد علمنا أن الاقتدار غير مستبد، وليس الضعف هنا سوى عدم هذا الاستبداد فشرع لنا ما هو شرع له أن نستعين به في الاقتدار كما استعان بنا في القبول منا لنعلم أن الضعف ليس إلا هذا، ثم جعل لنا قوّة غير مستقلة، فالقوّة على الحقيقة ما يظهر لها عين إلا بالمجموع فهو ذو القوّة لأنه الواجب الوجود لنفسه، ونحن الواجبون به لا بأنفسنا، فهو وإن خلقنا من ضعف فإنه جعل فينا قوّة لولاها ما كلفنا بالعمل والترك لأن الترك مع النفس من التصرف في هواها وبهذا عمت القوّة العمل والترك: [مخلع البسيط]

فنحن فيها على السَّواءِ ... بلا افتراءٍ ولا مِراءِ
لكنه الأصلُ في وجودي ... وما له فيه من بَقاءِ
لأنه بالشؤون يَفْنَى ... فهو على مَنْهَجِ الفَنَاءِ

ولما جعل الله الشيب نوراً بالقوّة هنا وبالفعل في الآخرة، وقرن الشيبة بالضعف الذي رجعنا إليه ليرينا بذلك النور الشيبي أن ذلك الضعف ما هو ضعف ثان من أجل ما نكره كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] ثم ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦] يعني يسراً آخر فرجعنا إلى الضعف الأوّل على عين الطريق الذي منه خرجنا، ألا تراه سبحانه يقول: ﴿أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] وقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾ فوصفنا بأنا نرد وهو الرجوع إلى الضعف الأوّل ﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وأرذل العمر ما لا يحصل لنا فيه علم فقال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠] فإما أن يكون منع الزيادة، وإما أن يكون اتصف بعدم العلم في حال الهرم لشغله بما هو عليه من الضعف المفرط، فإن الدنيا بالإنسان حامل والهرم شهر ولادتها فتقذفه من بطنها إلى البرزخ وهو المنزل الأوّل من منازل الآخرة، فيتربى فيه كما يتربى المولود إلى يوم البعث وهو حد الأربعين حد الزمان الذي تبعث فيه الرسل الذين هم أكمل العالم علماً بالأمور الإلهية، فيحوزون القوّة في دار الكرامة التي لا ضعف يعقبها فيتكوّن عنهم حساً ما يتكوّن هنا في خيالهم معنى، وقد يكون في متعلق خاص حساً قدرة عليه كمن يريد أن يقوم فيقوم ويريد أن يكتب فيكتب، وأما ما لا قدرة له ولا قوّة له عليه أن

يكون منه في الحس عليه فإنه يقوى على إيجاده خيالاً في نفسه فذلك عينه يكون له في الآخرة حساً محسوساً، وإن كان في قضية العقل محالاً فما استحال وجوده في الخيال، كذلك لا يستحيل وقوعه حساً لأن الخيال على الحقيقة إنما هو حضرة من حضرات الحس، ولهذا يلحق المعاني بالمحسوسات في الصورة فيتخيل المحال محسوساً فيكون في الآخرة أو حيث أراد الله محسوساً، ولهذا كان في الآخرة لا في الأولى، فإن الخيال في الدرجة الأخيرة من الحس فإنه عن الحس يأخذ ما يكسوه من الصور للمحال وغيره، فلهذا حيث كان لا يكون إلا في الآخرة فتنبه.

وأي قويّ أعظم قوّة ممن يلحق المحال الوجود بالوجود المحسوس حتى تراه الأبصار كوجود الجسم في مكانين، فكما نتخيله هنا كذلك يقع في الآخرة حساً سواء، وما عندنا في العلم أهون من إلحاق المحال بالممكن في الوجود، ولا أصعب من إلحاق الممكن بالمحال، وهو عدم وقوع خلاف المعلوم مع إمكانه في نفسه، فهذا إلحاق الممكن بالمحال، فنقول في الذي كنا نقول فيه ممكن عقلاً محال عقلاً فتداخلت الرتب فلحق المحال بالممكن أي برتبته، ولحق الممكن برتبة المحال، وسبب ذلك تداخل الخلق في الحق والحق في الخلق بالتجلي والأسماء الإلهية والكونية، فالأمر حق بوجه خلق بوجه كل كون كون منه، فالحضرة الإلهية جامعة لحكم الحق في الخلق والخلق في الحق، ولولا ذلك ما اتصف الحق بأن العبد يغضبه ويسخطه فيغضب الحق ويسخط ويرضيه فيرضى. وأما كون الحق يسخط العبد ويغضبه ويرضيه فالعامة تعرف هذا، وهذا من علم التوالج والتداخل، فلولا وجود حكم القوّة ما كان هذا فإن الضعف مانع قوي، فانظر حكم القوة كيف سرى في الضعف حتى تقول في الضعيف إذا قوي عليه الضعف بحيث لا يستطيع الحركة فتنسب القوّة للضعف فوصفته بضده، فمن هنا تعرف قول أبي سعيد الخرّاز لما قيل له: بماذا عرفت الله؟ قال: بجمعه بين الضدين، ثم تلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فبالقوّة تقوى الضعف وبالأقوى ضعفت القوّة، وهذا الفرق بين الأقوى والقوي كالأقرب والقريب، فكل أقرب قريب وما كل قريب أقرب، وكل أقوى قوي وما كل قوي أقوى وقد ذكرنا في هذه الحضرة ما فيه غنية وكفاية، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المتين * حضرة المتانة

[نظم: المجتث]

إنْ قُلْتُ قَوْلاً صحيحاً — أنا القويُّ المَتينُ
أو كان غير صحيحٍ — أنا الضَّعِيفُ المَهِينُ

وأيضاً: [البسيط]

إن المتانة حالٌ ليس يَدْريها — إلا الذي هام وَجْداً في معانيها
وقوّةُ الله أبدتها لناظرنا — وحكمها أبداً فيمن يُعَانيها

إذا أشــدُّ بــهــا رُكْـنـي تـكـون لـنـا ... أُولَـى وإن كـان عـيـنـي فـهـو ثـانـيـهـا
إن الـمَـطَـالِـعَ قـد لاحـتْ أَهِـلَّـتُـهَـا ... لـلـنـاظـريـن إلـيـهـا فـي مـبـانـيـهـا

يدعى صاحبها عبد المتين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] فرفع على الصفة لقوله ذو وهو والمتين هو الذي لا يتزلزل عما يجب له الثبوت فيه لتمكنه وثقله، فنبه على العين أنها بهذه الصفة من المتانة لئلا يتخيل متخيل أو يقول قائل: إن الصور لما تبدلت في التجلي واختلفت والأسماء الإلهية لما كثرت وتنوّعت ودل كل اسم على معنى لا يكون لغيره، وأعطت كل صورة أمراً لم تعطه الصورة الأخرى أن العين والمسمى تبدل لهذا التبدل فأخبر أنه من المتانة بحيث أن الأمر على ماقرّر وشوهد من التحول والتبدل والعين ثابتة في مكانتها لا تقبل التغيير، وأعظم ما يظهر حكم هذا في العقائد في الله لأن الإله الذي اعتقد بالدليل النظري إذا جاءت الشبهة لصاحب هذا الاعتقاد النظري أزالته، فلو كانت المتانة من صفات الإله الذي جعله المعتقد في نفسه ما أثرت فيه الشبهة الواردة فأخلت المحل عنه وعاد يبحث على إله آخر يجعله فيه، فليست المتانة إلا للإله القوي الحق الذي يجد في نفسه هذا الطالب الاستناد إليه ولا يدري ما هو ولمتانته لا يقوى الناظر أن ينقله إلى محل اعتقاده فمتانته حجابه فلا يعرف، والحق الذي وسعه قلب العبد هو الذي يقبل آثار الشبه فيه، فقد علمت لماذا تسمى بالمتين وهو علم غريب، فبالمتانة كان الاستناد فاستند إليه كل ممكن يطلب الترجيح والعلم بهذا المستند عين نفي العلم به على علم بأنه لا يعلم لا بد من ذلك كما قال الصديق: العجز عن درك الإدراك، إدراك، وهذا أعلى ما يوصل إليه في العلم بالله المتين، فإن للمتانة درجات فقصدنا أتمها وأعلاها، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

النصير * حضرة النصر

[نظم: مخلع البسيط]

حَـضْـرَةُ الـنَّـصْـرِ حـضـرةٌ ... لـلـذي قـد بُـغِـي عَـلَـيْـهْ
فـهـو لله وَحْـدَهُ ... مـا لـه غـيـر مـا لَـدَيْـهْ

وأيضاً: [البسيط]

إنّ الـولـيَّ الـذي إذا تـولاّهُ ... عَـبْـدٌ تـولاّه ربٌّ حـيـن وَلاّهُ
إن الـولـيَّ اسـم مـفـعـول يـكـون لـه ... مـن لـفـظـه فـاعـلٌ إذا تـولاّهُ
لـولاه مـا ثـبـتـتْ فـيـنـا قـواعـدُهُ ... ولا رَسَـتْ رغـبـةٌ لـولاه لـولاهُ
أمـلـى عـلـى الـذي يـتـلـوه مـن سُـوَرٍ ... عـلـى مـسـامـع كـونـي حـيـن أمْـلاهُ
بـالـقَـلْـب سَـطَّـرَهُ ربـي لـنـحـفَـظَـه ... بـه بـلانـي إلـهـي حـيـن أبْـلاهُ

يدعى صاحبها عبد الوليّ والوليّ الناصر، وإن شئت قلت عبد الناصر. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وهو نور العيان وهو عين اليقين، وأقام تعالى عذراً لما نبه بقوله في تمام الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾ [البقرة:

٢٥٧] وما أفرد الطاغوت لأن الأهواء مختلفة، وأفرد نفسه لأنه واحد يخرجونهم من النور إلى الظلمات فنصر هؤلاء الأولياء لهم حيث لا يتركونهم يدخلون الجنة لما لهم فيها من الضرر لأنهم على مزاج يتضرّر بالاعتدال كما تضرّ رياح الورد بالجعل فهم ينصرون أصحابهم، وليس إلا أهل النار الذين هم أهلها أخبر ﷺ فقال: «**إنَّ وَلِيِّيَ الله الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ**» لأن فيه الله ولي الذين آمنوا وهو من المؤمنين وهو يتولى الصالحين، ولهذا القطع كان الصلاح مطلوباً لكل نبي مكمل، وشهد الله به لمن شاء من عباده على التعيين تشريفاً له بذلك كعيسى ويحيى عليهما السلام. وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وليس المؤمن إلا من لم يدخل إيمانه بأمر ما خلل يقدح في إيمانه، والمؤمنون في كلام الله نوعان وهم الكافرون، فنوع آمن بالله وكفر بالطاغوت وهو الباطل فهم أهل الجنة المعبر عنهم بالسعداء، والنوع الآخر آمن بالباطل وكفر بالله وهو الحق فهم أهل النار المعبر عنهم بالأشقياء، فقال عز وجل في حق السعداء: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهؤلاء هم الذين حق على الله نصرهم، والألف واللام للعهد والتعريف. وقال تعالى في حق الأشقياء: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] فإذا جعلت الألف واللام في نصر المؤمنين للجنس فمن اتصف بالإيمان فهو منصور، ومن هنا يظهر المؤمنون بالباطل في أوقات على الكافرين بالطاغوت فيجعلون ذلك الظهور نصراً لأن النصر عبارة عمن ظهر على خصمه، فمن جعل الألف واللام للجنس جعل إيمان أهل الباطل بالباطل أقوى من إيمان أهل الحق بالحق، فالمؤمن من لا يولي الدبر ويتقدم ويثبت حتى يظفر أو يقتل، ولهذا ما انهزم نبي قط لقوة إيمانه بالحق، وقد توعد الله المؤمن إذا ولى دبره في القتال لغير قتال أو انحياز إلى فئة تعضده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦] فخاطب أهل الإيمان، وبقرائن الأحوال علمنا أنه تعالى أراد المؤمنين بالحق وأرسل الآية في اللفظ دون تقييد بمن وقع الإيمان به، لكن قرائن الأحوال تخصص وتعطي العلم بالمقصود من ذلك، غير أن الحق ما أرسلها مطلقة إلا ليقيم الحجة على الذين آمنوا بالباطل إذا هزمهم الكافرون بالطاغوت لما دخلهم من الخلل في إيمانهم بالباطل، فهو عندنا ليس بنصر ذلك الظهور الذي للمؤمنين بالباطل على الكافرين بالطاغوت، وإنما المؤمنون بالحق لما تراءى الجمعان كان في إيمانهم خلل فأثر فيه الجبن الطبيعي فزلزل أقدامهم فانهزموا في حال حجاب عن إيمانهم بالحق. ولا شك أن الخصم إذا رأى خصمه انهزم أمامه وفر وأخلى له مكانه لا بد أن يظهر عليه ويتبعه، فإن شئت سميت ذلك نصراً من الله لهم، فما انتصروا على المؤمنين بالحق، وانما انتصروا على وجه الخلل الذي دخل في إيمانهم واستتر عنهم بالخوف الطبيعي فكانوا كفاراً من ذلك الوجه، فكان نصرهم نصر الكفار بعضهم على بعض وهم المؤمنون بالباطل، لأن هؤلاء المؤمنين بالحق آمنوا بما خوفهم به الطبع من القتل

وهو باطل، فآمنوا بالباطل لخوفهم من الموت، والشهيد ليس بميت فإنه حي يرزق، فلما آمنوا به أنه موت آمنوا بالباطل فهزم أهل الباطل أهل الباطل وهذا يسمى ظهوراً لا نصراً، إلا إذا جعلت الألف واللام للجنس فتشمل كل مؤمن بأمر ما من غير تعيين، فهذه حكمة تسمية الله أهل الباطل مؤمنين وأهل الحق كافرين، فلا تغفل يا ولي عن هذه الدقيقة فإنها حقيقة وهي المؤثرة في أهل النار الذين هم أهلها في المآل إلى الرحمة لأن المشرك آمن بوجود الحق لا بتوحيده، ووجود الحق حق فهو بوجه ممن آمن بالحق فما تخلص له الإيمان بالباطل إذ آمن بالشريك فتقسم إيمانه فلم يقو قوة إيمان بالحق من حيث أحديته في ألوهته، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٦] ولم يقل بتوحيد الله إلا وهم مشركون لكنه جلي وخفي، فالمؤمن بتوحيد الله مؤمن بوجود الله، وما كل مؤمن بوجود الله يكون مؤمناً بتوحيد الله فينقص عن درجته في قوة الإيمان، فإن استناد الإيمان من المؤمن بالباطل إلى عدم ولهذا يرجع عنه عند الكشف، والمؤمن بتوحيد الحق يرجع إلى أمر وجودي يستند إليه فيعضده فلا يرجع عنه، فالمؤمن بالباطل أعان على نفسه المؤمن بالحق من حيث الأحدية وهو قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٧] فقد تبرؤوا في موطن ما فيه تكليف بالبراءة أنها نافعة صاحبها والكافر لا مولى له ولهذا انهزم أمام خصمه، فإنه استترت عنه حياة الشهيد في سبيل الله فآمن بالموت وهو الباطل وكفر بالحياة وهي الحق، وفي هذا تذكرة لأولي الألباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء السابع من الفتوحات المكية، ويليه الجزء الثامن أوله:

الحميد حضرة الحمد

فهرس محتويات

الجزء السابع

من الفتوحات المكية

فهرس المحتويات